

نزار يوسف

هوية الفكر العربي المعاصر وما قبل

I D card

بطاقة شخصية

الاسم : الفكر العربي

الجنس : !!!!!!

اللون : ???????

الوضع الحالي : ???????

ملامح شخصية : ???????



دراسة و بحث

نزار يوسف

هوية الفكر العربي المعاصر وما قبل (دراسة وبحث)

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مؤلفة وزارة الإعلام السورية
رقم ١١٠٤٠٦١ / تاريخ ٢٠١٢/٨/٢٨

نظراً للتحويل إلى صيغة (pdf) فقد تغيرت بعض مواضع الفواصل و النقاط إلى بداية الأسطر ، بطريقة خارجة عن الإرادة .. فعذراً .



صورة معبرة من الأنترنت



قرار بعدم قبولي لعضوية اتحاد الكتاب العرب رقم / ٣٦ / تاريخ ٢٠٠٧/٢/٢٤ ،
أصدره رئيسه . و السبب !!!... الله العليم .

في ليلة يحتفل فيها أحر المطربين ببلوغه عتبة المليار .. و
يُحرق فيها أحر المراكز الثقافية لقاءً اثنين من الروالار ..
لحريّ أن يُرفع فيها علم إسرائيل فوق أي اعتبار . (نزار يوسف)

إذًا كان القانون لا يحمي المغفلين .. فإن التاريخ لا يرحمهم . (نزار يوسف)

مدونة الكاتب في موقع إيلاف على الرابط nizar.elaphblog.com

صفحة الكاتب على الفيسبوك www.facebook.com/nizary3

المحتوى

مقدمة / ٨ .

الفكر المتوسطي القويم / ٢٥ .

الفكر العربي الجاهلي / ٨٧ .

قرلة نظرية للعصر الجاهلي / ١٠٢ .

آثار تفاعل البيئة مع الفكر في الجاهلية / ١١١ .

الفكر الديني في الجاهلية / ١٢٦ .

للأساطير و المعتقدات في الجاهلية / ١٤١ .

للأولاب و الأخلاق في الجاهلية / ١٦٠ .

الجاهلية .. خلاصة نظرية / ١٦٩ .

الفكر العربي في صدر الإسلام و بنو العباس / ١٨٣ .

الفترة النبوية / ١٨٥ .

قرلة نظرية للفترة النبوية / ١٨٨ .

فترة الخلفاء الراشرون / ٢١٠ .

قرلة نظرية للعصر الراشدي / ٢١٤ .

قرلة نظرية لشورة أبي فر الغفاري / ٢٤٢ .

خلفنة الإمام علي بن أبي طالب / ٢٥٨ .

قرلة نظرية للعصر الأموي / ٢٦٨ .

قرلة نظرية للعصر العباسي / ٢٨٢ .

إشكالية الإسلام السياسي (نقطة نظام) / ٢٩٥ .

الفكر العربي الرخيل / ٢٩٨ .

الفكر العربي (التأسيسي) / ٣٠٥ .

- الحملة الفرنسية على مصر / ٣٠٩ .
- فترة محمد علي باشا / ٣٢٢ .
- قراءة نقدية لعصر محمد علي / ٣٤١ .
- فترة ما بعد محمد علي باشا / ٣٤٦ .
- عصر النهضة / ٣٤٩ .
- وعاء الفكر التأسيسي (المعاصر) / ٣٥١ .
- رفاعة الطهطاوي / ٣٥٢ .
- جمال الدين الأفغاني / ٣٥٥ .
- الشيخ محمد عبده / ٣٥٩ .
- قاسم أمين / ٣٧٢ .
- عبد الرحمن الكواكبي / ٣٧٩ .
- بطرس البستاني / ٣٩١ .
- الطباعة (الصحف و الرويات و الكتب) / ٣٩٢ .
- خاتمة في الفكر التأسيسي العربي / ٣٩٩ .

الفكر العربي (المعاصر) / ٤٠٣ .

- نظرية المنظومة الفكرية و السياسية / ٤١١ .
- الأحزاب السياسية و الدينية / ٤٢١ .
- السلطة / ٤٢٩ .
- الدراسة و المفكرون و المثقفون / ٤٥٥ .
- مثقف البيئة و مثقف الإيديولوجية / ٤٦٧ .
- مثقف السلطة و مثقف الكرسي / ٤٧٣ .
- سمات المثقف أو المفكر العربي / ٥٠٦ .
- ثقافة النخبة و نخبة الثقافة (الملأ الثقاني) / ٥٠٨ .
- الانعزالية الفكرية / ٥١١ .
- الانعزالية الثقافية / ٥١٣ .
- الانعزالية الاجتماعية / ٥١٧ .

- الوسائل و الوسائط التكنولوجية / ٥٢٠ .
الهيئات و المؤسسات التعليمية و الفكرية / ٥٢٧ .
وسائل و وسائط النشر / ٥٣٩ .
الصحف و الدوريات / ٥٤٠ .
وسائل الإعلام / ٥٤٤ .

- هوية الفكر العربي المعاصر .. كلمة أخيرة / ٥٤٧ .
القيود الفكرية الأيديولوجية / ٥٤٧ .
السطحية الفكرية و التسطيع الثقافي / ٥٥٢ .

- المصادر و المراجع / ٥٥٩ .

مقدمة

ما أحوجنا في بداية الألفية الثالثة ، إلى إعادة النظر في أنفسنا .. و النظر و لأول مرة في عقولنا . لقد كان آخر ما تمخضت عنه بداية الألفية الثالثة في المنطقة العربية ، من وقائع و أحداث ، هو الموضوع أو القضية العراقية ، التي أناخت بكل ما فيها من ثقل و وطأة على كاهل الإنسان العربي لتضعه و لأول مرة أمام امتحان العقل و الفكر إلى جانب امتحان القوة الذي طالما أخفق فيه العرب .

إننا لن نذكر ما اشتهر التداول به من مسمى ما عرف بـ (حرب العراق) و هو مصطلح ارتفعت أسهمه في بورصة سوق التداول السياسي العالمي ، يقابله من الطرف الآخر ما أنتج من آثاره و كان مفرزاً من مفرزاته ألا و هو ما عرف بـ (أحداث العراق) التي رافقت حربه و غزوه و تلازمت معها و انضوت تحت جناحها بحيث بدت و كأنها هي نفسها ، و هو ما تبدى أمام ذهن الإنسان العربي . غير أننا نميل بشدة إلى الاعتقاد بكونهما مفردتين مختلفتين متميزتين من حيث الظروف و عوامل التشكل و التكوين ، و القواسم المشتركة . و لو أن الاستفاضة في هذا المنحى ليس من اختصاص مقدمتنا هذه .

حالة ثانية باغتن العالم العربي و شكلت ظاهرة فريدة ملفتة للنظر ، لربما لم تحدث من قبل في تاريخ البشرية أو نادراً ما حصلت بهذه الصورة و الكيفية و المعطيات المرافقة لها و الشعارات المنطلقة منها و المعبرة عنها كذلك الأهداف التي كانت تنادي بها ، ألا و هي ظاهرة ما عرف بـ (الثورات العربية) التي تفجرت في عام ٢٠١١ ميلادي و التي أيضاً قد أناخت بكل ما فيها من ثقل و وطأة على كاهل الإنسان العربي لتضعه مرة أخرى أمام امتحان العقل و الفكر .

يضاف إلى ذلك الأحداث السياسية العربية في الشرق الأوسط و بالأخص

القضية الفلسطينية و الوضع في لبنان و ما سبق ذلك كله من أحداث الحادي عشر من أيلول في الولايات المتحدة الأمريكية و ارتباطها بالعنصر العربي و ما تبعها من أحداث في أفغانستان و العالم ، مست الدين الإسلامي بشكل أساس . يضاف إلى ذلك أيضاً ، بروز مفاهيم و مصطلحات سياسية و اجتماعية ، بقوة على الساحة العربية من حيث مجال التداول و الممارسة اليومية ، و منها (الديمقراطية - المجتمع المدني - التحرر - المرأة - حقوق الإنسان الخ) . يضاف إلى هذه البنود مجتمعة ، التطور التقني لوسائل الإعلام ، و النقلة النوعية في هذا المضمار المتمثلة بظهور القنوات الفضائية العربية التي كسرت حواجز تابوية في الفكر العربي بامتداداته الدينية و السياسية و الاجتماعية . كل ذلك بالتزامن مع ثورة المعلوماتية متمثلة بعالم الكمبيوتر و الإنترنت ، ما فتح آفاقاً واسعة هائلة للتواصل الثقافي و العلمي ، و التقارب بين أفراد العائلة الإنسانية . و أتاح الحصول على المعلومة (أياً كانت) بسرعة كبيرة جداً .

إن العوامل و البنود المذكورة آنفاً ، هي حتماً كافية للتساؤل حول ماهية الفكر الذي يتمثله إنسان هذه المنطقة و تطوراته و آفاقه . و بالموضع الأهم ، كيفية تعامل هذا الفكر مع ما سلف من هذه الأحداث . كيف كان هذا الفكر قبل هذه الأحداث بكل عمومياته و توابعه ، و كيف أضحى بعدها . إن السؤال الذي يطرح نفسه هنا بشدة ، هو كيف تعامل الإنسان العربي مع كل هذه المعطيات؟؟!! و كيف نظر إليها و قيمها؟؟!! و في أية خانة وضعها؟؟ .

يوجد هنالك أيضاً سؤال آخر يطرح نفسه بشدة ، و هو كيف نظر الإنسان الآخر غير الإنسان العربي إلى هذه المعطيات ؟ و كيف تعامل معها ؟ و في أية خانة ووضعها و صنفها؟؟ .

إن المقارنة المتمثلة بالإجابة على السؤالين الأخيرين ، قد تعطي فكرة واضحة نوعاً ما عن طبيعة تفكير و فكر الإنسان العربي المعاصر . و لكننا هنا في هذا المبحث ننظر إليها على أنها المدخل إلى عقل و فكر الإنسان العربي ، أو ثغرة و

بوابة يتم عبرها و بواسطتها الولوج إلى دراسة الفكر العربي المعاصر الآن ، أو مقدمة و منصة انطلاق لذلك .

إذا أُعيدَ النظر في الموضوع برمته و تم استخلاص الوقائع و النتائج منه باعتباره إحدى المقدمات المنطقية لها ، فإننا نصل إلى نتيجة مرعبة تدعونا إل التساؤل عن ماهية الفكر العربي و طبيعته . كيف يفكر الإنسان العربي الذي يتعاطى مع الأحداث الآنفة الذكر و بالخصوص منها القضية العراقية و ما يسمى (الثورات العربية) ، بطريقة مبكية مخجلة تصل إلى درجة تجعل المرء العارف المدرك المتحصل للثقافة و الوعي العقلاني التحليلي ، يتمنى أن يكون جاهلاً غيباً ، كي لا يدرك معاني الخيبة و المرارة و الإحباط و الفشل ، و يعيها كنتيجة نهائية أو نظرية ثابتة لها براهينها و أصولها . يتمنى أن يكون حلفاً متخلفاً متبدلاً ، كي لا يشعر بالقهر و التذلل و الضيق .

إننا مطالبون اليوم أكثر من أي يوم مضى ، بإعادة فتح ملفات الفكر العربي بأشكاله و توابعه و ملحقاته كافة ، و إعادة النظر فيه بطريقة جديدة و موضوعية تلامس الشارع العربي ، بل تمس الزقاق العربي و تحرك التساؤل في أدنى مستويات القاعدة الجماهيرية العربية ، أي أولئك العوام الأميون الذين لا يقرأون و لا يكتبون ، أو أشباههم الأعلى منهم بدرجة . إننا مطالبون اليوم أكثر من أي وقت مضى بإعادة صياغة عقلانية منطقية للفكر العربي نفسه .. إعادة صياغة نظيرية و منهجية لهذا الفكر ، من أعلاه حيث البرج العاجي الذي يقبع فيه ما يسمى بأفراد النخبة الفكرية العربية ، إلى أدناه حيث التعابير العفوية البسيطة و الكلمات الشائعة المتداولة لدى الإنسان العربي البسيط ، و بكافة توجهات هذا الفكر ، سواء الدينية أم العلمانية أم القومية أم الوطنية أم العلمية التطبيقية أم الأدبية أم الفنية أم غيرها مما يمكن إدراجه ضمن أي مصطلح فكري مقبول .

إن البحث و التقصي المندرج ضمن خانة الاختراع و الابتكار أو الاكتشاف ، ينطلق دائماً من مقدمات معينة تخضع لظروف الاختبار و التجربة ، سواء الميدانية التطبيقية أم النظرية التحليلية المنطقية . و عادة ما يتم خلالها الإبقاء على هذه المقدمات أو تبديلها إذا لم تثبت صحتها في مضمار التجربة و الاختبار ليتم التوصل في نهاية المطاف إلى نتيجة محددة تخرج إلى حيز الاستخدام و التداول . هذا المنهج يختلف بأسلوب عكسي في وضعية التساؤل أو الاستفهام نتيجة وجود مقدمات خاطئة أو وضع ناشز غير طبعي ، حيث يكون المنطلق و الحالة هذه هو النتائج الأخيرة و بالأخص منها تلك التي تكون في وضعية التخريج و التطبيق و التداول ، فيكون لزاماً على الباحث أو المراقب أن يعتمد هذه النتائج ، كلها أو بعض منها كمقدمات بحثية تحليلية ، و العودة منها بالتسلسل العكسي ، لمحاولة الوصول إلى أسباب الخطأ و مواطن الخلل فيها .

و لعل نتائج مبحثنا هذا في هذا المجال ، هي ردود فعل و تصرفات الإنسان العربي أزاء ما يحيط به من أحداث و عوامل خارجية تقنية و غيرها ، تتجه صوبه بفعل التأثير العولمي الذي تتعرض له المنطقة العربية في ظل فترة مصيرية حرجة لا تتمثل في منطقة الشرق الأوسط فقط بل في العالم ككل حيث كل أمة و دولة ، تلهث وراء التكنولوجيا و تحصيل التقانة العلمية و تطوير نفسها من الداخل و تحصيل هيكليتها التنظيمية و الدفاعية ، إن لم يكن من أجل التفوق المطلق فمن أجل الخروج بأقل خسارة ممكنة في مواجهة التغيرات العالمية و التطور البشري المتسارعين .

اليوم .. لم يعد هنالك ما يمكن إخفاؤه أو التلاعب به . لم يعد هنالك شيء لم يقال .. لقد قيل كل شيء و لم يعد بالإمكان إيجاد مفاهيم و اصطلاحات وافدة جديدة اللهم إلا المتعلقة بما يختص بالعلوم التكنولوجية و ما شابهها . و مع ذلك و بالرغم من هذه التخمة الفكرية المكتظة بالمفاهيم و المصطلحات الطافحة من إناء الفكر العالمي و تابعه الفكر العربي ، و كل واحد منها مشبع بنظريات

مسهبة مختلفة تعرف به و تشرح عنه و توّطر له ، تماماً كما يفعل النحاس قديماً عندما يعرّي الجارية السبية و يشرح ميزاتهما للمتجمهرين حوله . لذلك فإن النظر إلى حالة الخواء الفكري العربي العقيم الذي يقابل حسامة و هول الأحداث المتسارعة الوافدة إلى الساحة العربية ، هو أمر يستدعي التساؤل و المساءلة معاً . و إن أي تساؤل لا تليه مساءلة ، هو صرخة في وادٍ مقفر لا يلبث أن يتلاشى صداها بعد هنيهة قصيرة . و إذا كانت المساءلة ربما ليست في متناول أيدينا نظراً لظروف مادية و معنوية لسنا في وارد طرحها الآن ، فإن التساؤل يمكن طرحه و رفع العقيرة به . حتى المساءلة يمكن أن تكون على الأقل من باب المعيار النظري على مبدأ الحديث النبوي القائل " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه و هذا أضعف الإيمان " . ربما يكون هذا الحديث قد تطرق إلى منحىٍ خطير جداً يقع في صلب موضوعنا و هو ، هل أصبحنا نمتلك فكراً معيناً أو ثقافة أو وعياً ما ، يتيح لنا تعريف المنكر و تحديد هويته ؟ أم أننا أصبحنا فاقدين لميزة التعريف ما بين المنكر و الغير منكر ؟؟ ما بين الغث و السمين ؟؟ الصواب المقبول و الخطأ المرفوض ؟؟ . المساءلة ربما قد تطرح نفسها تلقائياً بعد طرح التساؤل و طرح حيثياته و مضامينه ، و تجدها سبيلاً إلى ضمير الإنسان العربي .

لا نريد في دراستنا هذه أن نجعل التعقيد سمة لها ، بل سنحاول قدر الإمكان اعتماد أمرين اثنين .. بساطة الأسلوب و الخلو من الاصطلاحات الفكرية الثقيلة و المعقدة . ذلك كله وصولاً إلى بلوغ ذهن القارئ العام و قبوله و عدم تملله . و يهمنا أن نوضح في هذا المجال أن الخطاب و النقاش حول مفهوم الفكر العربي و الثقافة العربية ، يشتمل أساساً على المواطن العربي العادي الذي يمثل النسبة الطاغية المقتربة من نسبة المائة في المائة من العالم العربي ، و ليس بعض أصحاب النخبة المثقفة التي لها وضع خاص باعتبارها هي نفسها حالة خاصة في عالم الثقافة و الفكر العربيين ، و حالة شاذة لا تمت إلى الواقع العربي بصلّة ، بل

كل همها النقد و النقد ، ثم النقد و النقد .. النقد العقيم و التباري بالمصطلحات و المسميات .

إن أول مظهر من مظاهر خطورة الوضع الفكري العربي الحالي ، هو انعدام الثقافة بأشكالها و معطياتها و مستلزماتها كافة و التي من أهمها .. القراءة و المطالعة . و لا نجانب الحقيقة إذا اعتبرنا أن الإنسان العربي المثقف الذي يمتلك ناصية الفكر الواعي العقلاني ، قد أصبح اليوم مستحاثة نادرة ، لا بل إن الإنسان العربي القارئ ، قد أصبح اليوم حالة نادرة يمكن أن نرى منها نموذجاً في المتاحف . بناء عليه و عليه بناء ، يمكننا أيضاً أن نطلق الشعار التالي .. ويل لأمة لا تقرأ و ويل لقوم لا يفقهون .. نعم .. ويل لأمة لا تقرأ و ويل لقوم لا يفقهون . و كيف نفقه و نحن لا نقرأ؟؟ كيف ندرك معنى الكلمة و نحن لا نقرأ؟ كيف ندرك أبعاد الكلام المسموع و الحركات المرئية و خلفياتها و خفاياها و نحن لا نقرأ؟؟!! أنشبت مظاهر عدم القراءة في العالم العربي أنيابها فأصابته بداء الجهل ، تماماً كما يحصل عندما يعض الحيوان اللاحم البري شخص ما ، فيعطى إبرة كزاز منعاً لإصابته بداء الكلب . لقد عضنا حيوان الهروب من الثقافة ... حيوان الهروب من القراءة ، و للأسف العميق ... الأسف الذي يضرب صميم القلب ، أعطينا و لا نزال نعطى جرعة بل جرعات دائمة مستمرة من مظاهر الخرع و الخواء و الفراغ الفكري الموجه و الذي تقوم به معظم الفضائيات و وسائل الإعلام العربية على أحسن وجه و أتم صورة و أكمل شكل ... قنوات موجودة مسبقاً ظهرت من قبل ، و قنوات جديدة تظهر كل يوم ، لا يعرف لها أصل من فصل .. قنوات متخصصة بالغناء الفارغ الهابط و الأفلام المكررة التي لا تعني من جوع و لا تسد ثقباً من الثقوب المفتوحة و المتزايدة في عقل الإنسان العربي التي يتسرب منها شيئاً فشيئاً كل ماضيه و تراثه الفكري و ثقافته الموروثة عبر أجيال متراكمة (بغض النظر عما تحتويه هذه الثقافة و التراث) .

تفتح التلفاز فتخرج لك فتاة تغني متأوهة و هي تتزل من سيارة ليموزين سوداء طولها يتجاوز العشرة أمتار و خلفها مجموعة من المرافقين و حراس أمن يرتدون بذلات سموكن سوداء خاكية و نظارات سوداء ، لحمايتها من الموساد¹ و السي آي إيه ، باعتبارها عالمة ذرة . فتضغط على الريموت كونترول لتظهر لك قناة أخرى مشابهة و فيها فيديو كليب لأغنية ، وشاب يقود سيارة ذات دفع رباعي و هو يغني قائلاً (أع أوع إيع .. أنا بحد القلعة أنا بكسر الجبل أنا بنشف البحر أنا .. أنا) و حوله مجموعة من البدي كارد لحمايته و تطوقه سيارات سوداء فارهة ربما تحمل أجهزة تشويش خوفاً من انفجار يستهدفه باعتباره من كبار علماء الفيزياء النووية و باعتباره حاصل على جائزة نوبل في الأبحاث الجينية و الوراثة و براءة اختراع لإحدى الرقائق الالكترونية ذات الأداء المتطور ، فتضغط على الريموت كونترول ليظهر لك فيديو كليب آخر يثير الضحك ... مطرب يترجل من سيارته الفخمة ذات الطراز الأخير أمام فيلته الضخمة الفاخرة التي تشبه قصرًا من قصور أوروبا في العصور الوسطى . و المضحك أنه عندما يترجل من سيارته ببطء ، يترجل معه بنفس الوقت من سيارات أخرى مرافقة ثلة من الحرس ذوي النظارات السوداء و هم ينظرون إلى السماء خوفاً من هجوم بالطيران الحربي باعتبار ان مشكلة هذا المطرب المهم هي حبيبته التي خانتها و ذهبت إلى شاب أقرع كلياً تبدو عليه إمارات الثراء و الوجاهة ، يبدو أنهما تشكل خطراً على الدول العظمى المتقدمة كونها (أي المشكلة) تدخل في نطاق التكنولوجيا الرقمية المتقدمة .

تدخل إلى قنوات الأطفال فلا ترى إلا أفلام الخيال .. كلها خيال بخيال ، حيوانات ذكية تقود مركبات طائرة تريد الاستيلاء على كوكب الأرض تتصدى لها فتران و قطط و كلاب بالطائرات و المركبات الحديثة تصدها و

¹ كان هذا مقالا لي في مدونتي على الإنترنت . و قد جاءني إحدى الفتيات لتبدي إعجابها به و تسأل باستغراب عن كلمة (الموساد) و معناها ، فأجبتها متهمكاً : هو جمهور المعجبين .

تردعها و تحمي بني البشر . تنظر إلى المسابقات التي توضع في القنوات المرئية فترى أنها لا تحمل إلا العناوين التالية (هل أنت فتاة جميلة و طولك يتراوح بين كذا و كذا هل صوتك جميل - هل تحلم بأن تصبح مطرباً مشهوراً) . تنزل إلى الشارع فترى مظاهر التطبيق لكل ما هو نتاج لهذه القنوات الفضائية و لكل ما تبثه و تظهره من مظاهر الخواء الفارغ ... أطفال - شباب - فتيات لا هم لهم سوى استعراض أجهزة الخليوي و التظاهر بالتحدث بها و هم لا يتحدثون مع أحد مطلقاً ، أو التكلم عن آخر أنواع السيارات أو التسكع بها في الشوارع بشكل دوري غير منته ، تماماً كما مبدأ الحلقة المفرغة ، و استعراض آخر أنواع مساحيق التجميل و الكماليات البشرية من نظارات شمسية و أحذية و حقائب و غيرها . لقد كثرت عمليات التجميل في عالمنا العربي و أصبحت الأثني عبارة عن كائن محشو بكافة أنواع الفيبر و اللدائن ، بدءاً من أعلى رأسها و حتى أخمص قدميها . لقد أضحي المواطن العربي كائن يبحث عن المظاهر بشتى أنواعها و يبتعد ، لا بل يهرب من المضمون ، المضمون الذي هو الأساس و العبرة في منتجات و نتاج الحضارات الإنسانية منذ القدم و حتى الآن ، هو الهدف الذي بحثت عنه النظريات الفلسفية القديمة و المتوسطة و الحديثة و هو أساس العلوم التطبيقية و موطن قدم لها سواء في العلوم الاجتماعية أو علوم الفيزياء و الرياضيات و غيرها .

إن الأمم المتقدمة و المتحضرة بنت نفسها و حضارتها على أساس من تنشئة الفرد فيها على إدراك مضامين الحياة البشرية و تفرعاتها من خلال المظاهر التي يراها أمامه و التي هي باب للولوج إلى الداخل و مقدمة لمعطيات لاحقة أكثر تعقيداً و ليست هي الأساس و الهدف . المظاهر تستخدم ليس كنتيجة بل كمقدمات و ذلك على عكس الإنسان العربي عندنا الذي أصابه داء المظاهر فأصبح تقييم أي شخص عندنا مثلاً من خلال حذائه و هذا ما حصل معي أكثر من مرة . تمشي في الشارع فيقابلك رجل أو فتاة و أول ما ينظر إليه فيك هو

حذائك ، لا بل أنه جرت محاولة في وسائل الإعلام عندنا ذات مرة لتسويق هذه النظرية سواء في الدعايات و غيرها من أن حذاء الشخص هو المعبر عنه و هو المقدمة و النتيجة و الباب و الهدف لتقييمه و قبوله في الأوساط الاجتماعية ... هو مضمونه ... هو المخ . و المنطلق الأساس لكل ذلك هو عدم الاستقراء الناتج عن عدم القراءة ، الناتج عن كره القراءة ... إنا قوم نكره القراءة ليس ذلك فقط بل إنا قوم نوجه أولادنا و عيالنا إلى عدم القراءة و نقصف و ندوس على كل من له اهتمام بالقراءة ، بالسخرية و الاستهزاء و المحاربة أحياناً و الإحباط أحياناً أخرى .

لنعد إلى قراءة و استقراء التاريخ الماضي و المعاصر ، و نتابع مفارز و مفاصل الوضع الاجتماعي و الفكري للدول المتقدمة و المتحضرة و التي استكملت مجمل نواحي العلم و التكنولوجيا ، فنرى أنهم شعب يبتعد عن المظاهر الخارجية في تقييمه لأي حدث أو ظاهرة أو شعب أو فرد ، وذلك لا يتأتى إلا من خلال تراكم ثقافي يستحوذ عليه إنسان تلك الدول . و هذا التراكم من الثقافة ليس إلا نتاج وقت مخصص للقراءة و اهتمام بالقراءة ... الإنسان العالم أيها السادة هو حتماً إنسان مثقف ، و الإنسان المثقف أيها السادة هو حتماً و حصراً إنسان قارئ .

هذه القضية تقودنا إلى مفهوم خطير جداً أنشأ إشكالية كبيرة لدى الناس و لغط في نظرهم و تقييمهم للمفاهيم . هذه الإشكالية تتلخص في الخلط بين اكتساب الثقافة (بأشكالها كافة) عن طريق التحصيل و القراءة المتميزة ببذل الجهد و القدرة على الثبات و تحمل المطالعة و الركون إليها ، و بين التلقي السماعي للثقافة أياً كان نوعها (دينية - سياسية - علمية ... الخ) . و المشكلة التي نصادفها تتلخص في أن معظم الخميرة الثقافية المتحصلة لدى الإنسان العربي ، هي نتاج تلقي سماعي ، تماماً كما هو الحال و الفرق بين من يتعلم العزف على العود بواسطة النوتة و التدريب ، و بين من يتعلم العزف بواسطة السماع أي

تقليد اللحن الذي يسمعه . و الخطورة التي تبدى في التلقي السماعي هي أنك تتلقى ثقافتك من شخص أو جهة معينة ، و أنك بدون أن تدري أصبحت خاضع ليس فقط لثقافة هذا الشخص و ما تحتمله من خطأ و صواب ، بل لميول هذا الشخص و غرائزه العاطفية الخفية ، أو لمخطط خفي لا تراه أنت ، يقوم هو بوضعك في نطاقه دون أن تدري ، أي باختصار تكون في نطاق و تيار ثقافة موجهة تفرض عليك شكلاً من الأشكال دون أن تدري ، و تصبح بالتالي أسير هذه الثقافة و تسير بقصد أو بدون قصد ، حسب مرامي و أهداف معينة من الممكن أن تكون ضارة أو نافعة ، لأنك بالأساس و الحالة هذه تكون فاقد لميزة الاختيار ، لا بل أنت مجبر على تلقي ما يريد و ما يمليه عليك ذلك الشخص أو تلك الجهة .

إن الإنسان العربي و إن تكلف التحصيل الثقافي ، فإنه و حسب ما نراه ، ينحو إلى التحصيل السماعي و المرئي ، أي أننا في أحسن حالاتنا ننحو إلى العلم السماعي و هذا أيضاً على علته ، يلاحظ أنه يقتصر على فئة قليلة أما البقية فمعظمها لا يتكلف عناء التحصيل لا السماعي و لا المرئي ، بل يفضل متابعة القنوات الفضائية المذكورة آنفاً .

و على النقيض من ذلك ، فإن ثقافة التحصيل من خلال القراءة ، تتيح لك حرية الاختيار و تعطيك مجالاً أوسع و آفاق علمية و اطلاعية أكبر ، و مع مرور الوقت و في حال توفر شرط التنوع فإنك حتماً ستتحصل على ميزة ما يسمى بالثقافة المقارنة و تكون قادراً على التمييز بين الغث و السمين .. بين الضار و المفيد .. بين الخاطئ و الصحيح .

إن ثقافة القراءة و المطالعة تتيح للإنسان بمرور الوقت استيعاب و إدراك العالم المحيط به و القدرة على التحليل و استنباط المعطيات و العوامل و المسببات . و شيئاً فشيئاً الاتجاه إلى باب العلوم التطبيقية الأخرى ، لأنه يكون قد اكتسب ميزة محبة العلم و ميزة البحث عن المضمون و ميزة الابتعاد عن المظاهر . هذا

الشخص مثلاً إذا أمسك أية جريدة أو صحيفة أو مجلة أو استطاع أي خبر أو إعلان في أية قناة ، فإنه قادر على معرفة مصداقية هذا الخبر إلى حد بعيد و قادر على إدراك مدى مجال التوجيه الخفي فيه و هو قادر على الإحاطة بأبعاد أية محاورة أو نقاش مع شخص آخر و المفاضلة بين كل ما تلقاه و بين ما هو موجود في مخزونه الثقافي .

أيها السادة ... إن أول كلمة قالها جبريل (ع) للرسول الكريم محمد (ص) هي [اقرأ] و عندما سأله الرسول (ص) .. ما أنا بقارئ؟؟ ، أعادها عليه و كرر طلبه ثلاث مرات ، أفلا نستوعب؟؟!!!! إن كلمة اقرأ هذه لها أبعاد و مدلولات أخرى بالإضافة إلى القراءة ، لها بعد الاستقراء أي الاستنتاج و الاستنباط و هو مرحلة تالية لمرحلة القراءة . و هذا ما يظهر جلياً من خلال الآيات التي تلاها جبريل (ع) على الرسول (ص) بعد طلب القراءة و هي [اقرأ] بسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ و ربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم] (سورة العلق) .

لنتوقف قليلاً عند عبارة (الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) ... أما آن الأوان لنمسك بالقلم؟؟ و هل نستطيع أن نمسك بالقلم إذا لم نكن قارئين؟؟؟ لقد آن الأوان أن نتعلم ما لم نعلم و هي مرحلة تالية لمرحلة الإمساك بالقلم التي بدورها هي مرحلة تالية لمرحلة القراءة . ألم يقل الرسول (ص) (اطلبوا العلم و لو في الصين)^١؟؟ عندما قالها الرسول لم يكن الإسلام قد انتشر خارج مكة و المدينة ، فماذا لو قرر أحد الإعراب أو المسلمين أن يمتطي راحلته و ينطلق بها إلى الصين؟؟ ماذا كان سيجد غير ثقافة الحضارات الأخرى و ثقافة العلوم التطبيقية التي كانت موجودة في ذلك الوقت؟؟!! .

^١ كنز العمال ج / ١٠ / ص / ٢٤٢ .

[اطلبوا العلم و لو في الصين] ... قالها الرسول الكريم و بعد ١٤٠٠ عام ، لم نطلب العلم لا من الصين و لا من غيرها ، بل أصبحنا مستوردين لمنتجات الصين ... منتجات الصين التي تغزو العالم الآن ، تغزو أمريكا و أوروبا في عقر دارهما ، أليست هذه المنتجات ، هي نتاج لتراكم العلم و الثقافة التي طلب الرسول (ص) أن نطلبها قبل ١٤٠٠ سنة !!!؟؟ لاحظوا أيها السادة الترابط بين كل ذلك و بين القراءة و الاستقراء و العلم .

يا قوم ... يا قوم ... اقرأوا يا قوم .. انزلوا إلى الأسواق و اشتروا الكتب المختلفة و خصصوا قليلاً من وقتكم الذي تهدرونه على الفضائيات و مسابقات الأغاني و الأفلام و متابعة السيارات و الخليوي و غيرها .. خصصوا للقراءة و المطالعة قليلاً من مالكم الذي تهدرونه بتبديل الموبايلات دورياً و شراء السيارات التي غزت الأسواق و شراء السيريلانكيات للتباهي بوجوده في بيوتكم ، بدل التباهي بوجود الكتب و المكتبات فيها . يا قوم إذا كان القانون لا يحمي المغفلين ، فإن التاريخ لا يرحمهم .

هذه العجالة التي سبقت ، قد تعطي فكرة واضحة عما يراد إيصاله للقارئ حول ماهية المعضلة المتعلقة بطبيعة الفكر العربي و كيفية و آلية الإشكالية الكبيرة التي تحيط به . و نحن بجانب الصواب و المنطق السليم إذا افترضنا أن قضية الفكر العربي و مسألته المتعلقة بوجود الخطأ و طرح الحلول ، تفترض كلاً واحداً متجانساً أو ترتبط ببعده واحد أو مسار بعينه ، بل إنها قضية شائكة و مسألة عويصة تحتاج دراستها إلى الاتجاه في أبعاد عدة و طرق أبواب مختلفة و متباعدة . فلا يمكن الإشارة إليها ضمن حيز معين و لا حصرها بمكان محدد ، سواء أكان تاريخياً أم فلسفياً أم سياسياً أم دينياً أم غير ذلك . بل هي تأخذ هذه السبل مجتمعة . و مرد ذلك إلى أن مفهوم الفكر أو الطبيعة و الماهية الأبتمولوجية لشعب و حضارة ما ، تتكون و تتشكل تبعاً لروافد و ظروف عدة ، منها ما يتعلق بالتراث و منها ما يتعلق بالحضارة نفسها ، و منها ما يتعلق بطبيعة النظرة

و الفكر الدينين و بالحك الأول .. الخطاب الديني الناظم للحياة اليومية و الذي قد يكون مختلفاً عن أصول الدين التابع له هو نفسه ، كأن يكون أحد فروع أو مذاهبه المختلفة . و قد يتفق مع ما سلف ، أن منبع صعوبة التعايش مع طبيعة و هوية فكر شعب معين و ماهية الأستمولوجية الخاصة به و بالذات في العصر الحالي ، مرهون بأمرين اثنين .. الأول هو ظهور النظريات الفكرية في القرون و العقود الأخيرة بألوانها و مشاربها المتعددة كحالة منفصلة عما سبقها من نظريات و مفاهيم و أفكار ، أو كوضع متطور عنها ، إما ناسخ لها أو معدل فيها مع ما يضاف لها مما سبقها من نظريات و أفكار ضربت جذورها بقوة فيما سبق و امتد تأثيرها و مفعولها و حضورها إلى الوقت الحالي الذي نعيشه ، و كل منها له اختلافه و تمييزه الفكري عن غيره من بقية النظريات بحيث لا تتقاطع معها إلا فيما ندر ، و بنودها و حيثياتها و ما تنطرق له من مفاهيم و أفكار ، هو بالعموم ليس من شؤون و اختصاص غيرها ، و العكس صحيح في ذلك . و تبعاً لهذا المنظور ، لا نستطيع حصر مشكلة الفكر في زاوية واحدة ، و حدها في حيز معين يتيح تناولها و تحليلها من ضمنه .

القضية الثانية في صعوبة طرح و تناول مفهوم الفكر العربي ، هي و على وجه الخصوص ، التناول الذاتي له ، حيث تبدى في وجود نوع من القناعة الذاتية لهذا الفكر و القبول به بشكل عفوي¹ . و لعل خير من يعبر عن هذه المسألة ، المثل العربي الدارج و الذي يقول ما مفاده أنه " عندما قسم الله تعالى الأرزاق ، لم يرض أحد برزقه . و لكن عندما قسم العقول ، رضي كل منهم بعقله " (انتهى) . من المقبول جداً أننا نستطيع سحب مضمون المثل إياه على مفهوم الفكر ، فما هو ظاهر للعيان ، أن الكل قانع بفكره . من حيث المبدأ ، لا إشكال جوهرى في ذلك ، و لكن المأزق الحقيقي هنا ، هو تحول مبدأ القناعة

¹ في هذا الشأن ، راجع كتابنا (الوصاية الفكرية) .

هذا إلى شكل من أشكال التابو بحيث يستحيل عندها .. و يمتنع في ذات الوقت نفسه ، مناقشة هذا الفكر ، لا من الناحية الذاتية الداخلية حيث يتم إعمال منطق العقل و التحليل السليم عند اكتشاف إشكال ما ، مهما كان نوعه ، أو الوقوع في تناقض ما لم تستسيغه فطرة المنطق العقلي الداخلي ، ما يفتح الباب أمام الشخص لمناقشة فكرة معينة أو قضية فكرية ما (على الأقل مع نفسه) آمن و صدق بها كمبدأ من مبادئ الحياة . و الأمر كذلك من الناحية الخارجية، إذ لا يسمح لأي كان بإلقاء وردة نقد منطقي عقلائي أو تساؤل إشكالي حول قضية أو مفصل من مفاصل فكر الشخص . و قد يصل التعاطي بهذا الأسلوب ، إلى مغبة الرد رمياً بالرصاص و من دون إنذار .

يفيد في هذا السياق طرح مثال على هذا المنهج حيث يتم طرح الأفكار و النظريات من قبل أصحابها أو من قبل المنتمين إليها و المؤمنين بها عقائدياً أو المنتفعين بها بطريقة أو بأخرى ، على أنها هي الخلاص و الحل و المؤمل . و كثيراً ما تطرق أسماعنا عبارات من قبيل (الماركسية أو الاشتراكية هي الحل - الإسلام هو الحل لكل هذه المشاكل - العلمانية هي الحل - القومية هي الحل) ذلك كله على اعتبار المفاهيم و المفردات السابقة ، تعتبر من أمهات الأفكار أو النظريات الفكرية ، فإن ذلك ينسحب أيضاً على مستويات فكرية أدنى شمولية و اتساعاً ، و ربما يكون بعضها محتوى في بعض - أو خارج من رحم - تلك الأمهات .

حقيقة الأمر أنه ليس من السهولة بمكان إجراء نوع من التغيير في المنظومة الفكرية لشخص ما أو فئة أو جماعة ، بمختلف أشكالها الدينية أو السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، و بمختلف سوياتها .. من البدائية و حتى المتقدمة . وإن يقع وجه الخصوص و الحالة هذه على المنظومة البدائية كونها أكثر عرضة للتحجر و الجمود نظراً لافتقادها إلى المنهجية المنطقية لعناصرها العلمية ، حتى وإن تبدى الخلل في هذه المنظومة و فشا فيها فساد المنطق و خبت المنظور

والمفهوم ، فإن العامل العاطفي و المورث الاجتماعي كقاعدة عرفية ، قد يشكلا عنصر إرتاج يمنع العقل من الاستدارة و التراجع نحو مكامن الصواب .
من المفترض اليوم في ظل تشكل عالم كبير غير متناه من الفكر ، قوامه منظومات فكرية هائلة تتفرع عن كل منها نظريات عدة مختلفة تسعى كل منها لتقديم مفاهيم و أفكار تمثل مشاكل و حلول و قضايا و نتائج ، يتبع كل ذلك التسارع الهائل أيضاً في مجال التقانة العلمية مشتملة على كل فروعها التطبيقية و التكنولوجية و الصناعية و الزراعية ، ليتوج ذلك كله بما عرف بالتكنولوجيا الرقمية .. تلك عناصر لا بد لكل منها من تقديم أو إظهار أو خلق و إنتاج نظم فكرية تتبع لصانعها و منتجها .

هذا الموزاييك الفكري الهائل المرعب ، لا بد له من ثقافة عامة شاملة تقابله ، ولا بد له من فكر و وعاء ثقافي بدرجة ما و سوية معينة قادرة على التعامل معه و احتواؤه ، لا بل ترويضه و تدجينه كيلا يتحول إلى وحش كاسر مفترس و كائن غريب يثر القلق و يصبح مصدر للتساؤل و الاستغراب على مبدأ المثل القائل " المرء عدو ما يجهل " ¹ . هذه القضية تثير لدينا تساؤلاً هاماً حول جدلية العلاقة القائمة بين الفكر المذكور آنفاً و الثقافة . فإذا كانت العلاقة فيما بين هذين المصطلحين علاقة يحكمها التبادل بمعنى أن أحدهما قادر على أن يولد الآخر حال وجوده ، فإن ذلك الحكم يفترض نشوء ثقافة عربية عفوية تواكب ذلك التقدم العلمي الناجز الآن في العالم ، و قادرة على تلقفه و التعامل معه لجهة إدراكه و استيعابه من حيث المظهر و المضمون معاً .

أما إذا كانت العلاقة فيما بين المصطلحين ذات طابع توليدي ذاتي ، بما معناه أن يخرج أحدهما من رحم الآخر حصراً ، كأن تخرج الثقافة من رحم الفكر أو الفكر من رحم الثقافة ، فإننا نستطيع القول و بما يقارب اليقين ، أننا في كارثة

¹ من كلام لعلي بن أبي طالب - نهج البلاغة .

حقيقية توشك أن تحيط بنا أو أحاطت بنا فعلاً و انتهى الأمر . حيث أن الفكر العام الشامل المعبر عن الحضارة و الثقافة أضحي الآن من نتاج الغرب و تحديداً الدول المتقدمة مع ملاحظة أن الفكر المبدع الخلاق الذي يشكل العمود الفقري للحضارة المتسيدة و المحدد لمقاييس سويتها و قوتها ، قد تلاشى و اختفى في المنطقة العربية منذ بداية عصر الانحطاط الذي آذن به أفول نجم الدولة العباسية بعد تشرذم الدولة العربية إلى دويلات متفرقة . و إن ظهر فيما بعد في بداية القرن التاسع عشر و القرن العشرين و بالذات بعد زوال الاحتلال العثماني ، محاولة جريئة لنهضة علمية عقلانية فكرية على مختلف مستوياتها و أبعادها التقدمية التحررية ، لكنها لسبب من الأسباب ، حبت نارها و انطفأت جذوتها كشهاب لامع أضاء و أبرق في السماء ليختفي بعد هنيهة لا تتعدى طرفة عين . و فيما يتعلق بموضوع الألفية الثالثة ، فإن الثقافة العربية يمكن اعتبارها قد انتفت بالعموم و أضحي من العسير الاستحواذ على مقوماتها ، على اعتبار أن الفكر الموجود الآن و الذي يتعامل معه العقل العربي ، هو ليس صناعة عربية ، بل عبارة عن فكر وافد ، بل هو في بعض أوصافه عبارة عن نتاج فكر ، سواء بالصناعة أم بالزراعة أم بالاقتصاد أم بالسياسة لا بل حتى بالثقافة نفسها .

عود على ذي بدء نقول : أننا في أمس الحاجة الآن و أكثر من أي وقت مضى، لإعادة النظر في قضية الفكر و المعرفة و الثقافة العربية و أنه آن الأوان لفتح الملفات المتعلقة بعقل و فكر و ثقافة الإنسان العربي بكل جرأة و وضوح و شفافية و موضوعية . فنحن إن كنا لأسباب عدة خارجة عن إرادتنا و نطاق قدرتنا على التحكم و السيطرة ، غير قادرين على فتح ملفات السياسة العربية و الوطنية و مجمل الأحداث التي تمس الواقع العربي و تطال المنطقة العربية اليوم ، فإنه لا يوجد حرج و صعوبة في فتح ملفات الفكر و الثقافة العربيين ، و بالأخص و أهمهما في متناول يد كل إنسان عربي عاقل .. مثقف و واعٍ ومدرك لخطورة هذين الملفين ، و بالأخص أيضاً أهمهما آخر المعامل العربية ، و هما إن

سقطا ، سقط العرب نهائياً و ربما لن تقوم لهم قائمة بعد الآن و سيثشردزمون شرذمة ما بعدها شرذمة .

في هذا الكتاب سوف نحاول قدر الإمكان شرح الواقع العملي و الفعلي للفكر و الثقافة ، و لن نأل جهداً في تبيان حالة الذهنية و العقلانية للإنسان العربي و كيفية تعامله و تناوله لمجمل مفاهيم الفكر و مصطلحاته و ما هي سوية ثقافته بالضبط التي يتعامل بواسطتها مع هذا الفكر ، و سيتم التطرق تبعاً لذلك ، إلى مفردات و ملحقات الفكر العربي و الشؤون المتعلقة به و بنشره ، كدور النشر في العالم العربي و وسائل الإعلام بمجمل أنواعها السياسية و الثقافية و الدينية .

على إنه إذا كنا قد قرنا قبل هنيهة ، موضوع الفكر بموضوع الثقافة ، فسيكون معظم بحث الكتاب حول هذين الموضوعين حتى و إن تناولت ملحقاتها و توابعها . و سوف نحاول قدر الإمكان أن نجعل للسلاسة مكانها في بنية الكتاب الخطابية و اللغوية و السردية ، و أن نزيل عنه ما أمكن المصطلحات اللغوية المعقدة .

والغاية من ذلك كله ، هو أن يغوص الكتاب إلى القاعدة الشعبية في العالم العربي ما أمكن إلى ذلك سبيلاً ، لكونها بنظرنا هي الأساس في أي تغيير فكري و ثقافي إيجابي فعال و متقدم يطول الإنسان العربي . و سوف يهمننا أن نناقش أصول و منابع الثقافة و الفكر العربيين من خلال التاريخ العربي المتمثل بالتراث و الدين و الأدب و ما تأتي من باب السياسة و الحكم مما قام به رجال السياسة من أثر في تعديل مجرى الفكر العربي . و يتبدى ذلك في الخليفة العباسي (المأمون) كمثل خاطف سريع على ذلك سيتم التطرق له لاحقاً ، أو ما جاء من طرق التغييرات الديموغرافية إثر الأحداث السياسية ، كالاختلاط بالحضارات المجاورة و منها حضارة الفرس العريقة نتيجة لما سمي بالفتوحات الإسلامية . كذا الأمر الحضارة الرومانية التي ارتبطت بحضارة أعرق منها هي الحضارة اليونانية .

الفكر المتوسطي القريم

بما أن الحضارات البشرية الأولى كان مركزها الأساس و منطلقها في سورية القديمة و بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) و مصر ، فإنه لا بد من أن يكون الفكر البشري عموماً و الفكر المرتبط بتلك الأمكنة خصوصاً ، نتيجة الوعي الإنساني لأفراد و جماعات الشرق الأدنى القديم . و بداية الوعي الفكري في ذلك الزمان و المكان ، كان على الأرجح وعياً دينياً اجتماعياً . و مع الزمن ، أضيف إليه الوعي الفكري السياسي .

إذن .. يصح القول أن الفكر الإنساني آنذاك ، كان فكر اجتماعياً ثم دينياً ثم سياسياً و من ثم بعد ذلك تطور ليصبح مزيجاً من العوامل الثلاث أنتج نظام الدولة و الحكم و نظام الكهنوت .

لقد كان التساؤل هو المنطلق الفكري الأساس الذي بنى عليه إنسان الحضارات الأولى ، منظومته الفكرية . و المقصود بذلك ، هو التساؤل الساذج البسيط أو الباطني الخفي الذي كان يطرحه إنسان ما قبل الحضارات الأولى ، بل هو التساؤل المتقدم الناتج عن تراكمات الخبرة الطبيعية و الحياة اليومية و المصادفات المادية الحسية التي واجهها و كان على تماس بما بواسطة حواسه الخمس (البصر – السمع – اللمس) تساؤل عماده (كيف؟؟ لماذا؟؟ متى؟؟ من؟؟ هل؟؟ ما الذي؟؟....) علامات استفهام كبرى كانت الأداة الأولى الدافعة باتجاه الفكر الشرقي القديم (إن صحت التسمية) ، و بالتالي كانت الأجوبة على تلك الأسئلة الكبرى .. كانت النواة الأولى التي ارتكز عليها هذا الفكر و بنى عليها تراكماته فيما بعد .

على أنه يهمن القول في هذا الصدد ، أن هذا التفسير هو التفسير التاريخي المنطقي الذي يختلف عن التفسير الديني للكتب المقدسة ، و بالأخص القرآن الكريم الذي اعتبر أن أول إنسان عاقل ، هو خلق إلهي و هو صنعة الله الذي وضع فيه الأساسات الأولى للعلوم و المعارف ، و ألقمه إياها . جاء في القرآن الكريم .. (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: ٣١) .

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق: ٤-٥) .

و بغض النظر عما يكن الأمر ، فإن الفكر الإنساني القديم قد امتزج بصراع الإنسان مع الطبيعة و طقوسها و عواملها و محاولة قهرها و السيطرة عليها ، و صراعه مع الحيوانات المفترسة لحماية نفسه ، و صراعه مع أقرانه من بني جنسه . إن ذلك كله توج بعبارة .. الصراع لأجل البقاء . و هذا عامل طبيعي لا ينبغي إغفاله و تجاهله ، و الذي على ما يبدو قد ترك آثاره إلى يومنا هذا .

لقد كان أهم عامل من عوامل تشكل الفكر الإنساني .. العامل اللغوي (اللغة) ، و هو تحويل المدركات العقلية و الأشياء المحسوسة و العناصر المادية ، إلى رموز صوتية . لقد كانت اللغة هي حاجة الإنسان إلى الفكر .. هي الترجمة العقلية الصوتية للفكر .. اللغة هي اختراع الفكر ، لتأتي بعد ذلك الكتابة كي تدون الفكر و تجعله موثقاً ، فإن كانت اللغة هي اختراع الفكر ، فإن الكتابة هي توثيقه .

من نافل القول .. إنه من الصعب تناول قضية الفكر المتوسطي القديم (إذا جازت التسمية) كمفهوم ينسحب على امتداد الرقعة الجغرافية العربية الحالية التي شاع وصف امتدادها الراهن بعبارة (من المحيط إلى الخليج) أو فيما سبق من قرون ، و تحديداً ما قبل تشكل الإمبراطورية العربية الشاملة و الجامعة لمكونات ثقافية و عنصرية و دينية متباينة . مرد ذلك إلى انتفاء التحانس الفكري و الثقافي و الديني ضمن بوتقة الجغرافية تلك . ذلك أيضاً مردّه إلى انتفاء

التجانس السياسي و الحضاري ، و حكمه .. سيطرة الإمبراطوريات القوية النافذة ذات الحضارات العريقة الضاربة بجذورها الزمنية و المثبتة لأوتادها المكانية. كالإمبراطورية الفارسية التي استحوذت بشكل عام على منطقة ما بين النهرين أو بلاد الرافدين (العراق حالياً) . و الإمبراطورية اليونانية التي احتلت بلاد الشام و مصر في بعض الأحيان ، لتخلفها بعد ذلك الإمبراطورية الرومانية التي أكملت سيطرتها على الشمال الإفريقي بعد أن حلت مكان الدولة اليونانية. يضاف إلى ذلك أيضاً ، الاختلاف الحضاري الذاتي لسكان هذه المنطقة .

إن حضارة مصر المقيمة ، بمجمل مفاصلها و بنودها و عناصرها و مقوماتها الفكرية و الثقافية الدينية و حتى العلمية ، هي غير حضارة بلاد ما بين النهرين العراقية أو الحضارة الفارسية أو الفينيقية و هي كلها حضارات مقيمة . ما يضطرنا إلى دراسة كل حضارة على حدة و هو أمر غير وارد في هذا المجال لهول تعقيده و كثرة تشعباته و حجمه على المخطوط . يضاف إلى هذا ، بروز إشكالية حجم و مقدار وضع التقييم العربي له ، و إعطاؤه صفة و لبوس العروبة، إذ أنه لا عروبة أو قومية عربية كانت تشكل حضوراً لها في مصر القديمة أو بلاد الرافدين . على أنه لا ضير بنظرنا من اعتبار ذلك نوعاً من المنطلق الأبستمولوجي لتشكيل الثقافة العربية فيما بعد و تحديد هويتها الفكرية و آليات تغلغلها في عقل و وجدان الإنسان العربي .

إن الفكرة الأساس التي تطرح في هذا المضمرة ، هي أن دراسة الفكر القديم في منطقة الشرق الأوسط قبل تشكل الأمة العربية و بروز مفهوم القومية العربية و لو بشكل ضبابي ، تُطرح لكي يتم تقديم تفسير معين للفكر العربي اللاحق له و ما بعد ، وصولاً إلى يومنا الحاضر هذا المفرغ من الفكر و كل ما يمت إلى الفكر بصلة اللهم إلا السليبي الهدام .

لقد دلت المكتشفات الأثرية القديمة ، على توافر كم هائل و كبير من الثقافة و الفكر في مناطق الشرق الأوسط القديم ، و تحديداً بلاد الهلال الخصيب (العراق

(- سورية - فلسطين - الأردن) و ما تآخمها من مناطق فارسية (إيران الحالية) ، بالإضافة إلى وادي النيل . تسرب ذلك بمجمله إلى كل الأبعاد الفكرية الثقافية آنذاك من علوم تطبيقية و دين و أدب . على أن المنظومة الفكرية التي ظهرت و نمت في هذه المنطقة ، قد ارتبطت عموماً بالعامل الديني أو هي خرجت أساساً من رحمه ، ربما على الأرجح لكون الدين هو المبحث الفكري الأول لدى الإنسان القديم الذي كانت أولى تساؤلاته الفكرية ، حول خلق الكون و ماهية الطبيعة المحيطة به من أمطار و برق و رعد و كواكب و حول ذاته هو كإنسان ، ذلك من المنظور التاريخي البشري العلمي أو الأثري .معزل عن التفسيرات الدينية السماوية التي أيدت هذه الفكرة أيضاً و اعتبرت أن الدين هو أول ما فكر به الإنسان أو بالأحرى أول ما أنزل عليه . و لكن هل يمكن إطلاق نعت الديني على الفكر آنذاك ؟؟؟ .

بنظرنا ، و من وجهة نظر تاريخية ، فإن أول فكر مستقل بذاته عرفه الإنسان و مارسه - حتى و لو لم يشعر به أول الأمر كشيء ملموس واضح - كان الفكر السلطوي .. فكر السلطة و التسلط .

لقد نشأ هذا الفكر حتى قبل الفكر الديني . و مبررنا في ذلك ، هو أن السلطة و التسلط هي بالنسبة للإنسان ، نوع من المتعة و اللذة الخفية أو الظاهرة ، و رغبة دفينة لا تجد جماحاً للخروج إلا بتوفر مسبباتها و مبررات خروجها . أما ما هي هذه المبررات و المسببات ؟؟ فإنها تبدو لنا أنها تعود في أساسها و أصولها إلى الحيوان .. إجابة قد تبدو غريبة . و لكن يمكن تصور الإنسان القديم الذي عاش في بداياته منعزلاً لم يدرك بعد نظام الجماعة ، قد لاحظ كيف أن جماعات الحيوان تتجمع في قطعان تعيش معاً و ترتحل معاً و لها سائس من بني جنسها يقودها و يدير أمورها . و لعله قد لاحظ أيضاً أثناء تصيده لأحد أنواعها ، أنه من الصعوبة بمكان الحصول على فريسة لقوت يومه و هو يواجه قطعياً متكاتفاً متراصاً ، و أنه من السهولة بمكان فعل ذلك عند الانفراد بأحدها . و لعله

لاحظ أيضاً تحاشي الحيوانات المفترسة مهاجمته عندما يكون مع جماعة من أقرانه ، و تجرؤها عليه عندما يكون وحيداً منعزلاً . كما لعله لاحظ أيضاً تصرفات تلك الحيوانات مع طرائدها من حيوانات أخرى . فأدرك بفطرة غريزية أو بوعي عاقل أن الجماعة أو الحزب هما عامل حماية و قوة و أنه لا يمكنه البقاء وحيداً منعزلاً منفرداً عن بني جنسه ، معرضاً نفسه للأخطار .

لقد كان منشأ أول تحزب بشري ، هو الأسرة و نظام الأسرة – و لو كان بدائياً بسيطاً في أوله – و هو نفسه كان عامل ثانٍ لنشوء الفكر السلطوي عند الإنسان . لهذا كانت السلطة كمفهوم و مصطلح ، فكر مستقل بذاته ، فكر غريزي طبيعي متأصل من جهة ، و فكر عقلائي له أسسه و شروطه و مقوماته من جهة أخرى . و إننا نرجح أن يكون الفكر السلطوي قد أسس فيما بعد ، لجميع الأفكار الأخرى .. الدينية منها و السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية . و ربما بسببه تأسست القبائل و قامت الممالك و الدول ، لأنه لولا حب التسلط و الرياسة و الريادة و نزعة التحكم و القيادة ، لما قامت تلك الدول و الأنظمة السياسية و الدينية و حتى الاجتماعية و الاقتصادية .

في الواقع .. هنالك غرائز و أحاسيس عدة سبقت الفكر الإنساني القديم . ربما تكون قد أسست لفكر السلطة و التسلط السائد إلى الآن ، و المتربع على هرم الذهنية الإنساني إلى يومنا هذا . و هي غرائز و أحاسيس ذات صبغة ثنائية ، متلازمة أو متضادة .. (الجوع – الشبع) ، (الجوع – الصيد و القتل) ، (الشبع – القتل و الأكل و الابتلاع) ، (الجنس – اللذة) ، (التعب – الراحة) ، (الدفاع عن النفس – القتل) ... الخ . و بالتالي ، فإن أي فكر إنساني تشكل بعد ذلك ، كان للأسف محكوماً بتلك الغرائز و الأحاسيس ، بطريقة أو بأخرى .

على أنه لا يمكن التكهن على وجه الدقة ما إذا كان تطور نظام الجماعة إلى نظام القبيلة و المجتمع و من ثم الدولة ، قد استلزم أن يتطور معه الفكر السلطوي

و يواكبه ليأسس له و يعمل على تثبيت دعائمه ، أم العكس هو الصحيح ، أي أن الفكر السلطوي قد تطور مع الزمن و استلزم أن يتطور معه نظام الأفراد إلى الصيغ المذكورة آنفاً . و بالأحوال كافة كان هنالك تكيف متبادل بين الفكر السلطوي (أول فكر عرفه الإنسان) و بين تطور الأنظمة و المفاهيم الاجتماعية و السياسية و الدينية و الاقتصادية و العسكرية ، و النتائج التي ترتبت عليها (حروب - احتلال - ثورات الخ) و كان هذا الفكر هو الأساس الخفي و الظاهر أحياناً ، الموجه لها و التي نشأت بمقتضاه .

إن ما نراه الآن من آثار و أحداث دموية تجتاح العالم ، و ما رأيناه أو قرأناه من قبل عن الحروب و النزاعات و الخلافات في الماضي القريب و ما سبقه . و كيف تم تشكل و انهيار الدول و الممالك و الإمبراطوريات ، و كيف توسعت أو تقلصت ، و علام كان أساس و عماد قيامها ؟؟ أكان دينياً ؟؟ أم عرقياً ؟؟ أم غير ذلك ؟؟ كذا الأمر نشوء الحضارات و انكماشها وصولاً إلى انقراضها . ذلك كله يؤيد مقولتنا بأن الفكر السلطوي أو فكر السلطة ، هو أول مصطلح أو منظومة فكرية عرفها الإنسان و ساق بها الأفكار و المصطلحات و النظريات الأخرى و أخضعها لها .

انظر إلى الممالك و الإمبراطوريات السالفة ، لم يكن أساس و عماد نشوؤها و سياساتها إلا التسلط بالإكراه على الممالك الأخرى . بدءاً من بلاد ما بين النهرين و مصر القديمة مروراً بالمدن اليونانية و إمبراطورية الإسكندر المقدوني الكبير ثم الإمبراطورية الرومانية و الفارسية ، ثم الإمبراطوريات الإسلامية و المسيحية و الدول التي نشأت في أعقابهما ، وصولاً إلى التاريخ الحديث و المعاصر و تشكل الدول الأوروبية و ما عرف بالاستعمار الحديث و المستعمرات . حتى الكشوفات الجغرافية الحديثة (الأمريكتين - المضائق البحرية الخ) كانت خدمة للاستعمار أو بوجه آخر ، أسست له و دعمته . حتى عصرنا هذا ، عصر ما يسمى الديمقراطية و حقوق الإنسان و حق تقرير المصير

.. للأسف هو عصر التسلط و القهر و الحروب و الدمار و تجبر القوي على الضعيف .. عصر حربين عالميتين مدمرتين ، و عصر احتمال نشوب أخرى ثالثة مع ما تحتمله من مغبة التدمير و الخراب بواسطة أسلحة الدمار الشامل لو تم استخدامها .

إذن يمكن القول بثقة ، أن الإيديولوجية الأساس الوحيدة التي اعتمدها الإنسان منذ وجوده على الأرض و إلى الآن ، هي إيديولوجية السلطة . و السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو .. على ماذا اعتمدت إيديولوجية السلطة؟؟ على ماذا اعتمد أول و أقوى فكر إنساني شامل ألا و هو فكر السلطة؟؟ .

لقد اعتمد هذا الفكر على عاملين اثنين .. عامل مادي ثابت ، و عامل فكري متغير .. العامل المادي هو عامل القوة ، و هو كان و لا يزال .. العامل الأساس و الأقوى الذي يعتمد عليه الفكر السلطوي ، و لولاه لما كان للسلطة وجود ، إذا لا سلطة لضعيف و لا سلطة دونما قوة تنفيذية تحميها و تصونها و تكون أداها و ركيزتها . و منذ القدم ، كان القوي هو الذي يحكم و يتسلط .. هو صاحب السلطة و القرار .

العامل الثاني الفكري الذي اعتمدت عليه السلطة كمفهوم . كان عاملاً ثانوياً بالنسبة لعامل القوة ، لكنه ربما لا يقل أهمية عنه كونه كان عامل تبرير و شرعنة للسلطة و للخضوع لها . و لعله ظهر في الفترات اللاحقة لفترة تشكل الجماعة الأولى أو نظام الأسرة الفردي ، كنتيجة للتطور الاجتماعي الإنساني و ظهور نظام المجتمع البسيط . و قد تجلّى هذا العامل بمظاهر عدة كالدين أو العرق أو الجغرافية المتجانسة (الإقليم) ... الخ . على أن الدين كان و لا يزال هو أقوى هذه المظاهر و أكثرها رواجاً و اعتماداً حتى يومنا هذا . فإذا كانت القوة بحد ذاتها ليست بحاجة إلى تبرير كونهما عامل مادي بحت ، فإن السلطة نتيجة تعقد العلاقات الاجتماعية و توسع المكان الجغرافي ، كانت بحاجة إلى ما يبرر لها وجودها بالرغم من اعتمادها على عامل القوة و الإكراه .

إذا أخذنا نظرية العقد الاجتماعي كمثال ، نجد أنها استندت إلى العاملين المذكورين آنفاً ، حيث تنازلت الجماعة أو الأفراد عن بعض حقوقهم و صلاحياتهم لنخبة عليا تنفيذية تمثل المجتمع ككل و تسهر على أمن أفراده ، و هو هنا ما يمثل عامل القوة ، بينما نظام المجتمع و كيانه ، كان هو العامل الفكري الاعتباري الثاني (نلاحظ هنا أن العامل الديني أو العرقي و غيرهما ، لم يتم طرحه مباشرة أو التطرق إليه صراحة بالرغم من أنه قد يكون هو الأساس ، لكن تم الاستعاضة عنه بمصطلح أكثر عمومية و استيعاباً و هو .. المجتمع . إن اتخاذ أية إيديولوجية مهما كانت (دينية - سياسية - اجتماعية - قومية - عرقية ... الخ) منحى سلطوياً و تسلطياً كخيار بدهي ، لهو دليل كاف على أن السلطة كمفهوم و مصطلح ، هي فكر مستقل بذاته و يصيغ الأفكار الأخرى بصبغته و هو أقوى من أي فكر آخر .

لقد تجلّى الفكر عموماً في الشرق الأدنى القديم عبر أصناف ثلاثة .. الفكر الديني .. الفكر السياسي .. الفكر الإنساني الاجتماعي . غير أننا في مبحثنا هذا لن نناقش الأمر الديني أو السياسي و نجادل بهما بقدر ما نناقش بالفكر الإنساني الاجتماعي المتماهي مع هذين المفهومين ، بالإضافة إلى الفكر الأخلاقي السامي المتعلق بمفاهيم عليا .

إن موجبات الصفة الدينية اللازمة للفكر القديم ، قد تأتت من عوامل عدة أبرزها .. احتكار الطبقة الدينية و تحديداً النخبة من الكهنوت ، للعلوم و المعارف و اعتماد تلك العلوم لمعرفة الآلهة أو الوصول إليها أو التعامل معها . كانت وظيفة العلم مناطة بالكهنة و رجال الدين و كان العلماء و الفلاسفة الإغريق و غيرهم ، كأفلاطون و فيثاغورث ، يتلقون العلوم - في إحدى مراحل حياتهم - بالمعابد المصرية على يد الكهان و رجال الدين . و كان الكهنة هم آباء العلوم التطبيقية إضافة إلى العلوم الروحانية كعلوم الطب و الفلك و الرياضيات و الهندسة . و من هذا المنطلق تحديداً ، احتكرت طبقة

الكهنوت تلك العلوم ، و ذلك من باب اضطرارها لاحتكار المفهوم الديني كله ، بتفرعاته و تشعباته كافة و ما ارتبط به من طقوس و أنظمة إدارية و فكرية . و قد اتخذت بعض الأدبيات الدينية في تلك الفترة كالأساطير و الأناشيد و الأدعية الدينية و التفسيرات المتعلقة بها ، منحىً فكرياً علمياً في مجمل الأحيان للتدليل على مصداقيتها . و من غير المرجح بنظرنا أن يكون للسياسة و أهلها في تلك الفترات ، ذلك الدور الأساس المضاهي للدور الديني في تبني عامل الفكر بمقوماته و فروعه كافة . و لم يكن الأمر السياسي وقت ذاك يعد بمترلة الحامل الرئيس للفكر أو العلم ، إنما كان مستند عليه أكثر من كونه حامل أو متين له (ربما في فترة لاحقة بدأ الأمر السياسي يفرض نفسه و يجبر الأمر الديني لحسابه و صالحه) . أما بعض الظواهر و المعالم التاريخية التي بدت و كأنها تبنى رأس الهرم السياسي للمفهوم الفكري و التعامل معه كتعبير حقيقي ذو دلالة مؤكدة لذلك ، فهي ليست بالأساس إلا تبنٍ للأمر الديني المتبني بدوره للأمر الفكري العلمي و الثقافي ، ذلك على اعتبار أن رأس الهرم السياسي في تلك العصور ، أولى اهتماماً كبيراً بتقمص صفات الآلهة أو التشبه بها أو ادعاؤها أحياناً .

لقد كان واضحاً أن الأمر الديني قد سيطر على الأمر السياسي و وضعه ضمن نطاقه و صبغ صبغته عليه ، و السبب في ذلك هو أن الدين كفكر و مفهوم ، كان هو السبّاق إلى ذهنية و تصور الإنسان قبل المفهوم و الأمر السياسي . فالميتافيزيقيا و الروحانية و الظواهر الغير مفسرة و التي فرضت نفسها على الفكر الإنساني كتحدٍ و معضلة يستوجبان حلاً يرضي هذا الفكر ، حتى و لو كان حلاً افتراضياً (هذا طبعاً من منظور تاريخي) التي كانت تمثل له حالة خوف و رعب (العواصف - الزلازل - الفيضانات - الموت - الأحلام ... الخ) من المؤكد أنها ستستحوذ عليه أكثر من الأمر السياسي الذي كان بشكل أو بآخر من اختراعه هو نتيجة تشكل و تطور الأمر الاجتماعي و الصراع البشري - البشري ، و لم يشكل له خوف أو رهبة . فالأمر الديني كان عبارة عن تعامل

مع مجهول قوي مخيف مدمر خارج عن الإرادة ، مقنع بوجوده ، ليس من اختراع البشر . بينما الأمر السياسي كان تعامل مع واضح معلوم من صنع البشر .

قد لا يفكر الإنسان بالسياسة ، و قد لا يستهوي الأمر السياسي البعض ، حسبما تقرره ظروف البيئة الجغرافية و الاجتماعية و التنظيمية و الحضرية . فمن المعروف أن بعض المجتمعات النائية في مجاهل الغابات أو الأمكنة ، لا تتركز كثيراً إلى الأمر السياسي و لا تلقى له بالاً . كذا الأمر بالنسبة لبعض القبائل البدوية في مختلف أنحاء العالم ، التي لا تكثرث بالأمر السياسي ، لا بل تأنف من السلطة و كيان الدولة و لا تُطيق لهما صبراً و لا تقبل بهما إلا بالإكراه و على مضض . و عندما تسنح لها الفرصة تنقض عليهما . و السلطة الوحيدة المقبولة لها ، هي سلطة القبيلة و رئيسها ، و الأعراف السائدة هي أعراف القبيلة و قوانينها .

إن منصب الرئيس أو الحاكم عند بعض القبائل في مجاهل افريقية و الأمازون ، لا يساوي شيئاً و حتى أنه غير معروف و لا أهمية له و قيمة . و عند بعضهم الآخر ، هو منصب شكلي خدمي . و يعزى السبب في ذلك عند بعض علماء الأنتروبولوجية إلى انتفاء مبدأ التخطيط و الجمع و التخزين و التفكير في يوم غد و ضعف شهوة السلطة و التملك و الحيازة لدى مثل هكذا جماعات و أضرابها . فأقصى هدف كانوا يتصورونه ، هو الشبع المؤقت الذي كان الحل الأمثل للجوع المؤقت ، و عند هذا الحد ينتفي التفكير تماماً . هذه المعادلة أو العلاقة الجدلية بالذات (جوع مؤقت — شبع مؤقت) كانت العماد و الأساس لانتفاء عنصر السلطة و السياسة ، و العامل الغير مشجع على بروزهما . لكن ما أن تغيرت تلك المعادلة و العلاقة الجدلية ، حيث أصبحت (جوع مؤقت — شبع دائم زائد عن الحاجة) حتى برز المفهوم الآخر ، مفهوم التسلط و التملك ليصل إلى المفهوم السياسي . لكن هذه المجتمعات و القبائل أو الشعوب البدائية ، فإنها

و إن نبذت الأمر السياسي أو لم تكثر به أو لم تعرفه و تدركه حتى .. كانت تعرف الأمر الديني أو الميتافيزيقي و تدركه تماماً ، لا بل و تتعلق به و تعتبره شيئاً مقدساً يجب احترامه و لا يجوز المساس به . فكان الطوطم لدى هذه الشعوب و القبائل و الجماعات بمثابة رمز القبيلة أو الشعب ، و حالة مقدسة كلية ، موكل بها السحرة أو رجال الدين . و مهمة هذه المؤسسة الوسيطة ، كانت وضع نوع من التفاهم الافتراضي بين الآلهة و البشر ، تقوم بالدرجة الأولى على اتقاء غضب هذه الآلهة و استرضائها بطريقة من الطرق ، وبالدرجة الثانية طلب المعونة منها .

هذا باختصار شديد ، طبيعة و ماهية الفكر الديني (من المنظور التاريخي) . هذا الفكر المذكور كان سابقاً للفكر السياسي الذي ربما من المرجح أن يكون قد خرج من رحمه ، و هو كذلك فعلاً ، و هو جوهر تفسير قضية اتكاء الحكام و الملوك و الفراعنة عليه في الشرق الأدنى القديم . فمما سبق ، نستطيع أن نستخلص تفسيراً للتصرفات و الأوضاع التي كان يتخذها هؤلاء الملوك و الحكام و الفراعنة بجعل أنفسهم إما آلهة أو أنصافها أو أرباعها أو موفدين من قبلها و مكلفين بأعمال تطلبها منهم . فالأمر و الفكر السلطوي كما ذكرنا كان هو السبّاق إلى ذهنية العقل البشري .. تلاه الأمر و الفكر الديني .. تلاهما الأمر السياسي . و لما كان الفكر السلطوي لا يمكن استتصاله كونه متأصلاً في العقول و النفوس ، فقد اندمج مع الفكر الديني و شكل السلطة الدينية . و لما كان الفكر الديني لا يمكن استتصاله من قبل من تلاه من أفكار و مفاهيم سياسية ، فقد اندمج الثلاثة مكونين فكر سلطوي ديني سياسي . و بالتالي أضحى هذا الفكر المركب بخلطة ثلاثية ، هو الحاكم و السائد و المسيطر . و من هنا أيضاً نستطيع أن نفسر المقاومة العنيفة الشرسة للأديان التالية المنفردة التي تظهر فيما بعد (و منها الأديان السماوية) التي كانت تلاقي مقاومة عنيفة قوية مسلحة تتمثل بمقتل أصحابها و ناشريها و اضطهاد معتنقيها أو إبادتهم في أسوأ

الظروف و الاحتمالات . و من كان ينجو منها و يوطد سلطانه وسيطرته ، كان يخضع بشكل أو بآخر لقانون الجاذبية الثلاثي (سلطة - دين - سياسة) و يبدأ بمقاومة أي دين آخر دخيل كونه يشكل تهديداً لتحالفه الثلاثي و ينذر ببروز تحالف ثلاثي آخر . دائماً كان الفكر الأقدم هو الذي يسيطر على الفكر الذي بعده و يحوره و يترك آثاره عليه و لو بشكل غير واضح . هذه هي ببساطة ، التفسيرات لكل ما حصل من أحداث و حروب ماضية . و عندما نلقي نظرة تاريخية إلى أحداث تلك الحضارات القديمة في الشرق الأدنى و غيرها من المناطق و الأقاليم ، يتبدى فوراً ذلك المشهد الدراماتيكي الذي يصور الحاكم المنتصر الذي يقوم بأول عمل له عند الانتصار و هو التنكيل بالهة المدينة المنكوبة و استبدالها بالهته هو ، و هو ما يعني بكل بساطة تشكيل الفكر الثلاثي الجديد أو المنتصر .

عندما جاءت اليهودية صاحبة أول فكر ديني توحيدي وسط عالم متلاطم من الوثنية ، لاقت عداءً صريحاً واضحاً و شرساً من خصومها الوثنيين تمثل بأحداث دامية امتدت على مدار ألفي سنة و أكثر . و تتضح صورة العداء المتبادل بين اليهودية و كل الدول التي حكمت الشرق الأدنى و شعوبها ، من هذا المنظور . و السبب في ذلك هو الصراع بين مفهومين ثلاثيين كل منهما استشعر الخطر على نفسه من الآخر . و ما أجدج سعي الصراع هو ثبات المفهوم اليهودي على قضية التوحيد التي تتنافى مع المفهوم الوثني تماماً و على طرفي نقيض منه و عدم قبول أية مهادنة معه مهما كانت و مقاومة أية عملية صهر و اندماج . و من أمثلة ذلك أن اليهود قد دخلوا تقريباً في صراع فكري ديني و حتى اجتماعي مع جميع الشعوب و الدول التي عاصرتهم آنذاك نتج عنه صراع مادي حتى الموت و كسر العظم و تدمير المدن ، ما تسبب بمذابح كبيرة لهم بدءاً من فراعنة مصر القديمة و ملوكها و حكام و ملوك بلاد ما بين النهرين (البابليون و الآشوريون) و الذين وصل بهم الأمر بعد مناوشات و حروب عدة

أن هاجموا شطر مملكة إسرائيل بقيادة نبوخذنصر و دمروه و دمروا الهيكل و أخذوا اليهود أسرى إلى بابل ، فكان ما يسمى (الشتات الأول) .. ذاك كله مروراً بالإغريق و الرومان الذين دمروا الهيكل للمرة الثانية ، و قاموا بتشتيت اليهود . و تلكم الشواهد موجودة في التوراة و القرآن .

و يلاحظ في المنظورين التاريخي و الديني ، أنه عندما كان اليهود يتعرضون للمذابح و التنكيل بهم من قبل خصومهم الوثنيين ، كان هؤلاء الأخيرين يجبرونهم على القيام بالعادات و التصرفات الوثنية غضباً عنهم . و كان اليهود الذين يتغاضون عن مظالم كثيرة من قبل هؤلاء ، يفضلون الانتحار و الموت ، على المساس بعقيدتهم التوحيدية و يرفضون رفضاً قاطعاً إدخال عناصر وثنية فكرية أو مادية إلى عقيدتهم و أفعالهم و عاداتهم . و ما يقال عن تفسير لذلك من أن تعامل الشعوب مع اليهود بهذا النمط العدائي و كرههم لهم ، يرجع في حيشاته إلى تصرفاتهم الخبيثة و أعمالهم الشريرة ، يشوبه الكثير من اللغو و يعتريه الكثير من الخلل و يتحكم به المعيار العاطفي الساذج أكثر من المعيار العقلي المنطقي التحليلي . فالخبث و الشر طبع من طبائع البشر ككل . و لعل طول المدة التي عاني فيها اليهود من استعداد الأديان الوثنية لهم و عنادهم و ثباتهم على موقفهم التوحيدي ، ساهم في إلقاء تلك الشبهة عليهم .

و مع ذلك فقد كان يحمل المفهوم الفكري القديم بشموليته و مقوماته ، منطلقاً رئيساً لبروز فكر علمي ثقافي خرج من رحمه و أوجد لنفسه استقلالية ملحوظة لها حضورها الواضح و إن كان له ارتباطاً شكلياً صورياً في بعض الأحيان يتبدل متغيراً حسب الظروف السياسية و تتحول شفافيته كثافة إما زيادة أو نقصان . و لعلنا في سياق البحث في مضمار القضية الفكرية تلك ، نجد أمثلة تدعم ذلك التصور ، نرشح منها على سبيل المثال قوانين حمورابي التي هي بنظرنا تتأرجح بين الصفة الدينية السياسية كونها صدرت حسب زعم السلطة السياسية آنذاك من الآلهة إذ قال حمورابي الملك إن الإله مردوخ قد أعطاه تلك القوانين و بعثه

رسولاً للشعب بصفته حاملاً لها لوضعها حيز التنفيذ و التطبيق . هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فقد اتخذت تلك القوانين مظهر الفكر العلمي ذي الجانب الاجتماعي المتقدم و الرأقي المستقل عن أية صفة دينية . ذلك ما يتجلى من خلال بنود و فقرات تلك القوانين التي مثلت رقياً في التعامل الأخلاقي بين أفراد الشعب ، و ذروة علياً في العدالة الاجتماعية بين مختلف فئات الشعب و طبقاته ، كونها بالأساس تناولت الحياة اليومية للمواطن العادي بمجمل مضامينها و تنوعاتها الاقتصادية و المالية و الإدارية و الاجتماعية و الأخلاقية .

إن أشهر قانون قدم عرفته البشرية ، هو قانون حمورابي الذي يتصف بأنه قانون عام شامل جمع أوجه سياسية و اقتصادية و اجتماعية و دينية متعددة تضاهي اليوم أرقى القوانين المعاصرة و هو في تلك الفترة العائدة إلى ما قبل الميلاد ، يعتبر صورة معبرة عن الفكر الإنساني لتلك المرحلة . و يكفي لإثبات ذلك ، أن قانون حمورابي تألف من / ٢٨٢ / مادة نقشت على مجموعة أعمدة ضخمة بلغ عددها / ٥١ / عموداً . و قد شمل هذا القانون في لفظة واضحة للنظر ، معظم شؤون الحياة اليومية و الاجتماعية و دلت مواده على تطور اجتماعي متمدن بدرجة عالية من الرقي و التحضر . و اللافت للنظر أنه لم يتطرق إلى الأمور والعبادات و الطقوس الدينية ، فاحتوى بذلك على مبدأ الحريات الدينية و انتفاء مبدأ التعصب الديني و كبت الحريات ، و نقول كبت الحريات لأن الحريات الدينية كانت في تلك الأزمنة و الأمكنة ، تتخذ وضع حساس صعب و صارم لا يمكن المساس به . و لهذا شكّل قانون حمورابي نقلة نوعية متقدمة جداً بالنسبة لذلك العصر في الرقي و التطور و التحضر . كما اتصف هذا القانون باهتمامه و تركيزه على مفهوم العدل و العدالة و بالأخص العدالة الاجتماعية و منع الظلم و القهر و شمل إلى جانب الأمور الاجتماعية الأمور السياسية و العسكرية و الاقتصادية . كما أنه على ركنه على التفاصيل الماسة لحقوق الأفراد . حيث نرى مناقشة قضية الشهادة و المتهم و الدفاع و الاستناد على حيثيات التهمة و

حيثيات الدفاع و وسائل الإثبات و حلف اليمين و الاعتراف و قوانين الزواج و الطلاق و التبني ، لا بل أنه ناقش حالات منع الزواج ، و الملكية و عمليات الإيجار و التعويض عن الضرر . و جميع الآثار المالية المترتبة على كل ما سبق ، بالإضافة إلى الى جرائم كثير عوقب عليها بالموت كجرائم الرشوة و الفسق و السطو و غيرها . و الأهم من هذا كله ، هو حق الاستئناف بعد الحكم .

القانون بنظرنا هو صورة للفكر العام الشامل للمجتمع و الدولة و الأفراد . نقول ذلك لأن القانون أياً كان نوعه و توصيفه و أياً كان مصدره .. إلهي أم وضعي ، فإنه لا يبدأ بأخذ بشكل أو بآخر و بكمّ معين ، بالأعراف الاجتماعية و التقاليد الشائعة في مجتمع ما ، سواء على نحو جزئي أو كلي .. متماه أو جامد . و الأعراف الاجتماعية بالتالي ، هي نوع من الفكر الفردي و الجماعي على حد سواء ، كونها تحمل تصور الفرد و الجماعة تجاه العلاقات الإنسانية في المجتمع بكل صورها و أشكالها الاجتماعية و الأخلاقية و الاقتصادية ، و حتى السياسية و العسكرية أحياناً . و من فقرات و بنود منتقاة من هذا القانون ، نستطيع إيراد لمحة عن الفكر الإنساني في ذلك العصر و إبراز مدى تطوره .

من أمثلة بعض القوانين على ذلك ، أهم مبدأ و مادة فيه و هي (العين بالعين و السن بالسن) التي ترتبط كمفهوم بالدقة في العدل و الميزان و القصاص . و منها نختار أيضاً¹ :

— (إذا كسر إنسان لرجل سناً أو فقاً له عيناً أو هشم له طرف من أطرافه ، حل به نفس الأذى الذي سببه لغيره) . فقرة تعطي دلالة على نضج مفهوم العدل بمعناه الواقعي الشفاف و المحايد ، قياساً إلى قدم الفترة الزمنية و إدراك إنسان تلك الفترة القديمة من الحضارة الإنسانية لهذا النوع من العدل .

¹ شريعة حمورابي - قصة الحضارة المجلد الأول .

- (إذا اُهمار بيت و قتل من اشتراه ، حكم بالموت على مهندسه أو بانيه) .
إضافة إلى مفهوم و فكرة العدل الراقي ، تعطي هذه الفقرة لمحة عن إدراك فكرة
حسن المسؤولية و نقيضه الاستهتار
- (إذا تسبب طبيب أثناء جراحة ، بموت مريض أو في فقد عين من عينيه ،
قطعت أصابع الطبيب) . فقرة تعطي دلالة لمفهوم و فكرة العدل المرتبط بعدم
المحاباة ، و تؤكد على نوع من انتفاء التفاوت الطبقي بين أفراد المجتمع لجهة
التعامل مع القانون و الخضوع له كون الطبيب كان يعتبر في تلك العصور من
الطبقة الراقية و ربما كانت من الكهان .
- لو ضرب رجل رجلاً و تسبب في جرحه ، فعلى الرجل أن يقسم أنه لم
يضره عامداً متعمداً و يدفع مصاريف الطبيب .
- إذا دخل رجل أو امرأة إلى بيت و قتل رجل أو امرأة ، يُسلم القتلة إلى مالك
البيت ، فإن ارتأى قتلهم فعل ، أو ارتأى التعويض ، يصادر ما يشاء من
أموالهم .
- لو تسبب رجل في إسقاط حمل امرأة ، يدفع / ١٠ / شيكلات من الفضة إذا
كان الجنين في أواخر شهور الحمل . و يدفع / ٥ / شيكلات إذا كان الجنين
في شهره الخامس .
- لو اتخذ رجل زوجة و لم يعقد عليها ، هي ليست زوجة .
- لو قرر رجل طلاق زوجته الأولى التي لم تحمل منه ، يعطيها مالا بقيمة هدية
زواجها و يرد إليها مهرها .
- لو بنى رجل بيتاً لطفله بالتبني ، ثم رزق بعد ذلك بأولاد و أراد أن يطرد
الولد بالتبني ، لا يذهب الولد خالياً معوزاً ، بل يعطيه والده الذي رباه ثلث
تركته من الأموال دون مزروعات الحقل و دون البيت .
- إن إلقاء نظرة فاحصة متمعنة على بقية البنود ، توضح لنا طبيعة أن الفكر في
بلاد الرافدين كانت ذات طبيعة معقدة مركبة تفصيلية على غير ما يوحي للوهلة

الأولى الانطباع ببدائية الفكر القديم . ذلك ما يلاحظ في الفقرات و المواد القانونية المتعلقة بالطلاق و حقوق المرأة و التبيي و جرائم القتل . ذلك كله يحمل دلالة وجود تطور فكري يثير الانتباه و التساؤل قياساً إلى قدم الزمن البشري آنذاك .

و إذا كان القانون يعتبر كدلالة فكرية للذهنية و العقلية في تلك الفترة ، فإن التصرفات الفردية و الرؤى الذاتية لبعض الحكام و الملوك آنذاك ، كبادرة شخصية لتطبيق العدالة من منظور هذا الحاكم أو ذاك ، كانت هي الأخرى بدورها تعطي دلالة أبعد جانبية و مفصلية لتطور الفكر الإنساني في تلك العصور ، و رقيه . فأحد ملوك العراق قديماً و يدعى أوركاجينا الذي كان ملك لإقليم (لكش) أصدر المراسيم التي تحرم استغلال الكهنة لكافة الناس . و ينص أحد هذه المراسيم¹ على أن " الكاهن الأكبر يجب ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة و يأخذ منها الخشب أو يستولي على ضريبة من الفاكهة . كما تم تخفيض رسوم دفن الموتى إلى خمس ما كانت عليه " . و حرم على الكهنة و كبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قرباناً للآلهة من أموال و ماشية . و كان مما يباهي به الملك ، أنه وهب شعبه الحرية . و يلاحظ في سياق ما سبق ، تطور تفصيلي بعد آخر يأخذ بعين الاعتبار تفاصيل مخفية في الحياة الاجتماعية لأفراد المجتمع تكون موهبة بأقنعة قانونية و شرعية دينية . فقضية مثل قضية الرشوة مثلاً ، يتم طرحها في وقت مبكر بالنسبة لهكذا مفاهيم و قضية استغلال الكهنة للناس و لا يستثنى من ذلك الكاهن الأكبر ، و قضية تفصيلية كقضية رسوم دفن الموتى ، و قضية خطيرة حساسة كقضية تقديم القرابين للآلهة و مناقشتها لآثار الاستغلال السلبية لها ، كل ذلك يدل على وعي فكري اجتماعي ربما يكون غير مسبوق قياساً للزمن للحادث به .

¹ قصة الحضارة ، المجلد الأول ، ج / ٢ ، ص / ١٧ .

و في عهد ملك آخر يدعى جوديا ، وُجد نقش يتحدث عنه^١ و قد كتب عليه " كنت أحد من سلطان الأقوياء رحمة بالضعفاء ، و في خلال سبع سنين ، كانت الخادمة نداءً لمخدومتها و كان العبد يمشي بجوار سيده و قد استراح الضعيف في بلدي بجوار القوي " . هي حالة شبيهة بالحالة السابقة كروية فردية من الحاكم الذي انتبه إلى قضية اجتماعية خطيرة على المجتمع على المدى البعيد ، و هي حالة تسلط الأقوياء على الضعفاء و المخدومون لخدمهم . كذلك الأمر تبرز صورة للوعي الفكري الإنساني القديم تجاه الفساد و تبيان أركان الفساد الأساس و من هم أعمدته و دعائمه ، و جعله مرتبطاً أساساً بالرشوة ، حيث جاء في الكتابات الأثرية أنه لما " أسرف الكهنة في ابتزاز أموال الناس ، نهض أوركاجينا و أخذ بنهمهم و جشعهم و اتهمهم بالرشوة في توزيع العدالة و بأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها من الزراع و الصيادين ثمرة كدهم . و أفلح في تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين . و سن القوانين لتنظيم الضرائب و الرسوم التي كانت تؤدي إلى المعابد . و حمى الضعفاء من ضروب الابتزاز و وضع الشرائع التي تحول دون اغتصاب الأموال و الأملاك^٢ " . هنا نلاحظ إدراك و وعي فكري كامل لمفهوم و عمل شبيهين بمفهوم و عمل المافيا المنظمة ، يضاف إليها النظرة الثاقبة الواعية العميقة لقضية اغتصاب الأموال و الأراضي و هو مفهوم يثير الدهشة كونه نظام جريمة فكري يفترض أن يكون متأخر قياساً للتطور الزمني البشري الاقتصادي و الاجتماعي و الارتباط بين ذلك و بين مفهوم الجريمة و الاستغلال السابقين .

و لعل القائمون على وضع تلك القوانين أو الذين سنّوها قد أوضحوا أيضاً ضمن تصريحات لهم ، موجبها إما الفخر بإنجازهم أو شرح حيثيات قوانينهم و بنودها لجمهورهم و شعوبهم ، و هذا ما أعطى بدوره نظرة توضيحية عن

^١ المصدر السابق ، المجلد الأول ، ج / ٢ ، ص / ٢١ .

^٢ المصدر السابق .

السوية الفكرية لهؤلاء القوم و هي سوية مشابهة لما سبق ذكره . و نضرب مثال على ذلك القوانين الأشهر في ميزوبوتاميا القديمة (العراق) قوانين حمورابي نفسها و ما يقوله واضعها أو ناقلها عن الإله (إن صح التعبير) حمورابي نفسه الذي يقول في معرض حديثه عنها " في ذلك الوقت ناداني (آنو و بل) أنا حمورابي الأعلى ، عابد الآلهة لكي أنشر العدالة في العالم و أقضي على الأشرار و الآثمين و أمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء . و أنشر النور في الأرض و أرعى مصالح الخلق . أنا حمورابي الذي اخترته (بل) حاكماً و الذي جاء بالخير و الوفرة و الذي وهب الحياة لمدينة أرك و الذي أمد سكانها بالماء الكثير و الذي جهل مدينة بارسيا و الذي خزن الحب لأوراش العظيم و الذي أعان شعبه في وقت المحنة و أمن الناس على أملاكهم في بابل " ^١ .

و في منقوشة أخرى تتناول الموضوع ذاته قال أحدهم عن القوانين و عن واضعها أو ناقلها " إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي و التي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة و حكومة طاهرة صالحة .. أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها .. حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء و حتى ينال العدالة اليتيم و الأرملة فليات .. أي إنسان مظلوم له قضية أمام صوري أنا ملك العدالة ، و ليقراً النقش الذي على أثري و يقول حقاً إن حمورابي قد جاء بالرخاء لشعبه مدى الدهر كله و أقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة " ^٢ .

من خلال ما سبق ذكره من شواهد وثائقية تميظ اللثام عن الفكر الاجتماعي السائد في العراق القديم ، يتبدى لنا بوضوح شكل هذا الفكر و نظرتة إلى الواقع الاجتماعي الحقيقي المعاش و ارتباطه بالجانب الديني بشكل أساس و من ثم الجانب السياسي . من خلال ذلك يمكننا القول أن القضية الأساس التي شغلت

^١ قصة الحضارة ، المجلد الأول ، ج / ٢ ، ص / ١٩١ .

^٢ المصدر السابق ص / ١٩٢ .

الفكر الإنساني القديم في بلاد الرافدين كانت قضية العدالة .. العدالة بجوانبها و ارتباطاتها و تفرعاتها .. و العدالة في الفكر الإنساني القديم ارتبطت على ما يظهر، بمفهوم الظلم كنفويض ملازم مقابل و مكمل و كقرين مضاد أساس يبرز صورة العدالة الحقّة . و هذه النقطة تحديداً ، قد أبرزت رقي الفكر الإنساني القديم من خلال تركيزه على حقيقة مفهوم الظلم و نوعيته ، فكان اختياره للظلم الاجتماعي كنموذج أول و أساس لبقية أنواع الظلم .. اختياراً صائباً ومؤشراً قوياً على الرقي الفكري ليأت بعد ذلك ربط هذا النوع من الظلم ، بما يسمى الأمراض الاجتماعية (السرقة - الرشوة - التعدي على حقوق الغير - اغتصاب أملاك الغير ... الخ) و عدم الاقتصار في ذلك على سوقة الناس و أسافلهم (مجرمون - لصوص - متسولون - مشردون ... الخ) بل امتد إلى نخبهم و أعاليهم (كهان - موظفين كبار - جباة ضرائب - كتبة ... الخ) هو إدراك حقيقي لمعنى العدالة و مفهومها ، و رقي فكري في التعاطي معها . ويأتي مؤشر ثالث على سعة هذا الفكر و قوته ، ألا و هو ربط كل تلك المفاهيم السابقة ، بالأمن القومي للمجتمع و نظام الحكم و الدولة آنذاك ، فيكون تأويل معادلة الارتباط تلك ، بالعلاقة التالية .. (العدالة - الظلم الاجتماعي - أمراض المجتمع) = أمن الدولة و المجتمع و رقيهما . هذا الفكر ربما من النادر أن تجد له مثيلاً عند بعض المجتمعات و الأنظمة في عصرنا هذا . و معرفة أن الظلم الاجتماعي و الأمراض الاجتماعية في نظام مجتمع و دولة ما ، هما الفيصل و العامل الأساس إما في قوته و ازدهاره ، و إما في انحطاطه و دماره و تعرضه لنهب الناهبين و أكل الأكلين . و بناء منظومة فكرية متكاملة على ذلك قياساً لما هو عليه الآن وضعنا الراهن ، يستحق التساؤل عما إذا كانت مثل هكذا قوانين و أنظمة ، هي من وحي الإله حقاً و ليست من صنع البشر .

كذلك الأمر ، أعطت الحوادث السياسية و العسكرية و الحروب و المناوشات و الرسائل المتبادلة بين الممالك و الدول القديمة ، صورة أخرى لطبيعة الفكر السياسي ، ففي حادثة توصف انتصار الملك سرجون الأكادي¹ ، جاءت في قصيدة تمجد انتصاره ورد ما يلي :

" في هذه الأيام امتلاً مقر (أكد) بالذهب
و اكتظت منازلها المتألقة الضياء بالفضة
و احضر إلى مخازنها النحاس و الرصاص و ألواح اللازورد
و انتفخت جوانب صوامع غلالها من كثرة ما بها من حبوب
و وهبت نساؤها المسنات الرأي السديد
و وهب رجالها المسنون فصاحة القول
و وهب شبابها قوة الأسلحة
و وهب أطفالها قلوباً مرحة
و امتلاً داخل المدينة و خارجها بالموسيقى
و لم يشهد أهلها سوى السعادة " .

مشهد تصويري يوضح طبيعة الفكر الاستراتيجي العسكري و السياسي لمفهوم ما عُرف بالدولة المدينة أو الممالك المنسوبة إلى عواصمها . و تتضح الإستراتيجية الفكرية في الصورة النظرة إلى أعضاء و طبقات المجتمع و طبيعة الدور الملقى على عاتق كل منها ، فهي بكل بساطة عملية توزيع اختصاصات و أدوار إذا نظرنا إليها نرى أنها ذات طبيعة ترابطية تكاملية يجري الحديث فيها عن مخزون استراتيجي من الاحتياطي النقدي (الذهب و الفضة) و المخزون الاستراتيجي الغذائي (امتلاء صوامع الحبوب) و المخزن الاستراتيجي لمواد

¹ تاريخ الشرق الأدنى القديم ص / ٦٩ .

الخام الصناعية (مخازن الرصاص و النحاس) يضاف إليه الفكر السياسي و القيادة الجماعية الشبيهة بالبرلمان و مجالس الشيوخ (نساء مسنات - رجال مسنون - فصاحة القول - الرأي السديد) .

هذا الفكر الإستراتيجي المتقدم قياساً للزمن الذي هو حاصل فيه ، يقابله فكر آخر يدل على رؤية مغايرة تضع العامل الديني فوق أي حساب و تخضع له كافة المعايير و الاعتبارات الأخرى و أنه ما لم يتم أخذ العامل الديني بعين الاعتبار ، فإن العواقب سوف تكون وخيمة على أقل تقدير ، حيث جاء في الكتابات الأثرية أنه في أواخر فترة حكم سرجون الأكادي نفسه ، تعرضت مملكته إلى متاعب كثيرة منها الثورات الداخلية و الحروب الخارجية و عزى البعض من الكهنة ذلك ، إلى أن سرجون الأكادي قد أغضب الإله مردوخ بسبب إساءته لمدينة بابل و إعادة بناء معابدها حسب مزاجه في انتهاك واضح لإرادة الإله مردوخ . أما الحاكم السومري (جوديا) الذي جمع ما بين الورع و الحكمة ، فقد كان ينسب المشاريع العمرانية التي يقوم بها إلى آلهة (لجش)¹ .

يتضح من الحادثة السابقة أن الدين آنذاك كان يشكل حالة مستقلة في الفكر الإنساني و يشكل حالة استيعاب لمجمل القضايا و الإشكالات الاجتماعية و السياسية و الحربية .. استيعاب بمعنى تفسير أي استعصاء فكري أو مادي حادثي واقعي كحل افتراضي ربما ، في عموم الأحوال التي ترد فيها الأجوبة عن قضايا معينة إلى العامل الديني كإغلاق لقضية ما ، يجب إغلاقها أو استغلالها ضد خصم معين . و هو أمر مازال يحصل في أيامنا هذه . و هذا إن دل على شيء إنه يدل على تطور مفهوم أداء و وظيفة الدور الديني .

هذه الحادثة تدعم و تؤيد قضية هيمنة الفكر الديني السلطوي على ما عداه من أفكار و مفاهيم أخرى . و في الواقع ، هي بنظرنا تمثل نوع من أنواع تجلي

¹ المصدر السابق .

الفكر الوثني و صورة من صوره .. فالآلهة تتدخل في كل شيء و في كل شاردة و واردة للحياة اليومية للإنسان القديم .. تغضب لتصرفات البشر التي لا تعجبها و التي هي مرتبطة عادة بمصالح مادية دنيوية و ليست ذات علاقة بمسائل دينية أخلاقية أو ما يتعلق بفساد البشر .

هذه القضية أو المفهوم (من وجهة النظر التاريخية) ، كانت أول ما دخل إلى عقل الإنسان القديم الذي وضع التعريفات الإلهية الافتراضية للأشياء المادية الحسية الموجودة أمامه في الطبيعة كحل افتراضي حيث لم يسعفه إعمال العقل و الفكر في إيجاد التفسير العقلي لظواهر الطبيعة و ما وراءها . و بالتالي كانت الآلهة افتراضية .. آلهة الزرع المختصة بالزراعة و الحصاد و الغلة و المواسم - آلهة الحرب - آلهة الحب - آلهة البحار و الأنهار - آلهة الخير - آلهة الشر ... الخ . و بقليل من التدبر يتضح لنا أن هذه كلها عبارة عن آلهة مفاهيم .. آلهة للمفاهيم الافتراضية و المادية الموجودة أمامه في الطبيعة ، فكان لزاماً طبعياً و أمراً بدهياً أن تكون هذه الآلهة موجودة في حياته اليومية .. معه في الأسواق و الحقل و المعبد و غيرها ، و تتصرف كأشخاص لها مصالح شبيهة بمصالح البشر الدنيوية ، و بالتسمية الأدق .. شبيهة بالmafia المنظمة ، حيث يتم جباية الأموال و المحاصيل و الأصول العينية من البشر بطريقة زمنية دورية ، منظمة و ممنهجة . و إذا تأخر الدفع أو لم يحصل ، تكون مغبة ذلك ، العقاب الفوري العاجل الذي عادة ما يأخذ شكل التصفية الدموية و تدمير الممتلكات و الأرزاق . و أحياناً تتسع رقعة الغضب و التدمير لتشمل مدن بحالها . و ما يدعم هذا التصور لدينا ، هو عادة أو ظاهرة تقديم الأضاحي البشرية السنوية للآلهة لكف بلاعها و غضبها أو لاستجلاب حمايتها لمنطقة معينة ، من الأشرار . ذاك كله يرتبط بشكل أو بآخر بالأمر السياسي البحث ، و يفسر قضية تقمص الملوك و الحكام للوضع الإلهي و ادعاءهم بأنهم آلهة أو أنصافها أو أرباعها أو من قبلها ، حيث أن ذلك يسهل عليهم ، لا بل يضمن لهم سوس الناس و قيادهم و ائتمارهم بأمرهم دونما

تمرد أو عصيان . و من منطلق ما سبق ذكره أيضاً ، كان يتم زج الآلهة المحلية و الإقليمية و الدولية ، بالحروب و الصراعات فيما بين القرى و المدن و الدول و الممالك ، و ربما تم خلق قصص و أساطير عن صراع الآلهة نفسها لتبرير الحروب و الصراعات البشرية السياسية . و من مثال ذلك ما ورد في أسطورة (أينوما إيليش) العراقية ، و أسطورة (أوزيريس) المصرية ، و هي على سبيل المثال لا الحصر . يضاف إلى ذلك أن معظم الجيوش المتحاربة قديماً ، كانت تحمل في مقدمها راية الآلهة خاصتها أو أصنامها نفسها .

كانت الأسطورة في العصور القديمة ، الوعاء الذي يحوي الفكر الإنساني الإلهي السياسي الاجتماعي . و هي التي قدمت التفسير المريح المقبول ربما لـ اللا إجابة حول المآزق الفكري الديني للإنسان و التبرير للوضع السلطوي السياسي المستند إلى الأمر الديني . هي بنظرنا التبرير الافتراضي المقبول و الذي لاقى قبوله على مدار قرون عدة ربما تكون قد امتدت إلى يومنا هذا لكن بصيغ مختلفة . بالعودة إلى أسطور الـ (إينوما إيليش) العراقية ، تتضح لنا بعض صور العلاقة بين صراع الآلهة و صراع البشر ، و من هذه السطورة جاء ما يلي :

[عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء لم يكن من الآلهة سوى آبسو أبوهم و مو و تعامة التي حملت بهم جميعاً ، فخلقت الآلهة الثلاث لخم و لخممو الذين جاؤوا بالآلهة إنشار و كيشار الذي أنجبا آنو و ريثهما ، و آنو أنجب ابنه نوديمود أو أيا أزعجوا بمركتهم تعامة ، نعم لقد هزوا جوف تعامة ، يروحون جيئة و ذهاباً في مسكنهم المقدس لم يقدر آبسو على إسكات صخبهم ، و تعامة كانت ساكنة حيال أفعالهم رغم ألمها من سلوكهم و رغم رفضها لطريقتهم و في غرفة الأقدار تلك ، غرفة المصائر .. أحكم الحكماء .. أحكم الآلهة ، في آبسو المقدس ، مردوخ قد ولد ، أيا كان له أباً و دومينا التي حملت به أما ... رفع شأنه بين الآلهة و زاد من قدره عليهم ، فكان أرفعهم

مقاماً و أسبقهم في كل شيء لا تدركه الأفهام و لا يحيط به خيال
كان الأعلى بين الآلهة ما لهيئته نظير مردوخ الذي أحدث الأمواج فاضطربت
لها تعامة قلقة صارت تحوم على غير هدى] .

هنا تتحمس بعض الآلهة المؤيدة لـ (تعامة) و يشجعوها على قتال الإله
(مردوخ) و من معه من آلهة [جاؤوا إلى أمهم تعامة قائلين دعونا نعلن
الحرب على الآلهة (الشابة) ثم احتشد الجمع و ساروا إلى جانبها ...
غاضبين يحكون الخطط ليل نهار... يتهيؤون للحرب في هياج و ثوران] .

و عندما يشعر الطرف الآخر من الآلهة بما يحاك ضدهم و يدبر لهم من قبل فريق
الآلهة (تعامة) جاؤوا إلى الإله (مردوخ) و طلبوا منه النجدة فقال (مردوخ)
لكبيرهم [يا سيد الآلهة و سيد مصائرهم / إذا كان لي أن أنتقم لكم حقاً
فأقهر تعامة و أحفظ حياتكم / فإني أطلب اجتماعاً يعلن فيه اقتداري / و
عندما تلتقون جذلين في قاعة الاجتماع / اجعلوا لكلمي قوة تقرير المصائر
بدلاً عنك / و لبيق ما أخلق قائماً لا يزول ، و ما أنطق به من أوامر ماضياً لا
يحول] .

توافق الآلهة على طلب الإله (مردوخ) و تلي له كل طلباته ، فيقوم بمحاربة
الآلهة (تعامة) و الانتصار عليها و توزيع الغنائم على أنصاره و مؤيديه من
الآلهة [ثم أعطى لآنو و أنليل و أيا مسكنهم - خلق محطات لكبار الآلهة
يستريحون بها - أوجد لكل مثيله من النجوم] .

لكن الآلهة تلك بعد نشوة الانتصار تطلب خلق كائنات أخرى لخدمتها و
إراحتها من عناء العمل ، فتطلب من (مردوخ) أن يساعدها في ذلك [فلما
انتهى مردوخ من سماع حديث الآلهة / حفزه قلبه لخلق مبدع / فأسر لأيا بما
يعمل في نفسه / و أطلعه على ما عقد عليه العزم / سأخلق دماء و عظاماً /
منها سأشكل لالو و سيكون اسمه الإنسان / نعم سوف أخلق لالو الإنسان /

و سنفرض عليه خدمة الآلهة و يخلدون للراحة / نعم سوف أخلق لالو
الإنسان / و سنفرض عليه خدمة الآلهة فيخلدون للراحة] .

بعد كل هذا يتم وضع القانون الإلهي النهائي الذي تتعامل بموجبه الآلهة مع بني
البشر [و ليسط رعايته للبشر أجمعين / فيلهج باسمه لسائهم و يذكرون
نعمته عليهم أبداً / و يقدمون القرابين لآبائه / فيقيمون أودهم و يرعون
هياكلهم / و يصنعون لهم محرقات القرابين يتنسمون رائحتها / و كما فعل في
السماء لتكن كذلك مشيئته على الأرض / فيعلم البشر كيف يخشونه / و
يكون حاضراً في قلوبهم أبداً / و يحفظون أبداً حدود إلههم و آلهتهم / ثم
فلينتشروا في الأرض و يزينوها بيوتاً لهم] .

بنظرنا أن الإنسان في الفترات و العصور القديمة و في فترات نشوء الحضارات
البشرية الأولى ، كان يحاول إيجاد نوع من العلاقة بينه و بين الآلهة . فطالما كان
عاجزاً عن إدراك ماهية الآلهة و أسباب الظواهر الطبيعية المؤذية و المدمرة ، و
كان يخضع خضوعاً تاماً لآلهة افتراضية . و طالما وجد ثغرة ما ، في إدراك طبيعة
ما ، لهذه الآلهة - من وجهة نظره الافتراضية أيضاً - و وجد مساحة من الحرية
أو الشعور بالتسامح أو التجاهل أو التغافل من قبلها عنه ، كان يحاول إشراكها
في طبيعته البشرية و صورته الآدمية . و السبب في ذلك بنظرنا ، هو أن الإنسان
كان منذ البدايات الأولى و ربما باللاشعور ، يحاول إيجاد تفاهم نهائي بينه و بين
الآلهة بحيث يسود السلام الدائم و الاطمئنان . كان يحاول البحث عن نوع من
البروتوكول (إن صحت التسمية) . و إن أمكن .. أن يكون هنالك وثيقة
مكتوبة ، فلا بأس .

هذا الأمر نلاحظ له وجود في الأديان السماوية أيضاً ، حيث كانت اليهودية
بالعرف التوراتي ، كلها عبارة عن عهد و ميثاق بين الله و بين بني إسرائيل ،
حتى أن التوراة بمجموع أسفارها الخمسة الأساس و البقية التابعة ، تسمى عرفاً

(العهد القديم) . و من أمثلة ما جاء بالتوراة في سفر التكوين كان أول عهد رسمي بين الله و اليهود و قد خصص له إصحاح بكامله^١ و مما جاء فيه :

[١ و لما كان إبراهيم ابن تسع و تسعين سنة ظهر الرب لإبرام و قال له أنا الله القدير سر أمامي و كن كاملا* ٢ فاجعل عهدي بيني و بينك و أكثرك كثيرا جدا* ٣ فسقط إبراهيم على وجهه و تكلم الله معه قاتلا* ٤ أما أنا فهو ذا عهدي معك و تكون أبا لجمهور من الأمم* ٥ فلا يدعى اسمك بعد إبراهيم بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أبا لجمهور من الأمم* ٦ و أثمرك كثيرا جدا و أجعلك أما و ملوك منك يخرجون* ٧ و أقيم عهدي بيني و بينك و بين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا لأكون إلهك و لنسلك من بعدك* ٨ و أعطي لك و لنسلك من بعدك ارض غربتك كل ارض كنعان ملكا أبديا و أكون إلههم* ٩ و قال الله لإبراهيم و أما أنت فتحفظ عهدي أنت و نسلك من بعدك في أجيالهم* ١٠ هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني و بينكم و بين نسلك من بعدك يختن منكم كل ذكر* ١١ فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني و بينكم* ١٢ ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم وليد البيت و المتباع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك* ١٣ يختن ختانا وليد بيتك و المتباع بفضتك فيكون عهدي في لحمكم عهدا أبديا* ١٤ و أما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها انه قد نكث عهدي* ١٥ و قال الله لإبراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة* ١٦ و أباركها و أعطيك أيضا منها ابنا أباركها فتكون أما و ملوك شعوب منها يكونون* ١٧ فسقط إبراهيم على وجهه و ضحك و قال في قلبه هل يولد لابن منة سنة و هل تلد سارة و هي بنت تسعين سنة* ١٨ و قال إبراهيم لله ليت إسماعيل

^١ هو الإصحاح رقم / ١٧ / من سفر التكوين في التوراة .

يعيش أمامك* ١٩ فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنا و تدعو اسمه اسحق و أقيم عهدي معه عهدا أبديا لنسله من بعده* ٢٠ و اما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ها انا اباركه و اثمرة و اكثره كثيرا جدا اثني عشر رئيسا يلد و اجعله امة كبيرة* ٢١ و لكن عهدي اقيمه مع اسحق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الاتية* ٢٢ فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن ابراهيم* ٢٣ فاخذ ابراهيم اسماعيل ابنه و جميع ولدان بيته و جميع المتاعين بفضته كل ذكر من اهل بيت ابراهيم و ختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله* ٢٤ و كان ابراهيم ابن تسع و تسعين سنة حين ختن في لحم غرلته* ٢٥ و كان اسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته* ٢٦ في ذلك اليوم عينه ختن ابراهيم و اسماعيل ابنه* ٢٧ و كل رجال بيته ولدان البيت و المتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه] . و الرب أيضا في العهد القديم قد أقام عهده مع النبي نوح حيث جاء في سفر التكوين نفسه :

[١٧] فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء كل ما في الأرض يموت* ١٨ و لكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت و بنوك و امرأتك و نساء بنيك معك] .

إن مضامين العهد القديم زاخرة بشكل كبير بمفهوم العهد الإلهي ، و دائما ما يشار إليها في وقائع و أحداث كثيرة متعددة و لا يكاد سفر من أسفار التوراة يخلو من الإشارة لهذا العهد و التحذير منه .. فالرب يتحدث عنه و يحذر من نقضه و كذلك الأنبياء يشيرون إليه عند كل مناسبة و يحذرون رعيتهم من مغبة تجاوزه أو نقضه .

يلاحظ أن فكرة هذا العهد قد امتدت أيضا إلى المسيحية و قد وردت نصوص عدة تتحدث عن تذكير أتباع الكنيسة بالعهد

[٧٢] ليصنع رحمة مع آبائنا و يذكر عهده المقدس* ٧٣ القسم الذي حلف لإبراهيم أبينا] . (إنجيل لوقا - الإصحاح الأول) .

[٨] لأنه يقول لهم لائما هو ذا أيام تأتي يقول الرب حين أكمل مع بيت إسرائيل و مع بيت يهوذا عهدا جديدا* ٩ لا كالعهد الذي عملته مع آباؤهم يوم أمسكت بيدهم لأخرجهم من ارض مصر لأنهم لم يشبوا في عهدي و أنا أهملتهم يقول الرب* ١٠ لان هذا هو العهد الذي أعهده مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب اجعل نواميسي في أذهانهم و اكتبها على قلوبهم و أنا أكون لهم إلهما و هم يكونون لي شعبا] . (رسالة بولس إلى العبرانيين)

[٢٥] انتم أبناء الأنبياء و العهد الذي عاهد به الله آباءنا قائلًا لإبراهيم و بنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض* ٢٦ إليكم أولا إذ أقام الله فتاه يسوع أرسله يبارككم برد كل واحد منكم عن شروره] (أعمال الرسل - الإصحاح ٣ / ١) .

[٢٣] إن الرب يسوع في الليلة التي اسلم فيها اخذ خبزا* ٢٤ و شكر فكسر و قال خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم اصنعوا هذا لذكري* ٢٥ كذلك الكأس أيضا بعدما تعشوا قائلًا هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري] (رسالة بولس الأولى - الإصحاح ١١) .

علمًا أن الأناجيل الأربعة و توابعها من رسائل ، كانت كذا الأمر بالنسبة للتوراة ، تسمى عرفًا (العهد الجديد) . و من المعلوم طبعًا فإن اليهودية قد رفضت (العهد الجديد) و لم تنصو تحت لوائه بل لم تعترف به و بقيت محافظة على عهدها الخاص بها ، مع الرب .

أيضًا في الديانة الإسلامية جاء ما يفيد بهذا الخصوص ، علمًا أن القرآن لم يسمي نفسه أو يتخذ لقب أو وصف (العهد) ، بل وصف نفسه بوجوه عدة

منها (الكتاب - الفرقان - القرآن - الذكر) . و من جملة ما جاء في القرآن

..
(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (البقرة: ٢٧)
(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ) (الرعد: ٢٠)
(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ
اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) (النحل: ٩١) .
(أَطَاعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) (مریم: ٧٨) .

و كذا الأمر لم يتم الاعتراف و القبول بالدين الإسلامي الجديد من قبل سالفه
اليهودي و المسيحي . و هذا الرفض عموماً يقع ضمن إطار الحلف الثلاثي
الفكري (سلطة - دين - سياسة) المذكور سابقاً . و القضية بكل بساطة هي
بنظرنا تتأتى من هذا المنطلق حيث أن الطبيعة الإنسانية قد طبعت هذه العهود
بطبائعها في نهاية الأمر ، و لذلك كانت تجد في كل دين جديد ، خطراً داهماً
عليها بعد أن تكون قد قولبت الأمر الديني الخاص بها ، لصالحها و طوعته طبقاً
لضرورات و شروط الحلف الثلاثي الفكري خاصتها . و كي يتم فهم هذه
القضية بشكل جيد ، يجب التفريق بين مفهوم العهد الإلهي الوثني (إن جازت
التسمية) و مفهوم العهد الإلهي السماوي . فالأول صناعة بشرية بامتياز ،
جاءت بمبادرة من البشر أنفسهم و بشروطهم و متطلباتهم ، حتى الخصوصية
منها و بما يضمن مصالح الحكام البشر الذين ادعوا الإلهية أو قسم منها أو
تبنيها لهم ، فالفرعون أو الحاكم الإله ، كان يسن بعض قوانينه أو كلها التي تمثل
طبيعة علاقته مع الشعب و الجمهور ، كان يفعل ذلك على اعتبار أنه إله و أن
هذه القوانين هي قوانين معقودة فيما بين الشعب و الآلهة ، و لم يكن هنالك
(على الأغلب) أية حقوق للشعب و الجمهور . و كان الشعب يتقبل ذلك
بمنطق القبول العقلي لا الإكراهي الجبري . بينما العهد الإلهي السماوي

التوحيدي ، جاء بمبادرة من الله و بمشيئته هو و ضمن شروطه هو التي تخالف في قسم كبير منها ، أهواء البشر و رغباتهم و لاسيما الحكام و المتسلطين و المتنفذين منهم ، و بالوقت نفسه أعطت الفريق الثاني حقوقه و عبرت عن التزام الله بها و وعده بضمائها و القيام بها . و نجد أمثلة كثيرة لذلك . جاء في التوراة :

[٧ و ظهر الرب لإبرام و قال لنسلك أعطي هذه الأرض .. فبني هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له] (سفر التكوين - الإصحاح ١٢) . و جاء أيضاً

[١٣ طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة و للرجل الذي ينال الفهم * ١٤ لان تجارتها خير من تجارة الفضة و ربحها خير من الذهب الخالص] (سفر الأمثال - الإصحاح ٣) .

و في الإنجيل جاء ما يدعم هذه الفكرة و منه :

[٤ فخرج حينئذ من ارض الكلدانيين و سكن في حاران و من هناك نقله بعدما مات أبوه إلى هذه الأرض التي انتم الآن ساكنون فيها * ٥ و لم يعطه فيها ميراثا و لا وطأة قدم و لكن وعد أن يعطيها ملكا له و لنسله من بعده و لم يكن له بعد ولد] (أعمال الرسل - الإصحاح ٧) .

[٢٣ من نسل هذا حسب الوعد أقام الله لإسرائيل مخلصا يسوع] (أعمال الرسل - الإصحاح ١٣) .

[٦ و أما التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة] (رسالة بولس إلى أهل تيماسوس - الإصحاح ٦) .

و في القرآن ، جاء أيضاً ما يوضح الوعد الذي قطعه الله على نفسه تجاه البشر المؤمنين . بموجب العهد الإلهي المعقود بينه و بين الذين بايعوا الرسول محمد (ص) . و من أمثلة ذلك :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) (النساء: ١٢٢) .

(وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) (المائدة: ٩٠) .

(وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ) (التوبة: ٧٢) .

(وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ

كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ

ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور: ٥٥) .

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) (فاطر: ٢٩) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ *

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (الصف: ١٠-١١) .

يلاحظ أن وصف (التجارة) قد أُطلق أيضاً على العلاقة الدينية بين الإنسان و

الخالق في الأديان السماوية الثلاث ، و اعتبار هذه التجارة هي التجارة الحقيقية

. أي هي تعبير عن صفقة .. و إن الله يعد العلاقة معه من قبل البشر هي الصفقة

الحقيقية الراجعة بالنسبة لهم و هو الذي سماها صفقة و ليس البشر ، و هذه إشارة

هامية جداً نستطيع أن نربطها مع قضية أو مفهوم الحلف الثلاثي الفكري

المذكور ، كون هذا الحلف أو الثالوث الفكري ، هو في أساسه نوع من الصفقة

الخفية أو التجارة الغير مباشرة أو بشكل أصح و أدق ، الحلف التجاري

الاقتصادي الخفي . لأن هذا الحلف بالرغم من كون أثاره الأساس هي السلطة

– الدين – السياسة ، فإن له أئقية رابعة خفية تربط هذه الأثافي الثلاث بعضها ببعض و تمنع من تشتتها و تثبت ديمومتها ، هي الأئقية الاقتصادية المالية الإنتاجية . لقد كان الحلف الثلاثي الفكري ، أفضل أداة وظيفية توفيرية للقائمين عليه و للدول و الممالك و الجماعات التي تعتمد . إن مشاريع البنى التحتية الضخمة و الأعمال البنيوية الكبيرة التي تحتاج إلى حشد طاقات هائلة جبارة و أعداد غفيرة حجة من الأيدي العاملة و فترات زمنية طويلة و رأسمال ضخم و نفقات هائلة طائلة ، هي ، من الصعوبة بمكان القيام بها بالنسبة إلى الدول الضعيفة أو المتوسطة القدرات و الإمكانيات .. حتى الدول القوية الغنية تحسب لهذه المشاريع ألف حساب و هذا الأمر ما زال ينسحب إلى الآن في عصرنا الحالي .

إن هكذا مشاريع و منجزات بنيوية ، تحتاج إلى موارد بشرية هائلة و موارد مالية هائلة و موارد إنتاجية (مواد خام) هائلة ، ليس من اليسير الهين توفر شروطها و سبلها إلا بتوفر الموارد المذكورة التي تتطلب تكاليف باهظة . لكن منذ تاريخ البشرية و نشوء الحضارات الإنسانية إلى الآن ، وُجد شيء واحد قادر على فعل ذلك بتكاليف يسيرة و أحياناً شبه معدومة .. شيء واحد يمكنه القيام بذلك و لا يتطلب إلا الموارد الإنتاجية فقط من مواد خام . أما الموردين الآخرين فلا يلقي لهما بال . هذا الشيء هو بكل بساطة .. الحلف الثلاثي الفكري الذي يحشد كل الطاقات و الجهود و الأموال و التكاليف اللازمة لإنشاء مشروع عمراي أو بنيوي ضخم و بقناعة كاملة من الداخلين في هذا المشروع و ربما رضا و تحمس أحياناً . و ما الأهرامات المصرية الضخمة التي كلفت ملايين الأطنان من المواد و مئات الآلاف من الضحايا و عشرات السنين من الزمن و لم تكلف الحكام المصريين الذين أنشأت من أجلهم ، شيئاً .. ليست إلا منتج من نتاج هذا الحلف الثلاثي و مناقصة من مناقصاته المجانية . و الميزة السحرية التي يتفرد بها هذا الحلف عن أي فكر أو حلف فكري آخر ، هو

قدرته على تحويل أضخم المناقصات و أعتها تكلفة ، إلى مجرد سلعة صغيرة . و يمكن أن يقاس على ذلك العديد من المشاريع المشابهة التي تمت بالصيغة ذاتها .

إن الحلف الثلاثي الفكري هو المصباح السحري الذي يستطيع تسخير جميع القوى و مراكزها لأجل أي أمر يريده القائمون على هذا الحلف . و من هنا و من هذا المنطلق ، أضحى الحلف الثلاثي الفكري كثر ذهبي و فانوس سحري لا يمكن الاستغناء عنه من قبل مالكيه و مالقيه . و عندما نسقط فكرة المصباح السحري الأسطورية على مفهوم الحلف الثلاثي الفكري ، فإننا قد لا نكون جانبا الصواب . لأنه و حسب الروايات و الأساطير الشعبية التي تناولت قصة المصباح السحري ، أبرزت فيه خاصية التبعية و الخضوع لحامله .. تبعية المارد الموجود فيه و خضوعه للشخص الذي يستولي على المصباح بغض النظر عن صفته و هويته ، و تركّز على استماتة طالبي المصباح السحري في الحصول عليه و استماتة حامله في الدفاع عنه و التشبث فيه . و بصورة مشابهة لتلك الرواية، نجد أن أصحاب و ملأ أي حلف ثلاثي ، لا يقبلون بظهور حلف آخر و وجوده بين ظهرانيهم لأن اشتداد عوده و قوته يعني بكل بساطة زوالهم و استيلاء المالكون الجدد على كرسي المنفعة و القوة . من هنا أيضاً و من هذا المنطلق ، يمكننا الآن تفسير مفهوم و مصطلح (التجارة) الذي ورد ذكره بكتب الأديان السماوية . و هو ما مثل دعوة الله إلى اعتبار الدين الحق هو التجارة الحقيقية النافعة ، و هي تختلف تماماً عن الحلف الثلاثي الفكري الذي تشكّل من رحم الأديان السماوية و الذي هو بدوره قام على المنفعة و الحروب و المحازر ، خدمة لمصالح دنيوية لا علاقة لها بالدين لا من قريب و لا من بعيد .

بالانتقال إلى محور آخر من محاور التفكير الإنساني في الشرق الأدنى القديم يبرز لنا فكر التعامل السياسي مع الآخر الذي قد يكون هو العدو الخطر أو الخصم الذي يتوجب الحذر منه و ترك مسافة أمان معه أو فكر التعامل مع الإنسان

العادي الذي يتم الاختلاط به في الحياة اليومية و هو المواطن ابن البلد .. ربما يكون الجار أو التاجر أو الجندي أو الزوج أو الشخص الذي يعيش في نفس الحيز المكاني . و هنا .. يعود الرقي الفكري مرة أخرى ليتبدى لنا في مستوى التعامل مع الآخر ، ليس من باب الأخلاق أو عمل الخير أو ما شابه ، بل من باب وعي التصرفات الإنسانية على اختلاف أنواعها و القدرة على صياغتها بسوية تعبيرية اصطلاحية أحياناً ، على مستوى راقٍ إلى حد كبير قياساً للفترة الزمنية التي ظهرت فيها هذه السوية الفكرية و التي قد تتمحور حول أعلى التصرفات الأخلاقية و أدناها حسة و سوءاً .

عندما انقض العموريون على مدينة (أور) الكلدانية و أسروا ملكها و هبوها و دمروها شر تدمير ، بدأ شعراؤها بإنشاد القصائد التي يرثون فيها مدينتهم حيث جاء في إحداها¹ :

" لقد انتهك العدو حرمتي بيديه النجستين
انتهكت يده حرمتي و قضي علي من الفرع
آه ما أتعس حظي

إن هذا العدو لم يظهر لي شيئاً من الاحترام
بل جردني من ثيابي و ألبسها زوجه هو
و انتزع مني حلبي و زين بها أخته " .

تعطي صورة البيت الأول من القصيدة صورة توصيف العدو الخارجي أو الآخر الدخيل في مخيال الإنسان العراقي القديم . فالعدو هو الذي يمثل وجوده انتهاك للحرمت و يعد كيانه المادي نوع من النجاسة . و تتجلى بذات الوقت صورة الكآبة و القدر السيئ لدى الوقوع تحت رحمة هذا العدو الذي تركز عمله في

¹ قصة الحضارة ، المجلد / ١ / الجزء / ٢ / .

الاعتصاب و الاحتلال و السرقة ، أي باختصار .. الحلول مكان الآخر ، أي
البديل الذي يجلب مكان الأصيل .

يقول أحد الملوك مخاطباً الإله مردوخ في تذلل و خضوع ..

" إذا لم تكن أنت يا ربي

فماذا يكون للملك الذي تحبه و تنادي باسمه ؟؟

و ستبارك لقبه حسب مشيئتك

و تهديه صراطاً مستقيماً

أنا الأمير الطائع لك

باق كما صنعتني يداك

إنك أنت خالقي

و أنت الذي حكمتني في شؤون العباد

و بمقتضى رحمتك يا مولاي

بدل قوتك الرهيبه حباً و رحمة

و ابعث في قلبي الاحترام لربوبيتك

و هبني ما ترى فيه الخير لي " ١ .

تتجه النثرية السابقة نحو فكر إنساني يبرز نظرة الإنسان نحو الإله في لحظة
الضعف و الهوان و التجاؤه إليه في عند الوقوع في برائن العجز أو المرض . هي
قضية قد تكون بديهية مفهومة بالنسبة للفرد العادي البسيط لكنها تسترعي
الانتباه بالنسبة لقمة الهرم السياسي و الذي هو بالغالب يدعي قمة الهرم الديني ،
فهنا تستوجب القضية الوقوف و التأمل . فالمفارقة في حيثيات القضية هو بروز
فكر توحيدى خالص محض مناقض لمصدره المخالف لمبدأ التوحيد ، لا بل

١ المصدر السابق ص / ٢٤٤ .

مدعي الإلوهية ، و في أحسن أحواله هو مشرك كبير لم يدع آلهة على اختلاف أنواعها و اختصاصها و وظائفها إلا و عبدها أو توجه إليها . فقراءة تلكم الترانيم و الأدعية تدلل على وجود إيمان خفي بإله واحد مسير لهذا الكون و ناظم له و مدبر لشؤونه و خالق لعباده ، و لكن المصالح الدنيوية و الأهواء الشخصية و متاع الدنيا و عرضها ، قد فعل فعله و ترك أثره . أيضاً تلكم الترانيم و الأدعية تدلل على .. و توحى بوجود ديانة توحيدية ما (و هو المرجح) و وجود اعتقاد سائد بإله واحد ، و لكن للأسباب الآنفة الذكر ذاتها و لسطوة السياسة و قوة أثر المفهوم السلطوي قد أدت إلى تغييب هذه الديانة أو طمسها أو تحريفها و تحويرها بما يتلاءم و متطلبات الحياة الدنيوية و هيمنة الحلف الثلاثي الفكري إياه . و أخيراً ، ربما هي عبارة عن صحوة ضمير لا أكثر و لا أقل ، نتيجة وازع أخلاقي كامن و منطقي ظاهر ، كما كان هو الحال لدى فرعون النبي يوسف الذي عند سأله تأويل رؤياه ، قال له يوسف إنه يفعل ذلك بأمر من الله ..

[فأجاب يوسف فرعون قائلاً ليس لي ، الله يجيب بسلامة فرعون ... حلم فرعون واحد قد أخبر الله فرعون بما هو صانع] (سفر التكوين - الإصحاح ٤١) ٠ و عندما فسر له الرؤيا قال له فرعون حسب التوراة ..

[٣٨ فقال فرعون لعييده هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله * ٣٩ ثم قال فرعون ليوسف بعدما أعلمك الله كل هذا ليس بصير و حكيم مثلك * ٤٠ أنت تكون على بيتي و على فمك يقبل جميع شعبي إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك * ٤١ ثم قال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على كل ارض مصر] (سفر التكوين - الإصحاح ٤١) ٠

و قد تكون صحوة الضمير تلك نتيجة لضربة قاصمة و خطر داهم محقق لا مجال لتلافيه أو النجاة و الإفلات منه كما هو الحال لدى فرعون النبي موسى

عندما أدركه الغرق ، تخلى عن صلاحياته و مناصبه الدينية و إلهيته و آمن
بإله واحد ، حيث جاء بالقرآن (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
وَجُنُودَهُ بَعْثًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (يونس: ٩٠) .

و في دعاء آخر يتضرع ، أحد الأشخاص و هو لا يعرف بالضبط ، إلهه ذكر أم
أنثى ، فيقول ..

" أنا خادمك أضرع إليك و قلبي مفعم بالحسرات

إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر ممن أثقلته الذنوب

متى يا إلهي ، يا من أعرفه و لا أعرفه ، يهدأ غضب قلبك؟؟

متى يا آلهتي يا من أعرفها و لا أعرفها يهدأ قلبك الغضوب؟؟

إنهم لا يعرفون شيئاً ، أخيراً يفعلون أم شراً

أي إلهي لا تنبذ خادمك " ^١ .

يتخذ دعاء الترنيمة هذا ، نموذجاً فكرياً مشابهاً لنموذج الترنيمة الدعائي السابق
له . لكن ما يضاف إلى فكر التشابه تلك ، هو فكرة الإله الخفي المجهول و
الذي تدور الشبهات الفكرية حوله كإله واحد ، إلا أنه يقع ضياع و تيه فكري
حول ذلك ، فيحصل لغط يتعلق بجنسية هذا الإله ، أذكر هو أم أنثى؟؟ و يختار
صاحب الدعاء الاحتمالين معاً لصعوبة و شبه الاستحالة في الركون إلى أحدهما ،
ذلك ما يدل أيضاً على نفوذ و قوة الاعتقاد بالأقنوم الأنثوي للآلهة ، و هي
قضية تعطي بدورها أيضاً دليلاً و مؤشراً على نفوذ و قوة الاعتقاد الوثني و
اختلاف الآلهة و تعددها . فالدعاء و التضرع لإله مجهول ، هو بشكل ما ،
صورة من صور التوحيد .

^١ المصدر السابق ص / ٢٢٥ .

يتوافق مع التفكيرين السابقين ، تفكير آخر يشير إلى قضية الإيمان بالإله الكلي القدرة ، أو بمعيار آخر ، الإله صاحب القدرة الذي توجه الابتهالات و الأسئلة إليه عن الأسباب و المسببات ، و يشير إلى نوع من فكرة القدرية (بمعنى القضاء و القدر) بصيغة فكرة الإله صاحب الإرادة أيضاً . فيكون المأل الفكري لذلك هو الاعتقاد بالإله كلي القدرة و الإرادة ، أو بتعبير آخر صاحب القدرة و الإرادة . كذلك الأمر عندما تبرز قضية ما أو خطاب معين يصدر عن رأس الهرم السياسي يكون تعبيراً أو تساؤلاً عن مفهوم القضاء و القدر كأن يتساءل أحد الملوك عن سبب العقاب الذي أنزله به الإله ، مع أنه و حسب رأيه كان فاعل خير ، فذلك ما يعطي انطباعاً بوجود نوع من فكرة التوحيد الإلهي .. هوذا الملك آشور بانبيال الملك القادر ملك آشور ، في أواخر أيامه يندب حظه . فيقول ذلك الملك الطاغية المتحجر " لقد فعلت الخير لله و الناس ، للموتى و الأحياء ، فلم إذن أصابني المرض و حل بي الشقاء؟؟ إني عاجز عن إخماد الفتن التي في بلدي و عن حسم التراع القائم في أسرتي . و إن الفضائح المزرعة لتضايقني على الدوام . و أمراض العقل و الجسم تطأطئ من إشرافي . و هاأنذا أقضي آخر أيامي أصرخ من شدة الويل بائساً في يوم إله المدينة يوم العيد . المنية تنشب أظفارها بي و تنحدر بي نحو آخرتي . أندب حظي ليلاً و نهاراً و أنوح و أعول و أتوجع .. أي إلهي .. هب الرحمة لإنسان و إن كان عاقاً حتى يرى نورك " ^١ .

في حادثة لموفد أحد الفراعنة المصريين و اسمه (ون آمون) ، يروي أن الفرعون أرسله إلى سورية لجلب خشب لأجل (الزورق المقدس) . و بقي في الميناء السوري حوالي العشرون يوماً . و قد علم الحاكم السوري بوجوده بطريقة ما ، فكان يرسل له كل يوم من يقول له أن يرحل بهدوء . و لكن الرجل بقي و

^١ المصدر السابق ص / ٢٩٧ .

أصر على مقابلة الحاكم الذي رفض مجرد استقباله .. و بعد جهد و لأى ،
يرضى الحاكم باستقباله و يقابله و قد أدار له ظهره و رفع رجله على طاولة و
يخاطبه بهذه الطريقة و يقبل بالنهاية ببيعه الخشب ، لكنه يقول له مذكراً :
لست بخادمك و لا بخادم الذي أرسلك^١ .

تجسد هذه الحادثة فكر النظر إلى الآخر و كيفية التعامل معه و بالذات الآخر
السياسي و تجسد بدرجة أدق ، مفهوم التبعية السياسية و وعيها ضمن إطار
فكري و مفهوم استخباراتي متقدم (إرسال شخص كل يوم إلى الميناء لإنذاره
بالمغادرة بشكل غير رسمي و غير مباشر) و هو ما يبرر بوجه آخر ، مفهوم
السيادة الوطنية أيضاً بوعي فكري كامل على مستوى الحكام و القادة . و
عندما يتم وعي مفهوم السيادة الوطنية ضمن إطار سياسي أمني استخباراتي ،
فهذا ما يدل على فكر سياسي متقدم ، من المؤكد أن له ارتباطاته الاجتماعية و
الاقتصادية . و بوجود بند في متن الحادثة حول استحضر أو شراء أخشاب ،
أو ضمن ما يُعرف بعملية الاستيراد ، فذاك ما يشير أيضاً إلى وجود حالة من
الوعي الأمني الاقتصادي ، حيث أن الحاكم السوري قد تريت طويلاً قبل
الموافقة على عقد صفقة الخشب تلك مع الموفد الفرعوني .

من اللازم لأوجه الرقي الفكري بمختلف جوانبه الدينية و السياسية و الاجتماعية
، أن يكون هنالك وجود لنوع من التلازم الأخلاقي الديني بما معناه ارتباط
الجانب الديني بالجانب الأخلاقي الاجتماعي المشتمل على الجانب العربي . و هو
ما يمثل أسلوب عربي راق و متطور قياساً للزمن الحادث فيه ، كونه كان قادراً
على الربط بين الدين و تحديداً الآلهة ، و بين الأخلاق و بين الأعراف
الاجتماعية السامية ، و كونه أضحى قاسماً مشتركاً فيما بينهما ، فنحن اليوم في
عصرنا هذا .. عصر المعلومات و المعارف و الإدعاءات الأخلاقية و السمو

^١ تاريخ سورية و لبنان و فلسطين ، ج ١ ، ص / ١٤٥ .

الفكري و التطور الحضاري المعرفي و التكنولوجي و المنظمات و الهيئات الدينية و الإنسانية .. نادراً ما نجد أو نسمع خطاباً من فرد ، يتوجه فيه إلى الله و يخاطبه بأنه قد عمل صالحاً و لم يقترف ذنباً أو يرتشي أو يظلم ، و يوضع هذا الكلام الذي يمثل مجد ذاته فكراً لا عبارات منمقة ، يوضع على شهادة قبره . ففي كتابة وجدت في إحدى المقابر المصرية القديمة جاء ما يلي^١ " ألا من يمشي على نهجك لا يتعثر ، فمنذ وجودي على هذه الأرض إلى اليوم الذي وصلت فيه إلى عالم الرشد و حديثي خلو من الضلال . إن سبيل من يخلص نفسه لله فيه صلاح و طوبى لمن يهديه قلبه إليه ، و إذا كنت هنا قد بلغت مدينة الخلد ، فقد كان السبيل إلى ذلك إنني عملت صالحاً في الدنيا و أن قلبي قد هوى إلى سبيل الله منذ طفولتي حتى اليوم و كان توفيق الله يلازم نفسي طوال الليل كما أنني كنت أعمل طبق أمره من مطلع الفجر ، و لقد مارست العدل و كرهت الظلم و لم أعاشر من ضلوا سبيل الله " .

كما إن أحد الأعيان المصريين القدماء قد نقش على قبره ما مفاده^٢ " إنني لا أقول كذباً لأنني محبوباً و لم أرتشي يوماً أو أسرق أو أزي و كنت ودوداً للجميع و محباً للناس " .

إن فكرة مخاطبة الإله بعبارات تنم عن الالتزام بالأخلاق العامة و الآداب الاجتماعية و فعل الخير و ترك الشر ، بطريقة و أسلوب خارج نطاق الخطاب الديني و الأدبيات و الشعائر الدينية ، هي دلالة على الفكر الإنساني العام أكثر من الديني نفسه ، فمن المعروف أن الفقهيات و الشعائر الدينية لأي دين عموماً ، لن تخلو من الأخلاقيات و النهي عن السلبيات و الأفعال المنكرة إنسانياً و اجتماعياً و عرفياً ، كفعل الخير و الابتعاد عن الشر و الحض على العدل و النهي عن الظلم ، و فعل المكرمات و النهي عن المشينات كالسرقة و القتل و الزنا و

^١ كهان مصر القديمة ، ص / ١٥ .

^٢ فجر الضمير ، ص / ١٣٠ .

غيرها من محرمات مستهجنة إنسانياً . لكن ذلك المضمون لا يعدو كونه أكثر من فكر ديني محض يختص بطائفة معينة تلتزم به ربما على الأقل ظاهرياً و بالذات إذا عرفنا قديماً ، أن أي مذهب أو فكر ديني ، كان يختص به كهنته و النخب المميزة في المجتمع ، السياسية منها و الدينية أو الاجتماعية . و عادة لم يكن يقبل في ديانة ما ، من الديانات القديمة ، كائناً من كان .. كان هنالك شروطاً معينة يجب توفرها في شخص الطالب ، و فحوص صارمة يخضع لها و يتجاوزها بنجاح كي يتم قبوله . كما أن هذه الطقوس و الشعائر و التعاليم لم تكن عادة بمتناول الجمهور ، و بعضها الآخر كان يكتنفه الغموض و السرية فضلاً عن أن بعضها الآخر كان يندرج ضمن نطاق العلوم الفلكية و التطبيقية .

لكن عندما تُوضع هذه الأفكار و الآراء التي تناجي الآلهة و تبتهل لها و تقدم أوراق اعتمادها لها بفعل الخير و الابتعاد عن الشر كي تتقبلها الآلهة .. عندما تُوضع على شواهد القبور و تنقلها الألسن في الساحات العامة و المنابر ، فإن ذلك يدل على فكر اجتماعي شعبي مرتبط بوعي معين حول قضية يوم الحساب أو الآخرة أو حياة ما بعد الموت ، و هي قضية كانت شائعة في العصور القديمة و على وجه الخصوص في الشارع المصري ، و هي بدورها أيضاً قضية تحمل بذور توحيدية محضة .

و القضية التي نعالجها في هذا الكتاب هي حصراً قضية الفكر المرتبط بالوعي الإنساني ، الشخصي الفردي أو الجماهيري الجماعي . فالفكر المجرد أياً كان نوعه .. دينياً أم سياسياً ، هو فكر مرتبط بجد ذاته حصراً . و كل فكر لا يرتبط بوعي شعبي عمومي أو جماهيري ممتد أو عالمي شامل ، يبقى كما ذكرنا مرتبطاً بجد ذاته و محصوراً بالنظرية الأيديولوجية التي صنعتها و أنتجته و أخرجته .

في منقوشة على أحد المعابد المصرية تعظ الكهان^١ ، جاء " أيها المتنبئون الكهان المطهرون أمناء السر و كهان الإله و يا رعاة الشعائر في المعبد . أنتم يا قضاة الضيعة و نظارها كافة ، يا من تكونون في شهركم للخدمة ، ولوا وجوهكم و أنظاركم شطر هذه الدار التي وضعكم فيها ذو الجلالة الإلهية . إنه يسبح في السماء لكنه يرى من فيها . إنه ليرضى أن يرى فيها نظاماً بالغ الدقة يحكم العمل فيها . احذروا أن تأتوا عملاً معيباً و لا تدخلوا المعبد غير مطهرين و لا تقولوا باطلاً في حرمه و لا تكونوا جشعين و لا تنفوهوا بكذب و لا تتناولوا أقداح النيذ و لا تفرقوا بين الصغير و الكبير و لا تطغوا في الميزان أو الكيل و لا تتكسبوا بالأمداد و لا تظاهروا باطلاً على حق و أنتم تدعون الرب " .

هذا التحذير الصارم الذي يحوي في طياته شيء من شدة اللهجة ، كان من المعتاد أن يأتي موجه لطبقة العوام من الشعب و الجمهور ، أو الذين هم من المنظور إليهم على أنهم الغير مالكين لنواصي العلم و التعليم و الثقافة ، و القرييين من حقوق الشر و الأعمال الفاسدة المحرمة ، من سوقة الناس و من يعلوهم درجة أو اثنتين من الفئات . لكن أن يأتي موجهاً إلى قمة الهرم الديني المفترض فيه أن يكون راعي و حامل الفضائل الدينية و الأخلاق الاجتماعية . هو ليس بالضرورة إشارة إلى ارتكاب هؤلاء للآثام و الموبقات ، بل تشير أولاً إلى احتمال تورطهم في مثل هكذا أعمال و تحذيرهم من مغبة التورط و الانزلاق إليها . و تشير ثانياً إلى النظر إلى هؤلاء على أنهم في النهاية بشر ، كغيرهم من باقي البشر لجهة الجسد و الطبع البشريين و انتفاء صفة العصمة عنهم و نزع القدسية منهم . و هذه النقطة بالذات تمثل تطوراً فكرياً نوعياً قد لا نراه في العصور اللاحقة بل و حتى في أيامنا هذه ، لجهة النظر إلى رجال

^١ المصدر السابق ، ص / ٢٧ .

الدين و اعتبارهم كائنات مقدسة معصومة أو شبه معصومة من الأخطاء لا يجوز المساس بهم .

إن مجرد نزع القداسة عن رجل الدين أو الكاهن ، في أزمنة قديمة من تاريخ الحضارات البشرية ، يُعتبر قمة في الرقي و الوعي الفكري . و لسنا نقصد من هذا الكلام الطعن في الكهنة أو رجال الدين بقدر ما ناقش قضية مستوى وعي و إدراك فكري لقضية معينة تلفت الانتباه بحدوثها في زمن سابق لحدوثها الافتراضي المنطقي و بغض النظر عن صحتها أم عدمها .

في كتاب الحكيم المصري (بتاح حوتب)^١ ينصح فيه ولده ، جاء فيه " لا تزه بنفسك لأنك عالم ، بل تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى الحكيم ، لأن الحَذق لا حد له ، كما أن الصانع لا يبلغ حد الكمال في حذق صناعته و احذر أن تخلق لنفسك الأعداء بأقوالك . و لا تتخط الحق ، و لا تكرر ما قاله إنسان غيرك ، أميراً كان أو فلاحاً ، ليفتح به قلوب الناس لأن ذلك بغيض إلى النفس . و إن شئت أن تكون فموم بيتك و أحب زوجك التي بين ذراعيك و اعلم أن السكوت أنفع لك من كثرة الكلام . و فكر أنه قد يعارضك خبير ممن يتحدثون في المجلس . و إذا كنت ذا سلطان فاسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ورقة الطباع و احذر أن تقاطع الناس و أن تجيب عن الأقوال بجمارة "

هي نصائح تُقدّم من أب لابنه حول أسلوب التعامل مع الناس . و يلاحظ أنهما ليست نصائح عادية من شخص عادي لشخص عادي ، بل هي نصائح غير عادية من شخص غير عادي (الحكيم بتاح حوتب) لشخص غير عادي (ولده العالم) . و الذي جعلنا نقف عند هذا الخطاب من الحكيم لولده ، هو أنه يتعاطى بشأن التعامل مع الناس ، و التعامل مع الناس هو نوع من أنواع الفكر المعقد أو المفترض أن فيه أن يكون كذلك ، لأنه بشكل من الأشكال له علاقة

^١ قصة الحضارة ، المجلد الأول ، الكتاب الثاني ، ص / ١٥٠ / .

ارتباط و امتداد مع الأمر الاجتماعي أو الفكر الاجتماعي و بتطور الجماعة البشرية إلى نظام المجتمع و الدولة ، و هو أمر يقود بدوره إلى الأمر السياسي ، و حري بذلك أن يشكل فكر بذاته .

إذن .. هنالك فكر اجتماعي معقد يشتمل على حكمة بالتعاطي الاجتماعي بين أفراد المجتمع قديماً ، نتج عن إشكالية التطور الاجتماعي بما تضمنته من حوادث و حيثيات دفع الإنسان ثمنها من حيبه كتجارب مكلفة أدت نهاية إلى اكتساب الخبرات الاجتماعية الخاصة بهذا الشأن .. و نتج عن جدلية التطور الاجتماعي من خلال التفاعل مع الأمر الديني و الأمر السياسي و ما نتج عنه من خبرات و تجارب أدت إلى اكتساب الخبرات الاجتماعية الخاصة بهذا الشأن و النضج العقلي المرافق لها .

هنالك بردية من الدولة الوسطى¹ جاء فيها :

لمن أتحدث اليوم؟؟ الأخوة أشرار ..

و أصدقاء اليوم ليسوا أصدقاء الحب ..

لمن أتحدث اليوم؟؟ القلوب قلوب لصوص ..

و كل رجل يغتصب ما عند جاره ..

لمن أتحدث اليوم؟؟ إن الرجل اللطيف يهلك ..

و الصفيق الوجه يسير في كل مكان ..

لمن أتحدث اليوم؟؟

فإن سمح الوجه قد صار بئساً

و صار الخير لا يحفل به في أي مكان

إذا ما أثار الإنسان الغضب بسوء مسلكه و أخلاقه الخبيثة ..

فإنه يدفع كل الناس إلى الضحك و إن كان خبيثاً

¹ المصدر السابق .

و يُسَرُّ الناس منه رغم أن خطيئته فظيعة

لمن أتكلم اليوم؟؟

فإن الخائن قد صار أميناً

لكن الأخ الأمين يصير عدواً " .

قصيدة أو خاطرة نثرية تعبر عن العلاقة الإنسانية و أواصر التضامن و التعاضد الاجتماعي الأخلاقي ، و تتطرق إلى ظاهرة انتفاء الخير من النفس الإنسانية في حبكة تعبيرية واعية عن طغيان مفاهيم الشر على مفاهيم الخير في المجتمع و أن الإنسان الشرير يسود في مجتمعه أكثر من الإنسان الخير . و يلاحظ إطلاق هذه التعابير بالعموم و ليس بالاختصار الجزئي أو الحوادث الثانوية المفصلية (القلوب قلوب لصوص) - (إذا ما أثار الإنسان الغضب بسوء مسلكه .. فإنه يدفع كل الناس إلى الضحك و إن كان خبيثاً) . كما تشير إلى ملاحظة سوء علاقة القرابة و فساد رابطة الدم حتى ضمن أفراد الأسرة الواحدة ، و ارتباطها بمسببات خارجية . ذلك كله يدل على وعي اجتماعي متقدم من المفترض فيه أن يتكون نتيجة تراكمات اجتماعية طويلة الأجل مرتبطة بمصالح اقتصادية مادية و ربما سياسية كي تصل إلى حالة فكرية اجتماعية متقدمة تتيح تكوين هذا الوعي . فحتى يتم تكوين مثل هكذا وعي يتمثل بفكر مكتوب ، يجب على الأقل توافر عوامل فكرية زمنية سابقة توضح الخير و الأخلاق في المجتمع إما عبر عامل ديني أو عرفي اجتماعي ، يلي ذلك توافر عوامل فكرية زمنية سابقة توضح عنصر الشر و الفساد في المجتمع أيضاً عبر عامل الدين و الأخلاق الاجتماعية ، يلي ذلك كله توافر عوامل فكرية زمنية سابقة توضح ارتباط العامل الاقتصادي و المادي و السياسي و المصالح البشرية و العوامل النفسية الإنسانية بكل ما سبق من عوامل و مفاهيم كي نصل إلى هذا الفكر الذي يستوجب زمناً افتراضياً يقع ضمن فترة ما بعد الميلاد .

تروي قصة أخرى مغامرات (سنوحي) و هو موظف فر من مصر على أثر وفاة (أمنحوتب الأول) و أخذ يتنقل من بلد إلى بلد في الشرق الأدنى و حظي فيها بضرور النعيم و الشرف . و لكنه رغم هذا لم يطق صبراً على ما حل به من آلام الوحدة و الحنين إلى وطنه . و برح به الألم آخر الأمر حتى ترك ثروته و عاد إلى مصر . و قاسى في طريقه إليها كثيراً من الشدائد و الأهوال . و جاء في قصته^١ أنه بالنهاية ابتهل بالدعاء طالباً العون " ألا أيها الإله أيا كنت ، يا من قدرت علي هذا الفرار ، أعدني إلى البيت ، و لعلك تسمح لي أن أرى الموضع الذي يقيم فيه قلبي . و أي شيء أعظم من أن تدفن جنتي في الأرض التي ولدت فيها ؟ أعني على أمري و ليصني الخير و ليرحمني الله " .

تمتاز الترنيمة السابقة بالحنين إلى الوطن و إدراك ما يسمى (مسقط الرأس) أو إدراك الهوية الوطنية القائمة في جوهرها على العنصر الجغرافي (الأرض) و على وجه الخصوص ذلك الحيز المكاني الذي ولد فيه الإنسان و تربي و ترعرع أيام طفولته . و قد بلغت أهمية هذا التصور الفكري الوطني من خلال إعادة ربطه بمفهوم القضاء و القدر الذي هو وجه من وجوه التوحيد الإلهي . و بالتوحيد الإلهي ذاته ، عندا قال (ألا أيها الإله أيا كنت ، يا من قدرت علي هذا الفرار ، أعدني إلى البيت) . و عندما يبرز مفهوم الوطنية بهذا الشكل الصارخ ، فهذا بدوره أيضاً يعني فكر متطور ذو وعي عميق لأن مفهوم الوطنية كفكر متقدم ، يستوجب في مضامينه وجود مفاهيم فكرية هي سابقة له و تؤسس له بالوقت ذاته . و لا يبرز مفهوم الوطنية كوعي عميق مستقل بذاته إلا إذا اقترن بعامل الغزو الخارجي الذي يتم من خلال عنصر أجنبي غريب بمجرد حملة عسكرية و يقوم باحتلال الأرض و الاستيلاء على مقدراتها و ثرواتها و طرد أصحابها أو جعلهم عبيداً له ، أو قتلهم أحياناً و أعمال السيف فيهم ، و هو ما يثير الانتباه

^١ قصة الحضارة ، المجلد الأول ، ج / ٢ ، ص / ١١٢ .

الغريزي و العقلي في آن معاً لدى أصحاب الأرض الأصليين ، بوحدة التجانس العرقي و اللغوي و الاجتماعي و حتى الدينين ، فيما بينهم ، و إدراكهم لأهمية الأرض أو الإقليم الذي يعيشون عليه و أهمية موارده و إدراك أهمية الارتباط ما بين الشعب و الأرض و أهمية العامل الاجتماعي و السياسي و الديني و الاقتصادي .

كما إن الفكر السياسي ، كان له حصة في موطئ القدم لدى الإنسان القديم في الشرق الأدنى ، فعلى سبيل المثال يتحدث الملك (أمينحيت) في أحد النقوش القديمة بقوله ^١ ..

" كنت رجل زرع البذور و أحب إله الحصاد
و حياقي النيل و كل وديانه
و لم يكن في أيامي جائع و لا ظمآن
و عاش الناس في سلام بفضل ما عملت و تحدثوا عني " .

لكن هذا الرجل قد خلف لأبنه و وريثه في الحكم نصيحة جديدة في الحكم مغايرة لما ورد في الكلام السابق الذي تكلم به الملك عن نفسه ، وقد جاء في هذه النصيحة ^٢ ..

" استمع إلى ما سأقوله لك
حتى تكون ملك الأرض
و تزيد الخير فيها
اقس على جميع من هم دونك
فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبهم
و لا تقترب منهم بمفردك

^١ قصة الحضارة ، المجلد الأول ، ج / ٢ ، ص / ٧٥ .
^٢ المصدر السابق .

و لا تملأ قلبك بالموودة لأخ

لا تعرف صديقاً

و إذا نمت فاحرس بنفسك قلبك

لأن الإنسان لا صديق له في أيام الشر "

لو اطلع قارئ ما ، على مفردات المنقوشتين السابقتين دون معرفة هوية الكاتب أو مصدر المعلومات ، لربما دارت به الظنون بأهما مقاطع من كتاب (الأمير) لمؤلفه مكيافيللي ، فهذه التعابير و الأفكار و تناقضات المبادئ فيها و دقة و وضوح التشخيص الفكري ، شكّل مقارنة فكرية كبيرة لما طرحه مكيافيللي الذي يُعتبر أبو السياسة الحقيقية المجردة و أول من ناقش أصولها و قوانينها المعمول بها على أرض الواقع ، بجرأة و تجرد . و فيما بعد ، تم البناء على فكر مكيافيللي لقرون عدة استمرت حتى الآن .

و يكفي هذا الفكر السياسي البحت في المنقوشتين السابقتين ، مقارنة مضامين كتاب (الأمير) للدلالة على وجود فكر سياسي تكتيكي متقدم عرك حوادث الحياة و مشاكلها السياسية و الحربية و الاجتماعية . و المفترض في هكذا فكر أن يكون نتاج تراكم أفكار و تجارب سياسية فعلت فيها عوامل الزمن فعلها ، و صقلتها دسائس السياسة و أحابيلها . و لعل هذا الملك المسمى (أمينحيت) كان صادقاً في الرسالتين حيث ربما كانت الرسالة أو المنقوشة الأولى نتاجاً للرسالة أو المنقوشة الثانية بمعنى أنه لم يستطع أن يحكم شعبه و دولته و يشيع فيها السلام و الرخاء إلا بما نصحه لابنه في الرسالة الثانية ، و هذه هي السياسة بعينها .

و على كل حال ، تبقى الأخلاق و الآداب العامة السبيل الذي سلكه الفكر الإنساني العام في الشرق الأدنى القديم كعرف اجتماعي إنساني لا يمكن التملص

منه و تجاهله و لا مناص من اعتماده و لو ظاهرياً على الأقل .. كتب أحد الشعراء المصريين ينصح مواطنيه ^١ :

" أطمع الخبر لمن لا حقل له
و اترك وراءك ذكراً طيباً
يبقى أبد الدهر " .

و في المتحف البريطاني توجد بردية تعرف باسم (حكمة أمنحوتب) ^٢ تعد أحد الطلاب لتولي منصب عام جاء فيها :

" لا تطمع في ذراع من الأرض
و لا تعتد على حدود أرملة
و احرق الحقل حتى تجد حاجاتك
و خذ خبزك من بيدرك
و إن قدحاً من الحب يعطيكه الله
لخير من خمسة آلاف تناها بالعدوان
و إن الفقير في يد الله
لخير من الغنى في المخازن
و إن الرغيف و القلب متهج
لخير من الغنى مع الشقاء " .

لقد أثبتت المكتشفات الأثرية و الدراسات التاريخية الأنتروبولوجية لحضارة الشرق الأدنى القديم ، أنه بالرغم من وجود أساطير و أفكار غيبية تفتقد المصدقية العقلية و المنطقية ، و تعتمد الغيبيات و السحر و الخرافة . و تنتج

^١ المصدر السابق ص / ٩٩ .

^٢ المصدر السابق .

بالتالي تصرفات و أفعال منافية لما تفتقد إليه مسبباتها الفكرية و العقائدية من مصداقية و منطقية . إلا أنه و بالمقابل برز إلى جانب هذه الأفكار و المعتقدات و نتائجها من أفعال ، برز فكر عقلاي موضوعي علمي يتمثل الحيادية و المنطقية و المحاكاة التجريدية في التعامل مع الوقائع و الأحداث الحسية الخارجية في الطبيعة ، و مجانبة العاطفة و الانفعالات الغرائزية في تقدير الحوادث و مقدمات الأشياء و الحكم عليها و استخلاص نتائجها .

و في واقع الأمر يمكن القول أن ذلك كله كان عموماً ، محصلة التساؤلات الأولى التي طرحها الإنسان حول المحسوسات الخارجية التي يراها أمامه في الطبيعة ، و المحسوسات و الهواجس الداخلية التي اعتملت في عقله و مخيلته . و برأينا فإن الإنسان العاقل قديماً قد استخدم أسلوبين في التعامل و التعاطي مع هذه التساؤلات و العضلات ، حددا في النهاية طبيعة و مسار الفكر الإنساني في القرون اللاحقة . كان الأسلوب الأول هو المعطيات العلمية المنطقية اللدنية الموجودة في عقل الإنسان و التي فسرتها الديانات السماوية على أنها وحي من الله . أما الأسلوب الثاني فكان الأسلوب الغرائزي العاطفي النفسي المنبثق على الأرجح من الطبيعة الحيوانية لهذا الإنسان .. هذان الأسلوبان تمايزا في الاستخدام و التطبيق و التعويل عليهما من قبل الإنسان نفسه . و تالياً كان النتائج الفكري و ما انبثق عنه من تصرفات و أفعال ، مرتبطاً بمدى كمية و محدودية استخدام أحدهما منفصلاً عن الآخر ، أو استخدام كليهما معاً ، مع طغيان أحدهما على الآخر .

لقد قامت العلوم الإنسانية التطبيقية و الفكرية في الحضارات الأولى ، على مبادئ عدة أهمها الربط و الاستنتاج و تراكم الخبرات بأسلوب المتواليات الرياضية . كان هنالك أيضاً علاقة جدلية بين التطور الاجتماعي الإنساني و بين التطور الفكري . فكان كل منهما يؤسس للآخر و يمهده ضمن منظومة علاقة دورية متبادلة . و نستطيع القول إن العناوين العريضة للعلوم و الأفكار الإنسانية

كانت ضمن محورين اثنين .. العلوم التطبيقية من اختراعات و مكتشفات و صناعات على اختلاف أنواعها (حرية - زراعية - صناعية خدمية ... الخ) و العلوم الفكرية التي تناولت بدورها عنصرين أساسيين .. عنصر ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقيا التي كان الدين أهم تجلياتها ، و عنصر العلاقات الإنسانية الاجتماعية التي كانت الأخلاق السامية من أهم تجلياتها .

إن الفكر الذي يتطور في فترة قياسية غير طويلة ، من فكر بدائي بسيط أحادي و في أحسن أحواله شبه ثنائي ، قائم على تأمين لقمة العيش و قوت اليوم و منحصر في كيفية الشبع اليومي المؤقت ، إلى فكر متقدم يناقش قضايا اجتماعية و دينية و سياسية و يتطرق إلى تفاصيلها الدقيقة الحساسة و المؤثرة في الأحداث اليومية للفرد و المجتمع و الدولة ، و يتصف بصدق التعاطي مع هذه الأحداث من منطلق المصلحة العامة و الفائدة الشرعية القائمة عموماً على منطلق العدل .. هو فكر يمكن اعتباره حقيقة ، أنه فكر سابق لأوانه و يحتاج إلى سنين طوال تمتد إلى قرون . فالفكر أياً كان نوعه ، لا بد له كي يتبلور و يتشكل في الذهن البشرية ، من عناصر ثلاث لا بد من حدوثها مجتمعة هي (الحوادث - التجارب - الزمن) حتى و لو كان هذا الفكر فكراً بدائياً ، فلا بد له من حادثة و تجربة و فترة زمنية . فالحادثة أياً كان نوعها (زلزال - بركان - عواصف - حريق هائل - كسوف - خسوف - قتال - صراع مع حيوان ... الخ) هي الأرضية الأولى التي يركز عليها الفكر و تكون النواة أولى لتشكله ، أو بتوصيف آخر .. الرحم الذي يحوي بويضة الفكر . تأتي بعدها التجربة التي تعني الانخراط بحادثة معينة و محاولة التعامل معها بشكل متكرر تختلف فيه كل عملية تعامل ، عن سابقتها ، إما نحو الأفضل أو الأسوأ ، كعملية حراثة الأرض مثلاً كل موسم أو عملية التعامل مع النار منذ اكتشافها أو عملية صيد حيوان تتكرر عند الجوع . و التجربة بمعناها الفكري المقصود هنا ، هي النطفة التي تلحق ببويضة الحادثة أو تتفاعل معها لتكوين الجنين الفكري الذي يبدأ بمرور العامل أو

العنصر الثالث ألا و هو الزمن .. يبدأ بالتشكل و النمو حتى يتم اكتماله فيخرج إلى حيز الوجود الخارجي بكامل صفاته و أعضائه و عيانه .

إن (المعادلة - الصورة) التي نطرحها في هذا السياق ، هي وجود كائن فكري بالغ راشد متكامل في فترة زمنية تُعتبر بدائية بالنسبة للتكوين الفكري .

لقد سخر الإنسان العاقل القديم منذ بداية إدراكه العقلي ، سخر وعيه و مدركاته المعرفية للاستفادة من الوسط الخارجي المحيط به ، و في الوقت نفسه لتطوير العلاقات الإنسانية الاجتماعية فيما بينه و بين أقرانه من بني جلدته . و بما أن الإنسان الشرق متوسطي القدم ، قد سخر مدركاته العقلية و وعيه الذهني ، لخدمة فكره ، فإنه قد قام بتطوير قدراته العقلية و التفكيرية و الذهنية لخلق أنماط فكرية متطورة يختص كل منها بشق من شقوق و مفاصل المنظومة الفكرية الإنسانية الشاملة .. أنماط قادرة على توصيف التعقيدات المركبة للحوادث و الوقائع و لم تنحصر هذه الأنماط في المصالح و المنافع المادية الإنسانية الضيقة ، بل تجاوزت ذلك إلى منافع و مصالح أكبر مجالاً و أوسع دائرة .

إن تقييم أي فكر بصيغة من الصيغ تتعلق بأمرين اثنين .. أولاً قدرته على مواكبة الحدث أيّاً كان ، و ثانياً درجة المصادقية في مواكبة الحدث . فالمواكبة الفكرية لحدث ما أيّاً كان هذا الحدث (سياسي - اقتصادي - ديني - اجتماعي - طبيعي خارجي ... الخ) هي القدرة على ترجمة هذا الحدث إلى صورة فكرية تفنده و تحلل أبعاده و تجعل له مقدمات و متون و نتائج ، لتصيره نهاية الأمر قادراً على الثبات في عقل و ذهنية المتلقي ، و قابلاً للتداول الشفهي و الكتابي .

أما المصادقية فهي شفافية التوصيف الفكري لهذا الحادث ، منطقياً و عقلاً بعيداً عن العواطف و المصالح و التأثيرات بمختلف أنواعها .

عندما نتأمل النظر في تعليمات أحد الفراعنة التي يوجهها إلى ما يسمى (الوزير الأعظم) و هو ما يعرف في أيامنا هذه برئيس الوزراء أو رئيس الحكومة و

الذي هو عادة ما يكون مطلق الصلاحية التنفيذية أو بصلاحيات شبه مطلقة . و هذا التعليمات و الوصايا ، كان الفرعون يوجهها إلى كل وزير أعظم يتنسم هذا المنصب . و قد جاء في إحدى جلسات التنصيب ما يلي ¹ :

" اجتمع أعضاء المجلس في قاعة مجلس الفرعون (له الحياة و الفلاح و العافية) و قد أمر الفرعون بإحضار الوزير الأعظم (س) الذي نُصّب حديثاً ، إلى قاعة المجلس و قد قال له جلالته تبصّر في وظيفة الوزير الأعظم و كن يقظاً لمهامها كلها . انظر .. إنها الركن الركين لكل البلاد . و اعلم أن الوزارة ليست حلوة المذاق بل إنها مُرة ، فالوزير الأعظم هو النحاس الذي يحيط بذهب سيده و اعلم أنّها (الوزارة) لا تعني إظهار احترام أشخاص الأمراء و المستشارين ، و ليس الغرض منها أن يتخذ الوزير لنفسه عبيداً من الشعب . و اعلم أنه عندما يأتي إليك شاكٍ من الوجه القبلي أو من الوجه البحري أو من أي بقعة في البلاد ، فعليك أن تطمئن إلى أن كل شيء يجري وفق القانون و أن كل شيء قد تم حسب العرف الجاري ، فتعطي كل صاحب حق حقه . و اعلم أن الأمير يحتل مكانة بارزة و أن الماء و الهواء يخبران بكل ما يفعله . و اعلم أن كل ما يفعله لا يبقى مجهولاً أبداً " .

بعد ذلك يضع الفرعون لوزيره الأعظم ، التفاصيل التي يجب أن يسير على نهجها في القضايا التي تقد إليه ، ثم يستشهد له في ذلك بقضية حكم فيها خطأ وزير يسمى (خيتي) و هو وزير قديم ذائع الصيت من عهد الأهرام ، فيقول له " انظر إلى ما ألقيه عليك ، مثلاً مدوناً في مرسوم تعيين الوزير الأعظم في (منف) و كان ينطق به الملك ليحث الوزير على الاعتدال .. احذر ما قد قيل عن الوزير (خيتي) فإنه يحكى أنه جار في حكمه على بعض عشيرته الأقربين منحازاً للغرباء ، خوفاً من أن يتهم بالحباية لأقاربه خيانة منه ، و أنه عندما

¹ فجر الضمير ، ص / ٢٢٣ .

استأنف أحدهم ذلك الحكم الذي أصدره ضدهم ، أصر (خبتي) على إجحافه و اعلم أن ذلك يعد تخطياً للعدالة . و لا تنسى أن تحكم بالعدل لأن التحيز يُعد طغياناً على الإله ، و هذا هو التعليم الذي أعلمك إياه فاعمل وفقاً له و عامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه ، و المقرب من الملك كالبعيد عنه . و اعلم أن الأمير الذي يعمل بذلك سيستمر هنا في هذا المكان . و لا تغضب على رجل لم تتحر الصواب في أمره ، بل اغضب على من يجب الغضب عليه . اجعل نفسك مهيباً و دع الناس يهابونك . و الأمير لا يكون أميراً إلا إذا هابه الناس . و اعلم أن الخوف من الأمير يأتي من إقامته العدل . و اعلم أن الإنسان إذا جعل الناس يخافونه أكثر مما ينبغي ، دل ذلك على ناحية نقص فيه في نظر القوم ، فلن يقولوا عنه إنه رجل بمعنى الكلمة . و اعلم أن رهبة الأمير تبعث الرعب في نفس الكاذب عندما يعامله الأمير بما يفزعه منه . و اعلم أنك ستصل إلى تحقيق الغرض من منصبك إذا جعلت العدل رائدك في عملك و انظر إلى الناس ينتظرون العدل في كل تصرفات الوزير و هي سنة العدل المعروفة منذ أيام حكم الإله في الأرض . و الناس يقولون عن كاتب الوزير أنه كاتب عادل أما الذي يقيم العدل بين جميع الناس فهو الوزير . انظر .. دع الرجل الذي يؤدي وظيفته ، يعمل حسبما يؤمر به . و اعلم أن نجاح الرجل هو أن يعمل حسبما يقال له . و لا تتوان قط في إقامة العدل و هو القانون الذي تعرفه . و اعلم أنه جدير بالملك ألا يميل إلى المستكبر أكثر من المستضعف " .

عند قراءة الخطاب السابق و وضع حيثياته موضوع التمحيص و التدبير ، تبدى لنا قضية فكرية هامة جداً ، هي قضية إدراك المفاهيم الفكرية ، ليس من منطلق و عيها و وجودها ، بل إدراكها كمفاهيم ، و إدراك أنها مفاهيم مستقلة بذاتها و هو أمر من المفترض نظرياً ، حدوثه بعد قرون عدة لاحقة لتلك الحادثة . و لا أدل على ذلك من بنود الخطاب السابق و فقراته . فمجرد أن يقوم هذا الفرعون و هو الحاكم المطلق صاحب الصلاحيات المطلقة بل هو الإله أو ابنه أو المنبثق

منه و مكلف من قبله . و مجرد أن يخلق منصب الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) ، فهذه حالة لإدراك فصل السلطات و منح الصلاحيات ، و هو مفهوم سياسي يمثل صيغة حكم متقدمة زمنياً و حالة افتراضية تحتاج إلى مخاض زمني طويل و تراكم سياسي كبير لإنتاج مثل هكذا صيغة سياسية . و مجرد أن يقوم هذا الفرعون بتخصيص جلسة خاصة لجرد الوصايا و تجريد النصائح في السياسة و الحكم ، للوزير الأعظم حول سياسة الناس و المجتمع و الدولة ، و حول التعاطي الأخلاقي في نظام الحكم لهذه السياسة ، و التأكيد المتكرر على مفهوم العدالة الاجتماعية و السياسية و جعلها أساس و عماد الحكم و الملك . هو بدوره حالة إدراك متقدمة لأصول السياسة و الحكم في المجتمع و إبراز الجانب الإنساني فيها كنتيجة قائمة على مقدمات مخاض و تراكمات معرفة و تناقضات حوادث ما بين العدل و الظلم ، ترك كل منهما أثره في المجتمع على مستوى الأفراد و الحكام .

لقد أظهرت الاحترافية الفكرية الاصطلاحية المعرفية أثرها الواضح في الخطاب السابق ، عندما نلاحظ عبارات مثل (تبصر في وظيفة الوزير الأعظم و كن يقظاً لمهامها كلها) - (عليك أن تطمئن إلى أن كل شيء يجري وفق القانون و أن كل شيء قد تم حسب العرف الجاري ، فتعطي كل صاحب حق حقه) - (لا تغضبني على رجل لم تتحر الصواب في أمره) - (اعلم أنه جدير بالملك الأيميل إلى المستكبر أكثر من المستضعف) هذه كلها تفاصيل جزئية ، احترافية فكرية تستدعي وجود تراكم خبرات حتماً .

ما يلفت الانتباه أيضاً من عبارة في الخطاب تقول (اعلم أن الوزارة لا تعني إظهار احترام أشخاص الأمراء و المستشارين ، ليس الغرض منها أن يتخذ الوزير لنفسه عبيداً من الشعب) وجود إدراك لمفهوم المساواة الإنسانية و هو مفهوم يستغرب وجوده في فترة زمنية و حضارة يندر وجوده فيها . و ما يدعم هذا

الاتجاه ، وجود كلام منقوش عُثر عليه في أحد التوابيت¹ منسوب لإله مصري يدعى إله الشمس (ربما كان هو رع نفسه) شبيه بما يُعرف بـ (الأحاديث القدسية) يقول فيه " لقد خلقت المياه العظيمة ليستعملها الفقير مثل السيد ، و لقد خلقت الرياح الأربعة ليتنفس بها الإنسان مثل أخيه الإنسان مدة حياته ، و لقد خلقت كل رجل مثل أخيه و حرمت عليهم إتيان السوء و لكن قلوبهم هي التي نكثت ما قلت " . و هو كلام ملفت للنظر حقاً أن يصدر عن إله في فترة زمنية كانت الحضارة فيها قائمة على العبودية . كلام يُظهر المساواة بين بني البشر و تعميمها فيما بين ظهرائهم . و هو أمر يدعو إلى الاعتقاد بوجود فكر توحيدي (ربما لديني) تمازج مع الخبرات المعرفية الدنيوية المكتسبة . و بالرغم من كل التوصيفات و التحليلات السابقة ، تبقى هنالك إشكالية قائمة بحد ذاتها ، و هي إشكالية تفسيرية .. إشكالية تفسير التميز الفكري الرائد و المتقدم السابق لأوانه الزمني . و عندما نقول الفكري ، فإن ذلك حقيقة يمثل بالفعل إشكالية تفسيرية لأنه و بنظرنا (و قد يكون هذا الكلام مستهجنًا) فإن مفهوم الحضارة يختلف عن مفهوم الفكر ، وهذا ما يعني أن معيار التطور (التحول) الحضاري يختلف عن معيار التطور (التحول) الفكري و إن تشابها في بعض المظاهر التعريفية و الوقائع التاريخية و تقاربا بصورة أشكلت على الناظرين .

و بكل بساطة ، نحن قد نجد تطوراً في نظام الدولة و الملك ، و تطور في نواحي التقانة العلمية و الصناعية منسوبة إلى زمنها التي هي فيه ، لكن لا نجد تطوراً فكرياً لجهة الوعي الاجتماعي أو السياسي أو الديني و استنباط المفاهيم المتخصصة بتفاصيل الحقائق و الوقائع الموجودة على الأرض دونما زيف أو ادعاء ، مقرونة بالأخلاق و المثل العليا السامية التي تندرج في خدمة العموم الإنساني

¹ فجر الضمير ، ص / ٢٣٥ .

بالدرجة الأولى دونما تميز أو تفريق . و تتضح صحة هذه القضية عندما نسحب تلكم المقولات و نسقطها على واقعنا الراهن نفسه .. الواقع الحالي الذي نعايشه بأبداننا و نعاينه بأبصارنا و عقولنا حيث نلحظ وجود تنامي علمي تكنولوجي و وجود الآلات و الأدوات التكنولوجية في يد الإنسان . و في الوقت نفسه نلحظ انحدار و تدهور فكري كبير يصل في بعض النواح و الأماكن إلى درجة التخلف و الانكفاء إلى مستوى القرون الوسطى ، بل لربما على النقيض من ذلك ، يتبدى باستييان مقارنة ، ما بين الفكر الإنساني القديم منسوباً إلى زمنه الذي كان فيه ، و بين الفكر الإنساني الحديث منسوباً إلى زمنه الذي هو فيه ، أن النتيجة الإيجابية تأتي في كفة الفكر الإنساني القديم .

و قد يتساءل متسائل .. و ماذا عن السلبيات الموجودة في الفترة الإنسانية القديمة من قتل جماعي و مجازر دموية و حروب إبادة و سفك دماء و سلطات ديكتاتورية مطلقة أو بشرية بصفات إنسانية تدعي الإلهية و انعدام ما يسمى (حقوق الإنسان) و وجود نظام الرق و العبودية و مظالم كثيرة ذهب ضحيتها الملايين؟؟ فإننا نقول بكل بساطة .. إن كل هذه السلبيات مازالت موجودة إلى الآن ، لكنها مغطاة بقشرة واهية زائفة من مفاهيم و مبادئ طنانة رنانة لا يعمل بها حتى مخترعوها و مدعوها و مسوقوها .. ألم يجد الإغريق القدماء مخترعو الديمقراطية و المفهوم الديمقراطي ، الجرأة الكافية بعد مقتل سقراط بسببها ، ألم يجدوا الجرأة الكافية إلى نقدها و ذمها ، لا بل و إلغاؤها و اعتبارها مدعاة للغوغائية و الفوضى الغير محسوبة النتائج ، و اعتبارها نوع من حكم الرعاع الهمج؟؟ بينما في أيامنا هذه ، لا يزال مدعوها و مسوقوها و مروجوها ، يتبنون القتل و سفك الدماء و الخراب بسببها و تحت رايتها و ظلها؟؟!! .

بداية .. وصل الإنسان إلى مرتبة كثرت فيها حاجياته و متطلباته كونه أرقى أضراب الحيوان فلم يعد يستطع بمفرده الاستقلال بحاجاته و متطلباته تلك ، فكان لا بد له من إشراك الآخر من بني جنسه معه ، فكان ظهور الجماعة و

بالتالي كانت اللغة و الكتابة وسيلة أساس للتعامل مع هذه المتطلبات المتشابهة المقعدة و للتعبير عنها ، و هنا لب القضية و مرتبط فرسها .. الجماعة و اللغة . و كما جاءت اللغة و الكتابة تعبيراً عن الحاجة ، جاء الفكر تعبيراً عن هذه اللغة نفسها . أما عن كيفية وجود اللغة ، فنقف هنا أمام مفترق طرق دون الحديث عن أفضلية المرور .. أحدهما تاريخي يقول أن اللغة هي اختراع إنساني وليد الحاجة الإنسانية للتعبير عن الأشياء و مكوناتها و صفاتها و ما إلى ذلك . و الآخر ديني سماوي يقول أن اللغة هي تلقين رباني من الله ..

{ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : ٣١] .
 { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق : ٥] .

الفكر هو حاجة الإنسان لاستنباط سمات و مفاهيم أكثر تعقيداً من الكلمات المفردة أو الأشياء المجردة في الطبيعة كالشجرة أو البغلة أو النهر ... الخ . هي حاجة للتعبير عن عدة سمات و مفردات شكلت فيما بينها حادثة واحدة أو ترابطت فيما بينها لواقعة رآها أمامه أو ربما في وقت لاحق تخيلها . فالفكر من الفكرة ، و الفكرة هي في الأساس استنباط حل معين لقضية ما أو إشكالية فرضت نفسها عليه .

و بالإشارة إلى العلاقة التفسيرية الجدلية السابقة ، بين التطور الفكري و التطور الاجتماعي ، ربما نستطيع التصور بأن الإنسان في بدايات الفترة الزمنية للحضارات البشرية الأولى ، كان في حالة بحث عن الحقيقة و حالة اكتشاف هوية المجهول ، و حالة صراع ضارٍ مع الأمر الميتافيزيقي لحل إشكاليته و فك طلاسمه و إيجاد طريقة للتعاطٍ معه .

أيضاً كان هذا الإنسان في حالة ضعف تجاه الطبيعة الخارجية أمامه و عواملها المحيطة به ، لا يقوى على مقارعتها و التغلب على معظمها ، و لا يمتلك التقانة

اللازمة لذلك .. و هو في النهاية كان في حالة خوف شبه دائم مما يحيط به . و عندما فوض ذلك كله أو بعضه إلى الآلهة ، سواء التي اختلقها افتراضياً أو التي أحس بها و لم يعرفها أو التي عرفت هي عن وجودها و لم يدركها .. هذه الظروف كلها مجتمعة ، ربما تكون قد فرضت عليه نوع من المصادقية في التعاطف الفكري مع المحيط الخارجي و مع أقرانه الآخرين بل و حتى مع دواخل نفسه ذاتها .

و نتيجة للتداخل الجدلي ما بين تطور الفكر و الجماعة ، كان يتم التعامل مع النتائج الحادثة أو المستحدثة ، بنوع من المصادقية ، يضاف إلى ذلك أن العامل الديني بشقيه الاثنين .. التوحيدي و الوثني ، قد فعل فعله في هذا الصدد ، حتى إذا وصل هذا الإنسان مع مرور الزمن إلى درجة كافية من هضم الحقائق الكونية و الطبيعية و الاكتفاء الذاتي بنسبة كبيرة من كشف ملابسات الجهول و التحصل على التقانة الكافية و المستمرة طرداً في التطور و التعامل مع الطبيعة و أدواتها و حتى داخل نفسه هو ، كعلاج الأمراض على سبيل المثال لا الحصر ، أخذ ينحو تدريجياً إلى الحالة الدنيوية و المادية و التي لا نعلم بالضبط ما إذا كانت هي التي قد فرضت نفسها عليه أو فرضها هو على نفسه فرضاً . ذلك كله أدى إلى التعامل بنوع من الضبابية و التمويه و التميع مع المصادقية الفكرية المترافقة مع هذه الحوادث الزمنية اللاحقة . و النتيجة المحصلة هي أنه كلما أجاب الإنسان أو توصل إلى إجابات للتساؤلات التي هيمنت على عقله ماضياً سواءً الدينية منها أو الدنيوية ، كلما ازداد التصاقاً بالأمر الدنيوي و تماهياً معه ، و هو ما ورد ذكره بالقرآن (متاع الدنيا) . حتى بعد أن توصل إلى طي ملف الآلهة الوثنية القديمة المتعددة الذي كان يرعبه و يؤرقه حيث العقاب الحاسم و العاجل الفوري المدمر و الذي لم يكن من ضمن حيثياته منعه عن الدنيا و ملذاتها و تحذيره منها . و تعامل بعد ذلك مع ملف الإله الواحد الذي كان مريحاً له نوعاً ما و عقابه كان بالعموم آجلاً لا عاجلاً و كان من ضمن حيثياته

و بنوده ، تحذيراً من الدنيا و توابعها و ملذاتها و مغرياتها . فإن ذلك المعروف
بالإنسان ، ازداد انحداراً نحو الدنيا و التصاقاً بها . ما جعل ذلك ربما مصداقاً
للآية القرآنية (قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ) (عيس:١٧) .

لكن و كما فعل العامل الديني فعله في تثبيت المصدقية الفكرية في الفترات
السابقة ، فعل فعله هنا أيضاً في زعزعتها و تفرغها من مضمونها حيث تطور
الإدراك المعرفي عند البعض من هذا الإنسان إلى إلغاء قسم من الآلهة السابقة و
إلقائها جانباً و اعتبارها غير ذات نفع أو ضرر ، يضاف إلى ذلك أيضاً بروز
الأديان السماوية التوحيدية و صراعها مع الوثنية و تحكّمها بالأمر السياسي فيما
بعد أو بالأصح تورطها فيه و من ثم انقسامها هي نفسها إلى فرق و تيارات و
مذاهب متصارعة متناحرة ، قد أضعف لدى البعض النظرة الإيمانية الأخلاقية و
قلل من تأثير الوازع الديني الأخلاقي ما انعكس بدوره على العامل الفكري و
المصدقية التي يتمتع بها ، فأضحى عبارة عن شكل أجوف فارغ من أي
مضمون و لا يختص إلا بالمصلحة الذاتية و المذهبية الضيقة و هو ما نراه الآن في
وقتنا الراهن بأقوى تجلياته و صورته و آثاره .

إذن .. لقد نشأ الفكر الإنساني في الشرق الأدنى القديم من رحم صراع الإنسان
مع الطبيعة و الوسط الخارجي المحيط به .. من رحم صراع الوجود .. صراع
الحياة أو الموت .. البقاء أو الفناء ، فكانت الولادة ضمن مخاض عسير معقد ،
شكّل محاولات جادة حثيثة جادة لفهم الواقع الذي يعيش فيه هذا الإنسان ،
بكل معطياته . و كان هذا الفكر في الفترات الأولى للوعي الإنساني .. كان
فكر استكشافي أكثر منه فكر توصيفي تحليلي ، لينحو مع مرور الزمن باتجاه
التوصيفية التحليلية .

بداية .. كانت عوامل و مرتكزات الفكر ، هي التساؤلات التي أنشأت فكراً
مكتملاً فيما بعد (من؟؟ - كيف؟؟ - لماذا؟؟ - ما الذي؟؟ - من أنا؟؟
- من هذا؟؟ - ما هذا؟؟ - كيف حصل هذا و لما حصل؟؟ - من أين جاء

هذا؟؟ ... الخ) . و أدت هذه التساؤلات فيما بعد إلى نشوء الواقعية الفكرية عند الإنسان في الشرق الأدنى القديم ، كونه في الأساس كان يبحث عن الحقيقة . و عندما ظهرت الكتابة لديه لاحقاً ، قام بكل أمانة و شفافية بتدوين فكره هذا على الأحجار و أوراق البردي و غيرها ، و بقيت هذه الآثار مطمورة تحت الرمال و الصخور حتى تم اكتشافها في العصر الحديث فأظهرت فكراً إنسانياً متقدماً يباهي جميع ما أتى بعده من أفكار لحضارات و أقوام و دول و ممالك و إمبراطوريات شاسعة مترامية الأطراف .

الفكر العربي الجاهلي

- يُنسب العرب تاريخياً إلى جدّهم (يعرب) و يقسمون إلى أقسام ثلاثة :
- العرب البائدة : وهي التي اندثرت و لم يبق منها إلا أثر بعد عين و خير بعد حادثة ، إما بسبب الحروب كطسم و جديس ، أو عوامل الطبيعة المدمرة كعاد و ثمود اللتان ورد ذكرهما بالقرآن الكريم .
- العرب اليمانية : وهي التي نشأت باليمن و بقيت فيه كحِمير و السبئيون .
- العرب القحطانية : وهي التي انتشرت في الجزيرة العربية و ينسبون إلى جدّهم قحطان الذي نزل أول أمره باليمن مع أولاده و من ثم انتشروا بالجزيرة و يقال أنه أول من نطق باللسان العربي .. قال حسان بن ثابت :

تعلّمتم من منطِقِ الشّيخِ يَعْرُبِ أبينا فصيرتم مُعربين ذوي نَفْرِ
و كنتم قديماً ما لكم غيرَ عَجْمَةٍ كلامٌ و كنتم كالبهائم في القفْرِ

و عندما تربط كلمة العربي أو العرب مع كلمة الجاهلية أو الجاهلي ، و تُلفظا معاً مقرونّتان بعضهما ببعض ، يتبادر إلى الذهن فوراً .. الجزيرة العربية و صحراؤها اللافحة الممتدة على مرمى البصر .. يتبادر إلى الذهن خيامهم و إبلهم و بساطة عيشهم و كرم خصالهم و سمو شمائلهم ، من الكرم و الجود و استضافة الضيف كائناً من كان ، و إجارة المستجير كائناً من كان حتى و لو كان عدواً أو مطلوب لثأر بينهم و بينه ، و إغاثة المستغيث و الوفاء بالعهد ، و النخوة و كراهة الخيانة و الغدر و كراهة الخضوع للسلطة و الخنوع لها أيّاً

كانت ، ما عدا سلطة القبيلة ، و التمرد على القوانين المدنية ، ما عدا قوانين القبيلة (وهاتين الخصلتين الأخيرتين قد تنقلبا إلى مساوئ ، من وجه آخر) . على أنه وجدت بالمقابل خصال سلبية اتسم بها الإنسان العربي أو من وجه آخر، القبائل العربية . و كان أولها الغزو المقترن بالقتل و السلب و النهب ، يضاف إليها سلبيات أخرى ، منها النفور من الحرفة و الصنعة و اعتبار ذلك من المهانة و الذلة ، فكانوا إذا أرادوا معايرة أحد ما و تعييبه ، رموه بالصنعة و نعتوه بأنه من أصحابها . فقد هجا عمرو بن كلثوم النعمان أبا قابوس و غيره بأن أمه سليمي كان أبوها صائغ للذهب و كذلك أخوها ، فقال ينكر ذلك عليه :

لَحَى اللّهُ أَدْنَانَا إِلَى اللُّؤْمِ زُلْفَةً وَأَعْجَزَنَا خَالًا وَالْأَمْنَا أَبَا
وَأَجْدَرْنَا أَنْ يَنْفَخَ الكَبِيرَ خَالَهُ يَصَوْغُ القُرُوطَ وَالشُّوفَ بِيَشْرِبَا

كذا الأمر انسحب ذلك على التجارة عينها فأصبحت هي بدورها مادة للمعايرة و المعاينة . فهذا عبد الله بن الزعيري ينتقد قريش و بعض القبائل على احتراف التجارة و اهتمامها بقدوم القوافل و ذهابها ، فعلق ليلاً على باب الندوة بمكة ، بعض أبيات من الشعر و لاذ بالفرار .. و مما جاء في هذه الأبيات :

أَهَى قُصِيًّا عَنِ المَجْدِ الأَسَاطِيرُ وَرَشُوءَةً مِثْلَ مَا تُرْشَى السَّفَاسِيرُ^١
وَأَكَلَهَا اللّحْمَ بَحْتًا لَا خَلِيطَ لَهُ وَقَوْلُهَا رَحَلَتْ عَيْرٌ أَتَتْ عَيْرٌ

و قد كان هنالك سلبيات أخرى ربما كانت ثانوية نسبة إلى الصفات و السمات العربية المطللة و الشاملة ، و هذه قد انحصرت في الحيز الاجتماعي . و منها ما

^١ السفاسير : السماسرة أو مهنة السمسرة و قبض المال لقاء خدمات معينة . و العير : القافلة .

ورد ذكره بالقرآن الكريم . و من هذه العادات على سبيل المثال .. نكاح الاستبضاع و هو معاشره المرأة لرجل آخر غير زوجها ، يكتسب صفات جسمانية و بدنية مميزة ، كالقوة أو الطول أو المناعة ، أو سمات و صفات أخرى يعتبرها البعض سمات إيجابية كالفراسة و الذكاء أو الجمال و ما إلى ذلك .

و من العادات السيئة أيضاً ، قتل المواليد من البنات عن طريق الوأد (الدفن حية) تشاؤماً و تطيراً منهن ، أو خوفاً من عار سبيهن عندما يكبرن ، و قد عاب القرآن الكريم ذلك الفعل و حرمه حيث ورد (وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) (التكوير ٨-٩) .

و أحياناً كانوا يقتلون الذكور أيضاً إلى جانب الإناث ، ذلك بسبب الجوع و الإملاق و عدم قدرتهم على تحصيل أقواتهم ، و كذا الأمر جاء في القرآن ما ينكر عليهم فعلتهم تلك و ينهاهم عنها (... وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ...) (الأنعام: من الآية ١٥١) .

و من صفاتهم الحميدة التي ورد ذكرها في القرآن ، عادة الأشهر الحرم ، و تعني حرمة القتل و القتال في أشهر معينة ، و من أي ظرف كان . و كانوا إذا ما صودف مداهمة الأشهر الحرم لهم و هم في قتال ، قطعوا حربهم حتى تنصرم الأشهر الحرم من دابرها . و قد أيد القرآن هذا العادة و أجراها على المسلمين أنفسهم حيث جاء (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (التوبة:٥) .

و كان لهم أيضاً من عوائدهم الحميدة ، الخضوع لحرم الكعبة (البيت الحرام) فكل من دخل إليها مطلوباً ، أصبح آمناً لا يقربه أحد ما لم يخرج ، و لا يُستكره على الخروج منها .

و بالأحوال كافة ، فإن الصفات و العادات العربية في الجاهلية ، تتعلق بعوامل عدة ترابطت بعضها مع بعض بشكل طبيعي و أحياناً إجباري ، و هي نفسها

التي سوف تؤثر في النتاج الفكري للعصر الجاهلي و تحوره بمقتضى حيثياتها ، و سوف تكون إحدى حواضنه . هذه العوامل و المقومات هي .. الطبيعة الخارجية و التضاريس الجغرافية و ظروف البيئة المكانية .. و هي كلها أنتجت الحالة الاجتماعية التي أنتجت بدورها الأعراف و العادات السائدة و الذهنية العقلية ، أي أن البيئة المكانية ساهمت بإنتاج البيئة الفكرية . و من رحم كل ما سبق ، خرج الفكر العربي الجاهلي .

كانت تلك .. العوامل و المقومات في ظهور الفكر الجاهلي . و لكن هنا ، لا يبق لنا إلا أن نتساءل عن الصورة التي خرج بها الفكر العربي الجاهلي ، و الكيفية التي تبدى بها .

لقد ظهر الفكر العربي الجاهلي و تجلى عبر مظهرين اثنين .. مظهر التصرفات و الأحداث و الوقائع الحاصلة بين القبائل العربية كالحروب و الغزوات ، و الحالات الاجتماعية من زواج و طلاق ، و إشكالات تحمل حالات فردية أو جماعية .. أما المظهر الثاني الذي خرج الفكر الجاهلي متجلياً به ، فهو الشعر العربي الذي مثل حالة شبيهة إلى حد ما بحالة الأساطير الإغريقية و أساطير بلاد الرافدين و منقوشاتها الحجرية ، و أحافير الصخور و كتابات البردي المصرية . فالعرب في الجاهلية و إن لم يقوموا بتدوين تاريخهم و أخبارهم كغيرهم من الأمم المجاورة ، فإن الشعر كان ديوانهم و سجلهم الذي احتزنوا فيه ذكركم و فكرهم . و هو (أي الشعر) قد اشتمل على أخبارهم و حوادثهم و كان بمثابة المدونة الفكرية لهم .

بالعودة إلى شخصية الإنسان العربي الذي عاش في الصحراء ، تصارعه لتصرعه ، و يصارعه ليبقى على قيد الحياة . هذه الصحراء التي شكلت الحيز المكاني و المساحة الطبوغرافية الجغرافية في حياة العربي ، قد قولبت شخصية العربي و صقلها حسب سماتها و فرضت عليه قوانينها . فبشظفها و قساوتها ، جعلت منه إنساناً صلباً عنيداً لا يتنازل بسهولة ، و كذا الأمر لا يقنع بسهولة .. و

بوحشتها و قفرتها ، جعلت منه حذراً متوجساً متربصاً ينظر من أطراف عينيه فاحصاً متلمساً ما يحيط به . و بحدوثها و قلة ضوءها و ضجيجها نمت لديه رهافة السمع و النظر ، و حدة البصيرة و البصر ، فتملك فراسة أعانته على اتخاذ بوصلة للتعامل مع الوسط المحيط به و تحديد تحركه و مساره . و باعتماده على المشية و الإبل و طلبه للكأ و الماء و العشب ، أصبح خاضعاً للمكان الذي تحدده الصحراء ليجد ضالته المبتغاة .. تارة تضعها هنا و تارة تضعها هناك لتجعل منه شخص غير مستقر حيز المكان ، بل دائم التنقل و الترحال طبقاً لمتغيرات الصحراء من حيث موارد الرزق ، و هو ما انعكس على نفسيته و ذهنيته ، فأصبح سريع الغضب و الانفعال ، شديد التأثر و الاستنفار . فكان ربما يفعل لأتفه الأسباب .

هذه الصحراء التي أرهقته بتناقضاتها ، هي أيضاً قد تجلت له بامتداد على مد النظر لا تحده حواجز طبيعية و لا تضاريس جغرافية و لا حدود مائية مانعة ، فأضحى يتحرك يمناً و يسرة ، و أماماً و رجوعاً .. شمالاً جنوباً ، شرقاً غرباً . لا يعوقه عائق و لا يمنعه مانع .. يفعل ما يحلو له دونما رقيب أو حسيب ، فاكسب بالتالي الشعور بالحرية و ذاق حلاوتها بحيث صعب عليه فيما بعد ، التخلي عنها أو المساومة عليها مهما بمظ الثمن و عظمت المغريات .

و في الصحراء حيث تندر الموارد الطبيعية الغذائية كالأراضي الصالحة للزراعة و الرعي ، و تندر الموارد الحيوية المؤسسة لكيان اجتماعي ، كالماء مثلاً ، يصبح صراع الوجود أحد الخيارات الرئيسة في تحديد صورة العلاقة بين الجماعات ، فتحدث الغزوات و الحروب . لكن ذلك ليس هو العامل الوحيد ، فقد برزت هنالك عوامل تتعلق بالكرامة الشخصية أو ربما أحياناً القبلية ، تسببت بغزوات و حروب دموية طاحنة استمر بعضها سنين طوال . كان العرب يسمون حروبهم و عملياتهم القتالية هذه (الأيام) فكلمة (يوم كذا) تعني عندهم ،

وقوع حرب أو قتال بمحادثة سميت بكذا ، فهو تعبير عن اسم المعركة و عنوانها أكثر منه تاريخ أو يوم زمي . و من أيامهم هذه نذكر ^١ ..

(١) - أيام القحطانيين فيما بينهم : يوم البرادان - يوم الكلاب الأول -
يوم عين أباغ - يوم حليلة - يوم اليحاميم .

(٢) - أيام الأوس و الخزرج : يوم سمير - يوم كعب - يوم حاطب -
يوم بعث - يوم سحيل .

(٣) - أيام القحطانيين و العدنانيين : يوم طخفة - يوم أوراة الأول -
يوم أوراة الثاني - يوم السلان - يوم خزاز - يوم حجر - يوم
الكلاب الثاني - يوم فيف الريح - يوم ظهر الدهناء .

(٤) - أيام ربيعة فيما بينها : يوم البسوس .

(٥) - أيام ربيعة و تميم : يوم الوقيط - يوم ثيتل - يوم حدود - يوم
زود - يوم ذي طلوح - يوم الأباد - يوم الغبيط - يوم قشاوة - يوم
زباله - يوم مبياض - يوم الزورين - يوم عتقل - يوم الشيطين - يوم
الوقى - يوم الشباك .

(٦) - أيام قيس فيما بينها : يوم منعج - يوم النفرارات - يوم بطن عاقل -
يوم داحس و الغبراء - يوم الرقم - يوم ألتناءة - يوم حوزة الأول -
يوم حوزة الثاني - يوم اللوى - يوم ابن ضيا - يوم هراميت .

(٧) - أيام قيس و كنانة : يوم الكديد - يوم برزة - أيام الفجار .

(٨) - أيام قيس و تميم : يوم رحرحان - يوم شعب جبلة - يوم ذي
نحب - يوم الصرائم - يوم الرغام - يوم جزع ظلال - يوم المروت .

^١ أيام العرب .

٩) — أيام ضبية : يوم النصار — يوم الشقيقة — يوم بزاحة — يوم مأسل —
يوم النقيعة .

١٠) — أيام أخرى : كيوم جديس و يوم ذات الأثل و يوم صوعر .
و هنالك أيام أخرى جرت بين العرب و الأعاجم من الروم و الفرس و منها :
يوم ذي قار و يوم الصفقة و يوم أباد .

على أنه يهمننا القول أن هذه الأيام هي بمثابة عناوين رئيسة ، يتفرع عن كل يوم
منها أيام عدة . فيوم البسوس الذي دار بين تغلب و بكر ، تفرع عنه كذا يوم
هي : يوم النهي و كان لتغلب على بكر . و يوم الذنائب و كان أيضاً لتغلب
على بكر . و يوم عنيزة الذي تعادل فيه الطرفان . و يوم الواردات و كان
لتغلب على بكر . و يوم تحلاق اللحم الذي كان لبكر على تغلب و فيه تم
اعتقال المهلهل أخو كليب القتيل ، و جزت ناصيته و أطلق .

أيضاً حرب (يوم) داحس و الغبراء الذي تفرع عنها أيام مثل يوم المريقب و
يوم ذي حساء و يوم اليعمرية و أيام الهباءة و فروق و قطن . و لا يعزب عن
البال هنا أن (اليوم) هو موقعة فرعية من اليوم الرئيس .

و من أشهر أيامهم أو حروبهم تلك .. حرب أو يوم داحس و الغبراء ، و هما
اسما فرسين تم الرهان عليهما في سباق . و لكن بعد انتهاء السباق يبدو أن أحداً
المتبارين و هما حذيفة بن بدر و قيس بن زهير ، لم يتقبل فكرة الهزيمة بعد أن
ظهرت بوادر التلاعب في سير السباق . و بعد أخذ و رد و امتناع ، أرسل
حذيفة ولده إلى قيس يطالبه برهان الفوز ، لكن قيس و بوفرة غضب قام بقتل
الغلام ثم فر مرتحلاً مع قومه . لكن حذيفة أدرك مالكاً أخا قيس ، وقتله ،
فنشبت الحرب بين قبيلتي عبس و ذبيان و امتدت فترة زمنية طويلة استجرت
فيها قبائل أخرى تورطت فيما بين الفريقين و ذهب ضحيتها الكثير من القتلى و
المعطوبين .

كذا الأمر ، كانت حرب البسوس ، حرباً عربية - عربية دارت بين قبيلة بكر و قبيلة تغلب و التي امتدت كما قيل^١ أربعون عاماً و ذهب ضحيتها الكثير من القتلى و الضحايا ، و فتيل هذه الحرب كان بسبب ناقة اسمها (سراب) اختلطت أكثر من مرة مع شياه وائل بن ربيعة (كليب) و نياقه ، فلما رآها ، أكبر ذلك على نفسه ، فرماها بسهم من كنانته ، بطحها أرضاً . و لما أدركت صاحبتها (البسوس) من قبيلة تميم ، خبرها ، صاحت و ناحت و نادت بالمذلة و أنشدت أبيات شعر ذات وقود للنخوة و الفزعة ، فسمعها ابن أختها (جساس) ما أثار غضبه و فورة دمه فقام يطلب كليب (وائل) حتى أدركه في مرعى ، فرماه برمح من الخلف أوداه قتيلاً ، و لما وصل خير كليب لأخيه (المهلل) أبطأ في رده زمناً ثم ما لبث أن ثار يطلب دم أخيه . و قد عرض عليه بني مرة أهل جساس الدية و أعظموها ، فلم يقبل ، ثم عرضوا عليه القود من القاتل أو فحل من فحولهم يدانيه ، فلم يرض و شن عليهم الغارات و اشتبك معهم في حروب طوال ضارية عرفت بحرب أو يوم البسوس .

و إذا أردنا أن نوصف لحال العرب و فكرهم في الجاهلية ، كان لا بد لنا من الالتجاء إلى الشعر الجاهلي الذي كان من أهم عوامل و صور الفكر العربي في هذه الفترة . و قد أطلق عليه البعض تسمية (ديوان العرب) . فالشعر الجاهلي هو كثر من كنوز العرب ، به عرفت أخبارهم و سيرهم و وقائعهم ، و به بقيت آثارهم إلى يومنا هذا . و بالشعر الجاهلي تم تكوين صورة واضحة عن الإنسان العربي في تلك فترة ما قبل الإسلام ، فهو في معظم الأحيان قد تطرق إلى مفصل دقيقة في حياتهم اليومية . كما أنه ناقش أحوالهم الاجتماعية من زواج و طلاق و عادات و أعراف ، فنقل لنا صورة عن نظرة العربي إلى نفسه و نظرته إلى غيره .. إلى الوسط المحيط به و إلى قبيلته و القبائل الأخرى و علاقتها

^١ أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام ، ص / ٩٠ - أيام العرب في الجاهلية ، ص / ١٤٢ .

مع قبيلته هو . فكان الشعر العربي صورة و شكل من أشكال تعبير الإنسان العربي عما يعتمل في دواخله و نفسه من مشاعر و أحاسيس . فيصح القول و الحالة هذه ، أنه تعبير عن الوجدان العام للإنسان العربي ، فقد أبرز الشعر الجاهلي أيضاً في جنباته ، صورة الأخلاق الإنسانية و القيم الاعتبارية بشقيها الإيجابي و السلبي .. المحبذ و المذموم ، كالصدق و الوفاء و الخير و الكرم و النخوة و العمل الصالح و الكذب و النفاق و الشر و الغدر ، كل على حدة ، من محاسن الأفعال و قبائحها .

و بنظرنا فإن الشعر العربي الجاهلي تحديداً ، كان أقوى من كل مدونات الأمم و الشعوب الأخرى المجاورة أو السالفة للعرب ، لأمرين اثنين ..

الأمر الأول : إن أساطير و كتابات حضارات الأمم القديمة الأخرى كبلاد الرافدين و مصر أو فارس و اليونان ، التي نقشت على الأحجار و الصخور و على الأوراق و الجلود ، كانت كمحصلة زمنية غير قصيرة امتدت ربما لسنين أو عقود ، بمعنى أن هذه الأسطورة أو تلك ، و هذه المنقوشة أو تلك ، لم تكن بنت لحظتها بل هي تصوير لمحصلة أمور و وقائع و حقائق انسحبت على مدى سنين و بالتالي جاءت ملخصة لما حدث و بالخطوط العريضة أحياناً و لتشمل حالة كلية لجهة الحدث ، و جماعية لجهة الأشخاص ، حتى و لو تناولت ضمن حيثياتها في بعض الأحيان شخصاً مفرداً بذاته أو حادثة منفصلة بعينها . يضاف إلى ذلك أن تقنية و آلية إخراجها لا تسمحان بجعلها أداة تعبيرية للوقائع و الأحداث الآنية ، فمن الصعوبة بمكان لا بل من شبه المستحيل استخدام المطرقة و الأزميل لنقش حادثة أو واقعة فور حدوثها ، أو كتابتها على الجلود و إدراجها ضمن وثائق و محفوظات المعبد أو القصر . كما أنه من الصعوبة بمكان و شبه المستحيل كلما خطر لفرد ما ، خاطرة أو موقف معين أو رأي ، أن يسارع إلى البحث عن أول مطرقة و أزميل و يقوم بنحت ما اعتمل في ذهنه على الحجر و الجلود . يضاف إلى ذلك أيضاً ، أن الكتابة و التدوين لدى

شعوب تلك الأمم و الحضارات ، كانت من اختصاص طبقة معينة (الكهنة و الكتبة و الموظفون) و قد انحصرت بهم فقط .

ذلك كله كان على النقيض تماماً لدى الإنسان العربي في الجاهلية ، فالشعر لديه كان بمعظم الأحيان ، وليد حالة أو حادثة أو واقعة ، فردية كانت أم جماعية ، هي بنت لحظتها أو يومها . فكان العربي إذا ما شاهد أمراً ما ، أثار انتباهه و عبر له عن قضية معينة ، أو تعرض هو لموقف معين بغض النظر عن ماهيته ، تراه على الفور أطلق لسانه بأبيات من الشعر توصف هذه الحادثة أو الموقف و تعبران عنها . و من مثال ذلك معلقة (امرؤ القيس) التي كما يقال كان دافعها بكل بساطة عبارة عن مروره على إحدى الأطلال و الخرائب التي كانت عامرة في وقت من الأوقات السالفة ، فتذكر هو هذا الموقف فأنشد قصيدة من ثمانين بيتاً ، كانت من أروع قصائده ، حتى أنها علقت على الكعبة و من بعض ما جاء فيها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالقراءة لم يعف رسمها	لما نسجتها من جنوب وشمال
ترى بعز الآرام في عرصاتها	وقيعانها كأنه حب فلفل
كأني غداة البين يوم تحمّلوا	لدى سمرات الحي ناقف حنظل
وقوفاً بها صحبي علي مطيهم	يقولون لا تهلك أسي وتجمل
وإن شفائي عبرة مهراقة	فهل عند رسم دارس من معول
كدأبك من أم الخويرث قبلها	وجارتها أم الرباب بمأسل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة	فقال لك الوليات إنك مرجلي
أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل	وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
وليل كموج البحر أرخى سدوله	علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه	وأردف أعجازاً وناء بكلكل

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي بَصُحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
 كَأَنَّ الثَّرِيًّا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِيهَا بِأَمْرَاسٍ كِتَانٍ إِلَى صَمِّ جَنْدَلِ
 مِكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعًا كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عِلِ
 كَمَيِّتٍ يَزِلُّ اللَّيْلُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُنْتَزَلِ

من لحظة قصيرة مرت بما خاطرة و ذكرى خاطفة لمكان كان الشاعر يعيش به من قبل أو مر به يوماً ما ، خرجت قصيدة تضاهي الأسطورة في قوتها و تعابيرها و وفرتها من تنوع الحوادث و دقة التصوير .. تصوير يتناول أدق التفاصيل بما فيها بحر المشية في ساحات الخرائب و كيفية تموضعه بين الرمال و من ثم ينتقل إلى علاقته مع حبيسته و وصف دارها أو خيمتها و تدللها و تعاملها معه لينتقل بعدها إلى وصف الليل و النجوم و أشكالها و كيفية تشكلها و مواضعها لينتقل بعدها إلى وصف حصانه و مزاياه و صفاته البدنية و كيفية حركته .

كما أن الشعر العربي الجاهلي آنذاك ، لم يكن ليقصر على الخطوط العريضة أو يشتمل بالضرورة على حالات كلية لجهة الحدث ، أو جماعية لجهة الأشخاص ، بل كان يعبر في كثير من صورته عن حالات فردية تتعلق بحوادث فردية أيضاً و من أمثلة ذلك بنظرنا ، ما قاله عنتر بن شداد في لحظة تذكّر بها ابنة عمه عبلة و هو في خضم معركة حامية الوطيس مماًزجاً ما بين جو المعركة و وصف عبلة حيث قال فيها :

و لقد ذكرك و الرماح نواهل مني و بيض الهند تقطر من دمي
 فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

أو في حالة الشاعر أبو الطيب المتنبي عندما كان برفقة أحد القواد و اسمه بدر بن عمار ، فبرز له أسد كبير و هو على صهوة حصانه ، و عندما وثب الأسد على

عُجَزَ الحِصَانِ ضَرْبَهُ الرَّجُلَ بِالسُّوْطِ وَ لَيْسَ بِالسَّيْفِ وَ الْمُتَنَبِّيَ يَرِاقِبُ الْمُشْهَدَ ،
فَأَنْشَدَ قَصِيدَةَ مَنْ خَمْسُونَ بَيْتًا يَقُولُ فِي بَيْتٍ مِنْهَا بِإِعْجَابٍ عَنِ اسْتِخْدَامِ الرَّجُلِ
سُوْطَهُ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْأَسَدِ ، بَدَلًا مِنْ سَيْفِهِ :

أَمْعَفَرُ اللَّيْثِ الْهَزْبِرِ بِسُوْطِهِ لِمَنْ إِدْخَرْتَ الصَّارِمَ الْمُصْقُولَا

كذا الأمر لدى الشاعر عمرو بن كلثوم و هو من فحول شعراء الجاهلية و
أصحاب المعلقات و الذي كانت معلقته حول حادثة فردية جاءت كردة فعل
على تصرف غير متوقع و ذلك عندما قام بقتل المويك (الملك) عمرو بن هند
عندما طلبت والدته من والده عمرو بن كلثوم أن تناولها طبق طعام ، فامتنعت
الأخيرة فلما ألحت عليها بالطلب ، صاحت هذا " و أذلاه .. يا لتغلب " فثار
الدم في عروق ابنها عمرو بن كلثوم و قام إلى سيف معلق بالرواق و علا به
عمرو بن هند . و أنشأ لهذه الحادثة قصيدته المعلقة الشهيرة المؤلفة من مائة بيت
ونيف ، يقول في بعض من أبياتها :

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرَكَ الْيَقِينَا
بَأَنَّا نُوْرِدُ الرِّيَاطِ بِيضًا وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا
وَأَيَّامٍ لَنَا غُرٌّ طَوَالٍ عَصَيْنَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا

و العربي لم يكن ليحتاج أكثر من مخياله و لسانه لينشد أبياته الشعرية التي يتم
تداولها شفاهة على الألسن و تبقى مخزونة في الذاكرة . و لم يكن الشعر مختصاً
بفئة معينة (كهنة - كتبة - موظفون) كما هو الحال في باقي الأمم ، بل كان
الكل يجترفه و يصطنعه أداة للتعبير عن محتلجاته و دواخله ، بدءاً من رويعي
الغنم وصولاً إلى الشخص الأعلى مكانة في القبيلة أو البلدة ، فعنترة العبسي
كما رأينا ، كان عبداً من الرقيق . و الشنفرى كان طريد قومه و الشاعر تأبط
شراً و عروة بن الورد الذي كان من الصعاليك .

الأمر الثاني : إن مدونات الأمم و الشعوب الأخرى من أحافير و منقوشات و أوراق بردي و غيرها ، من المؤكد أنها كانت تخضع لرأي النقيب و مقص الرقيب ، و أنها نتاج لدراسة عميقة و فحص و تمحيص دقيقين ، فهي في نهاية الأمر لا تعدو كونها تعبيراً عن آراء و مزاج النخب السياسية و الدينية و الاجتماعية العليا . و كانت تتعرض لعمليات المحو و الإتلاف أو التبديل و التحوير ، عندما تتغير تلك النخب و تأتي نخب أخرى تسطر ما تشاء على هواها .

أما الشعر العربي الجاهلي ، فقد كان خارج نطاق هذه الدائرة بأكملها و لم يخضع لأي اعتبارات سياسية أو دينية أو اجتماعية إلا فيما ندر و باستثناء حالات مدح القبيلة أو الديانة حيث لا كيانات بعد و لا مصالح اقتصادية . و طبقاً لذلك يمكن القول أن الشعر العربي الجاهلي كمادة وثائقية تاريخية و مدونة إخبارية ، هو أكثر مصداقية و وثوقية من بقية المدونات و الأساطير الأخرى .

إن الفكر الجاهلي يمكن استنباطه حتى من الحوادث الكبيرة الجماعية ، و السبب في ذلك يُعزى إلى أن هذه الحوادث هي في الأساس ذات منشأ فردي ، و السبب فيها ، غالباً ما يكون نتيجة لتصرف فردي . ليس ذلك فقط ، بل إن هذا التصرف لا يعدو كونه مجرد انفعال عاطفي منطلقه غرائز الفرد الذي قام به ، و نتيجة لفورة غضب أيضاً غالباً ما تكون أسبابها تافهة أو لا تستحق أن تكون مسببات و دوافع لارتكاب الفعل أو التصرف الفردي الموما إليه و الذي هو بدوره أيضاً لا يصلح لأن يكون سبباً و دافعاً لارتكاب الفعل الذي يليه و الذي هو أيضاً بدوره لا يصلح أو يستحق أن يكون سبباً كافياً لإشعال حرب أو حدث ضخم ، لكنه حتماً يصلح لأن يكون فتيل إشعال أو صاعق تفجير .

و يمكننا تشبيه عملية تشكل حصول الحدث الجماعي الكبير في الجاهلية ، بعملية سقوط أحجار الدومينو .

إذا نظرنا في بعض أهم وأكبر حروب الجاهلية أو عمليات القتل الهامة ذات الجلل ، لألفينا بسهولة و يسر ما أوردناه في التعليل . فهذه حرب داحس و الغبراء التي راح ضحيتها الكثير من القتلى و تورطت فيها قبائل عدة ، كان منشأها الأساس ، سبب تافه و هو الرهان بين سيدي قبيلتي عبس و ذبيان ، على فرسي سباق . و عندما أرسل الفائز ولده لمطالبة الخاسر بنصاب الرهان ، قام هذا الأخير بقتلة بغفورة غضب لأنه اعتبر ذلك إهانة له ، ثم لم يلبث أن لاذ بالفرار . و بالرغم من أن والد الغلام المقتول قد استقاد من أخي القاتل و كان ذلك سبباً منطقياً و كافياً لطبي ملف هذه القضية ، إلا أن ذلك ما لم يحصل أبداً و نشبت الحرب بين الفريقين و التي استمرت لفترة لا بأس بها و داولتها جولات عدة ، لم تكد إحداها تنتهي بالصلح و المفاوضات و الدييات و حقن الدماء منذرة بانتهاء الحرب ، حتى يبرز حدث تافه آخر مثل أصحابه التافهين ، ليستتر من جديد و تبدأ جولة جديدة من القتال تأتي على الأنفس و الأرواح و تحريق دماء جديدة حتى يصل الطرفان إلى حالة من الإنهاك التام و الخراب الكبير ، فينهيان الحرب فيما بينهما بكل بساطة .

و تلك حرب البسوس التي دانت و دالت و استطالت حتى غدت من مآثر التاريخ العربي الجاهلي ، كانت تفاهة أسبابها و اتضاع دوافعها ما يثير العجب العجاب و أولها .. الزهو و العنجهية و الحمق الناتج عنهما . فعندما ساد وائل بن ربيعة الملقب بكليب ، قومه من بني تغلب بعد انتصاره على اليمانية ، أقرت له (معد) كلها بالطاعة و سموه بسيماء الملوك ، فداخله زهو و غرور كبيرين تمازجا على ما يبدو بطباع نفسه التي نشأت على الغضب و الفورة السريعة و الكبرياء و هو الذي عاش في بيئة و جو قبيلته (تغلب) التي كانت من أشد قبائل العرب أنفة و سطوة حتى قيل " لو أبطأ الإسلام لأكل بنو تغلب الناس " . فما كان من هذا الرجل إلا أن بغى على على قومه و طغى و تجبر .

و قد بلغ من طغيانه أن قام بأفعال و صنائع أنكرتها عليه العرب ، فقد كان يحدد أرضه و مرعاه بمد النظر إلى السماء و تموضع السحب ، فلا يجروُن أحد على الرعي في ذلك القطاع . و كان إذا تربّع على مجلسه ، لا يسمح لأحد بالمرور أمامه .. و بحضرتة لا يجوز مدح أحد كائناً من كان أو ذكر خصاله إلا هو نفسه . و لم يكن لأحد غيره أن يتخذ مضافة أو إجارة إلا هو ، و لا توقد نار مع ناره . لا بل أنه أسبغ حمايته و حصانته الدبلوماسية على البهائم و الطرش ، فكان إذا رأى طائراً أو دابة و أعجبه شكله أو حركاته ، كان يقول له : أنت في حماي . فلا يجروُن أحد بعد ذلك على التعرض لهذه البهيمة أو تلك العجماء . و قد بلغ من غرائب غروره و منكر طغيانه ، أنه كان قد اتخذ له جرواً (ولد الكلب) فكان يرسله في الفلاة هائماً ، فحيثما وصل هذا الجرو ، اعتبر هذا المكان خاص به لا يرعى فيه أحد إلا بإذنه لدرجة أنه هو نفسه قد نُسبَ إلى هذا الجرو و لقب بكليب .

و ذات يوم نزلت بهم خالة زوجه و هي امرأة من (تميم) تدعى البسوس و لها ناقة و فصيلها . و صودف أن رعت تلك الناقة و فصيلها مع إبل كليب ، فلما أبصرها رمى فصيلها بسهم من قوسه آن به صريعاً مجندلاً ، فسكت بنو (مرة) أهل زوجه عن هذه الحادثة و أغضوا الطرف عنها . و في المرة الثانية رأى الناقة نفسها ترعى ، فرماها بسهم من قوسه فقتلها (و قيل رمى ضرعها فاختلط دمها بلبنها) . و هنا قامت البسوس بتحريض ابن أختها جسّاس و هو أخو (الجليلة) زوج كليب ، و لم ترض بتعويض بنو مرة لها حيث عرضوا عليها عشر نوق بدلاً من ناقتها و لكنها لم ترض و أصرت على الثأر لناقتها الغراء اليعحوم و رفعت عقيرتها منشدة بأبيات تحريضية قالت فيها ¹ :

¹ أدباء العرب (الجاهلية) ، ص / ٩١ .

أيا سعدُ لا تغرّر بنفسك و ارتحل
و دونك أذواذي إليك فإنني
لعمرك لو أصبحتُ في دارٍ منقذٍ
و لكنني أصبحت في دارٍ معشرٍ
فإني في قومٍ عن الجارِ أمواتٍ
محاذرة أن يغدروا بنياتي
لما ضيّم سعد و هو جار لأبياتي
متى يعدُّ فيها الذئبُ يعدو على شاتي

و عندما سمع حساس هذه الأبيات ، ثارت فيه نائرة الجاهلية و نخوتها ، فقال لها
حيتاً و توريةً : صبراً يا خالة فإنني سأقتل جملاً أعظم من ناقتك . و كان
المقصود هنا هو كليب .

و بالفعل نفذ حساس وعيده هذا و قام بقتل كليب إذا رماه من الخلف برمح .
و بالطبع عُرِضت الديات و الوساطات و الاستقادة ، لكن كل ذلك ذهب
هباءً منشوراً فقد نشب الحرب بين تغلب و بكر ، و التي استمرت أربعين عاماً و
قُتل فيها من قُتل و راح ضحيتها من راح . كل ذلك بسبب الجهل و الغباء
المتوجين بالغرور و الوصول إلى مستوى الشذوذ الفكري و مركب النقص ، من
أشخاص يفترض بهم أن يكونوا على مستوى الملكية التي يدعونها و يتوهمون أنهم
بمستواها و هم غير قادرين على قيادة عترة من العتر .

حرب كانت نتيجة اجتماع التبن اليابس و القش المتهرئ المتعفن ، مع البترين و
الكبوسين و عود ثقاب البسوس¹ .

و اللافت للملاحظة ، أن حروباً عتية مهلكة كهاتين الحربين السابقتين ، كانت
بسبب حيوانات و بهائم عجماء انحدر إلى مستواها الدهماء من البشر . و إذا
تقدمنا بالزمن قليلاً إلى الأمام ، تصادفنا حادثة مقتل الملك (عمرو بن هند)
التي تملك في ناحية من نواحي العراق . و قد بلغ من غروره و وحمقه و زهوه
بنفسه هو الآخر ، أن سأل حاشيته ذات يوم سوآلاً عجيباً غريباً لا يخطر على

¹ سمّت العرب أبيات البسوس السابقة بالموثبات لأن البسوس و هي من تميم ، قد حرضت فيها الغرائز و
أوغرت الصدور .

بال و لا يدل إلا على فسل أرومته و فساد طباعه ، فقال لهم " هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أُمي ؟ " فقيل له : لا نعلمها إلا ليلي أم عمرو بن كلثوم . فسأل عن السبب فأجابوه : لأن أباهما مهلهل ربيعة و عمها كليب وائل أعز العرب و بعلها كلثوم بن عتاب فارس العرب و ابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه . (يعني بكل بساطة عش دباير المشاكل) فقام الملك بدعوة عمرو بن كلثوم و أمه ليلي إلى وليمة ، و كان قد تواطأ مع والدته على أن تنحّي الخدم و تستخدم ليلي أم عمرو بن كلثوم . و عندما فرّش الطعام ، طلبت والدة الملك عمرو من ليلي بنت المهلهل أن تعطيها طبق طعام فأجابتها الأخيرة أن تخدم نفسها بنفسها . و عندما كررت عليها الطلب ، أعلنت ليلي على الفور النفي العام و دقت زمور الخطر و صاحت " و أذلاه .. يا لتغلب " . فثار ولدها عمرو بن كلثوم و قام من فوره إلى سيف معلق بالرواق و علا به الملك عمرو بن هند فقتله ، ثم قام هو و صحبه بنهب القصر و فروا هارين إلى ديارهم في الصحراء . و قد قال عمرو بن كلثوم قصيدة في تلك الحادثة يفخر فيها بنفسه و فعلته . و الغريب أنه تم انتخاب هذه القصيدة للفوز بجائزة (المعلقات) مع أنها توثق لجرمة قتل و عملية سلب و نهب و تعد بمثابة اعتراف من القاتل بفعلته .

قراءة فكرية للعصر الجاهلي :

تتضح مما سبق ، صورة مهمة من أبرز تجليات الفكر العربي في الجاهلية ، و هي صورة ربما تكون قد انسحبت مكوناتها و امتدت آثارها إلى يومنا هذا . و

يدعم ذلك ما نراه من أحداث و صور و مظاهر تحدث في عالمنا العربي في المجالين السياسي و الديني .

لعلنا نلاحظ فيما سبق ، أن الوقائع و الحروب و الغزوات فيما بين العرب ، قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بفكرهم الذي ارتبط هو الآخر بدوره ارتباطاً وثيقاً بغريزتهم العاطفية بالدرجة الأولى . ذلك ما يصرفنا من فورنا إلى ما ذكرناه من قبل ، من ترابط بين البيئة و الفكر عند العرب . و ما جاء من أسباب سطحية لحرب داحس و الغبراء و حرب البسوس على عظمتها ، و مقتل الملك عمرو بن هند على يد عمرو بن كلثوم التغلبي ، ما كان ليحدث لدى الأمم و الشعوب الأخرى المجاورة كفارس و اليونان و الروم ، أو الأماكن الحضرية ذات الطابع المدني . فلم يحدث قط في اليونان أن دخلت المدن اليونانية في اقتتال فيما بينها لأجل عترة أو بعير . و لم يحدث قط أن حصل في فارس أو بلاد الروم ، حروب لأجل مزاج عصبي عارض . ذلك أن النظام السياسي و الاجتماعي يختلف تمام الاختلاف عما هو في جزيرة العرب . حتى بعض الممالك العربية الصغيرة المنتشرة هنا و هناك في الصحراء ، لم تكن لتشكل نظام سياسي متجانس يشتمل على أنظمة سياسية و قوانين اجتماعية ناظمة و نافذة ، كقانون مدني مدون و مكتوب يقبل به عموم الأفراد طوعية ، كعرف يشبه في صورته نظرية العقد الاجتماعي .

فأشخاص مثل عمرو بن هند أو المنذر بن ماء السماء أو النعمان بن المنذر أو حجر الكندي (والد امرؤ القيس) أو كليب وائل التغلبي .. هؤلاء في الواقع لا يمكن أن تقع عليهم صفة الملوك ، بل هم متشبهون بالملوك . وربما (نقول ربما) يستثنى منهم بعض ملوك اليمن كالتبابعة و غيرهم ، و بعض ملوك الحضر في بلاد الشام . فنظام الملك هو نظام سياسي يقوم على دولة و جيش و قوانين و أسس و حضارات و أديان معتمدة و اتفاقيات و مبادلات تجارية اقتصادية فيما

بين الممالك ، و مستشارين . و التحصل على مستوى تعليمي ثقافي يشتمل حتماً على إتقان القراءة و الكتابة كحد أدنى .

أما أن يأتي أشخاص لا يفكون الحرف و يحتقرون المهن و الحرف ، و أكبر همهم و شغلهم و شاغلهم ، هو المراعي و أتباع القريض من الشعر يسمعونه من هذا و ذلك ، يعطون هذا ليمدحهم و يقتلون ذلك لهجوه إياهم^١ . سيماهم الانفعال و الهياج و اتخاذ قرار الحرب لأتفه الأسباب ، لا يسودون في أحسن الأحوال غير قبائلهم و بطونها و أفخاذها ، و في النهاية يتم تصفيتهم من قبل أتباعهم و أشياعهم القبليين أنفسهم أو قبائل أخرى لا تخضع لهم أو بواسطة أطراف خارجية كما فعل كسرى أنوشروان مع النعمان بن المنذر .

فهاهو وائل بن ربيعة بعد تملكه على قومه ، يثرون عليه و يقتلونه ليس لطغيانه و تجبره فحسب ، بل لأنفتهم - من الأساس - من نظام الملك و التسلط . فكليب وائل سقط صريعاً بموجب الأعراف و العقلية القبلية أكثر منها الثورة على الظلم و الطغيان و القهر ، فإتباعه و مشايعوه صبروا على ظلمه و تصرفاته اللامعقولة و المنافية لأدنى قواعد العقل و المنطق و تحملوا ذلك برضا و صمت . و لكن ما أن دوت صحية البسوس^٢ و أذلاه .. و ااا جوار حساس .. و ااا جوار مرة^٣ حتى قاموا عليه و قتلوه .

و هذا المدعو الملك عمرو بن هند الذي لقي حتفه نتيجة رد فعل غير متوقع لتصرف قد يكون عادياً بسيطاً في البلدان المجاورة للعرب ، أو المدن الحضرية المتاخمة لحدودهم الصحراوية .. تصرف تمثل في طلب شخص من آخر أن يناوله طبق طعام . و هو ما يصلح لأن يكون مشهداً سينمائياً .. امرأة تطلب من أخرى أن تناولها طبق طعام ، فتصيح الأخرى بالذل ليأتي ولد الأخيرة من فوره و بضربة سيف واحدة ، يقتل ابن المرأة الأولى .

^١ كما فعل الملك عمرو بن هند مع طرفة بن العبد عندما هجاه الأخير .

إن الصيحة (و أذلاه .. و اا جوار حساس .. و اا جوار مرة) التي قتلت ما يسمى الملك وائل بن ربيعة ، هي نفسها الصيحة (و أذلاه .. يا لتغلب) التي راح ضحيتها المويك عمرو بن هند الذي لم يكن موفقاً على ما يبدو في تقديراته للأمر ولم يك على ما يبدو أيضاً مصلحاً بالمفاهيم السياسية و نظام الحكم و أصوله . و قد تناول الشعراء سفاهته و قلة تقديره للأمر ، و منهم الشاعر بن صريم الذي قال مفتخراً بفعله عمرو بن كلثوم¹ :

لعمرك ما عمرو بن هند و قد دعا لتخدم ليلى أمه ، بموقف
فقام ابن كلثوم إلى السيف مُصلتاً فأمسك من ندمانه بالمخنق
و جلله عمرو على الرأس ضربة بذى شطب صافي الحدية رونق

أبيات تشير إلى سوء تصرف ابن هند الملك ، و في الوقت عينه تكبر ما فعله القاتل و هي بالتالي تعطي صورة للفكر العربي الجاهلي و بروز صورة سيادة العادات القبلية على ما سواها .

و لأجل هذا الموقف الصغير ، نظم عمرو بن كلثوم معلقته الشهيرة التي يشط خيال كل من يقرأها إلى تصور نشوب حرب عالمية أو بأحسن الأحوال حرب إقليمية .. عربية - أجنبية اندلعت بين العرب و الأعاجم . و نختار من بعض أبيات هذه القصيدة الطويلة ، نرجو التمعن فيها ..

أبا هندٍ فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأننا نوردُ الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد رويننا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيد معشر قد توجه بتاج الملك يحمي المحجريننا
تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعتتها صفونا

¹ أدباء العرب في الجاهلية ، ص / ١٥٤ / .

مَتَى نَنْقُلُ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا يَكُونُ نِفَالَهَا شَرْقِيَّ نَجْدِ
يَكُونُوا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَحِينَا وَلَهْوَتُهَا قَضَاعَةَ أَجْمَعِينَا
نُطَاعِنُ مَا تَرَخَى النَّاسُ عَنَّا وَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ إِذَا غَشِينَا
كَأَنَّ جَمَاعِمَ الْأَبْطَالِ فِيهَا وَنَسُقُ بِالْأَمَاعِزِ يَرْتَمِينَا
نَشُقُّ بِهَا رُؤُوسَ الْقَوْمِ شَقًّا وَنُخْلِئُهَا الرِّقَابَ فَتُخْتَلِينَا
وَرَثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمْتَ مَعَدًّا نُطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبِينَا
أَلَا لِيَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهْلٌ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا
وَرَثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بْنِ سَيْفِ أَبَاحَ لَنَا حُصُونِ الْمَجْدِ دِينَا
وَنَحْنُ الْحَاكِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا وَنَحْنُ الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا
وَنَحْنُ التَّارِكُونَ لِمَا سَخَطْنَا وَنَحْنُ الْآخِذُونَ لِمَا رَضِينَا
وَكُنَّا الْأَيْمِينَ إِذَا التَّقِينَا وَكَانَ الْأَيْسَرِينَ بَنُو أَبِيْنَا
فَصَالُوا صَوْلَةً فَيَمِّنُ يَلِيهِمْ وَصَلْنَا صَوْلَةً فَيَمِّنُ يَلِينَا
فَأَبَاوَا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

يا عمي هذه حرب عالمية .. حرب استخدمت فيها الصواريخ بالستية العابرة للقارات و نزلت فيها الجيوش و الفيالق في النورمندي و ما وراء المحيطات . صورة تبرز مبدأ التهويل .. تهويل بسائط الأمور إلى الحد الذي لا يصدق .. حد شبيه بما نراه اليوم في الأغاني العربية التي هي فيما يبدو منتج متأخر من نتاج بعض صور الشعر الجاهلي (راجع مقدمة الكتاب) . صورة التفاخر بالعصيان و القتل و التدمير . و بنظرنا فإن هذا نوع من الفكر أكثر منه شعر ، هو نوع من إخراج المكبوت الفكري مكبوت الغرائز الفكرية التي هي نتاج التفاعل ما بين البيئي و الاجتماعي الذي ينتظر أدنى فتيل إشعال أو صاعق تفجير ليخرج مارداً مدمراً بالفعل التطبيقي (قتل - حرب - تخريب) و الفكر التجريدي

(الشعر المعبر عن الحادثة) و ربما يكون مقترناً بالجهل و عدم الوعي ، فهو فكر البدوي البربري . فلنلاحظ قصيدة لهذا القاتل يخاطب بها جحشاً ، يقول له التالي ..

يا جَحَشُ يا جَحَشُ مَنَّكَ الْأَسْبَابُ
إِنْ تَكُ وَثَاباً فَإِنِّي وَثَابٌ
وَالنَّاسُ أَذْنَابٌ وَنَحْنُ أَرْبَابٌ
أَنَا ابْنُ كَلْثُومٍ وَجَدِي عَتَّابٌ^١

يعني ماذا نتوقع من شخص يخاطب كراً و يتفاخر عليه قائلاً له أنا من الأرباب و أبي فلان و جدي فلان؟؟ أليس الملك الذي دعا أمه لتخدم أمه ، هو أكثر منه سفاهة و ضالة فكرية و حمقاً ، كي يضع نفسه أمام مهيب مصير مهلك تلوكه الناس بألسنتهم ، بدل أن تشغله أمور الملك المزعومة . و هذا الملك حجر الكندي (والد امرؤ القيس) الذي كان ملكاً على بني أسد و غطفان ، لم يلبث أن ثار عليه بنو أسد و قتلوه بسبب أنفتهم من دفع الضرائب و الجبايات .

و هذا أيضاً النعمان بن المنذر الذي ملكه كسرى على الحيرة و كان يملك أسلافه من قبل ، قد قُتل من قبل كسرى نفسه لأنه اعتذر عن تلبية طلب له ، و قد استجار بالقبائل العربية ممن هم في جواره فلم يجره أحد خوفاً من كسرى ، إلا هانئ بن مسعود سيد شيبان . و مع ذلك اضطر النعمان للذهاب إلى كسرى لملاقاة مصيره المحتوم ، لكنه أمن أهله و عياله عند (شيبان) . و كان من نتيجة ذلك ، حرب ذي قار التي نشبت بين العرب و الأعاجم و انتصر فيها العرب ، و السبب هو نفسه ذات السبب الذي قُتل فيه كليب وائل و عمرو بن

^١ الموسوعة الشعرية الالكترونية - باب شعراء و دواوين - عمرو بن كلثوم - القصائد .

هند و حجر الكندي .. الحمية القبلية العربية ، فقد رفض هانئ بن مسعود تسليم أسلحة النعمان و كراعه و بناته إلى كسرى عن طريق قائم مقامه ، معتبراً ذلك من العار اللازب ، فكان أن توحدت القبائل العربية عندما ترامت الأنباء عن قدوم جيش كسرى للحرب وشكلت هي الأخرى بدورها جيشاً فيما بينها تصدى لجيش كسرى و ألحق به هزيمة شنعاء سطرها الملاحم الشعرية ، و من ذلك ما قاله الأعشى حيث قال من جملة ما قال ..

أوصيكم بثلاث إني تلف	إن الأعرز أبانا كان قال لنا
حقاً علي فأعطيه وأعترف	الضيف أوصيكم بالضيف إن له
يوماً من الدهر يشيه فينصرف	والجار أوصيكم بالجار إن له
إذا تلوى بكف المعصم العرف	وقاتلوا القوم إن القتل مكرمة
منهم بغير ومنهم سارب سلف	إن الرباب وحيًا من بني أسد
كل يؤمل قنيانا ويطرف	قد صادفوا عصابة منا وسيدنا
منا كتائب تزجي الموت فأنصرفوا	وجند كسرى غداة الحنو صبحهم
من الأعاجم في آذانها النطف	ججاجح وبنو ملك غطارفة
ملنا بيض فظل الهام يختطف	إذا أمالوا إلى النشاب أيديهم
حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف	وخيل بكر فما تنفك تطحنهم
في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف	لو أن كل معد كان شاركنا

من الواضح بروز العصبية القبلية كعامل أساس في هذه الحرب ، فالشاعر الأعشى قال في القصيدة أن السيد الوالد قد أوصاهم قبل رحيله بأعراف و عادات قبلية منها إكرام الضيف و حسن الجوار و الـ ... قتال .. ماذا؟؟؟؟ .. القتال الذي هو من المكرمات حسب وصية السيد الوالد . كما برز

الوعي و الحس العربي بذكر اجتماع القبائل العربية و التطرق مشاركتها بالحرب و حمايتها القبلية . كما تم الحرص على إبراز الحالة اللوجستية و الوضعية القتالية لجيش كسرى و وضعها في أفضل حالاتها ، و هو وعي فكري متقدم يصب في النهاية في خدمة الوضع العربي ذاته . و يأتي البيت الأخير في الأبيات السابقة ليعطي الصورة الشاملة و المستوعب الأساس للفكر العربي الجاهلي و الشخصية العربية و يخفي في طياته نوع من فكر وحدوي عربي شمولي يتسم بتميز الهوية العربية ، و ذلك من عبارات (كل معد كان شاركنا) (ما أخطاهم الشرف) و من بعض حيثيات و لقطات معركة ذي قار ، تتبدى صورة إمام العرب بالأساليب الحربية القتالية فعندما أقبل جيش الأعاجم باتجاه تخوم أراضي القبائل العربية ، و تحففل هذه القبائل لمواجهته ، أقبل ربيعة بن غزالة مع قومه منضمًا إلى بني شيبان^١ في الحرب فقال لهم : يا بني شيبان.. لا تستهدفوا هذه الأعاجم فتهلككم بنشأها و لكن تكردسوا لها كراديس ، فإذا أقبلوا على كردوس ، شد الآخر . و عندما التقى الجيشان مواجهة ، أشار أحد الوجهاء العرب إلى قومه قائلاً " إن النشاب الذي مع الأعاجم يفرقكم ، فإذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء و ابدءوهم الشدة " ثم قام و قطع حبال الناقة التي عليها حرمه و فعل ذلك مع كل الظعن^٢ فسقطن على الأرض ، و قد فعل ذلك كي لا يفر الرجال بفرار النساء . ثم نصب خيمة صغيرة و جلس فيها و أقسم على أن لا ييارحها . كما أُشير^٣ على حاملي السيوف أن يقطعوا الأقمشة السميكة الواقية لأيديهم ، من المنكب حتى تصبح أيديهم خفيفة أثناء الضرب بالسيوف ، كما أشار بعض رؤساءهم بنصب الكمائن .

و استخدم أيضاً التوجيه المعنوي لرفع معنويات المقاتلين و توضيح قضيتهم ، فقد قام هانئ بن مسعود الشيباني بخطب في الجيش و من جملة ما قاله " يا قوم ..

^١ أيام العرب ، ص / ٣٠ .

^٢ الظعن .. جمع ظعينة و هو الهودج على الجمل مخصص لنقل النساء .

مَهْلِكٌ مقدور خير من نجاء معرور ، المنية و لا الدنية ، و استقبال الموت خير من استنباره و الطعن في الثغر أكرم من الطعن في الدبر ، شدوا و استعدوا و ألا تشدوا تُردوا " .

هذه الحالات تشير كلها ، إلى وجود نوع من الوعي الوطني و وعي التجانس العربي تجاه الشعوب الأخرى . و المفارقة الحاصلة في هذا المجال ، هي أن العصبية القبلية يمكن أن تكون سلاح ذو حدين ، للضرر أو المنفعة . و لكن و للأسف يبدو أنها استخدمت مرة واحدة للمنفعة و الباقي للضرر .

آثار تفاعل البيئة مع الفكر في الجاهلية :

إن البيئة الصحراوية القفيرة التي أثرت على عقلية و ذهنية الإنسان العربي في الجاهلية و جعلته غير خاضع لنظام سلطوي مركب و معقد مشتمل على حد أدنى من الشمولية كما هو الحال في باقي الأنظمة و السلطات المتعارف عليها آنذاك . كان من أحد ثمار نتائجها ربما ، أن جعلت معيار الصدق المتجلي كسمة من سمات الشخصية العربية القبلية ، حالة ملتبسة بعض الشيء ، فلا غرو أن يكون الصدق بشكله المتجرد المعبر عن حالة الاعتراف بالخطأ أو السلبية حال وقوعهما و صدورهما من الشخص و وعيه هو نفسه توصيفياً ، لهذا الخطأ أو تلك السلبية بأتهما خطأ و سلبية أو نقيصة كما يقال بالعربية ، فهنا يمكن اعتبار عامل الصدق سمة أخلاقية تسم شخصاً ما أو فكراً معيناً من معيار قول الحقيقة و الشفافية . لكن ما يحصل أحياناً ، هو أن الصدق قد يظهر بشكل أو حالة ملتبسة ، ليس من منطلق اعتماد الشفافية و الحقيقة ، بل من منطلق أن الحالات السلبية التي قد تبدو لنا سلبية و مستهجنة للغاية قد لا تبدو لأصحابها أنها كذلك ، بل تبدو كأعراف اجتماعية محبذة و يفتخر بها من الشماثل و الخصال . و من أحد الأمثلة على ما ذكر .. هو الشاعر العربي (الشنفرى) و

هو من أشهر شعراء الجاهلية و قد اشتهر بسرعة جريه و يعتبر من الصعاليك لكنه بعد ذلك قد احترف القتل و قطع الطريق ، حيث قيل أنه بداية أمره قد لاقى إهانة من بني قومه فأضمر لهم الشر و قطع عهداً على نفسه بقتل مائة رجل منهم ، فأخذ يترصدهم و يتربص بهم الدوائر ، و كلما ظفر بأحد منهم قتله من فوره حتى إذا بلغ عددهم تسعة و تسعين أمسكوا به بعد كمين نصبوه له ، فقتلوه و طرحوا جثته في العراء تأتي عليها السباع و الوحوش .

و قد برزت معظم محطات حياة الشنفرى في شعره ، حيث أبرز طريقة حياته و تفكيره و أعماله بكل وضوح و شفافية ، فحياته كانت حافلة بالجرائم و السلب و النهب فقد كان يقطع الطريق .. يسرق الأموال و يسيئ النساء و يغير على البيوتات الضعيفة المتفرقة فيقتل و ينهب . و بعد كل ذلك نراه يقرض الشعر بما فعل و قام به من التشرد و الصعلكة و قطع الطريق و القتل^١ و يتفاخر بجرائمه و لا يرى فيها حرجاً . و أشهر قصيدة له تداولتها العرب فيما بينها هي (اللامية) حيث سلط فيها الضوء على طريقة تفكيره و طباعه و أفعاله و فيها وصف أخلاقه و عاداته أحسن تصوير و وصف غارة له في الظلام و عودته قبل الصباح بعدما أيم النساء و أكلهن و أيتم أولادهن . و في الواقع فإن ذلك ينسحب بمجمله على سائر شعره . و من قصيدته اللامية نختار هذه الأبيات التي توضح ما ذكر ..

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ فَإِنِّي إِلَى قَوْمِ سِوَاكُمْ لَأَمِيلُ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسٌ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرَفَاءُ جِيَالُ
وَلَسْتُ بِمُحْيَارِ الظَّلَامِ إِذَا انْتَحَتِ هُدَى الْهُوجِلِ الْعَسِيفِ يَهْمَاءُ هُوَجُلُ
إِذَا الْأَمْعَزُ الصُّوَانُ لَاقَى مَنَاسِمِي تَطَايِرٌ مِنْهُ قَادِحٌ وَمَقْلَلُ
دَعَسْتُ عَلَى غَطَشٍ وَبَغَشٍ وَصَحْبَتِي سُعَارٌ وَارِزِيزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكَلُ

^١ أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام ، ص / ٨٨ .

فَأَيَّمْتُ نَسْوَانًا وَأَيَّمْتُ آلدَةً وَعَدْتُ كَمَا أَبَدَاتُ وَاللَّيْلُ أَلِيلٌ
وَأَلْحَقْتُ أَوْلَاهُ بِأَخْرَاهُ مَوْفِيًّا عَلَى قَتْنَةٍ أَقْعِي مِرَارًا وَأَمِثِلٌ

و ما ينطبق على الشنفرى ، ينسحب على شعراء جاهليين كثر في شفافية الطرح الذي هو ليس من باب نقد الذات بقدر ما هو متعلق بعفوية الطرح و الفخر بالفعل ، فمن المستحيل أو غير المنطقي أن يخجل المرء من شيء يفاخر به فهذا الشاعر الزير أبو ليلى المهلهل يستشعر بعفوية مفاخره بجرائمه و منها القتل حيث يقول :

إِنْ يَكُنْ قَتَلْنَا الْمُلُوكَ خَطَاءً أَوْ صَوَابًا فَقَدْ قَتَلْنَا لَبِيدًا
وَجَعَلْنَا مَعَ الْمُلُوكِ مُلُوكًا بِجِيَادٍ جُرْدٍ ثَقِيلٍ الْحَدِيدَا
نُسَعِرُ الْحَرْبَ بِالَّذِي يَحْلِفُ الْنَا سٌ بِهِ قَوْمَكُمْ وَنَذَكِي الْوَقُودَا
أَوْ تَرُدُّوَا لَنَا الْإِتَاوَةَ وَالْفِي ءَ وَلَا نَجْعَلُ الْحُرُوبَ وَعِيدَا
إِنْ تَلْمِزْنِي عَجَائِزٌ مِنْ نَزَارٍ فَأَرَانِي فِيمَا فَعَلْتُ مُجِيدَا

و يلاحظ في البيت الأخير ، اعترافه بتعرضه للملامة و الانتقاد من بعض العقال الحكماء (عجائز من نزار) لكنه يقر بدوره أيضا أنه يرى ذلك من الأفعال و الخصال الحميدة التي تستوجب الفخر .

في الواقع إن إلقاء نظرة فاحصة متمعنة على مجمل الشعر العربي الجاهلي ، يتبدى لنا أنه في صورة من صورته و شكل من أشكاله ، شعر حربي قتالي غزوي ، يتمحور بمضمونه حول القتل و القتال ، و الحرب و النزاع ، مشتملاً على حالتين اثنتين .. حالة إخبارية توثيقية توصيفية ، و حالة إعجابية فخرية . و هما حالتان كافيتان لجعل أية واقعة تمثل فكراً سائداً في مجتمع ما و معبراً عن ذهنية أفرادها الأساس .

و إذا تم استعراض قصائد الشعراء العرب في الجاهلية ، فقلما نعر على قصيدة تخلو من ذكر للحوادث الحربية القتالية الغزوية و سرد لوقائعها ، حتى الشعراء الأوائل المنقطعة أخبارهم إلا على قصيدة واحد صغيرة أو قصائد قصار تم تدوينها و ذكرها ، كانت قصائدهم متمحورة حول القتل و الغزو و الحرب و الحروب الداخلية . و لا يقف الأمر عند هذا الحد ، حد أن يكون الشاعر إخباري محدث ، بل تعداه إلى أن يكون الشاعر هو نفسه طرفاً في المعركة أو جناية القتل و جنحة السلب و النهب ، يصف نفسه في شعره متباهياً بعمله . و إذا أردنا أن نسجل و نورد كل قصيدة شعرية ورد فيها ذكر لقتل أو قتال ، و سلب و نهب ، لربما أتينا على جل الشعر العربي و ضاق به مخطوطنا هذا و تضخم متورماً إلى حد المجلدات و الصحائف ، لكن نورد أمثلة توثيقية على ذلك .

من الشعراء الأول^١ .. ابن الرعلاء و هو شاعر عرفت له قصيدة واحدة من ستة أبيات جاء فيها :

رَبِّمَا ضَرْبَةَ بَسِيفٍ صَقِيلٍ دُونَ بُصْرَى وَطَعْنَةٍ نَجْلَاءِ
رَفَعُوا رَايَةَ الضَّرَابِ وَآلُوا لَيَذُودَنَّ سَامِرَ الْمَلْحَاءِ
فَصَبَّرْنَا النَّفُوسَ لِلطَّعْنِ حَتَّى جَرَّتِ الْخَيْلُ بَيْنَنَا فِي الدَّمَاءِ

كذلك الشاعر ابن المضلل عرفت له من الشعر قصيدتين قصار ، يقول في إحدهما :

بَاتَتْ تَلُومٌ عَلَى ثَادِقٍ لِيُشْرَى فَقَدْ جَدَّ عِصْيَانُهَا
وَقَالَتْ أَغْنِنَا بِهِ إِنِّي أَرَى الْخَيْلَ قَدْ ثَابَ أَمْنَانُهَا

^١ الموسوعة الشعرية - شعراء و دواوين - قبل الإسلام .

كَمَيْتٌ أَمْرٌ عَلَى زُفْرَةٍ طَوِيلُ الْقَوَائِمِ عُرْيَانُهَا
تَرَاهُ عَلَى الْخَيْلِ ذَا جُرْأَةٍ إِذَا مَا تَقَطَّعَ أَقْرَانُهَا
وَهَنَّ يَرْدَنَ وَرُودَ الْقَطَا عُمَانَ وَقَدَّ سُدَّ مَرَانُهَا

و كذا الشاعر ابن أم حزنه الذي لم يُعرف له سوى قصيدتين لم يتجاوز مجموع أبياتهما الثلاثون بيتاً يقول في إحداهما :

إِنْ عَرِيْبًا وَإِنْ سَاءَنِي أَحَبُّ حَيْبٍ وَأَدْنَى قَرِيْبٍ
سَأَجْعَلُ نَفْسِي لَهُ جَنَّةً بِشَاكِي السِّلَاحِ نَهِيْكَ أَرِيْبٍ
فَأَقْبِلْ نَحْوِي عَلَى قُدْرَةٍ فَلَمَّا دَنَا صَدَقْتَهُ الْكَذُوْبُ
أَحَالَ بِهَا كَفَّهُ مُدْبِرًا وَهَلْ يُنْجِيْنِكَ شَدُّ وَعَيْبٍ
فَتَبِعْتَهُ طَعْنَةً ثَرَةً يَسِيْلُ عَلَى الْوَجْهِ مِنْهَا صَيْبٍ
فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَلَمْ آلَهُ وَإِنْ يَنْجُ مِنْهَا فَجُرْحٌ رَغِيْبٍ

و يقول في الأخرى :

وَصَفْرَاءُ مِنْ نَبْعِ سِلَاحٍ أُعِدَّتْهَا وَأَبْيَضُ قِصَالِ الضَّرِيْبَةِ جَائِفُ
عَتَادُ إِمْرِي فِي الْحَرْبِ لَا وَهِنِ الْقُوَى وَلَا هُوَ عَمَّا يَقْدِرُ اللَّهُ صَارِفُ
بِهِ أَشْهَدُ الْحَرْبِ الْعَوَانَ إِذَا بَدَتْ نَوَاجِذُهَا وَإِحْمَرُّ مِنْهَا الطَّوَائِفُ

و الشاعر ابن ثور العامري الذي لم يُعرف له سوى ثلاث قصائد مجموع أبياتها لا يتجاوز الأربعون بيتاً ، يقول في إحداها :

أَلَا هَلْ أَتَى أَبَا حَسَانَ أَنَا نَعِيْنَاهُ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ
عَلَوْا بِالْخَيْلِ نَحْلَةً فَاسْتَقَلَّتْ إِلَى الْأَعْدَاءِ بِالْمَوْتِ الذَّبَاحِ

جلينا الخيل من على عليها
حوافرها الصوارعُ مُحطّاتٌ
تؤذّنُ بالغدوِّ والرواح
ويبقى حافرُ الفرسِ الوقاح

و قصيدته الثانية لم تتجاوز أبياتا ثلاث قال فيها :

هَلَّا سَقَيْتُمْ بَنِي بَدْرِ أَسِيرَكُمْ
بَانَ الْخَلِيلُ وَأَوْصَانِي بِأَثْوَرَةٍ
لَا يَبْرَحُ الدَّهْرُ فِي أَجْوَا فِكْمِ غُلُّ
أَلَا لِأُمِّي إِنْ لَمْ أَفْعَلِ الْمَبْلُ
وَقَدْ تَرَكْتُ أَبَا قَيْسٍ بِمَعْتَرِكِ
يَدْعُو صَدَاهُ وَفِيهِ الرَّمْحُ مُعْتَدِلٌ

أما قصيدته الثالثة فقد قال فيها :

فَكُنَّا كَمَنْ آسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ
وَجِئْنَا بِقَوْمٍ لَا يَمُنُّ عَلَيْهِمْ
نَطَاعِنُ أَحْيَاءَ الدَّرِيدِينَ بِالضُّحَى
عَلَوْنَا قَنُونِي بِالْحَمِيسِ كَأَنَّا
نَعِيشُ مَعَا أَوْ يَتَلْفُونَ وَنَتَلْفُ
وَجَمَعَ إِذَا لاقَى الْأَعَادِي يَزْحَفُ
أَسْوَدُ فُرُوعِ الْغَيْلِ عَنْهَا تَكْشَفُ
أَتَى سَرَى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ يَقْصِفُ
لَنَا دَوْمَهَا وَالظَّنُّ بِالْقَوْمِ يُخْلِفُ
ظَلَّلْنَا نَفْرِي بِالسِّيُوفِ رُؤُوسَهُمْ
جَهَارًا وَأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ تَرَعْفُ

و هذا الشاعر الجاهلي ابن زرعة الباهلي الذي لم تُعرف له سوى قصيدة واحدة من عشرين بيتاً جاءت في معظمها عن الحرب و معترك القتال و الوغى . و مما جاء فيها :

يُخْضِنُ بَنِي كَعْبٍ وَيَدْعُونَ مَذْحِجًا
لِتَنْصُرَنَا كَعْبٌ وَكَعْبٌ شَطُورَهَا

وَلَمَّا رَأَيْنَا أَنْ كَعَبَا عَدُونَا وَأَبْدَى دَفِينِ الدَّاءِ مِنْهَا ضَمِيرُهَا
 فَتَنَارَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ قُتَيْبَةَ عَصَبَةٍ وَمَنْ وَائِلٍ فِي الْحَرْبِ يَحْمِي نَفِيرُهَا
 فَدَارَتْ رَحَانَا سَاعَةً وَرَحَاهُمْ نَثَلْمُ مِنْ أَرَاكِنِهَا وَنُدِيرُهَا
 بِكُلِّ رُدَيْبِيٍّ أَصَمَّ مَذْرَبٍ وَبِالْمَشْرِقِيَّاتِ الْبَطِيءِ حُسُورُهَا
 بِضَرْبِ يُزَيْلِ الْهَامِ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ وَطَعْنِ كَايِزَاغِ الْمَخَاضِ يَثُورُهَا
 وَشَعَثِ نَوَاصِيهِنَّ يَزْجُرْنَ مُقَدِّمًا يُحْمِحِمُ فِي صَمِّ الْعَوَالِي ذُكُورُهَا
 إِذَا انْتَسَوْا فَوْتَ الْعَوَالِي أَتَتْهُمْ عَوَائِرُ نَبَلٍ كَالْجِرَادِ تُطِيرُهَا
 فَمَا إِنْ تَرَكْنَا بَيْنَ قَوِّ وَضَارِحِجٍ وَلَا صَاحَةَ إِلَّا شِبَاعًا نُسُورُهَا
 وَجَنَّتْنَا بِأَمْثَالِ الْمَهَا مِنْ نَسَائِهِمْ صُدُورُ الْقَنَا وَالْمَشْرِفِيِّ مَهُورُهَا
 وَنَهْدِيَّةٍ شَمِطَاءٍ أَوْ حَرْتِيَّةٍ تُؤْمَلُ سَيِّبًا مِنْ بَنِيهَا يُغِيرُهَا
 فَآبَتْ إِلَى تَثْلِيثِ تَذْرِفٍ عَيْنِهَا وَعَادَ إِلَيْهَا صَمْعُهَا وَبَرِيرُهَا

و الشاعر الجاهلي ابن عليق الطائي الذي لم يعرف له هو الآخر سوى قصيدة واحدة قليلة الأبيات يقول فيها :

وَمَا تَرَكَ الْأَعْدَاءُ وَالْحَرْبُ مُسْمِعًا لِرَأْسِكَ إِلَّا مُسْتَدَلًّا مُصَلَّمًا
 فَتَى كَانَ قَوَادِ الْجِيُوشِ إِلَى الْعَدَى شَجَاعًا إِذَا هَابَ الْفَوَارِسُ أَقْدَمَا
 فَأَحْلَفَ مَا هَرَقْتُمْ بَعْدَهُ دَمًا وَلَا قَبْلَهُ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ مِحْجَمًا
 أَخَذْنَاكُمْ يَوْمَ الْمَجْرِ فَكُنْتُمْ نَهَابًا وَسَيِّبًا بَيْنَنَا مَتَقَسَّمًا
 صَبَحْنَاكُمْ وَالْخَيْلِ شَعَثَ عَوَابِسُ صَفَائِحَ بَصْرِيٍّ وَالْوَشِيحِ الْمُقَوَّمَا
 أَبِي لَكُمْ أَنْ تَفْخَرُوا بَعْدَ أَنَّا سَقَيْنَاكُمْ صَابًا مُمِرًّا وَعَلَقَمًا
 وَإِنَّا صَبَحْنَا الْيَزْنِيَّةَ مِنْكُمْ دَمًا ثُمَّ رَوَيْنَا الصَّفِيحَ الْمَصْمَمَا
 تَسُوقُ عَضَارِيطُ الرِّكَابِ نِسَاءَكُمْ وَقَدْ غَادَرُوا مِنْهُمْ نَوْحًا وَمَأْتَمَا

يَنْحَنَ عَلَى قِتْلَاكُمْ عِنْدَ مَعْرَكٍ تَرَكَنَا بِهِ هَامًا يَصِيحُ مَهْشِمًا

كذا الأمر بالنسبة للشاعر ابن عمرو السكوني و قد عُرف له قصيدة واحدة قليلة الأبيات جاء فيها :

أَتْنَا تَمِيمٌ قَضَاهَا بِقَضِيضِهَا
سَمَوْنَا لَهُم بِالْحَيْلِ تَرْدِي كَانَهَا
ضَوَامِرُ أَمْثَالِ الْقِدَاحِ يَكْرُهَا
بِضَرْبِ يَفِضُ الْهَامَ شِدَّةً وَقَعَهُ
فَلَاقُوا مِصَاعًا مِنْ أَنْاسٍ كَانَهُمْ
فَلَمْ تَرَ مِنْهُمْ غَيْرَ كَابٍ لُوجِهِهِ
وَفَاءَ لَنَا مِنْهُمْ نِسَاءً كَانَهَا
وَنَحْنُ قَتَلْنَا عَامِرًا وَابْنَ أُمِّهِ
وَعُودِرَ فِيهَا ابْنَا رِيَّاحٍ وَحَبْتِرَ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْحَيْلَ تَدْمِي نُحُورَهَا
حَبُوتُ أَبَا الرَّحَالِ مِنِّي بِطَعْنَةٍ
وَمَنْ سَارَ مِنَ الْفَافِيهِمْ وَتَأَشَبُوا
سَعَالٍ وَعَقْبَانَ اللَّوَى حِينَ تُرْكَبُ
عَلَى الْمَوْتِ أَبْنَاءُ الْحُرُوبِ فَتَحْرَبُ
وَوَخَزٍ تَرَى مِنْهُ التَّرَائِبَ تَشْخَبُ
أَسْوَدُ الْعَرِينِ صَادِقًا لَا يُكْذِبُ
وَآخِرَ مَغْلُولٍ وَآخِرَ يَهْرُبُ
بِوَجْرَةٍ وَالسَّلَانَ عَيْنٍ وَرَبْرَبُ
وَوَافَاهُمَا يَوْمَ شَتِيمٍ عَصَبِصَبُ
تَنُوشُهُمْ طَيْرٌ عِتَاقٌ وَأَذُوبُ
كَرَّرْتُ فَلَمْ أَنْكُلْ إِذَا الْقَوْمُ هَيَّبُوا
يَمُدُّ بِهَا آتٍ مِنَ الْجُوفِ يَزْعَبُ

و من ظن أن الحرب و القتل و القتال مقتصر على الرجال دون النساء فقد جانب الصواب ، فمعظم الشعراء الجاهليين لم يكن أحسن حالاً من نظرائهن من الجنس الآخر . فبدل من أن يكون شعرهن متعلقاً بالغزل و الحب و ما إلى ذلك ، كان متمحوراً بمضمونه و مجموعه حول الغزوات و الحروب العربية الداخلية فناجزن الرجال في مضمارهم هذا و بزوهن فيه . و منهن على

سبيل المثال لا الحصر^١ الشاعرة المعروفة باسم (ابنة أبي الجدعاء) لها قصيدة واحدة من ثماني أبيات تمحور مضمونها فقط حول مصرع أبيها السيد أبي الجدعاء في إحدى حروبه و هو يوم ل بكر بن وائل على بني تميم ، فقالت شعراً في ذلك ترثي أباه و تدم من كان معه من القوم الذين تمأونوا و تخاذلوا في نصرته ، قالت فيها :

لَيْبِكِ أبا الجَدَعَاءِ ضَيْفٌ مُعَيْلٌ وَأَرْمَلَةٌ تَغْشَى النَّدِيَّ فَتَرْمَلُ
 وَلَوْ شَاءَ نَجَّاهُ مِنَ الْخَيْلِ سَابِحٌ جَمُومٌ عَلَى السَّاقِينِ وَالسَّوْطِ مُفْضَلُ
 وَلَكِنْ فَتَى يَحْمِي ذِمَارَ أَبِيكُمْ فَأَذْرَكَهُ مِنْ رَهْبَةِ الْعَارِ مَحْفَلُ
 دَعَا دَعْوَةً إِذْ جَاءَهُ ثُمَّ مَالِكاً وَلَمْ يَكُ عَبْدُ اللَّهِ ثُمَّ وَنَهْشَلُ
 وَغَابَتْ بَنُو مَيْثَاءَ عَنْهُ وَلَمْ يَكُنْ نُعَيْمٌ بِنُ شَيْطَانٍ هُنَاكَ وَجَرُولُ
 وَلَكِنْ دَعَا أَشْبَاهَ نَبْتٍ كَانَهُمْ قُرُودٌ عَلَى خَيْلٍ تَخْبُثُ وَتَرُكَلُ
 لَقَدْ فَجَعَتْ شَيْبَانَ قَوْمِي بِفَارِسٍ مُحَامٍ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ لَيْسَ يَنْكَلُ
 وَجَدْتُمْ بَنِي شَيْبَانَ مُرّاً لِقَاؤُهُمْ وَكَانَتْ بَنُو شَيْبَانَ ذَلِكَ تَفْعَلُ

أما الشاعرة المعروفة باسم (ابنة حذاق السهمي) ، فهي الأخرى لها قصيدة واحدة فقط من عشرة أبيات ، لكن ليس عن الحب و الغزل أو الطبيعة و الرومانسية ، بل عن والدها الذي قتل في إحدى الغزوات و المعارك . حيث ذكرت الواقعة و جريمة القتل و حددت القاتل كما حددت من سيخلف أباه في متابعة القتال و الحرب ، و لم تخف رغبتها إن تمكنت من مقاليد الأمور ، أن تتسبب بحرب أهلية تأكل الأخضر و اليابس و تفتك بقبائل كاملة مكملة بحالها تهريق الدماء و تسيي النساء و تقتل الآباء و تبيتم الأبناء . و مما جاء في قصيدها :

^١ نفس المصدر السابق .

أعيني جوداً بالدموع على الصدر
فإن يقتلوا حذاقاً وابن مطرف
تبصرت فتيان اليمامة هل أرى
قراع الكفامة لا خنوس ولا ضجر
بصحاء لا ضيق المكر ولا وعر
فلو كان لي ملك اليمامة سومت
ولو كان لي ملك اليمامة قد غزت
فإن لم أنل من دوس ثاري بفتية
فإن قريشاً كان مقتل حاذق
ففي قتلهم مثل الذي نال من حظي
على الفارس المقتول في الجبل الوعر
فإن لدينا حوشياً وأبا الجسر
حذاقاً وعيني كالحجارة من القطر
فوارس يسبون العذارى من شكر
قبائل دوس كله فسله شقر
مصاليت لم يكسرهم حدث الدهر
بأيديهم فأطلب به قاتل الحجر
بقتل حذاق في العلاء وفي الذكر

أما الشاعرة الجاهلية المسماة (ابنة حكيم بن عمرو العبدية) فهي بدورها لها قصيدة واحدة من أربعة أبيات ، ليست في الغزل أو وصف الربيع أو الحب و الغرام ، بل في رثاء أبيها السيد حكيم بن عمرو الذي قتل ((بعبوة ناسفة)) في إحدى غزواته و معاركه ، فرثته مطالبة بالأخذ بثأره ، و قد قالت في هذه القصيدة ما مفاده :

أبرجو ربيعاً أن يؤوب وقد ثوى
فإن كنتم قوماً كراماً فعجلوا
فإن لم تنالوا نيلكم بسيفكم
وقولوا ربيع ربكم فاسجدوا له
حكيم وأمسى شلوه بمطبق
له جراًة من بأسكم ذات مصدق
فكونوا نساء في الملاء المخلق
فما أنتم إلا كمعزى الحبلق

و هذه الشاعرة (أخت الأسود بن غفار) من جدیس ، تطلب من قومها التوقف عن الغزو و تنهاهم عن القتل و السلب و النهب ، فلم ينتهوا ، فنظمت قصيدة وحيدة لها من ثلاث أبيات ، تدمهم و تهجوهم بها ، تقول فيها :

لَا تَغْدُرُوا إِنَّ هَذَا الْغَدْرَ مَنْقَصَةٌ وَكُلَّ عَيْبٍ يَرَى عَيْبًا وَإِنْ صَغُرَا
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ تَلْكَ غَدَاً وَفِي الْأُمُورِ تَدَابِيرٌ لِمَنْ نَظُرَا
شَتَانٌ بَاغٍ عَلَيْنَا غَيْرٌ مَتَّئِدٌ يَغْشَى الظَّلَامَةَ لَنْ تَبْقَى وَلَنْ تَدْرَا

و ها هي البسوس بنت منقذ من تميم و التي ضرب بها المثل في الشؤم ، تهيج بنو بكر على الحرب بعد مقتل ناقة لها على يد كليب وائل فتقول في قصيدة وحيدة عُرِفَتْ لها :

لَعَمْرُكَ لَوْ أَصْبَحْتُ فِي دَارٍ مَنَقِدٍ لَمَا ضَمِيمٌ سَعْدٌ وَهُوَ جَارٌ لِأَبِيَاتِي
وَلَكِنِّي أَصْبَحْتُ فِي دَارٍ غَرَبَةٍ مَتَى يَعُدُّ فِيهَا الذُّئْبُ يَعُدُّ عَلَيَّ شَاتِي
إِذَا لَمْ يَقُومُوا لِي بِثَأْرِي وَيَصْدُقُوا طِعَانَهُمْ وَالضَّرْبَ فِي كُلِّ غَارَاتِ
فَلَا آبَ سَاعِيهِمْ وَلَا سَدَّ فَقْرَهُمْ وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا لَهُمْ شَرُّ نَكْبَاتِ

ذاكم هم الشعراء الأول في الجاهلية ، فماذا عن المعلقات ؟؟ ... المعلقات الشعرية في الجاهلية ، هي قصائد شعرية متميزة لشعراء متميزين ، هم فحول أقرانهم و قريتهم و صنعتهم هذه ألا و هي الشعر . و هذه القصائد تسمى السموط أو العقود يتم انتخابها من قبل لجان متخصصة زائد رأي عموم الجمهور أي يحكمها سادات الشعر و يزكيها جمهور الأباطح من العرب ، و هي شبيهة بيومنا هذا بجوائز نوبل أو الأوسكار و ما إلى ذلك . و سميت المعلقات لأن العرب من شدة أعجابهم بها علقوها على الكعبة ، و قيل أن الملوك

و الأمراء إذا سمعوا قصيدة و أثارت إعجابهم الكبيرة كانوا يقولون لحواشيهم ..
علقوا هذه القصيدة ليراها الوafd و البارح ، فجاءت التسمية و الفعل من هنا
ربما . كما بلغ من شدة إعجاب العرب بالمعلقات أن كتبوها بماء الذهب . و
قيل أن سوق عكاظ كان يشهد في بعض أيامه مسابقات لانتخاب المعلقات .
و بنظرنا ، فإن القصائد الشعرية المسماة بالمعلقات ، ما كان ليُكتب لها النجاح
و الفوز لولا تحصلها على شرط القبول الفكري لسواد العرب و المقصود هنا هو
التعبير عن الفكر السائد الرائج لدى الإنسان العربي و عن العقلية و الذهنية
العربية و ما يستسيغه و يفخر به الإنسان العربي و ما يوصف الحالة التي كان
عليها في الجاهلية . و قد تراوح عدد هذه المعلقات من السبعة و حتى العشرة
حسب اختلاف الروايات . و نحن لا نعتبر العدد هنا بقدر ما نعتبر المضمون
الذي يمثل لدينا الفكر الحربي الغزوي التناحري الداخلي . الذي لم تخلو منه هذه
المعلقات ، و كان عماد بعضها . و المعلقات حسب أصحابها و بعض ما جاء
فيها من ذكر للوقائع الحربية و الأعمال القتالية العربية هي ..

معلقة الأعشى و مما جاء فيها

لَأَعْرِفَنَّكَ إِنْ جَدَّ النَّفِيرُ بِنَا وَشَبَّتِ الْحَرْبُ بِالطُّوْافِ وَاحْتَمَلُوا
لَأَعْرِفَنَّكَ إِنْ جَدَّتْ عَدَاوَتُنَا وَالْتَمَسَ النَّصْرُ مِنْكُمْ عَوْضَ تَحْتَمَلُ
تَلْزِمُ أَرْمَاحَ ذِي الْجَدَيْنِ سَوْرَتْنَا عِنْدَ الْإِلْقَاءِ فَتَرْدِيهِمْ وَتَعْتَرِلُ
سَائِلَ بَنِي أَسَدٍ عَنَا فَقَدْ عَلِمُوا أَنْ سَوْفَ يَأْتِيكَ مِنْ أَنْبَائِنَا شَكْلُ
وَإِسْأَلَ فُشَيْرًا وَعَبَدَ اللَّهُ كُلَّهُمْ وَإِسْأَلَ رَبِيعَةَ عَنَا كَيْفَ نَفْتَعِلُ
إِنَّا نَقَاتِلُهُمْ ثَمَّتْ نَفَاتِلُهُمْ عِنْدَ الْإِلْقَاءِ وَهُمْ جَارُوا وَهُمْ جَهْلُوا
كَلَّا زَعَمْتُمْ بَأْنَا لَا نَقَاتِلُكُمْ إِنَّا لَأَمثَالُكُمْ يَا قَوْمَنَا قُتِلُ

حَتَّى يَظُلَّ عَمِيدُ الْقَوْمِ مَتَكِنًا
 قَدْ نَطَعْنَ الْعَيْرَ فِي مَكْنُونِ فَائِلِهِ
 يَدْفَعُ بِالرَّاحِ عَنْهُ نَسْوَةَ عَجَلٍ
 وَقَدْ يَشِيْطُ عَلَى أَرْمَاحِنَا الْبَطْلُ
 لَيْنَ قَتَلْتُمْ عَمِيدًا لَمْ يَكُنْ صَدْدًا
 لَنَقْتَلَنَّ مِثْلَهُ مِنْكُمْ فَنَمْتَلُّ

معلقة الحارث بن حلزة و مما جاء فيها :

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يَنْتَهَبُ النَّا
 نَمِ مِلْنَا عَلَى تَمِيمٍ فَأَحْرَمُ
 فَاتْرَكُوا الْبَغِيَّ وَالتَّعْدِي وَإِمَا
 أَعْلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ يَغِ
 أَمْ عَلَيْنَا جُرَى حَنِيفَةَ أَوْ مَا
 وَثْمَانُونَ مَنْ تَمِيمٍ بِأَيْدِي
 تَرَكُوهُمْ مُلْحَبِينَ قَابُوا
 ثَمَّ فَاءُوا مِنْهُمْ بِقَاصِمَةِ الِ
 ثَمَّ خَيْلٍ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ مَعَ الْغِ
 وَحَمَلْنَاهُمْ عَلَى حَزْمِ ثَهَلَا
 وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ اللَّهُ
 سِ غَوَارًا لِكُلِّ حَيٍّ عَوَاءُ
 نَا وَفِينَا بَنَاتُ مَرِّ إِمَاءُ
 تَتَعَاشُوا فِي التَّعَاشِي الدَّاءِ
 نَمَّ غَازِيَهُمْ وَمِنَا الْجَزَاءُ
 جَمَعَتْ مِنْ مُحَارِبٍ غَبْرَاءُ
 هُمْ رِمَاحُ صُدُورِهِنَّ الْقَضَاءُ
 بِنَهَابٍ يَصْمُ فِيهِ الْخَدَاءُ
 ظَهَرَ وَلَا يَبْرُدُ الْغَلِيلُ الْمَاءُ
 لَاقٍ لَا رَافَةَ وَلَا إِبْقَاءُ
 نِ شِلَالًا وَدُمِّي الْأَنْسَاءُ
 وَمَا إِنْ لِلْخَائِنِينَ دِمَاءُ

معلقة النابغة الذبياني :

وَكَانَ ضَمْرَانُ مِنْهُ حَيْثُ يُوْزَعُهُ
 كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ
 وَالأَدَمُ قَدْ خَيَّسَتْ فُتْلًا مَرَّافِقَهَا
 طَعْنَ الْمَعَارِكِ عِنْدَ الْمُحَجَّرِ النَّجْدِ
 سَقُودٌ شَرِبَ نَسْوَهُ عِنْدَ مُفْتَادِ
 مَشْدُودَةٌ بِرِحَالِ الْحَيْرَةِ الْجُدِّ

وَالرَّاكِضَاتِ ذُبُولِ الرِّيْطِ فَانْقَهَا بَرْدُ الْهَوَاجِرِ كَالْغَزْلَانِ بِالْجَرْدِ
وَالْخَيْلِ تَمْرَعُ غَرْبًا فِي أَعْنَتِهَا كَالطَّيْرِ تَنْجُو مِنَ الشُّبُوبِ ذِي الْبَرْدِ

و امرؤ القيس في معلقته يصف حصانه في الحرب و الغارة و كيفية حركته و
مناورته فيقول :

مَكْرٌ مَفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعًا كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عَلٍ
مَسْحٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى أَثْرُنٌ غُبَارًا بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ
عَلَى الْعَقَبِ جِيَّاشٌ كَأَنَّ اهْتِزَامَهُ إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيَهُ غَلِيٌّ مِرْجَلِ

معلقة زهير بن أبي سلمى و مما جاء فيها :

تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَذُبْيَانًا بَعْدَمَا تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نَدْرِكِ السَّلْمَ وَاسِعًا بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْأَمْرِ نَسْلَمِ
فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمْ مِنْ تِلَادِكُمْ مَغَانِمٌ شَتَّى مِنْ إِفَالِ الْمَزْنَمِ
تُعْفَى الْكُلُومُ بِالْمَتِينِ فَأَصْبَحَتْ يُنَجِّمُهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِمَجْرَمِ
وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجَمِ
مَتَى تَبَعْتُوهَا تَبَعْتُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضَرَّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضَرَّمِ
فَتَعْرَكُمْ عَرَكِ الرَّحَى بِثِفَالِهَا وَتَلْفَحُ كِشَافًا ثُمَّ تَحْمِلُ فُتْسَمِ
لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السَّلَاحِ مُقَدِّفِ لَهُ لَبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمِ
رَعَوْا مَا رَعَوْا مِنْ ظَمْتِهِمْ ثُمَّ أوردوا غَمَارًا تَسِيلُ بِالرِّمَاحِ وَبِالْدَمِ
فَقَضُّوا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا إِلَى كَلِّا مُسْتَوْبِلٍ مُتَوَحَّمِ

و هذا طرفة بن العبد في معلقته يقول :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فِتْنَى خِلْتُ أَنِّي
وَلَسْتُ بِحَلَالِ التَّلَاعِ مَخَافَةً
أَلَا أَيُّهَا اللَّاتِمِي أَحْضِرِ الْوَعْيَ
وَإِنْ أَدْعَ لِلْجَلِي أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهَا
وَإِنْ يَقْدِفُوا بِالْقَدْعِ عَرْضَكَ أَسْقِهِمْ
أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ
فَأَلَيْتَ لَا يَنْفَكُ كَشْحِي بِطَانَةً
إِذَا ابْتَدَرَ الْقَوْمُ السِّلَاحَ وَجَدْتَنِي
عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَدَّلْ
وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدْ
وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي
وَإِنْ يَأْتِكَ الْأَعْدَاءُ بِالْجَهْدِ أَجْهَدْ
بِكَأْسِ حِيَاضِ الْمَوْتِ قَبْلَ التَّهْدُدِ
خَشَاشِ كِرَاسِ الْحَيَّةِ الْمُتَوَقِّدِ
لِعَضْبِ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ مُهَنْدِ
مَنْعِيَا إِذَا بَلَّتْ بِقَائِمِهِ يَدِي

و معلقة عبيد بن الأبرص جاء فيها :

أَرْضٌ تَوَارَتْهَا شُعُوبٌ
إِمَّا قَتِيلًا وَإِمَّا هَالِكًا
فَكُلُّ ذِي نِعْمَةٍ مَخْلُوسٌ
وَكُلُّ ذِي إِبِلٍ مَوْرُوثٌ
وَكُلُّ مَنْ حَلَّهَا مَحْرُوبٌ
وَالشَّيْبُ شَيْنٌ لِمَنْ يَشِيبُ
وَكُلُّ ذِي أَمَلٍ مَكْذُوبٌ
وَكُلُّ ذِي سَلْبٍ مَسْلُوبٌ

و معلقة لبيد بن ربيعة العامري جاء فيها :

وَهُمُ السَّعَاءُ إِذَا الْعَشِيرَةُ أَفْطَعَتْ
وَهُمُ رَيْبِعٌ لِلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ
وَهُمُ الْعَشِيرَةُ أَنْ يُبْطِئَ حَاسِدٌ
وَهُمُ فَوَارِسُهَا وَهُمْ حُكَّامُهَا
وَالْمُرْمِلَاتُ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا
أَوْ أَنْ يَمِيلَ مَعَ الْعَدُوِّ لِئَامُهَا .

أما معلقة عنتره بن شداد فلا داعي لذكر شيء من أبياتها لاشتمال معظمها على الحرب و الكر و الفر و التفتن بالقتل و القتال و الغزو . و كذلك معلقة عمرو بن كلثوم ، أيضاً لاشتمال معظم أبياتها على الحرب و القتل و الغزو و التمرد و العصيان .

و حتماً .. كافيًا هو ذكر (ابن سلام) في طبقاته للشعراء أن نظم الشعر العربي في الجاهلية كان منبته و صلب عوده بسبب الحروب و الغزو فيما بين العرب و أن " الذي قلل شعر قريش أهم لم يكن بينهم نائرة و لم يجاربوا " . و بحسب الدارسين فإن الشعر الجاهلي قد نهض أولاً بريعة و سببه كثرة حروبها مع باقي القبائل^١ .

الفكر الديني في الجاهلية :

تنازعت الجاهلية أديان عدة مختلفة ، منها الوضعية الوثنية و منها السماوية (اليهودية و المسيحية) و قد ختمت بالإسلام . أما اليهودية ، فهي أول ديانة سماوية تسربت إلى جزيرة العرب منذ بداية عهدها حسب بعض الروايات^٢ ، أي منذ عهد موسى بعد خروجه من مصر حيث انتشرت في فلسطين و منها إلى بلاد العرب . و في روايات أخرى ربما هي الأرجح ، أنها وفدت إلى جزيرة العرب بعد السبي البابلي على يد بختنصر أو نبوخذ نصر ، و بعد تدمير القدس و الهيكل على يد الرومان ، حيث التجأ بعض اليهود الناجين من المحازر إلى جزيرة العرب و تحديداً الحجاز عن طريق البحر الأحمر أو السواحل المتاخمة له أو من بلاد الشام و فلسطين ، خوفاً من بطش الرومان و منها أفرعت في اليمن عن طريق تبّع الأول (كرب تبان أسعد) الذي

^١ أدباء العرب ، ص / ٤٠ / .

^٢ أديان العرب في الجاهلية ، ص / ٢٠١ / .

ربما كان هو المقصود الذي ورد ذكره بالقرآن الكريم (أَهْمٌ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبِعَ
 وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) (الدخان: ٣٧)
 (وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تَبِعُوا كُلَّ كَذَّابٍ فَحَقَّ وَعِيدِ) (ق: ١٤) .
 وقيل أن تبع هذا كان عربياً من الصالحين و لما أراد دخول اليمن ، منعه حمير
 التي كانت تعبد الأوثان ، من الدخول فقال لهم " إن ديني خير من دينكم " ^١
 فطلبوا منه الاحتكام إلى النار و صودف أن كان معه حبران يهوديان ، فغاز و
 نصرته النار فتهودت حمير و أفرعت اليهودية نتيجة لذلك في اليمن .

و بما أن الصحراء بوحشتها و قفرتها و مجاهل فيا فيها الممتدة ، تحمل بعداً آخر
 على بعدها هذا ألا و هو بُعد الأمان و الاطمئنان و العزلة عما جاورها من
 عوالم جغرافية ، فقد لاقت اليهودية فيها أماناً و استقراراً و تالياً .. بقاءً . و قد
 سكن اليهود في أماكن عدة من جزيرة العرب منها يثرب و اليمن و اليمامة و
 بعض تجارهم أقاموا في مكة ^٢ . و إضافة إلى بعض من نواحي اليمن ، فقد
 لاقت اليهودية رواجاً لها و اعتناق جزئي أو كلي في بعض قبائل العرب الذين
 دان بعض أفرادها باليهودية و منهم بنو نمير و بنو كنانة و بنو الحارث بن كعب
 و بنو كندة ^٣ و ربما سرت إليهم من يهود تيماء و يثرب و خيبر . و من أشهر
 شعرائهم السموأل بن غريص بن عادياذ الأزدي ، من سكان خيبر ، و حادثته
 المشهور مع امرؤ القيس الشاعر عندما استودعه الأخير أسلحته و كراعه أثناء
 ذهابه لقيصر الروم ، فجاء الحارث (الأعرج) بن أبي شمر إلى السموأل في
 حصنه و طلب منه موجودات امرؤ القيس ، فرفض السموأل ذلك ، و تصادف
 أن كان ابن له خارج الحصن فأمسك به الحارث و طلب من السموأل أن
 يسلمه السلاح و الكراع أو يقتل ولده ، فلم يفعل السموأل ، فقام الحارث

^١ أديان العرب قبل الإسلام ، ص / ٣٥ .

^٢ المصدر السابق ، ص / ٢٢٠ .

^٣ أديان العرب في الجاهلية ، ص / ٢٠١ .

بقتل ولده ، و نتيجة لهذه الحادثة ، ضرب المثل بوفاء السمؤال فقيل " أوفى من سمؤال " و قال السمؤال نفسه أبياتا بهذه الحادثة جاء فيها :

وَفَيْتُ بِأَدْرُعِ الْكِنْدِيِّ إِيَّيْ إِذَا مَا خَانَ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ
وَقَالُوا إِنَّهُ كَثُرَ رَغِيبٌ فَلَا وَاللَّهِ أَغْدِرُ مَا مَشَيْتُ
وَأَوْصِي عَادِيَا قَدَمًا بِأَنْ لَا تُهْدِمَ يَا سَمَوَّالٌ مَا بَنَيْتُ
وَبَيْتٌ قَدْ بَنَيْتُ بِغَيْرِ طِينٍ وَلَا خَشَبٍ وَمَجْدٍ قَدْ أَتَيْتُ

و هنالك بعض الروايات أن اليهود قد استنسخوا كتبهم بالعربية إلى جانب العبرية ، ففي حديث لسويد بن الصامت¹ أنه قال للرسول (ص) متسائلاً عن القرآن : لعل الذي معك مثل الذي معي ؟؟ فقال الرسول (ص) : و ما هذا الذي معك ؟؟ قال سويد : مجلة لقمان . فقال الرسول : اعرضها علي . فعرضها عليه فقال له : إن هذا لكلام حسن² و الذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى هو هدي و نور .

على أن شوكة اليهودية لم تخرز حرزها في مواطن كثيرة من جزيرة العرب ، بل كانت بالدرجة الأولى منحصرة باليهود أنفسهم ، و بالنسبة للعرب كان ديدنها إما كلي محدود أو جزئي أو مؤقت و ذلك لأسباب عدة ..

— الأول : تموضعها فور ظهورها على خط المواجهة ضد الوثنية ، هذه الديانة القوية التي ظهرت ربما مع ظهور الإنسان نفسه و إلى الآن ، و لم تنفع معها أديان أو عقائد أخرى في الإزالة أو الإلغاء ، لكن ربما في التحوير . و الوثنية هذه كانت منتشرة انتشار النار المهشيم في الجزيرة العرب و وجدت تفاهماً لها مع البيئة و العقلية العربية أكثر من نظيراتها السماوية .

¹ أديان العرب قبل الإسلام ، ص / ٢٣٥ .

— الثاني : كون اليهودية دين توحيدى خالص و جامد في آن معاً ، لا يقبل المناورة و التغيير في بنوده الأساس ، و اختلاف ذلك مع بعض المفاصل الفكرية و العقلية و العادات العربية التي لا يجد العربي مناصاً للفكك منها أو المجاوزة عنها . فكثير من أحكام و شرائع اليهودية و طقوسها الصارمة ، مبني على الالتزام و المشقة و الطاعة و الخضوع ، و ذلك ما لا يسلس له قياد الوعي العربي ، كما أن محرّماتها كانت بالنسبة إليه حرمان من امتيازات و عادات تجري فيه مجرى الدم في العروق ، كبعض المأكولات المحرمة و العلاقات الجنسية و التصرفات و الأفعال التي اعتاد عليها و لا يمكنه تجاوزها ، أو تكون معيشتة قائمة عليها . و من أمثلة ما يجري على ذلك أن اليهودية تبيح القتال لكن ضمن شرطين أساسين .. الأول أن يكون ضمن مستوجبات دينية معينة أو دفاعية ، و الثاني أنها تحرم الغنائم و تقضي بحرقها أو إتلافها (هو التحريم في التوراة) ، و في أحسن الأحوال عدم استخدامها . بينما الغزو عند العرب كان قائماً في أساسه على السلب و النهب و الانتفاع بمتاع الغير .

— الثالث : ظهور المسيحية و انتشارها في المناطق المتاخمة للجزيرة العربية و دخولها إلى بعض مناطق الجزيرة مرتكزة إلى الأنظمة السياسية الحاكمة في بعض الممالك المجاورة كمصر و الحبشة و بلاد الشام ، و هي مناطق جميعها تدين بالنصرانية و هي بدورها مدعومة من الدولة الرومانية الأقوى عالمياً و التي أصبحت دولة مسيحية . و عند أول اصطدام بين اليهودية و المسيحية في الجزيرة العربية ، تمكنت الأخيرة من التفوق بالآلة العسكرية و إزاحة اليهودية أو على الأقل تهميشها إلى أقصى الحدود .

— الرابع : اليهودية بطبعها ليست ديانة تبشيرية .

أما المسيحية أو النصرانية ، فقد دخلت الجزيرة العربية عن طريق التبشير أساساً ، من تخوم الجزيرة ، كبلاد الشام و مصر ، بواسطة الرهبان المبشرون أو المنقطعون

و المتبتلون في البراري و القفار . و قد لاقت النصرانية رواجاً و قبولاً في الجزيرة العربية ، أكثر من اليهودية نظراً لمرونتها ربما ، قياساً بالنسبة إلى اليهودية ، و كونها ديانة تبشيرية في أساسها و صلب تعاليمها ، استناداً إلى قول المسيح (ع) لتلامذته و حواريه بعد تجليه لهم ، حسبما جاء بالإنجيل (و قال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع و اكرزوا بالإنجيل للخليفة كلها) (مرقس ١٦-١٥) .

الأمر الثاني هو كون النصرانية مدعومة من الدول و الممالك المجاورة و التي كانت تدين بها ، على عكس اليهودية التي كانت تفتقر إلى نظام حكم سياسي إلا في حالات نادرة جداً و أماكن محدودة كما في اليمن مثلاً في حكم (ذي نواس) .

و قد لاقت المسيحية انتشاراً في قبائل عربية عدة منها تغلب و ربيعة و بنو غسان و التنوخيون و بنو طيء و أهل الحيرة و ملوكها . و من كل هؤلاء ظهر بعض رجال الدين ذوو المراتب الدينية ، فكان منهم الأساقفة و الشماسة و غيرهم و عدة من شعراء العرب كانوا على النصرانية و منهم على سبيل المثال .. امرؤ القيس - الأفوه الأودي - حنظلة الطائي - قبيصة بن النصراني - حاتم الطائي - إياس بن قبيصة - أبو النصر البراق بن روحان ابن أسد - المهلهل سالم الزير و أخوه كليب وائل - عمرو بن كلثوم - الحارث بن حليزة - قس بن ساعدة - جرير بن عبد المسيح المشتهر بالتملمس و ابن أخته طرفة بن العبد و غيرهم^١ .

على أن المسيحية بدورها و بالرغم من كل ما تقدم ، لم تستطع التغلب على الوثنية أو إقصاءها لأسباب عدة أبرزها أنفة العربي بشكل عام من الخضوع للسلطة خلا سلطة القبيلة ، و التقيد ببعض الطقوس المعقدة بالنسبة إليه ، يضاف إلى ذلك أحد أهم أسس المسيحية الفكرية و هو التسامح و غض الطرف

^١ تجدر الإشارة إلى وجود لفظ حول بعض الشعراء العرب في الجاهلية بانتسابهم للنصرانية .

عن الخطأ و الظلم أو الثأر ، و هي أمور لا يمكن بأي حال من الأحوال للعربي أن يقبل بها تحت أي ظرف من الظروف . و أنه لمن المضحك أن تتخيل عمرو بن كلثوم الذي قتل الملك عمرو بن هند فقط لمجرد أن أم الأخير قالت لأمه .. من فضلك ناوليني الصحن . أن تتخيل أن أحدهم قد ضربه على خده الأيمن فأدار هذا له الخد الأيسر . و سيكون مشهداً طريفاً أن تتخيل ذلك مع كليب وائل التغلبي أو أي شخص آخر . يضاف إلى ذلك أيضاً أن أعراف القبيلة و سلطتها و سطوتها ، كانت أقوى من سلطة الكنيسة و كانت هي المهيمنة على صحراء الجزيرة العربية . فقد كان إتباع المسيحية بحذافير طقوسها و تعاليمها ، يعني بكل بساطة ، التوقف عن الغزو و القتال و طلب الثأر و هو ما لم يحصل أبداً في الجاهلية .

لكن المسيحية و إن لم تستطع إقصاء الوثنية أو التغلب عليها ، فإنها قد تماهت معها و سايرتها ، أو بحال آخر كانت مرنة معها ، فهي أساساً قائمة على التسامح و ذلك ليس من باب قبول المسيحية بتعاليمها نفسها ، للوثنية ، بل لعرب البادية النصرانيين الذين استطاعوا في نهاية الأمر أن يمازجوا ما بين تلكم الديانتين . و كثيرة هي الحوادث التي تشير إلى اعتناق العربي الذي يعيش في البادية للنصرانية ، أتباعه قسم من تعاليمها و نبذه الآخر . و ربما يكون هو الأمر نفسه الذي أدى إلى اللغط الحاصل في يومنا هذا حول توصيف و تقييم مسيحية بعض الشعراء العرب و منهم المذكورين آنفاً . فهذا الشاعر النصراني جابر بن حني التغلبي يرتجز قصيدة يفتخر فيها بنصرانيته لكنه يحرص على أن ينوه إلى أمور بها لا يقبلها أو يقر بها و يستهجنها . و هي التسامح و نبذ القتال فيقول

..

وَقَدْ زَعَمْتَ بِهَرَاءِ أَنْ رِمَاحَنَا رِمَاحُ نَصَارَى لَا تَخْوِضُ إِلَى الدَّمِ
فِيَوْمِ الكَلَابِ قَدْ أَزَالَتْ رِمَاحَنَا شَرَحْبِيلَ إِذْ إِلَى آليَّةٍ مُقْسِمِ

لَيَنْتَزِعَنَّ أَرْمَاحِنَا فَأَزَالَهُ أَبُو حَنْشٍ عَنِ ظَهْرِ شَقَاءِ صِلْدِمِ
 تَنَاوَلَهُ بِالرُّمَحِ ثُمَّ اتَّيَ لَهُ فَخَرَ صَرِيحًا لِلْيَدِينِ وَلِلْفَمِ
 يَرَى النَّاسَ مِنَّا جِلْدَ أَسْوَدٍ سَالِحِ وَفِرْوَةَ ضِرْغَامٍ مِنَ الْأَسَدِ ضَيْعِمِ
 وَعَمَرَ بْنِ هَمَّامٍ صَفَقْنَا جَبِينَهُ بِشَنْعَاءَ تَشْفِي صُورَةَ الْمُتَظَلِّمِ

و من الواضح أن هذا الشعر يتناقض تماما مع الفكر الطقوسي المسيحي و التعاليم المسيحية .

و هذا حاتم الطائي الذي قيل في بعض الروايات أنه على النصرانية و في بعضها الآخر أنه مقارب لها يقول :

وَمَا زِلْتُ أَسْعَى بَيْنَ نَابٍ وَدَارَةٍ بَلْحِيَانٍ حَتَّى خِفْتُ أَنْ أَتَنْصِرَا
 وَإِنِّي كَأَشْلَاءِ اللَّجَامِ وَلَنْ تَرَى أَخَا الْحَرْبِ إِلَّا سَاهِمَ الْوَجْهِ أَغْبِرَا
 أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا وَإِنْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا

و هذا عمرو القضاعى قد خلط الوثنية مع النصرانية مع الحرب و الغزو فقال :

أَمَا وَدِمَاءٍ مَائِرَاتٍ تَخَالُهَا عَلَى فُتْنَةِ الْعُزَّى أَوْ النَّسْرِ عِنْدَمَا^١
 وَمَا قَدَّسَ الرَّهْبَانَ فِي كُلِّ هَيْكَلٍ أَيُّبِلَ الْأَيْبِلِينَ الْمَسِيحَ بِنِ مَرِيْمَا^٢
 لَقَدْ هَزَّ مِنِّي عَامِرٌ يَوْمَ لَعَلَعٍ حُسَامًا إِذَا لَاقَى الضَّرِيَّةَ صَمَّمَا

و هاهم الأوس و الخزرج الذين قد تهودوا أو بعضهم ، و كان لهم صلوات قوية مع اليهود في المدينة ، اجتماعية و دينية ، عندما نزلوا المدينة عند سيل العرم و

^١ العزى و نسر من أصنام الجاهلية .

^٢ أيبل الإيبيلين لفظة كان يطلقها عرب الجاهلية على المسيح (ع) .

كانت الموارد الاقتصادية و الزراعية بيد اليهود من نخل و زرع و ماشية و أرض، فلبثوا في المدينة حيناً ثم استنجد سيدهم مالك بن العجلان بأبي جبلة الغساني من الشام ، فجاء هذا بجيشة له و فتك بعلية القوم من اليهود . و قد قالت الشاعرة سارة القريظية تبكيهم و ترثيهم ..

بنفسي رمةً لم تُغن شيئاً بذِي حُرُضٍ تُعفيها الرياحُ
كهُولٍ من قريظةً أتلفتهم سيوفُ الخزرجيةِ والرماحُ
رُزنا والرزية ذاتُ ثقلٍ يمرُّ لأجلها الماءُ القراحُ
ولو أذنوا بحربهم لحالت هنالك دُوهمُ حربٍ رَداحُ

أما الوثنية فقد كانت هي الطاغية في جزيرة العرب و الأقدم كذلك . و قد وجدت الوثنية حضورها بالصحراء و الجزيرة العربية و ما تآخمها ، كونها بالأساس كانت ضاربة بجذورها منذ القدم و منذ نشوء الإنسان و ظهوره على هذه الخليقة . و قد نازعت و لا تزال الأديان السماوية في حضورها و في وجودها ، سواء على الأرض أم في عقلية الإنسان و تفكيره . و تسمية الوثنية جاءت من الوثن و هو في اللغة .. الصنم و الصورة و الجسم . و لذلك فقد تم تعريف الوثنية على أنها عبادة الأوثان أي الأصنام . و بنظرنا فإن قوة الوثنية في حضورها العقلي البشري ، يكمن بالدرجة الأولى في أنها تركت للإنسان حرية اختياره لإلهه و تكييفه و قبولته على هواه . و بما أن الإله هو الذي يسن القوانين و الطقوس و يحدد الحلال و الحرام ، فهذا يعني بصورة من الصور أن الإنسان أصبح هو الذي يحدد لنفسه ما يحل له و ما يحرم عليه و هو ما كان يحصل في الحضارات القديمة و شعوبها حيث كان الملوك و الفراعنة و الحكام هم الذين يدعون الإلهية و يسنون القوانين باسم الآلهة . و في صورة متأخرة من صور الوثنية ، أتخذت الحجارة و المنحوتات و الحيوانات كآلهة تُعبد .

كما إن الوثنية تتخذ بخصائصها و مقوماتها ، أشكال أخرى منها مبدأ وحدة الوجود الذي يقوم في صميمه على مفهوم الطبيعة المادية و هي مبدأ وثني كونه يعتمد التجسيد بشكل من الأشكال . و منها أيضاً مبدأ تعدد الآلهة بمعنى عبادة آلهة عدة في آن معاً . على أنه و بنظرنا فإن أخطر ما تقوم عليه الوثنية و تعتمده و هو أخطر من أي مفهوم أو صفة أو عامل يمكن أن يتصف بها دين أو فكر معين . و هي ربما لم توجد في أي فكر أو دين أو أيديولوجية أخرى . و قد بلغ من خطورة هذه الصفة أن جعلت الوثنية و هذا بنظرنا أن تكون هي الطاغية و السائدة و المتغلغلة اليوم في العالم كله . هذه الصفة أو الميزة التي ميزت (ربما حصراً) الفكر الوثني ، هو ... قبوله بالتعامل مع المفهوم التوحيدي أي قبوله بالتوحيد و قبوله بمقولة إله واحد و لكن ... و لكن ... من مبدأ الوثنية و شروطها هي ، أي أن ينطلق التوحيد من رحم الوثنية نفسها و أن يكون هنالك إشراك . و هي قضية نعتقد بقوة أنهما أشكلت على الجميع و تجلت بإشكالية خفية غير واضحة المعالم لا تزال تلقي بآثارها إلى وقتنا الحاضر و هي بنظرنا السبب الرئيس في الصراع بين الوثنية و التوحيدية من باب .. أنا أقبلك فلماذا أنت لا تقبلني .. أنا أقبلك بشروطك فلماذا لا تقبلني أنت بشروطي . هذه هي الإشكالية الخطيرة التي ألقى بظلالها إلى اليوم على الفكر الإنساني و التي شكلت ديماغوجية مبهمة ضبابية مريحة للفكر الغريزي المصلحي الإنساني . و هو بالضبط ما يفسر لنا الصراع المرير الطويل بين اليهودية و بقية أديان الشعوب و الممالك الأخرى و ما تعرض له اليهود من اضطهاد و مجازر نتيجة لإصرارهم على فكر التوحيد صافياً . و هو أيضاً بالضبط ما نوه له القرآن و حذر منه . فالعرب عرفت التوحيد و أقرت به و بالوقت ذاته أتبع الأوثان حيث اعتبرتها أداة للتقرب من الله . و كان بعضهم يقول أثناء الطواف بالكعبة مع وجود الأصنام " لبيك اللهم لبيك " . فقد كانت العرب إذا أرادت حج البيت الحرام ،

وقفت كل قبيلة عند صنمها و صلوا عنده ثم تلبّت حتى يصلوا إلى الكعبة ، و كان لكل قبيلة تلبيتها الخاصة بها ..

فكانت تلبية قريش : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ؟؟؟!!! .

و كانت تلبية كنانة : لبيك اللهم لبيك ، اليوم يوم التعريف يوم الدعاء و الوقوف .

و كانت تلبية بني أسد : لبيك اللهم لبيك ، يا رب أقبلت بنو أسد أهل التواني و الوفاء و الجلد إليك .

و كانت تلبية بني تميم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لبيك عن تميم قد تراها ، قد أخلقت أثوابها و أثواب من وراءها ، و أخلصت لربها دعاءها .

و تلبية بني قيس : لبيك اللهم لبيك ، لبيك أنت الرحمن ، أتتك قيس و عيلان راجلها و الركبان .

و كانت تلبية ثقيف : لبيك اللهم ، إن ثقيفاً قد أتوك و أخلفوا المال و قد رجوك .

و كانت تلبية هذيل : لبيك اللهم عن هذيل ، قد أدلجوا بليل ، في إبل و خيل . و تلبية ربيعة : لبيك ربنا لبيك لبيك ، إنا قصدنا إليك ، لبيك عن ربيعة سامعة لربها مطيعة .

و تلبية حمير و همدان : لبيك اللهم عن حمير و همدان و الخليفين من حاشد و ألهان .

و تلبية الأزد : لبيك رب الأرباب ، تعلم فصل الخطاب لملك كل مثاب .

و تلبية مذحج : لبيك رب الشعري و رب اللات و العزى .

و تلبية كندة و حضرموت : لبيك لا شريك لك ، تملكه أو تهلكه .. أنت حكيم فاتركه .

و تلبية بني قبائل غسان : لبيك رب غسان .. راجلها و الفرسان .

و تلبية بجيلة : لبيك عن بجيلة في بارق و مخيلة .

و تلبية قضاة : لبيك عن قضاة .. لربها دفاعة .. سمعاً له و طاعة .
و كانت تلبية جذام : لبيك عن جذام .. ذي النهى و الأحلام .
و تلبية عك و أشعر : نحج للرحمن بيتاً عجباً ، مستتراً مضبباً محجباً^١ .

أن ملاحظة مجردة للتلبيات السابقة ، تعطي صورة توحيدية خالصة لا لبس فيها . و أي مطلع أو قارئ أو سامع لتلك التلبيات ، سيخرج على الفور بنتيجة مؤداها أن هذا دين توحيدي خالص . و لكن .. و لكن .. هذه الأدعية الدينية التوحيدية ، كانت أمام من؟؟ و بمشاركة من؟؟ لقد كانت أمام الأوثان و بمشاركة و بواسطتها و من خلالها . لقد كانت عملية توحيدية لكن من رحم و منطلق وثني .

و قد أورد القرآن الكريم هذه القضية و أشار إليها فيما بين الدفتين محذراً حيث جاء ..

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) (الزمر:٣) .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (العنكبوت:٦١) .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (العنكبوت:٦٣) .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (لقمان:٢٥) .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ

^١ تاريخ العرب القديم ، ص / ١٣١ .

دُونَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (الزمر: ٣٨) .

و حادثة الغرانيق التي حصلت مع الرسول (ص) ، هي أحد الأمثلة الداعمة لتلك المقولة ، حيث جاء في السيرة النبوية ^١ " لما رأى الرسول (ص) تولى قومه عنه و شق عليه ما يرى من مباعدهم مما جاءهم به من الله ، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه و بين قومه . و كان يسره مع حبه قومه و حرصه عليهم أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم ، حتى حدث بذلك نفسه و تمناه ، فأنزل الله عز و جل في سورة النجم (و النجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم و ما غوى * و ما ينطق عن الهوى . فلما انتهى إلى قوله تعالى (أفأرأيتم اللات و العزى * و مناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه و يتمنى أن يأتي به قومه و هو (تلك الغرانيق العلى و إن شفاعتهم لترتجى) فلما سمعت قريش ذلك ، فرحوا و سرهم و أعجبهم ما ذكر به آلهتهم . فأصاحوا السمع له ، فلما انتهى إلى السجدة منها و ختم السورة ، سجد فيها ، فسجد المسلمون سجود نبيهم تصديقاً لما جاء به و سجد من في المسجد من المشركين من قريش و غيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم ، فلم يبق في المسجد مؤمن و لا كافر إلا و سجد ، إلا الوليد بن المغيرة فإنه كان شيخاً كبيراً فلم يستطع السجود ، فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها . ثم تفرق الناس من المسجد و خرجت قريش و قد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم فقالوا : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر و زعم فيما يتلو أنها الغرانيق العلى و إن شفاعتهن ترتجى . و بلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب الرسول (ص) و قيل أسلمت قريش ، فنهض منهم رجال و تخلف آخرون . فأتى جبريل (ع) الرسول (ص) فقال : يا محمد ماذا صنعت ؟؟؟!! لقد تلوت على الناس ما

^١ السيرة النبوية ، ص/٨٥ .

لم آتِك به عن الله عز و جل ، و قلت ما لم يقل لك . فحزن الرسول (ص) عند ذلك حزناً شديداً و خاف من الله خوفاً كبيراً . فأنزل الله عز و جل و كان به رحيماً ، يعزیه و يخفض عليه الأمر و يخبره أنه لم يك قبله نبي و لا رسول تمنى كما تمنى و أحب كما أحب ، إلا و الشيطان قد ألقى في أمنيته كما ألقى على لسانه . فنسخ الله ما ألقى الشيطان و أحكم آياته . أي فإنما أنت كبعض الأنبياء و الرسل . فأنزل الله عز و جل (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (الحج: ٥٢) .

و ما الصراع المرير بين الرسول (ص) و مشركي قريش و المارك الهجومية الضارية التي شنوها عليه و على الإسلام إلا بسبب هذا المفهوم .

أما بخصوص دخول الوثنية للجزيرة العربية ، فإن في ذلك روايات عدة منها ^١ أن اسماعيل (ع) ابن إبراهيم (ع) لما كثرت ذريته في مكة ، ضاقت عليهم و وقعت بينهم الحروب و العداوات و أخرج بعضهم بعضاً و كان كل من خرج منهم من مكة ، يحمل معه حجراً من حجارة بيت الله (الكعبة) تعظيماً له و تبركاً به ، فكانوا في حلهم الحديد يضعوه و يطوفوا به طوافهم بالكعبة على منهج أجدادهم إسماعيل و إبراهيم . فصار بهم الأمر بعد زمن ، أن عبدوا ما استحبوها و نسوا ما كانوا عليه و استبدلوا دين إبراهيم ديناً جديداً .

و في رواية أخرى ^٢ أن اليونان و الرومان كانوا قد حملوا أديانهم و عقائدهم الوثنية معهم إلى بلاد الشام و باديتها ، فأخذت العرب عنهم عبادة الأصنام . و قيل إن أول من اتخذ الأصنام عبادة و دعا العرب إليها ، كان عمرو بن لحي حيث كان في بعض تجارة له إلى بلاد الشام و أطراف العراق ، فأصاب من

^١ أديان العرب في الجاهلية ، ص / ١٢٩ .

^٢ أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام ، ص / ٢٧ .

هنالك خمسة أصنام اجتلبها معه إلى مكة و وضعها في الكعبة و دعا إلى عبادتها فأجيبَ له .

و من أشهر الأصنام التي تعبد لها العرب كانت موجودة في مكة و منصوبة في الكعبة و أشهرها ، الأوثان الثلاثة .. اللات و العزى و مناة و حسب الروايات فإن كل واحد منها كان مختصاً ببطن من بطون العرب أو حي من أحيائهم ، فكانت اللات لأهل الطائف و العزى لأهل مكة و مناة لأهل المدينة . و يأتي بعد هذه الأصنام الثلاث ، هبل الكبير الذي كان على ما يبدو مختصاً بأمور الفلك و الحظ و البخت و الحياة اليومية ، فكانوا يستقسمون عنده بالأزلام و القداح . و بشكل عام ، فإن العرب قد عظمت هذه الأوثان و غيرها و قصدوها من كل ناحية و حذب و صوب .

و في رواية أخرى¹ فإن عمرو بن لحي كان قد خرج إلى أرض الشام و بها قوم من العماليق يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأوثان التي أراكم تعبدون؟؟! فأجابوه : هذه أصنام نعبدها ، نستنصرها فتنصرنا و نستسقي منها فنسقى . فقال لهم ألا تعطوني واحداً منها فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذي تَفِدُّ إليه العرب؟؟ فأعطوه صنماً يقال له (هبل) فجاء به إلى الكعبة بمكة و وضعه بإزائها . و في السفارة التالية استحضر معه صنمين هما (إساف و نائلة) و وضع كل واحد على ركن من أركان البيت ، فكان الحجيج إذا طافوا بالبيت الحرام بدأوا بإساف فقبلوه ثم عادوا و ختموا به حجهم . و لم يلبثوا بعد ذلك أن وضعوا على جبل الصفا صنماً يقال له (مجاور الرياح) و نصبوا آخر على المروة يقال له (مطعم الطير) . و كانت العرب إذا حجت إلى البيت الحرام و رأوا الأصنام ، سألوها عنها قريشاً و خزاعة فيجيبوهم : إننا نعبدها لأنهما تقربنا إلى الله زلفى . فلما رأت العرب ذلك ، اتخذت كل قبيلة و بطن و حي منها ،

¹ تاريخ العرب القديم ، ص / ١٣٠ .

وثناً يعبدونه فكان لكلب و قضاخ وثن يدعى (وِدّ) و كان لحمير و همدان آخر يسمى (نسر) منصوباً بصنعاء . و لكنانة (سِوَاع) و لغطفان (العَرِي) و لهند و بجيلة و خثعم (ذو الخلصة) و لطيء (الفلس) و لربيعة و إياد (ذو الكعبات) الذي كان منصوباً بتخوم أرض العراق ، و كان لثقيف (اللات) منصوباً بالطائف و للأوس و الخزرج (مناة) منصوباً بفدك ، و لدوس (ذو الكفين) و لبكر و كنانة (سعد) .

و كما كانت هنالك أوثن ضخمة ثابتة ، وُجِدَت بالمقابل أوثن صغيرة الحجم قابلة للنقل و الحركة ، مصنوعة من المعادن أو الخشب و بعضها كان مصنوعاً من التمر ، فإذا ما جاع صاحبه أو عابده ، التهمه من فوره . و هذه الأوثان الأخيرة قد صنفت على أنّها من الدرجة الثانية قياساً للأوثان الكبيرة الثابتة المنصوبة في الكعبة أو المواقع الهامة . فهي بنظر العربي تقل أهمية عنها من حيث القدرة و المنفعة في آن معاً .

لقد لاقت الوثنية عند عرب الجاهلية قبولها الواسع العريض ، و ضربت بجذورها في عمق التربة الصحراوية و العقلية الفكرية للفرد العربي ، فهي قد تماهت مع البيئة الاجتماعية و العادات و الأعراف القبلية لعرب الجاهلية ، فلم تكلفهم ما هو فوق طاقتهم بل على العكس ، تركتهم و رغبتهم و اعتبرت نفسها غير معنية بفعالهم و تصرفاتهم و أعمالهم ، فلم تسن لهم الحدود و الطقوس و الشرائع كما في الأديان السماوية .. فلا هي حضتهم على حلال ممقوت و لا هي فنتهم عن حرام مرغوب . كما أنّها لم تدخلهم في مآزق فكرية دينية حول طبائع الإله و وصفه و تشخيصه و صورته و تجلياته و صفاته ، و لم تحشرهم في آتون مسائل دينية ذات إشكالية فكرية تتعب تفكيرهم البسيط المنصرف إلى أمور أخرى . و أيضاً في الوقت نفسه أعفقتهم من التفكير في قضية الآخرة و مفهومها و حياة ما بعد الموت و يوم الدينونة أو الحساب أو يوم القيامة . كما لم تناقشهم في جرائم أفعالهم و موبقاتهم .

و بناء عليه و عليه بناء ، فقد ركن العربي البسيط بحياته البسيطة و بيئته الصحراوية البسيطة المتقشفة المقفرة التي فرضت عليه شروطاً قاسية لكسب الرزق ، و عدم استقرار فكري بسبب الترحال طلباً لهذا الرزق .. ركن هذا العربي إلى الوثنية آمناً مطمئناً و آنس لها رشداً و تمسك بها و دافع عنها و قاتل لأجلها .

الأساطير و المعتقدات في الجاهلية :

إلى جانب الأديان في جزيرة العرب ، ظهر هناك ما يسمى بالمعتقدات الاجتماعية و التي هي مزيج ربما من منطلق ديني معين و اجتماعي بيئي و أسطوري روائي يدخل في نطاق القصة المحكية . و هذه المعتقدات يمكن القول أنها تعبر في مضمونها عن ثقافة شعبية تتداخل في بعض مفاصلها و أبعادها ، مع الثقافة أو المعتقد الديني . هي بنظرنا نوع من المخيال العقلي و الفكري أيضاً ربما يكون قد تمازج مع ما هو بمستوى الأسطورة أو القصص الروائي المحكي فيما جاور من شعوب و أمم و حضارات . و إذا اعتبرنا هذه المعتقدات بمثابة ذلك فهي يمكن أن تكون بدورها تعبيراً عن الفكر السائد في منطقة ما و مجتمع من المجتمعات و صورة للذهنية الفردية و الجماعية لهذا المجتمع ، ومن جملة هذه المجتمعات ، المجتمع العربي الجاهلي .

و كما هو الشعر في الجاهلية ، كان معبراً عن تصور نفس العربي بما تعمله من دوافع و مكونات مختلفة الطيف ، كذلك كانت الأسطورة الجاهلية (إذا جازت التسمية) مع اختلاف بسيط بينهما ، وهو أن الشعر العربي في الجاهلية

كان أكثر التزاماً بالزمن الآني و المكان و الحادثة ، منه من الأسطورة التي كانت في طياتها تمثل سرداً خارج الزمن و المكان ، كما أنها في الأساس ظاهرة رمزية تعبر عن خفياً دفيناً ليست من باب العيان بقدر ما هي من باب الخيال . فالشعر العربي و إن تمنطق بمنطق السجع و الاعتبار و الشطح أحياناً ، فإنه حقيقة ، ما نفذ من أقطار الواقع و إطار الزمن و المكان ، و تمحور بالنهاية حول واقعة عيانية أو ظاهرة اعتبارية ، لكنها مرتبطة بشكل أو بآخر بحادثة مكانية . و يبقى فرق آخر ما بين الشعر و الأسطورة ، و هو أن الشعر العربي الجاهلي على اختلاف مضامينه و تصانيفه ، كان محصلة لجهد فردي مباشر منفصل عن غيره و له أسبابه الخاصة المتعلقة حصراً بالمصدر الفردي ، فعندما نسمع قصيدة ما نعرف فوراً من هو قائلها و في أية مناسبة و لماذا قيلت و ما هو معناها و مغزاها و ما هو إطارها الفكري و تحديد زمنها و عصرها . بينما ذلك قد لا ينطبق على الأسطورة التي هي تمازج فكري و تراثي شعوبي و أيضاً تراكم زمني في الوقت نفسه ، فكثيراً ما تصادفنا قصة شعبية أو رواية ، لا نعرف لها مصدراً لكن نرى لها شبيهاً في أساطير و محكيات شعوب أخرى مع تغيير في تسميات الأشخاص أو أبطال القصة و أحياناً تغيير طفيف في بعض مجراها ، لكن هيكلها الأساس يبقى هو ذاته . لكن الأساطير و المرويات اتفقت مع الشعر الجاهلي كونها تشكل في مضمونها مادة إخبارية محدثة للأزمان اللاحقة . و نحن هنا لن نبحت في موضوع الأسطورة و المعتقد (فهذا ليس مجالنا) بقدر ما يهمننا الفكر العربي المنبثق عنهما و حصراً الفكر المعبر عن عقلية و ذهنية الفرد الاجتماعية في الجاهلية .

بداية .. لقد أدرك العرب في الجاهلية مصلح الأسطورة و عرفوه عموماً بأنه قصص ما قبلهم من شعوب و آثار من سبقهم من أقوام حتى و إن لم يكونوا بالضرورة في الحيز الجغرافي الواحد الذي يجمعهم معاً ، و أدركوا أن هذه

الأساطير كقصص و روايات ، هي في عمومها مجانية للحقيقة و الواقع و إنما لا تعدو كونها خرافة في بعض الأحيان . فهذا سيد الأوس في الجاهلية و متصرف يثرب (أحيحة بن الجلاح) يقول في شعره :

أَتَعْرِفُ رَسْمًا كَالرِّدَاءِ الْمُحَبَّرِ بِرَامَةٍ بَيْنَ الْهَضْبِ وَالْمُتَعَمَّرِ
مَنَازِلَ قَوْمٍ دَمَّنُوا تَلْعَاتِهِ وَسَنَوَا السَّوَامَ فِي الْأَنِيقِ الْمُنُورِ
فَلَمْ يَتْرُكَا إِلَّا رُسُومًا كَانَتْهَا أَسَاطِيرُ وَحِيٍّ فِي قِرَاطَيْسٍ مُقْتَرِي

و ها هو المتلمس الضبعي يقول :

فَكَأَنَّمَا هِيَ مِنْ تَقَادِمِ عَهْدِهَا رِقٌّ أُتِيحَ كِتَابُهَا مَسْطُورٌ .

و عرفت الأساطير و المعتقدات في بعض الأحيان بأنها من آثار الأولين و طرقهم أو الزمان الأول و كلها تعبر بصورة من الصور عن الأساطير أو المعتقدات . يقول قس بن ساعدة :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِي نَ مِنْ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنْ الْبَاقِينَ غَابِرُ

و قالت سعدى الجهنية أيضاً :

هَذَا عَلَى إِثْرِ الَّذِي هُوَ قَبْلَهُ وَهِيَ الْمَنَايَا وَالسَّبِيلُ الْمَهِيْعُ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ كُلَّ مُؤَخَّرٍ يَوْمًا سَبِيلَ الْأَوَّلِينَ سَيَتَّبِعُ

يقول عنتره بن شداد :

دَعَ مَا مَضَى لَكَ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ وَعَلَى الْحَقِيقَةِ إِن عَزَمْتَ فَعَوَّلِ
تِلْكَ اللَّيَالِي لَوْ يَمُرُّ حَدِيثُهَا بَوْلِيدِ قَوْمِ شَابٍ قَبْلَ الْمَحْمَلِ
فَاكْفُفْ وَدَعْ عَنكَ الْإِطَالََةَ وَاقْتَصِرْ وَإِذَا اسْتَطَعْتَ الْيَوْمَ شَيْئًا فَافْعَلِ

و أبو النجم العجلي و هو شاعر أموي ^١ يقول :

مِنْ نَحْتِ عَادٍ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ عَلَى جَوَابِ وَخَلِيحٍ مُرْسَلِ .

و كذا الشاعر ابن الزعبري الذي لم يؤمن بقضية البعث و النشور أو حياة ما بعد الموت :

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو .

و قد تحدث القرآن الكريم عن هذه القضية كمفهوم يُنظر إليه من قبل مشركي قريش عندما قال

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ) (الأنعام: من

الآية ٢٥) .

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ

الْأُولَيْنِ) (الأنفال: ٣١) .

^١ لا يوجد كبير اختلاف في المصطلحات اللغوية فيما بين العصر الجاهلي و الأموي لتقاربهما في الفترة الزمنية .

- (لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (المؤمنون: ٨٣) .
- (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (المطففين: ١٣) .

و ما يعنى به في موضوعنا هذا لجهة الأساطير ، هو تناول المعتقدات بالدرجة الأولى ، و ليس ما تناقلته عرب الجاهلية أو اعتقدته عن بعض أساطير و قصص و معتقدات غيرهم من الشعوب . و كما كانت البيئة هي الطاغية في السيطرة على العقلية العربية و التصرفات الناتجة عنها و المؤثرة كذلك على الشعر لديهم من كونه نتاج للعقلية و التصرفات ، فهي كذا الأمر كانت المؤثرة على معتقداتهم تلك و قصصهم الفكري . فنرى أن جل معتقداتهم هو من نتاج بيئتهم . و مصطلحات معتقداتهم تلك ، كان من النادر أن توجد لدى أساطير الشعوب المجاورة لهم أو في أحسن أحوالها لم تكن هي الطاغية بل كانت على مستوى ضحل من البروز و الوعي المستوعب ، و بالتالي كانت هنالك مصطلحات بديلة عنها متناسبة مع البيئة التي تخصها هي حصراً .

كانت الصحراء ليلاً ، في قفرها و بعض جبالها و وديانها و صياح بعض حيوانها المفترس ، مكاناً مناسباً لكائنات مفترضة كالجان و العفاريت و الغيلان و غيرها من كائنات غير مرئية ، و مرتعاً خصباً لنمو و تكاثر قصص و أشعار إخبارية عنها . و من غير المرجح أن تكون تلك الإخباريات القصصية بالذات نتاجاً مستورداً من الشعوب المجاورة ، فهي على ما يبدو ، قد اختصت بالعرب أنفسهم . و لكن ذلك لم يمنع من تلاقحها مع بعض الأساطير و الروايات من خارج هذا النمط القصصي كون هذه الأساطير مهيئة لأن تكون تراثاً عالمياً ، و هيئة متنه قابلة لذلك .

لقد تمحورت معتقدات عرب الجاهلية بشكل عام ، حول الجن و العفاريت و الكائنات الخرافية كالغول و الرخ و العنقاء ، و هذان الأخيران ، حمل معنهما طيوراً عملاقة كبيرة بلغت من الضخامة حداً جعلها قادرة على حمل السفن و

اقتلاع البيوت و الأشجار . كما اعتقد عرب الجاهلية أيضاً بتأويل حركات بعض الكائنات الصحراوية لديهم ، فكانوا مثلاً يتأولون حركة بعض طيور معينة كالبوم أو الغربان أو غيرها .. فإذا قدم الطائر سانحاً (أي جاء من جهة اليمين) اعتُبر ذلك من باب البخت الحسن ، أما إذا قدم الطائر بارحاً (أي أتى قادماً من جهة اليسار) اعتُبر ذلك من باب الشؤم الحسن ، و بعضهم قد عكس الجهة .. قال عمرو بن قَمِيئة يخالف ذلك :

و أَشَامُ طَيْرِ الزَّاجِرِينَ سَنِحُهَا

و قال الأعشى :

أَجَارَهُمَا بَشْرٌ مِنَ الْمَوْتِ ، بَعْدَمَا جَرَى لهما طَيْرُ السَنِحِ بِأَشَامِ

و قال آخر يخالفهما الرأي :

أَقُولُ ، وَ الطَيْرُ لَنَا سَانِحٌ ، يَجْرِي لَنَا أَيْمَنُهُ بِالسُّعُودِ

كما اعتُبرت بعض الطيور مصدراً للشؤم كالغراب مثلاً . و في هذا يقول النابغة الذبياني ..

زَعَمَ الْعَوَازِلُ أَنْ فُرْقَتْنَا غَدًا وَ بِذَلِكَ خَيْرِنَا الْغَرَابُ الْأَسْوَدُ .

و بالنسبة للجن و العفاريت فقد وردت في قصصهم و تراثهم الشعري فيروي ثابت بن جابر (تأبط شراً) عن لقاء له مع (الغول) في الليل فيقول :

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ فِتْيَانٍ فَهَمَّ بِمَا لَاقَيْتُ عِنْدَ رَحَى بَطَانٍ
بَأَنِّي قَدْ لَقَيْتُ الْعُورَ تَهْوِي بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانٍ
فَشَدَّتْ شِدَّةً نَحْوِي فَأَهْوَى لَهَا كَفِّي بِمَصْقُولِ يَمَانِي
فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ فَخَرَّتْ صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ
فَقَالَتْ عُدَّ فَقُلْتُ لَهَا رُوبِدًا مَكَانَكَ إِنِّي ثَبْتُ الْجِنَانِ
فَلَمْ أَنْفَكُ مُتَكَيِّئًا لَدَيْهَا لِأَنْظُرَ مُصْبِحًا مَاذَا أَنَانِي
إِذَا عَيْنَانِ فِي رَأْسٍ قَبِيحٍ كَرَأْسِ الْهَرِّ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ
وَسَاقًا مُخَدَّجٍ وَشَوَاةً كَلْبٍ وَثَوْبٌ مِنْ عَبَاءٍ أَوْ شَنَانِ

و كانوا يعتقدون بأن الجن قد تتخطف بعض الأشخاص و منهم شخص يسمى خرافة الذي تقول قصته أنه زعم أن الجن قد اصطحبوه في رحلة و رأى فيها ما لن تره عين . و عندما عاد يروي ما حدث له ، لقومه و عشيرته ، أنكره رهطه و لم يقتنعوا به و اعتبروا كلامه ضرباً من الخيال . و ضرب المثل بكلام الرجل و روايته فقيل " حديث خرافة " و سرى المثل إلى يومنا هذا . و قد قام الحارث بن حلزة يمدح علم و ذكاء أحدهم بأن الجن اختطفه و أعاده ، فيقول :

مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَأَكْمَلُ مَنْ يَمِ شَيْ وَمِنْ دُونَ مَا لَدَيْهِ الثَّنَاءُ
إِرْمِي بِمِثْلِهِ جَالَتِ الْجِنُّ فَأَبَتْ لِخَصْمِهَا الْأَجْلَاءُ

و يذكر (تأبط شراً) حادثة جرت معه في الصحراء عن حضور الجن إليه عندما أشعل ناره ليلاً و دعوته إياهم للطعام فيقول :

وَنَارٍ قَدْ حَصَّاتُ بُعِيدَ هَدْيٍ بَدَارٍ مَا أُرِيدُ بِهَا مُقَامَا
 سِوَى تَحْلِيلِ رَاحِلَةٍ وَعَيْرٍ أَكَالُهُ مَخَافَةً أَنْ يَنَامَا
 أَتَوْنَا نَارِي فَقُلْتُ مَنْونَ أَنْتُمْ فَقَالُوا الْجِنُّ قُلْتُ عَمُوا ظَلَامَا
 فَقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ زَعِيمٌ نَحْسُدُ الْإِنْسَ الطَّعَامَا

و هذا الشاعر الصعلوك (قرين بن مصاد) يتحدث شاطحا تاركا لمخيااله العنان ، واصفاً معركة له مع الجن ..

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ فِتْيَانٍ قَوْمِي بِمَا لَاقَيْتُ بَعْدَهُمْ جَمِيعَا
 غَزَوْتُ الْجِنَّ أَطْلِبُهُمْ بِنَّارِي لِأَسْقِيَهُمْ بِهِ سَمًّا نَقِيعَا
 تَعَرَّضُ لِي ظَلِيمٌ بَعْدَ سَبْعِ فَأَرْمِيهِ فَأَتْرِكُهُ صَرِيعَا .

و بعضهم اعتقد أن مهارة الغناء و الطرب نابعة من دعم الجن و مستحصلة منه . يقول أعشى بني سليم ..

إِذَا مَا هَرَجَ الْوَادِ يَ أَوْ ثَقَلَ دِحْمَانِ
 سَمِعْتُ الشَّدْوَ مِنْ هَذَا وَمِنْ هَذَا بِمِيزَانِ
 فَهَذَا سَيِّدُ الْإِنْسِ وَهَذَا سَيِّدُ الْجَانِ ^١ .

و كان إذا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ لَا يَعْرِفُونَهُ أَوْ يَدْرِكُوا كُنْهَهُ أَوْ أَدَاةً أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ لَا يَعْرِفُونَ طَرِقَ اسْتِعْمَالِهَا وَ لَا يَرُونَ إِلَى اتِّخَاذِهَا سَبِيلَا ، كَانُوا يَعِزُّونَهَا إِلَى الْجَانِ أَوْ الْعَفَارِيثِ .. يَرَوِي أَنَّ أَعْرَابِيًّا مَرَّ بِسُرْوَالٍ (بَنْطَالٍ) مَلْقَى عَلَى الْقَارِعَةِ ، فَظَنَّهُ

^١ الأغاني ، ص / ١٠٨٣ .

قميصاً ، فأدخل يديه في ساقى السروال و أدخل رأسه في جوفه فلم يجد له منفذاً و ضاق عليه المخرج فقال : ما أظن هذا إلا لبس من لبوس الشياطين .

كما أنهم آمنوا بنسب الخوارق لبعض الأشخاص من البشر كما في حالة (زرقاء اليمامة) و روايتها^١ التي تقول إن الزرقاء كانت ترى الجيش و الأشخاص من مسيرة ثلاثين ميلاً . فغزا قوم من العرب اليمامة ، فلما قربوا من مسافة نظرها قال بعضهم لبعض : كيف لكم بالوصول، مع الزرقاء؟؟ . فاجتمع رأيهم على أن يقتلعوا شجراً تستر كل شجرة منها الفارس إذا حملها . فقطع كل واحد منهم بمقدار طاقته و ساروا بها . فأشرفت الزرقاء ، كما كانت تفعل ، فقال لها قومها : ما ترين يا زرقاء ؟ قالت : أرى شجراً يسير . فقالوا : كذبت أو كذبتك عينك ، واستهانوا بقولها ، فلما أصبحوا صبحهم القوم ، فاكتسحوا أموالهم وقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً وأخذوا الزرقاء فقلعوا عينها فوجدوا فيها عروقاً سوداء ، فسئلت عنها فقالت : إني كنت أديم الاكتحال بالإثمد ففعل هذا منه . وماتت بعد ذلك بأيام .

كما كان لديهم اعتقاد بالعرافين و السحرة و قدراتهم الخارقة ، يقول عروة بن حزام :

جعلت لعراف اليمامة حكمة
و عراف حجر إن هما شفيان
فقالا: نعم نشفي من الداء كله
وقاما مع العواد بيتدران
فعفراء أحظى الناس عندي مودة
و عفراء عني المعرض المتواني^٢ .

^١ المصدر السابق ، ص / ٢٨١ .
^٢ المصدر السابق ، ص / ٤٥٧٥ .

و منهم من نسب العرافة إلى بعض الدين و جعلها مختصة به ، و آمن بأن بعض رجال الدين لديهم قدرات على التنبؤ .. يقول جعفر بن سراقه :

فريقان رهبان بأسفل ذي القرى و بالشآم عرافون فيمن تنصرا^١ .

و من معتقداتهم أيضاً ، كان ما يسمى نار الاستمطار التي كانت توقد بالجاهلية الأولى ، حيث اعتقدوا أنها تجلب المطر ، فكانوا إذا أجذبوا و أمحلوا و أمسكت عنهم السماء ، عمدوا إلى بعض الخرق^٢ و السلع و ربطوها بأذنان البقر و اصعدوها إلى وعر الأرض و عاليها و أضرموا فيها النار و من ثم صحبوا متضرعين إلى السماء . يقول الورل الطائي في ذلك :

لا دُرُّ دُرٌّ رجال خاب سعيهم
أجاعل أنت بيتقورا مسلعة^٣
يستمطرون لدى الأزمات بالعرش
ذريعة لك بين الله و المطر^٢ .

و قد اعتمدوا البقر ربما لعلاقتها بالبرق و هي رمز الخصوبة حسب معتقدات بعض الشعوب القديمة .

و اعتقد بعضهم بأن العائد من الموت يمكن له أن يعرف أكثر من الشخص العادي . و تورد قصة شخص يدعى خالد بن سنان أنه لما حضرته الوفاة قال لقومه : إذا أنتم دفنتموني ، فائتوا قبري بعد ثلاث أيام ترون عيراً أبتراً يطوف به، فإن رأيتم ذلك فانبشوني فأني مخبركم إلى ما هو كائن إلى يوم القيامة .^٣

^١ المصدر السابق ، ص / ١٤٧٩ .

^٢ أساطير العرب عن الجاهلية ، ج / ١ ، ص / ٢٦٥ .

^٣ المصدر السابق ، ج / ١ ، ص / ٢٦٦ .

كما اعتقدوا بمعتقدات ذات أثر طوطمي و من ذلك أنه كانوا يقدسون بعض الأشجار كالشجرة المسماة (ذات أنواط) التي كانوا يحتفون بها في موسم الحج و يذبحون عندها و يعلقون ثيابهم و أرديتهم و حليهم و أسلحتهم عليها تبركاً و تيمناً بها ثم يدخلون الحرم . و قد أنكر الرسول (ص) ذلك على الحارث بن مالك عندما سأله " يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كقريش " . فزجره مشبهاً ذلك ببعض قوم موسى عندما قالوا له " اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة " . و من أمثال (ذات أنواط) ، نخلة نجران و نخلة مثنوى العزى .¹

كما كانوا يستقسمون الخيرة و المشورة عند بعض أصنامهم الشهيرة أو يسألونها أن تحكم بتجريم أو تبرئة بعض الأشخاص المشكوك بهم . فإذا لم تخرج لبعضهم بالنتيجة المرجوة كما يشتهي ، كان يكفر بها و يصب جام غضبه عليها كما في قصة أحدهم عندما قُتل أباه و كان يعرف قاتله الذي أنكر فعلته ، فهم بقتله و لكن القوم طلبوا منه أن يستقسم عند (ذي الخلصة) و هو صنم شهير في الجاهلية . و عندما فعل و خرجت النتيجة سلبية (أي صدق كلام القاتل) جن جنون الرجل محتجاً على تبرئة الصنم لقاتل أبيه و قال مخاطباً إياه :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا
مثلي و كان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا .

كما كان من عقائدهم أن يسموا أولادهم بأسماء الحيوان حفظاً لهم و صوتاً من أعين الأنس و الجن كما ظنوا . و لهذا كثرت فيهم أسماء مثل .. كلب و كليب و جحش و جحيش و نمشل و عنيزة و ثعلبة و غيرها . و ربما هذا بدوره ما

¹ المصدر السابق ، ج / ١ / ، ص / ٢٧٥ .

يفسر وجود أسماء في وقتنا الحاضر تدل على الحيوان و منها .. هيثم - حيدرة
- أسامة - ضرغام - فهد - أسد - جواد ... الخ .

و يتبدى من خلال قراءة فترة الجاهلية و استقراء المعتقدات العربية فيها ، أن هذه المعتقدات قد ارتبطت سويتها بسوية الطبقات الاجتماعية العربية في الجاهلية و تموضعت درجة عقلانيتها و منطقيتها متماهية بالتوافق مع التوضع النخبوي الفئوي الاجتماعي و الفكري و ربما الديني . و هي بنظرنا قضية لا زالت تلقي بظلالها و آثارها إلى يومنا هذا ، و مفاعيلها موجودة حتى الآن . فخطاب النخب الفكرية العقائدي الإخباري الروائي ، يختلف عن خطاب الفرد العادي أو ذوي السوية الفكرية الضحلة المتدنية التي ربما مثلتها المعتقدات الفكرية الآنفة الذكر . فقد برزت أيضاً معتقدات فكرية اعتمدت أو تناولت القص الإخباري التاريخي الديني ، ترفع أشخاصها عن سفاسف الخرافات و الترهات ، ربما بسبب خلفياتهم الدينية التي أعطتهم لمحات تاريخية ثقافية كان لزاماً عليهم التقيد بها ، أو بسبب ثقافتهم الناتجة عن موقعهم الاجتماعي الذي يسمح لهم بالاختلاط مع عليية القوم من قبائل العرب أو شعوب العجم ، فجاءت تصوراتهم العقائدية على شكل مواظ فكرية .. أخلاقية أو دينية ، و حوادث إخبارية وثائقية ، و كان الشاعر أو المتكلم هنا ، يتخذ هيئة الإخباري المحدث و الواعظ المنبه . فهذا الشاعر السموأل يتحدث في إحدى قصائده عن الحياة الأخرى بعد الممات و عن يوم الحساب و عن أنبياء بني إسرائيل فيقول :

وَأَتَانِي الْيَقِينُ أَنِّي إِذَا مِتُّ ت وَإِنْ رَمَّ أَعْظَمِي مَبْعُوتُ
أَبْفَضَلٍ مِنَ الْمَلِيكِ وَنُعْمَى أَمْ بِذَنْبٍ قَدَّمْتَهُ فَجَزَيْتُ
فَاجْعَلِ الرَّزْقَ فِي الْحَلَالِ مِنْ الْكَسْبِ وَبَرًّا سَرِيرَتِي مَا حَيَّيْتُ
وَأَتْنِي الْأَنْبَاءُ عَنْ مُلْكٍ دَاوُّ دَ فَقَرَّتْ عَيْنِي بِهِ وَرَضِيْتُ

وَسَلِيمَانَ وَالْحَوَارِيَّ يَحْيَى
وَمَنْسَى يَوْسُفَ كَاتِي وَلَيْتُ
وَبَقَايَا الْأَسْبَاطِ يَعْقُو
بَ دَارِسِ التَّوْرَةِ وَالتَّابُوتِ
وَأَنْفِلَاقِ الْأَمْوَاجِ طُورَيْنِ عَنْ مَوْسَى
سَى وَبَعْدَ الْمَمْلَكِ الطَّالُوتِ
وَمُصَابِ الْإِفْرِيسِ حِينَ عَصَى اللَّيْلَ
هَ وَإِذْ صَابَ حَيْنَهُ الْجَالُوتِ .

و يقول أيضاً يسرد قصص الأنبياء إبراهيم و يوسف و موسى (ع) مفتخراً
ببيهوديته :

أَلَا أَيُّهَا الضَّيْفُ الَّذِي عَابَ سَادَتِي
فَأَحْصِي مَزَايَا سَادَةِ بِشَوَاهِدِ
مِنَ النَّارِ وَالْقُرْبَانِ وَالْمِحْنِ الَّتِي
فَهَذَا خَلِيلٌ صَيَّرَ النَّاسَ حَوْلَهُ
وَهَذَا ذَبِيحٌ قَدْ فَدَاهُ بِكَبْشِهِ
وَهَذَا رَيْسٌ مُجْتَبَى ثُمَّ صَفْوَةٌ
وَمِنْ نَسَلِهِ السَّامِيُّ أَبُو الْفَضْلِ يَوْسُفُ الْ
وَصَارَ بِمِصْرٍ بَعْدَ فِرْعَوْنَ أَمْرُهُ
أَلَسْنَا بَنِي الْبَحْرِ الْمَغْرُوقِ وَالَّذِي
أَلَسْنَا بَنِي الْقُدْسِ الَّذِي نُصِبَتْ لَهُمْ
أَلَسْنَا بَنِي السَّلْوَى مَعَ الْمَنِّ وَالَّذِي
عَلَى عَدَدِ الْأَسْبَاطِ تَجْرِي عُيُونُهَا
وَأَرْسَلَ نُورًا كَالْعَمُودِ أَمَامَهُمْ
أَلَسْنَا بَنِي الطُّورِ الْمُقَدَّسِ وَالَّذِي
وَنَاجَى عَلَيْهِ عَبْدُهُ وَكَلِمَتُهُ
أَلَا أَسْمَعُ جَوَابِي لَسْتُ عَنْكَ بِغَافِلٍ
قَدْ اخْتَارَهُمْ رَحْمَانُهُمُ لِلدَّلَائِلِ
لَهَا اسْتَسَلَمُوا حُبَّ الْعُلَى الْمُتَكَامِلِ
رِيَاحِينَ جَنَاتِ الْغُصُونِ الذَّوَابِلِ
بَرَاهُ بَدِيهَا لَا تَنَاجِ الشِّيَاطِلِ
وَسَمَّاهُ إِسْرَائِيلَ بَكَرَ الْأَوَائِلِ
لَّذِي أَشْبَعَ الْأَسْبَاطَ قَمَحَ السَّنَابِلِ
بِتَعْبِيرِ أَحْلَامٍ لِحَلِّ الْمَشَاكِلِ
لَنَا غَرَقَ الْفِرْعَوْنَ يَوْمَ التَّحَامُلِ
غَمَامٌ تَقِيهِمْ فِي جَمِيعِ الْمَرَاكِلِ
لَهُمْ فَجَّرَ الصَّوَانَ عَذَبَ الْمَنَاهِلِ
فُرَاتًا زَلَالًا طَعْمُهُ غَيْرُ حَائِلِ
يُنِيرُ الدُّجَى كَالصُّبْحِ غَيْرَ مُزَايِلِ
تَدَخَّدَخَ لِلْجَبَّارِ يَوْمَ الزَّلَازِلِ
فَقَدَّسْنَا لِلرَّبِّ يَوْمَ التَّبَاهِلِ

و هذا الحارث المذحجي يقول :

بني اهتدوا في ما اهتديت سبيله
فألقيت عني العي للرشد والهدى
وَصِرْتُ إِلَى عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ هَادِيَا
وَتُؤْمِنُ بِالْإِنْجِيلِ وَالصُّحُفِ الَّتِي
فَأَكْرَمُ هَذَا النَّاسَ مَنْ كَانَ هَادِيَا
وَيَمَّمْتُ نُورًا لِلْحَنِيفَةِ بَادِيَا
رَشِيدًا فَسَمَائِي الْمَسِيحُ حَوَارِيَا
بِهَا يَهْتَدِي مَنْ كَانَ لِلْوَحْيِ تَالِيَا

و أمية بن الصلت يقول مذكراً بحوادث الزمان القديم و ربما استعار قصه من التوراة :

جَزَى اللَّهُ الْأَجَلَ الْمَرْءَ نُوحًا
بِمَا حَمَلَتْ سَفِينَتُهُ وَأَنْجَتْ
عَشِيَّةً أَرْسَلَ الطُّوفَانَ تَجْرِي
عَلَى أَمْوَاجِ أَخْضَرَ ذِي حَبِيكَ
وَأَرْسَلَتْ الْحَمَامَةَ بَعْدَ سَبْعٍ
تَلَمَّسُ هَلْ تَرَى فِي الْأَرْضِ عَيْنًا
فَجَاءَتْ بَعْدَمَا رَكَضَتْ بِقِطْفٍ
جَزَاءَ الْبَرِّ لَيْسَ لَهُ كِذَابٌ
غَدَاةً أَنَاهُمْ الْمَوْتَ الْقَلَابُ
وَفَاضَ الْمَاءَ لَيْسَ لَهُ جِرَابُ
كَأَنَّ سَعَارَ زَاخِرِهِ الْهَضَابُ
تَدُلُّ عَلَى الْمَهَالِكِ لَا تَهَابُ
وَعَايِنَتْ بِهَا الْمَاءَ الْعُجَابُ
عَلَيْهِ النَّاطُ وَالطِّينُ الْكُثَابُ

و يقول في قصيدة أخرى :

قَدْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ قَبْلِي مُسْلِمًا
بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ مَا بِهَا
مَلِكًا عَلَا فِي الْأَرْضِ غَيْرَ مُعْبَدٍ
أَسْبَابَ مُلْكٍ مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ
فِي عَيْنِ ذِي خُلْبٍ وَيَاطُ حَرَمِدٍ

مِن قَبْلِهِ بَلْقَيْسُ كَانَتْ عَمَّتِي حَتَّى تَقْضَى مُلْكُهَا بِالْهُدْهِدِ .

و يقول أيضاً مذكراً بقصة النبي موسى (ع) مع فرعون ، و قصة النبي يونس (ع) في جوف الحوت :

أرى أدين إلهاً غيرك الله ثانياً	حنانك إن الجن كنت رجاءهم
بعثت إلى موسى رسولاً منادياً	وأنت الذي من فضل من ورحمة
إلى الله فرعون الذي كان طاغياً	فقلت له فإذهب وهرون فادعو
بلا وتد حتى إطمأنت كما هيا	وقولا له أنت سويت هذه
بلا عمد أرفق إذا بك بانياً	وقولا له أنت رفعت هذه
منيراً إذا ما جنه الليل هادياً	وقولا له أنت سويت وسطها
فيصبح ما مست من الأرض ضاحياً	وقولا له من يرسل الشمس غدوة
فيصبح منه البقل يهتز رايباً	وقولا له من يثبت الحب في الثرى
وفي ذاك آيات لمن كان واعياً	ويخرج منه حبه في رؤوسه
وقد بات في أضعاف حوت ليالياً	وأنت بفضل منك نجيت يونساً

و هذا النابغة الذبياني يتحدث عن النبي سليمان و إطاعة الجن له :

إلا سليمان إذ قال الإله له	قم في البرية فأحددها عن الفند
وشيس الجن إنني قد أذنت لهم	بينون تدمر بالصفاح والعمد
فمن أطاعك فإنفعه بطاعته	كما أطاعك وأدله على الرشد

و الشاعر زهير بن جناب الكلبي :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَأَنَّ الْفَتَى يَسْعَى لِغَارِيهِ عَانِيَا
أَصْبَنَ سُلَيْمَانَ الَّذِي سُخِّرَتْ لَهُ شَيَاطِينُ يَحْمِلْنَ الْجِبَالَ الرَّوَاسِيَا

و ها هو الزير مهلهل ربيعة في مقاربة ملفتة للنظر تدل على سعة اطلاع و علوم بالحوادث السالفة ، يقول مشبهاً بني بكر بقوم عاد و يصف ما حل بهم بعد أن أوقع بهم في إحدى جولاته معهم :

فَلَقَدْ أَصْبَحَتْ جَمَائِعُ بَكْرٍ مِثْلَ عَادٍ إِذْ مَزَّقَتْ فِي الرِّمَالِ

و فيما بعد تحدث القرآن الكريم عن هذه الواقعة حين قال : { وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة : ٦] و هو دليل على إلمام العرب ببعض الحوادث التاريخية القديمة .

و بعضهم الآخر آمن بالبعث و النشور فهذا حاتم الطائي يفخر بنفسه و يرتجز قائلاً :

أَمَا وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ وَيُحْيِي الْعِظَامَ الْبَيْضَ وَهِيَ رَمِيمُ
لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي الْبَطْنَ وَالزَّادُ يُشْتَهَى مَخَافَةَ يَوْمًا أَنْ يُقَالَ لَيْمُ

و قال في موضع آخر متحدثاً عن نفسه :

وَإِنِّي وَإِنْ طَالَ الثَّوَاءُ لَمَيِّتٌ وَيُعْطِمُنِي مَاوِيَّ بَيْتٍ مُسَقَّفُ
وَإِنِّي لَمَجْزِيٌّ بِمَا أَنَا كَاسِبٌ وَكُلُّ أَمْرِي رَهْنٌ بِمَا هُوَ مُتَلَفُ

و قس بن ساعدة الذي اعتقد التوحيد يقول :

يا ناعي الموت والملحود في جدث
عليهم من بقايا خزهم خرق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم
فهم إذا انتهوا من نومهم فرق
حتى يعودوا بحال غير حالهم
خلقاً جديداً كما من قبلها خلّقوا
منهم عرّة ومنهم في ثيابهم
منها الجديد ومنها المنهج الخلق .

و الشاعر زيد بن عمرو بن نفيل و هو ابن عم عمر بن الخطاب ، الذي لم يدرك الإسلام و لكنه كان يكره الأوثان و لا يأكل مما ذبح عليها ، و قد ارتحل إلى بلاد الشام و الحضر باحثاً عن أديانها و منقياً فيها علّه يجد ضالته و يشبع مؤونته الفكرية ، فلم تستمله أياً منها ، فعاد إلى مكة و اتخذ الحنيفية و قد أدرك الرسول محمداً (ص) في صباه و جاهر في عدا الأوثان فتألبت عليه قريش ، و عندما سأل الرسول عنه بعد نشر الإسلام ، قيل له أنه مات فقال (ص) : يرحم الله زيدا ، يبعث يوم القيامة أمة وحده . و فيما قاله هذا الرجل من شعر :

أسلمت وجهي لمن أسلمت
له الأرض تحمّل صخرًا ثقلاً
دحاها فلما رآها استوت
على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت
له المزن تحمّل عذبا زلالا
إذا هي سيقت إلى بلدة
أطاعت فصبت عليها سجالا

و قال في قصيدة أخرى :

عَزَلْتُ الْجِنَّ وَالْجِنَّ عَنِّي	كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجَلْدُ الصَّوْرُ
فَلَا الْعَزَىٰ أَدِينُ وَلَا ابْنَتِيهَا	وَلَا صَنَمِي بَنِي طَسْمٍ أَدِيرُ
وَلَا عَتَمًا أَدِينُ وَكَانَ رَبًّا	لَنَا فِي الدَّهْرِ إِذْ حِلْمِي صَغِيرُ
أَرَبًّا وَاحِدًا أَمْ أَلْفَ رَبِّ	أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُورُ
أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ أَفْنَىٰ	رَجَالًا كَانَ شَأْنُهُمُ الْفُجُورُ
وَأَبْقَىٰ آخِرِينَ بَيْرٍ قَوْمٍ	فَيُرَبُّو مِنْهُمْ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ
وَلَكِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ رَبِّي	لِيَغْفِرَ ذَنْبِي الرَّبُّ الْغَفُورُ
فَتَقْوَى اللَّهِ رَبِّكُمْ أَحْفَظُوهَا	مَتَى مَا تَحْفَظُوهَا لَا تَبُورُوا
تَرَى الْأَبْرَارَ دَارَهُمْ جَنَّاتٍ	وَلِلْكَفَّارِ حَامِيَةٌ سَعِيرُ
وَخِزْيٍ فِي الْحَيَاةِ وَإِنْ يَمُوتُوا	يُلَاقُوا مَا تَضَيَّقُ بِهِ الصُّدُورُ

و بمقابل هذه الأفكار و المعتقدات ، برزت أخرى على النقيض منها ، فقد كان هنالك أفكار دالة على إنكار البعث و من ذلك قول بعضهم :

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو

و قال شداد بن الأسود الليثي يرثي قتل بدر من المشركين و ينكر وجود حياة ثانية :

إذا ما الرأس زايل منكبيه فقد شبع الأنيس من الطعام
أترك أن تردّ الموت عني و تحييني إذا بليت عظامي

و هذا الأسود النهشلي يعلن أَلحاده علناً و ينكر دعوة الرسول (ص) فيقول :

ألا من مُبلغ الرحمن عني بأني تارك شهر الصيام
فقل لله يمنعني شرابي وقل لله يمنعني طعامي

في سياق السرد السابق ، يبدو الأثر البيئي المكاني واضح في المخيال العربي و تبدو قوة التفاعل فيما بين الطبيعة الجغرافية و خصوصيتها و بين الفكر الأسطوري للمجتمع العربي في الجاهلية . فخصوصية الصحراء العربية و عزلتها ، أفردت مساحة كبيرة للحرية الفكرية المتعلقة بالأساطير و الروايات و القصص المحكية و الاعتقادات الخيالية المعرفية كي تأخذ مداها و حجمها دون أن يعيقها عائق فكري آخر أو عائق ديني معين يفرض أفكاره العقائدية الخاصة به أو عائق اجتماعي فكري له جذوره و ثوابته المناقضة ، أو عائق سياسي يفرض أفكاره السياسية و حيثيات نظمه بقوة القانون و الإكراه المادي . و بالتالي كانت اعتقادات الجن و العفاريت و العرافة و التنجيم و القوى الخارقة غير الطبيعية لأشخاص بشريين ، هي الطاغية على الاعتقادات المتعلقة بالحوادث التاريخية الدينية و الاجتماعية أو السياسية السابقة .

فبالنسبة للصحراء العربية المتفلّنة من عقال الضوابط العقلانية التاريخية و الشرعية الدينية و القانونية السياسية دونما حسيب أو رقيب ، فإنها هي المكان المناسب لدمقرطة التعايش الفكري . و إذا أُضيفت قضية عدم الاستقرار المكاني التي أدت إلى عدم الاستقرار الفكري ، فهذا ما يمكن أن يكون قد فسر سهولة استياغ الفرد العربي للفكر الأسطوري الروائي المعتقدي اللامنضبط و الغير مُتعب و اللا متطلب جهد فكري للترتيب الإجرائي و القولية النمطية الجامدة و المضامين التنسيقية . و الأهم من ذلك كله .. الخضوع للسلطان و بالأخص السلطان المادي حتى و لو لم يكن موجوداً في وقته الحاضر . و بمعنى توضيحي آخر ..

فإن العربي يقبل بسلطة الجان و العفاريت على القبول بسلطة موسى أو عيسى أو سليمان (ع) أو فرعون أو ... الخ . هو باللاشعور يقبل بسلطة وهمية اعتبارية ، حاضرة آنية و ربما في بعض الأحيان يعرف أنها وهمية ، على أن يقبل بسلطة حقيقية حتى و لو كانت غير موجودة ، و كانت ماضية سالفه لحاضره .. و هو يقبل بما يتوهمه خيالاً و ينفر مما يعتبره عياناً .. يستسيغ ما يصنعه هو و يدرك باللاشعور أنه قادر على التحكم به ، و يمج ما هو خارج إرادته .. يقبل ما يتفق مع شروطه الداخلية الدينية و يعطيه مجالاً رحباً للتخليق ، و ينكر ما يراد منه هو أن يتفق مع شروطه و يضيق عليه الحيز و المجال ، و هي قضية تتقاطع في قواسم مشتركة كثيرة مع قضية الوثني و السماوي .

الآداب و الأخلاق في الجاهلية :

لا بد لكل مجتمع بشري ، من أرومة أخلاقية يثبت بها نفسه و يوطد دعائم وجوده . فالأخلاق هي في نهاية أمرها ، صمام أمان لأي مجتمع أو جماعة ، و هي الناموس الذي يحافظ على ترابط هيكلية هذه الجماعة أو المجتمع أيّاً كان نوعهما (زراعي - رعوي - حضري - تجاري ... الخ) و أيّاً كانت السوية الفكرية و الحضارية الخاصة بهما .

فهذه النواميس الأخلاقية نجدها في أدن المجتمعات تخلفاً . و هي إن انتفت من أي مجتمع أو نظام جماعة مهما كانت درجة تطوره ، لتشرذم و تفكك و آذن بالانهيار و الفناء أو يصبح هباءً منثوراً . فهي ظاهرة لازمة لا بد من وجودها حتى و لو كانت إعلاناً شكلياً صورياً في بعضها و أحياناً .

في مجتمع الجاهلية ، وُجِدَت أخلاق و عادات قبلية لا ندري إن كانت البيئة الجغرافية قد فرضتها لأنها ليست بالضرورة أن تكون نتاجاً محصوراً ببيئة محددة ، بل هي أمراً بشرياً متعارف عليه منذ القدم و في كل الأصقاع . و لكن يحق القول أن هذه الأخلاق و العادات الإيجابية السامية لم تكن حالة صورية شكلية كما في بعض المجتمعات المدنية أو الحضرية . كذلك لم تكن حالة جزئية محدودة كما في بعضها الآخر بل كانت حالة كلية عامة شاملة ميّزت العربي كشخص و كشخصية ، مستقلاً عن بني جنسه من الأمم الأخرى و التي لا تنتهها هنا بقلة الأخلاق أو عدم تعاطيها ، بل لأن الأخلاق و مكارمها السامية ، مثلت لدى مجتمع الجاهلية حالة فكرية لا يمكن للعربي الفكاك منها و لا يجرؤ على المناورة فيها ، خوف العار الذي هو لاحقه أبد حياته و ربما ورثه بعد مماته لأولاده من بعده .

كما إن العامل المتبادل فيما بين ارتباط الفرد بالقبيلة و ارتباط القبيلة بالفرد ، جعل من تصرفات العربي و سلوكه الفردي ، كمادة آيلة إلى القبيلة نفسها و قابلة في معظم الأحيان إن لم يكن كلها ، أن تجري عليها و تنسحب على أفرادها جميعاً ، فإما أن تُعلِّم من مرتبة القبيلة أو تحط من شأنها بسبب سلوك بعض الفرد فيها . فكانت القبيلة إذا لحقتها مكرمة من أعمال بعض الفرد فيها تباهت بها بين القبائل و رُقَّت الفاعل إلى مرتبة من تكريم و أحلته مكانة من تبجيل . أما إذا لحقتها مذمة من أعمال بعض الفرد فيها ، تبرأت منها و من فاعلها و ربما طردته من حماها كيلا تنوبها مغبة صنيعه و فعاله . و في ذلك يقول الجاحظ^١ " إذا وجدت العرب رجلاً من القبيلة قد أتى بفعل قبيح ، ألزموا ذلك القبيلة كلها ، كما تُمدح القبيلة كلها بفعل جميل و إن لم يكن ذلك إلا بواحد منها " . و بناء عليه و عليه بناء ، كان الفرد يتحاشى القيام بأي عمل مشين ،

^١ أدباء العرب ، ص / ٦٠ / .

طبقاً للأعراف القبلية في مجتمع الجاهلية ، خوفاً من أن يلحق العار به أولاً ، و بالقبيلة ثانياً ، و يُطرد شر طردة ثالثاً . و بالمقابل كان يحرص على مكارم الأخلاق و الشيم السائدة ، حتى و لو تأوّد أمرها عليه .

أيضاً ما تميّز به المجتمع العربي في الجاهلية لجهة الأخلاق ، هو أن بعض من مكارمها شكّل بالنسبة لهذا المجتمع ، قانون عرقي اجتماعي سائد ميّز هذا المجتمع ، تماماً كما تميزت مجتمعات الشعوب الأخرى بقوانين معينة و سمات توصيفية أو أعراف اجتماعية . و من المكارم القوانين التي تميز بها مجتمع الجاهلية (إقراء الضيف - إغاثة المستغيث - الوفاء - الكرم - الصراحة - الحلم ... الخ) . و هي سمات و ملامح لا تنتفي من مجتمعات أخرى لكن لا تميّزها بميزها و تسومها بسماها .

هذه الأخلاق و المكارم و الملامح الحميدة ، امتلأت بها أشعارهم و كانت عمادها الأساس إلى جانب أشعار الحرب و القتال . و كانت يافطة ثانية تعبّر عن شخصية الفرد العربي في آن معاً . و كما كان العربي يحرص على إتيان مكارم الأخلاق هذه في صنيعه و فعّاله ، كان يحرص على إتيانها في كلامه و أشعاره ، فيشدو بها إما ناسباً إياها لنفسه و إما مادحاً بها غيره لمكرمة تحصلها منه أو خصال موجبة رآها فيه . و يبدو لنا أن العربي الذي أدرك طبيعة البيئة الجغرافية التي يعيش فيها من حيث إنهما لن تجود عليه بشيء من إمكانية يبيز بها الشعوب و الأمم الأخرى ، و أن افتقارها لمكونات و مقومات الحضارة المدنية لجهة التوضع المركزي و الزراعي و الصناعي ، حيث جادت عليه فقط بالحدود الدنيا لمقومات العيش .. هذا العربي قد استشعر ربما بشكل خفي أو معلوم ، أن الأخلاق السامية الرفيعة و سمات النخوة و الشرف ، هي السلاح الوحيد الذي يمكنه استخدامه في صراع التمايز الحضاري الإنساني . و ربما أدرك بطريقة من الطرق ، أن هذا السلاح غير معتمد لدى بقية الحضارات كمعترك

أساس و يافطة عامة ذات أولوية حتى و إن وُجِدَ لديهم . لذلك عمد إلى التركيز على هذه القضية و جعلها من أولوياته حتى أنه فضلها على الدين الذي كان يعتقد و يتبع . و ذلك ما يستدل عليه من الشعر الجاهلي نفسه حيث نرى أن الأخلاق كانت هي الطاغية على الدين فيه و لها حصة الأسد . فالعربي إذا ما أراد الفخر بنفسه أو مدح غيره ، نُحَى الدين جانباً حتى و لو كان سماوياً و عمد إلى مكارم الأخلاق كورقة اعتماد ، و هو ما أيده فيه القرآن الكريم فيما بعد . فقد مدح الله (تعالى) رسوله العربي محمداً مرة واحدة في القرآن الكريم ، فلم يذكر الشجاعة أو الإيمان أو الورع و التدين أو العلم أو القوة ، علماً أنّها صفات كانت موجودة فيه ، بل ذكره بخصلة واحدة مدحه فيها حيث قال .. { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : ٤] . و يبدو أن العربي في الجاهلية قد كان صائباً في اختياره هذا و موفقاً . فقد سطرت الكتابات التاريخية الإخبارية فيما بعد ، الصفات الخلقية للفرد في الجاهلية و ألزمتها إياه و جعلتها من شيماء و سماته .

و من إحدى الأسباب التي صبغت عرب الجاهلية بالأخلاق و الشيم ، هي حرصهم على شيوعها و تفشيها فيما بينهم و إبرازها للغير ، فإذا خيّر العربي بالكرم فيما بين الغريب أو القريب ، فإنه يختار الأولوية للضيف الغريب على الجار القريب و هو ما ساعد على إكسابه سمعة حسنة تفتت خارج منطقته و أرضه .

يقول الأسود النهشلي :

وإني لأقري الضيف وصّى به أبي و جار أبي التيجان ظمآن جائع .

و قد بلغت حالة شيوع الكرم و القرى عند العرب أن استشعرتها حتى الكلاب عندهم التي أضحت تعرف أن أي غريب يقترب من فناء المضارب ، هو ضيف

مرحب به و يستوجب الاحتفاء . و إذا كان بعيداً عن المضارب ، يجب النباح كي يهتدي إلى المضارب و في ذلك يقول المتلمس الضبعي مادحاً كلب يؤدي مهمته خير أداء ، واصفاً حالته و لا يخفي إعجابه به :

وَمُسْتَبِحٌ تَسْتَكْشِفُ الرِّيحُ ثَوْبَهُ لَيْسَقُطُ عَنْهُ وَهُوَ بِالثَّوْبِ مُعَصِمٌ
عَوَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ بَعْدَ اعْتِسَافِهِ لَيَنْبَحُ كَلْبٌ أَوْ لِيُوقِظَ نَوْمٌ
يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلًا يَكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمٌ

أما أوس العبدي فيتحدث عن كرم الضيف يليها حرمة الجار في المرتبة الثانية و جعلهما معا بمرتبة الوصايا :

كَانَ فَهْمٌ أَوْصَى بِنَيْهِ وَصَاةً حَفَظُوهَا وَكَانَ فِيهِمْ مُصِيبَا
أَكْرَمُوا الضَّيْفَ وَاحْفَظُوا حَرَمَةَ الْجَارِ وَكُونُوا مِنْ أَحِبِّ قَرِيْبَا

و هذا طرفة بن العبد الشاعر المشهور و صاحب إحدى المعلقات عندما يفتخر بنسبه و يذكر مآثر أسلافه و أجداده ، يتجه من فوره إلى الأخلاق لا إلى غيرها ، فيقول :

وَتَفَرَّعْنَا مِنْ ابْنِي وَائِلٍ هَامَةَ الْعِزِّ وَخُرْطَوْمَ الْكِرَمِ
مِنْ بَنِي بَكْرٍ إِذَا مَا نُسِبُوا وَبَنِي تَغْلِبَ ضَرَّابِي الْبُهَمِ
حِينَ يَحْمِي النَّاسُ نَحْمِي سِرْبَنَا وَاضِحِي الْأَوْجِهَ مَعْرُوفِي الْكِرَمِ

و أعشى باهلة يمدح سيد قوم ذاكراً مناقبه الأخلاقية فيقول :

إِنَّ الَّذِي جئتَ مِنْ تَثْلِيثِ تَنْدُبِهِ
 أَخُو رَغَائِبٍ يُعْطِيهَا وَيَسْأَلُهَا
 مِنْهُ السَّمَّاحُ وَمِنْهُ الْجُودُ وَالْغَيْرُ
 يَخْشَى الظُّلَامَةَ مِنْهُ التَّوْفَلُ الزَّفَرُ
 حَامِي الْحَقِيقَةَ مِنْهُ الْجُودُ وَالْفَخْرُ
 قَبْلَ الصَّبَاحِ وَلَمَّا يَمْسَحُ البَصْرُ
 الْمُعْجَلُ القَوْمُ أَنْ تَغْلِي مَرَاجِلُهُمْ

أما حاتم الطائي صاحب الشخصية المشهورة بالجود و الكرم ، فيقول يفخر
 بنفسه :

فَإِنِّي جَبَانُ الكَلْبِ بَيْتِي مُوطَأً
 وَإِنَّ كِلَابِي قَدْ أَهْرَتِ وَعَوَّدَتِ
 أَجُودُ إِذَا مَا النَّفْسُ شَحَّ ضَمِيرُهَا
 قَلِيلٌ عَلَيَّ مَنْ يَعْتَرِينِي هَرِيرُهَا
 وَأَبْرَزُ قَدْرِي بِالْفَضَاءِ قَلِيلُهَا
 يُرَى غَيْرَ مَضْنُونٍ بِهِ وَكَثِيرُهَا
 وَإِبْلِي رَهْنٌ أَنْ يَكُونَ كَرِيمُهَا
 عَقِيرًا أَمَامَ البَيْتِ حِينَ أَثِيرُهَا
 أَنُشَاوِرُ نَفْسَ الْجُودِ حَتَّى تُطِيعَنِي
 وَأَتْرُكُ نَفْسَ البُحْلِ لَا أَسْتَشِيرُهَا
 وَلَيْسَ عَلَيَّ نَارِي حِجَابٌ يَكْنُهَا
 لِمُسْتَوْبِصٍ لَيْلًا وَلَكِنْ أَنْيرُهَا

و حاتم الطائي هذا تروى له قصة مشهورة مع أحد الأعراب ، ربما تفيد في معنى
 ما أفدناه آنفاً من ضرورة التشديد على الأخلاق و التأكيد على نشرها و إعطاء
 صورة عنها للغريب ، العربي و غير العربي و نشر نوع من الدعاية الإعلامية
 تدعم صورة العربي أخلاقياً و خارجياً . تقول الرواية أن أعرابياً اشتدت عليه
 الفاقة و العوز فسلك سبيل حاتم الطائي ، علّه يجد لديه شيئاً . و وصل فناءه
 ليلاً . و صودف أن كان حاتم الطائي في حالة غضب شديد لظرف من
 الظروف . و عندما وصل الأعرابي فناء حاتم و طلب منه المساعدة ، انتهره حاتم
 و صدّه ، لا بخلاً منه لكن لتوتره الشديد . فعاد الأعرابي أدراجه خائباً . و بعد

قليل صحاحاتم من غفلته و انتبه إلى خطأه فأسرع الخطأ خلف الأعرابي و سلك طريقاً مختصراً حيث سبقه بجواد إلى أحد الطرق الفرعية و جلس متلثماً . و بعد قليل وصل الأعرابي إلى حيث جلس حاتم فلم يعرفه ، فبادره حاتم قائلاً : من أين قدمت يا أبا العرب ؟؟ أجاب الأعرابي : من عند حاتم الطائي . فسأله حاتم : و ما صنع بك ؟؟ أجاب الأعرابي : و الله لقد أكرمني غاية الإكرام و أعطاني ما سد حاجتي و جوعي . و هنا نزع حاتم اللثام عن وجهه و قد بلغ منه التأثير أيما مبلغ و قال للأعرابي .. كيف تقول ما قلت ؟؟ و قد فعلت بك أنا ما فعلت ؟؟؟!! فقال الأعرابي : إن قلت للناس ما صنعت بي .. كذبوني و ما صدقني أحد ، فقلت ما قلت . فعاد به حاتم إلى بيته و أكرمه و حمّله بالمؤن و اعتذر منه .

و ها هو عنتره بن شداد يقول :

تَجَافَيْتُ عَنْ طَبْعِ اللَّثَامِ لِأَنِّي أَرَى الْبُخْلَ يُشْنَأُ وَالْمَكَارِمَ تُطَلَّبُ
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْجُودَ فِي النَّاسِ شَيْمَةٌ تَقُومُ بِهَا الْأَحْرَارُ وَالطَّبْعُ يَغْلِبُ

و ها هي خالدة بنت هاشم بن عبد المناف ترثي أباها هاشم فتقول :

عَيْنُ جُودِي بَعْبَرَةٌ وَسُجُومٌ وَاسْفَاحِي الدَّمْعَ لِلجُودِ الْكَرِيمِ
هَاشِمُ الْخَيْرِ ذِي الْجَلَالَةِ وَالْحَمِ وَوَذِي الْبَاعِ وَالنَّدَى وَالصَّمِيمِ
شَيْظِمِي مُهَذَّبٌ ذِي فَضُولٍ أَبْطَحِي مِثْلَ الْقَنَاةِ وَسِيمِ
غَالِيٌّ مَشْمَرٌ أَحُودِيٌّ بَاسِقِ الْجَدِّ مَضْرَحِيٌّ حَلِيمِ

كذا الشاعر الفند الزماني :

لَيْسَ يُغْنِي الْقَوْلُ إِلَّا لِأَمْرٍ صَادِقٍ بِالْقَوْلِ يَوْمًا أَوْ مُطِيقٍ

و الحارث الحضرمي :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الصِّدْقَ فِي الْقَوْلِ وَاضِحٌ أَمَا إِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ فِي النَّاسِ صَادِقُهُ

و يقول النابغة الذبياني يمدح الحارث الجفني و قومه :

لَهُمْ شِيمَةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللَّهُ غَيْرَهُمْ مِنْ الْجُودِ وَالْأَحْلَامِ غَيْرُ عَوَازِبِ
حَبَوْتُ بِهَا غَسَّانَ إِذْ كُنْتُ لَاحِقًا بِقَوْمِي وَإِذْ أَعَيْتَ عَلِيَّ مَذَاهِبِي

و إلى جانب الأخلاق ، برز في الشعر العربي الجاهلي أبيات تعطي دلالة على الحكمة و التبصر و فيها مادة من أقوال مأثورة بدورها تعطي دلالة على الخبرة .معتك الحياة و البصيرة في نوائب الدهر و صروفه . فامتألت الأشعار العربية الجاهلية بالحكم و الأقوال المأثورة التي تعبر على الرقي الفكري . و هنا لن نقوم بشرح عن هذه الأبيات فهي تعبر عن نفسها بنفسها و من جملة هذه الحكم نقتطف بعض الأبيات

يقول ابن قيس الكناني متحدثاً عن التدبير و حسنه و التأمل في عواقب الأمور فيقول :

وَأَبْغَى صَوَابَ الظَّنِّ أَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا طَاشَ ظَنُّ الْمَرْءِ طَاشَتْ مَقَادِرُهُ
وَقَدْ يَكْرَهُ الْإِنْسَانُ مَا هُوَ رَشَدُهُ وَتُلْقَى عَلَى غَيْرِ الصَّوَابِ شَرُّ شَرِّهِ

و تقول هند بنت الحس تفضل العقل على المال فتقول :

وَلَيْسَ الْفَتَىٰ عِنْدِي بِشَيْءٍ أَعَدَّهُ إِذَا كَانَ ذَا مَالٍ مِنَ الْعَقْلِ مَفْلَسُهُ

كذلك الشاعر بشر الفزاري يتحدث عن العقل الذي يزين المرء مقروناً بالعمل
الصالح :

وَلَا خَيْرَ فِي حُسْنِ الْجُسُومِ وَطَوْلِهَا إِذَا لَمْ يَزِنِ حُسْنَ الْجُسُومِ عُقُولُهَا
فَإِنْ لَا يَكُنْ جَسْمِي طَوِيلًا فَإِنِّي لَهُ بِالْفَعَالِ الصَّالِحَاتِ وَصُولُهَا

و يتحدث الشاعر أحيحة بن الجلاح عن التسليم لواقع الحياة و ما يخبأه القدر و
المجهول للإنسان فيقول مخبراً و مناقضاً زملاءه السابقين حول راحة المرء صاحب
العقل الفارغ و تعب نقيضه الآخر :

وَمَا تَدْرِي إِذَا ذَمَّرْتَ سَقْبًا لِعَيْرِكَ أَمْ يَكُونُ لَكَ الْفَصِيلُ
وَمَا تَدْرِي وَإِنْ أَجْمَعْتَ أَمْرًا بِأَيِّ الْأَرْضِ يُدْرِكُكَ الْمَقِيلُ
فَإِنَّ الْجَهْلَ مَحْمَلُهُ خَفِيفٌ وَإِنَّ الْحِلْمَ مَحْمَلُهُ ثَقِيلُ

أيضاً يتحدث الشاعر الربيع بن زياد عن منقبة الحلم و ضريريتها على صاحبها :

أظن الحلم دل عليّ قومي وقد يستجهل الرجل الحكيم
ألاقي من رجال منكراتٍ فأنكرها وما أنا بالظلوم

الجاهلية .. خلاصة فكرية :

العرب قوم حكمتهم بيئتهم الجغرافية و تسلطت على فكرهم و عقليتهم و تصرفاتهم و أفعالهم . و حق القول علينا أن لا نظلمهم بكل تبعات أفعالهم السلبية ، و أن نجبر تلك الأفعال و التصرفات إلى هذه البيئة الصحراوية ، فلا نلومهم كل اللوم على حريرة ذلك . و ما يبرز خضوعهم المباشر أو غير المباشر أو حتى الخفي ، لبيئتهم تلك ، هو بروز نوع من التناقض الفكري عندهم حيال أمور و قضايا معينة لعبت دوراً في حياتهم .

و بنظرنا ، فإن صراع العربي المرير في الجاهلية مع بيئته الجغرافية الخلفة القاسية التي لا ترحم و التي منعت نمو التطور الحضاري التنظيمي من زراعة و صناعة مثلما منعت نمو الكأ و الخضرة . هذا الصراع الذي ما استطاع الهروب منه أو تحاشيه و لا الفكك من صحرائه ذاتها .

و ما زاد الطين بلة ، هو وقوع منطقتة الصحراوية المقفرة المجذبة ، بين مناطق حضرية متمدنة ذات حضارات عريقة و ممالك و إمبراطوريات موسومة بالتمدن و التنظيم السياسي و الديني و اتخاذ الآلة و الزراعة . فمصر العريقة من جهة و بلاد الشام و العراق (الرافدين) و بيزنطة من جهة أخرى ممثلة بالحضارة الرومانية و رقيها ، و بلاد فارس ذات الحضارة و الدولة المتمدنة من جهة ثالثة ، و اليمن ذات البضع تحضّر يليها البحر مباشرة ، يتاخم ذلك كله مملكة الحبشة . فإذا صح إطلاق تسمية (شبه جزيرة العرب) على أرضهم لإحاطتها بالماء من جهات ثلاث ، صح في الوقت ذاته أن توصف بأنها شبه جزيرة مجتمعية متناقضة اجتماعياً و تنظيمياً مع الوسط المحيط بها ، و هذا ما شكل مفارقة ندر حدوثها في باقي الأمكنة المشابهة التي إما كانت بقاعاً صحراوية تشكل مجتمعات صحراوية بعيداً عن عوامل الحضارة و مقوماتها و محاطة بمجتمعات ذات تناقض

قليل التفاوت معها ، أو بقاع صحراوية محاطة ديموغرافياً بمجتمعات ذات تناقض متفاوت معها لكن هذه البقاع لا تشكل بحد ذاتها مجتمعاً مترابطاً ذو هيكلية متماسكة كما هو الحال في شبه جزيرة العرب ، و لا تعدو كونها جماعات بدوية معزولة فكرياً و اجتماعياً . هذا الأمر لا نجد له مكاناً في شبه جزيرة العرب التي و إن كانت عبارة عن مجتمعاً قبلياً صحراوياً بالدرجة الأولى ، و مؤلفاً من قبائل متناثرة متنازعة ، إلا أنها كانت تعي ذاتها كقومية أو عنصرية وطنية متجانسة . فالعربي من قبيلة معينة كان يعي و يعرف أن نظيره العربي الآخر من القبيلة الأخرى و إن بعدت المسافة بينهما ، هو أخ له في الوطنية و العروبة ، و يعي رابطة الدم فيما بينهما . و كانت إذا ما تصادف اثنان في الصحراء أو مكان عربي معين يسأل أحدهما الآخر .. " من أين أنت يا أخا العرب؟؟ " . و كانوا إذا أرادوا التعبير عن شيوع خبر ما قالوا " لم يبقَ حي من العرب لم يسمع بذلك " . حتى في أشعارهم و قصائدهم ورد ما يؤكد معرفته لعروبتهم و وعيهم لها و أحياناً تعصبهم . يقول مهلهل ربيعة :

لَقَدْ عَرَفْتُ قَحْطَانَ صَبْرِي وَنَجْدَتِي غَدَاةَ خَزَاذٍ وَالْحُقُوقُ دَوَانٌ^١
وَوَائِلٌ قَدْ جَدَّتْ مَقَادِمَ يَعْرُبٍ فَصَدَّقَهَا فِي صَحْوِهَا الشَّقْلَانِ

و يقول أعشى باهلة :

قنابل من قحطان لم ير مثلهم إذا الصدع أعبا رأيه كل شاعب

و قال جعال النهمي :

^١ قحطان (أبو يعرب) هو جد العرب و هو هنا يمثل تعبيراً رمزياً عن القبائل العربية .

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَفْنَاءَ قَحْطَانَ أَنَّنَا إِلَيْنَا يَصِيرُ الْأَمْرُ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ

ابن كعب التغلبي :

أَحْوَالُنَا مِنْ خَيْرِ أَحْوَالِ الْعَرَبِ قَدْ كَانَ ذَا مِنْكُمْ قَدِيمًا لَا كَذِبُ

و يفتخر عنتره بن شداد بقبيلته قائلاً :

لِلَّهِ ذُرٌّ بِنِي عَبَسٍ لَقَدْ نَسَلُوا مِنْ الْأَكَارِمِ مَا قَدْ تَنَسَلُ الْعَرَبُ

و كذا الشاعر قيس الحداد :

هُمُ الْمَانِعُو الْبَيْتِ وَالذَائِدُونَ عَنِ الْحُرْمَاتِ جَمِيعِ الْعَرَبِ .

ما نخلص إليه مما مضى ذكره ، هو وجود مجتمع يختلف تمام الاختلاف عما يحيط به من مجتمعات و على تباين واضح فيما بينه و بينها و في الوقت نفسه هو على احتكاك معها . و هو عاجز عن النهوض بمكوناته الفكرية و التنظيمية و الإدارية لمجاراتها ، كونه محكوم بيئة صحراوية فرضت عليه شروطاً قاسية و وضعته في ظروف معيقة لنموه و تقدمه الحضاري . و هو أيضاً يمتلك طاقة فكرية كبيرة و ذهنية عقلية وقادة . هذه الظروف مجتمعة ، أدت إلى وضعه في تناقض فكري رهيب مع نفسه بالدرجة الأولى .. مجتمع صحراوي فقير متكشف له شروطه الخاصة به و محكوم بجوار حضاري عريق متقدم (بيزنطة - فارس - العراق - مصر) هو أيضاً له شروطه الخاصة به ، مع الاحتكاك المتواصل .

و بنظرنا فإن العربي بفترة الجاهلية قد حاول خلق حالة من التمازج ما بين حياته البسيطة في الصحراء و بين ما يراه و يعرفه في الممالك و الأقاليم المحاورة . و هو يعي أن وضعه الاجتماعي و التنظيمي أسوأ بكثير مما هو عليه في الأقاليم المحيطة به ، و يحاول أن ينقل صورة هذا الوضع إلى بيئته الصحراوية و يوافقها مع أوضاعه هو ، لكنه بمرارة و حرقة كبيرين ، كان يصطدم بصحرائه الظلمة ، فكان أحيانا باللاشعور يثور على هذه المفاهيم الموجودة لدى ما يحيط به من الشعوب الأخرى و يحطّ من قيمتها و قدرها و يعتبرها نوع من المهانة و المذلة بالنسبة إليه ، في محاولة لإرضاء نفسه و تكبيتها ، ربما على مبدأ المثل الشعبي القائل (من لا يطول العنب يسميه حصرم) .

و ما يدل دلالة قوية على ذلك ، هو أنه ما أن سنحت الفرصة لظهور نظام الدولة فيما بعد على يد بني أمية ، حتى سارع العرب إلى استحضار تلك المفاهيم و تطبيقها و قبولها كأسس معيارية متعارف عليها . و لعلنا نسوق هنا بعض من هذه المفاهيم ، و منها على سبيل المثال نظام الملك .. هذا النظام الذي شكّل متناقضة ثنائية لدى العربي في الجاهلية ، فتراه من جهة ما ، يسعى إليه و يتفاخر به إذا ما أدركه و استحوذ عليه أو كان قريبا منه ، و من جهة أخرى ينبذه و يثور عليه معتبرا إياها مدعاة للتمرد و العصيان ، إذا خضع أو أخضع له أو كان مجانبا اتجاهه ، و يفخر بنفسه مزهوا معتدا إذا انقلب عليه أو قتل أصحابه . فهذا وائل بن ربيعة (كليب التغلبي) قاد جموع التغلبة و اشتبك مع اليمانية و قتل ملكهم لرفضه دفع الإتاوة و الخضوع لنظام الملك ، ثم أصبح هو بعد ذلك مويكاً يتشبه بالملك و يفخر بطغيانه و جبروته و غروره الأحمق ، فيقول في قصيدة له تحمل تناقضا فكريا هائلا بين الفخر بقتل الملوك للأنفة من الخضوع و دفع الإتاوة لهم و بين زهوه و افتخاره بالملك و سوء الإدارة و الحكم و إجباره الناس و تهديدهم بالحرب إذا ما هم امتنعوا عنها فيقول في ذلك :

إِنْ يَكُنْ قَتَلْنَا الْمُلُوكَ خَطَاءً أَوْ صَوَابًا فَقَدْ قَتَلْنَا لِبَيْدَا
 وَجَعَلْنَا مَعَ الْمُلُوكِ مُلُوكًا بِجِيَادٍ جُرْدٍ تُقَلُّ الْحَدِيدَا
 تُسْعِرُ الْحَرْبَ بِالَّذِي يَحْلِفُ النَّا سُبُّهُ قَوْمُكُمْ وَنَذَكِّي الْوَقُودَا
 أَوْ تَرُدُّوْا لَنَا الْإِتَاوَةَ وَالْقِي ءَ وَلَا نَجْعَلُ الْحُرُوبَ وَعِيدَا
 إِنْ تَلْمِئِي عَجَائِزًا مِنْ نَزَارٍ فَأَرَانِي فِيمَا فَعَلْتِ مُجِيدَا .

و يقول في موضع آخر مفتخرًا بقتل الملوك :

فَأَرَدِينَا الْمُلُوكَ بِكُلِّ عَضْبٍ وَطَارَ هَزِيمُهُمْ حَذَرَ اللَّحَاقِ
 فَكَمْ مَلِكٍ أَذَقْنَاهُ الْمَنَايَا وَآخَرَ قَدْ جَلَبْنَا فِي الْوِثَاقِ

و هذا أخوه المهلهل يقول :

لَمْ تَرَ النَّاسَ مِثْلَنَا يَوْمَ سِرْنَا نَسَلْبُ الْمُلُوكَ غُدُوَّةً وَرَوَاحَا
 وَضَرَبْنَا بِمُرْهَفَاتِ عِتَاقٍ تَتْرُكُ الْهَدْمَ فَوْقَهُنَّ صِيَاحَا

و يقول في موضع آخر :

لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَنَا يَوْمَ سِرْنَا نَسَلْبُ الْمُلُوكَ بِالرِّمَاحِ الطِّوَالِ

و يقول منفساً غله و حقهده على نظام الملك مُظهِرًا حقيقة شعوره تجاهها :

غَدَاةٌ شَفِيَتْ نَفْسَ مَنْ ذُلَّ حَمِيرٌ وَأَوْرَثَتْهَا ذُلًّا بِصِدْقِ طِعَانِي .

ثم يعود مناقضاً نفسه مفتخراً بالملك و الرياسة فيقول :

هُمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاؤُ الْمُلُوكِ لَهُمْ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ فِي اللَّأْوَاءِ وَالنِّعَمِ

و عمرو بن كلثوم يعلن تمرده على نظام الملك و يلقي قصيدة حول قتله الملك عمرو بن هند لسبب تافه بسيط فيقول في ذلك :

إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا أَبِينَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِيْنَا
وَأَيَّامٌ لَنَا غُرٌّ طِوَالٍ عَصَيْنَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا

و نحن واثقون من أنه لو تحصل على نظام الملك لما قصر في التمتع به و سوء استخدامه كزميله و أخو جده كليب .

و هذا الشاعر عنتر بن شداد يفتخر بقتله للملك و ضرب قرنه بالسيف فيقول مزهواً في ذلك ..

وَسَائِلِي السِّيفَ عَنِّي هَلْ ضَرَبْتُ بِهِ يَوْمَ الْكَرِيهَةِ إِلَّا هَامَةَ الْمَلِكِ

و كذا الخرنق بن بدر لا يخفي كرهه للملوك و نظام الملك فيقول داعياً عليها بالهلاك :

أَلَا هَلَكَ الْمُلُوكُ وَعَبْدُ عَمْرٍو وَخَلَّتِ الْعِرَاقُ لِمَنْ بَغَاها

و هنا يبرز سؤال تقود الإجابة عنه ، متناقضة مفهوم الملك الثنائية إلى مزيد من الإيضاح و الإبانة .. هل أولئك و غيرهم الذين ادعوا و تفاخروا في الآيات السابقة بقتل الملوك و عبّروا عن تنفيسهم لرغائبهم المكبوتة تجاه ذلك ، هل هم فعلاً قد قاموا بقتل الملوك حقاً؟؟ و هل الذين قتلوهم كانوا ملوك حقيقيين تنطبق عليهم الشروط التوصيفية لمصطلح و مفهوم الملك؟؟ الجواب .. لا .. هم تراءى لهم أنهم قد قتلوا ملوكاً ، أو هم ربما يعرفون أنهم لم يقتلوا ملوكاً بل أشباه لهم و خيالات ، لكنهم آثروا أن يضيفوا عليهم حجماً أكبر من حجمهم ليرفعوا هم أنفسهم من مكانتهم و يزدوا من سوية الفخر لديهم سجعاً و نثراً و شعراً . و بذات الوقت يفرغوا الكبت الموجود لديهم . فالملوك الحقيقيون هم كسرى و قيصر و النجاشي و مقوقس و غيرهم ، أصحاب السيادة و الرياسة و الجيوش و الأراضي الشاسعة ، و ناظموا القوانين و الشرائع الإدارية التنظيمية الذين لا يمكن للناس الدخول عليهم زرافات بل وحداناً فرادى و بعد تفتيش و تمحيص دقيقين و موافقة قد تستغرق أسابيع و ربما شهور . فالقتولين في حقيقتهم ليسوا ملوكاً بل أناساً توهّموا الملك و نسبوه لأنفسهم زوراً و دعياً و سفاهة ما بعدها سفاهة ، وهم في أحسن أحوالهم كانوا صنيعة الملوك الحقيقيين المذكورون آنفاً و عمالاً لهم . فمن أين لكليب وائل أن يدعي الملك؟؟!! كذا الأمر امرؤ القيس و والده حجر الكندي؟؟!! و هنا مربط الفرس في التناقض ، فهؤلاء كالنعمان بن المنذر ، كانوا من جهة ، يتوهّمون الملك بسبب احتكاكهم مع الملوك الأصليين و تعاطيهم معهم و خضوعهم لهم ، و في آن معاً كانوا أعراباً يتعاطون القبلية و منصرفون بكليتهم إليها و يتصرفون على أساسها ، فالواحد من هؤلاء يريد أن يكون ملكاً يطبق قوانين و نظم الملك و السياسة و الرياسة ، و رئيس قبيلة يريد أن يطبق العادات و الأعراف القبلية ، فأصبح كالغراب الذي يريد أن يقلد مشي الطاووس ، فلا هو أفلح في ذلك ، و لا هو

تذكر مشيه الأول فما استطاع العودة إليه . و بالنتيجة كان مصير الواحد من هؤلاء قتيلاً مجندلاً ، مضرجاً بالدماء . و لم يصح الملك مع واحد منهم ، فقبائلهم رفضتهم في سريرتها و أحياناً علانيتها حسب الموقف ، و مخدوميهم لم يسمحوا لهم تجاوز حدود الخدمة معهم كما فعل كسرى أنوشروان مع النعمان بن المنذر لما استدعاه إليه و رماه تحت أقدام الفيلة ، عندما غضب عليه لأن حميته القبلية منعتة أن يرسل إليه بنت من بناته أو بنات العرب ، لتتضح لنا الآن صورة و شكل المتناقضة الثنائية لمفهوم الملك لدى عرب الجاهلية .

هذا الأمر انسحب أيضاً على مفاهيم أخرى كالتجارة و الصناعة و الزراعة و التملك العقاري ، و التي كانت على يبدو تشكل هي الأخرى بدورها تناقضات تعتمل في داخل العربي الذي كانت يذمها و ينتقص من قيمة من يقوم بها و لكن على ما يبدو فإنها كانت تعتمل في عقله هي الأخرى بدورها ، فما أن استحوذ على نظام الملك و الدولة في عهد الأمويين ، حتى انصرف بكليته و مهجه إليها ، يمارسها و يقوم بأمرها من تنمية و تطوير فلم يكذب يأتي العصر العباسي ، حتى أضحى هذا العربي الذي كان يأنف من الصنعة و البيعة و غشي الزراعة و يعاير من يأتيها ، أضحى صاحب حضارة عريقة تقوم على هذا الأتاف الثلاث .. هذا الأمي الذي كان كما وصفه حسان بن ثابت قائلاً :

و كنتم قديماً ما لكم غير عجمية كلام و كنتم كالبهائم في القفر

أصبح الآن عالم بالرياضيات و الكيمياء و علوم الطب و الصناعة و الفلسفة ، يتفاعل مع حضارات اليونان و فارس و روما و يقدم نتاجاً حضارياً للعالم أجمع . و قد تفجرت كوامنه المكبوتة في صدره المعتملة في عقله عندما كان طريد الصحراء شريدها .

العربي إنسان حكمته بيئته فمنعته من تطبيق ما يعتلج في صدره من مكونات و بواعث و مهارات تطبيقية خفية و إظهارها للعلن ، فتركت فيه كبتاً رهيباً تجاه ما يريده و لا يمكنه الحصول عليه .. إنسان حكمته صحراؤه و سلبت منه مزايا غيره و ربما بعض مزاياه ، لكنها أعطته أهم ميزتين يحصل عليهما إنسان منذ فجر التاريخ .. ميزتان لم تتوافران لبقية الشعوب الأخرى المجاورة له ، هاتان الميزتان هما .. الأمان و الحرية . ميزتان لم يكن ليحلم بهما المصري أو العراقي القديم و غيرهما من فرس و روم .. الذين عاشوا في مجتمعاتهم خاضعين لذل أكثر من عبودية ، ظاهرة كانت أم مقنّعة . فمن كان ليجرؤ على التمرد على السلطة القائمة في هذه المناطق أو رفض دفع الضرائب و الإتاوات للسلطة المركزية الحاكمة في روما أو فارس أو بيزنطة (القسطنطينية) أو يحاول الانفصال و لو بمجرد كيان اجتماعي أو ديني خاص دونما إذن مسبق من السلطة المركزية؟؟ فأية محاولة من هذا القبيل ، كان مصيرها القمع و التدمير دونما رحمة أو هوادة ، و هذا ليس من قبيل الوقت الراهن لفترة الجاهلية فقط ، بل منذ بدء تكوّن السلطات المركزية العملاقة الضخمة عبر التاريخ أو الممالك القوية بحيث شكل ذلك معادلة سياسية جيوسياسية ديموغرافية كقانون ثابت . و أمثلة ذلك كثيرة نسوق بعض منها على سبيل المثال لا الحصر ، كمملكة تدمر ممثلة بملكيتها زنوبيا التي حاولت الاستقلال عن السلطة الرومانية . و كذا مصر كليوباترا ، أو اليهود في فلسطين عندما أنشأوا مملكة إسرائيل التي كانت قوية في أول عهدها، و لما ضعفت و قررت الانفصال عن التبعية لمصر و بابل ، تعرضت للغزو و التفكك . و مذ ذاك الحين ، خضع اليهود ذوو العقيدة التوحيدية ، على مضض لتبعية السلطات المركزية الوثنية ، و كلما حاولوا التفكير بإعادة كيانهم الديني ، تعرضوا للاضطهاد و التنكيل ، وفي المرة الأخير التي رفعوا فيها منسوب تمردهم و ثورتهم على السلطة المركزية في روما ، تعرضوا للمذابح و تم تدمير هيكلهم و من ثم تفرقوا أو فرّقوا في الأصقاع .

هذا القانون السياسي أو المعادلة العرف القائمة ، وُجد لها استثناء جغرافي وحيد و هو شبه جزيرة العرب التي كانت مكاناً جغرافياً منيعاً حصيناً بصحرائها القاتلة و المهلكة لأي أجنبي دخيل ، و ما من أحد تجرأ على تجريد حملة عسكرية لتأديب عصاة القبائل المتوغلة في مجاهل الصحراء أو تعقب الفارين إليها من بطش السلطة المركزية لدولة من هؤلاء . فالاسكندر المقدوني بفتوحاته الهائلة التي طالت معظم بقاع الأرض الحضرية المسكونة و مجاهلها ، تحاشى هؤلاء القوم و تركهم آمنين في صحرائهم مطمئنين . كذلك فعل من سبقه من البابليين و المصريين ، و من تبعه من رومان و فرس . و معظم الحملات العسكرية التي كانت تُجرّد صوب الصحراء العربية لسبب من الأسباب ، كان مصيرها الهلاك و الفناء . حتى إذا تصفحنا التاريخ المدون و المخطوطات الدينية و الأثرية ، لا نجد عظيم الذكر للعرب فيها فالتوراة على سبيل المثال ورد فيها إشارة أو إشارتين للعرب بشكل مقتضب بسيط . و نادراً ما تطرق المؤرخون في الفترات السابقة أو الموازية لفترة الجاهلية ، لأحداثها و مجتمعها . و أول ما تم تدوينه عن التاريخ العربي ، كان في أواسط الحقبة الإسلامية العربية اللاحقة ، حيث دون القرطبي تاريخه و تبعه بعد ذلك من تبعه .

لقد حولت ميزة الأمان هذه ، العربي أن يتمتع بمقدار وافر من الحرية حيث يمكنه أن يفعل ما يشاء و يقول ما يشاء دونما حسيب أو رقيب . فهو في تبعيته لصحرائه كان أقل قدرة على الإبداع و التجديد ، لكنه أضحي أكثر أمناً و سلامة و بالتالي ما لم يستطع فعله بيده ، أجراه قولاً على لسانه ، فأطلق العنان لسجيته و انبرى يستشعر على هواه فخوراً محتالاً ، يُزبد و يُرعد و يهدد و يتوعد بالويل و الثبور و عظام الأمور .. يصعد بنفسه و فكره إلى أعالي السماء لينحدر منها بلحظة واحدة إلى هشيم الأرض ، كما ينقض الصقر من عليائه ، على طريده . فإذا مدح و افتخر ، بالغ في مدحه و فخره حتى ليظن أنه قد ملك الدنيا و ما فيها . و إذا ذكر قدرته على الطعن و القنا في ساحات الوغى ،

تحول إلى كائن خرافي أسطوري و بالغ مسرفاً في تعداد مزاياه و قدراته الخارقة حتى يندى الجبين . يدلل على ذلك الشاعر الجاهلي المنخل اليشكري حين يصف سكره و صحوه عند تعاطيه الخمر فيقول :

فَإِذَا انْتَشَيْتُ فَإِنِّي رَبُّ الْخَوْرَتِقِ وَالسَّيْرِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَإِنِّي رَبُّ الشَّوِيهَةِ وَالْبَعْرِ

و قد تكون هذه النقطة بالذات هي التي أعطته دفعة من الكبرياء و العنفوان و الأنفة و جعلته لا ينام على إهانة أو ضيم يلحقا به . و إذا ما تعرض لهما و لم يستطع ردهما ، اعتملا في صدره غيظاً و كتباً حتى ينال مراده و يشفي غليلته بردهما ، و هو ما تجلى بالثار لديه الذي قد تمضي به السنون مدة طويلة حتى يناله .

و بدورها ، فإن هذه الكبرياء و العزة قد جعلته على مر الزمن ، سريع الغضب و الانفعال ، يثور لأنفه الأسباب و ربما يقتل و يفتعل الكوارث و الحروب المدمرة المخزية التي لا تصيب غيره مقتلاً . و لسنا بحاجة لإعادة أمثلة حروب البسوس و داحس و الغبراء و مقتل الملك (مجازاً) عمرو بن هند و غير ذلك من أحداث و وقائع كان مبتعثها ما ذُكرَ آنفاً .

إذن .. فالعربي الذي عرف أنه بصحرائه ، آمن من بطش الباطشين و جيروت الجبارين ، لا تمتد إليه يد مهما طالت ، إلا فيما ندر ، لا بل أنه لا أحد يكثرث إليه و هو ليس من ضمن أجندة الدول و الإمبراطوريات العظمى و الممالك القوية ، فإنه استشعر طعم الحرية ، و لما استشعر طعم الحرية ، استشعر طعم العزة و الكبرياء ، و لما استشعر العزة و الكبرياء استشعر طعم الغرور ، و لما استشعر طعم الغرور استشعر طعم القتال مع بني جلدته ، و لما استشعر طعم القتال مع بني جلدته ، استشعر الشعر ذاته ، فجعل كل فكره و ذهنيته و أعماله

و تصرفاته ، مَصَاغًا مسكوبًا في شعره الجاهلي الذي أبان و أفصح عن هذه الفترة ، و لولاه - أي الشعر - لبقيت فترة الجاهلية ، جهلاً مجهولاً منسياً إلى يومنا هذا .

و عزوا لما سبق ، فإننا لا نلق اللوم كله على العربي الذي عاش فترة الجاهلية ، و لا نكلفه مؤونة فعّاله و صنائعه المذمومة كلها ، فله فعال و صنائع خلق و أدب و مكرمة بزّ بها غيره و فاقه فيها سمعة و علواً ، كونه ما كان مجبراً عليها و لا على غشيانها و إتيانها ، فوطأها بشنينة خفية من مكامنه . فهو في مجاهل صحرائه لا يجيره أحد على فعل أو صنيع ، و ليس هو مجبر على مدهانة أو رياء ، فقام بذلك و ربما يكون قد عرف أن التاريخ لا يحصي عليه فعل من فعّاله و لا يثوبه بمدح أو قديح .. هو تماماً كالطير الباشق الحر يخلق في السماء لا يمنعه مانع و لا يردعه وازع . و إنني كلما طرأت على مسامعي كلمة العربي في الجاهلية ، تخيلته على الفور شخصاً أسمر ملتجياً ، راكباً فرسه ، واقفاً به فوق أعلى كثيب رملي ، ملتفحاً وجهه و جسده بعباءة خشنة متوقياً حر الشمس ، رافعاً رأسه ، ينظر بمتعة إلى الصحراء الممتدة أمامه و قد وضع كفه فوق عينيه . من كل ما سبق ، يقودنا الاستنتاج عود على بدء ، إلى أن الفكر العربي الجاهلي انحصر مداه في شبه الجزيرة العربية و تأثر بهذه البيئة ، أياً كان نوعه ، سواء أكان دينياً أم اجتماعياً أم حربياً . و سواء أكان على مستوى الجماعة التي شكلت هنا قبيلة واحدة أو قبائل عدة ، أو على مستوى الفرد الذي هو إما منتمياً إلى قبيلة معينة أو متصعلكاً منفرداً بذاته .. ذلك كله خرج من رحم الصحراء ، و تبعاً لذلك كان فكراً ضئيل السوية قليل الشخصوص أفقياً ، قصير النجوم¹ عمودياً ، لمستوى العلاقات البشرية و العلوم الإنسانية . فلا أثر لفلسفة أو علوم تطبيقية أو علوم اجتماعية أو قوانين وضعية أو مدارس فكرية

¹ نجم بالشيء أي دخل به و انتشر للأعلى و ينسب أيضاً إلى نجمة و هي عتبة اشتهرت عند العرب بانتشارها الكثيف .

معينة أو حتى أماكن تعليمية يمكن للمرء أن يقصدها و ينهل منها ما شاء من علوم . و إذا دققنا قليلاً بتمعن ، في التراث و الفكر العربي الجاهلي ، لوجدنا أن المفردات الاصطلاحية و التعريفية لمقومات و عناصر العلم و التعلم و أدواتها الملحقة بها ، هي قليلة نادرة الوجود و تكاد تكون شبه معدومة ، كالعلم أو القلم أو الدفتر أو الدراسة أو القراءة أو الكتابة .. الخ و ما شابهها من مفردات . و الخلاصة المنطقية المستوعب لكل ما ذكر من تحليل و استقراء للفكر العربي الجاهلي ، هو أنه كان فكراً بدائياً بسيطاً انتفت منه التعقيدات الحضارية الإنسانية ، و السمات العلمية . و في هذا المفصل الفكري على وجه الخصوص، يقع الكثير من اللغظ و المغالطة لدى البعض الذين تناولوا فترة الجاهلية فأعروا فيها العرة و ركنوا أسبابها و خيّلوا إلى العربي ذاته ، الذي عاشها . و رأينا أنه إن وقعت هذه الخلة ، فإنها تقع على المكان لا على الأشخاص .

و للوهلة الأولى ، يتبدى للناظر المستقرئ أن البدائية سمة لزبت العربي ، لكن الصواب الأصح أن يقال أنها وقعت على المكان و البيئة التي فرضت على الإنسان العربي أن يكون كذلك ، و التي كما أجدت عليه الكلا و الزرع و الماء و الاستقرار ، كذا الأمر أجدت عليه إمكانياته و سماته العقلية و الفكرية و منعتها من الظهور . فالبدائية هي صفة اختصت بالمكان لا بالأشخاص ، و هو أمر أشكل على بعض النظار ممن أرحوا لهذه الفترة و كتبوا عنها و ما استقاموا عيائها جيداً . و إننا لنعتمد أن سمات الغضب و الانفعال و التمرد ، و عيار بعض سمات الحضرة و خصالمهم و التمسك ببعض خصال مكارم الأخلاق ، ما هو في واقع الأمر إلا تمرد على البيئة الجغرافية و محاولة الفكك منها و الخلاص من أسرها ، وهو أمر لم يتييسر للعربي إلا عندما جاء الإسلام الذي كان في وجه من وجوهه بالنسبة للعربي ، عامل أساس مساعد على الانقضاض على حكم البيئة الجغرافية و الخلاص من ربقتها و إخضاع الحضارات الأخرى المجاورة

لمعادلة التمازج و التلاقح مع البيئة العربية ، بواسطة نظام الدولة الإمبراطورية و
كيانها الذي أنشأه الأمويون .

صحيح أن الفكر العربي الجاهلي كان فكراً بدائياً بالنسبة للبيئة الصحراوية
البدائية ، لكنه كان فكراً صادقاً عفويّاً خالياً من أية مدهانة أو تملق أو تزوير .

الفكر العربي في صدر الإسلام وبنو العباس

قلنا أن العرب قوم حكمتهم بيئتهم في الجاهلية ، فما استطاعوا منها فكاكاً و لا مهرباً ، و أورثتهم الحالة هذه ، تناقضاً فكرياً خفياً دفيناً فيما بينهم و بين بقية الشعوب الأخرى المجاورة لهم و تسلط الصحراء و عواملها على عرب الجاهلية . هو حالة جغرافية مناخية اجتماعية فكرية ثابتة على مر العصور ما تبدلت و لا تغيرت . و لم يكن بالإمكان تغييرها عبر عامل داخلي مهما يكن هذا العامل أو الظرف .

و من المعلوم أن الإنسان منذ ظهوره و وجوده على الأرض ، كان خاضعاً بشكل كبير إلى الطبيعة و البيئة الجغرافية ، و التي بنظرنا ، هي من يحدد في النهاية و ضمن الإطار العام ، سلوك الإنسان الخاضع لها ، سواء أكان دينياً أم اجتماعياً أم حتى فكرياً ، و تحدد نظرتة و طريقة تفكيره و تقديره للأشياء و الحوادث . و قد أدرك علماء الآثار و التاريخ و الأنتروبولوجية ، هذه النقطة تماماً ، و بعضهم قد عزى الاختلاف فيما بين حضارة بلاد الرافدين و حضارة مصر القديمة لجهة العقائد الدينية و الحياة الاجتماعية ، إلى اختلاف البيئة الجغرافية و عوامل الطبيعة ، وهو موضوع كنا قد تحدثنا عنه في كتاب لنا سابق بعنوان (الحكمة بين الإله و السلطان) و لا يمكن و الحالة هذه ، تغيير سمات مجتمع ما و أنظمتة الفكرية أو الدينية ، محكوم بعوامله البيئية الجغرافية الطبيعية و حتى المناخية ، من ضمن منظومة عوامل داخلية ذاتية ، فهذا من الصعب المستصعب . و طبقاً لهذه المعادلة القانون ، فإنه لا يمكن إحداث تغيير جوهري

في منظومة مجتمع ما ، يخضع لهذه المعادلة إلا عن طريق عامل خارجي ، إما أن يكون عادي ثابت طويل المدى ، أو قوي آني .

إن مثال الحالة الأولى يمكن ضربه بالديانة المسيحية و انتشارها في أوروبا و الشرق الأدنى و بعض آسيا ، و صراعها المير مع روما الذي دام عقوداً ثلاث حتى تم التمازج بينها و بين السلطة في روما و أصبحت الديانة الرئيسة في كل الأراضي التابعة لروما و بيزنطة أو الواقعة تحت سيطرتهم ، ما أحدث تحولاً جوهرياً تنظيمياً إدارياً و فكرياً ، اجتماعياً و دينياً .

أما الحالة الثانية فقد مثلها الإسلام موضوع فصلنا هذا ، فكان هو العامل الخارجي الذي قلب الموازين الطبيعية و الديموغرافية ، رأساً على عقب ، و هشم جلود المعادلة القائمة على حكم الطبيعة و البيئة و التي رزحت نيراً ثقيلاً فوق عنق العربي أثقل كاهله لقرون . و لسنا بهذا المبحث هنا ، في وارد تفقّط الفقه و الدين الإسلامي و سرد تاريخهما ، فما هذا بمنهج للكتاب و لا متن ، و لكن دوننا مبحث آخر و هو الفكر العربي الناتج من تمازج الأثرين الإسلامي و العربي ، و قصدنا انتزاعه من ثنايا السرد التاريخي ، و تأويله غاية الشرح و التحليل . و في مبحثنا هذا ، قسمنا الفترة الإسلامية إلى أقسام ثلاث ..

— الفترة النبوية و تبدأ من ولادة الرسول (ص) و تنتهي بوفاة .
— فترة الخلفاء الراشدين التي تبدأ بخلافة أبو بكر الصديق و تنتهي بمقتل الإمام علي بن أبي طالب .

— فترة الدولة التي تبدأ من حكم بني أمية و ما بعدهم .

الفترة النبوية :

ولد الرسول العربي¹ (ص) محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ، في مكة سنة / ٥٧٠ م . و قد توفي والده في مرض له ، عاجله و ما أمهله ، أثناء حمل أمه به . و بعد ولادته بفترة توفيت والدته آمنة بنت وهب و كان له من العمر ست سنين ، فانتقلت رعايته و هو بعد صبياً إلى جده عبد المطلب و قد لبث في كنفه سنتين توفي بعدهما عبد المطلب ، فكفله عمه أبو طالب و هو ابن ثمان ، و بقي في كنف عمه أبو طالب حتى بلغ الخامسة و العشرين حين تزوج من السيدة خديجة بنت خويلد . و قد كان قبل ذلك يسافر مع عمه في التجارة إلى الشام . و صودف أن كانت إحداها لخديجة حيث أبلى بلاءً حسناً و رزق بخير كثير استلم على إثره تجارة خديجة فكان مثال الصدق و الأمانة في التعاطي بأموال الناس و أرزاقهم و سبباً في زيادة أرباحهم و هو ما أدى إلى إعجاب السيدة خديجة بخصاله فعرضت عليه الزواج منها و تزوجا . و قد كانت هذه الواقعة سبباً في اتساع حاله و خروجه من ضيق ذات اليد و استقراره العائلي و ربما سبباً في انصرافه إلى التأمل حيث آثر بعد ذلك الاعتزال عن الناس ، فكان يذهب إلى جبل قريب من مكة و يتموضع في كهف صغير يسمى (غار حراء) فينفرد فيه متأملاً في الكون و الناس .

و قد دأب على هذه العادة إلى أن جاء يوم كان عمره فيه أربعون عاماً ، أتاه الوحي من السماء بواسطة جبريل (ع) الذي قال له : اقرأ . فأصابه فزع شديد من جراء ذلك ، فأعاد جبريل (ع) عليه الطلب قائلاً له مرة أخرى : اقرأ . و لما هدأ روع الرسول (ص) قليلاً ، سأل جبريل : ما أنا بقارئ؟؟ (أي ماذا اقرأ) فكرر جبريل (ع) عليك الطلب أن اقرأ . و عندما سأله الرسول في الثالثة : ما أنا بقارئ؟؟ أجابه جبريل (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق

¹ المصادر المعتمدة في سيرة الرسول (ص) هي السيرة النبوية لابن إسحاق – السيرة النبوية لابن هشام .

* اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (العلق ١-٥) .
 فخرج بعدها هائماً إلى بيته ، خائفاً مرتجفاً . و عندما وصل الدار ، أخبر زوجته خديجة بما حصل معه ، فلم تنكر ذلك عليه و فرعت به إلى قريبها و ابن عمها أو عمها (ورقة بن نوفل) و كان علي شيء من اليهودية و النصرانية . فقالت له خديجة : أي عم ، اسمع من ابن أخيك (أي الرسول) . فقال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره الرسول خبر ما رأى فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزله الله تبارك و تعالی على موسى ، ياليتني فيها جذع ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال الرسول : أو مخرجي هم ؟؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإني لئن أدركت يومك هذا ، لأنصرك نصراً يعلمه الله .

و تذكر السير و الأخبار أنه كان هنالك أنباء عن قرب نبوة الرسول (ص) نتجدها لاحقاً . و بعد ذلك ، أخذ الرسول (ص) يدعو المقربين منه . ثم ما لبث أن جاءه الأمر بأن يدعو الناس جهرة إلى الله ، ففعل ذلك و لكن قريشاً أنكرته و رفضت دعوته و سخر مآلها منه و رموه تارة بالسحر و تارة بالجنون ، و تارة أنكروا أن ينزل الوحي على شخص مثله و اعتبروا أنفسهم أولى بها بجدة . و ما لبثوا بعد ذلك أن اضطهدوه و عذبوه و ضيقوا عليه ، فلجأ إلى الطائف علّه يجد قبولاً من أهلها ، لكنهم كانوا أسوأ من قريش نفسها ، فضربوه و آذوه و أغروا به صبيانهم و سفهاءهم يتعرضون بالأذية له ، فعاد من فوره إلى مكة . و لما همت به قريش أن تقتله ، هاجر منها إلى يثرب التي أصبحت بعد قدومه إليها تسمى (المدينة المنورة) و هنالك لقي الدعم و المساندة من أهلها و بالأخص قبيلتي الأوس و الخزرج ، و سمي هؤلاء بالأنصار كونهم ناصروا الرسول (ص) . أما الذين هاجروا معه رفقة أو تزامناً مع هجرته .. ما قبلها و ما بعدها ، فسموا بالمهاجرين .

لكن قريشاً ساءها أن ينجو رسول الله منها ، فأرسلت خلفه بعثاً لها يتعقبونه ليقتلوه فاحتفى بأحد شعاب مكة في كهف يسمى (غار ثور) . و كانت قريشاً قبل ذلك قد تعقبت عدة من أصحابه فروا إلى الحبشة هرباً من بطشها ، تطالب باستعادتهم لقتلهم ، لكن عظيم الحبشة (النجاشي) لم يسلمهم . كما كانت قريش قبل ذلك قد قاطعت أهله و عزوته ، آل هاشم ، فاتفقت بعضها بعضاً أن لا يأخذوا منهم شيئاً و لا يعطوهم مثله و يمنعوا عنهم الرزق و كتبوا بذلك صحيفة علّقوها بالكعبة ، و ضربوا عليهم حصاراً دام سنوات ثلاث حتى ثارت حمية الجاهلية القبلية ضد الظلم و الضيم من بعض القبائل التي لم تحمل مثل هذا الجور ، فجاءت بعض كبرائها و نقضوا الحلف و الحصار علناً و هموا بتمزيق الصحيفة التي ألفوها قد اهترأت .

عندما وصل الرسول (ص) المدينة ، كان جل تركيزه على الأمر الاجتماعي الديني ، فأخى بين المهاجرين و الأنصار و عمل على نشر العقيدة الإسلامية بيضاء نقية ، تدريجياً بالتواتر و التوافق مع نزول الوحي بأي الذكر الحكيم . و مع ذلك لم تدعه قريش و شأنه ، فعمدت إلى مصادرة أموال و أملاك المسلمين في مكة و قطع الرزق عمن بقي من أهلهم فيها . فاضطر المسلمون لمقابلة هؤلاء بالمثل ليتحصلوا على بعض حقوقهم المسلوبة منهم ظلماً و عدواناً ، فقاموا بقطع السبل على بعض قوافل قريش . و كان هذا إيذاناً ببدء المعارك الهجومية ضد المسلمين و التي اتّخذ لها مغالطة تسمية (الغزوات) و كانت أولها معركة بدر ثم أحد ثم الخندق (الأحزاب) ، اختتمت بعقد صلح بين الطرفين عرف بصلح الحديبية الذي تمخضت أهم بنوده عن هدنة بين الفريقين لمدة زمنية لا يتعدى فيها أحد منهما على الآخر و لا على أتباعه و مناصريه من القبائل الأخرى .

و بالرغم من إجحاف بعض بنود هذا الصلح بحق المسلمين ، إلا أن قريشاً سرعان ما نقضت العهد ، فقامت بعض قبائل من أتباعها من بني بكر بغزو

بعض قبائل من حلفاء الرسول (ص) من بني خزاعة و أعمالوا فيهم مقتلة ، و قيل أن السبب هو ثأر قديم . و هنا جهز الرسول جيشاً و سار به إلى مكة ففتحها و آمن أهلها ثم أزال الأصنام التي كانت على الكعبة و فيها و جوارها . و بعدها بقي متمركزاً بالمدينة لسنتين أخريين ، و ما أن اكتمل القرآن فيهما نزولاً حتى توفي الرسول (ص) مقبوضاً إلى ربه و بذلك انتهت الفترة النبوية . لتبدأ بعدها فترة الخلفاء الراشدين .

قراءة فكرية للفترة النبوية :

ما يمكن استخلاصه بعيداً عن نطاق الأمر الديني البحت ، هو أن الإسلام و حصراً في مرحلة الدعوة المحمدية ، قد شكّل بالنسبة للفرد العربي ، أنموذجين فكريين في آن معاً .. أنموذج شكّل النقيض الفكري ، و أنموذج مثل التناقض الفكري .

في الحالة الأولى .. شكّل الإسلام نقيضاً فكرياً ، كونه قد جاء بتعاليم و شرائع، هي في وجه من وجوهها ، أفكار و مفاهيم . فالقرآن الكريم بنسبة ضئيلة من مضمونه لا تتجاوز الخمسة بالمائة ، كان عبارة عن أحكام و طقوس تشريعية بحتة ، كأحكام الصلاة و الصيام و الحج و الزكاة . أما بقية مضمونه ، فقد توزع إلى قصص تاريخية تناولت أخبار الأقسام السلف ، للاعتبار و الموعدة و تصحيح بعض الالتباس .. و البعض الآخر تناول قضية خلق الكون و الكائنات و قدرة الله .. و بعضها الآخر اختص بالتنبيه و الوعظ لأمر اجتماعية أخلاقية و إلى نواهٍ و محرمات إما جزئية مختصة أو كلية عامة مثلت حالات فكرية بحد ذاتها .. كذا الأمر موجبات و فرائض كفاية إما جزئية مختصة أو كلية شمولية ، مثلت في شكل من أشكالها حالات فكرية . هذه الموجبات و النواهي و المحرمات ، قد شكلت بذاتها نقيضاً فكرياً قوياً لمعتقدات الجاهلية لم يكن من

السهولة. يمكن القبول بها . و أول هذه الأشياء النقيض ، كانت وحدانية الله أو التوحيد أو .معنى آخر ، صفات الله (تعالى) الواردة في القرآن الكريم و قدرته الكاملة المطلقة على فعل أي شيء و العلم بأي شيء و تقدير أي شيء ، لا ينازعه أحد في ذلك ..

{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام : ١٠٣] .

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران : ٢] .

{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ

مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران : ٢٦] .

{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام : ١٨] .

{قُلِ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا

تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}

[الأنعام : ١٦٤] .

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [آل عمران : ١٠٩] .

فكانت السبب الأول و الأساس الذي اصطدمت فيه قريش مع الرسول . لقد مثلت الدعوة إلى إله واحد خفي ، لا تدركه الأبصار و لا العقول ، خالق للكون كله و يتحكم بمقاديره و شؤونه ، أمراً لا يمكن القبول به كحالة منطقية بالنسبة للفكر الجاهلي {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ} [ص : ٥] و الذي كان على النقيض من ذلك تماماً و الذي كان معتاداً على آلهة متعددة تُرى رأي العين ، يصنعها هو بنفسه أو بأحسن الأحوال يفترضها افتراضاً و خيالاً أو يقتبسها من الشعوب المجاورة .. آلهة تتماشى معه في كل أفعاله و تصرفاته أو بعضها ، و تختتم عليها بالموافقة و القبول و لا تتدخل في حياته و .معنى أصح ، لا تتدخل فيما لا يعنيهها . كما أنه بأحسن صورة ، كان معتاداً على آلهة وسيطة تتوسط بينه و بين الإله الكبير أو الأعلى الذي هو في السماء أو

في مكان آخر . كما اعتاد أيضاً أن يأتي الدين و المعتقد و التشريع من قبل الحكام و الملوك أو أشخاص ليسوا على مستوى سويته البشرية الطبيعية ، أو بشر لهم صفات خارقة .

لكنه فوجئ بإله جديد لا يعرف عنه شيئاً و لا يريد هو (الإله) أن يعرف عن نفسه ، و يحصر الإلوهية في شخصه و ذاته فقط ، و لا يقبل أن يشاركه أحد في هذه الإلوهية .. كائن من كان ، أو أن يكون وسيطاً بينه و بين خلقه . إله حصر في نفسه كل صلاحيات الأمور و القدرة و التحكم بالكون ، ليس ذلك فقط ، بل عبر عن نفسه بواسطة شخص بشري عادي لم يلحظ عليه أحد من رهطه شيئاً مميزاً غير مألوف لجهة الصفات الخلقية و الجسمانية . و قد أنكر القرآن على المشركين استغرابهم من هذه القضية

{ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ } [يونس : ٢] .
{ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مَطْمَئِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاتٌ رُسُولاً } [الإسراء : ٩٥] .

{ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ ... } [الأنعام : ٩١] .

{ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [إبراهيم : ١٠] .
و أيضاً و فوق كل ذلك ، سفه آلمته و اعتبرها لاغية ملغية و باطل لا أساس له من الصحة .

{ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَأَتَّبِعَ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } [الأنعام : ٥٦] .
{ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } [يونس : ٣٢] .

كما أن القرآن قد ذم شيئاً من أمور الجاهلية و انتقد بعض من خصالها بصورة التموضع على النقيض منها و من ذلك ..

{أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠] .
{إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الفتح: ٢٦] .

أيضاً هنالك سمة أخرى اشتملت على نقيض فكري إضافي و هي أن الإسلام كدين ، قد جاء كصيغة و رسالة عالمية ، و لم يأت كدين محلي كما كان يرجى منه و يُعتقد و كما كان سائداً في معظم الأديان الأخرى و على وجه الخصوص ، الوثنية منها .

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ:

٢٨]

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (الحجرات: ١٣) .
{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } (الانبيا: ١٠٧) .

و هنا .. فإن الإسلام قد اشتمل على نقيضين في آن معاً بالنسبة للإنسان العربي آنذاك و هما النقيض الديني الفكري المذكور آنفاً ، و النقيض البيئي الجغرافي ، فهو قد تخطى حدود البيئة الجغرافية التي اعتاد عليها العربي و الذي لم يكن معتاداً على التعامل فكرياً خارج إطارها ، و فشل تاريخياً (أي النقيض) كما ذكرنا ، في خلق التمازج الفكري المطلوب ما بين البيئة الجغرافية و ما جاورها من مناطق جغرافية متباينة معها .

هذا الوضع شكّل أيضاً حالة تناقض ، فهو نقيض و تناقض . فالعربي في الجاهلية قد اعتاد على التعامل حتى و لو فكرياً ، مع ما يخصه هو نفسه و يخص بيئته و

يتفاعل معها ، فإن لم يكن كذلك ، طوعه و قوله حسب ما اختصت به بيئته الجغرافية ، فإن لم يستطع .. نبذه و هجره .

و تبقى النقطة الأخيرة ربما ، و هي أن الإسلام قد مثل في بعض حيثياته ، نقيض لبعض أفكار الديانتين اليهودية و المسيحية ، و قد نص على ذلك صراحة في بعض آياته ، و منها على سبيل المثال

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } (النساء: ١٧١) .

{ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا } (النساء: ١٧٢) .

{ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ } (المائدة: من الآية ٧٥) .

{ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ } (النساء: من الآية ١٥٧) .

{ سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (البقرة: ٢١١) .

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ اأَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } (البقرة: ٢٤٦) .

{ وَفَضَّلْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا } (الاسراء: ٤) .

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }

(النمل: ٧٦) .

هي آيات تعبر عن اختلاف جوهرى مع لب المسيحية ، تمثل في طبيعة المسيح و طبيعة الإشارة إليه و ما عُرف بالمسيحية بالإقنوم ، و حادثة الصلب أيضاً . كما مثلت تلك الآيات اختلافاً ثانوياً مفصلياً مع اليهودية حول تعامل بعض قوم موسى معه و مع بعض أنبيائهم لجهة تكذيب بعضهم و قتل بعضهم الآخر .

{ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلِّمًا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ } (المائدة: ٧٠) .

و لنا في هذا الموضوع رأياً . فهذه القضية بالذات و بالاستناد إلى الحوادث التاريخية و بعض مما جاء في التوراة ، يشوبها بعض الالتباس و الغموض . فأنبياء بني إسرائيل أو اليهود ، كانوا فئتان .. فئة ادعت النبوة زوراً و بهتاناً و لم تكن كذلك ، و فئة كانت صادقة في نبوتها أي كانوا أنبياء حقاً . و قضية النبوة تاريخياً و توراتياً هي عند اليهود ، قضية حساسة جداً ، و منطلقها هو حساسية قضية التوحيد الإلهي نفسها لدى اليهود و التي تسببت لهم على مر التاريخ ، بالكثير من المشاكل مع أصحاب الديانات الوثنية .

و طبقاً لذلك ، كان مدَّعوا النبوة يخضعون لاختبارات قاسية جداً من قبل الحاخامات اليهود ، فإذا ثبت صدقهم ، كانوا يقرونها على ذلك ، أما إذا ثبت كذبهم ، فكانوا يقتلونها . فكما ذكرنا ، فإن قضية الألوهية و النبوة ، هي قضية حساسة جداً بالنسبة لليهود و خط أحمر لا يمكن تجاوزه أو المساس به . و قد ورد في التوراة و القرآن ما يدعم هذه القضية و يثبتها ففي التوراة عندما طلب الرب من موسى أن يكلم بني إسرائيل في شأن الخروج من مصر و أن

يَتَّبِعُوهُ ، سَأَلَهُ مُوسَى عَمَّا سَيَقُولُهُ لَهُمْ إِذَا مَا اخْتَبَرُوهُ وَ سَأَلُوهُ صَدَقَ كَلَامُهُ ، فَأَعْطَاهُ الرَّبُّ إِشَارَةً لِكَيْ يَصْدُقُوهُ حَيْثُ جَاءَ .. [فَقَالَ مُوسَى لِلَّهِ هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ أَقُولُ لَهُمْ إِلَهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ فَإِذَا قَالُوا لِي مَا اسْمُهُ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ * ١٤ فَقَالَ اللَّهُ لِمُوسَى أَهْيَهُ الَّذِي أَهْيَهُ وَ قَالَ هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَهْيَهُ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ] (سفر الخروج - الإصحاح ٣) .

و نجد شبيهه لهذه القضية في القرآن حين طلب الله من موسى نفس الطلب فيطلب موسى من الله العون و المساعدة كي يتفاهم مع قومه و يقنعهم و يطلب أن يكون أخاه هارون معيناً له (كون هارون حسب التوراة كان من اللاويين و هم من شيوخ بني إسرائيل) { قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشُدِّدْ بِهِ أَزْرِي * وَاشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) } [طه : ٢٥ - ٣٢] .

أما بالنسبة للفئة الثانية و هي فئة الأنبياء الصادقين في نبوتهم و الذين كانت نبوتهم صادقة حقيقية ، فإن الإشكالية هنا بنظرنا تمثلت في مرحلة ما بعد زوال مملكة إسرائيل و سعي اليهود فيما بعد إلى استعادتها بشتى السبل و الوسائل ككيان سياسي و البحث عن الشخص المطلوب لتجسّم تلك المهمة و القيام بها ، و هي الفترة نفسها التي ربما برزت فيها فكرة (الماشيح المخلص) الذي يقود اليهود و يفجر لهم الثورة ضد الغريب ، و يعيد مجد مملكة إسرائيل . و هذه القضية بدورها تسببت لهم بالكثير من المشاكل مع الأنظمة السياسية المركزية الحاكمة إلى جوارهم كالبابليين و الرومان و الفرس و الإغريق و المصريون . هنا في هذه الحالة ، كان يخرج شخص يقول بالنبوة و يكون صادقاً في دعواه تلك ، و يقوم اليهود باختباره ضمن فحوص معينة ، و يثبت نجاحه بالامتحان ، براهين معينة ، فيصدقوه ، و لكن هنا يبرز شرط جديد محكوم بمملكة إسرائيل و هو آخر شرط كي يتم الختم على قبول نبوة النبي و تكريسه نبياً و قائداً لهم ،

و هو أن يحكمهم سياسياً و يقودهم ثائراً بهم نحو الخلاص من نير الغريب المختل المتمثل بالسلطات المركزية المذكورة آنفاً و إنشاء مملكة إسرائيل بكيانها السياسي. لكنه عندما كان يرفض ذلك كانوا يثورون عليه و ينقلبون ضده و يتزعون عنه صفة النبوة و أحياناً يقتلونه .

إذن .. فالقضية هي سياسية أكثر منها دينية أو هي سياسية دينية أكثر منها دينية بحتة . و هو ما ورد ذكره في القرآن الكريم { لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ } (المائدة: ٧٠) .

و إذا دققنا في عبارة (ما لا تهوى أنفسهم) نجد أنها متعلقة بمملكة إسرائيل و مفهوم التحريم السياسي الذي كان يعتمده بعضهم في الحروب . و هي إشارة من القرآن الكريم لإنكار الأمر السياسي ، فبعضهم كانوا يقتلون بعض رسلهم و أنبياءهم ، سياسياً لا دينياً و من منطلق الأمر السياسي الديني لا الديني البحت، و ليس مجرد أنهم أنبياء أو أنهم كافرون بهم ، و هو ما شكّل التباساً لدى البعض حيث ساد الاعتقاد أن اليهود يقتلون أنبياءهم مجرد أنهم أنبياء مرسلون من عند الله (تعالى) و هو بنظرنا غير صحيح و لا يستقيم مع واقع التاريخ و الخطاب التوراتي و القرآني . و خير ما يدل على هذه القضية هو تعاملهم مع عيسى المسيح (ع) ، ففي البداية اتبعوه و صدقوه و رحبوا به لا بل أرادوا أن ينصبوه ملكاً عليهم و أخذوا ينادونه (ملك إسرائيل) أو (ملك اليهود) . [و لما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم* ٢ قائلين أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمة في المشرق و أتينا لنسجد له] (متى - الإصحاح ٢) .

[فأجاب بيلاطس أيضاً و قال لهم فماذا تريدون أن افعل بالذي تدعونه ملك اليهود ؟] (مرقس - الإصحاح ١٥) . علماً أنهم سلموه إلى بيلاطس بدعوى أنه ابن الله ..

[فقام رئيس الكهنة و قال له أما تجيب؟؟ بشيء ماذا يشهد به هذان عليك؟؟* و أما يسوع فكان ساكنا فأجاب رئيس الكهنة و قال له استحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله* قال له يسوع أنت قلت و أيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة و آتياً على سحاب السماء* فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلاً قد جدف ما حاجتنا بعد إلى شهود؟؟ ها قد سمعتم تجديفه* ماذا ترون؟؟

فأجابوا و قالوا إنه مستوجب الموت] (متى - الإصحاح ٢٦) .

إذن .. عندما رفض يسوع المسيح ، الأمر السياسي و أواجهم قائلاً أن مملكته ليست من هذا العالم بل هي في السماء (يوحنا - ١٨) تمردوا عليه و اعتبروه مهرطقاً و رموه بالكفر و قاموا بتسليمه إلى مندوب الرومان بفلسطين بتهمة أنه (ملك اليهود) التي منحوه إياها قبلاً ، كونهم يعرفون أن حساسية الرومان لها أكثر من حساسيتهم تجاه (ابن الله) فالرومان يهتمهم الأمر السياسي لا الأمر الديني .

و الأمر نفسه حصل مع الرسول (ص) عندما بدأ دعوته في مكة ، ففي السيرة^١ أن قريشاً أرسلت اثنين من نفرها إلى أحبار اليهود بالمدينة ، وقالوا لهما : أسألاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرج الرجلان حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالوا لهم : إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أحركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، ترون فيه رأيكم .. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه

^١ السيرة النبوية لابن هشام ، ص / ١٥١ .

عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هي ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه ، فإنه نبي ، وإن لم يفعل ، فهو رجل متقول ، لكم أن تصنعوا في أمره ما بدا لكم .

و عندما عاد الرجلان و أخبرا قريشاً بذلك ، عمدت قريش إلى سؤال الرسول ، فتزل الوحي بالإجابة ..

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدَّنَاهُمْ هُدًى }

• (الكهف: ١٣)

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا }

• (الكهف: ٨٣)

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا }

• (الاسراء: ٨٥)

كما أن اليهود أنفسهم قد أخضعوا الرسول (ص) لامتحان النبوة فسألوه أسئلة أجاب عليها الوحي بالقرآن الكريم و منها على سبيل المثال ..

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا }

• (طه: ١٠٥)

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَرِزُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ }

• (البقرة: ٢٢٢)

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا }

• (النارعات: ٤٢)

و قضية الأمر السياسي الديني هذه ، سوف يقع العرب بمطبتها فيما بعد لسبب بسيط و هو أنها مثلت إلى جانب النقيض .. التناقض .. التناقض الذي كان يعتمل في صدر العربي بالجاهلية .. تناقض الملك و الرياسة اللذان كان يشتهيها . و عندما لم يظلهما ، هجاهما و ذمهما و قدح بهما ، لكن عندما كان يصل إليهما ، فإنه كان يستخدمهما أسوأ استخدام ما يؤدي إلى هلاكه إن عاجلاً أم آجلاً .

و بالرغم من أن الرسول (ص) قد أجاب قريشاً عن أسئلتهم التي لقمهم إياها أحبار اليهود ، و أخرى غيرها ، فإن قريشاً بقيت على عداتها للرسول (ص) ، لا بل زادت من وتيرته حتى اضطر بعض أتباعه إلى الهجرة للحبشة حيث تعقبتهم قريش إلى هناك . و السبب في ذلك ، هو أن الإسلام قد مثل هما ، حالة النقيض الفكري و الاجتماعي و الاقتصادي للجاهلية .

أما الأثر الفكري الثاني الذي مثله الإسلام ، فهو حالة التناقض ، و هي الحالة المتأرجحة ما بين الرفض و القبول معاً ، أو رفض البعض للكل و قبول البعض الآخر له . كانت حالة الرفض و القبول معاً ، هي التناقض الفكري الذاتي لدى الفرد الواحد ، و تمثلت بما رأى هذا الفرد في الإسلام من أمور تناسبه و تناسب جاهليته التي عاشها و يعيشها ، و أمور أخرى في الإسلام رآها قد تعارضت مع مقومات الجاهلية أو متطلباتها الاجتماعية و الفكرية ، أو مع ما سمحت له الجاهلية بالقيام به إرضاءً لغرائزه النفسية و متطلباته الحياتية العاطفية و حتى الفكرية ، و منعتة هي عنه .

و قد عبر القرآن الكريم عن هذا التناقض الفكري مُقراً بوجوده ..

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } (النساء: ١٥٠) .

هذه المقولة تنضح لدينا أكثر في حوادث عدة أبان الدعوة المحمدية ، منها ما حصل عندما عرض الرسول نفسه على بعض القبائل العربية لدخول الإسلام و نصرته ، عندما بعث أبو بكر الصديق إلى مجلس من مجالس العرب^١ فتقدم أبو بكر فسلم وقال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة ، قال : و أي ربيعة ؟ من هامتها أم من لهازمها ؟ قالوا : بل الهامة العظمى . قال : من أيها ؟ قالوا : من

^١ السيرة الحلبية ، ص / ٤٥٠ .

ذَهْلُ الأَكْبَرِ . قال : منكم حامي الذمار ومانع الجار فلان (يقصد جساس بن مرة قاتل كليب) ؟ قالوا : لا . قال : منكم قاتل الملوك وسالبتها فلان (يقصد عمرو بن كلثوم) ؟ قالوا : لا . قال : منكم صاحب العمامة الفردة فلان ؟ قالوا : لا . قال : فلستم من ذهل الأكبر أنتم ذهل الأصغر . فقام إليه شاب حديث السن فقال له : إن على سائلنا أن نسأله .. يا هذا إنك قد سألتنا فأخبرناك فممن الرجل ؟ فقال أبو بكر : أنا من قريش . فقال الفتى : بخ بخ ، أهل الشرف والرياسة ، فمن أي قريش أنت ؟ قال : من ولد تيم بن مرة . فقال الفتى : أمنكم قصي الذي كان يدعى مجمعاً ؟ . قال : لا . قال : فمنكم هاشم الذي هشم الشريد لقومه ؟ قال : لا . قال : فمنكم شبية الحمد عبد المطلب مطعم طير السماء الذي كأن وجهه القمر يضيء في الليلة الظلماء ؟ . فقال أبو بكر : لا . ثم شد زمام ناقته ورجع إلى رسول الله وأخبره بذلك ، فتبسم رسول الله ، أما علي بن أبي طالب فقال له : لقد وقعت من الأعرابي على باقة¹ . قال : أجل أبا حسن ما من طامة إلا فوقها طامة والبلاء موكل بالمنطق . فقصد الفتى هو .. إن قبيلتكم لم تشمل على هؤلاء الأشراف كما أن قبيلتنا لم تشمل على أولئك الأشراف .

في هذه الحادثة ، اصطدم أبو بكر الصديق بقضية الفخر والحسب والنسب التي ربما لم يحسب حسابها جيداً و هي عامل هام و أساس من العوامل الفكرية للجاهلية و تمثل خط أحمر للعربي لا يجوز تخطية ، و بالتالي لم تكلل مهمته هذه المرة بالنجاح ، و هو ما أدى إلى تداركه الخطأ في الحادثة التالية و تحذير الرسول (ص) من الوقوع فيه . ففي حادثة تالية أن الرسول (ص) لقي جماعة من العرب من بني شيبان بن ثعلبة وكان معه أبو بكر ، فسألهم أبو بكر : ممن القوم ؟ فقالوا : من شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله و قال : بأي أنت و أمي :

¹ أي داهية أي ذي دهاء وهو في الأصل اسم لطائر حذر يطير يمناً ويسرة .

.. هؤلاء غرر ، و سادات في قومهم وفيهم مفروق بن عمرو وهانئ ابن قبيصة ومثنى بن حارثة والنعمان بن شريك ^١ .

و في السيرة ^٢ أن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، قال : سمعت ربيعة بن عباد ، يحدثه أبي قال : إني لغلام شاب مع أبي .مثنى ، ورسول الله يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول: يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتصدقوا بي ، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به . و كان خلفه رجل أحول وضيء ، له غدירתان عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ رسول الله من قوله وما دعا إليه ، قال ذلك الرجل : يا بني فلان ، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه . قال : فقلت لأبي : يا أبت ، من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب .

و في حادثة أخرى ^٣ أنه (ص) أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله (تعالى) وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ فأجابه الرسول (ص) : هذا الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، فقال الأعرابي له : أفنسلم نحورنا للعرب دونك !!؟؟ فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

يلاحظ أنه في الحادثة الأولى ، اصطدمت الدعوة الحمديّة بظاهرة النسب و الأنساب في الجاهلية و كيف جرى التعامل معها من قبل أبو بكر الصديق و

^١ المصدر السابق .

^٢ السيرة لابن هشام ، ص / ٢١٣ .

^٣ نفس المصدر السابق .

تحذيره للرسول (ص) ، أما الحادثة الثانية فقد اصطدمت فيها بقضية الأصنام و العقائد الخرافية (حلفائكم من الجن) و التحريض الخارجي ، فالمنع هنا ليس القبيلة التي كادت ربما أن تقتنع ربما بكلام الرسول (ص) و تقبل دعوته ، بل هو من عشيرة الرسول الأقربين .. عمه أبو لهب و ربما كان الدافع هنا هو الحسد ، فنحن نحمن أن شخص مثل أبو لهب ربما يكون قد قال في نفسه لماذا يأتي الوحي محمد و لا يأتيني أنا !!! هل من المعقول أن أكون أنا تابع لابن أخي؟؟ .. إذا فالدافع هنا كان عامل السن و المراتب الاجتماعية القبلية .

الحادثة الثالثة اصطدمت الدعوة المحمدية مباشرة بالأمر السياسي ، فالقبيلة التي عرض عليها الرسول الإسلام ، وافقت على الفور لكنها ربطت ذلك بأن تكون لها الرياسة من بعده أي بعد وفاته ، و هذه نقطة مهمة جداً يجب الوقوف عندها .

كذلك مثلت حالة بعض الشعراء المخضرمين ، وهم الشعراء الذين عاشوا فترة الجاهلية و أدركوا الإسلام ، مثلت حال التناقض الذاتي المعتمل في النفس الإنسانية لجهة قبول بعض الأفكار الإسلامية و رفض بعضها الآخر ، أو قبولها بمجملها لكن في ظل هيمنة الجاهلية الفكرية . و أحد هؤلاء الشعراء ، كان الشاعر العربي المخضرم (الحطيئة) و هو من أشهر الشعراء المهجائين العربي . و لعل قصة حياته التي عاشها في فترتي الجاهلية و الإسلام ، تعبر عن هذا التناقض الفكري الذاتي أو الداخلي .

هو جرّول بن أوس ، لقب بالحطيئة و كني بأبا مليكة¹ و هو من فحول الشعراء و متقدميهم وفصحائهم . و له تصرف في جميع فنون الشعر من المديح والمهجاء والفخر والنسيب ، مجيد في ذلك أجمع ، وكان ذا سفه في بعض قوله و عمله . اشتهر شعره في بداية أمره بالمهجاء و استمر به ، فكان أحياناً يهجو من يكرمونه

¹ أدباء العرب في الجاهلية ٢٣٧ - كتاب الأغاني ، ص / ٢٩٤ .

و يقدمون له يد العون و كم الغوث . أدرك الإسلام فانتحله و دخل به ، و لم يكن على ما يبدو صاحباً له قائماً بأمره على أكمل وجه ، فكان مغموزاً في عقيدته . و بعد وفاة الرسول (ص) ، ارتد الحطيئة مع المرتدين و قال في ذلك شعراً بانت فيه هشاشة منطقته في الردة و ظهرت فيه حمية الجاهلية و سوأة بعض خلائها حيث قال في تبريره :

فِدَى لَبْنِي ذُبْيَانَ أُمِّي وَخَالَتِي عَشِيَّةً يُحْدِي بِالرَّاحِ أَبُو بَكْرٍ
أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ صَادِقًا فَيَا عَجَبًا مَا بَالُ دِينَ أَبِي بَكْرٍ
لِيُورِثَهَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ فَتِلْكَ وَبَيْتِ اللَّهِ قَاصِمَةَ الظَّهْرِ .

و ظل بعد ذلك يخاتل فيما بين إسلامه و رده نازعاً نفسه إلى سيرته الأولى في الصحراء ، حراً طليقاً بعيداً عن متناول أي سلطة أو تكليف ، دينياً كان أم اجتماعياً ، يهجو الناس و يتناول أعراضهم و كراماتهم . حتى جاءت حادثة هجاؤه الزبرقان بن بدر ، و هو من أشرف قومه و كان بالإضافة إلى ذلك عاملاً للرسول (ص) في وقته . و صودف أنه في خلافة عمر بن الخطاب ، جاء إليه الزبرقان ليؤدي صدقات قومه ، فالتقى بالحطيئة و معه بناته في بطن سبيل ، فسأله الزبرقان عن حاله و وجهته ، فقال الحطيئة : أقصد العراق فقد حكمتنا هذه السنة ، و والله قد وددت لو أصادف رجلاً يكفيني مؤونة عيالي و أصفيه مدحي أبداً . قال الزبرقان : قد أصبته ، فهل لك فيه يوسعك لبناً و تمرّاً و يجاورك أحسن حوار و أكرمه ؟ . فسأل الحطيئة : و من هو ذاك ؟؟ أجاب الزبرقان : أنا .. الزبرقان ، اركب ناقتي هذه و اتجه بها إلى مضارب قومي و أخبرهم بخبري حتى أعود من حاجتي . فقال الحطيئة : هذا و أبيك ، العيش ، و ما كنت أرجو هذا كله . ثم توجه الحطيئة مع عياله إلى مقام الزبرقان ، فأكرمه القوم أيما إكرام و أحسنوا وفادته . و لكن بنو تميم كادوا للزبرقان و هو غائب

و أغروا الحطيئة بالقدوم إليهم و وعدوه المواعد و المطايب ، فنكث عهده مع الزبرقان و اتجه صوب بنو تميم . و عندما عاد الزبرقان و علم بفعلة بني تميم ، طلب منهم رد الحطيئة فأبو عليه ، فهجاهم ، فرد الحطيئة عليه هجاءه بهجاء و قال له فيما قال :

دع المكارم لا ترحل لبغيتهما و اقعده فانت الطاعم الكاسي .

فأكبر الزبرقان ذلك و اشتد عليه ، ففزع فيه إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، و لما كان عمر لا يأخذ أحد بجريرة ، إلا عن علم و بصيرة ، قال : عليّ بحسان الشاعر . فأتي بحسان ، فألقى عليه شعر الحطيئة ، فقال لعمر : لم يهجو و لكنه سلح عليه . فألقى عمر الحطيئة في جب ، حتى تشفع له عنده عمرو بن العاص ، فأخرج و سيق إلى عمر ، و ما أن ابتدره حتى ألقى نفسه أمامه و قال :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقىت كاسيهم في قعر مظلمة فأغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الأمين الذي من بعد صاحبه ألقىت إليك مقاليد النهي البشر

فقال له عمر : أني ناهيك عن ذم الناس و إتيانهم في أنفسهم و أعراضهم . فقال الحطيئة : إذن يموت عيالي جوعاً ، هذا مكسي و منه معاشي . فقال له عمر : فإني اشترى منك أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، ففعل . و عندما أطلقه عمراً نظر إليه نظرة العارف الفرس و قال له : كأني بك يا حطيء عند فلان من الناس و قد بسط لك نمرقة و كسر لك أخرى و قال لك : أنشدنا يا حطيئة ، فطفت تغنيه بأعراض الناس .

و له موقف عند وفاته^١ ، يدل على تعلقه بجاهليته الأولى . و سكرة الموت أحياناً تجعل المرء يظهر ما في دواخله من خفايا و عواطف .. فعندما حضرت الحطيئة الوفاة ، اجتمع إليه أهله و قالوا له : يا أبا مليكة أوص . فقال : ويل للشعر من راوية السوء . قالوا أوص رحمك الله يا حطية . قال : من ذا الذي يقول ؟ :

إذا أنبضَ الرَّامونَ عنها ترنمتُ ترنمَ ثكلي أو جعَّتها الجنائزُ .

قالوا : الشماخ . قال : أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب . فقالوا له : ويحك .. أهذه وصية ؟؟! أوص بما ينفعك . قال : أبلغوا أهل الضايئ بن الحرث اليربوعي أنه شاعر حيث يقول :

لكل جديدٍ لذةٌ غيرَ أني رأيتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيدِهِ .

قالوا : أوص ويحك بما ينفعك . قال : أبلغوا أهل امرؤ القيس أنه أشعر العرب حيث يقول :

فيا لك من ليلٍ كأنَّ نجومَهُ بكلِّ مغارِ القتلِ شدَّتْ بيذبلِ .

قالوا : اتق الله و دع عنك هذا . قال أبلغوا الأنصار أن صاحبهم (يقصد به حسان بن ثابت) أشعر العرب حيث يقول :

^١ المصادر السابقة .

يُغَشُونَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ .

قالوا : هذا لا يعني عنك شيئاً ، فقل غير ما أنت فيه . فقال :

فَالشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَلَّمَه إِذَا ارْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيَعْجَمُهُ .

قالوا : هذا مثل الذي كنت فيه .. يا أبا مليكة ، ألك حاجة ؟؟ قال : لا والله
و لكنني أحزع على المديح الجيد يمدح به من ليس أهله (وهذا من رائع القول)
قالوا : فمن أشعر الناس ؟ فأوماً بيده إلى فمه و قال : هذا الجحير إذا طمع في
خير . ثم استعبر باكياً . فقالوا له : قل لا إله إلا الله . قال :

قالت و فيها حَيِّدَةٌ وَ ذَعْرٌ عوذُ بربي منكم و حجرٌ .

قالوا : فأوص للفقراء بشيء . قال : أوصيهم بالإلحاح في المسألة فإنها تجارة لا
تبور . قالوا : فما تقول في مالك ؟؟ . قال : للأنتى من ولدي مثل حظ الذكر
قالوا : ليس هكذا قضى الله لمن !! . قال : لكنني هكذا قضيت . قالوا : فما
توصي لليتامى ؟؟ قال : كلوا أموالهم . قالوا : فهل من شيء تعهد به غير هذا
؟؟!! . قال : نعم .. تحملوني على أتان و تتركوني راكبها حتى أموت ، فإن
الكريم لا يموت على فراشه . فحملوه على أتان و جعلوا يذهبون به و يجيئون
حتى مات .

و ربما ما يجعلنا نشفع للحطيئة بعض من أعماله و سوء طباعه ، هو ظلم المجتمع
له و طباعه بطباعه ، فهو قد ولد مغموز النسب ، أنكره أبوه و ما اعترفت به

قربته ، و أمه جارية مغمورة مستضعفة لا حسب لها و لا نسب ، غشيتها من غشيتها فنسبته إلى غير أباه الحقيقي خشية و خوفاً ، فكان لا ينفك عن أمه يسألها هوية أباه ، و هي تماطل في الرد أو تعطيه كل مرة رداً مختلفاً و لا تجيبه جواباً صريحاً ، فيشتد قهراً و ألماً و يلعن أمه و المجتمع الذي وجد فيه فيقول واصفاً إياها بالضراء :

تقولُ لي الضراء لستَ بواحدٍ و لا اثنين فانظر كيفَ شركُ أولئكَما
و أنت امرؤٌ تبغي أباً قد ضللتَه هبَلتَ ألماً تستفقُ من ضلالِكما .

فساء حاله و ضاقت عليه الدنيا و اضطر أن يكون بموقف يتدلل فيه للناس و يطلب مؤونته منهم ، فيكلفونه الاتضاع و الهوان حتى يجيئونه بشيء من طلبه ، فرمما نشأ فيه كره الناس و المجتمع فسלט عليهم و عليه أقطع سيفيه ، و هو لسانه .

بالعودة إلى الصلب ، يبقى هنالك التناقض الفردي المتمايز ، و هو بنظرنا تناقض كان منطلقه ، الأمر الاجتماعي بالدرجة الأولى متمثلاً بالتفاوت الطبقي و الظلم الاجتماعي و ظاهرة تشكّل الثورات و نظام العبيد و هي قضايا تركزت بؤرتها في قریش أكثر من غيرها من القبائل . و المقصود بهذا التناقض ، هو أنه ليس تناقضاً ذاتياً يقع في نفس الفرد الواحد و يعتمل فيها صراعاً داخلياً بين الرفض و القبول ، أو بين رفض هذا و قبول ذاك ، بل هو تناقض بين الأفراد أنفسهم ، فانقسموا تبعاً لذلك فريقين .. فريق قبل الإسلام كله كحالة فكرية ، رغبة و طوعية ، و لم يشكل ذلك لديه ، أدنى التباس أو ضيق أو حرج .. و فريق رفضه كله بالجمل ، كذا الأمر ، لم يشكل ذلك لديه ، أدنى التباس أو ضيق أو حرج .

الفريق الأول ، مثل أصحاب المظالم الاجتماعية الذين عانوا أنواع هذا الظلم و أشكاله . و هؤلاء قد رأوا في الإسلام إلى جانب الجزء التوحيدي فيه ، رأوا باباً للخلاص من ربقة العبودية و الظلم و القهر ، و باباً للمساواة الإنسانية و العدالة الاجتماعية الموجودة في آياته و منها ..

{ قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعْتَبُهِ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا } [الكهف :

[٨٧]

{ ... لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة : ١٢٤] .

{ ... وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [البقرة : ٢٥٤] .

{ ... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة : ٢٥٨] .

{ ... وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [آل عمران : ٥٧] .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات : ١٣] .

{ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ... } [الحشر : ٧] .

{ ... وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ } [الطلاق : ٢] .

{ ... وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النساء : ٥٨] .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ

الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ

تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النساء : ١٣٥] .

{ ... اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المائدة : ٨] .

{ وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [الأعراف : ١٥٩] .

{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل : ٩٠] .

هذه الآيات و غيرها في القرآن الكريم ، قد بينت صفة جوهر أساس من صفات الدين الإسلامي ، المناذية بالعدل و المساواة و رفع المظالم الاجتماعية ، فدخل هؤلاء فيه من هذه الزاوية بالإضافة إلى كونهم ربما لم يقتنعوا بالأوثان و تملكوا قناعة بوجود إله خالق واحد . فكان هؤلاء ، من الأوائل الذين انضموا إلى الرسول (ص) و دخلوا في الإسلام ، خلا عترته و صحبه الأقربون (كزوجه خديجة بنت خويلد و ابن عمه علي بن أبي طالب و أبو بكر الصديق و حمزة بن عبد المطلب) . و شكّل نواة هذا الفريق ، العبيد و الفقراء و المستضعفون ، كبلال الحبشي و عمار بن ياسر و أصاغر القوم الذين ليس لهم شأن يذكر و الذين كانوا طبقة مهمشة غير معترف لها في أحسن الأحوال إلا بالحقوق الدنيا . هؤلاء أُطلق عليهم في مكة لقب (قريش الأباطح) و كان يقابلهم في الاتجاه الآخر ، عليّة القوم من قريش و هم الفريق المؤلف من التجار و الأغنياء و رؤساء القوم و أعيانهم و أصحاب الأملاك و أهل الحل و الربط في النوائب و الأخطار و القضايا الجسام . و هؤلاء .. أُطلق عليهم في مكة ، لقب (قريش الأعالي) و هم أنفسهم الذين ناصبوا الرسول (ص) و الإسلام ، العداة و حاربوه حرباً لا هوادة فيها و كان على رأسهم صخر بن حرب (أبو سفيان) و العاص بن هشام و عمرو بن هشام بن المغيرة (أبو جهل) و الوليد بن المغيرة و غيرهم . و لما كانت أنفار (قريش الأباطح) بمجموعهم ، عمال و صناع و عبيد لدى (قريش الأعالي) الذين ساموهم أنواع شتى و ضروب مختلفة من سوء العذاب بعد دخولهم الإسلام ، فإن الصراع كان في وجه أساس من وجوهه ، صراع بين قريش الأعالي و قريش الأباطح . إذن .. هو في صورة قوية من صوره ، صراع طبقي اجتماعي مؤداه نتيجة تقضي بكونه صراع فكري اجتماعي إلى جانب صراع فكري ديني . هذه النتيجة تتضح لنا أكثر إذا

علمنا أن مكة كانت مدينة حضرية أكثر منها بدوية . و كانت مركزاً من أهم المراكز التجارية و الاجتماعية و الدينية في شبه الجزيرة العربية كلها . لذلك .. فقد كان منطلق الصراع بين الإسلام و الرسول (ص) من جهة ، و بين قريش من جهة أخرى ، صراع فكري ديني و فكري اجتماعي . و يعزى الصراع الفكري الديني لسبب بسيط و هو أن الكعبة المحاطة بالأصنام التي نصبها المشركون حولها و داخلها ، كانت ذات مردود اقتصادي و مالي كبير عليهم ، بسبب القبائل و الحجيج القادمة لزيارة الكعبة و التطواف بها ، يضاف إلى ذلك المردود الاجتماعي المتمثل بالمكانة العالية بين القبائل التي كانت تمنح قريشاً مهابة و احترام .

لذلك .. فقد اعتبر هؤلاء أن مفهوم الإله الواحد الخفي الغير مرئي و المعادي لأوثانهم المتكلسة و أصنامهم المتحجرة ، هو بمثابة خطر يهدد أمنهم المالي و الاقتصادي و مكانتهم الاجتماعية بين القبائل العربية . و يتضح ذلك من أسباب عدة ..

السبب الأول : حادثة الغرانيق التي تم فيها الأخذ بعين الاعتبار ، آلهة قريش .. اللات و الغزى و مناة الكبرى . و إشراكها (حسب المنظور القرشي) في الكعبة المالية و الاجتماعية ، حيث وافقت قريش على الفور بموجبها ، في الشراكة مع الرسول ، و هو أمر جرى تصحيحه على الفور بواسطة الوحي الإلهي حيث تم استبعاد هذه الآلهة مباشرة ، فارتدت قريش في حافرتها و عاد قارحها جذعاً و بازها بكراً و اشتد عداؤها للرسول (ص) إلى حد قررت فيه تصفيته و اغتياله .

السبب الثاني : تعاطي القبائل العربية مع دعوة الرسول (ص) لها إلى الإسلام ، حيث كان تعاطيها مع الرسول من منطلق الأعراف القبلية و العصبية الجاهلية كالفخر و الحسب و النسب و الغنائم و ما إلى ذلك ، لا الأمور الاجتماعية و الدينية ، و بعض من مثال ذلك ، قصة أبو بكر الصديق مع بني ربيعة المذكورة

سابقاً و لقاء الرسول (ص) مع بني عامر بن صعصعة . فهذه القبائل بالأساس ، كانت خارج دائرة الأمر الاجتماعي و الاقتصادي و الديني العقائدي ، و لم تكن في صلب هذه الأمور كما هو الحال لدى قريش ، و لم يدخل باعتبارها الظلم الاجتماعي أو التفاوت الطبقي أو عامل المساواة ... الخ ، فهي في صحرائها لم تكن تمتلك هذه العوامل أساساً .

السبب الثالث : إن كل الحروب و المعارك التي خاضها الرسول منذ بدء دعوته و حتى فتح مكة ، كانت مع قريش ، و هي معارك شرسة ضارية .. كانت قريش هي البادئة بها و هي المهاجمة و هدفها قتل الرسول (ص) و استتصال شأفة الإسلام .

فترة الخلفاء الراشدون :

بعد وفاة الرسول (ص) مباشرة . حصل خلاف بين الناس على خلافته و من سيكون الخليفة بعده ، فكان الخلاف على قسمين .. قسم فيما بين المهاجرين (قريش) و الأنصار ، و قسم بين قريش و بنو هاشم حيث رأى بنو هاشم أن الخليفة هو علي بن أبي طالب ، ابن عم الرسول و ملازمه في حله و ترحاله ، فضلاً عن ذلك فهو حسب رأيهم قد أوصى له من بعده ببيعة سميت (بيعة الغدير) أو (غدير خم) . و ربما يكون الإشكال قد بدأ من الأنصار أنفسهم^١ إذا أنه لما قبض الرسول (ص) اجتمعت الأنصار إلى كبيرهم سعد بن عباد و أخبروه الخبر فقال لهم " يا معشر أنصار إن لكم سابقة في الدين و فضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب .. إن رسول الله (ص) لبث في قومه بضع عشر سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن و خلع الأوثان ، فما آمن به من قومه إلا قليل ،

^١ الإمامة و السياسة ، ص / ٥ / .

حتى أراد الله تعالى لكم الفضيلة و ساق إليكم الكرامة و خصكم بالنعمة و رزقكم الإيمان به و برسوله و المنع له و لأصحابه و الإعزاز لدينه و الجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم ، و أثقله على عدوكم من غيركم حتى استقاموا لأمر الله تعالى طوعاً و كرهاً ، و دانت بأسيافكم له العرب . توفاه الله و هو راض عنكم قرير العين ، فشدوا بأيديكم هذا الأمر ، فأنتم أحق الناس و أولاهم به " . فأجابوه جميعاً . فأتى الخبر إلى أبو بكر الصديق ففرع أشد الفرع و قام معه عمر بن الخطاب و أبو عبيدة بن الجراح إلى سقيفة بني ساعدة حيث الأنصار . و دار نقاش طويل عصيب كادت أن تقع فيه الحرب و الفتنة بسبب تمسك الأنصار بالخلافة ، حتى أخرجوا من قبل أبو بكر و عمر ، فسلموا بالأمر .

لكن الإشكال التالي كان مع الإمام علي بن أبي طالب الذي رفض بيعة أبا بكر بدعوى أنه أحق بالخلافة و أنه و ابن عم الرسول و من آل بيته و وصيه . بموجب بيعة الغدير . و قد أيدته في ذلك عمه العباس و بنو هاشم جميعاً . و قد احتج علي بن أبي طالب عليهم بمثل ما احتجوا هم على الأنصار ، فتفجر الخلاف مرة أخرى و كادت الفتنة أن تقع ، و لم يحل الخلاف في النهاية إلا اثنين .. أبو بكر الصديق الذي لم يقبل بالبيعة و الخلافة حتى يبايعه علي و انتظر لأجل ذلك شهور ستة لم يقدم فيهما على حل و ربط و طلب إعفاؤه منها أكثر من مرة ، حتى بايعه علي . و علي بن أبي طالب الذي انتهى من كتابة القرآن ، و بعد وفاة زوجته فاطمة الزهراء ، بايع أبو بكر في المسجد و الناس اجتماع . و هنا قام أبو بكر و جدد البيعة مرة ثانية سائلاً الناس إذا كان منهم من له اعتراض قائلاً لهم " إني قد استقلتكم في بيعتي ، هل من كاره ؟؟ هل من مبغض ؟؟ .. فلما رأت الجموع مبايعة الإمام علي ، قبلوا و رضوا . و هنا ابتداء أبو بكر الصديق لخلافته و قام يخطب بالناس أولى خطبه ، يعظهم و ينهاهم .

في خلافة أبو بكر حصلت حروب الردة حيث ارتدت بعض القبائل العربية و بعضها الآخر تريت حتى معرفة الخليفة الجديد و لمن سيؤول الأمر من بعد الرسول (ص) . كما حصلت الفتوحات العربية في العراق و تخوم بلاد الشام . و استمرت خلافة أبو بكر لسنتين مات على إثرهما . و في روايات أنه مات مسموماً بالأرز^١ ، و أخرى أنه استحم في يوم شديد البرد فمات . وقد أوصى أبو بكر من بعده لعمر بن الخطاب الذي استمرت الفتوحات في عهده و شملت فارس و سورية و فلسطين و مصر . و كان قد عين الولاية على البلدان و الأقاليم المفتوحة ، و استمرت خلافته عشر سنين مات على إثرها مقتولاً بطعنة من أبي لؤلؤة و هو غلام المغيرة بن شعبة . و كان قبل وفاته قد شكل لجنة سداسية تنتخب بالشورى أحد أفرادها و هم .. علي بن أبي طالب و عثمان بن عفان و طلحة بن عبيد الله و الزبير بن العوام و سعد بن أبي وقاص و عبد الرحمن بن عوف . و بعد جدال و خلاف و أخذ و رد ، انتخبوا عثمان بن عفان الذي استمرت الفتوحات في عهده و بالأخص في إفريقية . لكن لم يلبث أن ثارت الناس ضده كونه كان يحايي بني أمية و يختصم أكثر من غيرهم بالسلطة و العطاء ، و بعد فشل المفاوضات معه و وصولها إلى طريق مسدود ، خاصة بعد اكتشاف رسالة منه (أنكر علمه بها فيما بعد) أرسلها إلى عامله بمصر يطلب منه قتل موفدي الثوار ، فطلبوا منه ترك السلطة ، فأبى ، فحاصروه في بيته مدة تزيد عن الشهر . ثم اقتحم بعضهم داره عليه و قتله . و قد دامت خلافته حوالي اثني عشر سنة . بعدها اجتمعت الناس على علي بن أبي طالب و ابتدروه بالخلافة ، فامتنع بداية الأمر ، و لكن بعد ضغط وإلحاح شديدين ، قبلَ بها .

^١ أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام ، ص / ٢٦٠ - مروج الذهب ، ج / ٢ / ص / ٣٠٨ .

و منذ تبوؤه منصب الخلافة ، انفجرت في وجهه مشاكل هي سياسية أكثر منها دينية ، كان واضحاً أنه ليس طرفاً فيها ، و السبب في ذلك ، كونها بدأت بمجرد استلامه للسلطة و ليس بعد عهد مدة في الخلافة ، حتى يأخذ خصومه عليه مأخذهم ، كما هو الحال في عهد عثمان بن عفان ، يضاف إلى ذلك أيضاً أن خصومه كانوا بعيدين عنه و لم يكونوا معه حتى يقال أنه حدث خلاف كذا و اختلاف كذا في وجهات النظر .

كان من أشد الخصومة عليه و مناصبة للعداء ، السيدة عائشة بنت أبي بكر ، و معاوية بن أبي سفيان . و كان أولهما ابتداء بالعداء و الحرب ، السيدة عائشة التي كانت تناصب الخليفة المقتول عثمان بن عفان ، العداء و تجاهر بالدعوة إلى قتله . و عندما وصلها نبأ قتله ، تهللت فرحاً بذلك . و كانت تمني النفس أن تؤول الخلافة إلى قريبها طلحة بن عبيد الله . لكنها عندما نُبئت باستخلاف علي بن أبي طالب ، غيرت موقفها و صاحت " وا عثماناه .. ما قتله إلا علي " و قامت تدعو إلى خلع علي و التمرد عليه ، و جهزت جيشاً لهذه الغاية . فلما علم طلحة بن عبيد الله و الزبير بن العوام بذلك ارتدا عن بيعتهما لعلي بعد أن كانا قد بايعاه ، و اختلفا إلى عائشة حيث انضموا إلى جيشها الذي سار مهاجماً جيش الإمام علي . و التقى الجيشان قرب البصرة و اشتبكا بموقعة عُرفت بموقعة الجمل ، راح ضحيتها الكثير و انتهت بانتصار جيش علي بن أبي طالب .

هذه الحادثة مهدت لمعاوية بن أبي سفيان و شجعته أن يعلن التمرد هو الآخر على الإمام علي ، و جهز جيشه . فسار الإمام علي إليه بجيشه ، و التقى الجيشان بموقعة صفين قرب ناحية الرقة السورية (آنذاك) . و حصلت بينهما معارك عدة بعد ذلك ، إلى أن مالت الكفة لصالح جيش علي بشكل واضح . و عندما أوشكت الهزيمة أن تحيق بجيش معاوية ، أوعز إلى أفراده أن يرفعوا المصاحف ، و هنا توقف جيش علي عن القتال رغماً عنه و طلبه استمرار القتال . و طلب فريق معاوية التحكيم فقبل به الفريق الآخر و أجبر الإمام علي على

قبول كارهاً . و انبثق عن الفريقين لجنة للتحكيم قوامها أبو موسى الأشعري من فريق علي ، و عمرو بن العاص من فريق معاوية و استقر الرأي على قبول حكمها . و قبل موعد التحكيم بيوم ، اتفق عمرو بن العاص مع أبو موسى الأشعري على أن يخلع كل منهما صاحبه . و في يوم النطق بالحكم ، قام أبو موسى الأشعري فخلع الإمام علي ، لكن عمرو بن العاص لم يخلع معاوية كما كان متفقاً عليه ، بل ثبته . و هنا نشبت الفتنة من جديد و انشق عن جيش الإمام علي ما سمي بالخوارج و اهتموه بقبول التحكيم بعد أن كانوا قد أجبروه عليه . و انشغل الإمام علي هنا بقتال خصمين كل منهما أشد ضراوة من الآخر و هما . الخوارج و معاوية . و عندما نجح بدحر الخوارج و اتجه لقتال معاوية من جديد ، قُتِلَ غيلةً على يد أحد الخوارج هو عبد الرحمن بن ملجم الذي كان عضو في فريق مهمته اغتيال علي و معاوية و عمرو بن العاص . و لم يقتل سوى الإمام علي بينما نجا الأخيران ؟؟؟!!!! . و انتهت حقبة الخلفاء الراشدون ، بتنازل الحسن بن علي عن السلطة لمعاوية بن أبي سفيان على أن يؤول الأمر له من بعده ، لكنه قضى مسموماً بعد ذلك بفترة وجيزة . لبيداً بعدها عصر نظام الدولة الإسلامية بحكم بنو أمية و من بعدهم بنو العباس .

قراءة فكرية للعصر الراشدي :

إن مقارنة عادية بسيطة فيما بين فترة الدعوة المحمدية و الخلافة الراشدة ، تبين الاختلاف الشبه معاً ، فيما بين الفترتين . لقد بدأت الدعوة المحمدية بالصراع و الصدام الفكري بعوامله الدينية و الاجتماعية و العقائدية و الاقتصادية . و هي عوامل اجتمعت كلها لتشكّل مقومات هذا الصراع الذي كان بنسبة كبيرة منه

عبارة عن حروب و معارك . فهو لم يكن صراعاً سياسياً ، و ذلك لانتفاء المفهوم السياسي منه تماماً . و لنا في ذلك أدلة عدة منها

— لم يظهر في القرآن الكريم كله ما يدل على المفهوم السياسي بأي عنصر من عناصره ، لا بل على العكس من ذلك ، جاء بعض ما يشبهها ، بصيغة الدم و النهي أو الاستهجان و الرفض . و كنا قد فصلنا هذه القضية في كتاب سابق لنا هو (الحكمة بين الإله و السلطان - الفصل الأخير) و أوضحنا حيثياتها الحقيقية من خلال المنظور القرآني البحت .

— لم يظهر في حياة الرسول (ص) و أفعاله كلها ما يدل على الدولة أو الكيان و المفهوم السياسي . و جل فترة الدعوة المحمدية كانت عبارة عن معارك و حروب ، لم تكن لنشر الدين الإسلامي كما يتوهم البعض ، بل للدفاع عن الدين الإسلامي .. معارك الرسول (ص) لم تكن لنشر الإسلام بل للدفاع عن الإسلام . و هي أخطر قضية التبس فيها الفكر و الذهنية العربية و يتم الترويج المعاكس لها للأسف حتى أُعطي الإسلام صفة أنه قام بالسيف . أما فترات السلم و الهدنة فيها ، فنعم ، كانت لنشر الدين الإسلامي بالدعوة الطيبة و الموعظة الحسنة .

— الدعوة المحمدية كانت كلها من بدايتها و حتى نهايتها ، مخصصة لتزول القرآن الكريم ، فتزوله ابتداءً بها و انقطاعه كان بنهايتها . ويصح العكس في ذلك ، أي أنها ابتدأت ببداية نزول القرآن الكريم و انتهت بانقطاعه . و لا أدل من ذلك على وفاة الرسول (ص) مباشرة بعد انقطاع الوحي عنه و انتهاء نزول القرآن ، و هو أكبر دليل على انتفاء الأمر السياسي و دحض وجوده . فلو كان الأمر كذلك ، لأمدّ الله بعمر الرسول (ص) كي يقيم الدولة الإسلامية المفترضة ، و يحدد ضوابطها و مقوماتها وقوانينها . ولو افترضنا كما افترض البعض أنه أنشأ الدولة الإسلامية في حياته ، فكيف يستقيم هذا الأمر و لما يكتمل نزول القرآن !!؟؟ .

و في الطبري^١ .. أنه يوم وفاة الرسول (ص) خرج إلى المسجد يتوكأ على عصاه ، و أبو بكر يصلي في الناس ، فلما رآه ، نکص عن الصلاة ، فدفعه إليها الرسول ، ولما انتهى منها أبو بكر ، أقبل الرسول (ص) على الناس و كلمهم رافعاً صوته حتى خرج صوته من باب المسجد يقول " يا أيها الناس ، سعرت النار و أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، و إني و الله لم أحل لكم إلا ما أحل لكم القرآن ، و لم أحرم إلا ما حرم عليكم القرآن .

— قضية الاستخلاف و الخلافة نفسها ، فإذا كان البعض يفترض عدم استخلاف الرسول (ص) لأحد من بعده و تعيينه خليفة له ، فهذا لا يستقيم مع كيان دولة و كيان سياسي الذي بدوره لا يبرر الصراع على الخلافة من بعده بين المهاجرين و الأنصار و الخلاف عليها بين المهاجرين و بين بنو هاشم لأن قضية الخليفة أو النائب هي عادة قضية محسومة سلفاً في المفهوم السياسي و نادراً ما يحصل فيها إشكالات .

أما فترة الخلافة الراشدة ، فقد بدأت بصراع شبه سياسي انتفى منه الأمر الديني أو العقائدي ، فكان صراع على زعامة شبه سياسية ، أو على نوع من الرياسة شابه شيء من الصراع أو الخلاف القبلي و الطبقي الاجتماعي . خلاف كان يتبدى في كل مرحلة انتقال لعملية الخلافة ، فعملية الانتقال من خلافة أبي بكر الصديق إلى عمر بن الخطاب ، قد شابهها بعض الإشكال ، بالرغم من أن أبو بكر قد كتب كتاب توصية لعمر بن الخطاب قبيل وفاته . و ربما يكون هذا الكتاب قد خفف إلى حد كبير من خلاف و صراع كان يمكن أن ينشب و يؤدي إلى فتنة .. فطلاب الخلافة كثر . و يتضح ذلك من مقولة أبي بكر في مرضه الذي مات فيه ، إذا دخل عليه عبد الرحمن بن عوف فقال له : كيف أنت يا خليفة رسول الله ؟ فأني أرجو أن تكون بارئاً ؟ قال أبو بكر " و الله إني

^١ تاريخ الطبري ، ج ٢/ ، (ص) ٥٠٨/ .

لشديد الوجع ، و ما ألقى منكم يا معشر المهاجرين هو أشد علي من وجعي ،
إلا إني وليتُ أمركم و لست خيركم في نفسي ، فكلكم ورم أنفه (أي شديد
الغضب) لأن يكون هذا الأمر له و ذلك لما رأيتم الدنيا قد أقبلت و لما تقبل
حتى تتخذوا ستور الحرير و نضائد الديباج و تألموا الإضجاع على الصوف
الأذري كما يألم أحدكم أن ينام على حسك .. و الله لأن قدم أحدكم فتضرب
عنقه في غير حد ، خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا ، و أتم أول ضال
بالناس غداً فتصدونهم عن الطريق يميناً و شمالاً " . و ذلك الأعرابي الذي اعترض
على عمر حين خرج بكتاب أبي بكر ، هو إشارة إلى رغبة بعض القبائل بها .

و هو الإشكال ذاته الذي حصل عندما طعن الخليفة عمر بن الخطاب ، حين
اhtar من يعين خليفة بعده ، أو يوصي إليه . و لما لم يقع اختياره على شخص
بمفرده ، اختار لجنة مؤلفة من ستة أشخاص و طلب منهم أن يختاروا واحداً
منهم و طلب منهم طلباً غريباً بعض الشيء¹ ، ربما يكون من منطلق توقعه
حدوث مشاكل و صراع حول الخلافة ذاتها . فصرح أنه في حال حدوث
خلاف بين أكثرية و أقلية ، تُضرب أعناق الأقلية . و إذا اتفق ثلاثة منهم و
اختلف ثلاثة ، فعليهم الاحتكام إلى ابنه عبد الله ، فأبي الثلاثة يشير إليهم ،
يكون الخليفة منهم ، فإن اعترض الآخرون ، ضربت أعناقهم .

و عندما عرضوا عليه ابنه عبد الله كخليفة محتمل ، رفض رفضاً قاطعاً و قال :
حسب آل الخطاب ، تحمّل رجل منهم الخلافة . ثم التفت إلى ابنه عبد الله قائلاً
له : إياك ثم إياك أن تتلبسها .

من الواضح تماماً حصول تحوّل فكري طراً على المنظومة الذهنية و الفكرية
للإنسان العربي . تحوّل طراً خلال فترة الدعوة المحمدية للإسلام . و حيثيات هذا
التحول ، كانت أساساً ، من الانفلات و الانفلاش و الحرية ، إلى التنظيم و

¹ الإمامة و السياسة ، ص / ٢٤ .

الخضوع و الطاعة و بروز نظام المجتمع . و قد ارتبط هذا التحول بعاملين اثنين .. العامل الزمني المتمثل بديمومة الحدث الفكري الديني الاجتماعي الاقتصادي الأخلاقي التنظيمي على مدى ثلاث و عشرون عاماً ، مكتسباً الطابع الإعلامي الدعوي الانتشاري . و العامل الديناميكي المادي المتمثل بالصراع المرتبط حتماً بالحسم ، و هو المعارك و الحروب . فلأول مرة في شبه جزيرة العرب ، تحصل حروب و معارك داخلية بحتة بدافع ديني عقائدي ، و هو ليس صراع بين عقائد قديمة سالفة و معروفة بكليتها للبعض ، أو بعض جزئياتها للبعض الآخر ، سبق أن تم تطوير أفكارها و حيثيات شرائعها للطبيعة الصحراوية و الأعراف القبلية . بل هي صراع مع فكر ديني جديد يتحدث بكل جرأة و قوة ، عن إله واحد يطرح آراءه و تعاليمه و قوانينه ، علناً عبر وحي إلهي ، و يتجلى نهاية في كتاب مخطوط هو القرآن الكريم ، يتحدث الناس علناً و جهاراً بأن يأتيوا بمثله ، و يخاطب العرب بعالمية ما سبقتها عالمية من قبل ، و في الوقت نفسه ، ناظماً لأموال المجتمع و بعض الحياة الاجتماعية ، داخلياً ببعض مضامينه على سبيل المثال في أدق التفاصيل الزوجية ، و في أخرى متحدثاً بجرأة واضحة عن الديانتين السماويتين .. اليهودية و المسيحية ، فراضاً في الآن نفسه على المسلمين الإيمان برسولهما و أنبياءهما و آخرين غيرهم ، خارجاً بالإنسان العربي إلى فضاء الكون الواسع و نجومه راجعاً به سنوناً آلاف إلى الوراء متحدثاً عن الأمم الغابرة ، المنقرضة منها و الباقية آثاره و امتداداتها . هذان العاملان كانا كفيلاً تماماً بكسر سد الجمود الفكري العربي الجاهلي و انفجار التحول الفكري و بالخصوص في ظل كوامن التناقضات الفكرية المذكورة سابقاً . وكان العنوان الفكري للصراع في فترة الدعوة المحمدية هو ، سوء الفهم .. سوء فهم الإسلام و في الوقت نفسه كان التعامل معه على هذا الأساس ، من بداية الدعوة المحمدية و حتى نهايتها . و هو و إن خفت و تيرته في نهاية تلك الفترة ، إلا أنه بقي موجوداً و مشوباً بالمصالح الدنيوية ، السياسية منها و الاقتصادية . فما أن

بدأت بوادر المرض تظهر على الرسول (ص) حتى بدأت بوادر نبوات أخرى بديلة مزيفة ، بالظهور .. جاء في (الطبري)^١ : كان النبي (ص) قد ضرب بعث أسامة (جيشه) ، فلم يستتب لوجع رسول الله (ص) ، فخرج النبي (ص) على الناس في مرضه ، عاصباً رأسه من الصداع فقال : إني رأيت البارحة فيما يرى النائم ، أن في عضدي سوارين من ذهب ، فكرهتهما فنفختهما فطارا ، فأولتهما هذين الكذابين ، صاحب اليمامة (مسيلمة) و صاحب اليمن (الأسود) . و جاء أيضاً : وقع بنا الخبر بوجع النبي (ص) ، ثم بلغنا أن مسيلمة قد غلب على اليمامة ، و أن الأسود قد غلب على اليمن ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى ادعى طليحة النبوة و عسكر بسميراء و أتبعه العوام و استكثف أمره ، ليس ذلك فقط ، بل حتى مكة بعد وفاة الرسول (ص) ، بغت الردة و العودة للشرك . جاء في السيرة^٢ " أن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله هموا بالرجوع عن الإسلام وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد ، فتوارى . فقام سهيل بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه ، فتراجع الناس وكفوا عما هموا به ، وظهر عتاب بن أسيد " . ذلك كله كان تحت شعار سوء الفهم . و لكن الزلزال الفكري كان قد بدأ و انتشر و فعل مفعوله و أنتج مخاض و جلجلة فكريين ، غير من أفكار البعض و دفعهم للإسلام إيماناً و قناعة ، لكنه من جهة أخرى زاد من التناقض الخفي المعتمل في قلوب البعض ، الذي تبدى جاهلية ، في الأشعار و الفِعال .

مات الرسول (ص) و هو يهيب الجيش للدفاع عن الإسلام و رد هجوم الروم و غيرهم . و بوفاته برز التناقض مشكلة عويصة خطيرة تهدد الإسلام برمته . و سبب ذلك ، أنها قويت بشدة كبيرة بعد ذلك التحول الفكري المذكور آنفاً ، و

^١ تاريخ الطبري ، ج /٢/ ، ص /٥٠٣/ .
^٢ السيرة لابن هشام ، ص /٧٤٦/ .

ارتبطت بتنظيم اجتماعي كان أساسه الأول و نواته ، لكنها بقيت خافية كما هي ، و هذا مكمّن خطورتها . و هي ما عانى منه الخليفين الراشدين ، أبو بكر الصديق و عمر بن الخطاب ، و قام به عثمان بن عفان مجسداً إياه ، بقصد أو دونما قصد (و الله أعلم) ، فأدى ذلك إلى تثبيت دعائمه و أسسه ، و بالذات في أهله من طلاب السلطة و السياسة و محترفيها من بني أمية ، ما أدى بتصويره بركاناً صامتاً و لغماً موقوتاً انفجر بوجه الإمام علي بن أبي طالب بمجرد لمسه و محاولة فكّه و إزالته .

لقد كان هذا التناقض .. تناقض شهوة السلطة و الرياسة و الملك مع نبذه و أنفة الخضوع له في الجاهلية ، قد تحول في نهاية الدعوة المحمدية إلى تناقض السلطة و الرياسة و الملك ، مع المجتمع الديني البحت المفصول عن السياسة و الملك ، أي بصريح العبارة .. تناقض السياسة مع الدين ، و كان انفجاره إيذاناً بحسمه نهائياً و إزالته و جعل مآله إلى أحد نقيضيه .. المجتمع الديني .. أو الكيان السياسي ، أو بتعبير أشد صراحة و وضوحاً .. الإسلام السياسي .

إذن .. قد بدأ هذا التناقض السياسي الديني فيما بين الدين و السياسة ، في أواخر فترة الرسول (ص) ، بظهور أذعياء النبوة من مسيلمة بن حبيب في اليمامة و الأسود العنسي في اليمن و سجاح بنت الحارث التميمية . و يتبدى ذلك جلياً واضحاً من المكاتبات التي جرت فيما بين هؤلاء و الرسول (ص) ، فقد كان خطابهم سياسياً سلطوياً بحتاً ، يعتبرون فيه الدين أداة سياسية بحتة للوصول إلى الملك و السلطة . و من ذلك ، خطاب دعي النبوة .. مسيلمة بن حبيب إلى رسول الله ، حيث جاء فيه ¹ " من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ، فإنني قد اشتركت في الأمر معك ، إن لنا نصف الأرض و لقريش نصف الأرض ، و لكن قريشاً قوم يعتدون " . و لا حاجة بنا

¹ المصدر السابق .

لتوضيح وجود الأمر السياسي السلطوي البحت في هذا الخطاب و انتفاء الأمر الديني . و هو بالأساس (مسيلمة) لو كان يعتقد نفسه نبياً ، لما خاطب الرسول (ص) ، برسول الله و لما أشركه معه ، و لكان له دين غير الإسلام يتعبد به . و كان رد الرسول (ص) على الكتاب ، أن نظر إلى الرسولين اللذين احضراه و قال لهما : ما تقولان أنتما؟؟ قالا : نقول كما قال . فقال لهما : و الله لولا أن الرسل لا تُقتل ، لضربتُ أعناقكما . ثم كتب إلى مسيلمة كتاباً مقتضباً واضحاً ، ظهر فيه انتفاء الأمر السياسي تماماً و الاقتصار على الأمر الديني البحت ، قائلاً " بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد .. فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، و العاقبة للمتقين " . و يلاحظ الأمر الدنيوي في خطاب مسيلمة ، من خلال قراءة ما خلف السطور ، حين قال (و لكن قريشاً قوم يعتدون) ، فكيف يصح ذلك و قريش لم تشارك بحرب يوماً أو غزو!!؟! التفسير الوحيد ، هو أن مسيلمة نظر إلى قريش على أنها صاحبة التجارة و المال ، و أنها تريد أن تجمع النبوة أيضاً و التي هي بنظره أمراً سياسياً صرف . و لذلك طلب الشراكة مع الرسول (ص) .

إن أهم حدث فكري إسلامي في مرحلة الدعوة المحمدية ، مثل ابتعاد الدين عن السياسة ، كان الرسائل أو الكتب التي بعثها الرسول (ص) إلى الأمراء و الملوك و الأباطرة . فقد بعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس . وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة . وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية . وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر و عياد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان . وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي ، إلى ثمامة بن أثال ، وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة . وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي العبدي ملك البحرين . وبعث شجاع بن وهب

الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام و إلى جبلة بن الأيهم الغساني، وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري، ملك اليمن . و كانت كل كتب الرسول (ص) إلى هؤلاء ، مختصرة و فحواها مجرد دعوة بحتة مقتضبة إلى الإسلام خالية من أي تهديد أو وعيد أو أي أمر سياسي و لم يذكر فيها الملك و السياسة و الرياسة كما فعل دعي النبوة مسيلمة بن حبيب الذي كان يريد حكماً دينياً سياسياً . و ترك لهم حرية الاختيار و كل ما حذرهم منه في حال عدم قبول دعوته ، أنه حملهم أثم فعلتهم تلك فقط ، لا أكثر و لا أقل .

و يلفت الانتباه في هذا الصدد قضية مهمة جداً تثير نقطة جوهرية و هامة في أساس و عماد الدعوة الحمديّة و هي أن الرسول (ص) قد شبه عمله هذا ، تماماً بما فعله عيسى المسيح (ع) . إذا قال لمبعوثيه قبل إرسالهم " إن الله قد بعثني رحمة و كفاة ، فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم . فقال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟! قال: دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه ، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي و سلم ، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكّره وجهه و تناقل ، فشكا ذلك عيسى إلى الله ، فأصبح المتناقلون و كل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بُعثَ إليها^١ . و معلوم أن عيسى المسيح ، كانت دعوته دينية بحتة ابتعد فيها تماماً عن الأمر السياسي لا بل حذر منه [فقال لهم أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر و ما لله لله] [إنجيل لوقا - الإصحاح ٢٠ /] - [أجب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم ، و لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود ، و لكن الآن ليست مملكتي من هنا] [إنجيل يوحنا - الإصحاح ١٨] . و لعله قد دفع ثمن هذا من عدا و صد و صلب .

^١ المصدر السابق .

و بالنسبة لكتب الرسول (ص) إلى الملوك و الأباطرة ¹ ، فإن جملة كتابه إلى هرقل جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد .. أسلم تسلم ، و أسلم يؤتك الله أجرك مرتين . و إن تتول فإن عليك إثم الأكارين (أي تتحمل ذنوبهم) .

و فحوى كتابه إلى النجاشي " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة ، سلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، و أشهد أن عيسى بن مريم ، روح الله و كلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلق الله من روحه و نفخه كما خلق آدم بيده و نفخه . و إني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له و المولاة على طاعتهم و أن تتبعني و تؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله . و قد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا و نقرأ معه من المسلمين ، فأقرهم و دع التجير ، فإني أدعوك و جنودك إلى الله ، فقد بلغت و نصحت ، فاقبلوا نصحي و السلام على من اتبع الهدى " .

و بعث بكتاب إلى كسرى قال فيه " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى و آمن بالله و رسوله و شهد أن لا إله إلا الله و أني رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حيا .. أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم الجوس " . و في الرواية التاريخية أن كسرى غضب أشد الغضب و مزق الكتاب رافضاً دعوة الرسول (ص) .

كما بعث الرسول (ص) بكتاب مشابه إلى المقوقس عظيم القبط . بمصر و دعاه إلى الإسلام ، فأبى الرجل ذلك ، هو و بقية الملوك عدا النجاشي ، و مع هذا لم يفعل لهم الرسول (ص) شيئاً ، بل تركهم و شأنهم بعد أن أدى واجبه اتجاههم .

¹ المصدر السابق .

و ما أن توفي الرسول (ص) حتى ارتدت بعض القبائل العربية من فورها و بعضها امتنع عن أداء الزكاة ، و الآخر تَبِعَ أَدْعِيَاءَ النبوة ، لسهولة ما جاؤوا به من حالة شبيهة بوثنية الجاهلية الأولى . و يستثنى من ذلك من تريت بدفع الزكاة حتى معرفة الخليفة الجديد و ما سيؤول إليه الأمر . فكان ذلك أخطر تحدٍ لأبي بكر من ذلك التناقض السياسي الديني الخفي ، استوجب حله ، حروب طاحنة راح ضحيتها الكثير ، و كان قد سبق ذلك تحدٍ آخر ، تمثل بطلب الأنصار للسلطة و سعيهم إليها بعد وفاة الرسول (ص) ، ما مثل أول تحدٍ و إشكالية لهذا التناقض بعد وفاة الرسول (ص) . و كان التحدي الثاني هو الأمر الاجتماعي الطبقي القبلي ، فعندما علم أبو سفيان ببيعة أبي بكر و كان غائباً ، أتى العباس و علي بن أبي طالب مستنكراً الأمر ، قائلاً لعلي بن أبي طالب : ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش ؟؟! و الله لو شئت لأملأهما عليهم خيلاً و رجالاً .. و الله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم ، و الله لأرفعن من أعقابهما (يقصد أبو بكر و عمر) ... يا أبا الحسن هات أبسط يدك أبايعك . فأبى علي عليه و قال : إنا قد وجدنا أبا بكر لها أهلاً¹ .

و يلاحظ من الحيشيات الفكرية للخطاب الأول لأبي بكر الصديق ، إحساسه بخاطر الأمر السياسي و مدامته التي لا ترحم ، فحاول قدر الإمكان النأي عنه و دفع ضغطه ، فجاء خطابه دينياً كله و تحذيراً من الأمر السياسي ، فكان ذلك فقط مجرد تأجيل للانفجار التناقضي القادم لا أكثر .. و مما جاء في خطابه الأول² : يا أيها الناس إنما أنا مثلكم و إنني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله (ص) يطيق ، إن الله اصطفى محمداً على العالمين و عصمه من الآفات، و إنما أنا متَّبِعٌ و لست بمبتدع ، فإن استقمتم فتابعوني ، و إن زغت فقوموني ، و إن استطعتم إلا يمضي هذا الأجل إلا و أنتم في عمل صالح ،

¹ نفس المصدر السابق .

² نفس المصدر السابق .

فافعلوا ، و لن تستطيعوا ذلك إلا بالله ، فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال ، احذروا الموت و اعتبروا بالآباء و الأبناء و الإخوان و لا تغطوا الأحياء إلا بما تغطون به الأموات .. إن الله عز و جل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، و اعلموا أن ما أحلصتم الله من أعمالكم ، فطاعة أتيتموها و خطأ ظفرتم به و ضرائب أدتيموها ، و سلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية ، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم و تفكروا فيمن كان قبلكم ، أين كانوا أمس و أين هم اليوم؟؟ أين الجبارون؟؟ و أين الذين كان لهم ذكر القتال و الغلبة في مواطن الحروب؟؟ .. قد تضعض بهم الدهر و صاروا رميمًا ، أين الملوك الذين أثاروا الأرض و عمروها؟؟ قد بعدوا و نسي ذكرهم و صاروا كلا شيء .. ألا إن الله قد أبقي عليهم التبعات و قطع عنهم الشهوات و مضوا و الأعمال أعمالهم و الدنيا دنيا غيرهم ، و بقينا نحن خلفاً بعدهم ، فإن نحن اعتبرنا بهم ، نجونا و إن اغتررنا مثلهم هلكننا .. أين الذين بنوا المدائن و حصنوها بالحوائط و جعلوا فيها الأعاجيب؟؟ فتلك مساكنهم خاوية و هم في ظلمات القبور .. إن الله لا شريك له ، ليس بينه و بين أحد من سبباً يعطيه به خيراً و لا يصرف عنه به سوء ، إلا بطاعته و اتباع أمره (انتهى) .

و عندما أنفذ بعث أسامة ، شيع جيشه إلى أجل قريب ماشياً و أسامة راكباً ، و كلما ألح عليه أسامة أن يركب و يتزل هو ، أصر أبو بكر على المشي ، حتى توقف في بقعة تخم المدينة و خاطب الجيش قائلاً : يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني .. لا تخونوا و لا تغلوا و لا تغدروا و لا تمتلوا و لا تقتلوا طفلاً صغيراً و لا شيخاً كبيراً و لا امرأة ، و لا تعفروا نخلًا و لا تحرقوه و لا تقطعوا شجرة مثمرة و لا تذبحوا شاة أو بعير إلا للمأكلة ، سوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم و ما فرغوا أنفسهم له ، و سوف

تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء ، فاذكروا اسم الله عليها ^١ .

و الواضح في التاريخ ، أن الردة عن الإسلام بشكلها الواسع الكبير و تجييشها العسكري ، لم تكن ردة عنه بقدر ما كانت ردة عليه ، و كانت نذير خطر داهم على الإسلام في معاقله ، يضاف إليها الخطر الروماني العسكري الداهم ، على اعتبار أن الرومان كانوا لا يقبلون - مهما يكون الأمر - بتنظيم أو كيان متجانس منفصل مستقل بذاته ، سياسياً كان أم اجتماعياً أم دينياً ، دوغماً إذن مسبق منهم . و من المؤكد أنهم لاحظوا الخطر الإسلامي عليهم كما كانوا يلاحظونه في الماضي مع أي كيان آخر يريد الاستقلال و الانفصال . و من المؤكد أنهم لاحظوا بداية نشأة المجتمع الإسلامي الوليد ، و لاحظوا الحروب و المعارك المتكررة الحاصلة بين الرسول (ص) و قريش في مكة ، و بينه و بين بعض القبائل العربية فيما بعد ذلك . و من المؤكد الذي لا شك فيه أنهم قد زادت شكوكهم ، بسبب خبرتهم السياسية العسكرية ، و ربما يكونون قد استنتجوا المآل القادم إليهم ، و قرروا التعامل معه كما تعاملوا مع اليهود من قبلهم و مع المسيحية . و لا أدلّ على ذلك من قصة أبي سفيان بن حرب مع هرقل الذي استدعاه إلى قصره ليستفهم منه عن محمد (ص) و يسأله أسئلة تفصيلية توضيحية تدل حثيثاً على أنها ليست أسئلة عادية ، بل وراء أكمتها ما وراءها . و عندما كان أبا سفيان يحاول التقليل من شأن الأمر و شأن الرسول (ص) محاولاً إبعاد هرقل عن القضية مخافة منه أن يتبع هرقل الإسلام ، حيث أنه على ما يبدو لم يدرك أنه في واد و هرقل الخبير الاستراتيجي التكتيكي السياسي العارف بالأمور و نتائج مستجداتها ، في واد آخر .. كان هرقل يتجاهل كلامه و يعيده إلى حظيرة أسئلته .

^١ المصادر السابقة .

و في رواية أبو سفيان¹ أن هرقل سأله باهتمام عن محمد (ص) : أخبرني عن هذا الرجل (يقصد الرسول) الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي . قال أبو سفيان : فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أموره ، وأقول له : أيها الملك ، ما يهكم من شأنه؟! إن أمره دون ما بلغك .. فجعل لا يلتفت إلى ذلك مني و يقول : أنبئني فيما أسألك عنه من شأنه . قلت : سل عما بدا لك . قال : كيف نَسَبه فيكم ؟ قال : محض ، هو أوسطنا نسباً . قال : أخبرني هل كان أحد في أهل بيته يقول ما يقول فهو يتشبه به ؟ قال : لا . قال : هل كان له فيكم مُلك فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قال : لا . قال : أخبرني عن أتباعه منكم من هم ؟ قال : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، فأما ذوو الأسنان من الأشراف من قومه ، فلم يتبعه منهم أحد . قال هرقل : فأخبرني عمن يتبعه ، أيجبه ويلزمه أم يقلبه ويفارقه ؟ قلت : قلما يتبعه أحد فيفارقه . قال : فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قلت : سجال ، يدال علينا وندال عليه . قال : فأخبرني هل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة ولا نأمن غدرة . قال : فوالله ما التفت إليها مني (أي زعمه أن الرسول (ص) قد يغدر) . ثم كرر علي الحديث فقال : سألتك عن نسبه فيكم ، فرعمت أنه محض من أوسطكم نسباً ، فكذلك يأخذ الله النبي .. لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً . وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله فهو يتشبه به ، فرعمت أن لا . وسألتك هل كان له مُلك فيكم فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب مُلكه ، فرعمت أن لا . وسألتك عن أتباعه ، فرعمت أنهم من الضعفاء والأحداث والمساكين والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان . وسألتك عمن يتبعه أيجبه ويلزمه أم يقلبه ويفارقه ، فرعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه ، فكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلب رجل فتخرج منه ، وسألتك عن

¹ كتاب الأغاني ، ص /١٢٢٢/ - تاريخ الطبري ، (ص) /٤٣٧/ .

الحرب بينكم وبينه فرعمت أنها سجلت تداولون عليه ويدل عليكم، وكذلك حرب الأنبياء، ولهم تكون العاقبة. وسألتك هل يغدر، فرعمت أن لا. فلتن كنت صدقتني عنه ، فليغلبن علي ما تحت قدمي .. " . العبارة الأخيرة (ليغلبن ما تحت قدمي) التي قالها هرقل هي مربوط الفرس في كل ما جرى ، و هو ما استنتجه الرومان بخبراتهم الفكرية السياسية المتراكمة .

نهاية الأمر .. كانت كل حروب التي اندلعت في عهد أبو بكر ، قتال للمرتدين و الأعاجم الذين ساندوهم و أعدوا العدة للهجوم على الإسلام . و كل المناطق التي دخلها خالد بن الوليد و رفضت الإسلام ، لم تُكره عليه أبداً ، بل صالحها خالد على الجزية .. كانت بداية الصراع الفكري الحقيقي بين الإسلام و الإسلام السياسي .

في عهد عمر بن الخطاب عاد الإشكال السياسي للبروز مرة أخرى محاولاً إيجاد ثغرة ينفذ منها ، لكن على ما يبدو ، فإن عمر ابن الخطاب كان واعياً لذلك تمام الوعي و عارفاً تماماً لما سوف يواجهه و مدركاً لخطورة الأمر السياسي الضاغظ بشدة ، فاستعد لمجابهته و كان له بالمرصاد و يتضح لنا ذلك من الأحداث الحاصلة في عهده ، و أولها ما حدث أو ان وفاة أبو بكر الصديق .

تمثلت أول حادثة .. بالهجوم الاستباقي على عمر قبيل وفاة أبو بكر الصديق ، في علته التي مضت به ، حيث وفد إليه بعضهم ينهائه عن استخلاف عمر .. في الروايات ¹ .. أن طلحة بن عبيد الله دخل على أبي بكر فقال له : استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه فكيف به إذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسألتك عن رعيتك؟؟ فقال أبو بكر وكان مضطجعاً : أجلسوني . فأجلسوه فقال لطلحة : أبالله تفرقني؟؟!! أبالله تخوفني؟؟!! إذا

¹ تاريخ الطبري ، ص / ٥٩٢ .

لقيتُ اللهُ ربي فسألتني ، قلت استخلفت على أهلك خير أهلك . و في رواية أخرى ^١ ، أن أبا بكر لما أراد استخلاف عمر بن الخطاب حضره وجوه المهاجرين و فيهم طلحة و الزبير و سعد بن أبي وقاص فقالوا : ما تقول لربك إذا وليت علينا هذا اللفظ الغليظ ؟ فإننا لم نكن نطيعه و هو رعية لك ، فكيف إذا ولي الأمر ؟ فاتق الله في الإسلام و أهله و لا تسلطه على الناس . فغضب أبو بكر و صاح مغضباً : أجلسوني أجلسوني ، فأجلس و استند إلى صدور الرجال ثم قال لهم : أبالله تخوفوني؟؟!! إن كل واحد منكم قد طمع في هذا الأمر ، فلما سمع ما أريده لعمر ، ورم لذلك أنفه ، لكأني بكم و قد جاءتكم (أي الخلافة) فعمدتم على التأمر و استعمال الستور و نضائد الدياج لتتخذوها كسروية .. لا و الله لا أحببتكم إلى ما تريدون ، أي إذا لقيت ربي فسألني من استخلفت عليهم قلت استخلفت عليهم خير أهلهم (انتهى) .

كلام يوضح تماماً مقصود أبو بكر الصديق و مغزى مراده من قوله هذا ، ألا و هو الأمر السياسي لا غير . و إنما هنا نتساءل .. هل هذا الاستنكار و الاستهجان من تولية عمر بن الخطاب و استخلافه ، متعلق بعامل ديني أو سبب إيماني إسلامي؟؟ أي بمعنى هل أن عمرًا ناقص دين مثلاً أو ناقص إيمان أو مشوب إسلامه بشائبة ما؟؟ الجواب .. لا . و هل هم فعلوا ذلك حباً بعلي بن أبي طالب ، باعتبار الإشكال السابق في سقيفة بني ساعدة؟؟ لا و رب الكعبة ، و هم الذين خرجوا بعد ذلك على علي نفسه لأجل الخلافة و حاربوه ، و هم الذين قال فيهم عمر نفسه بفراصة صائبة في توصيفه لعثمان بن عفان و علي بن أبي طالب ^٢ " إن ولي عثمان ، حمل ابن أبي معيط و بني أمية على رقاب الناس ، وأعطاهم مال الله ، ولئن ولي ليفعلن والله ، ولئن فعل لتسيرن العرب إليه حتى تقتله في بيته .. والله يا ابن عباس إن علياً ابن عمك لأحق الناس بها ، ولكن

^١ الجمل للمفيد ، ص /٢١١/ .

^٢ اليعقوبي ، ص /٢٥٩/ .

قريشاً لا تحتمله ، و الله لئن وليهم ليأخذهم بمر الحق و لا يجدون عنده رخصة ،
ولئن فعل لينكثوا بيعته ثم ليتحاربين " .

التفسير الوحيد هو أن هؤلاء يعرفون أن عمر سيمنع الأمر السياسي من الولوج
و سيقوم الشريعة الإسلامية بالبحث في المجتمع الإسلامي . و بمنعه الأمر السياسي
، فإنه يكون قد منع المصالح الدنيوية و الفساد الإداري الذي لا بد خالق الفساد
الأخلاقي الاجتماعي .

و لا أدل على ذلك من كلام عمر نفسه عند استخلافه ، فكانت أول عبارة
قالها في أول خطاب له عندما صعد المنبر : إني قائل كلمات فأمنوا عليهن .. إنما
مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقود .. و أما أنا فو
رب الكعبة لأحملنهم على الطريق (انتهى) . إن عبارة (لأحملنهم على الطريق)
توضح وجود فكر جديد شرخ من الإسلام و شرخ فكري من أمر خارجي هو
نظام الملك السلطوي السياسي الخارجي لدى دول الجوار و الذي كان يعمل
في الصدور أيام الجاهلية الأولى . و باجتماع هذين الشرخين يتم تشكل مفهوم
إسلامي جديد مخالف لمنهج القرآن الكريم كتاب الله ، و هو ما قصده عمر بن
الخطاب (لأحملنهم على الطريق) و ما عناه من قبله أبو بكر الصديق برده على
البعض في قولهم بعمر و رده على عبد الرحمن بن عوف .

الحدث الثاني المباشر الذي كان على عمر بن الخطاب مواجهته لاجتثاث الأمر
السياسي الدنيوي الداهم ، هو عزل خالد بن الوليد ، و هو أول عمل قام به
عمر ، فور استلامه زمام الخلافة و دفتها . البعض استغرب هذا التصرف ، و
البعض الآخر عزاه إلى موتورات فيما بين عمرو خالد من قبل . و لسنا نرى
أصوب من مقالة عمر أنه فعل ذلك ، خشية أن يفتتن الناس بخالد . و معنى هذا
الافتتان واضح تماماً ، فهم لم يفتنوا به كإله يتبع و رب يعبد ، بل كشخص
مؤهل تماماً بنظرنا لأن يجسد الكيان السياسي و التفرد بالرأي ، فخالد بن الوليد
كان كثيراً ما أنفذ قرارات و تصرفات من عنده ، في عهد الرسول (ص) و أبو

بكر الصديق ، دون الرجوع إلى أحدهما في عهده ، وهو ما يسمى بعلم السياسة (التفرد بالقرار) و هو على الأرجح ما أثار مخاوف الخليفة عمرو توجسه من أمور لا تحمد عقباها . في بعض كتاب عمر إلى بعض الأمصار ، حول عزل خالد أنه قال : و الله إني لم أعزل خالداً عن سخطه و لا عن خيانة ، و لكن الناس فتنوا به ، فخفت أن ياكلوا إليه و يبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع و ألا يكونوا بعرض فتنة (انتهى) . بحثنا و دققنا في هذا الكلام فما وجدنا المطلوب و المقصود إلا الأمر السياسي . و تلت ذلك حوادث كثيرة حجة دلت في فحواها و مغزاها عن صراع فكري و مادي حقيقي بين عمر بن الخطاب و بين الأمر السياسي الذي بدأ يضغط للظهور مارداً من قمم الصدر العربي الذي اعتمل فيه ضاغطاً منعتة الصحراء و البيئة العربية من الخروج لكن وجد له في بعض مفاصل الفكر الإسلامي متنفساً و ثغراً للبروز . و من تلك الحوادث ، مثلاً لا حصراً^١ ..

— قال عمر : لئن عشت إن شاء الله ، لأسيرن في الرعية حولاً ، فإنني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلي وأما هم فلا يصلون إلي ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين .

— عن كعب الأحبار قال : نزلت على رجل يقال له مالك و كان جاراً لعمر بن الخطاب فقلت له كيف بالدخول على أمير المؤمنين ؟؟ فقال : ليس عليه باب ولا حجاب ، يصلي الصلاة ثم يقعد فيكلمه من شاء .

^١ الحوادث من تاريخ الطبري ، ج /٢/ ، ما لم يذكر خلاف ذلك .

— كان عمر إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول : إني لم أستعملكم على أمة محمد على أشعارهم ولا على أبشارهم إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل وإني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ولا لتجلدوا العرب فتذلوها ولا لتجمروها فتفتنوها ولا تغلفوا عنها فتحرموها .. جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد وأنا شريككم (انتهى) . و هذا دليل على انتفاء الأمر السياسي بتاتا و الثبوت على الأمر الديني البحت المجرد .

— خطب عمر بن الخطاب فقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إني و الله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستكم ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي ، فو الذي نفس عمر بيده لأقصنه منه ، فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه ؟؟ قال إي والذي نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه ، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه (انتهى) . هذا انتفاء لنظام الدولة و الكيان السياسي و إبراز أن وظيفة العمال هي دينية بحتة .

— جاء عمر بن الخطاب إلى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه ، فجاءت امرأة عبد الرحمن ففتحته ثم قالت له : لا تدخل حتى أدخل البيت و أجلس مجلسي ، فلم يدخل حتى جلست ثم قالت : ادخل ، فدخل ثم قال : هل من شيء ؟ فأنته بطعام فأكل و عبد الرحمن قائم يصلي ، فقال له عمر : تجوز أيها الرجل (أي عجل و اقصر من صلاتك) ، فسلم عبد الرحمن حينئذ ثم أقبل عليه فقال : ما جاء بك في هذه الساعة يا أمير المؤمنين قال : رفقة نزلت في ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة ، فانطلق فلنحرسهم . فانطلقا فأتيا السوق فقعدا

على نشز من الأرض يتحدثان ، فرفع لهما مصباح فقال عمر : ألم أنه عن المصاييح بعد النوم ؟ فانطلقا فإذا هم قوم على شراب لهم (أي يشربون الخمر) فقال عمر لابن عوف انطلق فقد عرفته . فلما أصبح أرسل إليه فقال : يا فلان كنت وأصحابك البارحة على شراب . قال : وما علمك يا أمير المؤمنين ؟ قال : شيء شهدته . فقال الرجل : أو لم ينهك الله عن التجسس ؟؟ . فتجاوز عمر عنه . هي حادثة تبرز انتفاء الأمر السياسي و انتفاء أي نظام للدولة أو مقوماتها ، و انتفاء للكادر الإداري التنفيذي فيها ، فأى رئيس دولة ، بنفسه يدور الليل و يستعين بصاحبه لحراسة بعض زوار المدينة خوفاً عليهم من السرقة . و في أثناء ذلك يكتشف شخصاً يخل بشيء من أمور الإسلام و حدوده و هو في بيته فيستدعيه باكر اليوم التالي ، لكنه يعفو عنه من منطلق الإسلام نفسه و حدوده ذاتها ، لا من منطلق قوانين دولة و نظام .

— قصته مع صبيغ العراقي¹ و هو رجل كان في مصر يسأل الناس بأمر في متشابه القرآن و مسائل معينة لم تذكر بالضبط و قيل أنه من الخوارج ، فلما أعيا عمرو بن العاص ، كتب إلى عمر يخبره بخبره ، فكتب إليه عمر أن أرسله مع قافلة البريد ، فلما وصلت القافلة المدينة و أخبر عمر بخبره ، طلبه إليه و عندما حضره ، سأله عمر عما يسأل ، فأجاب الرجل ، فأمر عمر بضربه حتى تسلخ جلده ، ثم طبعه ، ثم عاد فضربه ، ثم عاد فطبعه ، ففهم الرجل أخيراً مراد عمر منه فقال له : يا أمير المؤمنين إن أردت قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً و إلا فإنني قد شفيت ، فأطلقه عمر و أشخصه إلى أرضه و كتب إلى عامله هناك ، أبو موسى الأشعري أن لا يخالط الناس حتى يبرأ مما هو فيه . و بالرغم من الالتباس القوي في هذه الرواية و اضطراب دقيق حيثياتها و غشاوة بعض معطياتها ، إلا أننا إن حملناها على البدعة و السياسة ، فهي الأصح .

¹ كنز العمال ، ج / ٢ / ، ص / ٤٤٨ / .

— هذه حادثة توضح ما كان عمر يتوقعه و يتوجسه حاصلاً فيما بعد من ظهور الفرق و المذاهب و البدع ، و قد حصل فعلاً .. عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش (الصحابة) : بلغني أنكم تتخذون مجالس ؟ لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان ، حتى تحوميت المجالس ، و أيم الله إن هذا لسريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ، و لكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأي فلان ، قد قسموا الإسلام أقساماً .. أفيضوا مجالسكم بينكم و تجالسوا معاً فإنه أدموم لألفتكم و أهيب لكم في الناس .. اللهم ملوني و مللتهم و أحسست من نفسي و أحسوا مني و لا أدري بأينا يكون الكون ، و قد أعلم أن لهم قبلاً منهم فاقبضني إليك (انتهى) . و هذه المقالة الأخيرة لربما توضح أشد الإيضاح صيرورة الأمر بعد وفاة الرسول (ص) ، كما أن العبارة الأخيرة فيها ، شبيهة بعبارة أبو بكر الصديق حين حضرته الوفاة " و الله إني لشديد الوجد ، و ما ألقى منكم يا معشر المهاجرين أشد علي من وجعي .. و أنتم أول ضال بالناس غداً فتصدونهم عن الطريق يميناً و شمالاً " .

— استعمل عمر بن الخطاب أبا هريرة على البحرين ، فبلغه أخبار عنه بعد حين ، فطلبه إليه و أحصى ثروته و قال له : استعملتك على البحرين و أنت بلا نعلين ، ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف دينار و ستمائة دينار !!! فقال أبو هريرة : كانت لنا أفراساً تناجت و عطايا تلاحقت . فقال عمر : قد حسبت لك رزقك و مؤنتك و هذا فضل ، فأده . فقال أبو هريرة : هذا ليس لك . قال عمر : بلى و الله لأوجع ظهرك . ثم قام إليه بالدرة و جعل يضربه حتى أدماه ، ثم قال له : ائت بها . فقال أبو هريرة : احتسبتها لله . فقال عمر : ذلك لو أخذتها من حلال و أديتها طائعاً ، أجتت من أقصى حجر البحرين تجي الناس

لك؟؟ لا والله ولا للمسلمين .. ما رجعت بك أميمة (أم أبي هريرة) إلا لرعية الحمير^١ .

— غشي وفد من الصحابة المدينة و فيها عمر ، لما أرادوا الرحيل ، سار معهم عمر راجلاً مودعاً و هم ركوب ، و كانوا يابون ذلك عليه و يرجونه العودة فلا يصيخ إليهم . و عندما بلغ مشارف المدينة ، توقف للعودة ثم قال لهم : أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم .. إنما نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، مشيت أنت معنا . قال : لا .. إنما أنتم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تبدوهم بالأحاديث فيشغلونكم .. جردوا القرآن و أقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و أمضوا و أنا شريككم^٢ . لا يوجد تفسير سليم لهذه الحادثة ، إلا أن البعض جعل أحاديث الرسول (ص) أداة تحويل و ثغرة تأويل للتنظير للأمر السياسي الذي لم يجده في القرآن الكريم كتاب الله تعالى . و على ما يبدو ، فقد أدرك الخليفة عمر هذه النقطة .

— سمع عمر بعودة أبي سفيان من دمشق من عند ولده معاوية ، فوقع في نفس عمر أن معاوية قد زود والده بمال ، فطلب أبا سفيان و قال له : أجزنا يا أبا سفيان . فقال أبو سفيان : ما أصبنا شيئاً لنجزيك به . فمد عمر يده و نزع خاتماً من أصبع أبي سفيان ، ثم بعث رسولاً إلى زوجته هند و أمره أن يقول لها بلسان زوجها : انظري الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما . فما لبث الرسول أن عاد بخرجين فيها عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر في بيت المال .

كانت الفتوحات المتقدمة في الأراضي المتاخمة و الأموال و الثروات و الغنائم و السبايا و تشكل الولايات الجديدة ، قد أضحت عاملاً كبيراً ضاغطاً لا يمكن تجاهله و إغفاله ، أو مواجهته بطريقة تقليدية ، فقد كان يركب لنفسه منهجاً و

^١ تاريخ دمشق ، ج /٦٧/ ، ص /٣٧٠/ .

^٢ المستدرك على الصحيحين ، ج /١/ ، (ص) /١٨٣/ .

فكراً مواكباً ، و هو فكر سياسي بحت برز من خلال التعامل مع الشعوب و المناطق المفتوحة و الاحتكاك بثقافتها و فكرها . و لذلك .. فإنه ربما يكون الخليفة عمر بن الخطاب ، قد دفع حياته ثمناً لمواجهة هذا الفكر . و أنه إذا ما ثبتت وفاة أبو بكر الصديق بالسم حسب بعض الروايات ، فإن الخليفة عمر بن الخطاب هو بالتأكيد ضحية مخطط تغييري . و بنظرنا ، فإن حادثة مقتل عمر بن الخطاب حسب ما أجمعت عليها كل الروايات و السير ، هي حادثة هزيلة معيبة بحق هذا الرجل الكبير . و في الروايات ^١ .. خرج عمر بن الخطاب يوماً يطوف في السوق ، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة و كان نصرانياً فقال : يا أمير المؤمنين ، أعديني على المغيرة بن شعبة فإن عليّ خراجاً كثيراً . قال : وكم خراجك؟؟ . قال : درهمان . قال عمر : و أيش صناعتك؟؟ قال : نجار و نقاش و حداد . قال : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، قد بلغني أنك تقول لو أردت أن أعمل رحي تطحن بالريح فعلت ؟ قال : نعم . قال : فاعمل لي رحي . قال : لئن سلمت ، لأعملن لك رحي يتحدث بها من بالشرق والمغرب . ثم انصرف عنه ، فقال عمر : لقد توعدني العبد أنفاً . ثم انصرف عمر إلى منزله . فلما كان من الغد ، جاءه كعب الأحماس فقال له : يا أمير المؤمنين اعهد ، فإنك ميت في ثلاثة أيام . قال : وما يدريك؟؟ قال : أجدته في كتاب الله عز وجل التوراة . قال عمر : الله الله .. إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟؟!! قال : اللهم لا ، ولكني أجد صفتك و حليتك وأنه قد فني أجلك . و كان عمر لا يحس وجعاً ولا ألماً . فلما كان من الغد جاءه كعب فقال : يا أمير المؤمنين ، ذهب يوم و بقي يومان . ثم جاءه من غد الغد فقال : ذهب يومان و بقي يوم و ليلة وهي تلك إلى صبحتها . فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة و كان يوكل بالصفوف رجالاً ، فإذا استوت ، جاء هو فكبر .

^١ الطبري ، ج ٢/ ، (ص) ٧٣٥ .

ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرتة وهي التي قتلته (انتهى) .

عندما نقرأ هذه الرواية ، يتراءى لنا أحد أمرين لا ثالث لهما ..

الأمر الأول : أن مؤلف هذه الرواية يهزأ بنا إلى أبعد درجات الاستهزاء ، و يتضح ذلك من عدم منطوية الرواية لجهة المبررات و المسببات من ناحية ، و عدم منطويتها لجهة ارتباط الأحداث بعضها ببعض منجهة أخرى . فمنطق الرواية يصور لنا رجل يتصدى للخليفة عمر من أجل إعفائه من ضريبة درهمين فقط لا غير (أمر غير منطوي) . و عندما يسأله عمر عن مهنته (سؤال منطوي) يجيبه الرجل عن مهنة تدر مالاََ و فيراً (أمر غير منطوي) فيستغرب عمر منه ذلك (أمر منطوي) و يطلب منه أن يصنع له رحي ليؤجره عليها و يخفف عنه ، أو ليرى مهارته فيعفيه من الضريبة ، أو ليجعل له مكانة و عمل مرموقين (أمر منطوي) فيرد الرجل مهدداً متوعداً عمر (أمر غير منطوي) فيستغرب عمر تهديد الرجل له (أمر منطوي) . ثم فجأة يبرز مباشرة إلى مسرح الأحداث شخص لا علاقة له (ظاهرياً) بالموضوع ليخبر عمر أنه سوف يقتل بعد ثلاث أيام (أمر غير منطوي) إلا إذا كان له علاقة خفية بالموضوع و بالشخص (أمر منطوي) ، ثم يأتي كل يوم ليستعرض أمام عمر مقياس و عداد أيامه المتبقية و كم بقي له ليعيش ، و أن ذلك مكتوب بالتوراة (أمر .. غريب غامض) . و بدلاً من أن يلتفت عمر و ينتبه إلى تهديد الرجل له ، ينتبه إلى أن جسده سليم معافى من الأمراض (أمر غير منطوي) . و في هذه الأثناء و بعد كل هذه التهديد و الوعيد بالقتل ، و تحديد موعد الجريمة (بعد ثلاثة أيام) و كل يوم يتم التحذير منها ، لم يكلف أحد من الصحابة أو المسلمين ، نفسه عناء مراقبة الرجل أو مراقبة عمر و التحوُّط للعواقب ، و هذا من بدهيات الأمور (أمر غير منطوي) . و في موعد الجريمة التي أصبحت طنانة رنانة و كما يقال (بجلاجل)

مع تاريخ موعد تنفيذها ، يأتي منفذها أمام كل الناس و يقف بالصلاة خلف عمر دون أن يلاحظه أو ينتبه إليه أحد (أمر غير منطقي) ثم ينفذ عملية الاغتيال !!!؟؟ .

الأمر الثاني : هو أن راو الرواية و الحادثة ، يلغز بها و يسرد حيثياتها ، تورية دلالية لأمر آخر ، بحثنا فيه و نظرنا في مضمونه و دلالاته فلم نخلص إلا إلى أن هنالك أمر ما ، طلب من الخليفة عمر بن الخطاب و رفض هو القيام به ، و تم تحذيره من مغبة رفضه هذا و رفض التوقيع عليه و إمضائه ، و هدد بالموت بشكل غير مباشر . و كانت تقدم له إضبارة هذا المشروع يومياً للتوقيع (إن صحّت التسمية) مع التحذير المموه .. بقي ثلاثة أيام .. بقي يومان .. بقي يوم واحد .. أما ما هو هذا الشيء أو المشروع؟؟ فالله العليم .. هذا احتمال وارد لتفسير مقتل الخليفة عمر بن الخطاب ، قد يكون و قد لا يكون ، نقول ذلك من باب الاحتمال المنطقي الوارد الحدوث .

و يأتي مصير القاتل ليزيد المزيّد من الشبهات حول عملية الاغتيال تلك ففي بعض الروايات لا يُذكر مصيره أبداً و في بعضها الآخر يتم قتله على يد عبيد الله بن عمر ، بعد احتجازه مباشرة و قبل أخذ إفادته و استجوابه . و في روايات أخرى كالمسعودي ، فإن أبا لؤلؤة انتحر فور اعتقاله !!!!!! . و بالتالي .. طوي ملف قضية اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب ، و تم إقفالها بنظرنا (ضد مجهول)¹ .

و بقدم عثمان بن عفان ، تغير الوضع تماماً عما كان عليه و انحرف مسار البوصلة . فلم يعد الخليفة من ينام في العراء مطمئناً مؤمناً على نفسه ، ليفاجئ

¹ كنا قد ذكرنا هذا الموضوع في كتابنا السابق (الزمن العربي الرديء) ، (ص) /197/ .

برسول كسرى ، ويفاجئ رسول كسرى به عندما سأل عنه فدلوه عليه ، فقال له " يا عمر .. حكمت فعدلت فأمنت فنمت " . و لم يعد ذلك الخليفة الذي يخرج بنفسه ليلاً ليراقب أوضاع مدينته و أمورها و يبتز مفاستها و انحرافاتها و يسهر على أخلاقيات و سلوكيات أفرادها و مواطنيها . و لم يعد الخليفة هو الذي يدقق في كل شاردة و واردة مهما كان شكلها و حجمها و مصدرها ، فيجيزها إن أصابت ، و يمنعها أو يصوبها إن مالت ، و يعلو مصدرها بالدرة إن كان عامداً قاصداً فعلها ، حتى و لو كان من أصحاب رسول الله (ص) . و لم يعد الخليفة الذي يدقق في حسابات بيت المال على الفلوس الواحد ، كيف دخل و أين و لما خرج ؟ . و لم يعد الخليفة الذي يضع معايير مشددة صارمة على الولاة و العمال دونما أي اعتبار لقراية أو حسب و نسب أو مصالح ، بل هو معيار تقوى الله ، و لم يعد هو الذي يقيلهم و يعزلهم عند تذمر الرعية منهم . و لم يعد الخليفة هو الذي يراجع نفسه عند المواقف الكبرى الجسام كالوفاة مثلاً و يقول : ليتني كنت قد فعلت كذا و كذا ، و ليتني لم أفعل كذا و كذا ، و لو استقبلت من أمري ما استدبرت لفعلت كذا و ما فعلت كذا ، و يعبر عن امتعاضه و كراهته لمسؤوليات الخلافة الجسيمة الخطيرة و يطلب من الله أن يقيله منها و يريجه .. بل أصبح الخليفة يقول " لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله " و يقول .. لا أدري .. لست أنا من فعل هذا .. هذا أمر جرى من غير علمي و مشورتي !!!!!! .

لقد تغيرت الموازين عكس ذلك كله ، فأصبح الخليفة يولي أقاربه و نصرائه ، الولايات و الأمصار و يغدق عليهم أعطيات فاحشة من بيت المال دون غيرهم و يتغاضى عن أخطائهم و هفواتهم ، قلت أم كثرت .. صغرت أم كبرت ، و يتجاهل اعتراض الناس عليهم و على شبهات أمورهم و محدثاتها و على شبهات ماضيهم و تاريخهم . و أحد هؤلاء عبد الله بن أبي سرح الذي أمر رسول الله عند فتح مكة ، بقتله و لو تعلق بأستار الكعبة و رفض الشفاعة فيه .. كذا

الأمر ، نبذه الخليفان أبو بكر الصديق و عمر ابن الخطاب و لم يقبلا فيه شفاعة الشفيح ، حتى جاء عثمان بن عفان فولاه الولاية . فما لبث الناس لهذه الأسباب مجتمعة ، أن ثاروا على عثمان في الأمصار ، و طالبوه بالإصلاح أو التنحي و تسليم الأمر لغيره ، فرفض الأمرين معاً ، ما أدى إلى مقتله نهاية الأمر محاصراً في بيته .

لقد كان أساس الثورة على الخليفة عثمان بن عفان سببين اثنين ..

الأول : حال التناقض الهائل الواضح فيما بين أسلوبه و أسلوب من سبقه ، و بالذات في شكل نظام الحكم و طريقة إدارته ، حيث تحولت الخلافة إلى مجرد نظام حكم سياسي سلطوي أكثر منه نظام مجتمع ديني إداري . فكان مجال السياسة فيها أكثر من المجال الديني ، و بالتالي اكتسبت الصيغة السياسية أكثر منها الصبغة الدينية . كما جرت فيها أمور و أُجريت قرارات ، امتنع عن تنفيذها من سبقه ، إما من موجب أمور دينية بجحة أو اجتماعية عامة . فالخليفان أبو بكر الصديق و عمر بن الخطاب ، لم تكن الفتوحات الإسلامية عندهم باباً للسياسة و السيادة و التكسب و الغنائم و السيطرة ، قدر ما كانت حروباً دفاعية أو تصادمية ، لم يتركهم فيها أباطرة الروم و أكاسرة الفرس ، لشأنهم و إسلامهم و مجتمعاتهم .

فعلى سبيل المثال ، كان معاوية بن أبي سفيان والي دمشق ، قد طلب مراراً من الخليفة عمر بن الخطاب أن يسمح له بغزو جزيرة قبرص و أن يتمدد إلى ما وراء سورية الطبيعية ، فكان عمر يرفض دائماً و لا يرى سبباً موجباً لذلك . و في إحدى المرات ، كتب له معاوية يقول : يا أمير المؤمنين ، إن بالشّام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم (يعني قبرص) وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص . فرد عليه عمر رافضاً مهدداً حاسماً الأمر ، قائلاً : كيف لي أن أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب ؟؟ وتالله لحياة مسلم ، أحب إلي

مما حوت الروم ، فإنك أن تعرض لي بذلك مرة أخرى ، وقد تقدمت إليك وقد علمت ما لقي غيرك مني ولم أتقدم إليه في مثل ذلك ^١ (انتهى) .

كلام واضح ينفي اعتبار الإسلام أداة للغزو و السلب و النهب . و عندما ولي عثمان الخلافة ، أعاد معاوية عليه عرض غزو قبرص فأمضاه عثمان على الفور . ليس كلام عمر بن الخطاب : ليت بيني و بين فارس جبل من نار ، لا يأتوننا و لا نأتيهم .. أليس هو تصريح بليغ عن كراهة الفتوحات و التوسع فيها و الاكتفاء بمجتمع الجزيرة الإسلامي ؟؟ .

جاء في التاريخ ^٢ أن الناس بالكوفة شكوا أميرهم سعد بن أبي وقاص و هو من الصحابة ، إلى عمر بن الخطاب ، فبعث عمر محمد بن سلمة الأنصاري ، فحرق عليه باب قصره و عرضه في مساجد الكوفة يسأل الناس عنه ، فمنهم من حمده و منهم من شكاه ، فعزله عمر و استبدله بعمار بن ياسر . أما عثمان فقد جاءه الحكم بن العاص و ابنه مروان طريدا رسول الله (ص) و قد غرهما عن المدينة ، و استمر على ذلك خليفته أبو بكر و عمر ، فقرهما عثمان و أعلى من شأنهما ما أثار سخط السواد عليه . كذلك عامله على الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط و هو ممن أخبر عنه الرسول (ص) أنه من أهل النار . و عندما ولاه عثمان على الكوفة ، كان يشرب مع ندمائه من أول الليل حتى الصباح ، فلما آذنه المؤذن خرج إلى المحراب سكران و صلى أربعاً بدلاً م اثنتان ثم التفت إلى جمهوره قائلاً : أتريدون أن أزيدكم ؟ ثم سجد و قال : " اشرب و اسقني " فقال له بعض من كان خلفه بالصف الأول : و الله لا نعجب منك ، بل ممن بعثك إلينا والياً و علينا أميراً (انتهى) ^٣ . و فيه قال الحطيئة :

^١ الطبري ، ج /٢/ ، (ص) /٧٦١/ .

^٢ مروج الذهب ، ج /٢/ ، (ص) /٣٤٥/ .

^٣ نفس المصدر السابق .

شَهِدَ الحُطَيْبَةُ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنَّ الوَلِيدَ أَحَقُّ بِالعُدْرِ
 نادى وَقَد كَمَلتَ صَلَاتَهُمْ أَأزِيدُكُمْ ثَمَلًا وَمَا يَدْرِي
 لِيَزِيدَهُمْ خَيْرًا وَلَوْ قَبِلُوا لَقَرَنْتَ بَيْنَ الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ
 فَأَبُوا أَبَا وَهَبٍ وَلَوْ فَعَلُوا زَادَتِ صَلَاتُهُمْ عَلَى العَشْرِ

الثاني : ظهور التنظير الإيديولوجي الفكري المعارض لأعمال الخليفة عثمان بن عفان ، و كان أهم أسسه و أعمدته ، الصحابي أبو ذر الغفاري . الذي قاد ثورة فكرية مضادة لفكر الدولة السياسي السلطوي البحت ، في عهد عثمان بن عفان ، و الفساد المالي الإداري و الاجتماعي الذي اقترن بهذا الفكر . و نظراً لأن موضوع الكتاب ككل يتمحور حول الفكر العربي المعاصر مع شرح للفكر العربي السابق ، فإن مبحثنا هنا ، سيتناول العمل الفكري المضاد لحركة أبي ذر الغفاري .

قراءة فكرية لثورة أبي ذر الغفاري :

لقد شكلت حركة أبو ذر و ثورته ، سابقة فكرية من نوعها في التاريخ العربي ، لَمَّا يظهر لها قرين من قبل . فلأول مرة يظهر منظور فكري منطلقه الأمر الاجتماعي ، يتعلق أساساً بالظلم الاجتماعي و يحمل الصبغة الاشتراكية و يطالب بالمساواة الطبقية و العدالة الاجتماعية و توزيع الثروات . و هو منظور لم يكن ليحدث أبداً من قبل في فترة الجاهلية ، لأنه بكل بساطة أمر يستوفي شروطه الاجتماعية حصراً قبل السياسية ، و يتعلق في بعض جوانبه بالأمر الاقتصادي .. هو قد يرتبط بالأمر السياسي و يحتاج أو يعتمد عليه ليعبر كظاهرة ، لكن لا يشترطه شرطاً حتمياً بشكله الكامل ، بل أن جل ما يحتاجه

كحد أدنى ، هو نظام سلطوي معين .. اجتماعياً كان أم دينياً أم شبه سياسياً ، و يمتد على مساحة جغرافية كبيرة نوعاً ما تتناسب مع ما هو لنظام الدولة السياسي ، و هو ما لم يكن موجوداً يوماً ما في التاريخ العربي قبل الإسلام .

الأمر الثاني الذي يحتاجه المنظور الإيديولوجي الثوري الاجتماعي ، هو الأمر الاقتصادي ، و تحديداً ، توافر موارد مادية مالية هائلة ضخمة تتشابه مع مستوى نظام إمبراطوري كبير ، و هو أيضاً ما لم يكن ليحدث في التاريخ العربي قبلاً .

هذه الشروط الموضوعية التي لا بد من توافرها لنشوء نظرية أيديولوجية متعلقة بالأمر الاجتماعي و العدالة الاجتماعية و توزيع الثروات . و التي لم يكن العرب ليحلّموا بها ، أو في أحسن الأحوال ، كانوا يحلمون بها حلمًا و يتمنونها أمانياً ، جاء الإسلام و حققها لهم بكل بساطة .. سلطة اجتماعية مركزية .. أموال و ذهب و جواهر و نفائس و غنائم ، هائلة ضخمة تم استيرادها من بلدان الأعاجم المفتوحة . كان أحد أمثلتها .. كنوز كسرى التي جمعت و أرسلت إلى المدينة و كومت تلالاً تبهر الأنظار ، و نظراً لكبر حجمها ، لم يسعها المسجد فطرحت في باحته و عندما جلس الخليفة عمر بن الخطاب يجرسها ، نظر إلى أكوام الياقوت و الزبرجد و الجواهر و الذهب و بكى ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : ما يبكيك يا أمير المؤمنين !!؟؟ فو الله إن هذا لموطن شكر !! فقال عمر : والله ما أعطى الله هذا قوماً ، إلا تحاسدوا وتباغضوا و تحاسدوا و ألقى بأسهم بينهم ¹ . و قال عندما استلم بيت المال أول مرة : و الله ما أحد أحق بهذا المال من أحد .. و الله ما من المسلمين من أحد إلا و له في هذا المال نصيب .. و الله لعن بقيت لهم ، ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال و

¹ الطبري ، ج / ٢ ، ص / ٦٧٥ .

هو يرعى مكانه^١ . و قال أيضاً : لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء .

لكن عثمان فضلاً عن ذلك قد ألب كبار الصحابة عليه ببعض أعمال له في الحكم ، حتى هؤلاء الذين أغدق عليهم ، انقلبوا عليه نهاية الأمر ، و منهم من حرّض على قتله ، حتى عبد الرحمن بن عوف الذي اختاره خليفة من بعد عمر بن الخطاب ، انقلب عليه و هجره ، حتى قيل أنه (أي عثمان) عندما عاده في مرضه الأخير الذي ذهب به ، لم يكلمه ابن عوف و أدار ظهر له مشيحاً بوجهه عنه إلى الحائط . كما أنه قد نفى بعض صحابة رسول الله (ص) ، حيث سير عبد الرحمن بن حنبل صاحب رسول الله إلى القموس تخم خير ، و أمر بالصحابي الكبير عبد الله بن مسعود ، فجرّ من رجله حتى كسر له ضلع و وطئ جوفه و ضرب على رأسه حتى ذهب بعض عقله ، فكان لا يعقل صلاة الظهر من العصر ، و حرمه عطائه حتى مات^٢ . و ضرب الصحابي عمار بن ياسر حتى فتق و عزم على نفيه لولا أن تدخل علي بن أبي طالب و رهط آخرون .

هذه القضية إذا قرناها بمفهوم التناقض الفكري الذاتي القبلي الاجتماعي السلطوي في الجاهلية ، توضح صورة الوضع الاجتماعي المتلبس بالسياسي ، و توضح بعض السبب الأساس لنشوئها . فعندما نقول تناقض فكري ذاتي ، فهذا يعني احتمال في النفس الواحدة فيما بين نقيضين . و كنا قد ذكرنا النوع الثاني من التناقض الذي نشأ بعد ظهور الإسلام و هو التناقض الفردي أو الفتوي ، المتمايز .. فريق يريد كذا ، وفريق يريد كذا . و هذه الحالة هي مربوط فرسنا هنا ، و هي الحالة التي عرضت لرسول الله (ص) و عانى منها أحياناً كما عانى منها خليفته أبو بكر الصديق و عمر بن الخطاب ، و التي على ما يبدو حسب

^١ المصدر السابق ، ص /٧٤٣/ .

^٢ اليعقوبي ص /٢٦٦/ .

التاريخ ، قد مثلها بعض من فريق المؤلفة قلوبهم الوارد ذكرهم في القرآن الكريم ، و هم حسب التعريف الاصطلاحي الإسلامي .. من يعطى لهم بعض من المال لتثبت قلوبهم و عقولهم على الإسلام و تألفه . و ربما قد عانى أبو بكر و عمر من هذه الظاهرة ، حتى أن الخليفة عمر قد ألغى عطاء المؤلفة قلوبهم في عهده لاعتبارات عدة ، منها أن شوكة الإسلام قد قويت و لا حاجة بعدها للعطاء لمؤلفة البعض الذين ربما خشى عمر أن تصبح هذه عادة لديهم و يدمنوا على طلبها و يجرون عليها فيزداد ثراءهم بلا موجب سبب و لا مبرر منطوق .

أما الخليفة عثمان بن عفان ، فقد عانى منها هو أيضاً ، لكن من الوجه الآخر ، أي أنه عانى من تطبيقها لا من منعها أو الحد منها ، لا بل غالى فيها ، و بالتالي أثار النقيض الفكري للفريق الآخر ، فخرج أبو ذر الغفاري كأحد ممثلي هذا الفريق بما يختص بالجانب الفكري منه ، طارحاً فكرة العدالة الاجتماعية و تطبيق بنود العدالة الاشتراكية الإسلامية . و لعل الاضطهاد الذي عانى منه و القمع و النفي نهاية الأمر ، قد شكل مرتكزاً فكرياً إيديولوجياً ثانٍ للثورة . و لكن السؤال المطروح هنا هو ، ما هي المنطلقات النظرية الأساس لهذا الفريق عموماً و لفكر أبو ذر الغفاري خصوصاً ؟؟ أنه الفكر القرآني الذي كان النواة و الحاضنة الفكرية الشرعية و التشريعية لهذا الفكر في آن معاً ، أي هو فكر في أساسه أولاً ، و قانون فكري في شكله و مضمونه ثانياً ، و أساس شرعي يمنح الشرعية للفكر المستند إليه و الفعل المنبثق عنه .

كانت أهم حالة تتعلق بالعدالة الاجتماعية في القرآن الكريم ، هي بالتأكيد قضية توزيع الثروات و الأخذ بعين الاعتبار حالة الفقراء و المستويات الاجتماعية الدنيا في المجتمع ، و كان أهم مصطلح متعلق بهذه القضية ورد ذكره بالقرآن ، هو .. الزكاة التي جعلها القرآن الكريم بمرتبة حساسة خطيرة جداً جاءت مقرونة بالصلاة و تم ذكرها و شرحها بمواضع كثيرة في القرآن الكريم ، و التركيز عليها بشكل متواصل . و من أمثلة ما جاء في ذكره بالقرآن بخصوص الزكاة ..

{ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ... } [التوبة: ١٠٣] .
 { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
 وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
 الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا ... } [البقرة: ١٧٧] .

{ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } [البقرة: ٤٣] .
 { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ وَالْيَتَامَى
 وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } [البقرة: ٢١٥] .
 { إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤَثِّرُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
 وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [البقرة: ٢٧١] .
 { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْضِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَّا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ
 الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَّا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا وَمَا تَنْفِقُوا
 مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } [البقرة: ٢٧٣] .

{ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }
 [آل عمران: ٩٢] .
 { وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ
 لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [آل عمران: ١٨٠] .

{ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ
 الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا } [النساء: ٣٨] .
 { الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } [الأنفال: ٣] .

{ ... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ
 أَلِيمٍ * يَوْمَ يَحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ
 هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْزْتُمْ تَكْنِزُونَ } [التوبة: ٣٤-٣٥] .

{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

• [التوبة : ٦٠]

{ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنِ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ }

• [التوبة : ٧٥]

{ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّنْ قَبْلِ

أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ } [إبراهيم : ٣١] •

{ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا } [مريم : ٣١] •

{ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا } [مريم : ٥٥] •

{ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } [الحج : ٣٥] •

{ الَّذِينَ إِنْ مَكَتْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ } [الحج : ٤١] •

{ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ } [الذاريات : ١٩] •

فالزكاة إذن .. هي نوع من أنواع الاشتراكية ، لا بل هي أس من بعض أساسها كونها تعلقت بالأمر المالي الاقتصادي الاجتماعي معاً ، فهل الاشتراكية غير ذلك؟؟ وكونها تعلقت بنبذ الفوارق الطبقيّة الاجتماعيّة الفاحشة المهيّئة لطبقة كبيرة فقيرة مستعبدة اقتصادياً لفئة قليلة غنية ، فهل الاشتراكية غير ذلك؟؟ . فقد دعا الإسلام إلى أن يكون للفقير حقاً معلوماً من مال الغني ، و جعل الزكاة رديفة مع الصلاة و بأهميتها و كشرط لازم معها للإيمان ، ففرض على الأغنياء قسم يؤخذ من أموالهم كافة .. رؤوسها و أصولها وفرعها و عينها و يعطى للفقراء . و قد طبق الرسول (ص) هذا المبدأ القرآني ، فكان يبعث عماله و جباته إلى القبائل التي دخلت في الإسلام ليجبوا عشر منتجاتها و إيراداتها ، ثم

يقوم بتوزيعها عدلاً بين الناس و الفقراء حسب المنظور الإسلامي . و لأجل ذلك قال الشاعر أحمد شوقي فيه :

الاشْتِرَاكِيُونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ لَوْلَا دَعَاؤِ الْقَوْمِ وَالْغُلَّاءِ
 فَرَسَمْتَ بَعْدَكَ لِلْعِبَادِ حُكُومَةً لَا سَوْقَةَ فِيهَا وَلَا أُمْرَاءَ
 جَاءَتْ فَوَحَّدْتَ الزَّكَاةَ سَبِيلَهُ حَتَّى التَّقَى الْكِرْمَاءَ وَالْبِخْلَاءَ
 أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى فَالْكَلُّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ سَوَاءُ
 فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مِلَّةً مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفُقَرَاءَ .

و لذلك أصر الخليفة أبو بكر على مقاتلة مانعي الزكاة في أول عهده و عندما قال له عمر : كيف تقاتل الناس و قد قال رسول الله (ص) .. أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله و دمه ؟؟؟!! . فقال أبو بكر الصديق قولته المشهورة : و الله لأقاتلن من فرق بين الصلاة و الزكاة ، فالزكاة حق المال ، و الله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى الرسول (ص) لقاتلتهم عليه . هنا تبرز النظرة الاستراتيجية للأمر و قضاياها .

كما دعا الإسلام إلى حركة رأس المال و دورته في ضمن نطاق عملية إنتاجية لقمع البطالة أو التخفيف منها إلى أقصى حد ممكن . و هذا كله نوع من الاشتراكية التي تختلف اختلافاً جذرياً عن الشيوعية التي تلغي حق الملكية و التملك و حرة التصرف بهما و تساوي بالمطلق فيما بين الناس و هو ما ليس له وجود بالإسلام ، بل نقيضه . فالإسلام أقر بحق الملكية و احترامه ، لكنه قضى بأن لا يكون ذلك أداة للهيمنة الفاحشة و التسلط الاجتماعي السليبي على الناس { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ... } [الحشر: ٧] .

{ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } [الروم : ٣٩] .

و اعترف بالتفاوت بين البشر لجهة العلم و الإمكانيات و القدرات و فاضل فيما بينهم حتى على المستوى الطبقي الاجتماعي { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } [الأنعام : ١٦٥] .
{ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآ خِزْيَةَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } [الإسراء : ٢١] .

{ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ } [النساء : ٩٥] .
{ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [الزمر : ٩] .
لكن ذلك كله ضمن شرط العدالة الاجتماعية .

بدا أبو ذر أول عهده بالصدام مع الخليفة عثمان بن عفان في المدينة . و كان قد رأى تغير الأمور و المقادير من حال إلى حال و بداية ظهور حالة الملك البحت و تجلي مظاهر أجهته من ترف و إسراف ، و رأى كثر من الصحابة قد بدأوا يتغيرون عما كانوا عليه من قبل .. فالزبير و طلحة و عبد الرحمن بن عوف ، قد اقتنوا الضياع و بنوا الدور الضخمة الفخمة الفاخرة ، فسعد بن أبي وقاص قد بنى داره بالعقيق فرفعها درجات و دور و جعل في أعلاها شرفات . ثم علم أن عثمان قد أعطى مروان بن الحكم خمس خراج أفريقية ، و الحارث بن أبي العاص ثلاث مئة ألف درهم و غيرهم من أصحاب الشبهات كثر . فبدأ من المسجد يجرس الناس و يتلو الآية { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } .

و كثر تحريض أبو ذر و انتشر فكان يذيع أمر عثمان و يشهر مثالبه في المسجد و الشارع و الأسواق ، فاستدعاه عثمان عليه و جرت بينهما مناقشات كثر ،

لم يفلح فيها عثمان بنثيه عن أمره لا بالترغيب و لا بالتهديد ، فأشخصه إلى دمشق حيث معاوية بن أبي سفيان ، ظناً منه ربما أن أبا ذر فعل ما فعل لموجدة فيما بينهما ، لكن تلك كانت غلطة استراتيجية فادحة من عثمان لم ينتبه إلى عواقبها و ما ستؤول إليه مجريات أحداثها .

في دمشق ، حاول معاوية بن أبي سفيان استمالة أبا ذر إليه فلم يفلح في ذلك ، إذ كان أبا ذر ينتقد في تصرفات معاوية أموراً كثيرة . فكلما بنى معاوية بناء أو أعطى عطاء ، كان أبو ذر له بالمرصاد . و يستنتج من بعض الحوارات التي دارت فيما بينهما أن معاوية بن أبي سفيان كان له رأي آخر حاز على بعض مبرراته ، و توضح لنا بعض هذه المناقشات فيما بينهما أن معاوية كان له وجهة نظر منطقية من جهته هو ، يريد أن يقنع أبا ذر بها ، و أن الخلاف هو خلاف فكري بين فريقين لكل منهما مبرراته المنطقية .. الفريق الأول ، فريق أبو ذر المتبني لنظرية المجتمع الإسلامي البسيط ، و الثاني فريق معاوية المتبني لنظرية الدولة و النظام السياسي الذي لا بد لقيامه و نشوئه ، من حيثيات مالية و اقتصادية و اجتماعية و سياسية . و لم يكن أبا ذر بعيد عن معاوية في بعض آرائه و أفكاره حيث شارك في جيشه الذي كان يغزو الروم ، و شارك في جيشه حين غزا قبرص ، لكنه كان يرى أموراً جديدة غريبة عنه لم يسمع بها قبلاً و هي على الأرجح النظم السياسية لهيكلية إدارة الدولة السياسية و المالية و الاجتماعية ، فكان يقول : لقد حدثت أعمال ما أعرفها و ما هي بكتاب الله و لا بسنة رسوله !!؟؟ . فهل كان جهله بهذه الأعمال سبب لرفضه لها ؟؟ أم أنه عرفها و أدركها لكنه رفضها من الأساس لأنها لم تأت على منجله الفكري العقائدي ؟؟ فأبو ذر كان يندد بأمور و أشياء لا تسمح ببناء نظام دولة عصري موافق لما هو عليه الدول المجاورة . و في إحدى حواراته مع معاوية احتج عليه

بأنه يسمى المال ، مال الله لا مال المسلمين ^١ . فقال له : يا معاوية ، ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين ، مال الله؟؟!! . فرد معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر .. ألسنا عباد الله ؟ و المال ماله؟؟!! . فقال أبو ذر : لا تقل ذلك . فأجاب معاوية : كما تشاء .. سأقول مال المسلمين . ثم سأله : يا أبا ذر ، ما الذي أوجدك علينا؟؟!! . قال أبو ذر : إن أموال الفيء من حقوق المسلمين و ليس لك أن تختزن منها . أجاب معاوية : يا أبا ذر ، إني لا أكثر المال كما تظن ، لكني أدخره لأصرفه في وجوه المصالح العامة ، و إني لا أبخل على المسلمين بالمال ، فما تركت من سبيل يجب أن ينفق فيها ، إلا أنفقت فيها . و استمر الجدل فيما بينها فقال له معاوية أخيراً : يا أبا ذر . ارجع عما أنت فيه ، فإنك و الله تقود الناس إلى فتنة لا يعلم مداها إلا علام الغيوب (انتهى) .

لكن أبا ذر ما لبث أن صار بتحريضه الفكري الإيديولوجي ، بين أهل دمشق و نواحيها ، و بلغ الأمر معاوية فكتب إلى عثمان : إنك قد أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر ^٢ . فأمر به عثمان فعاد إلى المدينة و عاد معها إلى سيرته الأولى في النقد و الانتقاد لطريقة توزيع المال و التصرف به . فنفاه عثمان إلى الربذة ، و السبب المباشر لنفيه إليها ، هو مشادة كلامية بين أبي ذر و بين كعب الأحبار ، و كان قد أسلم ، حيث سأل عثمان كعب : أيجوز للإمام أن يأخذ من المال ، فإذا أيسر ، قضى؟؟ فأجاب كعب بنعم ، فنارت نائرة أبو ذر و شتم كعب على جوابه ، فكانت على ما يبدو القشة التي قصمت ظهر البعير بنظر عثمان بن عفان ، فأمر به إلى الربذة حيث مات هناك .

إن الذين خرجوا على الخليفة عثمان بن عفان و عارضوه و حرضوا عليه ، قد انقسموا إلى فريقين .. الفريق الأول هو الفريق الذي استفاد منه لكنه خرج عليه لأنه خص أقرباءه بالعطاء أكثر منهم و ولّاهم الولايات و الأمصار دونهم . فهذا

^١ أبو ذر الغفاري ، ص /١٧٣/ .

^٢ اليعقوبي ، ص /٢٦٧/ .

عمرو بن العاص الذي كان مؤيداً لعثمان بن عفان عندما كان والياً لمصر في عهده ، لكنه انقلب ضده عندما عزله عثمان عن مصر و ولى مكانه أخاه بالرضاعة ، عبد الله بن أبي سرح ، فأثار ذلك وجد عمرو عليه . و أخذ يجرس الناس عليه و يؤلبهم ضده حتى قال هو عن نفسه : و الله كنت لألقى الراعي فأحرضه عليه (أي على عثمان) ^١ . و حسب التاريخ ، فإن عثمان أبقى عمرو على إمامة الصلاة في مصر و لم يعزله إلا عن خراجها مصر ، يعني منعه عن المال .. يعني عن البنس .. ففعل به ما فعل . و كان يصيح به قائلاً : اتق الله يا عثمان ، فإنك قد ركبت نهابير و ركبتها معك ، فتب إلى الله نتب معك . فيصيح به عثمان : أنت هناك يا بن النابغة؟؟ قملت والله جبتك مذ عزلتك عن العمل ^٢ .

لكن هذا الفريق ، تسامح مع عثمان ببقية الشؤون الأخرى و لم يعتبرها أمراً ذو شأن ، و لم يدقق عليه في كل شاردة و واردة ، و لم يضيق عليه في تعقيدات الأمور و تغيراتها ، و ما عارضه بقضية توزيع المال بشكل أساس . هذا الفريق بالذات تعامل مع قضية معارضة عثمان ، من باب ركوب الموجة ، ذلك عندما احتدمت الأمور بينه و بين معارضيه الأساس .

الفريق الثاني .. هو الفريق الذي نقم عليه في كل أفعاله و ليس قسم منها ، و دقق عليه في كل شاردة و واردة . و كان أكثر ما دقق عليه فيه أكثر من غيره ، هو طريقة توزيعه للمال . و اختلف هذا الفريق مع الفريق الأول ، بأنه ركز على قضية التقشف و الزهد في الدنيا ، و التشدد في التصرفات ، و المساواة المطلقة بين الفقراء و الأغنياء ، و التركيز على قضية شكل و هيئة نظام الحكم و أسلوبه . فأبي تغيير ، كان يثير الحفيظة و ردات الفعل . فأبو ذر ، كثيراً ما كان يستشهد بأفعال رسول الله (ص) و أبو بكر الصديق و عمر بن الخطاب ، و

^١ الطبري ، ج /٢/ ، (ص) /٧٩٩/ .

^٢ نفس المصدر السابق .

كيفية زهدهم بالدنيا ، فكان يردد على مسامع الجمهور و يضرب لهم الأمثلة بأن هؤلاء كانوا يياتون أحياناً بلا أكل و أنهم كانوا ينامون على الحصير و أحياناً على الأرض و أحياناً كانوا لا يجدون قوت يومهم ، و أن عمر قد حج إلى مكة ببيعير واحد و ستة عشر درهماً فقط ، و أن .. و أن .. الخ . و هي أمور لا يمكنها بحال من الأحوال أن تنطبق على كل الناس ، فالبشر لهم أجناسهم و أهواؤهم ، و ذلك ما كان في بداية الإسلام حيث لا كيان دولة و لا كيان سياسي .

و يلاحظ أن هذا الفريق قد أنكر مفهوم و نظام الدولة و الملك الذي على ما يبدو ، قد قبل به الفريق الأول و من والى عثمان و كانوا يعملون له . فعندما عزل عثمان الصحابي الجليل الكبير سعد بن أبي وقاص عن الكوفة و ولى مكانه الوليد بن عقبة الذي نزلت فيه آية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)^١ . فلما قدم الوليد لشغل منصبه ، قال له سعد مستهزئاً مستغرباً : أكست بعدنا أم حمقنا بعدك !!!؟؟؟ فقال الوليد : لا تجزعن .. كل ذلك لم يكن ، و إنما هو الملك يتغده قوم و يتعشاه آخرون. فقال سعد: أراكم جعلتموها ملكاً؟؟؟ فقال ابن مسعود مؤيداً سعد و مستغرباً كلام الوليد بن عقبة : و الله ما أدري .. أصلحت بعدنا أم فسد الناس؟؟؟!^٢ .

و بنظرنا ، فإنه كما كان العرب في الجاهلية محاطين بأنظمة حكم و كيانات سياسية بحتة ، تتمظهر في بعض منها بالشكل الديني ، و لم تكن هذه الدول و الكيانات تتعامل معهم سياسياً ، بل تعاملت معهم على أساس تابع و متبوع ، بل لم تكن تحسب لهم حساب في موازين القوى العالمية . و لذلك تركتهم و صراعهم الداخلية و قتالهم الذاتي فيما بعضهم ببعض ، و لم تتدخل يوماً بينهم

^١ معظم كتب التفسير و الفقه و الشرع أجمعت على ذلك .

^٢ الكامل في التاريخ ، ج /٢/ ، حوادث سنة /٢٥/ .

حتى و لو مزقوا بعضهم بعضا ، سنيماً طوال . كذلك كان الأمر في العهد الراشدي ، لكن هنا كانت هذه الدول و الكيانات ، تحتك بهم مباشرة و تعاملهم على أنهم كيان سياسي مثلها تماماً ، و تدخلهم في دائرة الصراع السياسي و العسكري الإجباريين ، معها . و لذلك ، فإن الأمر السياسي السلطوي ، قد فرض نفسه عنوة على العرب ، سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوه . فكيف إذا كانوا يريدوه أو يريد به البعض منهم ممن كان يعمل في نفوسهم حب السلطة الرياسة و الملك ، و هو ما افتقدوه طويلاً؟؟ .

من الناحية التحليلية السياسية الاجتماعية و التاريخية ، لا يمكننا إسقاط هذه الإشكاليات الطرفية ، على مسلك النوايا الإنسانية و حملها على محمل الخير أو الشر ، و على المحمل العاطفي الغرائزي - و ليس بالضرورة أننا ننفي ذلك - بل جل ما يمكن أن يسقط عليه ، هو الأمر الفكري ، الداخلي و الخارجي . و بصراحة و بكل بساطة ، وجد في شبه الجزيرة العربية بعد الإسلام ، حالتين فكريتين ، أو فريقين يمثل كل منهما حالة فكرية مختلفة عن الأخرى . الفريق الأول يريد التعامل مع الحالة الراهنة ، أو الإشكالية الفكرية المتحصلة ، بتطبيق الدين مجرداً و معزولاً عن أي أمر آخر ، و بناء مجتمع إسلامي متجانس اجتماعياً ، و ليس بالضرورة أن يكون كذلك فكرياً ، لقبول احتوائه على عناصر و مكونات اجتماعية دينية غير إسلامية ، تُفرض عليها الجزية و تكون خاضعة للقوانين الإدارية الاجتماعية العرفية للإسلام و ليس الدينية . و الدليل على ذلك ، هو أن هؤلاء قد بقوا على أديانهم و عقائدهم .. و كل ما ارتبطوا به مع نظام الحكم المجتمعي الإسلامي ، هو الرابطة المالي و الاجتماعي فقط ، أي يدفعون الجزية و يكون لهم ما للمسلمين ، و عليهم ما على للمسلمين .

و السؤال المطروح بشدة هنا ، هو لماذا لا يتم تصنيف هذه العلاقة المجتمعية بين أديان مختلفة تحت سلطة إسلامية ، تكون هي النموذج لدولة سياسية إسلامية؟؟ الجواب هو أن هذا كان من الممكن أن يكون صحيحاً لو توافرت مقومات

الدولة السياسية . نعم .. لقد توافرت مقومات حكم و سلطة ، لكنها اقتصرت على الأمر الاجتماعي ، أي سلطة مجتمع إسلامي ، و لم تتوافر أبداً مقومات الدولة السياسية من حجاب و وزراء و جيوش نظامية و تخطيط و تنظيم و هيكلية سياسية تنظيمية ، بل كل ما كان هنالك ، هو جيش غير نظامي ، و نظام إداري مالي بسيط أساسه بيت المال و جباة الضرائب و إعادة توزيع المال على أفراد المجتمع ، كل حسب حاجته و أيضاً بطريقة بسيطة انتفت فيها العوامل السياسية و مقومات كيان الدولة ، فكان المصدر الأساس في التشريع الإسلامي ، القرآن الكريم ، صارماً في ذلك و واضحاً في الوقت نفسه { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (الحشر: ٧) .

مرَّ عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل ، و كان شيخ ضير البصر، فضرب عضده من خلفه و سأله : من أي أهل الكتاب أنت ؟ فقال: يهودي . قال : فما أبلأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده و ذهب به إلى منزله ، فرضخ له بشيء من المنزل ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباه ، فو الله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم .. إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ .. والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب. ضع عنه الجزية وعن ضربائه و اصرف له ^١ .

وفي صلح خالد بن الوليد مع أهل الحيرة في زمن أبي بكر الصديق ، جاء في عقده معهم ما يلي : وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت عنه جزيته ، و عيل من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الهجرة والإسلام ^٢ .

^١ محاسن التأويل ، ج /٥/ ، (ص) /٣٨٤/ .

^٢ كتاب الخراج ، (ص) /١٥٧/ .

فهذا الفريق نظر إلى المجتمع من ناحية الأعراف و القوانين الإسلامية الاجتماعية و لم ينظر أبداً إلى مفهوم السلطة ، و تجاهله بل حاربه و منعه و ألغاه . فهو إذن فريق كيان المجتمع الإسلامي أو فريق كيان الإسلام الاجتماعي . و ما ذكرناه سابقاً عن ذلك ، هو كافٍ .

أما الفريق الآخر ، فكان ينظر من الناحية الفكرية إلى نظام الدولة من خلال الإسلام ، أو ربما الأصح أنه كان ينظر إلى الإسلام من خلال كيان الدولة السياسي ، فهي بالحصلة كانت الهدف النهائي له ، و لذلك استخدم الإسلام أو اعتمد على الإسلام كعامل مساعد لتأسيس كيان الدولة . فمن الناحية الفكرية الإيديولوجية ، لا يصح بالضرورة طرح الخلافات الحاصلة بعد وفاة الرسول (ص) ، على بساط المذهب و العقيدة و حصرها به ، أي على سبيل المثال .. سنة و شيعة ، أو مذهب آل البيت و مذهب أهل السنة و الجماعة . و ليس بالضرورة في مقالنا هذا ، أننا ننفي ذلك .

لكن مبررات فريق كيان الدولة السياسي و مقوماته المادية و المنطقية ، كانت طاغية إلى حد كبير ، و السبب الأساس فيها ، هو أن كل أنظمة الحكم في العالم آنذاك و قبل ذاك و بعد ذاك ، هي أنظمة حكم سياسية ، تتمظهر في بعض منها بالدين . و طبقاً لذلك ، كان المجتمع الإسلامي أو الإسلام المجتمعي ، عبارة عن جزيرة اجتماعية بحتة محاطة ببحر متلاطم من الكيانات السياسية . و على ما يبدو فقد ذهب الخلفاء الراشدون .. أبو بكر الصديق و عمر بن الخطاب و علي بن أبي طالب ، ضحية هذا الصراع الفكري ، أما عثمان بن عفان ، فقد ذهب ضحيته لكن من الاتجاه الآخر المعاكس ، أي الثورة عليه .

لقد ذهب عثمان بن عفان ضحية تبنيه مشروع بناء الدولة السياسي البحت ذي الصبغة الإسلامية أو الواجهة الإسلامية . و إحدى دلائل ذلك ، هو لافتة غريبة، فبالرغم من كل تصرفاته و أعماله المناقضة تماماً لأعمال أسلافه و التي تجاوزت حداً بعيداً لا يمكن القبول به ، و تجاوزت الخطوط الحمر ، و ما ذكر

سابقاً ، كان بعضاً منها . و بالرغم من استهجان الصحابة لتصرفاته و نقتهم عليه و ثورتهم ، و استعار نار الحقد و الكره له ، حتى وصلت إلى حد محاصرته في داره و تهديده بالقتل ، بالرغم من كل ذلك ، لم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه و لم يتنازل لكل هؤلاء الصحابة و لا عن مطلب واحد من مطالبهم ، لا بل كان يعدهم الوعود و يخلفها بعد ذلك ، بالرغم من نصائح بعض كبراء القوم و الصحابة له ، و مثال ذلك كلام علي بن أبي طالب الشهير له عندما استنجد به عثمان قائلاً له ¹ : يا أبا الحسن .. إنه قد كان من الناس ما قد رأيت و كان مني ما قد علمت ، و لست آمنهم على قتلي ، فارددهم عني فإن لهم الله عز و جل أن أعتبهم من كل ما يكرهون و أن أعطيهم الحق من نفسي و من غيري . فقال له علي : يا عثمان .. الناس إلى عدلك أحوج منه إلى قتلك .. و إنني لأرى قوماً لا يرضون إلا بالرضا (أي قبول بعض مطالبهم المحقة) ، و قد كنت أعطيتهم في قدمتهم الأولى عهداً من الله لترجعن عن جميع ما نقموا فرددتهم عنك ثم لم تف لهم بشيء من ذلك فلا تغرني هذه المرة من شيء (انتهى) . ليس ذلك فقط ، بل إنه تعرض للقتل في بيته أكثر من مرة ، حيث كان الثائرون يتسورون داره و يداهمونه في عقرها و على فراشه ، و يطرحونه أرضاً ، يجمون عليه واضعين أسيافهم فوق عنقه ، و رماحهم على صدره ، يسمعونه أقسى العبارات و أغلظ الكلمات ، مع عزمهم على قتله ، ثم يرتدون عنه ، و هو لا يزال مصراً على موقفه لا يتزحزح عنه ، حتى أدى ذلك إلى قتله في النهاية بنفس الطريقة التي كانوا يهددونه بها . و لم يطلب حتى أن يريجه الله منهم و من الخلافة كما فعل أبو بكر و عمر من قبله ، و علي من بعده الذي وصل به الأمر من إعياء الناس له أن كان يقول : من يخضب هذه من هذه . مشيراً إلى رأسه و لحيته . لا ريب أن التفسير الوحيد لذلك هو وجود أمر أكبر من عثمان نفسه .. وجود مشروع

¹ الطبري ، ج ٢ / ص ٨٠٣ .

ضحخم يأكل الأخضر و اليابس و لا يقف في وجهه شيء إذا ما قويت ناره و استوت عدته و يتم التضحية ببعض بنائيه وصولاً إلى اكتماله . و لا ريب أنه لا أدل على ذلك من أن حادثة مقتل عثمان بن عفان ، تشوبها الشوائب كما أسلافه ، فهنالك اختلاف حول القاتل ، و حتى الآن لا توجد رواية دامغة قاطعة عن شخصية قاتله و مصيره ، و كلها .. قيل قتله فلان و قيل بل فلان ، و قيل لا بل فلان ، و لعل أكثرها إثارة للضحك و السخرية ما جاء في بعضها من أن قاتل عثمان .. رجل يقال له (الموت الأسود)^١ !!!! ما يذكرنا بأفلام (البوكيمون) ، و في بعضها الآخر .. قيل بل هو رجل أشقر أزرق يقال له حمار^٢ . و لسنا ندرى والله من هو هذا الحمار الذي يقبل أن يسمى بالحمار ، إلا إذا كان الراوي كعادته يستهزأ بنا و يجعلنا سخريته و مهزلته ، كعهده في رواية مقتل عمر بن الخطاب . يعني القضية هي كالعادة ضد مجهول ، يعني أيها القارئ المبجل .. اذهب و انطح رأسك بالحائط .

خلافة الإمام علي بن أبي طالب :

آلت الخلافة بعد عثمان بن عفان إلى الإمام علي بن أبي طالب الذي ، كان من الواضح أنه أمام بركان هائل متفجر اختلطت فيه الأوراق و اختلفت المفاهيم اختلافاً جذرياً ، و فرض نظام الدولة السياسي مقوماته الفكرية و ركائزه الإيديولوجية بقوة ، و ابتعد الناس عن القيم الروحية للإسلام و أصبح هنالك من يقول : هذا السواد كله بستاناً لقريش^٣ . يعني أن كل الأراضي التي فتحها المسلمون هي حديقة خلفية مملوكة لقبيلة .

^١ المصدر السابق .

^٢ الصواعق المحرقة ، ج /١/ ، ص /٣٢٦/ .

^٣ هو الوليد بن عقبة أحد ولاة عثمان ، و قد مر ذكره .

و بالرغم من أن علي بن أبي طالب قد بويع بالخلافة من قبل عموم الجمهور ، فإنه قد أضحى أمام إشكاليات فكرية سياسية معقدة ، أصبح من الصعب تخطيطها و تجاوزها و إغفال وجودها ، و السبب في ذلك ، هو أن الفكر العربي السائد قد أصبح فكراً سياسياً متجاوزاً مرحلة الجاهلية و متخطياً البعض الأكبر من مرحلة المجتمع الإسلامي . و كان لا بد من التعامل مع ذلك ، بأحد خيارين .. إما التعامل معه من الداخل ، بمقارنته و الولوج إليه ، أو النأي عنه تماماً و التعامل معه من منظور إسلامي بحت مجرد .

و على ما يبدو فإن الإمام علي بن أبي طالب قد اعتمد الخيار الثاني ، و هو نفسه الخيار الذي سلكه سلفاه أبو بكر الصديق و عمر بن الخطاب ، في التعامل مع الأمر السياسي الضاغط ، حيث آثرا التعامل معه من الخارج و صده قدر الإمكان ، بالاعتماد على الأمر الديني الإسلامي الاجتماعي البحت ، و تحصيله من أي اختراق ، كما فعل الرسول (ص) ، و قد ذكرنا بعض شواهد من ذلك فيما سبق .

لكن ما ميز الفارق بين ذاك و ذاك ، هو أن فترة أبو بكر الصديق و عمر بن الخطاب ، كانت فترة تحصين للأمر الديني الإسلامي الاجتماعي الغير مخترق سلفاً من الأمر السياسي ، و منع أية محاولة اختراق له . فلم يكونا مضطرين لمقارنته (أي السياسي) أو التعامل معه من الداخل ، لأنه بالأساس لم يدخل جسم المجتمع الإسلامي بالرغم من كل المحاولات الحثيثة لذلك كما رأينا من قبل، فكان دورهما ، دور حراسة و مراقبة . بينما فترة الإمام علي كانت تعامل مع أمر سياسي قد اخترق جسم المجتمع الإسلامي و فشا فيه بشكل كبير . فلم تعد القضية قضية حماية و تحصين و حراسة ، بل تعامل مع قضية داخلية مستوطنة ، أكثر منها خارجية داهمة ، و إشكالية فكرية مستعصية لا بد لحلها ،

من الاصطدام بأكثر من طرف و قضية . و يدل على ذلك من بعض الحوادث في بداية خلافته و منها :

— تردده بادئ الأمر في قبول الخلافة ، بالرغم من إلحاح جمهور الصحابة و العامة . و الواضح أنه قد أدرك الوضع الذي آلت إليه الأمور ، و عارف بما سيواجهه من مشاكل و أحداث .

— رفضه النصح من كبار السن و من عركتهم تجارب الحياة أو دهاء السياسة ، فهذا المغيرة بن شعبة المعروف بدهائه قد جاءه فور استلامه الخلافة و قال له ^١ : إن لك حق الطاعة والنصيحة وإن الرأي اليوم تحرز به ما في غد وإن الضياع اليوم تضيع به ما في غد .. وإني لك ناصح ، و إني أشير عليك برّد عمال عثمان عامك هذا ، فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم ، فإذا بايعوا لك واطمأن الأمر لك ، عزلت من أحببت وأقررت من أحببت . فرفض علي قائلاً : و الله لا أدهن في ديني ولا أعطي الدين في أمري . فقال المغيرة : فإن كنت قد أبيت ذلك فانزع من شئت و اترك معاوية فإن لمعاوية جرأة وهو في أهل الشام يسمع منه و لك حجة في إثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام كلها . فرفض علي ذلك و قال : لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبداً . فخرج المغيرة من عنده ثم عاد إليه في اليوم التالي فقال : إني أشرت عليك بما أشرت به فأبيت علي ، ثم نظرت في الأمر فإذا أنت مصيب ، لا ينبغي لك أن تأخذ أمرك بخدعة ولا يكون في أمرك دلسة ، و إن الرأي أن تعاجلهم بالتزوع فيعرف السامع من غيره ويستقبل أمرك . ثم خرج و تلقاه ابن عباس خارجاً وهو داخل فلما انتهى إلى علي قال : رأيت المغيرة خرج من عندك فميم جاءك !!! قال : جاعني أمس بكذا و كذا ، و جاعني اليوم بكذا و كذا . فقال له العباس : أما أمس ، فو الله

^١ الطبري ، ج ٣/ ، ص ٨٣٠/ .

قد نصحك .. وأما اليوم ، فو الله قد غشك . و قد قال المغيرة في ذلك :
نصحته والله ، فلما لم يقبل ، غششته . و بدوره ، نصحه ابن العباس قائلاً :
وأنا أشير عليك بأن تثبت معاوية ، فإن بايع لك فإن أضمن أن أقلعه من منزله .
فقال علي : لا والله لا أعطيه إلا السيف . فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين ،
أنت رجل شجاع لست بأرب بالحرب .. أما سمعت رسول الله يقول : الحرب
خدعة !!؟؟ فقال علي : بلى ، فقال له ابن عباس : أما والله لئن أطعني ،
لأصدرن بهم بعد ورد ، و لأتركنهم ينظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان
وجهها في غير نقصان عليك ولا إثم لك . فرفض علي عرض ابن عباس قائلاً :
يا بن عباس لست من هنيئاتك وهنيئات معاوية في شيء ، تشير علي وأرى فإذا
عصيتك فأطعني . فقال ابن عباس : كما تشاء إن أيسر ما لك عندي الطاعة¹ .

و هذا البند بالذات ، هو ما يبين وجهة نظرنا السابقة بالدلالة . فكان رأي
هؤلاء لعلي ، أن يواجه الأمر السياسي بالأمر السياسي نفسه ، لا الديني ، و
الفكر السياسي بالفكر السياسي لا الديني . و كان رأي ابن عباس صائباً حينما
برر موقفه بالاعتماد على حديث الرسول (ص) " إن الحرب خدعة " . و
المقصود هنا واضح تماماً و هو الأمر السياسي عينه ، حيث لم تكن الحرب قد
بدأت وقتها .

— رفضه مبدأ المناورة و السياسة ، حتى في حروبه مع خصومه ، و بالذات
معاوية بن أبي سفيان ، علماً أن خصومه كانوا سياسيين لا دينيين ، بمعنى أن
الخصومة هي ذات لبوس سياسي لا ديني . ليس ذلك فقط ، بل أنهم كانوا
يستخدمون في حربهم معه ، كل أساليب السياسة و المناورات و التكتيكات
السياسية ، من اغتيال و تصفيات و سم و إشاعات ... الخ ، دوغما مواربة أو

¹ نفس المصدر السابق .

إخفاء . و هي أمور قد لا يستقيم الأمر السياسي دونها أحياناً ، حال التطورات الخطيرة و الحروب و المواجهة المباشر ، بينما نأى هو بنفسه عن هذا المنهج بالرغم من نصح بعض مستشاريه و أعوانه له ، ما أثار حفيظة البعض الآخر . و بعض أمثلة ذلك دون الحصر .. ما حدث في إحدى جولات معركة صفين بين جيشه و جيش معاوية حينما غلب جيش الأخير على نبع ماء ، فمنعوا جيش علي عنه و قد أصابهم العطش ، وعندما كر عليهم هؤلاء و حازوا الماء منهم أرادوا منعهم كما منعهم ، فأبى الإمام علي ذلك .

أيضاً حادثة قيس بن سعد الأنصاري الذي ولاه على مصر و كان أكثر عماله دهاءً و ذكاءً و حنكةً سياسية ، و إخلاصاً في الوقت نفسه ، حيث استطاع أن يضم إليه الأطراف في مصر كافة .. الموالية و المعارضة ، فجعل منها دعماً قوياً ، و في أسوأ الأحوال ، طرفاً محايداً لا خطر منه . و عبثاً حاول معاوية معه بكل السبل ، حتى أنه عرض عليه أن يولييه ما يشاء إن هو انحاز له ، فلم يفلح ، و رد قيس عليه رداً أليماً قاسياً . و ما أفلح معاوية أخيراً إلا عن طريق علي بن أبي طالب نفسه ، حيث جاء في السير^١ .. أن معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص كانا جاهدين على أن يخرجوا قيس بن سعد من مصر ليغلبا عليها ، فكان قد امتنع فيها بالدهاء و المكايدة فلم يقدر على ولاه على أن يفتتح مصر ، حتى كاد معاوية بن قيس بن سعد من قبل علي . و كان معاوية يقول : ما ابتدعت مكايدة قط كانت أعجب عندي من مكايدة كدت بها قيساً من قبل علي وهو بالعراق حين امتنع مني قيس ، فقد قلت لأهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة يأتينا كييس نصيحته سراً .. ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتنا ؟ يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه في شيء .. فلما بلغ

^١ المصدر السابق ، ج /٣/ ، ص /٨٧٤/ .

ذلك علياً ، اتهم قيساً وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتنا ، وأهل خربتنا يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس بن سعد أن يقاتلهم وكتب إلى علي إنهم وجوه أهل مصر وأشرفهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا مني أن أوّمن سرّهم وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم وقد علمت أن هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر أهون علي وعليك من الذي أفعل بهم ولو أني غزوتهم كانوا لي قرناً وهم أسود العرب ومنهم بسر بن أبي أرطأة ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج فذرتني فأنا أعلم بما أداري منهم . فأبى علي إلا قتالهم و اتهم قيساً بذلك ، فكتب قيس إلى علي : إن كنت تتهمني فاعزلني عن عملك وابعث إليه غيري . فبعث علي مالك بن الأشتر أميراً إلى مصر حتى إذا صار بالقلزم شرب شربة عسل كان فيها حتفه فبلغ خبره معاوية وعمراً فقال عمرو : إن لله جنداً من عسل . و هذه الحادثة بالذات توضح تماماً أن معاوية بن أبي سفيان كان يعرف أن الإمام علي لا يتعامل معه بالأمر السياسي بتاتاً ، بل بالأمر الديني البحت المجرد ، فوظف ذلك ضده . و قد أجاب علي بن أبي طالب نفسه عن هذا التساؤل بقوله ¹ : و الله ما معاوية بأدهى مني و لا أثبت ، و لكنه يفعل كذا و كذا .. و الله لولا كراهيتي لذلك ، لكنت من أدهى الناس (انتهى) . و من الواضح أنه يقصد بذلك الأمر السياسي و نأيه عنه . و من الواضح أن ذلك يدحض مقولة البعض بأن لا عهد له و لا باع في السياسة أو الفكر السياسي . و لا أدل على ذلك من أنه و بالرغم من بعض أفعاله التي أثارت حفيظة البعض من أتباعه و التي دلت في منحائها ، على أخطاء إستراتيجية ، و كل ما ذكر سابقاً ، فإنه قد انتصر في كل معاركه الحربية مع خصومه ، و لم يهزم و لا في معركة واحدة . و ذلك من المستحيل أن يتأتى للغر الجاهل أو حديث العهد و الخبرة بأمور الحكم و السلطة و أساليب السياسة ، كيف لا و هو أول من أدرك

¹ نهج البلاغة .

خدعة التحكيم و حذر منها . و لا أدل على ذلك من كل ذلك ، كتاب نهج البلاغة الذي بلغت شهرته و حكمه و بليغ كلامه ، العالم كله و سطرت شهرته الآفاق .

حدثت واقعة التحكيم و ما شابها من ملبسات و شبهات كان من نتائجها أن انشق الخوارج عن الإمام علي و ناصبوه العدا و القتال ، و طرحوا فكراً غريباً بعض الشيء ، كانت يافطته الأساس (لا حكم إلا لله) قال فيها الإمام علي (كلام حق يراد به باطل) ، و قال قولته الشهيرة في ذلك " لا بد لهذه الأمة من إمام ير أو فاجر " . و قد وقعت معارك عدة بينه و بينهم ، تخللها مناظرات طويلة ، كان الإمام علي يقول في نهايتها " الآن حَقَّ قتالهم " . و كان البعض منهم يقتنع بكلامه و يرتد عما هو عليه و يعود للانضمام إلى جيشه . و بعد انتصاره عليهم ، تفرغ لقتال معاوية من جديد ، لكنه اغتيل على يد أحدهم و يدعى عبد الرحمن بن ملجم ، و هو أحد أعضاء فريق كانت مهمته اغتيال علي بن أبي طالب و معاوية بن أبي سفيان و عمرو بن العاص . لكن الأخيرين قد نجيا .

بعد وفاة الإمام علي بن أبي طالب ، صالح ابنه ، الحسن بن علي ، معاوية بن أبي سفيان على الخلافة ، و بموته مسموماً حسب الروايات ، آل الأمر جميعه إلى معاوية بن أبي سفيان لتنتهي بذلك فترة الخلافة الراشدة و يبدأ عهد جديد هو عهد الدولة و كيانها السياسي .

لقد كانت نهاية العصر الراشدي ، هي نهاية فترة صدر الإسلام التي بدأت بالدعوة المحمدية و انتهت بقيام دولة بني أمية ، و البعض يدعوها (صدر الإسلام الأول) . و هذه الفترة قد شكلت روح الفكر الإسلامي كله الذي بدأ

معها و أخذ شكله المتعارف عليه من خلالها ، و كان أساسه القرآن الكريم كمرجع فكري للنقاش و الحوار .

و قد تمثلت مرحلة صدر الإسلام ، بفترات حروب داخلية ثلاث ، كانت جميعها إما أساس لمخاض فكري تغييري متعمل ، أو نتيجة له .. إما مقدمة أو نتيجة . و لا نستطيع التكهن بالضبط ما إذا كانت مقدمة و نتيجة في آن معاً ، و بالأخص الأواخر من الصدر الإسلامي ، من مقتل عثمان و حتى بداية الحكم الأموي . ، حيث كانت فترة فكرية ملتبسة ملغومة مشبوهة ، تداخلت فيها الأمور و أشباهها و تمازجت فيها المفاهيم و نظائرها .

أول هذه الحروب ، كانت حروب الدعوة المحمدية التي عملت على تغيير الفكر العربي ، من فكر جاهلي جماعي مناطقي عفوي بسيط ، متشرذم مراكز القوى و القرار ، إلى فكر مجتمعي ديني سلطوي مركزي واحد القوى . لا هو بالبسيط الهين ، و لا هو بالصعب المستصعب ، لكنه الأمر بين أمرين .. فكر وسطي مقبول (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ...) (البقرة: من الآية ١٤٣) .

و تميزت هذه الحروب بأنها ليست حروب أشخاص و لا لأجل أشخاص ، بل لأجل عقائد و معتقدات ، أبرزها الديني يتلوه المادي الاقتصادي و الاجتماعي .

ثاني هذه الحروب ، كانت حروب الردة في عهد أبو بكر الصديق . و هي أيضاً حروب عقيدة ذات مخاض فكري ما بين الإسلام و الجاهلية ، أو ما بين الإسلام و الأمر السياسي الجديد الذي حاول جاهداً العثور على ثغرة يلج منها ، و تمثل ذلك بأدعياء النبوة . و بدورها لم تكن تلك الحروب بسبب أشخاص أو لأجل أشخاص ، بشكل أساس ، بالرغم من بروز بعض الأشخاص فيها بشكل واضح كدعي النبوة مسيلمة بن حبيب التميمي . لكن فاحت منها رائحة الأمر المادي

الاقتصادي الاجتماعي أيضاً ، بسبب الخلاف حول الزكاة و الرياسة و الزعامة و الملك . فكانت الوسط الفكري بين الأولى و الثالثة .

ثالث الحروب ، هي الحروب الحاصلة أثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان و كانت بالأساس بين الإمام علي و معارضيه جميعاً . و تمثلت هذه الحروب بانتفاء العامل العقائدي الديني منها و اقتصارها صراحة على الأمر السياسي ، فهي مثلت حالة مواجهة علنية مباشرة بين الأمر السياسي و الأمر الديني ، مع بعض الشبهات العقائدية الغامضة (الخوارج) . و كانت جميعها بسبب أشخاص و لأجل أشخاص و بين أشخاص . جاء في التاريخ¹ أن عبد الله بن أبي محجن الثقفي قدم على معاوية بن أبي سفيان و هو في حربته مع علي فقال له : أتيتك من عند الغبي الجبان البخيل ، علي بن أبي طالب . فقال معاوية : ويحك .. !!! أتدري ما قلت ؟؟؟!! أما قولك الغبي ، فو الله لو أن ألسن الناس جُمعت فجُعِلت في لسان واحد ، لكفاها لسان علي بن أبي طالب ، و أما قولك إنه جبان ، فثكلتك أمك .. هل رأيت أحد قط بارزه إلا قتله ؟؟؟!! و أما قولك إنه بخيل ، فو الله لو كان له بيتان ، أحدهما من تبر و الآخر من تبن ، لأنفذ تبره قبل تبنه . فصاح الثقفي متعجباً : فعلام تقاتله إذن ؟؟؟!! قال معاوية : علي دم عثمان و علي هذا الخاتم الذي من جعله في يده ، جازت طينته و أطعم عياله و ادّخر لأهله . فضحك الثقفي ثم عاد و لحق بعلي .

من خلال كل ما سبق و ما تم شرحه حول صراع فكريين أساسيين في فترة صدر الإسلام ، و على وجه الخصوص ، فترة العهد الراشدي ، هما الفكر الديني و الفكر السياسي .. تبرز قضية هامة جداً و على درجة من الخطورة ، هي المبررات المنطقية الفكرية . و خطورة هذا المصطلح و أهميته ، تنبع من خلال

¹ الإمامة و السياسية ، ص / ١١٤ .

تجاهله أو سوء فهمه أحياناً ، و حمله على محمل آخر غير محمله الصواب أو الحقيقي . و بشكل أوضح ، تعارض أخلاقياته مع أخلاقيات مفهوم آخر ، أشكل معه و تشابه فيه .

و لكي نوضح عامل الدقة هنا ، نسوق أحد أمثلة على ذلك ، و هو الفارق الفكري فيما بين كيان الدولة السياسي و كيان المجتمع الديني الاجتماعية التكافلي الأخلاقي . فالمبررات المنطقية الفكرية لنشوء كيان سياسي سلطوي و كيان دولة نظامي عرفي لأي مجتمع ، لا بد له من أحد مقوماته المنطقية النظرية و العملية ، و هو تراكم رأس المال بأي شكل من الأشكال .. الأخلاقي أو غير الأخلاقي .. الشرعي أو غير الشرعي . و لا يمكن قيام كيان دولة سياسي دون تراكم رأس مال ضخم ، و إلا بقي الأمر تحت نطاق المجتمع أو الجماعة المتفرقة ، لا يتعداه و لا يمكن له أن يتعداه بحال من الأحوال ، و هو ما كان يحصل في فترة الجاهلية و فترة الرسول (ص) و الخليفتين أبو بكر الصديق و عمر بن الخطاب . ففي فترة الجاهلية تعذر إنشاء هذا الكيان بالرغم من لهفة العربي آنذاك لهذا النظام (نظام الملك) و حرقته المعتملة في صدره لإنشائه ، ذلك لافتقاره إلى رأس المال اللازم لإنشاء هذا الكيان من جهة ، و عدم قدرته الفكرية و المادية و اللوجستية على إنشاء سلطة مركزية قادرة و فعّالة بسبب ظروف عدة فعمد إلى تلبّس بعض أشكال نظم الملكية الوهمية ، كحال كليب وائل و عمرو بن هند و امرؤ القيس و غيرهم و هي حالات طريفة تثير الضحك و السخرية ، ذكرنا أسبابها قبلاً . و في فترة الرسول (ص) تعذر إنشاء هذا الكيان أيضاً ، بالرغم من توفر السلطة المركزية ، و شيء من تراكم المال . و تعود أسباب ذلك إلى وجود مانع فكري ديني ينفي الأمر السياسي بشدة . أما في عهد عثمان بن عفان فقد جرى التأسيس العملي لذلك و جرى الحديث عن نظام الدولة و الملك في ذلك العهد ، بالتزامن مع التأسيس لهما مالياً و إدارياً

كما رأينا قبلاً ، و يبدو أن عثمان بن عفان قد دفع ضريبة ذلك . و لقد بين القرآن الكريم هذا النقطة بوضوح تام لا لبس فيه و لا جدال حينما قال (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الحشر:٧) .. آية واضحة تماماً تنهى أولاً عن كيان الدولة السياسي و تورد توصيات بهذا الشأن تقول إنه يجب منع تراكم رأس المال في أيدي فئة قليلة كي لا يؤدي ذلك إلى الدولة . أي أن إنشاء كيان الدولة السياسي لا يستقيم إلا بتمركز المال في أيدي فئة النخبة أو طبقة المألأ . و لعلنا نلاحظ في التاريخ أن أهم شيء كان يفعله الرسول (ص) و الخلفاء الثلاثة أبو بكر و عمر و علي ، هو توزيع واردات بيت المال . فعندما جمع عمر غنائم كسرى و مجوهراته التي غطت باحة المسجد أمر بتوزيعها على الناس . و يقال أن الإحصاء الذي بدأ بعهده ، كان سببه الأساس هذا الأمر حيث أمر بإحصاء الناس لمعرفة من ينوبه المال من أهل المدينة و من هم خارجها . كذا الأمر عندما استلم الإمام علي الخلافة كان أول شيء فعله ، هو أنه ذهب إلى بيت المال و أمر بتوزيع جميع وارداته على الناس ، و بعد أن فرغ من ذلك ، قام بكنسه ثم جلس فيه . و ذلك كله لا يستقيم مع إنشاء كيان دولة سياسي . و كلام معاوية لأبي ذر الغفاري الذي سبق ذكره ، يستقيم مع ذلك .

قراءة فكرية للعصر الأموي :

جاء بنو أمية و جاء معهم مفهوم فكري جديد و شبه ثوري عما قبله .. تبدلت معالم السلطة و المجتمع ، و تبدلت معالم الحياة الاجتماعية ، و أضيفت معالم

فكرية جديدة حملت معها آثارها المادية الفعلية على أرض الواقع . و هي لم تكن موجودة من قبل في المجتمع العربي ، لا الراشدي و لا الحمدي و لا الجاهلي. لكنها بالتأكيد لم تكن غريبة عنه ، و لم تشكل حادثة فكرية على عقل العربي و ذهنيته . فهو قد رآها في الدول و المجتمعات المجاورة التي كانت تستخدم هذه المفاهيم و تطبقها على نفسها و مجتمعاتها ، كدول ذات كيان سياسي مستقل . و ها هو العربي الآن قد انقلب عليها و احتلها باسم الإسلام ، و أخذ يطبق عليها ما طبقته هي على نفسها . و لم يكن ليستطيع ذلك ، لو لم يتحول هو نفسه إلى ما كانت هي عليه . فلأول مرة ظهر ما يسمى بالحجابه و رئيس الديوان و رئيس الجند ، و الجيوش النظامية الثابتة المتمركزة في مناطق معينة أو المرابطة على الثغور ، و الفرق العسكرية المحترفة ... الخ . و لأول مرة يتكلم الخليفة كلاماً جديداً ذا مفاهيم فكرية سياسية جديدة كل الجدة ، لم تألفها العقول و لا سمعتها الأذان من قبل ذلك من الرسول (ص) أو الخلفاء . و ذلك ليواكب التطورات السياسية الحاصلة و المستجدة . و لأول مرة يكلف الخليفة (معاوية) شخصاً غيره بأمامة الصلاة في الناس بدلاً منه ، و هي قضية تدلل على فصل الأمر الديني عن السياسي .

لقد كان أهم حدث فكري مثل التغييرات الفكرية الحاصلة ، هو أن أصبح الخليفة يمثل قمة الهرم السياسي ، أكثر مما يمثل قمة الهرم الروحي الديني . فعندما اعتلى معاوية المنبر ، كان أول ما قاله ¹ : أيها الناس .. و الله ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتزكوا ، و قد عرفت أنكم تفعلون ذلك ، و لكن إنما قاتلتكم لأنتم عليكم ، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون . و قوله : إن الرسول قال لي : يا معاوية إذا ملكت فأحسن .

¹ البداية و النهاية ، ج /٨/ ، ص /١٣١/ .

و أصبحت الخلافة ملك عضوض ، و أصبح الخليفة يسمى ملك العرب . ليس هذا فقط ، بل أن مفهوم الكيان السياسي للدولة قد ترسخ ، بأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد و هو على قيد الحياة و قبل أن تحضره الوفاة و تستدبره الدنيا ، و حمل الناس على ذلك ، فتمت البيعة ليزيد في الأمصار و معاوية حي يرزق على رأس خلافته ، حتى أشكل الأمر على بعض الصحابة و منهم ابن الزبير الذي قال لمعاوية حين طلب منه البيعة لابنه يزيد ^١ : لعلك مللت الخلافة و أردتنا أن تتركها ليزيد فنبايعه !!!؟؟؟ فإن كان كذلك فاعتزلها و هلم يزيد لنبايعه .. رأيت أن بايعنا ابنك معك ، فلايكما نسمع و نطيع !!!؟؟؟ لا و الله لا نجمع لكما البيعة أبداً .

و هذه الظاهرة السابقة ، تعرف اليوم بما يسمى (ولاية العهد) ، و المبايع بها يسمى (ولي العهد) و تكون عادة لابن الخليفة أو الحاكم . و هي ظاهرة قد حسمت الجدل و الخلاف بشأن السلطة و الملك إلى حد كبير و رسخت الاستقرار أكثر ، بغض النظر عن صوابيتها الدينية و بغض النظر عن صلاحية ولي العهد و أهليته لها . فقد أجرى معاوية البيعة لولده يزيد بالرغم من اعتراض جمهور كبير من الصحابة و الناس على ذلك . فهي بالأساس ذات منشأ سياسي و منبتها تربة سياسية .

لقد كان معاوية بن أبي سفيان ، صاحب دولة و رئاسة ، و فكره فكر دولة و رئاسة . فهو أول من وضع البريد و نظمه و ألحقه بشؤون الدولة . و أول من جعل نظام للوزارة ، فكان يخصص بعض يومه لوزرائه يكلمهم و يكلمونه في شؤون الدولة . و أول من جعل المقصورة بالجامع ، و أول من ضرب الحجابة بينه و بين الناس ، و أول من جعل الخاتم الرسمي على البريد ^٢ .

^١ تاريخ الخلفاء ، ص /١٥٧/ .
^٢ المصدر السابق ، ص /١٦٣/ .

و ربما أدرك معاوية استحالة الإبقاء على الأمر الديني البحت كما كان عليه الحال في عهد الخلفاء السابقين ، بعد كل هذه الحروب و ما راح فيها من ضحايا و ما أنتجته من تضارب للمفاهيم و العقول . جاء في التاريخ¹ أن معاوية بعد تملكه ، قدم المدينة عام الجماعة ، فتلقاها رجال من وجوه قريش ، فقالوا له : الحمد لله الذي أعز نصرك و أعلا أمرك . فما رد عليهم جواباً ، حتى دخل المدينة ، فقصد المسجد و علا المنبر و قال : أيها الناس ، إني و الله ما وليت أمركم حيث وليته ، و أنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي و لا تحبونها ، و إني والله لعالم ما في نفوسكم من ذلك ، و لكني خالستكم بسيفي هذا مخالسة ، و قد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة (يقصد أبو بكر الصديق) ، فلم أجدها (أي الخلافة) تقوم بذلك و لا تقدر عليه .. و أردتها على عمل ابن الخطاب ، فكانت (أي الخلافة) أشد نفوراً و أعظم هرباً .. غير أنني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة و لكم فيه مثل ذلك ، و لكل فيه موأكلة حسنة و مشربة جميلة (هي السياسة) ما استقامت السيرة و حسنت الطاعة .. فإن لم تجدوني خيركم ، فأنا خير لكم (انتهى) . هذه خطبة واضحة تشرح و تفي بالغرض .

و لا أدل على اعتماد معاوية المنهج السياسي ، من كلامه هو نفسه ، و حيثيات خطاباته الفكرية للناس ، و رسائله لعماله على الأمصار ، و اعتماده منهج الحلم و المهادنة و السياسة ذاتها في التعامل مع الناس . فكان يقول : إني لا أحول بين الناس و بين ألسنتهم ، ما لم يحولوا بيني و بين ملكي . و هو القائل : إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، و لا سوطي حيث يكفيني لساني . و مقولته الشهيرة عن شعرته التي أضحت و لا زالت إلى اليوم مبدأ أساس من مبادئ السياسة الدولية ما بين الدول ، أو العامة فيما بين الأفراد أنفسهم ، و المسمى

¹ البداية و النهاية ، ج / ٨ ، ص / ١٣٢ .

(شعرة معاوية) حيث يقول: لو أن بيني وبين الناس شعرة، ما قطعتها، فإن شدوها أرخيتها، وإن أرخوها سحبتها.

و في الحوادث^١ أن رجلاً دخل على معاوية في خلافته، فأغلظ له القول و أسمع ما لا يجب، فقال له معاوية باسمًا شارحاً مهدداً: يا بن أخي.. أهلك عن السلطان، فإن السلطان يغضب غضب الصبي و يأخذ أخذ الأسد. ثم قضى حاجته.

و دخل عليه عدي بن حاتم الطائي و كان من أنصار علي بن أبي طالب. فقال له معاوية: ما صنع أولادك؟؟ قال: قتلوا مع علي. قال معاوية: فما أنصفك علي، قتل أولادك و بقي أولاده؟؟!! قال عدي: ما أنصفت علياً إذ قتل و بقيت بعده (يقصد معاوية). فقال معاوية مهدداً: أما أنه قد بقيت قطرة من دم عثمان ما يمحوها إلا دم شريف من أشرف اليمن (يقصده عدياً). فكشر عدي عن أنيابه و قال بغضب: و الله إن قلوبنا التي أبغضناك بها، لفي صدورنا و إن أسيفنا التي قاتلناك بها، لعلى عواتقنا.. و لئن أدنيت إلينا من الشر فترا، لندنين لك منه شبراً.. و إن حز الحلقوم و حشرجة الحيزوم لأهون علينا من أن نسمع المساءة في علي، فسلم يا معاوية السيف لباعث السيف. فصاح معاوية بندمائه: و يحكم.. هذه حكم فاكتبوها، ثم أقبل على عدي ملاطفاً محادثاً كأنه ما حصل شيء^٢.

و من حلمه و دهائه أن رجلاً من الكوفة من أصحاب علي بن أبي طالب دخل الشام على بعير له، فتعلق به أحد عوامها و ضج قائلاً: هذه ناقتي. و ضج الاثنان فيما بينهما، فارتفع أمرهما إلى معاوية. و أقام الدمشقي خمسين رجلاً

^١ المصدر السابق.

^٢ مروج الذهب، ج ٣/ باب خلافة معاوية.

يشهدون أنها ناقته ، فحكم معاوية للدمشقي ، فصاح الكوفي بمعاوية : أصلحك الله ، هذا جمل و ليس بناقة !!! . فقال معاوية : هذا حكم قد مضى . ثم دس للكوفي بعد تفرق الناس من أحضره إليه ، فقال له : قد كنت أعلم ذلك . و أعطاه ضعف ثمن بيعه و بره و وصله ثم قال له : أنبئ علياً أنني أقاتله بمائة ألف لا يفرقون بين الناقة و الجمل .

و في كلام له بعد ملكه ، لعائشة بنت عثمان بن عفان عندما صاحت به تندب أباه ، قال لها : يا ابنة أخي .. إن الناس أعطونا سلطاننا ، فأظهرنا لهم حلماً تحت غضب ، و أظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، فبعناهم هذا بهذا ، و باعونا هذا بهذا .. فإن أعطيناهم غير ما اشتروا منا ، شحوا علينا بحقنا و غمطناهم بحقهم . فإن نكثناهم ، نكثوا بنا ، ثم لا ندري ، أتكون الدائرة لنا أم علينا ، و أن تكون ابنة عثمان أمير المؤمنين ، أحب إلي أن تكوني أمة من إماء المسلمين ^١ .

و استعمل زياد بن أبيه في زمانه ، رجلاً على خراج ، فكسر خراجه ، ففر الرجل إلى معاوية ، فكتب إليه زياد بمعاقبته ، فرد معاوية : ليس لي و لا لك أن نسوس الناس بسياسة واحدة ، أن نلين جميعاً فتمرح الناس في المعصية ، أو نشدد جميعاً فتهلك الناس في المهالك ، و لكن تكون أنت للشدة و الفظاظة ، و أكون أنا للرفاة و اللين ^٢ .

و في أخباره أنه في بعض يومه يقعد فيحضر دفاتر فيها أخبار العرب و أيامها ، و العجم و ملوكها و سياستها لرعيته ، و سر ملوك الأمم و حروبها و مكايدها و سياستها لرعيته و غير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، فيقرأ ذلك

^١ البداية و النهاية ، مصدر سابق .

^٢ تاريخ الخلفاء ، ص /١٦١/ .

عليه غلمان مرتبون قد وكلوا بحفظها و قراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة ، جمل من الأخبار و السير و الآثار و أنواع السياسات ¹ .

إن كل ما سبق ، يمكن إدراجه تحت سياق و بند الفكر السياسي المهني لنظام الدولة و نظام الملك . و لا يستقيم نظام دولة قوي ، دونما هذا الفكر و هذه السياسة . و هذه المبررات الفكرية التي أوردناها سابقاً ، تسوق بنا إلى نتيجة منطقية ، و هي أن الفكر السياسي الناظم لمفهوم الدولة النظامي ، نظام الملك الرسمي ، يتنافى للأسف مع نظام المجتمع الديني البحت ، و مع النظام القبلي التقليدي . و نافلة القول .. أن ذلك لا ينفي في مضمونه ، اجتماع هذه المفاهيم السلطوية بعضها مع بعض ضمن حيز جغرافي واحد و تعایشها بعضها مع بعض ، لكنها لا تشترك معاً في نظام حكم واحد ، ففي ذلك استحالة ، و لا بد لأحدهما من الغلبة على قرينه و إن ناوشه أحدهما أو كليهما ذلك . و هو ما رأينا في استعراض ما سبق من حوادث . فقد استحال على معاوية بن أبي سفيان ، تطبيق النظام الديني الاجتماعي البحت ، و هو ما يستدل عليها من كلامه السابق مع ابنة عثمان بن عفان و كذا كلامه مع رهط من قريش عندما وفد المدينة . كما استحال عليه أن يتصرف تصرف الجاهلية الأولى . و لو أنه فعل كما فعل أدعياء الملك آنذاك ككليب وائل أو عمرو بن هند و غيرهما ، و اتخذ أسوتهم سبيل له ، لسقط حكماً و ما بقي في موقع القيادة ، و ربما الحياة ، يوماً واحداً .

أسس معاوية كيان دولة سياسي ، وصل إلى مستوى الإمبراطورية . و عندما دنا أجله ، أوصى يزيداً ابنه بوصايا عدة هامة ، دلت على بعد نظره لنتائج الأعمال و عواقب الأمور ، و دلت أيضاً على نظره السياسية و نظام الملك . و كان

¹ مروج الذهب ، مصدر سابق .

من أهم ما أوصاه به ، أن قال له ¹ : يا بني إني قد كفيتك الرحلة والرجال ، و وطأت لك الأشياء و ذلت لك الأمور وأخضعت لك أعناق العرب وإني لا أتخوف أن ينازحك هذا الأمر الذي أسسته إلا ثلاثة نفر .. الحسين بن علي ، و عبد الله بن عمر ، و عبد الله بن الزبير .. فأما ابن عمر ، فهو رجل ثقة قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك ، و أما الحسين فان أهل العراق خلفه لا يدعونه حتى يخرجونه عليك ، فان خرج فظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً .. و أما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك روغان الثعلب وإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير .. فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربا إربا . و توصى بأهل الحجاز و إن سألك أهل العراق في كل يوم أن تعزل عنهم عاملاً و تولي عليهم عاملاً فافعل ، فعزل واحد ، أحب إليك من أن يسلم عليك مائة سيف ، و اصفح عن دماء قومك ما استطعت .

لقد أضحي الفكر العربي في فترة الحكم الأموي ، فكراً سياسياً واضح المعالم ، جلي الصورة و الأبعاد . و توضح لنا الدراسة التاريخية للفترة الزمنية ما بين بداية خلافة عثمان بن عفان و نهاية حكم معاوية بن أبي سفيان ، هوية الفكر العربي آنذاك و التي هي هوية سياسية ، و بالأخص في فترة حكم معاوية .

لقد كان معاوية ، و لاعتبارات معينة .. داخلية و خارجية ، ينظر إلى مفهوم و فكرة توطيد السلطان و أركان الدولة ، أكثر منه توطيد المعارف الاجتماعية و أواصر المجتمع المنبثقة أساساً من العامل الديني الإسلامي . و هو قد اختار توطيد الأمر السلطاني الحكومي و سواد الفكر السياسي بالاعتماد على الأمر الديني الإسلامي ، بدلاً من الاهتمام بالأمر الاجتماعي الإسلامي أو قضية المجتمع

¹ البداية و النهاية ، ج /٨/ ، ص /١١٥/ .

الإسلامي ، ذلك ربما لإدراكه خطورة الأمر و الفكر السياسي و أهميته و تعامل الناس معه و إقبالهم عليه ، نظراً للعوامل و المؤثرات الداخلية و الخارجية .

و من الخطأ و الظلم بمكان ، أن نعزو الفكر السياسي بمجمله إلى معاوية بن أبي سفيان أو بنو أمية بشكل عام ، في مواجهة الأمر الديني الذي مثله علي بن أبي طالب أو عمر بن الخطاب أو أبو بكر الصديق أو حتى الرسول (ص) . فالبعض يحلو له أن يحصر القضية .. قضية الصراع بين الأمر الديني و الأمر السياسي ، في أشخاص و يعزوها إلى أشخاص ، متجاهلاً أن الأمر السياسي هو حالة فكرية كانت موجودة بجوار العرب في الجاهلية ، و تحيط بهم من كل جانب ، و متجاهلاً أنها كانت تعتمل في نفوسهم و عقولهم اعتماداً على طلب ضرع الناقة لدى فصيلها ، و تلهب مشاعرهم و خيالهم ، و أنها شكلت لديهم تناقضاً فكرياً رهيباً .

إن طلاب السلطة قبل الدعوة المحمدية و أثناءها و بعدها ، كانوا أكثر ، و لم يقتصر على معاوية بن أبي سفيان أو بنو أمية فقط . لقد رأينا أنه عندما بدأ الرسول (ص) دعوته في القبائل ، كيف أن بعضهم كني عامر بن صعصعة ، ناقشوا معه الأمر السياسي فوراً ، و ربطوا مساندتهم له بأن يكون الأمر لهم من بعده . فهم نظروا إلى الإسلام كمفهوم و فكر سلطاني سياسي بحت ، يقوم على السلطة المادية و النفع و التملك . كذا الأمر في أواخر حياة الرسول عند مرضه ، عندما ظهر أدعياء النبوة الذين نظروا إلى الإسلام ، النظرة ذاتها ، حتى أنهم نظروا إلى الرسول (ص) من المنظور عينه معتبرين أنه ملك أو حاكم ، صاحب أمر سياسي ، و لم ينظروا إليه كني مرسل أو رسول صاحب رسالة إلهية دينية بحتة .

فمسيّلة يطلب إليه في كتاب له ، أن يقاسمه الأرض و السلطان بقوله أن نصف الأرض لك و نصفها لي ، يعني (فيفتي فيفتي) و هو منظور سياسي بحث لا لبس فيه و لا يشترأب له اثنان . فردّ عليه الرسول (ص) بأن هذا أمر ديني إلهي لا علاقة له فيه يجعله الله حيث يشاء ، و ليس أمر سياسي سلطوي دنيوي . و رأينا أيضاً في مرض الخليفة أبو بكر الصديق كيف عبر عن أسفه و مرارته من تمّات الناس و بعض الصحابة ، على الخلافة و نظرهم لها على أنّها نظام للسلطة و الملك شبيه بنظام كسرى السياسي ، و تقرّبه لهم على ذلك و تأتّبهم و وصفهم بأنهم إنّما يسعون إلى أهمة السلطان و فرش الديباج . كذلك الأمر مع الخليفة عمر بن الخطاب الذي قال فيها عندما طعن ، ما قال ، و نهى ابنه عبد الله عنها و حذره من الاقتراب منها قائلاً له : إياك أن تتلبّسها . أما الإمام علي بن أبي طالب ، فله مواقف مشهورة بذلك و هو الذي رفض الخلافة بادئ أمره و قال لهم : التمسوا غيري . و قال فيها قولته الشهيرة " و الذي فلق الحبة و برأ النسمة .. لولا حضور الحاضر و قيام الحجة بوجود الناصر ، و ما أخذ الله على العلماء أن لا يقرّوا على كظلة ظالم و لا سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها ، و لسقيت آخرها بكأس أولها ، و لألفيتم دنياكم هذه عندي أزهد من خبقة عتر^١ " . و كذلك عندما وصل أتباعه و بعض فريقه إلى مرحلة من طلب السلطة و الرياسة و تعجيزهم له و غيظه منهم ، فكان أن وبخهم و قرّعهم و دعا عليهم قائلاً بخطبة له سميت بالشقشقية^٢ " يا عجباً عجباً .. و الله يميث القلب و يجلب الهم من اجتماع هؤلاء على باطلهم و تفرقكم عن حقكم ، فقبحاً لكم و ترحاً حين صرتم غرضاً يرمى يُغارُ عليكم و لا تغفرون ، و تُغزّون و لا تغزّون ، و يعصى الله و ترضون ، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر ، قلتّم هذه حمارة القيظ أمهلنا حتى يسبخ عنا الحر ، و إذا أمرتكم بالسير إليهم في

^١ نهج البلاغة .

^٢ المصدر السابق باب الخطب ، الخطبة الشقشقية .

الشتاء قلت هذه صبارة القر ، أمهلنا حتى ينسلخ عنا البرد .. كل هذا فراراً من الحر و القر ، فإذا كنتم من الحر و القر تفرون ، فأنتم و الله من السيف أفر .. يا أشباه الرجال و لا رجال .. حلوم الأطفال و عقول ربات الحجال .. لوددت أني لم أركم و لم أعرفكم ، معرفة و الله جرت ندماً و أعقبت ذماً .. قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً و شحنتم صدري غيظاً و جرعتوني نغب التهمام أنفاساً ، و أفسدتم علي رأيي بالعصيان و الخذلان حتى لقد قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع و لكن لا علم له بالحرب .. لله أبوهم و هل أحد منهم أشد لها مراساً و أقدم فيها مقاماً مني !!! لقد نهضت فيها و ما بلغت العشرين و ها أنا قد ذرفت على الستين و لكن لا رأي لمن لا يطاع " .

حتى معاوية بن أبي سفيان قد وقع عليه ما وقع على غيره ، فهو يصرح بذلك أيضاً ، فكل الذين وقفوا معه و حالفوه ، قايسوا مواقفهم منه بالأمر السياسي ، فهذا يطلب ولاية و ذلك مالاً و ذلك ضياعاً و الآخر وصلة و ميزة ، و أصرح ذلك ، هو موقفه مع عمرو بن العاص عندما طلب منه العون ، فأبي عمرو قائلاً له : لا و الله حتى أصيب من دنياك . و طلب مصر ثمناً لذلك . و عندما أراد البيعة من بعده ليزيد ، أبي سعيد بن عثمان بن عفان فيمن أبي ، البيعة قائلاً لمعاوية انه أحق بالخلافة منه و من ابنه يزيد ، حتى أرضاه معاوية بخراسان قائلاً له : هي لك طعاماً و وصلاً¹ .

في الواقع ، إن خطبة علي بن أبي طالب ، الشقشقية المذكورة آنفاً ، توضح لنا الأمر بعواهنها و تثبتها بأوتادها . فكل من علي بن أبي طالب و معاوية بن أبي سفيان ، أدرك أثر الفكر السياسي و أدرك اللعبة السياسية و عرف أصولها و قواعدها ، و كل منهما عرف و أدرك أن أتباعه من روادها و طلابها و من

¹ البداية و النهاية ، ج / ٨ ، ص / ٧٩ .

أصحاب النفوس الهافّة إليها و المستمالة نحوها طرّاً . لكن الأول أبي أن يستخدمها معهم و أن يرضيهم بها حتى أعجزوه أمره و أفسدوه عليه رأيه و قراره بالعصيان و الخذلان ، و جعلوا الناس تقول أن لا علم له بالسياسة و الحرب (لاحظ دقة الوصف و التعبير و وضوح المراد و المقصد) . بينما الثاني اضطر للتعامل معهم بما ، فاسلموا له طاعتهم و أسلسوا له قيادهم و انقيادهم . و في بيان هذا دلالة على أن الأمر السياسي و طلب الدنيا ، أكبر من الجميع و لا يمكن حصره بأشخاص . فالفكر السياسي السلطوي ، فكر طاغ جبار لا يمكن مقاومته . و هو كما ذكرنا في بداية الكتاب ، كان أول فكر و مفهوم عرفه الإنسان و استشعره و استطعمه ، فكر السلطة و التسلط ، كيف لا و الله (تعالى) ذاته يقول في محكم كتابه { زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ } [آل عمران : ١٤] .

و قبل أن نحمل فلان و فلان و زر العمل السياسي و أتباع الأمر السياسي ، يبرز سؤال له علينا حق الإجابة العلنية في أحسن الأحوال ، أو الإجابة الضمنية الصادقة المحايدة في أسوأها ، و هو .. لو لم تقول الخلافة إلى عثمان بن عفان و لم يؤول الحكم لمعاوية بن أبي سفيان و من بعده بنو أمية و بعدهم بنو العباس ، إلى أي مدى كان الفكر المجتمعي الديني سيصمد أمام الفكر السياسي السلطوي المشتمل على العالم كله ؟؟؟؟؟ و هل سيبقى هكذا بلا نهاية في شبة الجزيرة العربية ؟؟؟؟ .

إن الخطورة أو الخطأ المتعلق بحصر هذه القضية في أشخاص كعلي و معاوية و غيرهما ، تؤدي إلى نتيجة منطقية و هي أن الفكر السياسي هو أكثر منطقية و صلاحية من الفكر الديني ، بغلبته نهاية الأمر على الفكر الديني و ظهوره عليه و استقامته من دونه ، و سير الناس مسيره حتى يومنا هذا .

و لعل أبلغ ما يقود إلى صحة القول هذا ، هو مخالفة يزيد بن معاوية لنصيحة أبيه ، حيث فعل عكس ما نصحه به أبوه تماماً ، ما أدى به إلى كوارث رهيبية مميتة أضرت به و ببني أمية أبلغ الضرر ، لم تطح بهم عاجلاً ، لكنها فتحت عليهم باب الثورات و العصيان و التمرد و الشقاق ، و انتقال الخلافة من البيت أو الفرع السفيفاني إلى البيت أو الفرع المرواني ما أدى بعد ذلك إلى ثورة بني العباس عليهم و الإطاحة بهم و استئصالهم من الوجود و انقراضهم ، و ذاك كله بحجة هذه الخطيئة . فقد عمد يزيد الذي اتضح أنه غر سياسة و غر مبادئها الأولية ، و ليس له باع في معترك الحكم ، أن ترك عبد الله بن الزبير الذي أمره أبوه بقتله و حذره منه ، و قتل الحسين بن علي الذي أمره أبوه بالعفو عنه حتى و لو ثار عليه ، و ذلك عندما خرج الحسين بن علي ، عليه ، فيما عرف بحادثة كربلاء ، و أساء إلى آل بيت الرسول (ص) و نساءهم ، و أطب في فعله هذا ، ما أثار نقمة الناقمين و المحايدين عليه و زعزع ثقة بعض المواليين و أرجفهم ، و ابتدع حجة للطامعين بالسلطة و موجة لركوبهم . ففقد بذلك جميع أوراقه السياسية و الدينية ، و لم يلبث بعدها يسيراً أن مات . فلما استخلف بعده ابنه معاوية بن يزيد و كان غلاماً حدثاً ، رأى أن ما وطده جده معاوية لوالده ، قد خربه والده له ، و أنه لا يمكنه الاستمرار بوضع قد فلتت فيه الأمور من زمامها و خرجت المواضع من عقالها . فنودي : الصلاة جامعة . ثم خرج على الناس خطيباً فقال ¹ : أيها الناس .. ما أنا بالراغب في التأمر عليكم و لا بالأمن لكراحتكم ، بل نحن بلينا بكم و بليتكم بنا ، إلا أن جدي معاوية نازع الأمر من كان أولى بالأمر منه في قدمه و سابقته .. علي بن أبي طالب ، فركب جدي منه ما تعلمون و ركبتهم معه ما لا تجهلون ، حتى صار رهين عمله و ضجيع حفرته ، تجاوز الله عنه .. ثم صار الأمر إلى أبي ، و لقد كان خليقاً أن لا يركب

¹ بحار الأنوار ، ج / ٤٦ ، ص / ١١٩ .

سننه إذ كان غير خليق بالخلافة فركب ردعه و استحسّن خطاه فقلت مدته و انقطعت آثاره و حمدت ناره و لقد أنسانا الحزن به الحزن عليه ، فإننا لله و إنا إليه راجعون .. ثم صرت أنا الثالث من القوم ، الزاهد فيما لدي أكثر من الراغب و ما كنت لأتحمل آثامكم .. شأنكم و أمركم خذوه من شئتم ولايته فولوه . فقام إليه مروان بن الحكم فقال : يا أبا ليلى ، سنة عمرية؟؟ فقال له : يا مروان تخدعني عن ديني؟؟ اتتني برجال كرجال عمر أجعلها بينهم شورى .. و الله إن كانت الخلافة مغنماً فقد أصبنا منها حظاً و لئن كانت شراً فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها . ثم نزل فقالت له أمه : ليتك كنت حيضة . فقال : و أنا وددت ذلك و لم أعلم أن الله ناراً يعذب بها من عصاه و أخذ غير حقه . فقالت له أمه : اجعل الخلافة من بعدك لأحيك . فأبى و قال : لا يكون لي مرها و لكم حلوها فوثب مروان إليها و أنشد :

إني أرى فتنة تغلي مراجلها و الملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

و كان بالفعل صادقاً في كلامه فقد وثب على الخلافة و ادّعاها من هب و دب، من مروان بن الحكم إلى الضحّاك بن قيس إلى عبد الله بن الزبير إلى المختار الثقفي إلى عمرو بن سعيد بن الأشدق الذي كان عاملاً على المدينة من أيام معاوية ، و غيرهم . و أصبح الولاة و المنشقون ، كل يمين نفسه بها و يعمل لنيل وطرها و أضحى أهل كل إقليم يبايعون من يرونه موافقاً لهم و يقتلون واليههم إذا لم يكن كذلك . فبايع أهل الشام مروان بن الحكم الذي تنطح للأمر و حاز عليه ، و عمل على التخلص من مناوئيه بحكمة و ذكاء و كان أول ما فعله هو استدراك أخطاء يزيد بن معاوية و محاولة التخلص من آثارها المهلكة و عندما دنا أجله بسرعة ، أوصى لابنه عبد الملك بالخلافة و أوصاه كما أوصى معاوية يزيداً ، بالتشدد مع عبد الله بن الزبير و عدم الاقتراب من آل بيت

الرسول آل هاشم ، فنفذ عبد الملك وصية أباه بخدافيرها و أصبحت هذه سياسة صامته فيما بين الأمويين و آل البيت ، فعندما عين عبد الملك ، الحجاج بن يوسف الثقفي المعروف بصرامته و سفكه الدماء ، والياً على العراق كتب إليه كتاباً و خطه بيده جاء فيه ¹ : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف أما بعد .. فجنيني دماء بني عبد المطلب ، فإني رأيت آل أبي سفيان لما ولغوا فيها لم يلبثوا بعدها إلا قليلاً و السلام . و وجهه إلى ابن الزبير ، الخطر الأكبر ، فنفذ الحجاج وصية سيده ، فاشتبك مع ابن الزبير و حاصره في مكة ، و عندما التجأ الأخير إلى الكعبة ، ضربها هذا بالمنجنيق و استخلص ابن الزبير منها و قتله و صلبه ثم أرسل برأسه إلى عبد الملك بن مروان .

قراءة فكرية للعصر العباسي :

تحولت الخلافة من الفكر الإسلامي إلى الفكر السياسي البحت العضوض . و كانت فترة العصر الأموي عموماً ، فترة ركود فكري ، حيث كان الأمويين قد أعلوا من شأن العرب و حطوا من قدر الأعاجم الذين فتحوا بلدانهم ، و حدوا من الاحتكاك الفكري فيما بين العرب و بين الحضارات المجاورة لهم ، و لم يلاحظ في تلكم الفترة وجود بوادر أي فكر يعتد به أو ظاهرة فكرية ملموسة شكلت طفرة نوعية متميزة ، حتى على مستوى الأمر الديني ، فلم تكن هنالك أي مدارس فكرية أو دينية يشار إليها بالبنان ، و لا عجب إذا علمنا أن الأمويين قد حدوا حتى من التدوين ، فلم تظهر في دولتهم و صولتهم ، أمهات الكتب

¹ المصدر السابق .

الفكرية .. الدينية منها أو السياسية أو الفكرية و حتى العلمية . و لعل الأمر السياسي كان له أثره في ذلك ، حيث برز في تخوف الأمويون منه و من أثاره عليهم خصوصاً بعد حادثة كربلاء و وقعة الحرة ، فقد عانوا من أثار ذلك و تبعاته ، طويلاً ، فكان الخليفة الأموي بشكل عام ، لا يبات في فراشه إلا على تمرد يردده أو ثورة يخمدتها أو عصيان يقمعه أو حركة مناوئة يتأهب لها . إلى أن جاء العباسيون الذين اعتمدوا في ثورتهم على بني أمية ، على العناصر الغير عربية و بالذات الفارسية منها . و باعتمادهم هذا ، اضطروا ربما إلى أن يكونوا أكثر تسامحاً مع العناصر غير العربية أو ما عُرف بالموالي ، و لا عجب في ذلك ، فقد كان قائد ثورتهم على الأمويين ، أبو مسلم الخراساني . و هذا التسامح فتح الباب واسعاً أمام اختلاط أممي فيما بين العرب و بقية الشعوب ، ما أدى إلى تمازج حضاري فكري و نوع من شبه العولمة أو عولمة جزئية . فنشأت المدارس الفكرية و الدينية و نشأت كتب التاريخ ، كالقرطبي و الطبري و السيوطي و ابن كثير و غيرهم ، و كتب الحديث كالبخاري و مسلم و النسائي و نحوهم ، و كتب النحو و الصرف و المعاجم و نحوها . ليس ذلك فقط ، بل حتى المذاهب الدينية ، كلها تشكلت في هذا العصر كالمذهب الحنفي و الشافعي و المالكي و مذهب آل البيت الجعفري . و فتح باب الترجمة حيث ترجمت كتب اليونان و الفرس و غيرهم إلى العربية . و نشأت طبقاً لكل ذلك ، علوم جديدة كل الجدة على العرب لم يكونوا ليدركوها من قبل أو يتناولوها ، كعلم الكلام و اللسانيات و علم الأدب و المناظرة و علم الطبقات و الأنساب و الوفيات ، كالطبقات لابن سعد ، و الوفيات لابن خلكان ، و علوم الحديث و الرجال و التمييز ، كالإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني و علم الرجال للكشي و النجاشي و الطوسي ، كما ظهرت كتب التفاسير للقرآن كتفسير القرطبي و ابن كثير و تفسير الجلالين ، و تفسير القمي و العياشي و تفسير

فرات الكوفي ، و هي تفاسير للقرآن الكريم اختلفت فيما بين المذهب السني و المذهب الجعفري . و غير ذلك مما لا يتسع المجال لسرد مجمله كله .
و الحق يقال ، أن العصر العباسي كان عصر التنوير العربي لجهة العلوم و الحضارة و الفكر . و إذا كنا نقصد ما نقصد بذلك ، فهو العصر العباسي الأول الذي استمر حوالي المئة عام و نيف و انتهى بخلافة المتوكل ، و كانت هي الفترة الأغزر لجهة العلوم و الحضارة و التي بلغت ذروتها في عهد الخليفة العباسي المأمون . و بنظرنا فإن التاريخ العربي قد مر بتحويلات أو عصور فكرية خمس مثل فيها العصر العباسي الأول ، التحول أو العصر الفكري الرابع في هذه التحويلات و العصور الفكرية الخمس للتاريخ العربي . و بنظرنا ، فإن العصور الفكرية الخمس في التاريخ العربي ، هي ..

- ١) الفكر الجاهلي المتمثل بالفترة الجاهلية المذكورة سابقاً .
- ٢) الفكر الديني الإسلامي المجتمعي الذي مثلته فترة الدعوة الحمديّة و فترة الخلفاء الراشدين .
- ٣) فكر الدولة السياسي ذو الواجهة الإسلامية الذي مثله العصر الأموي . و هو فكر اقتصر فقط على بناء منظومة الدولة و الكيان السياسي ، و لم يتعداهما إلى فكر آخر .
- ٤) فكر الدولة السياسي ذو الواجهة الإسلامية ، و الحضاري و العلمي و الفلسفي و التنويري . و هو الذي مثله العصر العباسي الأول .
- ٥) فكر الدولة السياسي ذو الصبغة المذهبية الإسلامية و ليس الواجهة الإسلامية ، و هو فكر الانحطاط العربي و الانغلاق و الثبات و الجمود على هذا الانغلاق ، و فكر التشرذم الطائفي و المذهبي و هو فكر شمل فترة أواخر العصر العباسي و التحكم و الاحتلال الأجنبي و الغزو المغولي و الاحتلال العثماني ، و هو فكر امتد إلى الفترة الحالية .

و في الواقع ، فإن صبغة الفكر و سمته في العصر العباسي ، على اختلاف أنواعه و مشاربه ، قد كانت لها عوامل ارتباط بما سبقها من فكر سياسي و أوضاع سياسية في العصر الأموي ، مثلتها حوادث جوهرية هامة ، لعل أهم نتائجها قد تمثل في حركة أو ظاهرة ما عُرف بالشعبوية ، حيث أن الفتوحات الإسلامية التي استمرت إلى العصر الأموي ، كان لها أثر سياسي كبير ، مبعثه منظورين اثنين .. منظور عربي للبلدان التي فتحها العرب ، و الشعوب التي دانت لهم ، و منظور أعجمي من قبل تلك الشعوب للعرب الذين فتحوا بلدانها . فقد بسط العرب سلطتهم و سيطرتهم على تلك الشعوب و حكموها بيد من حديد و بشيء من العنصرية الظاهرة الفجة ، و المهانة البعيدة عن جوهر الإسلام . فكانوا يأخذون الرجال عبيداً و أرقاء ، و النساء سبايا و جوارى للتسري و المتعة أو البيع عرايا في أسواق النخاسة ، و فوق كل ذلك ، يفرضون عليهم الجزية و ينظرون إليهم نظرة دونية معتبرين أن هؤلاء ، أقوام مسخرين لهم و أمواهم و أرزاقهم و أراضيهم ، هي ملك لهم (أي العرب) . فكانوا يأنفون أن يزوجهم بناتهم في الوقت الذي يستمتعون هم بنسائهم و يتخذونهم جوارى لديهم . و حتى الذين كانوا يعتقدونهم منهم ، كانوا يطلقون عليهم لقب الموالي ، و هم بالعرف ، مواطنون من الدرجة الثانية ، لا يحق لهم الزواج من نساء العرب و بناتهم ، و محرومون من امتيازات و حقوق معينة ، و لا تجوز لهم الولاية و لا المنصب .

هذا المنظور الذي اعتمده العرب مع الشعوب الأخرى و الذي زاد حدة و صرامة في العصر الأموي ، قابلته تلك الشعوب بدهاء ، بالرد ذاته ، و هي التي اعتبرت نفسها شعوب عريقة ذات حضارة ضاربة الجذور في تربة التاريخ الإنساني ، قد راعها الخضوع المبالغ الفج لأقوام اعتبرتهم (طبعاً من منظورها هي) بدو ، حفاة عراة ، لا يفكون الحرف ، خرجوا عليهم من البادية و احتلوا

أرضهم و استحلوا أموالهم و استخلصوا نساءهم و أولادهم للبيع في أسواق النخاسة .

و بالرغم من إسلام تلك الشعوب ، و التي وجدت في تعاليمه و شرائعه ، العدالة و المساواة ، إلا أنها لم تجد ذلك في فاتحيهم الذين فتحوا بلدانهم و احتلوا أرضهم باسم الإسلام نفسه . و الأنكى من ذلك أنهم كانوا يجبرونهم باسم الإسلام ، أن يجاربوا معهم ، بقية الشعوب الأخرى . و حتى في هذه النقطة ، لم يكونوا ينصفونهم ، لا بالعطاء و لا بالغنائم ، لا بل كان الموالي منهم يساقون إلى الحروب رجالاً لا ركبناً ، و هو ما وترهم أشد الوتر ، و ولد لديهم حقداً دفيناً و كرهاً عميقاً للعرب ، فكان من البدهة أن يعملوا على إسقاطهم و إزالة نيرهم عنهم .

و لهذه الأسباب مجتمعة ، لاقى العباسيون دعم هذه الشعوب و مساندتها لهم في الثورة على الأمويين و إسقاط حكمهم . و لهذه الأسباب ، تسامح العباسيون معهم و أشركوهم في السلطة ، فقربوهم و ولوهم المناصب الرفيعة وصلت في بعضها إلى الوزارة . و لهذه الأسباب أيضاً أراد هؤلاء الأعاجم أن يستعيدوا مواقعهم التي حرّموا منها ، بإثبات جدارتهم و علومهم و تفوقهم الحضاري ، و إلمامهم بعلوم الصنعة و الحرفة ، و علوم النظر و الفكرة ، فهم قد حازوا علم اللسان و اليد . و تبعاً لذلك ، ارتأى الخلفاء العباسيون الأوائل ، أن يتخذوهم فائدة لدولتهم و عماداً لها ، فأدخل هؤلاء ثقافتهم و علومهم ، و ثقافات و علوم غيرهم من الشعوب .

على أن باب العولمة الفكري هذا (إن صحت التسمية) ، قد بقي ضمن إطار خط أحمر لا يتخطاه أو لا يجوز له أن يتخطاه و يتجاوزه ، ألا و هو كيان الدولة السياسي و سلطة الخلافة المتمثلة بآل العباس . فكان أي اقتراب أو محاولة اقتراب منه و تجاوزه ، كافٍ لصدور حكم بالموت . فالتسامح الفكري الذي منحه الخلفاء العباسيون ، قد قابلوه بقسوة لا تشوبها رحمة و لا تربطها صلة و

لا قرابة أو رحم ، حال تعرض ملكهم لأدنى خطر أو تهديد . فهذا هو أبو مسلم الخراساني الذي وطد للعباسيين دعائم دولتهم و سلطاتهم ، كان مصيره القتل على يد أبي جعفر المنصور ، عندما استفحل أمره و قويت شوكته ، و نما خطره و بدرت منه بوادر الاستقلال بالرأي . و كذا هم البرامكة الذين وصلوا إلى أعلى مراتب الدول العباسية و مناصبها ، زلزلت الأرض تحت أقدامهم و تمت تصفيتهم في ليلة و ضحاها لأسباب هي في باطنها شبه غامضة ، و في ظاهرها استفحال أمرهم و خطرهم على الخليفة هارون الرشيد و استبدادهم ببعض القرارات دونه .

لقد تطور الفكر السياسي في العصر العباسي عن العصر الأموي بناحية غاية في الأهمية . فالفكر السياسي الأموي ، احتاج لكي ينضج ، إلى خلافة عثمان بن عفان التي قلبت مفاهيم خلافة من قبله و أحدثت هزة فكرية ، بدأت بحركة أبو ذر الغفاري و امتعاض غيره من كبار الصحابة و استهجانهم و استغرابهم ، لتنتهي بثورة الثائرين عليه و قتله . ثم احتاج إلى المعارك الحربية الحاصلة فيما بين الإمام علي بن أبي طالب و كل من السيدة عائشة بنت أبي بكر و معاوية بن أبي سفيان و الخوارج . و هي معادلة في غاية من الأهمية و الخطورة . فمن إحدى ميزات الحروب و المعارك الكبيرة الطويلة ، أنها تخلخل أفكاراً و مفاهيم سابقة ، لتؤسس لأفكار و مفاهيم جديدة . و عندما نقول أن الفكر السياسي الأموي ، احتاج إلى حدث كذا و كذا ، ليس بالضرورة أن يكون هو صانع هذا الحدث أو السبب فيه ، حصراً ، بل ربما يكون قد اعتمد هذا الحدث أو ذلك ليخلق لنفسه مبررات وجوده ، أو بكل بساطة ، جاء هذا الحدث إليه فخدمه من مبدأ تطور الأحداث . و كما ذكرنا سابقاً ، فإن هذه الأحداث كانت فوق الأشخاص و أكبر منهم .

على أن الفكر السياسي الأموي و بالرغم من هئية تلك الأحداث له ، للظهور إلى العلن و التطبيق العملي بدولة بني أمية ، فإنه كان يفتقر إلى أمر هام جداً ألا

و هو ... النظرية الإيديولوجية أو التنظير الإيديولوجي . ذلك لأسباب عدة منها :

١ — أنه كان فكراً وليداً في مواجهة فكر ديني قرآني قوي ، وجد لنفسه مكاناً على مستوى الجغرافية بانتشاره في الأمصار ، أو على مستوى الأشخاص بوجود الصحابة المشبثين به

٢ — أخطاء الأمويون الفادحة ، و بالذات يزيد بن معاوية القاتلة السابقة ، و التي أدت إلى نفور الناس منهم ، و بالأخص بعد وقعة كربلاء و وقعة الحرة في المدينة ، ما أفقد الأمويين إمكانية التأثير الإيديولوجي و التنظير الفكري على عامة الجمهور .

٣ — انشغالهم بقمع الثورات و التعامل مع المناوئين لهم ، ما أفقدهم الوقت الكافي للتفرغ لأمر التنظير الفكري السياسي .

٤ — انشغالهم بالفتوحات في آسيا و شمال إفريقيا و أوروبا (إسبانيا) .

٥ — دب الخلاف فيما بينهم و ضعف ذات شوكتهم ، و بالأخص بعد خلافة عمر بن عبد العزيز .

٦ — عدم اهتمامهم أصلاً بالتنظير الفكري و التدوين ، حتى الديني منه .

على أن فتوحاتهم الواسعة الممتدة و المترامية الأطراف و ثبات الأمر السياسي فيها ، قد أسس للتنظير السياسي فيما بعد ، و الذي افتتحه العباسيون في أول خطبهم للعامة و الجمهور ، مع فتحهم باب التبادل الفكري و الثقافي فيما بين العرب و الحضارات المجاورة لهم .

و التمايز الثاني الذي ميز الفكر السياسي العباسي عن سابقه الأموي ، هو اعتماده و تبنيه لمفهوم مبدأ الملكية أو الملكية المستمدة من الحق الإلهي و الإرادة الإلهية ، و هو على ما يبدو ، مفهوم قد وجده العباسيون مناسباً و ملائماً

ملكهم و نظام حكمهم السياسي . و هو ما عمدوا إلى تسويقه في أوائل
خطبهم بداية حكمهم و عصر دولتهم و ملكهم السياسي .
ففي بداية استفتاح العباسيون بحكمهم ، خرج أول خليفة فيهم و هو السفاح
بعد بيعة الناس الأولى له ، إلى المسجد الجامع ، فصلى بالناس ثم صعد المنبر ، و
كان أول ما نطق به أن قال ¹ : الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه ديناً ،
وكرمّه وشرّفه وعظّمه ، و اختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه والقوام به
والذابين عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ..
خصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته و وضعنا بالإسلام وأهله في
الموضع الرفيع ، و أنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم ، فقال تعالى
(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) وقال (قل
لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) و قال (و أنذر عشيرتک الأقرين)
و قال (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى
واليتامى والمساكين) فأعلمهم عز وجل فضلنا و أوجب عليهم حقنا ومودتنا و
أجزل من الفياء و الغنيمة نصيبنا تكرمة لنا و تفضله علينا والله ذو الفضل
العظيم . زعمت السبائية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ،
فشأهت وجوههم . أيها الناس .. بنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، ونصرهم
بعد جهالتهم ، و أنقذهم بعد هلكتهم ، و أظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل
وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ورفع بنا الخسيصة وأتم النقيصة وجمع الفرقة حتى
عاد الناس بعد العداوة ، أهل تعاطف و بر ومواساة في دنياهم ، و إخواناً على
سرر متقابلين في أحرهم .. فتح الله علينا ذلك منه و منحة بمحمد صلى الله
عليه وسلم ، فلما قبضه إليه قام بذلك الأمر بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم
فحووا مواريث الأمم ، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها

¹ البداية و النهاية ، ج / ١٠ / ، ص / ٤١ / . تاريخ الخلفاء ، ص / ٢٠٥ / .

وخرجوا خصاصاً منها . ثم وثب بنو حرب و مروان فابتزوها لأنفسهم و تداولوها ، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً ، فلما آسفونا ، انتقمنا منهم فانترع منهم ما بأيديهم إلى أيدينا ، و رد الله علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وتولى أمرنا و القيام بنصرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض ، و ختم بنا كما افتتح بنا ، و إني لأرجو أن لا يأتاكم الجور من حيث جاءكم الخير و لا الفساد من حيث جاءكم الصلاح و ما توفيقنا أهل البيت .. ألا يا أهل الكوفة ، أنتم محل محبتنا و منزل مودتنا و انتم أسعد الناس بنا و أكرمهم علينا و قد زدكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح و الثائر المبير .

و جاء خليفته من بعده ، أبو جعفر المنصور ليخاطب الناس بعرفة ، في أول حج له بعد استلامه مقاليد الحكم فيقول لهم ¹ : أيها الناس .. إنما أنا سلطان الله في أرضه .. أسوسكم بتوفيقه و رشده ، و خازنه على ماله .. أقسمه بإرادته و أعطيته بإذنه . و قد جعلني الله عليه قفلاً ، فان شاء أن يفتحي لأعطياتكم و قسّم أرزاقكم ، فتحني ، و إذا شاء أن يقفلي ، قفلي .. فارغبوا إلى الله أيها الناس و سلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهبكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول (اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً) أن يوفقي للصواب و يسددي للرشاد و يلهمني الرأفة بكم و الإحسان إليكم و يفتحي لأعطياتكم و قسّم أرزاقكم بالعدل عليكم فإنه سميع مجيب .

هذا كله ، يتوافق مع مفهوم الملكية المطلقة و نظرية الحق الإلهي . فالملكية المطلقة هي نوع من أنواع الحكم يكون فيه للملك سلطات مطلقة على كافة

¹ نفس المصادر السابقة .

المناطق الخاضعة له بما تحتويه من إنسان و حيوان و نبات و جماد ، و يتصرف فيها تصرف المالك بملكه . و ليس ثمة دستور أو ردع قانوني للحد من سطوة الملك أو سيطرته ما يملك و يحكم . فهو يتحكم تحكماً كاملاً بأفراد الشعب وبالأرض . أما نظرية الحق الإلهي أو ما يسمى بالنظرية الثيوقراطية ، فتقسم إلى نوعين .. نظرية الحق الإلهي المباشر ، و تقوم هذه النظرية على أن الله يختار من يشاء لممارسة السلطة ، فالحاكم يستمد سلطته من الله ، لذلك تعلق إرادته إرادة المحكومين . و هي أقدم النظريات التي تفسر أساس السلطة ، و تقيمها على أساس إلهي . فالسلطة مصدرها الله ، وما دام الحاكم يستمد سلطته من مصدر علوي ، فهو يسمو على غيره من البشر، وبالتالي تسمو إرادته على إرادة المحكومين . و قد كان لهذه النظرية دوراً كبيراً في التاريخ ، وقامت عليها السلطة في معظم الديانات القديمة والملكيات المطلقة الحديثة في أوروبا . و أساس هذه النظرية هو أن الحاكم كان في الأصل يعتبر إلهاً أو ذو طبيعة و صفة إلهية . أو مختار من الآلهة . و مع تقدم الزمن ، و ظهور الأديان السماوية و سوادها على مناطق شاسعة من العالم ، تطورت المفاهيم الدينية بهذا الشأن ، فلم يعد الحاكم إلهاً أو ذو طبيعة إلهية ، لكنه أصبح يستمد سلطته من الله . ففسرت على أن الله يرتب الحوادث بشكل معين بحيث تقوم أسرة بذاتها في وقت معين بأعباء الحكم ، وعلى هذا النحو تحمي النظرية سلطان الملوك من تدخل رجال الدين أو الشعب .

و الشق الآخر من النظرية هو .. الحق الإلهي المباشر ، و مفادها أن الحاكم إنسان كبقية البشر ، إلا أن الله يصطفيه ويودعه السلطة ، فالحاكم حسب هذه النظرية ، يستمد سلطته من الله مباشرة ، دون وساطة إرادة أخرى في اختياره ، ومن ثم فهو يحكم بمقتضى الحق الإلهي و يستمد قوته من الله ، وأنه غير مسؤول أمام أحد غير الله .

لقد كانت نظرية الحق الإلهي بالنسبة للعباسيين ، موائمة تماماً لنظام دولتهم في ظل الظروف السياسية الجديدة التي طرأت على كيان الدولة و المجتمع العربي و الإسلامي عموماً ، أو التي أوجدوها هم ، بعد انقلابهم على الأمويين ، فنظرية الحق الإلهي في حال تم قبولها بالنسبة لعموم الجمهور ، تحل الكثير من الإشكالات و الإرهاصات الفكرية التي من الممكن أن تنشأ في ظل أية تطورات سياسية محتملة ، و بالذات في حالة اضطرابات سياسية مبعثها الثورات الشعبية أو الأحزاب السياسية أو حدوث تغيير في منظومة النظام السلطوي السياسي .
مختلف مقوماته الفكرية و الإيديولوجية .

فنظرية الحق الإلهي أو منهاج الملكية المطلقة ، هي بكل بساطة ، عملية تجيير تصرفات الحاكم و أعماله إلى الله . و طبقاً لذلك ، تصبح تصرفات الحاكم غير متعلقة به هو شخصاً ، بل تخضع لثنائية طرفية تقوم على معادلة أساسها عنصران هما (الإله - الجمهور) فهو حاكم بأمر الله . فتصرفات الحاكم و تبعاتها ، لم تعد ملقاة على عاتقه ، و لا يتحمل هو مسؤوليتها ، بل أضحت ملقاة على عاتق الله أو الجمهور . فإذا قام الحاكم أو أمير المؤمنين أو الخليفة ، بأمر ما ، بغض النظر عن مقدماته أو بنوده أو نتائجه و عواقبه ، فإن ذلك كله حسب هذه النظرية ، يكون ملقى إما على عاتق الله (تعالى) الذي بمشيئته و إرادته ، تم هذا الأمر ، من بابه إلى محرابه ، و ليس للحاكم يد فيه ، أو يلقي على عاتق الناس و عموم الجمهور ، لكونهم قد قاموا بأفعال و أعمال ، عاقبهم الله عليها أو أثابهم فيها ، بواسطة أمير المؤمنين الحاكم بأمره ، و لهذا السبب بالذات ، كان قمع العباسيون للثورات القوية المتعاضمة المتكاثرة التي نشبت ضدهم و منها ما كان دينياً ، و إخمادهم لها ، كان أيسر تبعة و أخف مؤونة و تكلفاً ، من تعامل الأمويين معها . و بالحصلة النهائية .. فقد خرج الأمر السياسي كله من الواجحة و من دائرة الضوء ، و أصبح يدير شؤون الدولة و الناس و المجتمع ، من خلف الستار .

إن مفهوم الملكية المطلقة أو نظرية الحق الإلهي ، لا ينبغي لها في معرض الديمومة و الاستمرار ، أن تبقى هكذا معلقة بالهواء دونما دعم فكري مادي ، لها ، يكون بمثابة الخوافي الداعمة للقوادم ، و هو ما أدركه بناء الدولة العباسية الأوائل و عمدوا إلى تداركه بأمرين اثنين ..

الأمر الأول : إنشاء ما يسمى بفقهاء الدولة الديني و إعادة صياغة المفهوم الديني بما يتلائم و المستجدات السياسية الحاصلة و التي أصبحت أمراً واقعاً لا مناص من تجاهله ، و قبولية الأمر الديني بحيث يعمل على ثبات الأمر السياسي و يمنعه من الانزلاق إلى مجرى الفوضى و بقاءه متموضعاً في مهبط رياحها ، عرضة لكل عارض و نبلة لكل نابله و أكلة لكل آكل . و كان من نتيجة هذا الأمر أن كان البداية لتشكيل بعض المذاهب الدينية التي استجرت معها بقية المذاهب الأخرى . وبنظرنا ، فإنه يجب الحذر و الانتباه إلى أن ذلك ، نتيجة و ليس مقدمة . فالمذاهب الإسلامية التي تشكلت في بداية العصر العباسي ، كانت نتيجة لمحاولة مأسسة الأمرين الديني - السياسي ، و صهرهما في بوتقة واحدة ، و لم تكن مقدمة لذلك كما كان يُظن .

كانت أول محاولة من قبل الخلفاء العباسيين في هذا الشأن ، محاولة الخليفة أبو جعفر المنصور ، استعمال الإمام أبو حنيفة النعمان (صاحب المذهب فيما بعد) على القضاء و حمله عليه ، فكان الإمام يأبى ذلك و يلتمس الأعذار و المخارج في كل مرة يعرض عليه أبو جعفر المنصور ، القضاء و الفتيا ، مهدداً إياه و متوعداً إن لم يقبل بذلك ، و عندما أعييت الخليفة المنصور الحيل ، أمر بحبس الإمام ، فحبس و مات في حبسه على أرجح الأقوال . و كان المنصور يحاول استمالة الإمام جعفر الصادق على ما يبدو لنفس الغرض ، لكن الإمام الصادق استطاع الخلاص منه أيضاً بعد محاولات تهديد عدة بالقتل و الحبس و بعد تضيق و إزعاج . فكان أن اتجه المنصور إلى الإمام مالك بن أنس ، و لكن هذه المرة غير من أسلوبه كيلا يجابه بالرفض ، فطلب منه أن يكتب له كتاباً في الدين

و الإسلام تسير عليه الرعية و يكون منهاجاً للدولة أيضاً ، فوضع له الإمام مالك كتاب (الموطأ) الشهير و الذي جعله العباسيين شريعة لدولتهم و حملوا الناس على الاقتداء به . جاء في الأثر^١ أن أبا جعفر قال لمالك : ضع للناس كتاباً أحملهم عليه ، و ضم هذا العلم و دوّنه كتباً ، و تجنب فيها شذائد عبد الله بن عمر ، و رخص ابن عباس و شواذ ابن مسعود ، و اقصد أواسط الأمور و ما اجتمع عليه الصحابة . و يروى أنه حصل بينهما حوار بعد ذلك ، فقد قال أبو جعفر لمالك : يا أبا عبد الله ، اجعل العلم علماً واحداً . فقال له مالك : إن أصحاب رسول الله ، قد تفرقوا في البلاد ، فأفتى كل منهم في عصره بما رأى ، و إن لأهل هذا البلد (مكة) قولاً ، و أهل المدينة قولاً ، و لأهل العراق قولاً قد تعدوا فيه طورهم ، لا يرضون علمنا (ربما قصد شيعة آل البيت) . فقال أبو جعفر : يضرب عليه عامتهم بالسيف ، و تقطع عليه ظهورهم بالسياط . و كان من الأثر الزماني لذلك كله ، أن تشكل المذهب الحنفي و المذهب المالكي ، و جرى الأمر بعد ذلك مجراه على بقية المذاهب .. الشافعي و الحنبلي و الجعفري و غيرها .

الأمر الثاني : ظهور المؤلفات السياسية النازمة لشؤون الدولة و نظام الملك و التي كانت نتيجة منطقية من مفرزات تشكل المذاهب الدينية و تثبيت نظام الدولة و الملك . فكان أن ظهرت الكتب السياسية التي تناولت جميع المفاهيم السياسية المتعلقة بنظام الدولة و أعمالها و شؤونها الإدارية ، من نظام الملك و نظام الوزارة و أعمال الولاية و العمال و المستخدمين و الضرائب و المكوس . كذا الشؤون العسكرية ما يختص بالجيش و القواد و الحملات العسكرية و المعارك الحربية ، و العلاقة مع الدول و الممالك الأخرى ، و آداب التعامل مع الملوك و الدخول عليهم و علاقة الفقيه بالسلطان و ما إلى ذلك . و نتيجة

^١ الإمام مالك ، ص /١٤٦/ .

خلاصة ما سبق من قول ، هو ظهور فكر سياسي متبلور واضح المعالم ، له أعماله ومقوماته وأسسها البيئية .

كما تضاعف الفكر الديني العام الذي أسسه المباشر هو القرآن والحديث ، ليتيح المجال لفكر مذهبي جعلت الرجال والأشخاص وساطة بينه وبين الكتاب . فظهرت الكتب الدينية المذهبية التي أفرزتها المذاهب الدينية ، فكل اعتمد الله ربه و القرآن كتابه و الرسول (ص) نبيه ، لكن عن طريق الرجال الذين ارتأى أنهم الأصلح في معرفتهم بالأصول فيما سلف .

هذان الفكران .. الديني و السياسي ، اندرجا تحت إطار الفكر الداخلي ، و ارتبطا بشكل وثيق بنظام الدولة العباسية ، كسبب مباشر (الفكر السياسي) أو غير مباشر (الفكر ديني) ، و كحالة إفراز لا بد منها هي من باب تطور الأحداث و اختلاط العفوي منها مع المستجد ، أكثر منه باب الإنتاج و التصنيع المقصودين . و بمقابل هذين الفكرين السياسي و الديني الداخليين ، برزت علوم تطبيقية و فلسفية و فكرية أخرى مثلت جانباً ثقافياً و فكراً حضارياً هو أيضاً من نتاج تطور حوادث قيام الدولة العباسية و ظروف نشأتها ، وهو أمر يقود إلى بروز مفهوم إشكالية (الإسلام السياسي) .

إشكالية الإسلام السياسي (نقطة نظام) :

لقد اندرج بالعموم ، كل أمر سياسي ارتبط بالإسلام أو حاول الارتباط به ، منذ بدء الدعوة المحمدية و إلى يومنا هذا ، بما عرف الآن بمسمى (الإسلام السياسي) أو من وجهة نظرنا نحن (السياسة الإسلامية) . و يبقى المبرر الفكري الأساس لمفهوم و فكرة (الإسلام السياسي) أو (السياسة الإسلامية)

، هو أن هذا الفكر ذاته ، قد خرج من رحم الإسلام نفسه ، و لا يعني ذلك أن الإسلام حمل في طياته بذوراً سياسية قابلة للإنتاش و النمو لحظة توافر المناخ و البيئة و التغذية المناسبة . و هنا مربط الفرس في الإشكالية الكبرى لمفهوم و جدلية (الإسلام السياسي) أو (السياسة الإسلامية) . فكيف ينفي الإسلام كدين محض سماوي توحيدي ، فكرة و مفهوم السياسة ، ثم تخرج من رحمه هكذا مفاهيم !!! و هو ما تحدثنا عنه في مواضع سابقة من هذا الكتاب ، و في كتب لنا سابقة ¹ .

بنظرنا أن التفسير المتضمن المبررات الفكرية المنطقية لذلك .. أن الإسلام ظهر كما رأينا ، في شبه الجزيرة العربية أبان فترة الجاهلية ، حيث لا وجود لفكر متبلور يحمل هويته الخاصة المميزة التي تؤهله ليكون فكراً بمعنى الفكر الموازي لفكر المجتمعات و الشعوب الأخرى المجاورة ذات الأديان و الحضارات القديمة العريقة و هو ما يؤسس تاريخياً لنشوء فكر معين قابل للدراسة و العيان و التحليل . و من المعلوم أنه بانتفاء الحضارة و مقوماتها ، لا يمكن إطلاق مسمى الفكر المتداول المتحمل لمقوماته و تشعباته الاجتماعية و السياسة و الدينية و غيرها . و بما أن الإسلام هو دين بحد ذاته ، فهو إذاً ، فكر بحد ذاته . فكان أول فكر عرفه العرب و ظهر فيهم مخاطباً إياهم ، ناشراً نفسه بين ظهرانيهم ، فاعلاً آثاره بمجتمعهم و تركيبته الاجتماعية ، فارضاً عليهم مجتمعاً إسلامياً موحداً لهم و ناظماً لشؤونهم الفكرية الدينية و علاقتهم الاجتماعية . و بالتالي فإن أي فكر آخر سيظهر أو سيفرض نفسه على العرب فيما بعد حتى ولو كان غريباً و افداً كالفكر السياسي مثلاً ، سيكون ليس من رحم الفكر الإسلامي ، و إنما من البيئة الإسلامية الجغرافية المجتمعية ، و هو مربط القضية و أساس الإشكالية الكبرى ، و هو ما توهمه البعض من ذلك و نظروا و أسسوا لما سمي

¹ للمزيد من الاطلاع على هذه القضية ، راجع كتابنا السابقين (الحكمة بين الإله و السلطان ، فصل الديانة الإسلامية) و (الزمن العربي الرديء ، فصل العرب و الدين ، و ما بعده) .

مغالطة و التباساً (الإسلام السياسي) . و هو ربما ما أشكل على بعض القوى و الأطراف في فترة صدر الإسلام بمرحلتها ، الأولى و الثانية ، إذن .. فالفكر السياسي لم يظهر من رحم الإسلام و إن نازعه رداءه و تلبس بلبوسه ، بل من رحم البيئة الجغرافية الجاهلية السابقة ذات التناقض الداخلي السابق (انتهى) .

إذن .. لقد أصبح الفكر العربي في العصر العباسي ، فكر العلوم و المعارف ، و ميزته هي التخصص في العلوم و تدوينها و فرزها فكرياً ، و استخلاصها بعضها من بعض ، و ذلك ما انسحب أيضاً على أشخاصها و مؤلفيها . فبرز علم اللغة و النحو و الصرف ، و الذي كان من أسبابه و محدثاته ، أن نشأ اللحن و العجمة في اللغة العربية نتيجة اختلاط العرب و الأعاجم ، و هو كما ذكرنا سابقاً ، سبب تطوري صنعه الأحداث و الظروف العفوية ، فكان أن انبرى لهذا الأمر الحادث ثلة من أهل العلم ، و قاموا بإنشاء الكتب و المخطوطات و المؤلفات المختصة بذلك ¹ . و الغريب اللافت للنظر في ذلك ، أن من هؤلاء من هو غير عربي قح ، إما ذا أصول أعجمية و بالأخص الفارسية ، أو مولى من موالي العرب كسيبويه و الكسائي .

و من أشهر هؤلاء ، الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي وضع كتاب أو معجم (العين) في اللغة و النحو و دون فيه ما جمعه و سمعه من قواعد و أصول و كلمات ، رتبها كلها على أحرف الهجاء . و لعل أكثر ما اشتهر به ، هو علم العروض الذي اختص بالشعر العربي و تقسيماته و أصوله و موازينه ، حيث قسمه إلى ضروب عدة ، سمى الواحد منها (بحر) و جعل لكل بحر منها اسم يختص به ، فكان منها .. الطويل و البسيط و الوافر و الكامل و السريع و

¹ أدباء العرب في العصر العباسية ، ص /١٦١/ .

الرجز ... الخ . و جعل لهذه البحور ، ضوابط و أوزان . و وضع أيضاً كتاب في المخارج الصوتية .

و من هؤلاء أيضاً سيبويه ، مولى الحرث بن كعب و هو ذو أصول فارسية الذي وضع كتاب في النحو أسماه (الكتاب) ، لاقى شهرة واسعة في زمانه و ما بعده . كذلك الكسائي الذي كان مولى لبني أسد و هو فارسي الأصل . و قد دعاه الخليفة العباسي (المهدي) إلى بغداد و جعله في حاشيته ، و من بعده ، جعله الخليفة هارون الرشيد مؤدباً لأولاده ، و هو أحد القراء السبعة و له كتب كثيرة في النحو ¹ .

و قد حرص هؤلاء و أضربهم من فقهاء اللغة ، على جمعها و تدوينها ، فكانوا يطوفون البادية و يدونون كلام الأعراب فيها ، و إذا ما وفد الأعراب إلى بغداد أو بعض نواحي العراق ، كالبصرة و الكوفة ، كان هؤلاء يستمعون إليهم و يدونون ما يسمعون منهم من أسماء و صفات الإنسان و الحيوان و النبات و الجماد و الأشياء و غير ذلك .

هذه كلها وقعت ضمن نطاق الفكر العربي الداخلي الذي ذكرناه آنفاً ، و هو فكر مثله علوم داخلية اختص بها العرب بشكل عام و اختصت هي بهم ، أو بدأت في أرضهم و مجتمعاتهم و يبرز مقابله الفكر العربي الدخيل .

الفكر العربي الدخيل :

الفكر الدخيل ، هو الفكر الذي لم يكن للعرب يد في صناعته و لم يكن موجوداً لديهم ، لكنهم كانوا يعرفونه معرفة سطحية عبر تعاطيهم السابق مع الشعوب و الحضارات المجاورة . و بعد الفتوحات الإسلامية للشعوب المجاورة لهم ، أدرك

¹ المصدر السابق ، ص /١٦٩/ .

العرب بشكل أكثر جدية ، أنهم أمام حضارة علمية لا بد لهم من مجاراتها و التعامل معها و معرفتها .

و بنظرنا ، فإن تطور الحوادث و منطقيتها الضاغطة ، له يد في ذلك . فقد تعرض المجتمع الجاهلي لضغط الأمر الإسلامي المجتمعي الوافد الضاغط ، فتحول إليه في عهد الدعوة الحمديّة و بداية عهد الخلافة الراشدة . و بدوره المجتمع الديني ، تعرض للعامل السياسي الوافد الضاغط ، فتحول إليه في عهد بني أمية ليصبح دولة سياسية ، الذي تعرض بدوره للعامل الأممي الوافد الضاغط باختلاط الحضارات و الشعوب ، فتحول إليه في العصر العباسي . و هو تسلسل تفسيري للحوادث التاريخية لتطور الفكر العربي ، لتبرير نأيه عن التشخيص و الأشخاص . و تدرج العلوم الدخيلة في هذه السيرة التاريخية لتشكّل صيرورة تفسيرية .

و عموماً تتألف العلوم الدخيلة من علوم الرياضيات و الفلسفة و الكيمياء و الصناعة و الفيزياء الذي سمي بعلم الحيل ، و علوم الجغرافية و الأجناس و الطب و الصيدلة . و هي جميعاً علوم اصطدم بها العرب من باب التعلم و الإدراك ، و ليس من باب العلم . فهم على الأرجح كانوا يعرفون بوجودها و يسمعون عنها ، و ربما في أحيان نادرة ، تعاطى البعض منهم بها سابقاً ، من خلال احتكاكه بالشعوب المجاورة و بالأخص بلاد فارس و الروم ، و قد شكّل ذلك حالات فردية متشردمة هنا و هناك ، لا ترقى إلى مستوى الإمام الجماعي و الإدراك المجتمعي لها ، بسبب انتفاء الحاجة الماسة لها ، و عدم القدرة على تحصيلها في البيئة الجغرافية و الفكرية السابقة . ففي فترة الجاهلية تعذرت الإحاطة بها و الحاجة إليها ، لظروف و أسباب شرحناها سابقاً . أما في فترة صدر الإسلام ، فقد انتفت الحاجة إليها ، حيث اهتمت الدعوة الحمديّة بالدين الإسلامي فقط و تشكيل مجتمع يصطبغ بصبغته فقط . و القرآن الكريم ، و إن تحدث عن العقل و أعماله ، و العلم و التدبر في الأرض و السماء ، فإنه لم يذكر بتاتا الأمر

السياسي و كيان الدولة و نظام الملك .. لذلك لم يكن هنالك علوم تطبيقية في هذه الفترة ، لأن الهدف ، كان البقاء على منظومة المجتمع الديني داخل حدود جغرافية محددة . و في العهد الأموي ، بقي الأمر على حاله كون الأمويين لم يهتموا أبداً بالتطور الفكري العلمي إلا في الحدود الإدارية لكيانهم السياسي ، حيث كانوا منشغلين بالتعامل مع الأمر الداخلي المتوتر لديهم و توطيد دعائم الملك السياسي ، فضلاً عن أنهم لم يسمحوا بالاختلاط الثقافي و الفكري بين العرب و غيرهم من الشعوب المتحضرة ، فاعتبروا أنهم أجلّ من أن يأخذوا العلوم من غيرهم .

و طبقاً لذلك ، فقد اصطدم العرب في العصر العباسي ، بحضارات تلك الشعوب و بالذات الفارسية منها و اليونانية ، و أدركوا أنهم ضعاف أمام تلك الشعوب ، و أنه لا قبل لهم بمجاراة هذه الشعوب المتحضرة التي غلبوها على أمرها و سادوا عليها و حكموها ، إلا أن ينهلوا من علومها و ينقلوها إليهم ، و يجلبوا علماءها و يحترمونها و يرموا لهم بعض الطاعة الفكرية . و إننا هنا ، لنقف أمام حقيقة غريبة بعض الشيء ، و هي أن رؤوس العلم و الفكر في العالم العربي آنذاك ، جلّهم ليسوا عرباً ، حتى رؤوس مذاهبهم الدينية و فقهاءهم في الدين ، كذا الأمر جلّهم ليسوا عرباً .. حتى الذين ترجموا أو نقلوا العلوم الأعجمية للعربية ، هم ليسوا كذلك !!؟؟ .

كانت الترجمة هي الأداة الأساس المعتمدة في اختلاف العرب إلى العلوم الدخيلة الفكرية ، العلمية منها و النظرية . و قد بدأت أول ما بدأت ، في عهد الخليفة أبو جعفر المنصور¹ الذي أمر بترجمة ضروب من الكتب في الطب و الحساب و الهندسة ، و جرى ذلك من بعده في عقبه ، المهدي و الهادي و بعدهما الرشيد .

¹ المصدر السابق .

على أن ذروة النقل و الترجمة ، قد بلغت موضعها في عهد الخليفة المأمون الذي كان محباً للعلم و العلماء ، فكان يرسل ملوك الروم في طلب الكتب ، و يجعل إخراجها إليه ، من شروط الصلح فيما بينه و بينهم ، فكان هؤلاء يلبون طلبه راضين أو مكرهين . و كان يبعث البعث إلى أرض الروم ليطلبوا العلم و المؤلفات . و قد بلغ من شدة حرصه على استحضر العلوم و نقلها ، أنه كان يمنح مترجمي الكتب ، وزن ما ترجموه ، ذهباً . و كانت مصادر النقل الرئيسة للكتب و المؤلفات و المخطوطات هي الفارسية و اليونانية و الهندية و السريانية¹ و كان جل نقل هذه المصادر من أهلها و شعوبها و ليسوا من العرب .

لقد كانت العلوم الدخيلة أو النقلية التي استوردها العرب ، سبباً رئيساً في نقلة فكرية ، نوعية و جوهرية لهم ، ربما ضاحت أو ساوت التغيير الفكري الذي وقع به الإسلام عليهم فأدى بهم إلى نقلة نوعية و جوهرية غيرت بهم من حالة الجاهلية المتشردمة العفوية المفككة و فكرها الخاص بها و المتصف بصفاتها ، إلى كيان آخر مختلف تماماً ، نوعاً و فكراً . فإذا بهم قد أصبحوا مجتمعاً إسلامياً ذا سلطة روحية مركزية .

كذلك الأمر ، كانت تلکم العلوم التي تمثلت نقلتها النوعية بالنسبة للعرب ، أن نقلتهم إلى مواقع الحضارات الإنسانية الراقية المتقدمة ، و البارزة ذات الأثر العلمي . فوصل العرب في فترة من الفترات ، عدّها البعض ، الفترة الذهبية ، أن أصبح موطنهم الجغرافي ، منارة للعالم أجمع و مركز إشعاع .

على أنه على ما يبدو ، كانت هنالك ضريبة يجب دفعها بالنسبة للحضارة و التسامح الفكري ، و الرفاهية المتحصلة من جراء ذلك . لقد كانت الضريبة بأن عاد الأمر الديني - السياسي بكل إشكالاته السابقة متموضعا بموضعه الجديد و متمظهراً بلباس تلك العلوم ، و بالذات منها الفكرية و الفلسفية و

¹ نفس المصدر السابق .

المنطقية ذات الجدل و الكلام . فقد بدأ بالمذاهب الدينية و استمر فيها متكاً على علم الجدل و الكلام . و بكل بساطة ، فقد تم تجيير هذه العلوم الفلسفية و الفكرية و المنطقية ، لخدمة الإشكالات الدينية و السياسية ، و ما تمخض عنهما من مذاهب و كيانات سياسية ، و لو كانت فكرية اعتبارية . فكان كل ذي رأي مهما كان .. سياسياً أم دينياً ، يتمسك برأيه و يعتمد على تلك العلوم الفكرية النقلية لمحاجة الخصوم و إفحامهم ، حتى أن هنالك مذاهب و فرق نشأت من هذه الظاهرة كمذهب المعتزلة الذي اعتمد على العقل و علم الكلام و المنطق . و لم تنجو الأنظمة السياسية الحاكمة من ذلك ، فقد تورطت هي الأخرى بدورها في هذا الأمر ، ربما نتيجة لفح نار الفكر و المنطق و الإشكالات الدينية السياسية السابقة ، مقام الخلافة نفسها ، و امتداد ألسنتها إلى كرسيتها . و أحد أمثلة ما سبق ، قضية (خلق القرآن) التي نشأت في عهد الخليفة المأمون العباسي نفسه ، صاحب حركة التنوير و العلم و كان هو صاحبها ، و هذا ما يستدل بها على كلامنا آنف الذكر حيث حمل المأمون الناس على القول بخلق القرآن و قد طلب إلى وزيره في كتاب له أن يمتحن كبار القوم من أهل الفقه و الدين بمسألة خلق القرآن جاء فيه ¹ : فاجمع من بحضرتك من القضاة ، فاقرأ عليهم كتابنا و امتحنهم فيما يقولون ، و اكشفهم عما يعتقدون في خلقه و إحدائه ، و أعلمهم أي غير مستعين في عملي و لا واثق بمن لا يوثق دينه ، فإذا اقرؤا بذلك و وافقوا ، فمرهم بنص من بحضرتهم من الشهود ، و مسألتهم عن علمهم في القرآن و ترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق ، و اكتب إلينا بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم و الأمر لهم بمثل ذلك . إن قضية (خلق القرآن) هي قضية فكرية دينية بحت ، لا علاقة للسياسة بها ، و أصولها و منشأها يكتنفهما الغموض ، و لم يكن لها جذور سابقة من قبل ، و

¹ تاريخ الخلفاء ، ص ٢٤٦/ .

لم يطرحها أحد ، لا في عهد الرسول (ص) و لا في عهد الخلفاء الراشدين أو في عهد بني أمية . حتى إذا نظرنا إلى أهمية إشكالاتها الفكرية و مستوجباتها العقلية و المنطقية ، لرأيناها ليست على هذا المستوى من الأهمية ، فضلاً عن أنها غير مشتملة على مقومات التناقضات الطرفية البعدية و لا على عناصرها الجدلية . فما معنى أن تأتي لشخص و تسأله : القرآن مخلوق أم غير مخلوق ؟؟؟!!! . حتى أن بعض كبار الفقهاء الذين عاشوا فترة ظهورها ، كانوا يجتارون في الإجابة ، فعندما سأل عامل المأمون على بغداد ، بعض أهل العلم و منهم بشر بن الوليد ، فقال له : ما تقول في القرآن ؟؟ أجابه الوليد : كلام الله . فقال له الوزير : لم أسألك عن هذا .. أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟؟ . أجاب الوليد محتاراً : لا أعرف غير ما قلت لك ، و قد استعهدت أمير المؤمنين أن لا أتكلم فيه . و عندما سأل علي بن مقاتل : يا علي ، ما تقول بالقرآن ؟؟ أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟؟ . أجابه علي : القرآن كلام الله و إن أمرنا أمير المؤمنين بشيء ، سمعنا و أطعنا . كذلك فعل الفقيه الزياتي . حتى الإمام أحمد بن حنبل نفسه عندما سئل عن رأيه بالقرآن أجاب : هو كلام الله ، فأعيد سؤاله : أمخلوق هو ؟؟ أجاب : هو كلام الله و لا أزيد على هذا ¹ .

و على ما يبدو ، فإنه لم تظهر للقضية أيد و أذرع و أرجل ، إلا عندما أصرت الدولة على ذلك ، حيث بلغت قضية (خلق القرآن) منحىً خطراً جداً ، فأصبح الناس يُقتلون عليها إذا صرحوا أو أفادوا أن القرآن غير مخلوق ، و لم يسلم من ذلك كبار الفقهاء و رجال الدين ، حتى بعض أصحاب المذاهب منهم كأحمد ابن حنبل .

و الذي يبدو لنا ، أن الدولة العباسية رأت أمراً سياسياً أو دينياً ما ، يشكل خطراً مباشراً عليها ، أو خطر غير مباشر قد يستفحل فيما بعد و يدهمها ، و لا

¹ نفس المصدر السابق .

ندري ما هو بالضبط ، لكنه على ما يبدو خطر أو قضية فكرية لها علاقة بخلق القرآن ، قريبة أو بعيدة .. و الله أعلم .

فاللافت للنظر ، أنها قضية أخذت بعداً فكرياً هائلاً فيما بعد ، امتد لسنوات عديدة ، و أضحى يشكل خلافاً جوهرياً ، نشأت عليه مذاهب و فرق ، فيما بعد ، و إلا فما معنى أن يؤتى بقضية شبيهة بنظرنا بقضية (البيضة و الدجاجة) لجهة الإشكالية ، و يجعل منها إشكالات فكرية و محنة يقتل عليها الناس و عليه القوم من رجال دين و قضاة ، و تكون مطروحة من قمة الهرم السلطوي السياسي في الدولة !!! .

على إن أهم حدث ربما يكون قد ترك أثره ، هو وقف باب الاجتهاد و إغلاقه حيث أثر ذلك على قضية البحث العلمي و الاستنباط الفكري آنذاك . و مذ أقفل باب الاجتهاد الديني متزامناً مع تضعف كيان الدولة السياسي و تفكك أواصرها و ضعف سلطتها المركزية بسبب سيطرة الأعاجم عليها و بالأخص الأتراك منهم ، على شؤون الدولة و قمعهم لأية ظواهر فكرية . تزامن ذلك كله مع ظهور الإمارات و الممالك المرتبطة اسمياً بالخلافة المركزية في بغداد ، لكنها عملياً ، مستقلة عنها . فانكفاً الفكر العربي مذ ذاك الحين ، و انحدر العرب بعد ذلك إلى غياهب الانحطاط و التخلف و الجمود ، إلى يومنا هذا . و وقعوا في حفرة لم يخرجوا منها أبداً ، و لم يعد هنالك حوادث لأي فكر جديد يمكن توصيفه و دراسته .

و بذلك نسدل الستار على الفكر العربي و تطوره في العصور السابقة ، من الجاهلية و حتى النصف الثاني من العصر العباسي الذي كان ما بعده ، مثله تماماً .

الفكر العربي التأسيسي

في الوقت الذي كانت فيه المنطقة العربية تخضع لسبات شتوي دام قروناً من الزمن ، لعله شابه حالة الصين و اليابان في القرون المتأخرة ذاتها ، سوى أن اليابان على سبيل المثال ، قد عانت من وطأة العامل الجغرافي الطبيعي عليها و تأثيره فيها ، فهي عبارة عن مجموعة من الجزر المتناثرة المعزولة و المعرضة لدوامة مستمرة من الزلازل و التي كانت جزءاً مما يسمى بالشرق الأقصى و الذي كان له من اسمه نصيب ، إذ توضع في أقصى الأرض متبداً مكاناً قصياً بعيداً عن الاحتكاك البشري العالمي . و هو أمر بحال من الأحوال ، لا يمكن مقارنته بجغرافية المنطقة العربية أو ما يسمى بالشرق الأوسط و الذي كان أيضاً له من اسمه نصيب ، فهو قد تموضع في منطقة إستراتيجية حيوية توسطت قارات العالم الثلاث الأساس في كوكب الأرض ، و مثل بؤرة الاحتكاك البشري العالمي ، و بؤرة لمهد الحضارات و تلاقحها ، و الأديان و نشوؤها و تنوعها .

هذا في الوقت الذي كانت فيه هذه المنطقة تعيش أسوأ تردٍ فكري و حضاري و علمي ، و ترزح تحت نير أسوأ احتلال عرفته في تاريخها ، ألا و هو الاحتلال العثماني ، الذي رزح فوقها قروناً أربع ، و كان لاحق لحملات مغولية تترية أكلت الأخضر و اليايس .. حرب و دمرت و أحرقت و أهلكت ، مروراً بالمدن العربية ، و أتلفت فكراً حضارياً كبيراً ، ملقية به في الأنهار حتى اصطبغ لونها بلون حبر الكتب الأسود .

في هذا الوقت و السبات ، كان المارد الأوروبي ينتفض خارجاً من قممه بعد أن لفحته نيران الحضارة الشرق أوسطية . فعمد إلى حركة شبيهة بتلك التي حصلت في بداية العصر العباسي ، من استجلاب للعلوم و الكتب و المؤلفات العلمية و نقلها إلى أوروبا و ترجمتها ، ما أدى إلى الإيدان ببدء عصر التنوير الأوروبي . الذي كان عبارة عن نسخة مكررة من عصر التنوير العربي و لكن .. و لكن حرف استدراك .. أثر الأوروبي هذه المرة أن لا يقع في الخطأ الذي وقع فيه العربي من قبله ، و الذي وقع فيه هو نفسه بداية الأمر .. و هو خطأ دمج الأمر الديني و السياسي معاً . فأدرك إما بغريزة خفية ، أو تتبع أثر التاريخ و حركة المجتمعات و الدول ، أنه حتى ينهض هذه المرة ، نهضة علمية فكرية جبارة لا ترتد به إلى حافة الجهل و الانحطاط مرة أخرى ، أدرك أن عليه فصل الأمر الديني عن الأمر السياسي الذي جاء في مرحلة لاحقة من مراحل التنوير الفكري و العلمي في أوروبا .

و يبدو أن فصل الديني عن السياسي في أوروبا ، كان أمراً حتماً مقضياً ، حيث بدأت بوادر الصدام فيما بين الديني و العلمي ، تظهر ، أو بالأصح من وجه آخر .. الكنسي و العلمي . و لما تحول الخلاف إلى صدام شرس فيما بين الطرفين وصل إلى مرحلة لجأت فيها الكنيسة إلى قتل العلماء و تصفيتهم ، و حرق الكتب العلمية و إتلافها ، ذلك كله بحجة أنه سحر و شعوذة و هرطقة ، ما آذن ببدء الانحدار و العودة إلى عصر القرون الوسطى و الإقطاع الديني . هنا أدرك البعض أنهم عائدون إلى مرحلة شبيهة بمرحلة قفل باب الاجتهاد عند العرب و المسلمين ، و الانحطاط الفكري لديهم ، و بخاصة و أن الخطر العثماني كان لا يزال جاثماً على أبواهم ، و معاركهم الحربية معه ، لا تزال قيد التفعيل و العمل ، فكان ذلك إيذاناً بثورات الإصلاح ضد الكنيسة ، و التي كان دعاة الإصلاح البروتستانتية ، عمودها الأساس ، و إيذاناً من بعد ذلك ، ببدء

الثورات ضد الملكيات المطلقة المتماهية مع مفهوم الحق الإلهي ، و هو وجه رئيس من وجوه دمج الديني مع السياسي ، و هو ما لا يصح . كانت أول ثورة ضد هذه الملكيات المطلقة ، هي الثورة الفرنسية التي أطاحت بعرش الملكية في فرنسا بشخص الملك لويس السادس عشر و زوجته الملكة ماري أنطوانيت التي كانت هي الأخرى بدورها من فرع السلالة الملكية النمساوية التي كانت تحكم الإمبراطورية النمساوية المتسعة آنذاك ، بموجب الملكية المطلقة و مبدأ الحق الإلهي . لتتوالى الثورات بعد ذلك و تُسقط الملكيات المطلقة مستبدلة إياها بنظام الحكم الجمهوري . حتى بريطانيا العظمى ، فإنها و إن نجت من موجة الثورات العارمة التي اجتاحت أوروبا ، فإنها لم تنج من لفتح نيرانها ، فقد تحولت هي الأخرى بدورها إلى ملكية دستورية ، فلم تعد كل السلطات محصورة بالملك .

لقد كان الشعار الأساس لكل ما سبق من ثورات ، هو . . فصل الدين عن الدولة و السياسة ، و هو أول حدث اعتمدته الثورة الفرنسية و وضعته ضمن الإطار القانوني الدستوري ، ثم تلا ذلك أهم حدث عالمي و هو إعلان ميثاق حقوق الإنسان ، الذي كان بمثابة دستور في فرنسا . و ما لبثت أن انتقلت عدوى ذلك إلى أمريكا نفسها حيث قامت الولايات المتحدة الأمريكية بالمبدأ ذاته و ثبتت الدساتير الكفيلة بحرية الإنسان و العبادة و الفكر ، و فصل الدين عن الدولة و السياسة .

إذن . . فإن الثورة الفرنسية أدت إلى أهم تغييرات جذرية غيرت مسار العالم و هي ..

- إسقاط الملكية المطلقة و مبدأ الحق الإلهي .
- فصل الدين عن الدولة و السياسة .
- ميثاق حقوق الإنسان و الحريات العامة .

و لعل إحدى فضائل القائمون على الثورة الفرنسية ، أنهم قرروا أن يصدروا أفكار ثورتهم ، إلى العالم أجمع و يجعلوها ثورة أممية و ينقلونها حتى إلى ما وراء البحار ، فكان أن ساندوا الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك في ثورتها و حرب استقلالها ضد بريطانيا التي كانت تحتلها و تسيطر على أراضيها . كذلك الأمر مع بقية المقاطعات و الدول في القارتين الأمريكيتين . و ولوا شطرتهم المشرق أيضاً ، فكانت مصر أول بقعة مشرقية يتوجهون إليها في أول حملة عسكرية أوروبية ، بقيادة نابليون بونابرت . و في الوقت نفسه ، كان ذلك أول اتصال حضاري عملي فكري للعالم العربي بالعالم الخارجي ، و كان ذلك إيذاناً ببدء المرحلة التأسيسية للفكر العربي المعاصر . و لا عجب في ذلك ، فقد اعتبر معظم الباحثون و دارسوا التاريخ ، أن الحملة الفرنسية كانت بداية النهضة العربية و خروج العرب من سرداب الانحطاط المظلم . و بنظرنا ، فإن الحملة الفرنسية على مصر ، كانت بمثابة الصدمة من حيث المقدمات و المتون و النتائج . و بالنظر التاريخي إلى تلك المقدمات و المتون و النتائج ، نخرج بنتيجة منطقية إذا لم نحاذر المنطق .. و هي أن الحملة الفرنسية على مصر كانت السبب المباشر و الرئيس في إحداث تغيير جذري جوهري في العالم العربي و بزوغ نهضة فكرية علمية قوية ، شاء من شاء و أبي من أبي ، ذلك بغض النظر عن اعتبار ذلك استعمار أم غير ذلك ، و إذا كان ذلك كذلك ، فمصر و العالم العربي بالمحمل كانت مستعمرة من قبل المماليك و الأتراك العثمانيين و الذين هم ليسوا عرب ، و لم يجلبوا للعالم العربي غير التخلف و الخراب . و يتضح ذلك من خلال تبيان سير أحداث حملة نابليون بونابرت على مصر و ما رافقها من وقائع . فهي لم تكن فقط صدمة للمصريين ، بل للعالم العربي و العثمانيين و المماليك . و نظراً لأن البذرة الأولى للاتصال الحضاري الفكري المباشر للشرق الأوسط و العالم العربي مع أوروبا المتحضرة ، كانت في مصر و استمرت فيها لفترة ، فإننا سنختص ذلك بفصل مفرد .

الحملة الفرنسية على مصر

بدأت الحملة الفرنسية على مصر عندما استفاق المصريون الذين ربما ظنوا أنه لا يوجد أحد غيرهم في هذا العالم ، استفاقوا ليجدوا سفن حربية مجهولة الهوية ترسوا أمام شواطئهم البحرية في الإسكندرية ، أخذت تدك بمدافعها معاقل المماليك وكلاء العثمانيين ، ليتضح فيما بعد أن هذه السفن هي لأقوام يسمون الفرنسيين يرأسهم شخص يدعى نابليون بونابرت . و في هذا المبحث ، فإن ما يهمنا أن نناقشه أكثر من غيره ، هو الجانب الفكري العلمي في هذه الحملة ، لا الجانب السياسي و لا الاستعماري ، فالكل كانوا مستعمرين . و لكي تتضح الصورة أكثر ، نقدم لمحة عن نابليون ، فمن هو نابليون ؟؟ هو ليس قائد مغولي أو غازٍ همجي جاء للسلب و النهب و سبي النساء ، بل هو قائد عسكري من قواد الثورة الفرنسية صاحبة المبادئ ، و هو قبل بدء حملته على مصر ، عرضت عليه أكاديمية باريس العلمية الشهيرة ، مقعداً فيها ¹ ، و هو أمر من الصعب المستصعب أن يناله أياً كان . فقبل نابليون المقعد و بعث رسالة إلى الأكاديمية يقول فيها : إن القرار الذي قرره رجال الجمع الناخبين ، ليشرفني ، و أني لأحس بأني قبل أن أتمكن من الوقوف معهم في موقف الزمالة ، ينبغي علي أن أبقى زمناً طويلاً تلميذاً لهم . و إن النصر الحقيقي الذي لا يعقبه أسف و لا ندم ، هو ذلك النصر الذي يحرزه العلم على الجهل و إن أنبل و أنفع ما تسعى له الأمم ، هو سعيها فيما تتسع به مملكة الذهن البشري ... (انتهى) .

و بدأ نابليون يشارك بشكل منتظم ، في جلسات الجمع العلمي للأكاديمية و يشترك ببحوثه . بعد ذلك بفترة ، قرر بدء حملة عسكرية على مصر و كان السبب الرئيس على ما يبدو ، هو الحرب الباردة - الساخنة بين فرنسا و انكلترا

¹ حياة نابليون ، ج ١/ ، ص ١٢٥/ .

و ضرب مستعمراتها في الهند . و قد اصطحب نابليون معه كوكبة كبيرة من خيرة العلماء و كبار الباحثين من الأكاديمية الفرنسية ، ليعاونوه في دراسة مصر ، حتى يتسنى له وضع المشروعات اللازمة لتعميرها و إحيائها ، فاصطحب معه علماء من الاختصاصات كافة ، بالتاريخ القديم و علم الحيوان و النبات و الشؤون الاقتصادية و الصناعية و الآثار و الأجناس ، و كان يجتمع معهم في السفينة يومياً ليستعرض معهم آراءه و مشروعاته التي سوف يقوم بها في مصر . و لما وصل ميناء الإسكندرية في مصر ، دارت بينه و بين المماليك ذوي الأسلحة البدائية ، معركة سريعة كان من أثرها فرار المماليك و دخول الفرنسيون الإسكندرية و من ثم مصر كلها ليبدأ الحكم الفرنسي .

لقد اعتمد المماليك كالعادة على الأمر الديني في مناوشاتهم الفرنسيين و استخدامه لصالحهم و مصالحهم باستنفار همم الأهالي للوقوف معهم . جاء في (الجبرتي) أنهم طلبوا من رجال الدين أن يجتمعوا كل يوم و " يقرأوا البخاري و غيره من الدعوات ، و كذلك مشايخ فقراء الأحمدية و الرفاعية و الدراهمة و القادرية و السعدية ، و غيرهم من الطوائف و أرباب الأشاير و الشعائر ، يعملون لهم مجالس بالأزهر ، وكذلك أطفال المكاتب .. يذكرون الاسم اللطيف و غيره من أسماء . و خرجت الفقراء و أرباب الأشاير يدقون الطبول و يصيحون بالزمور و ينادون بالأذكار النبوية و الابتهالات الدينية . و صعد السيد عمر أفندي ، نقيب الأشراف ، إلى القلعة و أنزل منها بيرقاً كبيراً ستمته العامة البيرق النبوي ، فنشره من القلعة إلى بولاق و حوله ألوف العامة يحملون النبايت و العصي ، يصيحون و يكبرون و يهللون بالدعاء و المناجاة ، و جلس مشايخ العلماء ، بزاوية علي بك ببولاق ، يدعون و يبتهلون إلى الله بالنصر . كما وصف الجبرتي الحال في مصر قبل ملاقات المماليك للفرنسيين قائلاً^١ " و

^١ الجبرتي ص / ٢٤٤ .

ضاق الحال بالفقراء الذين يحصلون أوقاتهم يوماً بيوماً ، لتعطل الأسباب ، و تعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام و انشغالهم بما دهمهم . أما بلاد الأرياف ، فإنها قامت على ساق ، يقتل بعضهم بعضاً و ينهب بعضهم بعضاً ، و غارت العربان على الأطراف و النواحي ، و صار قطر مصر من أوله إلى آخره ، في قتل و نهب و إففة طريق و قيام شر و إغارة على الأموال و إفساد المزارع و غير ذلك من الفساد الذي لا يحصى (انتهى) .

و وصف أيضاً حال المماليك في المعركة قائلاً " و لكن الأجناد متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم و تنعمهم و رفاهيتهم ، مختالون في رئيسهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم مغمورون في غفلتهم " .

و قد بعث نابليون إلى الوالي التركي كتاب يقول فيه ¹ : دولتو أفندم حضرة تلمي . . إن جمهورية فرنسا قد عازمت على إرسال حملة لقطع دابر المماليك من مصر ، و مع أنكم أنتم أصحاب السيادة و السلطان ، فإن المماليك قد جعلوكم كالأسرى تحت نفوذهم و سطوتهم ، و لذلك لا بد أن يسركم مجيئنا إلى هذه الديار ، فهلموا للقائنا و العنوا معنا المماليك . . بونايرت . و هنالك منشور أطلقه بونايرت لعموم الشعب المصري عند نزوله ميناء أبي قير ، احتوى على جانب كبير من المقومات الفكرية ، سنورده مورده المناسب في هذا البحث .

في الطريق إلى القاهرة ، عانى الجنود الفرنسيون من مناوشات بعض بقايا المماليك و الأتراك و السبب في ذلك ، هو أن رجال البعثة العلمية الفرنسية التي ترافقهم ، كانوا يوقفونهم طوال الوقت لفحص أثر من الآثار التي تصادفهم في الطريق ، حتى بدأ الجيش يتشكك في صدق نية الحكومة الفرنسية ، ظناً منهم أنها أرسلتهم إلى مصر ، فقط لحراسة هؤلاء العلماء . و كان من بين بعثة العلماء

¹ نفس المصدر السابق .

الفرنسيين ، مهندس بارع قُطعت رجله في حرب سابقة ، فاستعاض عنها بساق خشبية . و بلغ من شدة اهتمامه و بحثه و تجواله في أرض مصر ، أن عرفه المصريون وأطلقوا عليه اسم (أبو خشبية) .

و قد دارت معركة أخرى فاصلة عند أهرام مصر بين الفرنسيين و المماليك و الترك الذين كان شعارهم فيها (الله أكبر على من طغى و تجبر) . نظر نابليون إلى الأهرامات من بعيد و صاح بجنوده : أيها الجنود .. إن أربعين جيلاً تنظر إليكم من فوق هذه الأهرامات ¹ . و دارت معركة قصيرة خاطفة بين الطرفين ، فر فيها المماليك و الأتراك أمام الفرنسيين مع أموالهم و مجوهراتهم و نفائسهم . و لما رأى المصريون رؤساءهم و أسيادهم ، يفرون أمامهم و يتخلون عنهم في أخرج الأوقات و أصعب الظروف ، بعد أن أوهمهم أنهم يحكمونهم باسم الله ، استسلموا هم بدورهم للفرنسيين و بعثوا إلى نابليون يطلبون الأمان على أنفسهم و أموالهم ، فأجابه نابليون إلى ذلك و أرسل رسولاً ينادي بالطلب (الأمان للرعية جميعاً) .

بدأ نابليون حكمه في مصر بمفارقة واضحة مثيرة بالنسبة للمصريين ، بين الحكم الفرنسي و حكم الأتراك و المماليك ، فرسم أساس حكومة البلاد الإدارية بأن أنشأ مجالس القضاء و الإدارة المحلية ، و قام بتقسيم القاهرة إلى أقسام عدة . و أمر أن يتعهد الأهالي الطرقات و نظافتها و إضاءتها كل حسب مكان إقامته ، ثم أنشأ مشفى القصر العيني العام لمعالجة عموم الشعب و الجمهور . ثم ما لبث أن قسم مصر كلها إلى أقاليم عدة و عندما حاول المماليك الفارين إلى عكا ، تأليب المصريين عليه باسم الله و الإسلام و العقيدة ، جمع نابليون كبار مشايخ مصر و طلب منهم أن يدعوا مواطنيهم إلى الطاعة مذكراً إياهم بما فعله المماليك بهم و ما فعله هو . و يبدو أن ذلك أقتنع المشايخ و الجمهور الذين لاحظوا فارق

¹ المصدر السابق .

الأمر ، فصدرت نشرة طويلة بهذا الخصوص مذيلة بتوقيع كبار المشايخ ، تدعو الشعب لإهمال أمر الممالك و صرف النظر عنهم . ثم قام نابليون بعد ذلك بتعيين أمراء للحج إلى مكة و راسل الولايات المتاخمة لمصر كليبيا و تونس و الجزائر قائلاً لهم أن مصر ترحب بحجاج تلك البلاد في طريقهم إلى الحجاز و تتعهد بتيسير أمورهم . و عندما جاءت ذكرى فيضان النيل و هو يوم كان المصريين يحتفلون به من قبل ، دعا نابليون الجميع لحضوره و شارك هو و جنوده بالاحتفال . و لما قدمت مناسبة عيد المولد النبوي ، فوجئ المصريين بحضور نابليون الحفل مع بعض كبار ضباطه ثم كانت مفاجأة أخرى كبرى و سارة لهم ، أن رأوه يدخل المسجد وقت الصلاة و يجلس خاشعاً يتلو معهم ما يلقنوه من آيات القرآن الكريم و يركع مع الراكعين و يسجد مع الساجدين .

و إلى جانب الأمر الديني ، كان هنالك الأمر العلمي الفكري الحضاري الذي كان ذا الأثر الأكبر في تغيير مصر خصوصاً و العالم العربي عموماً ، و أول ما ابتدأ نابليون به كان إنشاء المجمع العلمي و هو أكبر حدث علمي و فكري في مصر ، و قد قسمه إلى فروع علمية عدة يأخذ كل فرع منها بمهمة و اختصاص معين . ثم شرع المهندسون المرافقون له في مسح الأراضي المصرية و ضبطها و رسم خرائطها الطبوغرافية ، و عكف آخرون في دراسة نهر النيل و وضع المشروعات اللازمة لضبط مياهه و صرفها لفائدة الأهالي ، و انصرف فريق آخر لدراسة نباتات مصر و حاصلاتها و تربتها و مناخها . على أن الأثر العلمي الأكبر ، كان الذي اختص بعلم الآثار المصرية و دراستها ، حيث أخذ علماء الآثار المرافقين للحملة الفرنسية بالبحث و التنقيب في المناطق الأثرية المصرية و منها أهرامات الجيزة الشهيرة ، و كان الحدث الأكبر في هذا المجال هو اكتشاف ما عُرف بحجر الرشيد و فك طلاسمه على يد العالم الفرنسي الكبير (شامبليون) ما أدى لاكتشاف رموز اللغة الهيروغليفية ، لغة مصر القديمة و الذي كان حدثاً اهتز له العالم أجمع و فتح الباب واسعاً لدراسة الحضارات القديمة .

و بعد معركته في أبي قير مع الأدميرال الإنكليزي (نيلسون) ، أنشأ نابليون فرقة من الجيش المصري و قام أيضاً بإنشاء معمل للبارود و الرصاص و مختلف أنواع الذخيرة ، ثم عمل على إنشاء نظام للبريد بين مختلف المدن المصرية ، و عمد إلى ضرب اللصوص و قطاع الطرق و أقام الملاهي و المنتزهات و المكاتب ، و عمل على إنشاء الصحف . بعد ذلك اتجه إلى السويس مع لفييف من العلماء ليجتاز عن المكان المناسب الذي سيحفر فيه ليصل البحر الأحمر بالمتوسط . في هذه الأثناء ، ترامت إليه الأنباء عن حشد لجيش تركي يقوده والي عكا العثماني (أحمد باشا الجزائر) . و عندما وصل العثمانيون بالقرب من العريش ، تصدى لهم بونايرت و حاصرهم أيام عدة ، و لم يفك عنهم حتى ألقوا السلاح و انسحبوا عائدين و تعهدوا بعدم العودة مرة أخرى . ثم تقدم نحو غزة التي استسلمت له بعد أن حقن دماء أهلها ، و بعدها اتجه صوب يافا و أرسل رسولاً إلى حاكمها طالباً منه المهادنة و حقن الدماء و التسليم على أن يكون آمناً هو و رجاله ، لكن حاكم المدينة قتل الرسول و علق رأسه على إحدى صواري المدينة على مرأى من الفرنسيين الذين هاجوا و اقتحموا المدينة و استولوا على غنائمها و وقع بيد نابليون ثلاثة آلاف جندي أسير ، أمر بإطلاق سراحهم فوراً و وقع هدنة معهم . ثم ولى وجهه شطر عكا التي كانت العقبة الكبرى أمام للدخول إلى سورية و حاصر حصاراً طويلاً و قد ضرب جيشه الطاعون و وقف الإنكليز ضده يساندون والي عكا ، لكنه استمر بالحصار ، حتى فكر والي عكا (الجزائر) بالفرار و ترك المدينة ، لكن الإنكليز منعوه من ذلك و ساهموا بتشكيل جيش عثماني قوامه ثلاثون ألف مقاتل لمواجهته ، فدارت معركة قرب عكا ، هزم فيها جيش نابليون ذو الستة آلاف مقاتل ، الجيش العثماني هزيمة نكراء .

و عندما عاد إلى القاهرة ، فوجئ بقدم جيش عثماني مملوكي ثانٍ مدعوم من قبل إنجلترا و روسيا ، قوامه العشرون ألف مقاتل شاكبي السلاح ، و لم يكن مع

نابليون سوى ستة آلاف مقاتل ، فكلف نائبه الجنرال كليبر ، بموافاته مع الألفين المتبقين من الجنود ، و اشتبك الطرفان في معركة برية على ساحل (أبي قير) و كذا الأمر ، مُني الجيش العثماني بهزيمة نكراء أخرى و استتب الأمر لنابليون في مصر . لكن ما لبثت أن ترامت الأنباء من فرنسا عن قيام حلف ملكي أوروبي ضده قام بإشعال التمرد في إيطاليا و التجييش ضد فرنسا ، فغادر نابليون مصر عائداً إلى فرنسا .

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر ذات أثر إيجابي كبير و رحمة من السماء ، شاء من شاء و أبي من أبي ، و لا يستطيع نكران ذلك إلا مكابر معاند ، جانب جادة الصواب و سقط في متزلق الهوى أو السذاجة العاطفية الغريزية ، و كل كلام في نقض ذلك ، يكاد يكون عقيماً لا فائدة منه و لا برهان عليه . فكما رأينا ، أن مصر كانت مستعمرة من قبل الأتراك و مماليكهم الذين أغرقوها في مستنقع آسن من وحول الجهل و التخلف و الظلام . فها هو الجبرتي الذي أرخ لمصر في عهد المماليك و الترك و ما بعدهم ، يقول في خلاصة عهدهم ^١ " و لم يزل الأمر يفسو و يزيد ، يتوارثه السادة و العبيد ، حتى تجسّم و نما ، و أهرقت فيه الدما . فكم حربت بلاد و قتلت أجماد ، و هدمت دور و أُحرق قصور و سببت أحرار و قُهرت أحيان " . و في تأريخه لسنة /١٢١٣/ هجرية و هي السنة التي سبقت الحملة الفرنسية على مصر ، قال ^٢ " و هي أولى سني الملاحم العظيمة ، و الحوادث الجسيمة و الوقائع النازلة و النوازل الهائلة ، تضاعف الشرور و ترادف الأمور و توالي الحن و اختلال الزمن و انعكاس المطبوع و انقلاب المطبوع و تتابع الأهوال اختلاف الأحوال و فساد التدبير و حصول التدمير و عموم الخراب و تواتر الأسباب ، و ما كان ربك مهلك القرى بظلم و أهلها مصلحون " . فكان الفرق واضحاً بين هذه الفترة و بين

^١ المختار من تاريخ الجبرتي ، ص /١٦/ .

^٢ المصدر السابق ، ص /٢٣٨/ .

فترة الحملة الفرنسية التي غيرت من معالم مصر الفكرية و العلمية و حتى التاريخية ، و لا عجب في ذلك إذا علمنا أن بعض ما صنعه و بناه الفرنسيون في مصر ، لا يزال قائماً إلى الآن ، و أساس لكثير منه ، و هي أمور لم تكن لتخطر للمصريين و لا للعرب ببال ، و مثال لذلك ، مشفى القصر العيني ، و الطرق الرئيسية في القاهرة و الجسور و المنشآت التي لا تزال قائمة إلى الآن ، حتى الجانب الديني له نصيب من ذلك ، فمدفع الإفطار الذي يضرب الآن في الأقطار العربية في شهر رمضان ، هو عادة ابتكرها الفرنسيون . و الكتاب الشهير المسمى (وصف مصر) الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية عن مصر و هو أول مخطوط ربما من نوعه يختص بتوصيف بلد معين لناحية الدراسة الأنتروبولوجية و العلمية . و الذي لا يزال إلى الآن نقطة علام و مرجع أساس للدارسين في تاريخ مصر ، حتى بعد أن تطورت الدراسة في فترة لاحقة حول مصر و تركزت في مؤلفات و مراجع أخرى ، و هو مصدر من مصادر كتابنا هذا . و قد وقع هذا السفر ، في مجلدات تسعة حسب مقدمة مترجمه الدكتور زهير الشايب ، توزعت على النحو الآتي :

— مجلدان لدراسة التاريخ الطبيعي لمصر ، يشتمل كل منهما على دراسة الطيور و الحيوانات البرية منها و البحرية ، و النباتات و الحشرات .

— أربعة مجلدات لدراسة العصور القديمة ، اثنان منها للدراسات و الآحران لوصف آثار العصور القديمة .

— ثلاثة مجلدات لدراسة الحالة الاجتماعية و السياسية في مصر التي كانت عليها منذ الفتح الإسلامي و حتى مجيء الحملة الفرنسية ، و قد شملت دراسات مختلفة عن مصر ، كانت من الدقة و التفصيل بشيء ، ما يؤهلها لتوضع في كتاب مستقل (حسب رأي المترجم)¹ . و قد تضمن السفر ، صور توضيحية و

¹ وصف مصر ج 1/ ، المقدمة .

أطلس جغرافي . و من بعض مواد الكتاب و فصوله ، وصف نهر النيل و فيضانه و مقدار منسوبه في فترات الفيض و الجزر ، و وصف المناطق المزروعة و الأمطار و وقت هطولها و مقدارها ، و استخدام الإحصاء و تحديد الأراضي الصالحة للزراعة من غيرها ، و دراسة القرى و النواحي التي تتاخم مجرى نهر النيل و تعدادها و تعداد سكانها ، و تعداد سكان مصر و المدن الكبرى الرئيسة فيها ، و مقارنه ذلك كله بعدد السكان في الفترات القديمة . كما تحدث عن حالات الوفيات و المواليد و الفارق بينهما و عن خصوبة النساء . و دراسة الضرائب و استهلاك الأطعمة و الأغذية ، و مقارنة كل ذلك ، بما تنتجه الأرض من غلال . و دراسة الطبقات الاجتماعية و السياسية و العسكرية و تعدادها ، و الأجانب و الوافدين و الحرفيين و الصناعيين و المزارعين ، و طبيعة عمل كل هؤلاء و أوضاعهم . و وسائل النقل و الطوائف و المذاهب و الملل و أتباعها .

لا بل إن أول فكرة لتحرير المرأة ربما كانت أثناء فترة الحملة الفرنسية نفسها ، فقد جاء في تقرير أحد الضباط الفرنسيين المتواجدين في إحدى المقاطعات المصرية ، الحادثة التالية¹ .. كنا في قرية الرحمانية ، عندما لجأت امرأة و عديد من الرجال إلى منزلي ، و ركعت و ركع الجميع على ركبهم طالبين العدل أو بالأحرى الانتقام ، و كانت المرأة ملطخة بالدم . هدأ زميلي من روعها و اكتشف أنها مضروبة فوق رأسها ، و أراد أن يخلع النقاب الذي يغطي وجهها ، لكنها قاومت ، فكرر المحاولة و انتزع النقاب ، لكن البائسة التي كانت تتمسك و هي في آلامها تلك ، بالواجبات التي تفرضها عليها و على جنسها ، عادات و تقاليد بلادها ، غطت وجهها بيدها . و احتراماً من زميلنا لمعتقدات كهذه ، فقد قص فقط الشعر المحيط بالجرح و ضمده بنفسه ، حيث لم يكن ليوجد

¹ وصف مصر ، ج / ١ ، ص / ١٠١ .

طبيب في المنطقة ، و ربط الضمادة بقطعة قماش من قميصه مزقها لهذا الغرض .
و عندما شاهده بعض الجمهور ، يفعل ذلك ، اظهروا بالغ دهشتهم علناً و
عبروا عن استنكارهم لقيام رجل يشغل منصباً عاماً مثله بالانحدار لدرجة يضمم
فيها كائناً حقيراً ، و كانت تلك رؤيتهم للمرأة . و عندما صدمته همجيتهم
تلك ، أراد أن يطردهم ، لكنهم ظلوا يقولون له أنه بذلك يسيء إلى كرامته .
بعد ذلك توجهنا فوراً إلى حاكم الولاية و عرضت عليه الأمر ، فحولني كامل
السلطة في عقاب المذنب الذي كنت قد أمرت بإلقاء القبض عليه . و عند
إحضاره قلت له : أهذا هو أنت أيها الهمجي الذي عامل تلك المسكينة بهذه
الوحشية ؟ فأجابني ضاحكاً باستغراب : ماذا ؟؟؟ أتظنها وحشية أن تضرب
امرأة ؟؟؟ .

— و ذلك الدم الذي أسلته ؟؟ .

— لا يمحو دم الرجل إلا الدم ، لكن ليس هذا هو الأمر بالنسبة للنساء .
و استفزني الهدوء الذي يصطنعه في ردوده فقلت له : نحن قضاتك ، و تلك
القسوة التي أبديتها ، هي جريمة كبرى بنظرنا ، و سوف نعاقبك على فعلتك
هذه .

— و هل ستعاقبونني لو أنني جرحت بقرة ؟؟؟ .

— نعم ، بلا جدال .. إذا لم تكن البقرة ملكاً لك .

— إذن فاستمعوا لأسبابي ، و سوف ترون أنه كان علي أن أسلك هذا السلوك
.. لقد انتزع مني المماليك حقل لي لكي يعطوه لابن عمي ، ثم جاء الفرنسيون
ليصلحوا من مظالم المماليك ، أفلا يحق لي إذن أن استرد أملاكي السابقة ؟ لكن
ابن عمي و أخته تلك ، اعترضوا على ذلك ، فضربتهم ، و سأظل اضربهم حتى
يعيدوا لي أرضي . إنني لا أطالب إلا بما هو حق لي ، لا بل إنني الجأ لهذا الغرض
إلى عدالة القوانين الفرنسية .

— حسناً .. ما دمت تتحدث عن القوانين الفرنسية ، فسوف تنال حَقك بها ،
و لكنك ستُعاقب بها أيضاً ، وعليك أن تعرف أن القوانين الفرنسية تعاقب
السفاحين الذين يسمحون لأنفسهم بارتكاب أعمال العنف ضد الآخرين .

ثم استدعيت إلى بيتي أعيان و شيوخ القرية و قلت لهم : ما هو العقاب الذي
توقعونه على الذين يضربون أو يجرحون عامدين ، الرجال ؟ فأجابوا في وقت
واحد : عصا مقابل كل عصا ، و ليس ثمة أكثر من ذلك .

— هذا يكفي ، والرجل الذي ماثل أمامكم هنا ، قد جرح هذه البائسة و هو
يطلب أن يُعامل حسب القوانين الفرنسية ، فليعلم و لتعلموا إذن .. أن الإنسان
حسب القوانين الفرنسية ، لا يستطيع أن يحصل على حقوقه بنفسه و إن للمرأة
نفس الحقوق التي للرجل ، و إن دمها ليس أقل من دمه ، و نتيجة لذلك ،
فسوف يُضرب صاحبكم على الفور /٢٥/ عصا .

فصاحوا جميعاً على الفور بلهجة تنم عن دهشة شديدة و استنكار : /٢٥/ عصا
؟؟!! هذا ليس عدلاً ، فهذا أقصى ما كنا نوقعه عليه من عقاب لو أنه قتلها .
— نعم /٢٥/ عصا ، و سأنفذ أوامري على الفور ، و إذا ماتت المرأة ، ستتخذ
إجراءات أخرى .

و عندما حان تطبيق العقاب ، لم يشأ أي منهم أن يتحمل مسؤولية تنفيذه ،
فأرسلت في استدعاء القوّاس ، لكنه مارس واجبه برخاوة و حرص ، حتى أن
خادماً مالطياً كان يشاركني الشعور بالغضب ، انتزع العصا منه و أكمل هو
العقاب بالقسوة التي يقتضيها الحال .

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر النواة الأولى و العامل الأساس ، و القابلة
المولدة لمنظومة فكرية علمية عصرية حديثة ، و الأساس أيضاً لبناء الدولة
العصرية التي سبقت العالم العربي بفترة زمنية قياسية ، للحاق بركب الحضارة ،
بعد الاختلاط بالعنصر الأوروبي .. عامل انسحب على المكونات الفكرية

الأساس .. الاجتماعية و السياسية و العلمية و الثقافية ، و نقول النواة الأساس القابلة المولدة ، لأن ما جاء بعدها مباشرة و ارتبط بها أيضاً بشكل مباشر ، و هو حكم محمد علي باشا الذي استعان بالفرنسيين و أبقى معظمهم في مصر ، كانت النتيجة الأثر مباشرة أيضاً لهذه الحملة .

بقيت الحملة الفرنسية في مصر ثلاث سنوات فقط ، ربما لم تكن كافية لاستكمال بناء دولة عصرية من الطراز الحديث ذات حضارة و فكر ، لكنها كما ذكرنا كانت البذرة التي استمرت فيما بعد عن طريق محمد علي باشا .

و عند قدوم نابليون بونابرت إلى مصر و نزوله إلى شواطئها ، أعد منشوراً بالعربية ، كان بمثابة نداء إلى الشعب المصري و قد طبع منه ثمانية آلاف نسخة على المطبعة العربية التي جاء بها نابليون من فرنسا ، و وزعها على جميع أنحاء مصر ، و مما جاء في هذا المنشور ^١ ..

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله لا ولد له و لا شريك له في ملكه .. من طرف فرنساوية المبني على أساس الحرية و التسوية ، السرعسكر الكبير ، أمير الجيوش فرنساوية ، بونابرت ، يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد ، السناجق حكام المماليك الذين يتسلطون في البلاد المصرية ، منذ مدة عصور طويلة ، هذه الزمرة من المماليك المحلوبين من بلاد الأبازة و الجراكسة ، يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد مثله في كرة الأرض كلها . فأما رب العالمين القادر على كل شيء ، فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم .. يا أيها المصريين ، قد قيل لكم أنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح لا تصدقوه و قولوا للمفتريين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين . و إنني أعبد الله سبحانه و تعالى ، أكثر من المماليك ، و احترم نبيه و قرآنه العظيم أكثر منهم . و قولوا لهم إن جميع الناس

^١ المختار من تاريخ الجبرتي ، ص /٢٤١/ .

متساوون عند الله ، و إن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل و الفضائل و العلوم فقط ، و بين الممالك و العقل و الفضائل ، تضارب . فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يمتلكوا مصر و حدهم و يختصوا بكل شيء أحسن فيها ، من الجواري الحسان و الخيل العتاق و المساكن المفرحة . فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للممالك ، فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم . و لكن رب العالمين رؤوف و عادل و حلیم ، و بعونه تعالى ، من الآن و صاعداً ، لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية ، و عن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء و الفضلاء و العقلاء بينهم ، سيدبرون الأمور ، و بذلك يصلح حال الأمة كلها . و سابقاً ، كان في الأرض المصرية ، المدن العظيمة و الخلدجان الواسعة ، و المتجر المتكاثر ، و ما أزال ذلك كله إلا الظلم و الطمع من الممالك .. أيها المشايخ و القضاة و الأئمة و الحريجية و أعيان البلد، قولوا لأمتكم إن فرنساوية هم أصدقاء المسلمين الحقيقيين . و المصريون بأجمعهم ، ينبغي لهم أن يشكروا الله سبحانه و تعالى لانقضاء دولة الممالك .. لعن الله الممالك و أصلح حال الأمة المصرية (انتهى) .

توضح قراءة الخطاب السابق ، بروز العامل الفكري فيه و التركيز عليه ، كما يتضح أيضاً إمام الفرنسيون بالوضع العربي تماماً و توصيفه توصيفاً دقيقاً منبثقاً من أرض الواقع مباشرة ، و بالتاريخ المتعلق به . و لأن عزا البعض خطاب نابليون بونابرت إلى دوافع استعمارية محضة ، و تنازع المصالح و السياسة فيما بين فرنسا و بريطانيا ، فإن ذلك و إن كان له محل من الإعراب و الوجود ، فإنه لا يلغي بتاتا الأثر الإيجابي الفعال الفكري للحملة الفرنسية ، فقد كانت أول إشارة لبعث القومية العربية أو على الأقل تغذية نزعة القومية و العروبة في هذا الخطاب و ما ذكر في رسائل نابليون . و إذا أريد اعتماد مفهوم و فكرة الاستعمار و الاحتلال ، فإن باب المقارنة يميل الكفة راجحة لا لبس فيها إلى الاحتلال الفرنسي ، فالمستعمرون الفرنسيون قدموا إلى مصر إلى بالأفكار و

كان هذا جانب من جوانب آثار الثورة الفرنسية فهم أرادوا غايات عدة من احتلالهم مصر إحداها عسكرية اقتصادية و الأخرى فكرية علمية ، انفتاحية و تقدمية ، و هو ما ظهر أثره واضحاً جلياً فكانوا بذلك ، المصل الذي غذى الوريد المصري و ضخ فيه نسغ الحضارة و الفكر ، بجرعات هائلة ، و بطريقة صدمية مفاجئة .. الديمقراطية .. المساواة .. العروبة .. التعليم .. الصحة .. الـ .. الـ .. الخ ، و هو على النقيض تماماً مما فعله المماليك و العثمانيين الذي حكموا المصريين و العرب بألف وجه و وجه و ألف قناع و قناع ، كله تحت ستار الدين و المذهب . و لا ريب أن المصريين قد أدركوا الوجه الإيجابي للفرنسيين ، فقط ربما من خلال تلك المقارنة إيها التي أجروها و لاحظوها و لو بسبيل عفوي غير مباشر . على سبيل المثال ، كان أحد وجوهه الإضافية غير المذكورة آنفاً ، أنهم كانوا يقفون بدهشة و عجب ليروا نابليون في الميادين العامة و الساحات الرئيسة و هو يجلد بعض من جنوده الفرنسيين أو يعلقهم على المشانق ، في حال انتهاكهم حدود القانون و نظام الجندية بممارسة اللصوصية أو الاغتصاب أو القتل الغير مبرر ، بحق الأهالي¹ . هذا حادثة سياسية عسكرية فردية ، لكنها تحمل في جعبتها فكراً خفياً هائلاً و مقارنة فكرية ، تدخل إلى اللاوعي أو الوعي المباشر في وجدان المصري ليستفيق على أمر لم يكن ليحصل في عهد السلف الغير صالح السياسي و الإداري . و توقظ فيه نار الثورة فيما بعد على أية مظالم قد يتعرض لها ، و هو الشعب الهادئ الذي عهد الاستكانة و الوداعة فيما لحقه من مظالم فادحة من قبل ، و هو ربما ما شكل نواة ما سيحصل مع الاحتلال الإنكليزي لمصر فيها بعد من ثورات في وجهه و وجه الإقطاعية التي رزحت نيرها على كاهله قروناً طويلة . و هو ما سوف يشكل بعداً فكرياً و سياسياً لمحمد علي باشاً في حكمه لمصر ، فلولا

¹ الجبرتي ، ص / ٢٨٨ .

الفرنسيون لما حصل كل ما حصل لمصر و للعالم العربي من بعدها ، و الله العليم بما كانت ستؤول إليه الأمور و تاريخ المنطقة بأسرها .

إن كل أثر حضاري استقدمته الحملة الفرنسية إلى مصر ، كان كافٍ لنهوض أمة بأسرها ، و لعننا لم نذكر فيما سبق ، المطابع التي استقدمها الفرنسيون و التي كان لها عظيم الفضل في تطور نهضة فكرية هائلة بدأت في مصر ، تمثلت بالمطبوعات و الصحافة و الكتب ، و كان لها فيما بعد ، أثر كبير على بقية البلدان العربية المجاورة . و قبل أن نبدأ الحديث عن فترة محمد علي باشا الفكرية و التي لم تكن لتنهض لولا الأثر الفرنسي السابق في الحملة الفرنسية ، و اللاحق في الدعم الفرنسي له ، خليك بنا أن نذكر قضية على جانب من الأهمية ، و هي أن الفرنسيين و إن كانوا في توصيف جزئي من توصيفاتهم الكلية ، غزاة ، فإنهم قد شاركوا المصريين جل علومهم و فكرهم ، و كل تلك الإنجازات التي أبدعوها و أوجدوها في مصر ، شاركوا بها المصريين و علموهم ، و لم يعمدوا إلى استذلالهم و استعبادهم ، و هو للأمانة العلمية و التاريخية ما يشهد له .

فترة محمد علي باشا :

كتب نابليون في إحدى رسائله يقول ¹ : لو أن الدولة العثمانية عهدت إلى والٍ من أهل بلاد الشام و مصر ، أن يحكمها كما فعلت بألبانيا و غيرها ، لاستقلت المملكة العربية التي تتألف من أمة تخالف الأمم غيرها ، مخالفة كلية بعقليتها و أوهامها و لغتها و تاريخها ، و شملت مصر و بلاد العرب و شطراً من إفريقية . و تتمنى ولايات الدولة العثمانية هذه التي لغة أهلها العربية ، من صميم فؤادها ، وقوع تغيير عظيم و تنتظر الرجل الذي يقع هذا التغيير على يديه .

¹ تاريخ الفكر المصري الحديث ، ج / ١ ، ص / ٥٤ .

و يبدو أن نابليون كان صائباً في أقواله تلك و في نظريته الإستراتيجية ، كيف لا و هو القائد الإستراتيجي الذي غزا العالم و خبير كل العلاقات الدولية ، السياسية منها و العسكرية ، و نهل من علوم المعرفة الفكرية ، فهل يكون نابليون بونابرت أول من نظر للقومية العربية ، أو على الأقل أدرك ببصيرته الثاقبة و خبرته العملية و الفكرية ، وجود عواملها و مقوماتها؟؟ علماً أنه أدرك في الوقت عينه إمكانية وجود وطن قومي لليهود في فلسطين . و قد كان واضحاً تمام الوضوح ، أن الثورات التي هبت في وجه الفرنسيين في مصر ليست ذات صبغات و أهداف وطنية ، بل هي طائفية بحتة ، لا تقوم على ميرر كاف ، بخاصة و أن الفرنسيين لم يتدخلوا بالدين بشكل عام أو يحتكوا بالأمر الديني أو كانت أسبابهم و غاياتهم دينية و تبشيرية كما كان عليه الأمر في الحملات الصليبية فيما سبق من قرون . و الدليل على ذلك هو أن مصر كانت محكومة من قبل الأتراك و المماليك الذين هم خليط أعجمي غير متجانس .. فيهم الشركس و الألبان و البلغار و المغول و المجر و القوقاز و أحلاط أخرى غيرهم من شعوب أعجمية ليست حتى ذات صفة معلومة مهمة في مواطنها الأصلية نفسها !!! ليس ذلك فقط ما يوقف عنده ، بل أن هؤلاء لم يكونوا من أشرف قومهم حتى ، لا بل كانوا في بعضهم الغالب ، من سوقتهم ، و كلمة (المماليك) نفسها تدل على ذلك . فهؤلاء كانوا مجندين يؤسرون في الحروب و يباعون في أسواق النخاسة ، و بعضهم كانوا خدام خصي . ثم تترقى بهم السبل فيتسلمون المناصب العليا و ينقلب بعضهم على بعض ، حتى يصل أحدهم إلى القيادة و الإمارة . و إذا نظرنا إلى النتائج التي أعطوها للجمهور خلال سني حكمهم له ، لا نجد سوى القهر و الظلم و الجوع و المرض و الجهل و التخلف و فرض الضرائب و المكوس التي يتقاسمون نصفها مع الباب العالي بالأستانة ، و إذا عدنا بالاطلاع إلى تاريخ تلك الفترة من حكمهم لراعنا الوضع المأساوي الذي كان يعاني منه المصريين في ظل حكم هؤلاء . و إننا لنعجب أشد العجب

كيف أن المواطن العربي اعتبر أن الفرنسي الذي جلب له الخير و العلم ، هو الخطر الأكبر عليه و أجفل منه ، بغض النظر عن كونه مستعمراً أم لا ، و لم يقرن الأمر عينه مع أعجمي آخر لا يُعرف له قرعة أب ، يحكمه قرون و يسومه أنواع العذاب و الألم و الظلم و القهر ، و يذله إذلالاً تقشعر لهوله الأبدان !!!؟ .. سبحان الله أمر غريب .. عجيب .

جاء في كتاب فولني (إطلال الحضارات و ثورات الإمبراطوريات)¹ الذي كتبه عام ١٧٩١م / م .. كل ما يقع في مصر تحت البصر أو السمع ، يدل على أن هذا البلد ، هو بلد الاستعباد و الاستبداد ، فإنك لا تسمع حديثاً إلا و له صلة بفتنة أهلية أو فاقة عامة أو ابتزاز مال أو اغتصاب حق أو تعذيب بالضرب أو إفاضة لروح . فالأمن فيها على الأرواح مفقود ، و دم الإنسان يهدر كدم الحيوان . و القضاء نفسه يسفك الدم في صورة غير قضائية ، و عسس الليل و الشرطة يتولون ، في جولاتهم الليلية و النهارية ، الفصل في الخصومات بين الناس ، و ينطقون بالأحكام على الفور ، و ينفذونها في أقل من لمح البصر ، من دون أن يكون للمحكوم عليه ، حق الاستئناف . و ترى الجلادين لهذا السبب ، يطأون مواقع الجنود و يرافقونهم أيان يذهبون ، و يلازمونهم حيث يجلون . فما هي إلا إشارة من أحدهم ، حتى ترى رأس مظلوم قد هوت إلى قاع كيس من الجلد . و كثيراً ما تجد أن الباعث على السير يمثل هذا التعسف ، هو شره في نفس عظيم من أرباب الشوكة و الجاه المماليك ، أو وشاية من عدو بغيض ، و هو ما ينجم عنه أن يدعى الرجل المشتبه فيه ، بأن عنده مالا ، إلى البيك و هو الحاكم أو الوكيل المملوكي ، فيطالبه بمبلغ معين ، فإذا أنكر أن عنده مالا فيفي بالمطلوب ، طرح أرضاً و جلد على قدميه مائتي جلدة أو أكثر ، و كثيراً ما يفرضي هذا الضرب إلى موته ، فتعسا لمن يشتبه فيه أنه على شيء من اليسر

¹ تاريخ الفكر المصري الحديث ، ج /١ ، ص /٦٢ .

الرخاء ، و ليس بميسور لأحد ، أن ينقذ نفسه من شر اعتداء الأقوياء على ماله ، إلا إذا تظاهر بالفقر المدقع و لبس للمسكنة و الزراية لبوسها (انتهى) .
و نورد هنا حادثة لها دلالة قوية على ما أوردناه من سالف قول ، و هي أن المماليك الأعراب لم يكونوا يسمحون لأحد من غير جنسهم بامتطاء الخيول و البراذين ، و كان إذا صودف مواطن في السوق أو بعض الأزقة يركب على بغلة أو حمارة و تراءى أمامه أحد المماليك مهما كانت مرتبته ، كان يتوجب عليه التزول و إفساح الطريق ، حتى يمر المملوك بجواره و يغيب عن ناظره ، و كل من كان يخالف ذلك ، كان يُلهب ظهره بالسياط و يُسام من المهانة و المذلة ضرورهما^١ .

و إذا بحثنا عن الأثر الفكري أو العلمي أو الثقافي الذي قدمه هؤلاء المماليك و الأتراك و مستوى درجته ، لرأينا أن مؤشر ذلك يستقر عند درجة الصفر أو ما تحت الصفر . و لقد بحثنا بالفعل و استطلعنا كل كتب التاريخ و مخطوطاته التي أرّخت للفترة المملوكية في مصر و وثقتها ، فما وجدنا واحداً منها يمدحها ، بل كل يذمها و يهجوها بأبشع الأوصاف و النعوت .

وصل محمد علي باشا إلى مصر مع الفرقة الألبانية ، التي أرسلها الباب العالي إلى مصر للحلول مكان الفرقة الفرنسية التي جلت عن مصر . و أكبر دليل على مصداقية ما قاله نابليون في منشوره إلى المصريين محذراً إياهم من العثمانيين المماليك ، بالرغم من كونه غازياً ، هو أن محمد علي باشا قد طبق مقولته بحذافيرها و لو من غير قصد ربما ، فكان أول عمل قام به ، أن دبر مذبحاً رهيبة للمماليك في القلعة ، أبادهم فيها عن بكرة أبيهم ، و تخلص منهم إلى الأبد متعقباً فلول بقاياهم في الصحراء . و يبدو أن الحملة الفرنسية التي وجهت ضربة قوية للمماليك و كسرت سلطاهم و شوكتهم و شتتهم في البوادي ، قد

^١ وصف مصر ، ج /١/ ، ص /٢٦/ .

ساعدت محمد علي بشكل كبير في القضاء عليهم ، فكان أن استتب الأمر له في مصر ، ليعمل بعدها على توطيد أركان دولته الحديثة فيها ، موطداً و مهيباً للأمر الثاني الذي سيقوم به ، وهو محاربة العثمانيين و شن الحملات عليهم و مهاجمتهم حتى تخوم عقر دارهم .. الأستانة . و لم يثنه عن عزمه هذا سوى تألب الدول الأوروبية و اجتماعها عليه و على وجه الخصوص إنكلترا بالمرتبة الأولى .

على إن محمد علي باشا و إن لم يكن في وارد العمل على منح المصريين التحكم بمصير دولتهم ، و إدارة شؤونها الداخلية و الخارجية . فإنه كان في وارد السعي لإنشاء كيان دولة عصري ، حديث و متقدم و لكن مقام المصريين فيه مقارب لمستوى السخرة ، على نمط شبيهه بأيام الفراعنة . و طبقاً لذلك ، فقد كانت هوية الفكر المصري الذي أوجده محمد علي باشا ، من منطلق ما سبق ذكره ، هوية سياسية عسكرية في شعبة من شعبها ، و هوية علمية تطبيقية في شعبة أخرى ، لكنها خاضعة للشعبة الأولى و خادمة لها و لأجلها ، و نستطيع القول أن محمد علي باشا قد خفف نصف الحمل عن المصريين الذين كانوا يعانونه أيام العثمانيين و مماليتهم ، حيث أزال عنهم عامل الجهل و الانحطاط و التخلف الذي كانوا يعانون منه ، و خفف إلى حد لا بأس فيه ، من الظلم الإنساني ، لكنه أبقى على جانب الاستغلال العام للشعب و حرمانه من حقوقه الفكرية بشكل عام ، فكانت المعادلة الفكرية عنده هي .. الشعب في خدمة الدولة ، و ليس .. الدولة في خدمة الشعب . أو على الأقل أن تكون المعادلة تبادلية .. الدولة و الشعب ، بعضهما في خدمة بعض . و لكن حتى في هذه النقطة ، تمايز محمد علي باشا عن المماليك في أن استغلاله للشعب كان لأجل نظام و كيان الدولة و ليس لأجل منافع شخصية منهوبة .

مقابل هذا الفكر السياسي العسكري العلمي الاجتماعي ، الذي أوجده محمد علي ، برز فكر آخر جديد ، كان بدوره أيضاً من نتاج الحملة الفرنسية ، و هو

فكر مصري بحث اعتمد العروبة و القومية أساساً له . و قد فعلَ الفعل و الفكر الفرنسي البونابرتي المنبثق من فكر الثورة الفرنسية التي نادى بالعدالة و الحرية و المساواة و حق الشعوب لتقرير مصيرها ، فعل فعله المترافق مع أسلوب الصدمة الذي اتسمت به الحملة الفرنسية ، في إيقاظ الوعي العروبي الدفين تحت رمال التمييع و التعجيم المملوكي و العثماني .

إننا إذا حاولنا تقمص ذهنية محمد علي باشا عند استلامه السلطة في مصر ، و وضعنا أنفسنا مكانه ، ربما تتضح صورة تطور هوية الفكر العربي في مصر بشقيه .. العلمي و القومي ، و إن كان لا دخل لمحمد علي في بعضه أو معظمه .. على فرض أنني ، أنا محمد علي باشا .. جئت إلى مصر من قبل العثمانيين للحلول مكان الفرنسيين الذين بدأوا بالرحيل ، بضغط من الإنكليز ، و المماليك قد كسرت شوكتهم بشكل كبير و تحولوا عصابات للسلب و النهب و قطع الطريق و الاعتداء على الآمنيين ، و يحاولون استعادة موقعهم و العودة مرة أخرى إلى مصر بدعم من الإنكليز ، و لكنهم مرفوضون من قبل العثمانيين الذين صمموا هذه المرة على عدم عودتهم تحت أي ظرف . و أنهم .. المماليك و العثمانيون ، مرفوضون أيضاً من قبل عموم الشعب المصري الذي يفضل الفرنسيين و بقاءهم ، على عودة المماليك و الأتراك .. و لذلك فقد اختارني أنا و فضلني على المماليك و على مندوب العثمانيين و وكيلهم الوالي في مصر ، و بعد عدة ثورات عليهم من قبل الشعب المصري بسبب الضرائب الباهظة ، اجتمعوا علي أنا ، و قرروا تعييني والياً أو بالأحرى حاكماً جديداً على مصر ، و بدعم من كبير الأزهر الشيخ (عمر مكرم) ، و كأنهم ألحوا لي .. أن اقض على المماليك و العثمانيين و أرحنا منهم و نحن معك ، و نحن ندعمك ، فكان لزاماً علي ، أن آخذ ذلك بعين الاعتبار ، و على وجه الخصوص بعد أن برز الخطر الانكليزي الداهم و المعتمد على تواطؤ شذاذ الآفاق المماليك الذين وصل بهم الأمر إلى دعوة الانكليز إلى احتلال مصر ، فقط لأجل موقع سلطة يلقي به

إليهم . و كذا الخطر العثماني المحدق هو الآخر بي ، و لهذا سوف أعتمد على الأوراق الثلاثة الوحيدة التي أمتلك اثنتين منها هما فرقتي الألبانية المخلصة ، و الشعب المصري الذي وثق بي و سلمني أمره ، خلاصاً من المماليك و العثمانيين ، و الورقة الثالثة التي لا أمتلكها لكن يمكنني استخدامها و هي العنصر الفرنسي . و هذه الأوراق و العناصر الثلاث ، ستكون الأثافي التي ستقوم عليها دولتي .. فرقتي الألبانية ستكون عماد دولتي الأمنية و العسكرية و الحكومية ، و الشعب المصري سيكون عمادها الفكري و العلمي و سيرحب هو بذلك و هي حجة لإبعاده عن السياسة و أمور الحكم و مشاغل السلطان ، و العنصر الفرنسي الطامح للعودة من جديد إلى مصر بشكل أو بآخر ، نكاية في الإنكليزي ، هو المتكأ لي في دعم العنصرين السابقين .

من هنا ، و لج الفكر المصري الذي فتح الباب له واسعاً على مصراعيه ، فكان ذلك إيذاناً بخروج المارد المصري الجبار من القمقم الذي ظل حبيس القرون السابقة مقهوراً ضغوطاً مظلوماً ، ليخرج بانفجار مدوٍ أشبه ما يكون بانفجار نجم بالفضاء الكوني تناثرت شظاياه لتشكّل كواكب فكرية منيرة سيارة ، كانت البداية الأساس لمقولة (مصر أم الدنيا) .

أدرك محمد علي و هو الأمي الذي لا يقرأ ، أنه حتى يغير نظام مصر كله نحو عصر فكري جديد حديث متقدم ، لابد له من خلق نظام للتعليم ، غير ذلك الذي كان معهود الذكر في عصر المماليك ، و المتمثل على نظام الكتاتيب البدائي المقتصر على عمليات الحساب البسيطة و قواعد النحو و الإملاء الأولية و مبادئ الدين الأساسية . و إذا ترقّت الحال ببعض طلاب الكتاتيب ، فإن مبلغهم الفكري ، هو الأزهر الشريف ، حيث يتعمقون أكثر بالدين وفقهه ، من دراسة السند و متون الأحاديث ، إلى حفظ الشروح و التفاسير . لذلك ، اتجه محمد علي إلى تغيير المنهاج الفكري و استبداله بمنهاج حديث علمي متطور شمل كل شرائح الشعب و فئاته العمرية و الاجتماعية . و ما لم يستطع تغييره ،

أضاف عليه ، فعمد إلى إنشاء المدارس الابتدائية و ضرب الصبيان و آباءهم عليها ، و أنشأ المدارس التخصصية و أرسل البعوث للخارج ، و كان يهتم بكل شاردة و واردة تتعلق بالعلم و الدرس ، هذا الأمي الذي ننحني إجلالاً و إكراماً لأميته التي صنعت علومنا ، هذا الأمي الذي هو العالم الحقيقي ، كان يحرص على تشجيع العلم و الاختراع و الابتكار ، فقد أنشأ مدرسة الهندسة في مصر و لذلك قصة معبرة ^١ ، حيث قام أحد المواطنين المصريين باختراع آلة لنخل حبوب الأرز ، و صودف أن التقى بمحمد علي ، فعرض عليه مخطط الآلة فأعجب بها و أمر له بمكافأة و عطاء ، و طلب منه أن توضع في كل مدينة واحدة منها . و بناء على هذه الحادثة أمر محمد علي بإنشاء مدرسة للهندسة و الميكانيكا في مصر ، قائلاً في ذلك ، عبارة هامة جداً و ملفتة للنظر .. إن في أولاد مصر نجابة و قابلية للمعارف . و حسب الجبرتي ، أنه أمر ببناء مدرسة بحوش السرايا بالقلعة ، و رتب فيها جملة من أولاد البلد و جعل لهم معلم رومي مختص يقرر لهم قواعد الحساب و الهندسة و علم المقادير و القياسات و الارتفاعات و استخراج المجهولات ، و أحضر لهم آلات هندسية يأخذون بها الأبعاد و الارتفاعات و المساحة ، و رتب لهم شهريات و كساوى ، و سمي هذا المكتب أو المدرسية (مهندسخانة) . و عندما اكتظت المدرسة بمن فيها ، أمر محمد علي ببناء مدرسة أخرى بمنظفة بولاق . و من هاتين المدرستين ، تخرج أعداد من المهندسين الذين شاركوا في بناء القناطر و الجسور و السدود الصغيرة و الترعات .

و كان لجمال الطب ، باع في اهتمامات محمد علي باشا ، حيث أمر بإنشاء مدرسة للطب في أبو زعبل ^٢ و بناء مشفى عسكري ، تخرج الأطباء منها لخدمة الجيش بداية الأمر ، و بعد ذلك لخدمة العامة . و تم اختيار مائة تلميذ للدراسة

^١ الجبرتي ، مصدر سابق - محمد علي و أولاده ، ص ٣٥ .
^٢ المصدر السابق .

و التدريب تحت إشراف أطباء فرنسيين ، في مجال التشريح و الجراحة و الأمراض الباطنية و الصيدلة و الطب الشرعي و الكيمياء و العلوم الطبيعية . و كان الطلبة الخرجين الأوائل يوفدون إلى باريس للتخصص و المثابرة و تحصيل العلوم من مصدرها الأساس . و توالى إنشاء المدارس و التي هي آنذاك ، تعادل الآن ما يعرف بالأكاديمية ، فأنشأت مدرسة للتوليد و أخرى لأمراض النساء ، و مدرسة للألسن و اللغات ، و مدرسة للمعادن و مدرسة للصنائع و الحرف ، و مدرسة للزراعة و أخرى للطب البيطري ^١ .

على إن أهم ما ركز عليه محمد علي باشا في بناء نهضة فكرية علمية عمرانية لمصر ، هو إرسال البعثات العلمية ، فقد أدرك محمد علي أن لا مناص له إذا أراد التقدم و النهوض لمصر ، من إرسال البعث إلى الخارج لتحصيل العلوم و بالذات في أوروبا بمختلف دولها القوية المتحضرة . و قد هداه و عيه السياسي و رؤيته الإستراتيجية على يبدو ، إلى اعتماد فرنسا في هذا المجال ، فلم يطمئن كثيراً للإنكليز و الطليان ، و يبدو أن قراره كان صائباً . و قد اعتمد في ذلك على العلماء الفرنسيين الذين كانوا يرافقون الحملة الفرنسية على مصر ، فبحث عنهم و استدعاهم و قربهم إليه و أجزل لهم البذل و العطاء ، و كان من بينهم العالم الفرنسي المهندس (جومار) و هو من ضمن فريق العلماء الذين ألفوا كتاب (وصف مصر) الشهير ، فعينه محمد علي مسؤولاً عن جميع البعثات المصرية الموفدة إلى الخارج و منها فرنسا .

و في خطاب محمد علي يطلب فيه من العالم (جومار) الإشراف على المجال التعليمي في مصر و البعثات العلمية فيها ، تبرز صورة ما نريد إيضاحه ، جلية تماماً ، فقد جاء فيه ^٢ : شكراً لك يا صديق مصر ، العامل بجد و إخلاص لنفعها ، حتى كأنك نبراس رغباتي في تمدين البلاد التي جعلني الله على رأسها ،

^١ المادة التاريخية لفترة محمد علي من المرجع السابق ، ما لم يُذكر خلاف ذلك .
^٢ المرجع السابق ، ص /٣٩/ .

إذ لم تنقطع عن إظهار ولائك بأدلة قاطعة ، و هي تلك الجهود العظيمة التي تعانيتها في مراقبتك التلاميذ الذين أرسلتهم إلى وطنك منذ سنين ، و قيامك بتهديبهم .. و أرجو رغبة في إظهار ما يمكنه فؤادي من قدر فضائلك العظيمة حق قدرها ، ألا ترفض الهدية الصغيرة التي أقدمها لك ، ألا و هي علبة تبغ قد يكون لها قيمة في نظرك ، عندما تعلم أنني الذي أهديتها إليك . و قد أمرت وزيرى الأمين (بوغوص بك) أن يوصلها إليك . و إنني أؤكد لك أن هذه ليست مكافأة تليق بجهودك التي عادت على مصر بالفوائد الجليلة ، بل هي تذكار صغير من أمير ساعدته على أن يسير بعض خطوات في طريق تمدين الشعب الذي يحكمه ، و هي في الوقت ذاته ، رجاء مني لك بالاستمرار في المستقبل فيما بدأت به ، و إنني لفي انتظار هذا البرهان الجديد على تفانيك في خدمة قطر مدين لك بكثير من الخدمات الصالحة . و من جهة أخرى ، كن متأكداً من العزيمة الصادقة التي اعتمتها ، ألا و هي معاضدة الرغبات التي يبيدها لي أمثالك الملتهبون غيرة على الإنسانية ، تلك الرغبات التي تبدوها في سبيل الإصلاح . و إنني أهدي إليك في الختام ، تحيات تنبئك عن خالص مودتي .. محمد علي .. (انتهى) .

عندما نقرأ هذا الخطاب ، و نتمعن الجانب الفكري فيه ، تتضح لنا بداية هوية الفكر العربي المعاصر ، و لا يسعنا إلا أن ننحني إجلالاً لهذا الرجل الكبير ، و نرى أن أفضل ما فعله من فعالة ، هو مذبحة القلعة التي أوقعها بمجموعة من خلائق الهمج ، و لولا ذلك لما استطاع القيام و النهوض بما أراد له مصر لكي تكون كما يقال (أم الدنيا) .

أول بعثة مصرية ، كانت إلى إيطاليا ، و غرضها دراسة العلوم العسكرية و دراسة علم صناعة السفن و علم الطباعة ، لتتوالى البعث بعدها إلى فرنسا . و قد " بلغ من اهتمام محمد علي بأعضاء البعثات ، أنه كان يتقصى أخبارهم و يتتبع سلوكهم و تصرفاتهم و هم في بلاد الغربية ، و يواليهم بالنصائح و الإرشادات ،

مثلما يفعل الأب الحريص على مستقبل أولاده ، و يكتب إليهم بين الحين و الحين ، رسائل يستحثهم فيها على الاجتهاد و التفرغ و تحصيل العلم " ^١ .
و قد أورد رفاة الطهطاوي في كتابه (تخلص الإبريز في تلخيص باريز) رسالة من محمد علي إلى الطلاب المبتعثين إلى فرنسا للدراسة و العلم ، توضح مفصل آخر من مفاصل تطور النهضة العلية و في مصر و هوية فكرها آنذاك ، و قد جاء فيها ^٢ ..

" قدوة الأماثل الكرام ، الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم و الفنون ، زيد قدرهم .. ننهي إليكم أنه وصلنا أخباركم الشهرية و الجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم . و كانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ، ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة ، و ما فهمنا منها شيئاً . و أنتم في مدينة مثل باريس التي هي منبع العلوم و الفنون . فقياساً على قلة شغلكم في هذه المدة ، عرفنا عدم غيرتكم و تحصيلكم . و هذا الأمر غمنا كثيراً . فيا أفندية ، ما هذا هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغي لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار شغله و آثار مهارته . فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل و الاجتهاد و الغيرة ، و جئتم إلى مصر بعد قراءة الكتب ، فظننتم أنكم تعلمتم العلوم و الفنون ، فإن ظنكم باطل ، فعندنا لله الحمد و المنة ، رفقاً بكم المتعلمون يشتغلون و يحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية و تظهرون عليهم كمال العلوم و الفنون !!؟؟ فينبغي للإنسان أن يتبصر في عاقبة أمره ، و على العاقل ألا يفوت الفرصة و أن يجني ثمرة تعبته . فبناء على ذلك ، إنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة و تركتم أنفسكم للسفاهة و لم تفكروا في المشقة و العذاب الذي يحصل لكم من ذلك ، و لم تجتهدوا في كسب نظرنا و توجهنا إليكم لتمييزوا بين أمثالكم .. فإذا أردتم أن تكتسبوا

^١ المصدر السابق ، ص /٤٢/ .

^٢ تخلص الإبريز في تلخيص باريز ، ج /٣/ ، ص /٢٩٥/ .

رضاءنا ، فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم و
الفنون . و بعد ذلك ، كل واحد منكم يذكر ابتداءه و انتهاءه كل شهر ، و
يبين زيادة على ذلك ، درجته في الهندسة و الحساب و الرسم ، و ما بقي عليه
في خلاص هذه العلوم ، و يكتب في كل شهر ما يتعلمه في هذا الشهر زيادة
على الشهر السابق . و إن قصرتم في الاجتهاد و الغيرة ، فاكتبوا لنا سببه و هو
إما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم ، و أي تشويش لكم ، هل هو طبيعي
أو عارض . و حاصل الكلام ، أنكم تكتبون حالتكم كما هي عليه ، حتى
نفهم ما عندكم ، و هذا مطلوبنا منكم ، فاقرأوا هذا الأمر مجتمعين ، و افهموا
مقصود هذه الإرادة .. (انتهى) .

فهل يُقارن كل ذلك بظلام عهد المماليك و عِرض^١ فغالهم بمصر !!! . و
كتبهم لشعب نير يمتلك مقومات العلم و الحضارة .. لا أدل على ذلك ، من ما
كتبه رئيس الجامعة الفرنسية في باريس عن الطلبة المصريين الوافدين إلى فرنسا
للدراية حين قال : من المدهش الذي لا يكاد يصدق ، أن عرباً أتوا باريس منذ
عشرين شهراً ، تمكنوا من أن يعبروا عن أفكارهم بشعر فرنسي لا عيب فيه ، و
ألفوا مقطوعات منه يشرف الفرنسيين إتيانهم بها ، و في كل ما يخطه قلم هؤلاء
الشبان المصريين باللغة الفرنسية ، يجد القارئ ضرباً غريباً من البساطة و حرية
الفكر يستأهل الذكر ، و يظهر من فحوى كتاباتهم أنهم قبل أن يكتبوا ،
يفكرون بعقل فرنسي لا بعقل عربي ، و من المنتظر أن الخرافات الشرقية
ستتمحي من عقولهم ، و أن الحجب الكثيفة التي تغطي أعين الشرقيين و تقيدهم
بسلاسل الطفولة ، ستسقط تدريجياً على الأقل عن أولئك الذين يدرسون عندنا
(انتهى)^٢ .

^١ العِرض ، ما خبث أصله و أنتن ربحه .

^٢ محمد علي .. مصدر سابق .

و تفيد معلومات القبول في الجامعات الفرنسية و الامتحانات لهؤلاء ، عن المنحى الفكري الذي اتبعه محمد علي للقيام بالنهضة العلمية في مصر ، فعلى سبيل المثال ، كان التلاميذ المؤهلين لدراسة الطب في الخارج ، كانوا عند وصولهم إلى باريس ، يتم اختبارهم من قبل الجمعية العلمية الطبية بحضور كبار العلماء الأوروبيين ، فكانوا ينجحون باختبارات القبول بمستويات عالية و يجيبون على الأسئلة التي توجه إليهم ، باللغة الفرنسية ، فتعترف لهم الجمعية بالدرجة التي عليها التلاميذ الفرنسيين ، وكانت رغبة محمد علي أن يتم اختبار هؤلاء بباريس ، حتى يعلم مدى تفوقهم و ذكائهم .

و في واقعة من وقائع إحدى الفحوص ، في قاعة الجمعية العلمية الملكية ، أن نودي على أحد الطلاب و يدعى (الشيخ منصور) " فسئل عن تركيب العين و على الخصوص ، البلورية و كيفية تكون (الكاتراكتة)¹ و عن العملية اللازمة لإنقاذ المريض منها ، فأجاب و أجاد و صفق له الحاضرون استحساناً و أثنا عليه ثناء مستطاباً ، ثم دعي حسين أفندي فسئل عن تركيب المفاصل العضدية و عن خلع الذراع و كيفية ردها ، فأجاب بما أظهر قوته و أبان للحاضرين ذكائه و فطنته . و لما وجد البارون (ديوبترن) نجابة التلاميذ المصريين نهض فيهم خطيباً فقال : أيها التلاميذ ، من دواعي الغبطة و السعادة أننا دُعينا إلى هذه الحفلة لنشاهد ما اكتسبتموه بمدركم الطبية في مصر ، من العلوم ، و قد أبان لنا تفوقكم ، أن مدرستكم ، أعادت إلى مصر شهرتها القديمة في العلوم الطبية ، بعد ما أصابها الخمول ، و الفضل في ذلك يرجع إلى واليها الأمير الأعظم ، محمد علي باشا الذي قبض على زمامها و سيرها في الطريق الأقوم و نشر ما طوى من مفاخرها الماضية ، و شيد ما قوضته بها أيدي الزمان من معالم الحضارة و العمران ، فلحضرتة الشكر الجزيل ، و لكم أيها الشبان النجباء منا

¹ من أمراض العين المعروفة آنذاك .

أيضاً ، جزيل الشكر و الثناء ، فقد نطقتم بالصواب بلغة غير لغة بلادكم ، مما دل على أنكم تعلمتم على أساس متين ، و قد جعل ذلك في ، أنكم ستحيون مجد أجدادكم العظماء من كبار الأطباء ، كابن سينا و الرازي و الزهراوي ، و أنكم ستسيرون على منوالهم و تحيون آثارهم لتكونوا نعم الخلف لهؤلاء السلف " ^١ .

و قد تتالت البعثات العلمية لنواحٍ أخرى مختلفة من العلوم الفكرية و التطبيقية التي تشكل أساس الصناعات الإنتاجية ، حيث أرسل محمد علي البعثات الحرفية المختصة لدراسة التعدين في انكلترا . و كان أحد أفراد هذه البعثة قد تمنطق بمنطق الإنكليز ، من ملابس و مأكّل و مشرب و عادات ، فأمر محمد علي بإعادته إلى مصر قائلاً إنه ذهب إلى هنالك ليكتسب علم الصناعة و التعدين ، لا ليقلد الإنكليز في شؤونهم الاجتماعية ، و كاد أن يعاجله العقوبة لولا شفاعة الشافعين له .

و بدأت نتائج هذه البعثات العلمية و ثمراتها ، تظهر بعد عودة الطلبة إلى الديار المصرية . فظهرت مؤلفات علمية و فكرية مطبوعة بمصر ، تعطينا عناوينها فكرة رئيسة عن التطور العلمي و الحضاري بمصر و منها على سبيل المثال لا الحصر ^٢ — (الاكتساب في علم الحساب) و (جامع الثمرات في حساب المثلثات) لمصطفى باشا بهجت .

— (القانون الرياضي في فن تخطيط الأراضي) لإبراهيم بك رمضان .
— (الأقوال المرضية في علم بنية الكرة الأرضية) و (تحرك السوائل) و (الدررة السنوية في الحسابات الهندسية) لأحمد باشا فايد .
— (غاية الفلاح في أعمال الجراح) و (نشر الكلام في جراحة الأقسام) للدكتور محمد البقلي .
— (نزهة الإقبال في مداواة الأطفال) للدكتور أحمد حسن الرشيد بك .

^١ المصدر السابق .

^٢ المصدر السابق .

— (رضاب الغانبات في حساب المثلثات) لأحمد بك دقلة .
شذرات الكتب هذه ، كان وجودها قبل فترة حكم محمد علي و الحملة
الفرنسية ، ضرب من ضروب المستحيل .
و قد شملت نواحي التخصصات الفكرية و العلمية ، إلى جانب علوم الهندسة و
الحساب و الفيزياء و ما يتبع فصيلها .. مجالات هامة متعددة منها على سبيل
المثال ..

- علوم الإدارة الحربية .
- علوم الإدارة المدنية .
- العلوم السياسية .
- علوم الإدارة البحرية و المدفعية و الهندسة العسكرية .
- علوم صناعة الأسلحة .
- علوم الطب و الجراحة .
- علوم الزراعة .
- علوم المعادن و صبها و سكبها و سبكها .
- علوم الطرق و المواصلات و السكك الحديدية .
- علوم الهيدروليكا .
- علوم العمارة و البناء و الإنشاءات و الحفر .
- علوم النسيج و الخياطة و الأجواخ .
- علوم النقش و الطلاء و صناعته .
- علوم الدباغة و صناعة الجلود و الأحذية و ما إلى ذلك .
- علوم التاريخ الطبيعي .
- علوم الترجمة و اللغات الإنسانية .
- علوم الطباعة .
- علوم الطبوغرافية .

فانظر يا رعاك الله ، إلى هذه العلوم و الفورة العلمية الفكرية التي هبطت فجأة على مصر ، لتقلبها رأساً على عقب و تضعها في مهبط رياح الدولة العصرية المتطورة ، حيث لا عودة عن ذلك .

و تبرز هنا ، ناحية من النواحي ، هي على غاية من الأهمية ، و تجلت في اهتمام محمد علي بقيمة العلم و العلماء الذين تحصلوه في أوروبا و عادوا إلى مصر ليخدموا البلاد ، فكان يوليهم غاية الاهتمام و التكريم و العناية . فعلى سبيل المثال تم شراء ساعة ذهبية بمبلغ /٣٢٤/ فرنك فرنسي لأحد المبتعثين للدراسة لأنه نجح في امتحان فارق و تميّز فيه . و آخر يدعى محمد يوسف ، أرسل إلى فرنسا لتعلم صناعة الأحذية و الجزم و المراكيب ، فمرض هناك ، و صرف عليه الكثير لعلاجه ، و بعد مدة عاوده المرض و توفي فيه ، فصرف على خرجته مبلغ /٣٨٠/ فرنكاً ، و صرف على قبره /٣٠٨/ فرنكات من ثمن السرير و ثمن حجر الرخام و أجرة نقش اسمه بالعربي و الفرنساوي على الرخام ^١ .

و لم يكتف محمد علي بإرسال البعث إلى الخارج ، بل عمد إلى استقدام الخبراء الأجانب و ذوي الخبرات منهم إلى مصر لتمصيرها و تمدينها . و كان من أشهرهم المفكر الفرنسي الشهير (سان سيمون) الذي جاء إلى مصر حسب قوله برسالة سامية ، و كان أهم مشروع يدور بخلده ، هو شق قناة السويس ، كما كانت له نظرة و آراء و أفكار إنسانية أخلاقية سامية ارتأى أن تكون مصر مهداً لها . و قد تولدت لديه هذه الفكرة على وجه الخصوص ، عندما اختلف فكراً مع نابليون بوناپرت ، و قام الأخير باعتقاله و سجنه ، و قيل أنه كان يصحو من نومه في السجن و يصيح : الشرق .. تلك الكلمة الساحرة المليئة بالضياء و الغموض .. الشرق غامض غموض الصحراء .. الشرق معناه مصر ..

^١ محمد علي و أولاده ، مصدر سابق .

مصر الساحرة .. أرض فرعون و موسى .. أرض النيل .. و ما أدراك ما هي مصر ؟؟ " ١ .

على أن أهم عمل قام به محمد علي باشا خدمة لمصر ، و الذي فقدته منذ قرون طويلة ربما من عهد الفراعنة ، هو إنشاء الجيش المصري و الذي قوامه من المصريين ، فكان ذلك أهم عامل من عوامل تشكل الهوية المصرية لمصر و العربية. فكل الذين حكموا مصر قبل ذلك ، كانوا يحرصون على ما يبدو على ، إبعاد المصريين عن الجيش و مراكز السيطرة و القيادة فيه ، و يكتفون بجعلهم في أحسن الحالات جنوداً نظاميين مشتتين ، أو مجندين مؤقتين .

و نحن نورد عامل الجيش هنا ، لكونه يحمل بليغ الأثر في تكوين هوية الأمة السياسي و هو أمر يؤدي لا محالة إلى تكوين هويتها الفكرية أيضاً ، و هو أمر ينسحب على أية أمة من الأمم . فكل أمة أو قطر ، جيشه النظامي ليس من مواطنيه الحقيقيين و شعبه الأساس ، هو نوع من الاحتلال و لو بشكل غير مباشر .

في بداية أمره ، اتجه محمد علي إلى أتباعه الذين قدموا معه بالإضافة إلى بعض المماليك الموجودين بمصر ، و حاول أن يشكل منهم جيش نظامي يعهد إليه بحماية البلاد ، لكن طمع المماليك و جشعهم و فساد حالهم ، و محاربتهم إياه و تأمرهم عليه لقتله ، حال دون ذلك ، و فشلت كل محاولات محمد علي لترويضهم و تطويعهم و إصلاحهم بما يتناسب و حال الزمن و مقتضيات الحضارة ، فقد كان بينهم و بين ذلك بون شاسع .

و قد حاول محمد علي أن يضطر هؤلاء إلى الجندية النظامية ، عليهم ينتظمون و تصلح أحوالهم و نفوسهم ، لكنهم كانوا قد وصلوا إلى درك من الهمجية و الفساد و الفوضى ، بحيث أبت نفوسهم و سجايهم ، النظام و الطاعة ، و هي

^١ المصدر السابق .

التي اعتادت السلب و النهب و هتك الأعراس ، يضاف إلى ذلك أن قدراتهم العقلية و الذهنية و آفاقهم الفكرية ، كانت من المحدودية بحيث لم يكونوا ليستوعبوا فنون القتال و المبادئ العسكرية الحديثة ، و تضيق نفوسهم بها ذرعاً . فعندما حاول محمد علي للمرة الأخيرة معهم ، جمعهم بمعسكر تدريبي ببولاق ، عليهم يتألفون التنظيم و تعاد نفوسهم التغيير ، و صارحهم بعزمه على إدخال نظام الحربية الجديد إليهم ، و إن ذلك لفائدتهم و مصلحتهم و مصلحة الدولة ككل . لكنه ما أن غادرهم ، حتى انتفضوا متمردين عليه و قرروا تصفيته و قاموا بهجوم مفاجئ على القلعة التي هو فيها . لكن الرجل كان أذكى مما تتصور عقولهم الساذجة البسيطة ، فكان لهم بالمرصاد . و ما أن اقتربوا من القلعة التي يتحصن فيها ، حتى عوجلوا بوابل من نيران البنادق و المدفعية ، فأبيدوا ، و انكفأت المؤخرة فيهم إلى الأسواق يعيشون سلباً و نهباً ، فترلت إليهم قوات محمد علي الخاصة و استأصلتهم .

هنا .. أدرك محمد علي خطأه الذي كان عليه تعلمه منذ البداية ، و هو أن هؤلاء همج رعاع لا ينفع معهم وعظ و لا إرشاد ، فاتجه تفكيره نحو العناصر المصرية ، و كانت هذه هي البداية لإنشاء الجيش المصري ، و قد فعل ذلك بسرية تامة بعيداً عن أعين العثمانيين الذين كانوا يناوئون تشكيل جيش مصري وطني ، فأنشأ بداية الأمر ، معسكرات شبه سرية بعيدة عن المدن ، جند فيها المصريين و استعان بخبرة الضباط الأجانب لتدريب هذه العناصر الذين سيكونون النواة الأولى للجيش المصري الحديث . و نظراً لأن الشعب المصري قد أبعد عن الجيش منذ قرون طويلة ، فقد استهجن بداية الأمر هذه الفكرة التي ستعطيه أبعاد هويته الوطنية . فقد كان المجندين من الفلاحين يساقون بالقوة إلى التجنيد و بأساليب قاسية في بعض الأحيان ، و لكن ما لبث الشعب أن تألف الجندية و عرف ما حرّمه منه المحتلون طيلة هذه القرون ، و ما أفقده هويته الوطنية المصرية ، و جعله يستكين للظلام و المستبدين .

قراءة فكرية لعصر محمد علي :

لقد فتح محمد علي باب القمقم الظالم الذي كبس فوق المصريين قرون مديدة طويلة ذاقوا خلالها من الهوان و كسر الخاطر ربما ما لم يذقه غيرهم ، و كانت أهم أعمال محمد علي الجليلة التي قدمها لمصر و المصريين ، أمور ثلاث ، كان انعدامها ، مسخ هوية المصريين و فقدانهم لهوية وطنهم ، و هي ..

— فتح باب العلم و التعلم أمام المصريين بعد أن كان ممنوعاً عليهم .

— فتح باب الانخراط بالجيش أمام المصريين بعد أن كان ممنوعاً عليهم طوال العهود السالفة ، حتى على مستوى الجنود في بعض الأحيان .

— فتح باب الملكية الزراعية و تملك الأراضي للمصريين ، بعد أن كان ممنوعاً عليهم طوال العهود السالفة .

و بنظرنا فإن الرمز المصري الكبير الذي يجب أن تنحني له الجباه ، و تُقدم لمقامه أسمى آيات الاحترام و التبجيل ، هو الفلاح المصري الذي هو هوية مصر الحقيقية ، هذا المسماك الذي ظل شامخاً عبر التاريخ ، هو الذي بنى الأهرامات و شيد قنوات الري قديماً و قامت على كواهله المعالم العمرانية التي أعطت مصر القديمة نجمها الساطع و فكرها الوقاد المستنير . و هو الذي بعد ذلك ، خضع لظلم الظالمين و أُلْهِبَ ظهره بسياطهم ، و كُسِرَ خاطره لأجل ملذاتهم و نزواتهم و هو الذي قامت على أكتافه و بسواعده قناة السويس ، و هو الذي بعزيمته و طول أناته بُني الجيش المصري الحديث ، و هو الذي عندما فُتِحَ له القمقم ، ضرب مثال العالم المفكر الملم بمختلف المعارف و العلوم و أكثرها صعوبة و تعقيداً ، و الذي بز أقرانه الأوروبيين فيها و تفوق على بعضهم في بعضها . فكما قامت حضارة مصر القديمة على أكتافه ، قامت هنا أيضاً على أكتافه . و

ما هؤلاء العلماء و المفكرون و المصلحون الذين ظهوروا في فترة محمد علي و ما بعدها ، إلا من أصول فلاحية مصرية .

و ما قصة إبراهيم باشا النبراوي الذي عاصر محمد علي باشا¹ ، إلا أحد الأمثلة الكثيرة التي لا تحصى ، على ذلك ، فقد كان هذا الرجل الذي سمي فيما بعد ، بنابعة الطب المصري ، كان فلاحاً فقيراً معدماً ولد لأبوين فلاحين أكلهما الفقر أكلاً ، و لما ضاقت به الحال ، اتجه لبيع البطيخ على عربة يقودها بعير مستأجر ، فلما ضاقت به الحال و وجد أن تجارته مشرفة على البوار ، اتجه نحو القاهرة شريداً يرجو رحمة ربه ، و في أحد أزقتها ، شاهد شيخاً كبيراً طالت لحيته ، و خلفه كوكبة من الأولاد يتبعونه ، فدرس نفسه بين هؤلاء الصبية و مشى معهم خلف الشيخ الوقور و هو لا يعرف المصير الذي تقوده إليه قدماءه ، ليفاجئ بعد ذلك أن الموكب دخل إلى الأزهر ، و كانت تلك حلقة للدراسة فيه ، فبقي فيها و كشف فيما بعد عن نبوغ و ذكاء قل نظيرهما ، نالا استحسان و إعجاب أساتذته من المشايخ ، إلى أن جاء اليوم الذي نودي فيه عليه ، و أُبلغ أنه تم اختياره ليكون طالباً في مدرسة الطب الحديث التي قرر محمد علي باشا تأسيسها و يتولاها أساتذة من الفرنسيين ، و ليكون فيما بعد من ضمن أفراد البعثة التي بممت شطر باريس للتخصص في الطب و الجراحة . و عندما عاد ، كانت شهرته و نبوغه في الطب و الجراحة قد سبقته إلى مصر ، فعين مدرساً بمدرسة الطب المصرية و أظهر مهارة و خبرة بالغتين جعلت شهرته تصل إلى محمد علي باشا ، فقربه إليه و جعله طبيبه الخاص .

إن آثار محمد علي باشا ، لم تقتصر فقط على مصر ، و إنما تعدتها إلى بلاد الشام ، حيث كان له الفضل و اليد الطولى ، في كسر شوكة العثمانيين و كسر طوق الجهل الذي فرضوه على تلك البلاد ، و نقل عدوى الوطنية و التمرد على

¹ محمد علي وأولاده ، مصدر سابق .

العثمانيين و اعتبارهم من قبل شعوب هذه المنطقة ، غزاة محتلين ، فحاول أن يفعل هنالك شيء ما شبيه بما فعله بمصر . و قد دحر الجيوش العثمانية في كل المعارك التي خاضها ضدهم ، حتى وصل إلى مسافة قريبة من الأستانة ، عاصمتهم و مركز حكمهم ، فكاد أن يطيح بهم نهائياً و يزيل تسلطهم على البلاد العربية كما فعل بمصر ، لولا أن اجتمعت ضده الدول الأوروبية و على رأسها انكلترا ، فحطمت أسطوله البحري و أثارت الثورات ضده ، فانكفأ بجيشه إلى مصر و بقي فيها ، بعد أن ضمن لأولاده الحكم من بعده .

نهايةً .. التاريخ تصنعه الأحداث ، و الأحداث تصنعها الرجال ، و على قدر الرجال ، يكون مقدار الحدث ، و على مقدار الحدث ، يسطر التاريخ أو لا يسطر .. يذكر أو يضع طي النسيان .. يضع الأحداث و صانعيها في الواجهة ، أو يلقي بهم إلى المزابل و لا يبالي .

و تبرز عظمة الرجال ، بما يصنعونه من أحداث و يسوقونه من وقائع تغير مجرى تاريخ الشعوب و المجتمعات التي يحكمونها أو يتواجدون فيها . و كلما تعددت الأحداث و الأسباب التي يصنعونها ، كلما ازدادت عظمتهم و ارتفعت أسهمهم في مدونة التاريخ ، فهنالك من يبرز بانتصاراته العسكرية ، و آخر باختراعاته العلمية ، و الثالث بما يقدمه من نهضة فكرية تقود إلى إحداث تغييرات اجتماعية أو اقتصادية و ما إلى ذلك ، و هو ما يقود إلى تمايز العظمة و الموقع لدى صانعي الأحداث ، و تفاضل درجاتها . فمنهم من يمتاز بحدث معين .. انتصارات عسكرية .. مقاومة لغاز أو محتل .. فلسفة إيدولوجية جديدة تقود إلى إحداث تغييرات جوهرية في المجتمع و الدولة .. فكر مميز .. اختراع علمي هام غير مسار البشرية و الإنسانية . و منهم من يتميز بجمعه لأكثر من حدث ، فيسجل له التاريخ أنه قام بكذا و كذا ، فيرتقي درجة أو أكثر عن غيره ، و منهم من يشتمل على الحوادث جميعها ، فيزداد علواً و سمواً ، فيجمع

ما بين الانتصارات العسكرية ، و بناء الدولة العصرية ، و النهضة الفكرية ، و هو ما حصل مع محمد علي باشا الذي حاز الميزات جميعها .

على أن عظمة الرجل في التاريخ (أياً كان هذا الرجل) لا تبرز فقط بالمقدار الذي أثرت فيه الأحداث التي صنعها ، في حياته ، بل في مدى استدامتها و طول بقاؤها بعد وفاته ، ومدى صمودها في وجه أعاصير الرياح المضادة التي تحاول قلعها من الجذور .

لقد كان محمد علي ، قارئاً ممتازاً للأحداث و المتغيرات العالمية ، و هو أمر عجز عنه العثمانيين و مماليكهم و لم يفلحوا فيه ، فكان يقرأ الأحداث و يستطلعها حتى قبل ذهابه إلى مصر أول مرة ، و من المؤكد أنه كان يتابع أخبار الحملة الفرنسية منذ أن وطأت أقدام جنودها الأرض المصرية ، و كيف انهزم المماليك و العثمانيين أمامهم شر هزيمة . و من المؤكد أنه كان لديه اطلاع على تاريخ مصر قبل هذه الحملة ، وبالأخص ، فترة العثمانيين و مماليكهم ، و رأى كيف كانوا ينقلون بعضهم على بعض ، و رأى أيضاً كيف أن الفرنسيين قد أثروا بالشعب المصري و بثوا فيه روح الهوية المصرية بعد أن كسروا شوكة العثمانيين و المماليك ، فسببوا بذلك ، يقظةً مصرية قوية مع نهضة علمية ثقافية فكرية مع نوع من العولمة الجزئية ، أصبح من الصعب جداً الارتداد عنها من قبل المصريين أو قمعها من قبل غيرهم .

أدرك محمد علي ، ذلك كله من خلال رؤية إستراتيجية واسعة ، و هو ما كان من المفترض أن يقع على العثمانيين ذوي الدولة المترامية الأطراف و الممتدة الأصقاع ، و كان خليقاً بهم ، إدراك تلك القضية ، هم و مماليكهم أصحاب الدولة ، لا أن يقع على قائد فرقة عسكرية ، جيء به على عجل ، ليكون ثقلاً مضاداً للمماليك بع رحيل الفرنسيين .

إن امتلاك محمد علي لهذه الرؤية الإستراتيجية ، مكنه من أن يؤسس لمملكته و نظام دولته القائم على اشتراك المصريين بإدارة دفة شؤون مصرهم ، و هو ما

حصل بعد وفاته و استلام عباس باشا ، مقاليد الحكم ، حيث أراد العودة قارحاً ، بازلاً جذعة المماليك الأولى بدعم من الإنكليز من خلف الكواليس و دعم المماليك أنفسهم . و قد عمد إلى كل أثر من آثار جده محمد علي في بناء الدولة القوية العصرية المتحضرة ، ذات الهوية الوطنية ، فحاول إزالته و محوه من الوجود . و قد كان من أهم آثاره و سمعته سيئة الصيت ، أن بدأ أولاً بالجيش الذي رفع مصر إلى مصاف الدول القوية ذات السيادة ، فشتته و أرجع إليه المماليك الذين عادوا سيرتهم الأولى في السلب و النهب و الفساد في الأرض ، في الوقت الذي منع فيه المصريين من حمل السلاح ، ثم اتبع سياسة اللهو و البذخ و الفساد ، فانصرف جل اهتمامه إلى القصور و الجوارى و الغلمان المرذ، مبدداً أموال الخزينة المصرية . لكن أسوأ ما قام به ، أن حارب الفكر و المفكرين و العلم و العلماء ، فقد عمد إلى نفي أهم المفكرين و العلماء المصريين و تشريدهم و تشتيتهم في البقاع و الأمصار ، و منهم رفاة الطهطاوي .. كيف لا ، و هو إنسان جاهل لم يتحصل على أدنى قسط من التعليم و لم يطلع على حضارة أوروبة ، و كانت أهم مشاريعه و أعماله ، عبارة عن توطئة للإنكليز كي يحتلوا مصر فيما بعد . و لم تدم سني حكمه ، سوى الخمس من السنوات ، حيث لقي حتفه . و قد اختلفت في موته روايتان .. الأولى زعمت أنه مات خنقاً من قبل بعض غلمانه المرذ الملاح ، والأخرى عزت سبب موته إلى نوبات الصرع التي كانت تنتابه .

طبقاً لذلك ، فإن هذه الأفعال كلها ، هي التي أسهمت بدورها فيما بعد ، بالتمرد المصري على الأجانب ، حتى على الولاة منهم ، فكانت ثورة أحمد عرابي الذي تمرد على الخديوي توفيق ، في ثورة لإعادة التمصير الذي أقامه محمد علي باشا ، و التصدي للتدخل الأجنبي في شؤون مصر الداخلية ، حيث كان الاحتلال الإنكليزي على الأبواب . فبعد أن أحس المصريون بوطنهم و اكتشفوا آثار حضارتهم القديمة منذ آلاف السنين بعد حل طلاسهم الهيروغليفية المصرية ،

لم يعد بالإمكان إعادتهم إلى حظيرة الاستكانة و الذل و الخضوع للأجنبي ، بهذه السهولة .

فترة ما بعد محمد علي :

قلنا أن محمد علي قد أسس بحبرته و رؤيته الإستراتيجية لما بعده . و ما يدعم هذا ، هو طلبه بعد خسارته الأخيرة أمام الأوروبيين ، أن يبقى ملك مصر من بعده في عقبه و ذريته ، و كان ذلك ، شرطاً أساساً . و من غير الممكن بتصورنا ، أن يفعل محمد علي ذلك ، دون أن يهيئ لأولاده و ذريته من بعده ، شروط حكم آمنة مستقرة ، و يوطد لهم أركانها .

كان تطور الأحداث فيما بعد ، سواء بشكل مقصود أم غير مقصود ، يتجه مباشرة نحو دعم العنصر الوطني المصري ، و بالأخص السياسية منها ، و أخص الخصوص ، العامل السياسي الإقليمي و الدولي ، و ذلك فيما اختص بالدولة العثمانية . و على ما يبدو فقد تبلور في هذه الفترة قرار تقسيم الدولة العثمانية و إنهاء وجودها ، بالتزامن مع ظهور مصطلح (الرجل المريض) الذي أُطلق عليها، و هو أمر لم يكن ليتحقق إلا بعوامل عدة ، أهمها تأليب شعوب البلدان الأصلية الواقعة تحت نير الاحتلال العثماني في أوروبا و آسيا و العالم العربي ، ضد العثمانيين ، و تصويرهم على أنهم غزاة غرباء محتلين . و لم يكن ذلك ليتحقق إلا بإثارة شيء من النعرات الوطنية و القومية و دعمها ، و هو ما يذكرنا بأسلوب نابليون بونابرت و منشوره للمصريين أبان الحملة الفرنسية الأولى على مصر . و إننا هنا ننصطدم بحقيقة على غاية من الأهمية ، و هي أن الفكر العربي المعاصر بفتريته .. الأولى التأسيسية ، و الثانية الحالية ، قد نتج عن الأمر السياسي بشقيه الإقليمي و الدولي .

لقد كان أهم حدث داعم لبلورة الهوية الفكرية المصرية بعد فترة محمد علي باشا، هو ولادة الحياة الدستورية التي آذنت باكتمال ظهور الفكر الوطني المصري و بلورته ، و الأهم من ذلك ، حمايته و شرعنته ، ما أدى إلى توسع دائرة انتشاره في المجتمع المصري ككل ، انتشار النار في الهشيم . ليس هذا فقط، بل أدى ذلك أيضاً إلى أن تكون مصر ، المنارة التي تضيء لما حولها من البلدان المجاورة ، و بالأخص ، بلاد الشام ، يليها الجزائر و ليبيا .

لقد تمثل الحدث الدستوري في مصر ، بإنشاء البرلمان المصري أو مجلس النواب . فقد بدأت الحياة النيابية لأول مرة في مصر ، عام /١٨٦٦م ، و كان ذلك في عهد الخديوي إسماعيل^١ . و الفارق الأهم في تشكيل هذا المجلس ، أن بعض أركان القصر ، قد طلب من أعضائه أن يكون بعضهم موالاته ، و البعض الآخر معارضة ، أسوة بالبرلمانات الأوروبية ، و قيل لهم أن المواليين للحكومة يجلسون على اليمين ، و المعارضين لها يجلسون على اليسار ، و هو ما فاجئ أعضاء المجلس الذين لم يسمعوا من قبل بمكذا نوع من الحكم ، فأصر جميعهم على الموالاته ، و هو ما نعتبره تحولاً هاماً في هوية الفكر السياسي و الاجتماعي المصريين .

و بالرغم من أن هذا المجلس كان في بداياته شبه صوري و لا يقارن بما هو عليه الحال من مثيلاته في أوروبا ، ربما بسبب كونها تجربة تحصل أول مرة في مصر ، إلا أنه لم تمضِ سنين قلائل ، حتى برهن عن استقلالية الهوية المصرية ، و وقف في وجه الخديوي إسماعيل ، حينما حاول فضه بالقوة لأن أعضائه المصريين أرادوا معرفة وجهة الميزانية المالية و كيفية صرفها ، بعدما كثر البذخ و الإسراف الغير مبرر و الغير منطقي و مقبول من قبل الخديوي ، و كثرت الديون المصرية للخارج و آذنت بالتدخل الأجنبي المقدمة للاحتلال الإنكليزي و بخاصة بعد

^١ محمد علي و أولاده ، ص /١٤٧/ .

وجود وزيرين مفوضين .. إنكليزي و فرنسي لمراقبة المالية المصرية ، و كان ذلك من المحرمات عليهم . و عندما أرسل الخديوي إسماعيل وزير داخلته لفض المجلس ، انتفض أعضاؤه و صاحوا بوجهه ¹ "إننا هنا سلطة الأمة و لن نخرج إلا بقوة الحراب " .

و يبدو أن الأحداث تهيئ بعضها لبعض بتواتر متواصل ، فعندما قام السلطان العثماني بخلع الخديوي إسماعيل بتواطؤ مع الإنكليز و دعم منهم و تعيين ابنه الخديوي توفيق مكانه .. ربما بسبب عجز إسماعيل عن ضبط الحركة الوطنية المعارضة للتدخل الأجنبي في مصر عن طريق الوزيرين المفوضين المذكورين آنفاً ، و تحوله إلى ورقة محروقة عديمة القيمة ، أصبحت تشكل عبئاً أكثر منه فائدة . و أضحى توفيق هذا ، أداة مطواعة في يد الإنكليز ، يمهدهم السبيل لاحتلال مصر ، نشبت ثورة أحمد عرابي (ناظر الحربية) التي كانت ثورة مصرية وطنية بامتياز ، و كان من أبرز أهدافها إدخال العناصر المصرية في قيادة الجيش و الحكم ، و إعطاء مجلس النواب سلطته الحقيقية و صلاحياته الواسعة ، لا بل بلغ الأمر بعرابي ، أنه اقترح طرد الخديوي و عائلته ، من مصر و إقامة نظام جمهوري تكون مقدمته ، جمعية عمومية مؤلفة من طوائف و فئات الشعب كافة ، لتضع دستوراً جديداً للبلاد . لكن القوات الإنكليزية ، دخلت مصر و هاجمت قوات عرابي و انتصرت عليها في معركة التل الكبير ، بعد بروز الخيانة من الداخل و الخديعة من الخارج و ليبدأ بذلك عهد الاحتلال الإنكليزي لمصر . و تبقى هنالك مفارقة غريبة ، و هي أن بعض رجال الدين و فئات الشعب انقلبوا على عرابي الذي يحارب الإنكليز و يدافع عن بلاده ، و ثاروا عليه ، بموجب توصية من السلطان العثماني ؟؟؟!! .

¹ المصدر السابق .

عصر النهضة :

إن عصر النهضة العربية ، هو العصر الذي كان بمثابة الفترة التأسيسية للفكر العربي المعاصر الحالي ، و هو فترة امتدت من منتصف القرن التاسع عشر ، إلى حوالي منتصف القرن العشرين أو أقل بعقد . و عصر النهضة ، هو العصر التي شهد التحولات الفكرية العربية بأنواعها كافة ، السياسية منها و الاجتماعية و العلمية ، و حتى الدينية منها ، وكان أيضاً بمثابة نقلة نوعية للواقع العربي . و ما ميز هوية الفكر العربي آنذاك ، أنه كان فكراً نهضوياً يأخذ منحى تصاعدياً .. فكراً خلاقاً إبداعياً ، يحرق المراحل حرقاً ، و ينتشر انتشار النار في الهشيم في الآفاق و الأمصار ، و يضاف إلى ذلك كله ، أنه كان في بعض جنباته ، فكراً إصلاحياً تنويرياً ، صادقاً و مخلصاً في إصلاح الناس و الدولة و الدين و المجتمع . و فكر النهضة هذا ، كان في أساسه ، ذا مسار و خط سير عمودي يترقى بشكل تصاعدي ، من الأسفل إلى الأعلى ، و لكن في كل خطوة من خطواته العمودية ، كان يستتبع ذلك انتشاراً أفقياً ، سواء على المستوى الجغرافي ، أم الاجتماعي .

و قد واجه الفكر النهضوي العربي آنذاك ، شأنه شأن ما سبقه من محاولات تنويرية إصلاحية ، الفكر الرجعي المتخلف المتحجر ذي الصبغة العثمانية المملوكية و الدينية المتحجرة ، و الذي كانت دعائمه الأساس السلطة العثمانية و تيار السلطة الدينية المرتبط بها ، و هو ما يمكن دمجهم بمصطلح (دين السلطان) المناوئ لأي فكر تقدمي ، و هو ما كان نابليون بونابرت قد حذر المصريين منه و أيقظهم عليه ، و أيضاً خطب ودهم فيه ، لكنه و في الوقت نفسه ، كان السبب أيضاً بخروجهم في بعض ثوراتهم عليه ، فأحد أسباب ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين ، هو أنهم أصدروا فرماناً حرموا بموجبه الأهالي من دفن موتاهم

في باحة الدور التي يقطنوها و أوجبوهم أن يدفنونهم خارج خطط المدينة ، ما اعتبره المصريين يمس بدينهم و عقائدهم ، بوجه من الوجوه ، و تم تحريضهم من قبل المماليك و العثمانيين و بعض رجال الدين ، من هذا الباب ، علماً أن القضية لا علاقة لها بالدين بتاتا ، و أساسها هو أن أحد العلماء الفرنسيين اكتشف أن أحد أسباب تفشي الطاعون بمصر ، هو بسبب تلك العادة الرديئة و التي منبعها خرافات لا علاقة لها بالدين بحال من الأحوال .

حتى محمد علي باشا عندما أراد القيام بنهضة فكرية علمية ، فإنه واجه نفورا غير مباشر من الأزهر ، فاضطر لإنشاء مدارس خارج نطاق الأزهر .

و أخيراً ثورة أحمد عرابي الوطنية و التي انفجرت أساساً بوجه الخديوي توفيق لوطنته للإنكليز احتلال مصر و هضمه حقوق المصريين ، و للدفاع عن الهوية الوطنية المصرية . تعرض لثورة مضادة و ينقلب عنها بعض الشعب و رجال الدين ، فقط لأن السلطان العثماني أصدر بياناً بعصيان أحمد عرابي خريج الأزهر الشريف و طالب الدين و الشريعة السابق ، و اعتباره مارقاً على الدين ، فقط لأجل عيون الإنكليز ، يجاربه في ذلك بعض الشعب و بعض الجيش و المشايخ . إذن .. هو فكر السلطان الرجعي نفسه ، الذي حارب العلم و العلماء و الفكر و الأفكار ، و ليتذكر القارئ ، فكر السلطة و السلطان الذي ذكرناه في بداية الكتاب و اعتبرناه أنه هو الفكر الطاعني الأساس المسيطر ، و ليقارن . هو الفكر نفسه الذي يظهر كل زمان و مكان ، و يكرر نفسه على مدى الدهور ، و تختلف أسماؤه و صفاته باختلاف العصور . و لسوف يظهر فيما بعد ، يشكّل بنظرنا المعادلة ذات (الكعب الأخیل) في التاريخ و المنطقة العربية .

لقد قامت النهضة العربية الأولى و فكرها في هذه الفترة ، على أنافٍ ثلاث .. المفكرين الدعاة و الاختراعات العلمية التي تجلت بالصحف و المطابع و كل أداة صناعية تعلقت بالفكر ، بشكل أو بآخر ، و الألفية الثالثة ، الحوادث السياسية

. و هي أثنافٍ قُدر لها ، كل على حدة حسب حيثياتها ، أن تترك أثرها الخاص في تكوين سمات النهضة الفكرية العربية و تساهم في قيامها و تثبيتها على أرض الواقع و تحديد هويتها و شكلها و مسارها في آن معاً . و إن كان الأمر السياسي واضحاً بيناً فيما ذكرناه مما سبق من أحداث و وقائع ابتدأت مع الحملة الفرنسية ، فإننا سنتطرق للأثنتين المتبقيتين .. المفكرون الدعاة ، و الاختراعات العلمية (الصحف و الطباعة) .

دعاة الفكر التأسيسي المعاصر :

برز في منتصف القرن التاسع عشر ، دعاة مفكرون أثروا بأفكارهم النيرة ، و تحصيلهم العلمي و الثقافي ، بمعترك الحياة اليومية و شؤونها العامة ، في مجتمعاتهم و بلادهم ، السياسية منها و الاجتماعية و الدينية و الاقتصادية و حتى العلمية ، فكان أن تناولوا معظم القضايا الشائكة المعقدة و التي تعيق نمو المجتمع و نظام الدولة ، و ترتبط بأفكار رجعية متخلفة لا دعم منطقي لها و لا عقلي أو شرعي. و طرحوا بالمقابل الأفكار العلمية النيرة البناءة و الإصلاحية ، و نفذوا غبار العفن الدبق سني الظلام المتراكمة على المنطقة ككل .

و قد برز في هذا المجال ، المفكر الشامل الذي يتناول نواحي الحياة الفكرية العامة بمختلف مجالاتها ، و هو ما أضحي يشكل السمة الأساس لفترة التأسيس للفكر المعاصر و التي كانت بداياتها الفعلية الحقيقية ، في منتصف القرن التاسع عشر ، بالإضافة إلى كونها قد انتشرت من مصر إلى البلدان المجاورة .

و قد أثر هؤلاء المفكرون الدعاة ، بالمجتمع و الناس ، إما من خلال مواقعهم الدينية أو السياسية أو الاجتماعية ، أو من خلال الوسائل التقنية التي تحصلوا عليها ، أو الاثنين معاً ، يضاف إلى ذلك كله ، الحصيلة الفكرية و المعرفية التي اكتسبوها ، و كانت هي الأداة الرئيسة التي استخدموها في التأثير المباشر بالناس

، و إجراء الإصلاحات و التغييرات الفكرية اللازمة و المستوجبة لقانون تطور البشرية الطبيعي .

و بما أن سيرورة التاريخ البشري قد اقتضت منذ قدم الإنسان العاقل على وجه البسيطة ، صراع القديم الآصل مع الجديد الوافد ، و اختلاف الثابت مع المتحول ، و الرجعي مع المتقدم . فقد عانى أصحاب الفكر هؤلاء ، من أصحاب الفكر الجامد المغلق المتخلف ، من مثلهم من قوة السلطان و السلطة المتحجرة الرجعية الاستغلالية ، و بعض قواعد المجتمع الجاهلة الأمية ، من سفهاء العوام و سوقتهم و المتعصبون منهم و أراذلهم ، أصحاب الوقود للفتن و الفوضى ، و لمن يتحكم بهم و يستغلهم . فتعرض هؤلاء المفكرون للرفض و الصد و التنكيل أو النفي ، و أحياناً القتل و التصفية الجسدية ، في حال يشابه في تفاصيله و مضامينه الأحوال التي كانت عليها القرون الوسطى و ما عانى منه رجال الفكر العقلاني النير المتحرر ، و ما كابده من عذاب و مشقة و حرب . و لكنهم و بالرغم من كل ذلك ، تركوا بصمتهم الفكرية ، و أبانوا عن فعل آثارهم الإصلاحية التقدمية ، و مهدوا الطريق للوعر لمن بعدهم . و قد بزغ نجم أعلامهم و اشتهروا ، و كان من أشهرهم :

رفاعة الطهطاوي¹ : ولد رفاعة الطهطاوي في العام /١٨٠١/ م ، و هو العام الذي رحلت فيه القوات الفرنسية عن مصر ، و في السابعة عشر من عمره التحق بالأزهر ، و هناك بدت عليه إمارات الذكاء و النبوغ ، و بعد تخرجه ، بقي في الأزهر ، معلماً و مدرساً ، و كان ينصرف معظم وقته إلى قراءة الكتب الفكرية الغربية و العلمية . في هذه الأثناء ، كان قد لفت انتباه الشيخ حسن العطار ، شيخ الأزهر الذي كان يشاركه قراءة الكتب الفكرية العلمية خلافاً

¹ أعلام النهضة العربية ، ص /٢٣/ .

لبعض مشايخ الأزهر ، و الذي أقنع محمد علي باشا ، بتعيين الطهطاوي إماماً في الجيش ، و لما قرر محمد علي إيفاد البعثات العلمية إلى باريس ، عاد شيخ الأزهر و زين له أن يكون لهؤلاء عريفاً دينياً و مشرفاً لأمر دينهم ، و نجح في إقناعه أن يكون رفاعة ، ذلك الشخص . فوافق محمد علي باشا مُرحباً بهذا الاقتراح ، و قبض للطهطاوي أن يغادر مع أول بعثة مصرية إلى فرنسا للدراسة . و بالرغم من أن دوره كان مقتصرًا على الإشراف الإداري و الديني ، إلا أنه انصرف إلى الدراسة و القراءة من تلقاء نفسه ، و كان أول ما ابتدأ به ، هو محاولة دراسة اللغة الفرنسية و تعلمها ، فلم تطل به المدة حتى أتقنها تمام الإتقان و أجادها من نواصيها كافة ، ثم ما لبث أن انبرى لقراءة الكتب الفرنسية ، و بالذات الأدبية و الفكرية و التاريخية ، ذلك كله من منطلق التحصيل الذاتي و الاجتهاد الداخلي ، ما لفت انتباهه و ملاحظة رئيس البعثة الفرنسي ، فكان أن كسب وده و احترامه ، فشجعه هذا الأخير على متابعة التحصيل و المثابرة ، فأخذ يقرأ كل تقع عيناه عليه من كتب ، فقرأ الفلسفة و علوم الاجتماع و العلوم السياسية و غيرها . كما قرأ لمشاهير الفكر و أساطين السياسة و فطاحل الأدب الأوروبيين . ثم ترقى به الأحوال و السبل ، فدخل عالم الترجمة ، و ترجم أثناء وجوده بفرنسا ، أكثر من اثني عشر مخطوطاً و مؤلفاً . و قبل عودته إلى مصر ، قام بوضع مخطوطه الشهير (تخلص الإبريز في تلخيص باريز) الذي طبقت شهرته الآفاق ، و كان بمثابة الشمعة الأولى التي أنارت ظلام العالم العربي . و قد علق أحد أساتذته الفرنسيين على الكتاب قائلاً : إن الطهطاوي حاول في هذا الكتاب أن يوقظ أهل الإسلام و يدخل عندهم الرغبة في المعارف المفيدة و يولد عندهم محبة التعلم و التمدن الإفرنجي و الترقى في صنائع المعاش " . و قد أعرب الطهطاوي نفسه في مقدمة كتابه هذا ، أنه يريد " أن يوقظ به من نوم الغفلة ، سائر أمم الإسلام من عرب و عجم " .

و عند عودة الطهطاوي إلى مصر ، أعطى نسخة من كتابه إلى أستاذه السابق و شيخ الأزهر ، الشيخ حسن العطار ، فقرأه الأخير و أعجب به غاية من الإعجاب ، بلغت أن عرضه على محمد علي باشا نفسه و الذي أعجب به هو الآخر و لاقى استحسانه ، فأمر بقراءته في قصوره و سراياه ، و أمر أن يتم طبعه و ترجمته و نشره على الدواوين و الوجوه و الأعيان ، و أن يُدرس في المدارس ، فكان لهذا الكتاب دوره و أثره الكبيرين في نشر الفكر و المعرفة بمصر، و إيقاظ العقول المغيب عنها العلم و المعرفة .

و لم يكتب الطهطاوي بذلك ، بل إنه عمد بدعم من السلطة الحاكمة (محمد علي باشا) إلى إنشاء مدرسة للترجمة في مصر ، سميت (مدرسة الألسن) التي قامت بتخريج عشرات المترجمين الأكفاء الذين راحوا يترجمون كل كتب الفكر و العلم و ينشرونها في الأمصار . و لم يقف عند هذا الحد ، بل يمم شطر الصحافة ، فقام باستلام جريدة (الوقائع المصرية) و كان أوج عملها آنذاك ، لا يبرح ترجمة بعض الأخبار التركية إلى العربية ، فحولها إلى صحيفة فكرية قوية بلغت شهرتها أن أصبحت تترجم من العربية إلى التركية ، أي بالعكس . و ألف كتاب آخر لا يقل أهمية عن كتابة الأول (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) أسماه (مناهج الأبواب) ، و قام بالإشراف على مجلة (روض المدارس) فجعلها ترتقي إلى مرتبة المجمع العلمي ، و جمع فيها العلماء و المفكرين من مختلف الاختصاصات ، فكانت تلك المجلة بالفعل مجلة فكرية رائدة أنارت الطرق و فتحت العقول و صاغت هوية الفكر آنذاك .

ثم عمد إلى ظاهرة كانت هي الأولى من نوعها في مصر و العالم العربي ، و هي إنشاء مجلة عسكرية تختص بالشؤون العسكرية و قد صدرت بطبعتين ، فرنسية و عربية . فكان الطهطاوي بذلك ، منارة علمية شامخة تنير للعقول سبل العلم و الحضارة و الترقى ، و طود فكري شامخ ينهل منه كل جاهل محروم ، و كل طالب علم ظمآن لطلب المعرفة و الفكر .

على أنه و كما كانت السلطة ، هي التي ترفع العلم و العلماء و الفكر و المفكرين ، فأثما هي أيضاً التي تضع الجهل و تسك علمته للتداول ، و تنزل بالعلماء و المفكرين إلى الحضيض و أسفل سافلين . كان هذا هو الحال مع الخديوي عباس الأول خليفة محمد علي باشا و حفيده ، فأغلق المدارس و الصحف التي قامت في عهد سلفه ، و كانت من ضمنها (مدرسة الألسن) للطهطاوي و الصحف و المجلات التي أنشأها ، و لم يكتف بذلك ، بل قام بنفي الطهطاوي نفسه إلى السودان ليتجرع المرارة و الأسى و القهر هنالك .. و في أثناء نفيه في السودان ، حاول الطهطاوي القيام بأعمال فكرية نهضوية و نجح بذلك إلى حد ما ، و بقي هنالك حتى هلك الخديوي عباس الأول صريع جهله و مجونه .

لقد كان رفاة الطهطاوي بما ألفه من كتب و مخطوطات فكرية ، و ما ترجمه و ما بناه ، من مدارس و أنشأه من صحف و مجلات ، كان من أوائل رواد النهضة الفكرية في مصر و العالم العربي الذين نشروا العلم و المعرفة و بنوا أواصر الحضارة و الفكر الحديث ، و مهدوا السبيل لمن بعدهم سالكاً معبداً ، بعد أن كان عَقِراً و عَرّاً .

جمال الدين الأفغاني : هو المفكر و المصلح و رجل الدين الثائر على الظلم و الجهل و الاحتلال الأجنبي الذي لا هدف له سوى نهب خيرات الأمة و مقدراتها و حرمانها من الارتقاء و التحضر و اكتساب أسباب العلم و القوة ، و الثائر على السلطة الحاكمة المستبدة الفاسدة المفسدة و الحريصة على جهل محكوميتها و تخلفهم كي يصيروا إلى غفلتهم عن استغلالها و ظلمها لهم و فسادها فيهم ، و السائرة بركاب المحتل الأجنبي و متماهية معه في سياسته حق البلاد و العباد . و في هذه النقطة يختلف الأفغاني عن الطهطاوي و أضرابه ، من حيث أن هؤلاء كانوا بالدرجة الأولى ناقلين للعلم و المعرفة لمجتمعات جاهلة متخلفة لم

تتحصل على أدنى مقومات العلوم و الحضارة ، فانحصرت آلة عملهم بإيقاظ العقول على العلم و المعرفة ، و نقل أسباب الحضارة من أوروبا المتقدمة إلى العالم العربي المتأخر عن ركبها . فكان اختصاصهم أساساً بثنائية الجهل و العلم ، ولم يكن همهم و جل انكبابهم ، على حل المشاكل ، و السبب في ذلك ربما ، هو أن حالة الجهل و التخلف الطاغية و المستفحلة في المجتمعات العربية ، كانت من السواد بحيث لم يكن هنالك مبرر لمناقشة غيرها من مشاكل ، فإذا ما وجد الجهل و التخلف ، طغيا على غيرهما من مشاكل و إشكاليات ، حتى و لو كانت تتعلق بالعامل الوطني ، فهما أساس المشاكل جميعها و السبب فيها .

ولد الأفغاني عام /١٨٣٨/ م^١ في إحدى قرى كابل من أعمال أفغانستان ، لأسرة غنية ميسورة الحال ، و هذا ما ساعد على تحضنه على أسباب الدراسة و اكتساب العلم ، فتلقى علوم الدين ، و التاريخ ، و المنطق ، و الفلسفة ، و الرياضيات ، فأستوفى حظه من هذه العلوم ، على أيدي أساتذة من أهل تلك البلاد ، على الطريقة المألوفة في الكتب الإسلامية المشهورة ، وأستكمل الغاية من دروسه وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره ، ثم سافر إلى الهند ، وأقام بها سنة وبضعة أشهر يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوروبية ، فنضج فكره ، و اتسعت مداركه . وكان بطبعه ميالاً إلى الرحلات ، و استطلاع أحوال الأمم و الجماعات ، يضاف إلى ذلك أن روح التمرد على الظلم و الفساد و الجهل كانت مزروعة فيه منذ نشأته ، و كان ذلك فيما بعد ، سبباً في إبعاده عن موطنه من قبل السلطات الحاكمة ، فرحل إلى الهند أولاً ، و لكن لم يطب له المقام هناك ، حيث توجس الإنكليز منه شراً ، أن يعمل على تهيج الناس ضدهم بخاصة و أن فكره السياسي كان ، بشكل من الأشكال لا يسير في ركاب الإنكليز ، والأكثر من ذلك أن شهرته قد سبقته إلى هنالك ، فرحب الإنكليز به

^١ المواد التاريخية لهذا المبحث .. موسوعة ويكيبيديا - جمال الدين الأفغاني - جمال الدين الأفغاني بين دارسيه .

ظاهراً ، و أكرموه غاية الإكرام و حسن الوفادة ، لكنهم ضيقوا عليه بشكل غير مباشر ، المجال الجغرافي و الاجتماعي و حدوا من لقاءاته مع الناس . و مع ذلك فقد وفد عليه رجال العلم و الدين و الفكر و غشوا مجلسه ، لما سمعوه عنه من معرفة و علم و حب للعدل و الإصلاح ، فكان أن ضيقت الحكومة الإنكليزية عليه الخناق و العيون الذين كانوا يحصون عليه خطواته و كلماته ، حتى اضطره نهاية الأمر إلى المغادرة ، فغادر الهند متجهاً إلى مصر و قصده الحجاز ليؤدي فريضة الحج ، لكن شهرته على ما يبدو ، كانت قد سبقته أيضاً إلى هنالك ، فاستقبل بحفاوة و تكريم و بقي فيها شهر و نيف ، ثم توجه إلى الأستانة حيث لقي فيها من الترحاب و الحفاوة ما لا يقل عن مصر ، حيث طلب منه كل من السلطان عبد العزيز و الصدر الأعظم علي باشا ، البقاء للاستفادة من خبراته و علومه ، فلبى الطلب و بقي هناك ، يلقي الدروس و المحاضرات و يكتب المقالات ، ثم عُرض عليه أن يكون عضواً في مجلس المعارف و يقوم بالإشراف مع أعضائه على مجال التعليم ، فوافق و باشر عمله الإصلاحية في مجال التعليم و الفكر ، لكن بعض رجال الدين الذين لم يعجبهم هذا التحول و اجتماع الناس حوله ، العامة منهم و الخاصة ، أوغروا الصدور ضده و هيجوا بعض العوام و الجمهور عليه ، و أثاروا ضده المشاكل ، فطلبت منه حكومة الباب العالي الجلاء عن الأستانة لفترة من الوقت ، فعاد مرة أخرى إلى مصر ، بعد أن راسله بعض تلامذته هناك و رغبوا به الرجوع إليهم ، فعاد إلى مصر و رحبت به حكومة الخديوي و أنزلته منزلاً لائقاً و أجرت عليه مرتباً وافراً .

في مصر ، بدأ جمال الدين الأفغاني بنشر آراءه الإصلاحية و نقده لكل مظاهر الفساد و الجهل و مواطن الخلل ، و قام بإنشاء حلقات علمية ، بذل فيها العلم و المعرفة و الأفكار الخلاقة لمريديه و طلابه و حتى زواره العابرين ، و كان يؤوم حلقاته التعليمية تلك بالإضافة إلى هؤلاء ، كبار الموظفين و العيان و حتى رجال الدين الذين كان منهم الشيخ محمد عبده . و كان فكر الأفغاني أساساً ،

يرتكز على عوامل و مصطلحات فكرية قد تبدو حاملة في المجتمع و ليس لها بالغ الأثر من حيث الظاهر ، و لا يلتفت إلى تفاصيلها الأساس عموم الشعب . أما بعض نُخبه الفكرية ، فرمما لم تكن لتعطيها حقها الوافي من الدراسة و التمحيص ، و تكنفي بتناول قشورها الظاهرية و آثارها العامة السطحية ، لكن هذه المفاهيم ، هي في أساسها ، عناصر فكرية هامة جداً لا يُكتفى فقط بملامسة آثارها و مفاعيلها من الخارج فقط ، بل لا بد من الغوص فيها و تفكيكها إلى مركباتها و عناصرها الأولية ، فهي و إن بدت في ظاهرها كمّ واحد متجانس ، فإنها تحتوي على مفاعيل مركباتها التي أنشأها و هيأت لها تربتها في المجتمع .

و من مثال ما تناوله الأفغاني في ذلك ، الظلم و الاستبداد و الاستغلال و الفساد و الوطنية و الاستعمار و الأخلاق الإنسانية و الاجتماعية و التعاون و التكافل الاجتماعي ، هذا بالإضافة إلى الإصلاح الديني الذي تجلّى بإعادة النظر ببعض المفاهيم الدينية الخاطئة و بعضها الآخر ممن أسيء استخدامه و وضع في غير موضعه .

و قد كان مبلغ تأثير الأفغاني ، يعود إلى اتساع انتشار أفكاره بين الجمهور ، و حرصه هو على ذلك ، فكان لا يعدم الوسيلة في ذلك ، فاستعان بكل ما منه شأنه أن يخدمه في نشر أفكاره ، و من ذلك ، المحافل الماسونية التي كانت شائعة الانتشار في تلك الفترة . يضاف إلى ذلك ، اعتماده على الصحافة ، فعندما تبرم الخديوي توفيق من أفكاره الإصلاحية التقدمية و وجدها قد بلغت المبلغ الذي يتهدده و سياسته في الحكم ، بالذات بعد دعمه لثورة أحمد عرابي ، عمد إلى نفيه إلى الهند بطريقة مهينة غير لائقة بحق الأفغاني ، لكنها لائقة بحاكم فاسد مستبد مثل الخديوي . و من هناك ، انتقل الأفغاني إلى بريطانيا ثم إلى باريس حيث قام بإنشاء جريدة (العروة الوثقى) و ضمّنها كل أفكاره الإصلاحية التقدمية .

لقد كان فكر الأفغاني الإصلاحى العام ، يتمحور حول الإصلاح الدينى الإسلامى و التجديد فيه ، و إصلاح الفكر السياسى و بالأخص الحاكمى منه ، و رفع الظلم أياً كان نوعه و منع الاستغلال مهما كان و من أى كان . و ما يذكر لهذا الرجل الكبير من مآثر ، أنه عندما كان فى إيران ، أجبر الشاه على إلغاء امتياز الشركة الإنكليزية للتبغ و التبناك بأن جعل الشعب يقاطع تدخين سجائرها ، و هو ما جعل الشاه فى نهاية الأمر يرسل إليه خمسمائة من الخيالة يقتادوه مكبلاً و هو فى مرضه و يلقوا به خارج الحدود . و قد انتهت حياة هذا الرجل الكبير فى الأستانة ، مريضاً منقياً ، مضيقاً عليه من رجال السلطان عبد الحميد الثانى .

إن رجل أمضى حياته كلها بتجديد و تحديث و تنوير و إصلاح ، قوبل أينما حل، من السلطة الحاكمة ، بالاضطهاد و النفي و التنكيل ، و كان من تلاميذه و مريديه .. محمد عبده و عبد الله النديم و قاسم أمين و أديب إسحاق و سليم النقاش و سامى البارودى و سعد زغلول ، لجدير أن يوقف له بالاحترام و التحية .

الشيخ محمد عبده : هو شيخ الأزهر و تلميذ الأفغانى و يعد بمثابة نائى دينى على التقاليد و الموروثات الدينية الفاسدة التى لا تمت إلى الإسلام بصلة ، و فكره بمثابة ثورة فكرية دينية على منظومة القيم و الأفكار المتخلفة البالية و التى كانت عبارة عن تراكم قرون من الجهل و الظلام و اختلاط السياسة بالدين و دخول عناصر و أفكار غريبة عن الإسلام الصافى النقى ، كالتعصب و المذهبية و الطائفية و الخرافات التى التصقت بالدين و اكتسبت من صفاته و سماته ما جعلها تبدو و كأنها من صلبه . و المظالم الاجتماعية التى لبست لبوس الدين و اتشحت بوشاحه فأصبح الإنسان الفقير الجاهل يعتبرها نوع من القضاء و القدر و يخر لها راعياً مطوعاً .. كذلك الاستغلال السياسى للدين و ضرب مفهوم

الوطنية و العروبة باسم الدين . فبدلاً من أن يكون الدين عامل تقدم و استقرار و ازدهار للمجتمع ، يصبح وبالاً و نقمة و عامل تخلف و انحطاط و منبر لكل فاسد مستغل .

ولد محمد عبدو في بلدة (محلة نصر) بمنطقة البحيرة ، و في صغره أرسله والده إلى الكتاب لتعلم القرآن و القراءة و الكتابة . و بالرغم من كونه أبدي نبوغاً و ذكاءً فطرياً ، إلا أنه أيضاً أبدي في الوقت نفسه ، نفوراً فطرياً من كل ما هو جامد تقليدي و منافع للعقل الفطري . ففكر بترك الدراسة في الكتاب ، لكن والده أصر عليه البقاء و طلب العلم ، و عندما شب على الطوق ، التحق بالأزهر ، و هنالك انفتح عقله على أمور فكرية لم يجدها في بلدته . لكن الإنسان المنفتح الثائر بالفطرة و صاحب الكوامن المعتملة في الصدور ، بحاجة دائماً إلى الصاعق و الفتيل الذي يفجر له الحاجز الفكري لديه ، فوجد محمد عبده هذا الأمر في اثنين من الرجال .. أولهما أستاذه في الأزهر ، الشيخ (حسن الطويل) الذي علمه الشجاعة و الجرأة في قول الحق ، فلا يخشى في ذلك لومة لائم . أما الثاني فهو جمال الدين الأفغاني الذي التقاه و ألقى إليه بأفكاره الإصلاحية و كيفية استعمال العقل و المنطق الصحيح .

لكن هذه الجرأة و الشجاعة في قول الحق في مجتمع لم يتسن له الخروج تماماً من ربقة الجهل و الأفكار العقيمة و المعتقدات البالية ، جرّت عليه بداية الأمر ، المشاكل و الصدام مع بعض الوسط المحيط به . فعندما ندب إلى كلية العلوم بعد تخرجه من الأزهر ، أثر أن يلحق تلاميذه المفاهيم الثورية التغييرية البناءة ، فكان يلقي إليهم بمناهج بعض الكتب التي تدرس في أوروبا لكبار المفكرين في السياسة و علم الاجتماع ، كما كان يدرّسهم شيء من مفاهيم المفكر العربي (ابن خلدون) ، و هو ما لم يكن متوافقاً مع عقلية الإدارة المتحجرة ، فتم طرده من التدريس في الكلية و لم يلبث أن ألقى نفسه على قارعة الطريق دون دخل مالي أو مورد مادي .

و قد بدأ طريق التمرد و الثورة الإصلاحية لدى محمد عبده ، في الفترة التي عينت فيها كل من بريطانية و فرنسا مندوباً لهل في مصر ، كان بمثابة الوزير المفوض ، و ذلك بعد استفحال الديون الخارجية على مصر نتيجة لفساد و بذخ الأسرة الحاكمة ، حيث انتقل عمل الوزيرين من المراقبة المالية ، إلى التدخل السافر بشؤون مصر .. الداخلية منها و الخارجية ، و ما لزم ذلك من تواطؤ الخديوي إسماعيل معهما ، فقط لمجرد حفاظه على كرسي السلطة و الحكم . فانخرط في العمل السياسي السري ضد السلطة الحاكمة و التدخل الأجنبي ، فكان أول من رفع شعار " مصر للمصريين " ، و أخذ يجرس الناس على التمرد و الانضمام لحركة أحمد عرابي ، فأسهم بذلك في تفجير ثورة عرابي ، لكن الإنكليز بعد أن احتلوا مصر و قضوا على حركة عرابي و أوعزوا إلى الخديوي توفيق بنفي جمال الدين الأفغاني منها ، فعلوا الشيء نفسه مع الشيخ محمد عبده ، فقد تمت إقالته من الوظائف الرسمية التي كان يقوم بها و ضربت عليه إقامة جبرية في بلده مسقط رأسه ، و بقي حوالي السنة معزولاً ، حتى صدر عفو عنه من الخديوي ، فتم تعيينه محرراً في مجلة (الوقائع المصرية) .

لكنه و مع ذلك لم يستكن و عاود منهجه التغييرية متبعاً أسلوباً جديداً هذه المرة ، فاتسم منهجه بالنبرة الإصلاحية أكثر منها الثورية المنفجرة ، و حاول التركيز على العقول النيرة و أصحاب الذهنية الوقادة . و لكنه على ما يبدو ، كان خاضعاً لرقابة صارمة من السلطة و الإنكليز ، فتم نفيه هذه المرة خارج مصر لفترة امتدت إلى سنوات ست . و خلال منفاه الذي كان بين بيروت و باريس و لندن ، التقى أستاذه القديم الأفغاني ، في باريس و أنشأ و إياه جريدة (العروة الوثقى) . و في بيروت ركز جل فكره حول الدعوة للتجديد الديني و أسس هناك جمعية سرية للتقريب بين الأديان السماوية و كتب المقالات الفكرية الإصلاحية في الصحف و المجلات . و عندما استلم المدرسة السلطانية و كانت مجرد مدرسة شبه ابتدائية بسيطة ، قام بتحويلها إلى مؤسسة فكرية متقدمة

اجتذبت إليها أكابر الناس و أعيانهم .. مسلميهم و مسيحيهم المستنيرين . و قد ارتكز فكره الإصلاحى التجديدي الدينى حول قضيتين

الأولى : نقد التفسيرات الخاطئة لتفسير القرآن الكريم ، و الجهل السائد حولها و المؤدى إلى فهم القرآن و الدين عموماً ، بطريقة خاطئة تخرجهما عن المسلك الأساس . و نقض أي تفسير للقرآن الكريم يخالف مضمونه الأساس و يخالف العقل و المنطق اللذين جبلت عليهما الفطرة الإنسانية .

الثانية : تفسير القرآن الكريم ، بما يتلاءم و ارتقاء المجتمع و التطور البشرى و أحوال العصر السائدة و التي قد تختلف عن سابقاتها من العصور و العهود السابقة بكل مظهر و مورد .

و فى إطار هاتين القاعدتين الفقهيتين اللتين وضعهما ، يقول محمد عبده ^١ " لا يمكن للمسلم أن ينهض النهوض اللائق بدينه إلا بدءاً من استعداده للدخول فى الآفاق اللامحدودة من العلم و العمل التى شرعها الإسلام ، و لا يقدر على الشروع فى هذا الاستعداد ، إلا بدءاً من العودة إلى أصول دينه ، و أعني بذلك نبذ التقليد و النظر العقلي و الاجتهاد و التجديد " . و يقول أيضاً فى هذا الخصوص " إن العمل للتقدم ، يستلزم نواة تبنى على الأولويات .. ففي الأفراد ، تغير ما نفوسهم ، بالفضائل الإنسانية و الشرعية .. و فى الاجتماع و التشريع ، إنشاء المؤسسات الدولية الملائمة ، إذاً كيف يكون للشعب مجلس نيابي و هو لا يعرف أن يدير مجلس بلدية أو ليس له هذا المجلس !!؟؟ و ما يكون معنى الدستور و قيمته فى بلاد لا يعرف أهلها كيف يمارسون أبسط القوانين !!؟؟ فالحق أن القانون المتقدم ، لا يثمر فى بلاد متخلفة " .

^١ أعلام النهضة ، ص /٦٨/ .

و فيما يلي ، نورد مختارات من مجلة العروة الوثقى كقاسم فكري مشترك للأفغاني و محمد عبده :

— " {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف : ٣] . إن استقراء خال الأفراد من كل أمة ، و استطلاع أهوائها ، يثبت لجلي النظر و دقيقه ، وجوب تعصب للجنس ، و نكرة عليه عند الأغلب منهم . و إن المتعصب لجنسه منهم ، ليتيه بمفاخر بنيه ، و يغضب لما ينسهم ، حتى يقتل دون دفعه بدون تنبيه منه لطلب السبب ، و لا بحث في علة هذا الوجدان ، حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة ، أن التعصب للجنس ، من الوجدانيات الطبيعية ، إلا أنه يبعد ظنهم ، ما نراه في حال طفل ولد في أمة من الأمم ، ثم نقل قبل التمييز ، إلى أرض أمة أخرى و ربي فيها إلى أن عقل و لم يذكر له مولده . فإننا لا نرى في طبعه ميلاً إليه ، بل يكون خالي الذهن من قبله و يكون مع سائر الأقطار سواء ، بل ربما كان ألف لمرباه و أميل إليه ، و الطبيعي لا يتغير .. لهذا ، صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر ، فاضطروا بعد مناوبة الشرور أحقاباً طوالاً ، إلى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا إلى الجناس ، فتوزعوا أمماً ، كالإنكليزي و الهندي و الروسي و التركماني و نحو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة ، قادراً صيانة منافعه و حفظ حقوقه ، من تعدي القبيل الآخر .. ثم يجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الإنسان في أطواره ، فذهبوا إلى حد أن يأنف كل قبيل ، من سلطة الآخر عليه ، علماً بأنه لا بد بان يكون جائراً إذا حكم ، و لئن عدل ، فإن قبول حكمه ، ذل تحس به النفس و ينفعل له القلب " ^١ .

^١ العروة الوثقى ، مقالة الجنسية و الديانة الإسلامية . و الآيات القرآنية هي من متن المقال .

— " نعم .. رأينا كثيراً من الأمم لم تكن ، ثم كانت و ارتفعت ، ثم انحطت و قويت ، ثم ضعفت و ذلت و مرضت . و لكن ، أليس لكل علة ، دواء ؟؟ و أسفا ما أصعب الداء و ما أعز الدواء ، و ما أقل العارفين بطرق العلاج . كيف يمكن جمع الكلمة بعدد افتراقها و هي لم تفترق إلا لأن كل عكف على شأنه . أستغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه ، لما انفصل عن أخيه و هو أشد أعضائه اتصالاً به ، لكنه صرف لشؤون غيره و هو يظنها من شؤون نفسه . كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، المبتهج في أحلامه ، و في أذنه ، و في ملامسه خدر . هل من صيحة تفرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاءها و تتناهى أطرافها و تتباين عاداتها و طبائعها ؟؟ هل من نبأ تجمع أهواءها المتفرقة و توحد آراءها المتخالفة ، بعدما تراكم جهل و ران غين ، و خيل للعقول أن كل قريب بعيد ، و كل سهل وعر ، و أمم الله إنه لشيء عسير يعي في علاجه النطاسي ، و يجار فيه الحكيم البصير " ¹ .

— " ماذا يصنع المشفقون على الأمة و الزمن قصير ؟؟ ماذا يحاولون و الأخطار محدقة بهم ؟؟ بأي سبب يتمكنون و رسل المنايا على أبوابهم ؟؟ أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي حملت بعد النباهة ، و ضعفت بعد القوة و استرقت بعد السيادة و ضيمت بعد المنعة ، و تبين أسباب هوضها الأول ، حتى تتبين مضارب الخلل و جراثيم العلل ، فقد يكون ما جمع كلمتها و أنهض همم آحادها و لحم ما بين أفرادها و صعد بها إلى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم ، إنما هو دين قويم الأصول ، محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ، داع إلى المحبة ، مزكٍ للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران الخسائس ، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه " .

¹ المصدر السابق ، باب ماضي الأمة و حاضرها .

— " هذه دول أوروبية جميعاً ، شاخصة الأبصار إلى ما أصاب مصالحها و أضع حقوقها في القطر المصري ، و أضر بتحارتها فيه ، و لا تبدي حركة و لا يسمع لها صوت ، إلا همس خفي في الجرائد . و الدولة العثمانية ، و هي شديدة الأزر قوية العضد ، في نظرها أن سلطتها أشرفت على الزوال في الأقطار المصرية ، وسيادتها عليها كادت تكون اسماً ، و مع ذلك لا تأتي عملاً و لا تخطو خطوة ، سوى أنما اكتفت بإقامة الحجج و رفع الصوت بالاستغاثة لدى الدول ، حتى أبجها الصياح و ليس من يسمع و لا من يجيب . و ذوو الحقوق في الولاية على مصر و الأخذ بزمام الحكم فيها ، على اختلاف مشاربهم ، قد شدت أيادهم بجبال من الآمال و سلاسل من المخاوف ، لا يجدون لهم قراراً على فكر و لا ثباتاً على رأي ، و إنما هم بين إعصار من الأوهام ، و تيارات من هواجس الخيال ، يحمقون إلى مواقع الحوادث ، حائرون لا يطرف لهم طرف و لا يغمض لهم جفن . و عامة الأهالي في الديار المصرية ، بين فقر كاد يفضي إلى قحط ، و اختلاف في النظام و ضعف في السلطة و خبط في الأحكام و يأس من الإصلاح ، و ما وعدتهم به الحكومة الإنجليزية من الجلاء عن أوطانهم و تركهم و ما يدبرون لأنفسهم ، و القرعة تضرب عند الأمة البريطانية على ديارهم ، بدون أن يجعل لهم فيها سهم ، كأنما هم عنها أغراب لا يؤبه بهم و لا يبالي بشأنهم " .

— " إن التعصب ، وصف كسائر الأوصاف ، له حد اعتدال و طرفاً إفراط و تفريط . و اعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه . و التفريط فيه هو النقص الذي اشترنا لرزاياه ، و الإفراط فيه ، مذمة تبعث على الجور و الاعتداء . فالمنفرط في تعصبه ، يدافع عن الملتحم به ، بحق و بغير حق ، و يرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، و ينظر إلى الأجنبي عنه كما ينظر إلى الهمل ، لا يعترف له بحق و لا يرعى له ذمة . فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتقلب منفعة التعصب إلى مضرة ، و يهب بهاء الأمة ، بل يتقوض مجدها . فإن العدل قوام

الاجتماع الإنساني ، و به حياة الأمم ، و كل قوة لا تخضع للعدل ، فمصيرها إلى الزوال . و هذا الحد من الإفراط في التعصب ، هو المقوت على لسان الشارع صلى الله عليه و سلم و قوله (ليس منا من دعا إلى عصبية و ليس منا من قاتل على عصبية و ليس منا من مات على عصبية) . التعصب كما يطلق و يراد منه ، النعرة على الجنس ، و مرجعها رابطة النسب و الاجتماع في منبت واحد . كذلك توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوا على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً . و المنتفعون من مقلدة الإفرنج ، يخصون هذا النوع منه بالمقت ، و يرمونه بالتعس ، و لا نخال مذهبهم هذا ، مذهب العقل .. فتعصب المشتركين في الدين ، المتوافقين في أصول العقائد ، بعضهم لبعض ، إذا وقف عند الاعتدال و لم يدفع إلى جور في المعاملة و لا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته ، فهو فضيلة من أجل الفضائل الإنسانية و أوفرها نفعاً و أجزها فائدة ، بل هو أقدس رابطة و أعلاها " ١ .

— " تلك آيات الكتاب الحكيم ، تنبئ عن سر عظيم اختص الله به الإنسان و رفعه به على سائر الأكوان ، ليبلغ به المقام المحمود ، و يجوز ما أعدته له العناية الإلهية من الكمال اللائق به . راجع نفسك و اصغ لمناجاة شرك ، تجد في وجدانك ، ميلاً قوياً و حرصاً شديداً يدفعك إلى طلب المجد و علو المترلة في قلوب أبناء جنسك ، ثم ارفع بصرك إلى سواد أمة بتمامها ، تجد مثل ذلك في كليتها ، كما هو في آحادها ، تبتغي رفعة المكانة في نفوس الأمم سواها . ذلك أمر فطري ، جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً و مجتمعاً . ليس من السهل على طالب المجد و علو المكانة أن يصل إلى ما يطلب ، و لكنه يلاقي في الوصول إليه ، وعراً في السبل و عقبات تصد عن المسير . و مع هذا ، فلا يضعف حرصه و لا ينقص ميله . و لو سير الحكيم الخبير ، أعمال البشر ، و

١ المصدر السابق ، باب التعصب .

نسب كل عمل إلى غاية العامل منه ، رأى أن معظمها في طلب الكرامة و علو المقام ، كل على حسبه ، و ما يتعلق منها بتقوم المعيشة ، ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشئون الشرف . هذه حلة ثابتة في الكافة من كل شعب ، على اختلاف الطبقات ، من أرباب المهن إلى أصحاب الأمر و النهي . كل ينافس أهل طبقتة في أسباب الكرامة بينهم و يأنف من وضعته فيهم ، و يحرص على ما يحله من قلوبهم محل الاعتبار ، حتى إذا بلغ الغاية مما به ، الرفعة عندهم ، تخطى حدود تلك الطبقة و دخل في طبقة أخرى و نافس أهلها في الجاه . و لا يزال يتبع سيره ما دام حياً يخطر في بسيط الأرض ، ذلك لأن الكمال الإنساني ليس له حد و لا تحده نهاية ، و ليس في استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه و يعتقد أنه بلغ من الكمال حداً ليست بعده غاية .. سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الإنسان و ماذا ملكت من أهوائه ؟ بعده ثمة حياته و غاية وجوده ، حتى إنه يحتقر الحياة عند فقده ، و العجز عن دركه أو عند مسه ، و الخوف من سلبه . أرأيت أن فقيراً ذا أسمال ، لا يؤبه له ، إذا اعتدي عليه من تطول يده إليه بفعلة تهينه أو قذفة تشينه ، يغلبه الغضب للدفاع عن المترلة التي هو فيها ، فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به إلى الموت ، و إن القذف أو الإهانة ما نقصت شيئاً من طعامه و لا شرابه و لا خشنت مضجعه في مبيته .. آلاف مؤلفة من الناس في الأجيال المختلفة و الأجناس المتنوعة ، ألقوا بأنفسهم إلى المهالك و ماتوا دفاعاً عن الشرف أو طلباً للكرامة و الحمد .. جل شأن الله ، لا يهنأ للإنسان طعام و لا شراب ، و لا يلين له مضجع ، إلا أن يلحظ فيه أن ما نال منه ، أعلى مما نال سواه ، مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالأعلوية فيه ، كأن لذة التغذية و التوليد ، إنما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة و المفاخرة ، فما ظنك بسائر اللذائد ؟؟ .. كم يخاطر يعاني الإنسان من التعب البدني و كم يقاسي من مشاق الأسفار ؟؟ كم يخاطر بروحه في اقتحام الحروب و المكافحات ، و كم يتحمل في الانقطاع عن اللذات ، مع التمكن

منها ؟ كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخاراً أو ليحفظ ما تاه الله منه . ما أجلّ عناية الله بالإنسان ، لا يعيش إلا ليشرف ، فيشرف به العالم ^١ .

— { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } [آل عمران : ١١٨] . قالوا تصان البلاد و يحرس الملك ، بالبروج المشيدة و القلاع المنيعة و الجيوش العاملة و الأهب الوافرة و الأسلحة الجيدة . قلنا نعم ، هي أحرار و آلات لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد ، و لكنها لا تعمل بنفسها ، و لا تحرس بذاتها ، فلا صيانة بها و لا حراسة إلا أن يتناول أعمالها ، رجال ذوو خيرة و أولو رأي و حكمة ، يتعهدونها بالإصلاح زمن السلم ، و يستعملونها فيما قصدت له ، زمن الحرب . و ليس بكافٍ ، حتى يكون رجال من ذوي التدبير و الحزم و أصحاب الحذق و الدراية ، يقومون على سائر شؤون المملكة ، يوظفون طريق الأمن و يبسطون بساط الراحة و يرفعون بناء الملك على قواعد العدل ، و يوقفون الرعية عند حدود الشريعة ، ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ، ليحفظوا لها المتزلة التي تليق بها بينها ، بل يحملونها على أجنحة السياسة القويمة ، إلى أسمى مكانة تمكن له . و لن يكونوا أهلاً للقيام على هذه الشؤون الرفيعة ، حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد ، طافحة بالمرحمة و الشفقة على سكانها ، و حتى تكون الحمية ضاربة في نفوسهم ، آخذة بطباعهم . يجدون في أنفسهم منبهاً على ما يجب عليهم ، و زاجراً عما لا يليق بهم ، و غضاضة و ألماً موجعاً عندما يمس مصلحة الدولة ، ضرر ، و يوجس علليها من خطر ، ليتيسر لهم بهذا الإحساس و تلك الصفات ، أن يؤديوا أعمال و وظائفهم كما ينبغي ، و يصونها من الخلل الذي ربما يفضي قليله إلى فساد كبير في الملك ، فهؤلاء الرجال بهذه

^١ المصدر السابق ، باب الأمل .

الخلال ، هم المنعة الواقية و القوة الغالبة .. يسهل على حاكم في أي قبيل ، أن يكتب الكتاب و يجمع الجنود و يوفر العدد من كل نوع ، بنقد النقود و بذل النفقات . و لكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا إليهم .. عقلاء رحماء ، و أباة أصفياء ، تمهم حاجات الملك كما تمهم ضرورات حياتهم . و من تتبع التواريخ التي تمثل أحوال الأمم الماضية و تحكي لنا عن سنة الله في خلقته و تصريفه بشئون عباده ، رأى أن الدول في نموها و بسطتها ، ما كانت إلا برجال منها ، يعرفون لها حقها ، كما تعرف لهم حقهم . و ما كان شيء من أعمالها ، بيد أجنبي عنها . و إن تلك الدول ، ما انخفض مكانها و لا سقطت في هوة الانحطاط ، إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها و ارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها . فإن ذلك كان في كل دولة ، آية الخراب و الدمار ، خصوصاً إذا كان بين الغرباء و بين الدولة التي يتناولون أعمالها ، منافسات و أحقاد مزجت بها دماؤهم و عُجنت بها طينتهم من أزمان طويلة " ١ .

— { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ } [آل عمران : ١١٧] . إن الأمة التي ليس في شئونها حل و لا عقد ، و لا تستشار في مصالحها و لا أثر لإرادتها في منافعها العمومية ، و إنما هي خاضعة لحاكم واحد ، إرادته قانون ، و مشيئته نظام ، يحكم ما يشاء و يفعل ما يريد ، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ، و لا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة و الشقاء ، و يتداولها العلم و الجهل ، و يتبادل عليها الغني و الفقير ، و يتناوبها العز و الذل ، و كل ما يعرض عليها من هذه الأحوال ، خيرها و شرها ، فهو تابع لحال الحاكم . فإن كان حاكمها عالماً حازماً أصيل الرأي ، عالي الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ، و رفع فيها منار العلم و مهد لها طرق اليسار و الثروة ، و فتح لها أبواباً للتفنن في الصنائع و الحذق في جميع لوازم الحياة ، و بعث في أفراد

١ المصدر السابق ، رجال الدولة و بطانة الملك .

المحكومين ، روح الشرف و النخوة ، و حملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشجاعة و الشهامة و إباء الضيم ، و الأنفة من الذل ، و رفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، و وطأ لهم سبل الراحة و الرفاهة ، و تقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير .. و إن كان حاكمها جاهلاً ، شيء الطبع ، سافل المهمة ، شرها مغتلاً جباناً ، ضعيف الرأي ، أحمق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة ، أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسران ، و ضرب على نواظرها ، غشاوات الجهل ، و جلب عليها غائلة الفاقة و الفقر ، و جار في سلطته عن جادة العدل ، و فتح أبواباً للعدوان . فيتغلب القوي على حقوق الضعيف ، و يختل النظام و تفسد الأخلاق و تحفض الكلمة و يغلب اليأس ، فتمتد إليها أنظار لطامعين ، و تضرب الدول الفاتحة ، بمخالبها ، أحشاء الأمة . عند ذلك ، إن كان في الأمة رمق من حياة و بقيت فيها بقية منها ، و أراد الله بها خيراً ، اجتمع أهل الرأي و أرباب المهمة من أفرادها و تعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة و استئصال جذورها ، قبل أن تنشر الرياح بذورها و اجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة ، فتميتها و ينقطع الأمل من العلاج . و بادروا إلى قطع هذا العضو المجدم ، قبل أن يسري فساده إلى جميع البدن ، فيمزقه . و غرسوا لهم شجرة طيبة ، أصلها ثابت و فرعها في السماء ، و جددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات .. استبدلوا الخبيث بالطيب .. و إن انحطت الأمة عن هذه الدرجة و تركت شعونها بيد الحاكم الأبله الغاشم ، يصرفها كيف يشاء ، فأنذرنا بمحض العبودية و عناء الذلة و وصمة العار بين الأمم ، جزاء على ما فرطوا في أمورهم " ¹ .

— " أهلك الله شعوباً و أباد قبائل ، و دمر بلاداً ، و لا يزال عدل الله يبدل قوماً بقوم و يأتي لكل حين بأناس آخرين . حكيم سبقت رحمته غضبه ، جعل لكل عمل جزاء ، و عين بحكمته لكل حادث ، سبباً (و لا يظلم ربك أحداً)

¹ المصدر السابق ، باب الأمة و سلطة الحاكم المستبد .

. و ليست أفعاله جزافاً ، و لا يصدر عنه شيء عبثاً . أمر الله عباده بالسير في الأرض ليربهم قضاءه الحق و حكمه العدل فيمن سلف و فيمن خلف {قل سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} [الأنعام : ١١] . فيطيعوا أوامره و يقفوا عند حدود شرائعه . ما حاق السوء بأمة ، و ما نزلت بها نازلة البلاء ، و ما مسها الضر في شيء إلا و كانت هي الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله و انتهكت حرماته و نبذت أوامره العادلة و انحرفت عن شرائعه الحقّة و حرفت الكلم عن مواضعه و أولت من كلامه تعالى على حب الأهواء و الشهوات .. كما أن للأغذية و الأدوية ، و اختلاف الفصول و الأهوية ، أثراً ظاهراً في الأمزجة ، بتقدير العزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله ، أن يكون لكل عمل من الأعمال الإنسانية ، و لكل طور من أطوار البشرية ، أثر في الهيئة الاجتماعية . و لهذا ، كان من رحمته بعباده ، تحديد الحدود و تقرير الأحكام ، ليتبين الخير من الشر ، و يتميز النفع من الضر ، فأرسل الرسل و أنزل الكتب ، فمن حال الأوامر الإلهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لخزي الدنيا و عذاب الآخرة .. ألم تر أن الله قد جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة و الاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية ، سبباً للقوة و استكمال لوازم الراحة في هذه الدنيا ، و التمكن من الوصول لخير الأبد في الآخرة ، و جعل التنازع و التغابن ، علة للضعف و داعياً للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ، و مهياً لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الأمم . إن الله تعالى ، يجعل الركون إلى من لا يصح الركون إليه ، و الثقة بمن لا تنبغي الثقة به ، سبباً في اختلال المر و فساد الحال ، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء ، و لا تجمععه معه جامعة حقيقية ، و لا تصله به رابطة حقيقية ، و ليس في طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته و دفع المضار عنه ، فلا ريب يفسد حاله و يسوء مآله . فإن كان ملكاً ، ضاع ملكه ، أو أميراً ، بطل أمره . و الحوادث عاهدة و أحوال المغرورين ناطقة ، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة ، يدرك بأول التفات ، سر نهي الله تعالى في

قوله { لَّا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ } [المتحة : ١] .^١

— " كانت حكومة مصر في الربع الأول من القرن الماضي ، تعد نوع من حكومة الأشراف ، و يحسبها المؤرخون في تلك الأوقات بدرجة لا تعرف هيئتها و لا يصل بحث الباحث إلى كنهها . و إذا عبروا عنه بالتقريب قالوا : طرز قديم كان معروفاً في أغلب أنحاء المسكونة . ثم أعجب الدهر فيها بغرائبه بعدما فوضت أمورها لمحمد علي باشا ، فلم يمض قليل من الزمن ، حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنية ، و ظهر فيها شكل بسيط من الحكومة النظامية ، و تقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء ، و عد هذا التقدم السريع من عجائب الأمور . هل كان في حسيان أحد ، أن يستلم زمام الحكومة في مصر ، رجل من بعض قرى الروملي (المقصود محمد علي باشا) لم يتربع في دروس العلم و لم يجبل في مصانع السياسة ، إلا أن طبيعته الفطرية ، كانت فائضة بحب الحضارة و بث العلوم و تأسيس قواعد العمران ، مع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل إليه . تقدمت بعد ذلك فيها الزراعة ، تقدماً غريباً ، و اتسعت دائرة التجارة و عمرت معهد العلم ، و انتشرت في أرجائها ، مبادئ المعارف الصحيحة . و تقاربت أنحاؤها و اتصلت أطرافها ، بما أنشئ فيها من سكك الحديد و خطوط التلغراف ، و تعارفت أهاليها و ائتلف الجنوبي بالشمالي ، و الشرقي بالغربي ، و قوي فيهم معنى الأخوة الوطنية ، بعد أن كانوا لبعده الشقة بين بلدانهم ، كأهم أبناء أقطار مختلفة ، و تواصلوا في المعاملات و تشاركوا في المنافع ، و اعتدلت المشارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أحسن فيه كل واحد بنسبته من الآخر ، و ارتفعت بذلك أصواتهم ، بعدما جالت فيه أفكارهم . تفجرت من أرض مصر ، ينابيع الثروة ، و عمدت بقاعها و طفحت

^١ المصدر السابق ، باب أسباب حفظ الملك .

ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية ، بل وصل مد نيلها إلى أراضي البلاد الغربية ، و توارد عليها الغرباء و قصاد الكسب من كل مكان ، و ما خاب لها قاصد و لا أخفق فيها سعي ساع . فأثرى في مغانيها الفقراء و عز بها الأذلاء ، و صارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ، و محط رحال الراجين من الشرقيين . و كل وافد إليها ، يجد أهلاً خيراً من أهله ، و سكناً خيراً من سكنه . و تكاثرت فيها العناصر الغربية ، حتى كان الداخل إليها يجيل له أنه تحت برج بابل يوم تبللت الألسن " ١ .

قاسم أمين : هو رائد تحرر المرأة و إنصافها حقها كإنسانة تشكل نصف المجتمع و تلعب دوراً حيويّاً و هاماً فيه ، فهي الأم المربية لأولادها ، ذكوراً و إناثاً ، و الزوجة الراعية المدبرة لمتزلها ، و العاملة المساعدة لزوجها في الحقل و العمل . و لا تنقصها الكفاءة العقلية و لا المقدرات الذهنية .

ولد قاسم أمين ببلدة طرة بمصر عام ١٨٦٣/ م من أب كردي كان ابن أحد الأمراء الأكراد في السلিমانيّة بأعمال كردستان الكردية . و عندما قررت ولاية كردستان ، الانفصال عن الحكم العثماني و أعلنت الاستقلال بثورة وطنية ضد الأتراك ، نشبت المعارك بين الطرفين . و نتيجة لخلاف مع السلطات العثمانية ، تم أخذ الولد كرهينة ، و من هناك أرسل إلى مصر و ترفت به السبل في الجيش و الإدارة ، فتزوج امرأة مصرية أنجبت له قاسم ، بكر أولاده . و في صباه ، بدت عليه إمارات النباهة و الذكاء ، فوضعه أبوه في مدرسة متقدمة يؤمها أولاد البكوات و الأسر العريقة ، و من هنالك التحق قاسم بمدرسة الحقوق ، و عند تخرجه منها بتفوق ، تم إيفاده ببعثة دراسية إلى باريس في المجال نفسه ، فالتحق بجامعة (مونبيليه) للتعلم بالدراسات القانونية ، و هنالك التقى مجدداً بجمال

١ المصدر السابق ، باب مصر

الدين الأفغاني و الشيخ محمد عبده و عمل معهما في مجال الترجمة و البحوث^١ ، كما كانت تلك الفترة ، فرصة مناسبة له لدراسة الفكر الأدبي و السياسي و الاجتماعي الأوروبي عموماً ، و الفرنسي خصوصاً .

بعد انتهاء دراسته المتقدمة في باريس ، عاد إلى مصر و عمل في مجال القضاء و النيابة العامة . و مع أنه كان في مجال القضاء و النيابة العامة ، مثال المنافع عن العدالة و المدافع عن المظلومين ، إلا أن الفترة التي قضاها في باريس ، لفتت انتباهه إلى قضية المرأة و حقوقها كإنسان بالدرجة الأولى ، و شاهد بأمر عينيه كيف أنها تقوم بدورها الفعال في النهوض بالمجتمع الفرنسي بكافة المجالات و الاختصاصات ، و كيف كان لها دوراً ريادياً في الثورة الفرنسية التي أرست نظام العدالة الاجتماعية و حقوق الإنسان في العالم ككل ، و هو ما لم ينتقص من قيمتها و كرامتها كامرأة . و تبعاً لذلك ، أيقن أنه حتى تقوم مصر حق قيامتها في الحضارة و العلم و الرقي ، لا بد من أن تخرج المرأة المصرية من سدة الحجر و الحرمان و الكبت و الجهل و التجهيل المفروض عليها منذ قرون ، فوجه عنايته و فكره إلى تحرير المرأة و تعليمها و نفض غبار التقاليد القاسية المفروضة عليها باسم الشريعة الإسلامية و التي لا تمت في بعضها ، بصلة لها . و بث أفكاره تلك في المجتمع المصري و قام بوضع كتاب (أسباب و نتائج و أخلاق و مواظب) ثم ألف كتابه الشهير (تحرير المرأة) الذي مثل سابقة أولى في المنطقة ككل ، و لقي دعم الشيخين ، الأفغاني و عبده .

و بالرغم من أن أحمد فارس الشدياق قد سبقه من حيث الفكرة و الدعوة إلى تحرير المرأة ، إلا أن قاسم أمين كان الأكثر تخصصاً و تعميقاً و اجتهاداً حول هذه القضية ، فبينما اكتفى الشدياق بكتاب و بعض الآراء الجريئة فيما يخص المرأة و تحريرها ، إلا أنه لم يوقف نفسه عند هذه القضية ، بل كان له مجال ثانٍ

^١ أعلام النهضة مصدر سابق - موسوعة ويكيبيديا ، قاسم أمين

و اختصاص آخر ، سواء في اللغة أو الترجمة و الفكر . فضلاً عن أن قاسم أمين قد جعل قضية المرأة قضيته الأساس . يضاف إلى هذا ، أن الشدياق كان قد تركز معظم وقته بأوروبا ، فلم يطاله النقد و اللوم كما قاسم أمين ، و لم يسلقه النقد بالسنة حِداد كما فعلوا مع قاسم أمين ، الذي أحدث كتابة (تحرير المرأة) ضجة فكرية كبيرة امتدت رقعتها و طال أمدها .

و كما هي العادة ، لقي هذا الكتاب ، اعتراض الفئات التي لا تقبل التغيير و المتمسكة بالجمود ، و أنهم قاسم أمين بالخلاعة و الفجور لأنه تحدث عن قضية حجاب المرأة و تعليمها ، لكنه عاد و رد على هؤلاء النقاد بكتاب آخر جديد أسماه (المرأة الجديدة) فنّد فيه أقوالهم . و بالرغم من أنه لم يعمر طويلاً حتى يرى آثار أفكاره ، فإن فكر قاسم أمين ، لقي انتشاراً واسعاً و أسس لما يسمى حقوق المرأة في العالم العربي .

و هاكم بعض ما قاله قاسم أمين أو ورد في كتبه¹ ، و منه يستطيع القارئ أن يدرك أهمية و هوية الفكر العربي في تلك الفترة ، و يستدل على محاوره الرئيسة التي اعتمدها و أثرها في تمدن العقل العربي .

" إن اللذة التي تجعل للحياة قيمة ، ليست حيازة الذهب ، و لا شرف النسب ، و لا علو المنصب ، و لا شيئاً من الأشياء التي يجري وراءها الناس عادة ، إنما هي أن يكون الإنسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم "

" إن أهم عامل له أثر في حال الأمة ، هو حالتها الاقتصادية ، و هي لا تتغير بإرادة شخص أو مائة شخص أو إصدار قانون أو مائة قانون ، بل بتغيير الأسباب التي أوجدتها . و لقد نظم الإسلام ، توزيع الثروة ، و أعلن اشتراك الفقراء في ملكية أموال الأغنياء ، فحل المشكلة الاجتماعية ، بنوع فريد من الجماعية ، و اشتراكية سامية سبقت أكثر النظم السياسية ثورية ، بأكثر من

¹ كتاب (قاسم أمين الأعمال الكاملة) ، من ترويسات الفصول ، و متن الفقرات .

ألف عام .. إن النوع الإنساني في كل مكان ، هو نفسه ، بأخطائه و مواطن
ضعفه ، أيضاً بعظمته و زهوه . و الحركة المستمرة إلى جهة الترقى ، هي قانون
الحياة الإنسانية ، و لن يقف ماضيها و لا حاضرها حائلاً بيننا و بين التقدم ،
حسب هذا القانون الذي يسود الكون كله " .

" علينا أن نزن بميزان العقل ، و نتدبر في أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية و أسباب
انحطاطها ، و نستخلص من ذلك ، قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به
اليوم و في ما يستقبل من الزمان ، و كذلك علينا أن نربي أولادنا على أن يعرفوا
شؤون المدنية الغربية و يقفوا على أصولها و فروعها آثارها " .

" المصريين .. مسلمين و الأقباط ، ينتمون إلى جنس واحد . و المصري لا
يرهب الموت و لا الآلام ، غير أنه يحتمل بعض الإهانات لأن السلطة أفقدته
وعيه حتى ظن أنه مخلوق لمعانة نزواتها .. أنه لا تنقصه القوة الجسدية و لا
الطاقة المعنوية ، إن ما يحتاج إليه ، هو النهوض و التوجيه السليم لكي يصبح
قوة عظمى " .

" الآن .. أيما قرأت ، و في أي مكان وجدت ، لا أسمع إلا حب الوطن و الغيرة
الوطنية و التفاني في خدمة الوطن ، الجريدة الوطنية و المدرسة الوطنية ، و حزب
الوطن ، و البيوت التجارية و المحال الصناعية و الصيدليات و عيادات المرضى
التي تشتغل و تباع و تعالج و تربح ، لخدمة الوطن .. صار حب الوطن ديناً
جديداً ، من اعتنقه ، ربح ، من بعد عنه ، خسر " .

" الاستبداد ، أصل كل فساد في الأخلاق ، و الحرية الحقيقية ، تحتل إبداء كل
رأي و نشر كل مذهب و ترويج كل فكر ، فكم من الزمن يمر علينا قبل أن
نبلغ هذه الدرجة من الحرية " .

" قد يتيه العقل و يذهب ، إذا تخيل الإنسان الحالة التي ينتظر أن يرقى النوع
البشري على القياس السابق ، بعد نحو ألف عام أو ألفين . لأن هذه هو التغير و
التحول ، بل الحركة المستمرة إلى جهة الترقى ، هي قانون الحياة الإنسانية التي

خلقها الله و وهبها أعظم وسائل الارتقاء . و بهذا القانون ، خرج الإنسان من المعيشة البهيمية التي لا يزال عليها أخواننا المتوحشون من سكان إفريقيا و أمريكا ، ممن وصفهم العلماء بأنهم قرود متمدنة ، عندما شاهدوا أن المسافة التي بينهم و بين الحيوانات البهم ، أقل من المسافة التي بينهم و بين أناس أمة متمدنة .. و ها هو الإنسان ، لم يزل يمشي صاعداً مرتقياً منتقلاً من دور إلى دور ، حتى وصل إلى هذه المدنية الجميلة التي جعلته سيد الكون و أشرف المخلوقات ، وسيستمر كذلك بإذن الله ، إلى حد لا يعلمه إلا هو .. هذه المرتبة العالية ، لم ينلها الإنسان إلا بتربية نفسه ، فلا غروا أن صارت التربية عند الأمم المقدرة لها حق قدرها ، صاحبة المكان الأول ، في النفوس ، معتبرة إياها عماد حياتها " .

" من أحكم الأشياء التي يدور عليها تقدم النوع الإنساني ، و يؤكد حسن مستقبله ، هذه القوة الغريية التي تدفع الإنسان إلى نشر كل فكرة علمية أو أدبية ، متى وصلت إلى غاية نموها الطبيعي في عقله . و أعتقد أنها تساعد على تقدم أبناء جنسه ، و لو تيقن حصول الضرر لشخصه من نشرها . تلك قوة يدرك سلطانها ، من وجد في نفسه شيئاً منها .. و كثيراً ما يكتفي كسول و ضعيف القوة في الجدل ، بأن يقذف بكلمة باطل على حق ظاهر ، يريد أن يدفعه فيقول : تلك بدعة في الإسلام ، و ما يرمي بهذه الكلمة إلا حب التخلص من مشقة الفهم أو الخروج من عناء العمل في البحث أو الإجراء ، كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم ، و أقالهم من أحكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع البشري و سائر المخلوقات الحية .. سيقول قوم ، إن ما أنشره اليوم ، بدعة ، فأقول : نعم .. لقد أتيت ببدعة ، و لكنها ليس في الإسلام ، بل في العوائد و طرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها " .

" ليس في الشريعة ، نص يوجب الحجاب ، و إنما هي عادة أخذناها عن بعض الأمم . و إن نساء العرب و القرى المصرية ، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا ، أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن المحجبات . إن

المرأة التي تخالط الرجال ، تكون أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن المحجبات .. إن المرأة التي تخالط الرجال ، تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة .. لكننا لا نجد نصاً في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة ، و إنما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها و أخذوا بها و بالغوا فيها و ألبسوها لباس الدين ، و الدين منها براء .. إن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف للنساء ، إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، و لا ترضاه عفة الحياء ، و قد غالينا نحن في طلب التحجب و التخرج من ظهور النساء لأعين الرجال ، و بين هذين الطرفين ، الحجاب الشرعي و هو الذي أدعو إليه " .

" هنالك تلازم بين الحالة السياسية و الحالة العائلية ، فشكل الحكومة يؤثر في الآداب المتزلية ، و الآداب المتزلية تؤثر في الهيئة الاجتماعية ، ففي الشرق نجد المرأة في رق الرجل ، و الرجل في رق الحكومة ، و حينما تتمتع النساء بحريتهن الشخصية ، يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالحالتان مرتبطتان ارتباطاً كلياً .. و افتقار المرأة المسلمة إلى الاستقلال بكسب ضروريات حياتها ، هو السبب الذي جر ضياع حقوقها ، فلقد استأثر الرجل بكل حق ، و نظر إليها نظرتة إلى حيوان لطيف ، يكفيه لوازمه كي يتسلى به " .

" إنني ما طلبت و لا أطلب المساواة بين المرأة و الرجل في شيء من المزايا و الحقوق السياسية ، لا لأني أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية ، حجراً عاماً مؤبداً ، هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعي ، بل لأني أرى أننا لا نزال إلى الآن في احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية ، و إن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشيء مطلقاً ، و يلزمها أن تقضي أعماراً في تربية عقلها بالعلم و التجارب حتى تنهياً إلى مسابقة الرجال في ميدان الحياة العمومية " .

عبد الرحمن الكواكبي :

هو شهيد الحرية و مقاومة الظلم و الاستبداد و الطغيان و رائد فكر الإصلاح السياسي و نستطيع القول إنه صاحب هوية الفكر السلطاني السياسي الصالح العادل .

ولد الكواكبي سنة /١٨٥٤/ م بمدينة حلب في سورية ، لأسرة دينية شغلت أمور الدين ، فكان والده قد شغل منصب الإفتاء في حلب ، و كذلك كان جده في إنطاكية . و تلقى الكواكبي في صغره ، العلوم الدينية و ما تفرع عنها من علوم ، كاللغة و الحساب و نحو ذلك ، في مدرسة (الكواكبية) ، هي مدرسة كانت مشاهجة إلى حد ما بنمط الأزهر ، و عندما بلغ يفعة من العمر ، اتخذ والده له مدرسين يعلمونه اللغات الأجنبية كالفرنسية و التركية ، و آخرون يؤتونه علم المنطق و الرياضيات و العلوم الطبيعية (التطبيقية) . حيث توسم والده فيه أن يرتقي مرتقى في وظائف الدولة مرموق . فكان أن تولى رئاسة تحرير إحدى الصحف الرسمية ، ثم ما لبث أن رأس المحكمة الشرعية و من بعدها ، تولى منصب القضاء الشرعي ، كما استلم رئاسة البلدية . و كما أن هذه الظروف جميعها التي قيضت له ، العلمية و منها و الإدارية و الدينية و الاجتماعية ، قد وضعت فيه الخبرة و الدراية العلمية و الإدارية و فتحت له آفاق من الحياة واسعة ، فإنها في ذات الوقت ، قد فتحت أنظاره على الظلم و العسف التي يتعرض له الناس و العباد ، و بالذات من السلطة العثمانية ، و لعل وظائف الدولة ذاتها هي التي أشعرته بذلك و بالأخص التراتب الوظيفي الذي يخضع فيه الشخص للأعلى منه بنوع من شبه العبودية ، و يتسلط على من هو أدنى منه بشيء من شبه الحاكمية و ما يقع من ذلك ، ظلم و جور كبيرين أحياناً خارج حدود الوظيفة . و هو ما لم تستسغه نفسه التواقة إلى الحرية و العدالة ، كما أنه و لا شك قد لاحظ الفساد و الظلم في الدولة العثمانية ، و هو الذي احتك بها من داخل دوائرها . و لعل تناقض المنصب الديني و المنصب الوظيفي قد فعل

فعله في نفس الكواكبي و شكل هذا الأمر معضلة أخلاقية و ربما نفسية لديه ،
فآثر نهاية الأمر ، ترك العمل و الوظيفي و التفرغ لأموال التجارة . لكن ذلك لم
يرضي نفسه الثائرة على الظلم و البغي و الفساد الاضطهاد ، بخاصة بعد أن
تشربت جرعات الفكر و المعرفة ، فبدأ يكتب المقالات الفكرية في الصحف و
المنشورات ، يهاجم فيها الظلم و الاستبداد و يلامس فيها السلطة ، مشيراً إليها
بشكل أو بآخر ، و هو ما لم يكن لينحفي على حكومة الباب العالي في الأستانة .
فقامت بإغلاق الصحف التي يكتب فيها . و لما لم يفلح ذلك معه بل زاده
إصراراً و جهراً بأقواله و آرائه ، بدأت حربها الفعلية ضده ، و كانت أول
حركة قامت بها ، هي محاولة الاستيلاء على منصب أسرته الديني عن طريق أحد
فقهاء السلطان في الأستانة ، لكن وجهاء حلب و أعيانها و عامتها وقفوا ضد
هذه الحركة و ساندوا فقيهم و مفكرهم . و هنا لجأت السلطة العثمانية إلى
حيلة أخرى كانت أجمع حلاً و أكبر حجة بالنسبة لها في إيذاء الرجل ، تمثلت في
تلفيق قضية تزوير وثائق تدين الكواكبي بالتآمر مع دولة أجنبية ضد حكومة
الباب العالي . و يعتقل الكواكبي و يحاكم محاكمة صورية يتم فيها الحكم عليه
بالإعدام ، لكن الشعب الحلبي و قد عرف طبخة ما يطبخ ، يهب من جديد
لنجدة إمامه الفكري ، فيطالب بنقل المحاكمة إلى بيروت بعيد عن القضاء
الفاقد المرتشي ، و ينجح في ذلك و تتم تبرئة ساحة الكواكبي من التهم
المنسوبة إليه .

لكن العثمانيين لم يدعوا الكواكبي و شأنه و بدؤوا يعدون العدة للتخلص منه
بشكل أو بآخر ، و قد أدرك الكواكبي ذلك ، فهرب من بطش السلطة إلى
القاهرة التي كانت آنذاك ملجأً للمفكرين المضطهدين و ملاذاً لهم ، بالأخص ،
أولئك الثائرين على الحكم و الاحتلال العثماني حيث كانت قد بدأت تتبلور
فكرة العروبة بشكل قوي . في القاهرة ، أنشأ الكواكبي ندوة فكرية تحررية
إصلاحية تمحورت آلية عملها و أفكارها ، حول الاستبداد و الظلم السياسي

الذي تمارسه السلطة و ما يتبع له من فساد و جهل ، فتجمع حوله العديد من المفكرين و المثقفين و منهم رشيد رضا و محمد كرد علي و طاهر الجزائري . و عاود نشاطه الصحافي فكتب في الصحف و المجلات كجريدة (المؤيد) ، و كان من أهم ما نشره من فكر بعد أن زار دول كثيرة كإهند و الصين اندونيسيا و غيرها ، هو كتابيه (أم القرى) و (طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد) و هذا الأخير لاقى شهرة و انتشاراً واسعاً ، و قد اعتمد فيه الكواكبي على الفكر الإسلامي الحق المتمثل بالقرآن الكريم الذي اعتبره المثال الفكري الديني في العدل و التسامح و المساواة بين الناس ، لا فرق بينهم ، و قمع الظلم . و في هذا الكتاب ، وضع الكواكبي يده على الجرح بجرأة و صدق بالغين ، و لم يتحرج من الخوض في بعض التفاصيل الاجتماعية و الدينية التي قد لا يراها البعض ترقى إلى مستوى الأهمية ، أو التطرق إليها هو من المحظورات التي تهيج النفوس و تؤلب القلوب ضد من يطرق بابها . بل لعله كان أول من لامس مفهوم الديمقراطية و قاربها مقارنة عجيبة مذهلة في كتابه ، كل ذلك بالاستشهاد بآي من الذكر الحكيم . و بنظرنا فإن أهمية كتاب (طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد) تكمن في ناحية مهمة جداً ، و هي أنك إذا فتحتة الآن و تصفحت مضمونه و محتوياته ، تشعر أنه قد كتب في هذا عصرك هذا الذي أنت فيه الآن ، و يتحدث عن قضايا و مفاهيم و أمور تراها في حياتك اليومية و تشعر بها في باطن خلدك و ظاهر أحاسيسك . و لهذا ، لم تفلح يد الغدر السامة الجاهلة المميتة التي دست له السم و أنهت حياته ، لم تفلح في إهراء فكره الذي لا يزال إلى الآن يستشهد به في المحافل و الندوات و المؤلفات .

هاهنا بعض شذرات من كتاب (طبائع الاستبداد) للكواكبي ، توضح للقارئ هوية الفكر العربي آن قرن و نيف ، قد سلف ..

— " يراد بالاستبداد عند إطلاقه ، استبداد الحكومات خاصة ، لأنها أعظم مظاهر أضراره التي جعلت الإنسان أشقى ذوي الحياة. وأما تحكم النفس على العقل، وتحكم الأب والأستاذ والزوج ورؤساء بعض الأديان وبعض الشركات وبعض الطبقات ، فيوصف بالاستبداد مجازاً أو مع الإضافة .

الاستبداد في اصطلاح السياسيين هو : تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعه ، وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي فيستعملون في مقام كلمة "استبداد" كلمات : استعباد ، و اعتساف ، و تسلط ، و تحكم . و في مقابلتها كلمات : مساواة ، و حس مشترك ، و تكافؤ ، و سلطة عامة . و يستعملون في مقام صفة " مستبد " كلمات : جبار ، و طاغية ، و حاكم بأمره ، و حاكم مطلق . و في مقابلة "حكومة مستبدة " كلمات : عادلة ، و مسؤولة ، و مقيدة ، و دستورية . ويستعملون في مقام وصف الرعية "المستبد عليهم" كلمات : أسرى ، و مستصغرين ، و رؤساء ، و مستنبتين ، و في مقابلتها : أحرار ، و أباة ، و أحياء ، و أعزاء . هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذكر المرادفات و المقابلات ، و أما تعريفه بالوصف فهو : أن الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلاً أو حكماً ، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين . وتفسير ذلك هو كون الحكومة إما هي غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة ، أو على أمثلة تقليدية ، أو على إرادة الأمة ، وهذه حالة الحكومات المطلقة. أو هي مقيدة بنوع من ذلك، ولكنها تملك بنفوذها إبطال قوة القيد بما تهوى ، وهذه حالة أكثر الحكومات التي تسمى نفسها بالمقيدة أو بالجمهورية .

وأشكال الحكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث محل تفصيلها . ويكفي هنا الإشارة إلى أن صفة الاستبداد، كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة أو الوراثة ، تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيد المنتخب متى كان غير مسؤول ، وتشمل حكومة الجمع و لو منتخباً ، لأن الاشتراك في الرأي

لا يدفع الاستبداد ، وإنما قد يعدله الاختلاف نوعاً ، وقد يكون عند الاتفاق أضر من استبداد الفرد. ويشمل أيضا الحكومة الدستورية المفرقة فيها بالكلية قوة التشريع عن قوة التنفيذ وعن قوة المراقبة ، لأن الاستبداد لا يرتفع ما لم يكن هناك ارتباط في المسؤولية ، فيكون المنفذون مسؤولين لدى المشرعين ، وهؤلاء مسؤولين لدى الأمة ، تلك الأمة التي تعرف أنها صاحبة الشأن كله ، وتعرف أن تراقب و أن تتقاضى الحساب . إن السياسيين يبنون استبدادهم على أساس من هذا القبيل ، فهم يسترهبون الناس بالتعالي الشخصي و التشمخ الحسي، و يذللوهم بالقهر و القوة و سلب الأموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم ، عاملين لأجلهم ، يتمتعون بهم ، كأهم نوع من الأنعام التي يشربون ألبانها ، ويأكلون لحومها ، ويركبون ظهورها ، و بها يتفاخرون .

وأشد مراتب الاستبداد التي يتعوذ بها من الشيطان هي حكومة الفرد المطلق ، الوارث للعرش ، القائد للجيش ، الحائز على سلطة دينية . ولنا أن نقول كلما قل وصف من هذه الأوصاف ، خف الاستبداد إلى أن ينتهي بالحاكم المنتخب المؤقت المسؤول فعلاً. وكذلك يخف الاستبداد — طبعاً — كلما قل عدد نفوس الرعية، وقل الارتباط بالأملاك الثابتة، وقل التفاوت في الثروة وكلما ترقى الشعب في المعارف¹ .

— " ينجر عوام البشر و هم السواد الأعظم ، إلى نقطة أن يلتبس عليهم الفرق بين الإله المعبود بحق ، و بين المستبد المطاع بالقهر ، فيختلطان في مضايق أذهابهم من حيث التشابه في استحقاق مزيد التعظيم ، و الرفعة عن السؤال وعدم المؤاخذة على الأفعال ، بناء عليه ، لا يرون لأنفسهم حقا في مراقبة المستبد لانتفاء النسبة بين عظمتهم ودناءتهم ، وبعبارة أخرى ، يجد العوام معبودهم و جبارهم مشتركين في كثير من الحالات والأسماء والصفات ، وهم

¹ طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد ، باب (ما هو الاستبداد) .

ليس من شأنهم أن يفرقوا مثلاً بين (الفعال المطلق) و (الحاكم بأمره) و بين (لا يسأل عما يفعل) و (غير مسؤول) ، و بين المنعم و ولي النعم ، و بين (جل شأنه) و (جليل الشأن) . بناء عليه ، يعظمون الجبارة تعظيمهم لله ، ويزيدون تعظيمهم على التعظيم لله ، لأنه حلِيم كريم ، ولأن عذابه آجل غائب ، و أما انتقام الجبار فعاجل حاضر . و العوام كما يقال ، عقولهم في عيولهم ، يكاد لا يتجاوز فعلهم المحسوس المشاهد ، حتى يصح أن يقال فيهم : لولا رجائهم بالله ، و خوفهم منه فيما يتعلق بحياتهم الدنيا ، لما صلوا و لا صاموا ، و لولا أملهم العاجل ، لما رجحوا قراءة الدلائل والأوراد على قراءة القرآن ، و لا رجحوا اليمين بالأولياء المقربين ، كما يعتقدون ، على اليمين بالله .

وهذه الحال هي التي سهلت في الأمم الغابرة المنحطة دعوى بعض المستبدين ، الإلهية على مراتب مختلفة ، حسب استعداد أذهان الرعية ، حتى يقال : إنه ما من مستبد سياسي إلى الآن ، إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله ، أو تعطيه مقام ذي علاقة مع الله . و لا أقل من أن يتخذ بطانة من خدمة الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله ، و أقل ما يعينون به الاستبداد ، تفريق الأمم إلى مذاهب و شيع متعادية تقاوم بعضها بعضاً ، فتتهاتر قوة الأمة و يذهب ربحها ، فيخلو الجو للاستبداد لبييض و يفرخ ، و هذه سياسة الإنكليز في المستعمرات ، لا يؤريدها شيء مثل انقسام الأهالي على أنفسهم ، و إفنائهم بأسهم بينهم بسبب اختلافهم في الأديان و المذاهب " ١ .

— " الاستبداد لو كان رجلاً و أراد أن يحتسب و ينتسب لقال : أنا الشر ، و أبي الظلم ، و أمي الإساءة ، و أخي الغدر ، و أختي المسكنة ، و عمي الضر ، و خالي الذل ، و ابني الفقر ، و بنتي البطالة ، و عشيرتي الجهالة ، و وطني الخراب ، أما ديني و شرقي فالمال المال المال .

١ المصدر السابق ، باب (الاستبداد و الدين) .

المال يصح في وصفه أن يقال : القوة مال ، والوقت مال ، والعقل مال ، والعلم مال ، والدين مال ، والثبات مال ، والجاه مال ، والجمال مال ، والترتيب مال ، والاقتصاد مال ، والشهرة مال ، والحاصل كل ما ينتفع به في الحياة هو مال .
و كل ذلك يباع و يشتري ، أي يستبدل بعضه ببعض ، و موازين المعادلة هي :
الحاجة و العزة و الوقت و التعب ، و محافظة اليد و الفضة و الذهب و الذمة ،
و سوقه المجتمعات ، و شيخ السوق السلطان .. فانظر في سوق يتحكم فيه
مستبد ، يأمر زيدا بالبيع ، و ينهى عمروا عن الشراء ، ويغصب بكرا ماله ،
و يجابي خالداً من مال الناس . المال تعتوره الأحكام ، فمنه الحلال و منه الحرام و
هما بينان ، ولنعم الحاكم فيها الوجدان ، فالحلال الطيب ما كان عوض أعيان ،
أو أجرة أعمال ، أو بدل وقت ، أو مقابل ضمان . و المال الخبيث الحرام هو
ثمن الشرف ، ثم المغصوب ، ثم المسروق ، ثم المأخوذ إلقاء ثم المحتال فيه . إن
النظام الطبيعي في كل الحيوانات حتى في السمك و الهوام إلا أنثى العنكبوت ، إن
النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً ، و الإنسان يأكل الإنسان . و من غريزة
سائر الحيوان أن يلتمس الرزق من الله ، أي من مورده الطبيعي ، و هذا الإنسان
الظالم نفسه حريص على اختطافه من يد أخيه ، بل من فيه ، بل كم أكل
الإنسان الإنسان ! " ١ .

— " بسط المولى جلت حكمته ، سلطان الإنسان على الأكوان ، فطغى و بغى
و نسي ربه و عبد المال و الجمال ، و جعلهما منيته و مبتغاه ، كأنه خلق خادماً
لبطنه وعضوه فقط ، لا شأن له غير الغذاء و التحاك . و بالنظر إلى أن المال هو
الوسيلة الموصلة للجمال ، كاد ينحصر أكبر هم للإنسان ، في جمع المال ، ولهذا
يكنى عنه بمعبود الأمم و بسر الوجود ، و روى كريسكو المؤرخ الروسي : إن
كاترينا شكت كسل رعيتها ، فأرشدتها شيطانها إلى حمل النساء على الخلاعة ،

^١ المصدر السابق ، باب (الاستبداد و المال) .

ففعلت وأحدثت كسوة المراقص ، فهب الشبان للعمل وكسب المال لصرفه على ربات الجمال ، وفي ظرف خمس سنين ، تضاعف دخل خزينتها ، فاتسع لها مجال الإسراف . وهكذا المستبدون لا تمهم الأخلاق ، إنما يهمهم المال .. المال عند الاقتصاديين : ما ينتفع به الإنسان ، و عند الحقوقيين : ما يجري فيه المنع و البذل ، و عند السياسيين : ما تستعاض به القوة ، و عند الأخلاقيين : ما تحفظ به الحياة الشريفة .. المال يستمد من الفيض الذي أودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها ، ولا يملك ، أي لا يتخصص بإنسان ، إلا بعمل فيه أو في مقابله . و المقصود من المال هو أحد اثنين لا ثالث لهما و هما : تحصيل لذة أو دفع ألم ، وفيهما تنحصر كل مقاصد الإنسان ، و عليهما مبني أحكام الشرائع كلها ، و الحاكم المعتدل في طيب المال و خبيثه ، هو الوجدان الذي خلقه الله صبغة للنفس ، و عبر عنه القرآن بإلهامها فجورها وتقواها ، فالوجدان خير بين المال الحلال و المال الحرام ¹ .

— " ولا غرابة في تحكم الاستبداد على الحقائق في أفكار البسطاء ، إنما الغريب إغفاله كثيرا من العقلاء ، ومنهم جمهور المؤرخين الذين يسمون الفاتحين الغالبين بالرجال العظام ، وينظرون إليهم نظر الإجلال والاحترام مجرد أنهم كانوا أكثر في قتل الإنسان ، وأسرفوا في تخريب العمران . و من هذا القبيل في الغرابة إعلاء المؤرخين قدر من جاروا المستبدين ، و حازوا القبول و الوجاهة عند الظالمين . و كذلك افتخار الأخلاق بأسلافهم المجرمين الذين كانوا من هؤلاء الأعوان الأشرار .

وقد يظن بعض الناس أن للاستبداد حسنات مفقودة في الإدارة الحرة ، فيقولون مثلاً : الاستبداد يلين الطباع و يلطفها ، و الحق أن ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة . و يقولون : الاستبداد يعلم الصغير الجاهل حسن

¹ المصدر السابق ، باب (الاستبداد و الإنسان) .

الطاعة و الانقياد للكبير الخبير ، و الحق أن هذا فيه عن خوف و جبانة لا عن اختيار وإذعان . و يقولون : هو يربي النفوس على الاعتدال و الوقوف عند الحدود ، و الحق أن ليس هناك غير انكماش و تقهقر . و يقولون : الاستبداد يقلل الفسق و الفجور ، و الحق أنه عن فقر و عجز ، لا عن عفة أو دين . و يقولون : هو يقلل التعديات و الجرائم ، و الحق أنه يمنع ظهورها و يخفيها ، فيقل تعديدها لا عددها .

— الأخلاق أثمار بذرها الورثة ، و تربتها التربية ، و سقيها العلم ، و القائمون عليها هم رجال الحكومة ، بناء عليه ، تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر . نعم .. الأقوام كالأجام ، إن تركت مهملة تراحت أشجارها وأفلاذها ، و سقم أكثرها ، و تغلب قويتها على ضعيفها فأهلكه ، و هذا مثل القبائل المتوحشة . و إن صادفت بستانياً يهمله بقاؤها و زهوها ، فدبرها حسبما تطلبه طباعها ، قويت وأينعت و حسنت ثمارها ، و هذا مثل الحكومة العادلة . و إذا بليت ببستاني جدير بأن يسمى خطاباً لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب ، أفسدها وخرّبها ، و هذا مثل الحكومة المستبدة . و متى كان الخطاب غريباً لم يخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار ، إنما همه الحصول على الفائدة العاجلة و لو باقتلاع الأصول ، فهناك الطامة و هناك البوار . فبناء على هذا المثال ، يكون فعل الاستبداد في أخلاق الأمم فعل ذلك الخطاب الذي لا يرجى منه غير الإفساد .

لا تكون الأخلاق أخلاقاً ما لم تكن ملكة مطردة على قانون فطري تقتضيه أولاً ، و وظيفة الإنسان نحو نفسه ، و ثانياً وظيفته نحو عائلته ، و ثالثاً وظيفته نحو قومه ، و رابعاً وظيفته نحو الإنسانية ، و هذا القانون هو ما يسمى عند الناس بالناموس . و من أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس ، وهو كالحيوان المملوك العنان ، يقاد حيث يراد ، و يعيش كالريش ، يهب ، حيث يهب الريح ، لا نظام ولا إرادة ؟ و ما هي الإرادة ؟ هي أم الأخلاق ، هي ما

قيل فيها تعظيماً لشأهما : لو جازت عبادة غير الله ، لاختار العقلاء عبادة الإرادة .. هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة . فالأسير إذن .. دون الحيوان ، لأنه يتحرك بإرادة غيره لا بإرادة نفسه . ولهذا قال الفقهاء : لا نية للرقيق في كثير من أحواله ، إنما هو تابع لنية مولاه . وقد يعذر الأسير على فساد أخلاقه ، لأن فاقد الخيار غير مؤاخذ عقلاً وشرعاً^١ .

— " لقد سلك الأنبياء عليهم السلام ، في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق ، مسلك الابتداء أولاً ، بفك العقول من تعظيم غير الله و الإذعان لسواه . و ذلك بتقوية حسن الإيمان المفطور عليه وجدان كل إنسان ، ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة ، و تعريف الإنسان كيف يملك إرادته ، أي حريته في أفكاره ، و اختياره في أعماله ، و بذلك هدموا حصون الاستبداد و سدوا منابع الفساد . ثم بعد إطلاق زمام العقول ، صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنه مكلف بقانون الإنسانية ، و مطالب بحسن الأخلاق ، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع و بث التربية التهذيبية .

و الحكماء السياسيون الأقدمون اتبعوا الأنبياء — عليهم السلام — في سلوك هذا الطريق و هذا الترتيب ، أي بالابتداء من نقطة دينية فطرية تؤدي إلى تحرير الضمائر ، ثم باتباع طريق التربية و التهذيب بدون فتور و لا انقطاع . أما المتأخرون من قادة العقول في الغرب ، فمنهم فئة سلكوا طريقة الخروج بأممهم من حظيرة الدين و آدابه النفسية ، إلى فضاء الإطلاق و تربية الطبيعة ، زاعمين أن الفطرة في الإنسان أهدى سبيلاً ، و حاجته إلى النظام تغنيه عن إعانة الدين ، التي هي كالمخدرات سموم تعطل الحس بالهموم ، ثم تذهب بالحياة ، فيكون ضررها أكبر من نفعها . و قد ساعدتهم على سلوك هذا المسلك ، أنهم وجدوا أمهم قد فشا فيها نور العلم ، ذلك العلم الذي كان منحصراً في خدمة الدين

^١ المصدر السابق ، باب (الاستبداد و الأخلاق) .

عند المصريين و الآشوريين ، و محتكراً في أبناء الأشراف عند الغرناطيين و الرومان ، و مخصصاً في أعداد من الشبان المنتخبين عند الهنديين واليونان ، حتى جاء العرب بعد الإسلام ، و أطلقوا حرية العلم ، و أباحوا تناوله لكل متعلم ، فانتقل إلى أوروبا حراً على رغم رجال الدين ، فتنورت به عقول الأمم على درجات ، و في نسبتها ترفت الأمم في النعيم ، و انتشرت و تحالطت ، و صار المتأخر منها يغبط المتقدم و يتنغص من حالته ، و يتطلب اللحاق ، و يبحث عن وسائله . فنشأ من ذلك حركة قوية في الأفكار ، و حركة معرفة الخير والغيرة على نواله ، حركة معرفة الشر و الأنفة من الصبر عليه ، حركة السير إلى الأمام رغم كل معارض . اغتنم زعماء الحرية في الغرب قوة هذه الحركة وأضافوا إليها قوات أدبية شتى ، كاستبدالهم ثقالة وقار الدين بزهوة عروس الحرية ، حتى إنهم لم يبالوا بتمثيل الحرية بحسناة خليعة تختلب النفوس . و كاستبدالهم رابطة الاشتراك في الطاعة للمستبددين برابطة الاشتراك في الشؤون العمومية ، ذلك الاشتراك الذي يتولد منه حب الوطن . و هكذا جعلوا قوة حركة الأفكار تياراً سلطوه على رؤوس الرؤوس من أهل السياسة و الدين . ثم إن هؤلاء الزعماء استباحوا القساوة أيضاً ، فأخذوا من مهجورات دينهم قاعدة (الغاية تبرر الوسيلة) كجواز السرقة إذا كانت الغاية من صرف المال في سبيل الخير ، و قاعدة (تثقيل الذمة يبيح الفعل القبيح) كشهادة الزور على ذمة الكاهن التي يتحمل عنها خطيئتها ، و دفعوا الناس بهما إلى ارتكاب الجرائم الفظيعة التي تقشعر منها الإنسانية ، التي لا يستبيحها الحكيم الشرقي لما بين أبناء الغرب وأبناء الشرق من التباين في الغرائز والأخلاق .

الإنسان الغربي : مادي الحياة ، قوي النفس ، شديد المعاملة ، حريص على الانتقام ، كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق . فالجرماني مثلاً : جاف الطبع ، يرى أن العضو الضعيف من البشر يستحق الموت ، و يرى كل فضيلة في القوة ، و كل القوة في

المال ، فهو يجب العلم ، و لكن ، لأجل المال ، ويجب المجد ، و لكن لأجل المال . و هذا اللاتيني مطبوع على العجب والطيش ، يرى العقل في الإطلاق ، و الحياة في خلع الحياء ، و الشرف في الترف ، و الكياسة في الكسب ، و العز في الغلبة ، و اللذة في المائدة والفراش . أما أهل الشرق .. فهم أدبيون ، و يغلب عليهم ضعف القلب و سلطان الحب ، و الإصغاء للوجدان ، و الميل للرحمة و لو في غير موقعها ، و اللطف و لو مع الخصم . و يرون العز في الفتوة و المروءة ، و الغنى في القناعة و الفضيلة ، و الراحة في الأنس و السكينة ، و اللذة في الكرم و التحبب ، و هم يغضبون ، و لكن للدين فقط ، و يغارون ، و لكن على العرض فقط . ليس من شأن الشرقي أن يسير مع الغربي في طريق واحدة ، فلا تطاوعه طباعه على استباحة ما يستحسنه الغربي ، و إن تكلف تقليده في أمر فلا يحسن التقليد ، و إن أحسنه فلا يثبت ، و إن ثبت فلا يعرف استثماره ، حتى لو سقطت الثمرة في كفه تمنى لو قفزت على فمه!.. فالشرقي مثلاً يهتم في شأن ظالمه إلى أن يزول عنه ظلمه ، ثم لا يفكر فيمن يخلفه ولا يراقبه ، فيقع في الظلم ثانية ، فيعيد الكرة ويعود الظلم إلى ما لا نهاية " ¹ .

— " ما هي الأمة ، أي الشعب؟؟ هل هي ركام مخلوقات نامية ، أو جمعية ، عبيد لمالك متغلب ، وظيفتهم الطاعة والانقياد ولو كرهاً؟ أم هي جمع بينهم روابط دين أو جنس أو لغة ، و وطن ، و حقوق مشتركة ، و جامعة سياسية اختيارية ، لكل فرد حق إشهار رأيه فيها توفيقاً للقاعدة الإسلامية التي هي أسمى و أبلغ قاعدة سياسية ، و هي (كلكم راع ، و كلكم مسؤول عن رعيته) .

ما هي الحكومة؟؟ هل هي سلطة امتلاك فرد لجمع يتصرف في رقابهم و يتمتع بأعمالهم ، و يفعل بإرادته ما يشاء؟ أم هي وكالة تقام بإرادة الأمة لأجل إدارة شؤونها المشتركة العمومية؟ ما هي الحقوق العمومية؟؟ هل هي آحاد الملوك ،

¹ نفس المصدر السابق .

ولكنها تضاف للأمم مجازاً؟ أم بالعكس ، هي حقوق جموع الأمم ، و تضاف للملوك مجازاً ، و لهم عليها ولاية الأمانة و النظارة على مثل الأراضي و المعادن ، و الأهر و السواحل ، و القلاع و المعابد ، و الأساطيل و المعدات ، و ولاية الحدود ، و الحراسة على مثل الأمن العام ، و العدل و النظام ، و حفظ و صيانة الدين و الآداب ، و القوانين و المعاهدات و الاتجار ، إلى غير ذلك مما يحق لكل فرد من الأمة أن يتمتع به وأن يطمئن عليه ؟ هل للحكومة التصرف في الحقوق العامة المادية و الأدبية كما تشاء بدلاً و حرماناً ؟ أم تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوي و الشيوع ، و تكون المغام و المغارم العمومية موزعة على الفصائل و البلدان و الصنوف و الأديان بنسبة عادلة ، و يكون الأفراد متساوين في حق الاستنصاف؟؟ هل الحكومة تملك السيطرة على الأعمال و الأفكار ؟ أم أفراد الأمة أحرار في الفكر مطلقاً ، و في الفعل ما لم يخالف القانون الاجتماعي ، لأنهم أدرى بمنافعهم الشخصية ، و الحكومة لا تتداخل إلا في الشؤون العمومية ؟ " ١ .

بطرس البستاني : أديب و كاتب و مفكر و باحث لبناني ، من بلدة دبيّة أو ضبيّة المارونية من منطقة الشوف ، يعد من زعماء النهضة العربية لناحية الفكر و التنوير العقلي العلمي ، هو ليس مفكراً إصلاحياً ثائراً ، بقدر ما هو معلم و ناشر للعلم و الوعي و اليقظة الفكرية المعرفية من منطلق اجتماعي بعيداً عن نطاق السياسة و مشاكلها و إرهاباتها ، يغوص في أعماق المستنقع الاجتماعي الآسن بوحول الجهل و الخرافة و المرض ، ليحاول تطهيره و إعادة تنقيته و تعقيمه من الداخل بشتى السبل ، يستخدم الخدمات الاجتماعية للتعليم و نشر العلم ، فقدم بذلك فوائد جمة لا تحصى للمجتمع و المنطقة ككل .

^١ المصدر السابق ، باب (الاستبداد و التخلص منه) .

نشأ بطرس البستاني في أسرة مارونية على درجة من اليسر المادي و الاهتمام بالعلم و الاشتغال بالعربية ، فيسرت لولدها طلب العلم و النهل من ينابيعه الأساس و كتبه الأمهات . درس الولد بداية أمره في مدرسة (عين ورقة) المشهورة آنذاك و تعلم فيها لغات عدة منها اللاتينية و السريانية و الإيطالية كما درس إلى جانب ذلك علوم الفلسفة و اللاهوت و العلوم الكنسية . و عندما أنهى دراسته المهمة تلك ، بم وجهه شطر بيروت ، و هنالك صودف وجود بعثة تبشيرية لبعض الكنائس الإنجليزية الأمريكية ، التي قدمت بصفة إرساليات علمية و تعليمية و طبية . و قد جلبت هذه البعثة معها إلى المنطقة أول مطبعة و هو ما كان حدثاً فريداً من نوعه . و نظراً لمحبة بطرس البستاني للعلم و العلماء ، و المعرفة و ما يختص بهما ، و حيث أن تلك الإرساليات الإنجليزية ، كانت بحاجة إلى مترجمين و معلمين يعلمونهم العربية و مساعدين لهم في أمور الطباعة و نشر المعرفة ، فإن ذلك ما كان يستهوي البستاني بالضبط و يمثل له غاية المرام ، فتطوع معهم ، يعلمهم العربية و يترجم لهم المقالات و الكتب و المخطوطات ، و في الوقت نفسه ، كانوا يستعينون به في أمور المطبعة و الطباعة ، بعد أن دربوه على كيفية استخدامها ، فكانت تلك هي البداية الفعلية الحقيقية لانطلاقة ذلك الشاب و تفجر طاقاته في نشر العلم و المعرفة ، و خدماته الجليلة الكبيرة التي قدمها في هذا المجال ، حيث أنشأ جريدة (نفيير سورية) و هي أول جريدة وطنية ، دعا فيها إلى الوحدة الوطنية ، فكان الرائد السباق في هذا المجال و هذا المفهوم ، فكانت كل مقالاته و فكره تنحصر في بوتقة الوطن و الوطنية و العلم و المعرفة . و قام بعد ذلك بإنشاء صحف و جرائد متنوعة ما بين السياسة و الفكر و الأدب و الاقتصاد ، كانت من أهمها ، جريدة الجنان ، و بلغت الوطنية منه مبلغاً أنه كان يضع على مقدمة صفحات جرائده ، شعاراً يقول (حب الوطن من الإيمان) و هو أمر يندر في أيامنا هذه من يقوم به أو يطبقه و يجعله شعاره . و لم يكتف البستاني بالاختصار على الجانب النظري التنظيري في الوطن

و الوطنية ، بل انتقل به إلى الجانب العملي ، حيث قام بإنشاء مدرسة تعليمية راقية سماها (المدرسة الوطنية) كانت أسماً على مسمى حيث دخلها و درس فيها و نهل العلم منها ، مختلف الطلاب و التلاميذ من مختلف الطوائف الدينية و غيرها ، لا تفريق فيما بينهم إلا بالعلم و المعرفة . و بلغت شهرة هذه المدرسة مبلغاً ، أن بدأ يتوافد إليها الطلاب من المناطق و البلدان المجاورة ليتعلموا فيها اللغات و العلوم التطبيقية و الطبية بالإضافة إلى الوطنية و حب الوطن . و لم يكتف هذا العالم الجليل القدر ، بذلك المقدار من النجوم في العلم ، بل عمد إلى الكتابة و التأليف و وضع الكتب و المخطوطات و منها كتاب (أدباء العرب) أحد المراجع النفيسة القيمة لكتابنا هذا .

أما أهم ما تركه هذا العالم الكبير من مخطوطات و مؤلفات ذات أثر في العلم و المعرفة ، فهو موسوعة (دائرة المعارف) التي وقعت في مجلدات كبيرة متعددة ، و جمعت في نواصيها مجمل الفروع العلمية و الفكرية الاصطلاحية ، و حوت في متونها ، الشروحات الكافية الشافية .

كما قيض أن يكون له عمل آخر لا يقل أهمية عن العمل الأول ، و هو قاموس أو معجم (محيط المحيط) و هو أول قاموس عصري ، و قد وقع آنذاك في مجلدين كبيرين جمع فيهما كل ما وجد في تلك الفترة من معانٍ و كلمات و مصطلحات في شتى المجالات . و لا يزال إلى الآن أداة للطلاب و النحويين و الدارسين ، و قد نال على هذا العمل الكبير الوسام المجيدي السلطاني .

الطباعة (الصحف و الدوريات و الكتب) :

كان للطباعة ، أثر كبير جداً في انتشار الفكر العربي التأسيسي ، بالعالم العربي . فلولا الطباعة و ما أنتجته من صحف و دوريات و منشورات و كتب ، لبقى الفكر العربي الوليد ، محض ظاهرة صوتية متخذة في نطاق ضيق و حيز محدود ، سواء على المستويين .. الجغرافي و الاجتماعي . و لربما أدى ذلك فيما بعد ، إلى خنق هذا الفكر ، بالرغم من وجود دعائه و القائمين عليه . فهو فكر قد

وُجدَ وُخِلَقَ في جو انخراط ظلامي معتم ، و بحر جهل متلاطم الأمواج مكفهر
الهيئة و الخلقة ، و ما كان لأي مفكرٍ داعٍ ، مهما بلغ من قوة المنطق و صدق
النية و زخور العلم و المعرفة ، أن يجد انتشاراً لما دعا إليه من الفكر و المعرفة ،
و ثبتاً لهما ، لولا أن يتحول فكره هذا إلى مادة مطبوعة على وريقات ، قلت أو
كثرت ، تُستنسخ مئات المرات ، و ربما آلافها ، و تنتشر في الأصقاع و يقرأ
النسخة الواحدة منها ، العدد الكذا من الأشخاص ، كل نفر منهم يرددها و
ينقلها ظاهرة صوتية لتتلقفها آذان العدد الكذا الأخر من الناس . فانظر رعاك
الله و حفظنا و إياك من نوائب الدهر و مجاهل صروفه ، إلى هذا الأثر الكبير
الذي أحدثته الطباعة في العالم العربي آنذاك ، من نهضة فكرية و علمية ، و تخيل
هؤلاء المفكرين الكبار الذين تحدثنا عنهم في المادة السابقة ، أنه لم يتيسر لهم
طباعة ما آمنوا به من أفكار و تحصلوا عليه من معرفة و علم ، كيف ستكون
حالة معرفتنا بهم ، بل حالة الفكر ككل !!؟؟ .

و بالرغم من أن أول مطبعة عربية ظهرت في المشرق العام ، قد وُجدت في
الأسطانة و حلب ، على أيدي اليهود المتواجدين هناك ¹ ، إلا أنه لم يتم توحي
الفائدة المرجوة من كل منهما ، بسبب محاربة بعض رجال الدين هناك ، لهذه
الآلة الفريدة من نوعها ، و اعتبارها رجس من عمل الشيطان لا يجوز الاقتراب
منه و التعامل معه ، كونه قد يسكر النفوس و يذهب بالعقول ، تماماً كما هي
الخمرة . و لذلك نستطيع القول باطمئنان .. إن أول مطبعة عرفها العالم العربي
و أدرك آثارها و قطف من ثمارها ، كانت تلك التي استحضرها الفرنسيون
معهم إلى مصر أثناء حملتهم عليها . يقول الجبرتي في تاريخه عن ذلك " إن القوم
(يقصد الفرنسيين) كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية في جميع

¹ الصحافة المصرية في مائة عام ، ص ٧٧ .

دواوينهم و أماكن أحكامهم ، ثم يجمعون المتفرق منها ، في ملخص يُرفع في سجلهم ، بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها في جميع الجيش " ^١ .

بعد خروج الفرنسيون ، ركز محمد علي باشا من ضمن اهتمامه بأمر العلم و الفكر في مصر ، على المطبعة ، و هذا حذو الفرنسيين في ذلك تماماً ، فكان أن قام بإنشاء تسع مطابع ، دفعة واحدة ، في مصر . و تم إصدار أول صحيفة رسمية اختصت بالحاكم و أعضاء الحكومة و النخب من الشعب ، حوالي سنة ١٨١٣ / ميلادية . و كانت بداية عهدنا ، عبارة عن تقارير حكومية رسمية من المناطق المختلفة في مصر ، تختص بالشؤون المالية و الزراعية و الإدارية و العمرانية و نحو ذلك ، يتم تجميعها مرة كل شهر ، و تقدم كتقرير رسمي إلى محمد علي باشا يُقرأ عليه .

و قد أُطلق على هذا التقرير اسم (جورنال خديوي) الذي كان يطبع في مطبعة القلعة ، بنسخ يناهز عديدها المائة ، و يقوم بالإشراف عليها ، لجنة من أشخاص معدودين سميت (ديوان الجورنال) يقوم عليهم شخص برتبة (أفندي) يسمى (ناظر التقارير) و هو بمقام رئيس التحرير حالياً . كانت (الجورنال) تلك تشتمل في عموم مضامينها ، على الأخبار الحكومية و الرسمية ، و بعض من قصص ألف ليلة و ليلة ، بغرض تشويق القراء و نزع الملل عنهم عند قراءتها .

بعد ذلك بمدة ، ارتأى محمد علي باشا ، أن يوسع نطاق تلك الصحيفة لجهة المضمون و الانتشار ، و بخاصة بعد إيفاد البعث العلمية إلى الخارج ، وإنشاء المدارس التعليمية في الداخل ، كي تتم مواكبة تلك الأحداث فكراً و علمياً ، على المستوى الشعبي و الاجتماعي ، فأصدر أوامره سنة / ١٨٢٨ / ميلادية بترقية (الجورنال خديوي) إلى إصدار جديد أطلق عليه (الوقائع المصرية) و هي نسخة مطورة موسعة من سابقتها الأولى ، و أوعز بالوقت عينه ، أن يتم

^١ المصدر السابق .

توزيع جريدة (الوقائع المصرية) على أمراء و أفراد الأسرة المالكة و على موظفي القصر و الدولة و على العلماء و رجال الدين و الشعب عموماً . أما طلبة العلم داخل مصر و خارجها ، فقد أمر أن توزع عليهم بالجمان ، معتبراً أن قراءتها من قبل هؤلاء ، هو عامل مهم لكي يكونوا رجال علم و فكر و دولة ، في المستقبل القريب .

و قد بلغ من اهتمام محمد علي باشا ، بهذا الأمر ، أنه كان معظم الأحيان ، يراجع مسودات الصحيفة قبل ذهابها إلى المطبعة ، (حيث تقرأ عليه) و يدقق في كل خبر من أخبارها ، و التي كان من أهمها .. أخبار الوالي و السلطة الحاكمة و الدولة ، و أخبار النهضة العلمية و الفكرية التي تحصل بمصر بالاختصاصات كافة ، و أخبار أمور الزراعة و الصناعة و الأمور الاجتماعية و أخبار الجيش . و عندما استلم رفاة الطهطاوي إدارة (الوقائع المصرية) ، عمل على ترقيتها بشكل أوسع و أفضل مما كان ، و تطويرها و بث الأبواب و الفصول العلمية و الفكرية فيها .

ثم تلا ذلك مجلة (روض المدارس) التي اقتصت بالعلوم في مختلف المجالات ، كالطب و الفلك و الجغرافيا و التاريخ و الكيمياء و غير ذلك . و قد تميزت جريدة (روض المدارس) بأنها سمحت للمتميزين من الجمهور بالكتابة فيها و أن يعبروا ، كل ، عما يختلج في دواخل نفسه من مشاكل و هموم و أفكار ، فكانت بذلك ، فسحة من فسح الديمقراطية ، ربما تظهر لأول مرة في العالم العربي ، كفكرة و مفهوم ، و إن لم تتبلور كمصطلح تعريفي .

ثم ظهر في عهد الخديوي إسماعيل ، مجموعة من الصحف الوطنية التي خاضت إلى جانب الوضع الداخلي ، خاضت غمار السياسة ، الخارجية و الداخلية ، و كانت في بعضها ذات طابع مصري أو عروبي اتجه لمهاجمة العنصر التركي العثماني و تعريته كاحتلال غريب لم يجلب للعرب و المنطقة ، بما فيها مصر ، سوى الكوارث و المآسي و التخلف . فنشأت صحيفة (وادي النيل) عام

١٨٦٧ / ميلادية ، و هي جريدة شعبية علمية أدبية سياسية^١ . و كذا الأمر ، صدرت بعد سنتين ، صحيفة (نزهة الأفكار) التي كانت صحيفة عروبية عادت العنصر العثماني و التدخل الأجنبي ، و كان لها مساحة من الحرية ، قل نظيرها . و استغلت هي ذلك و قامت بواجبها خير قيام . تلا ذلك بعد ست سنوات ، الصحيفة المصرية الشهيرة التي لا زالت إلى اليوم ، إلا و هي صحيفة (الأهرام) التي صدرت عام / ١٨٧٥ / ميلادية و كانت لصاحبها السوري الأصل (سليم تقلا) المفكر الهارب من بطش العثمانيين في بلاد الشام ، و عندما طلب الترخيص لإنشائها ، اشترطت عليه (نظارة الخارجية) بداية الأمر ، عدم الخوض في الأمور السياسية ، لكنها ما لبثت بعد ذلك أن اشغلت بالأمر السياسي و انخرطت حتى العظم في الشؤون السياسية و ناقشت أموراً بمصداقية و عدالة نقدية ، و تصدت لمظاهر الفساد و مواطن الخطأ في السياسة و مفاصلها . و في عام / ١٨٧٧ / ميلادية صدرت صحيفة (الوطن) و هي صحيفة سياسية أسبوعية . و صحيفة (مصر) لصاحبها أديب إسحاق .

و في بلاد الشام ، تأخر الوضع الصحفي و المطبعي ، بسبب الرقابة الصارمة الخائفة على الصحافة و المطبوعات من قبل العثمانيين ، فاقصرت الصحف القليلة العدد و الانتشار ، قياساً لما هو عليه الحال في مصر ، اقتصرت على الجوانب الفكرية الأدبية أو العلمية البحتة كجريدة (نفيير سورية) لبطرس البستاني ، فضلاً عن قلة المطابع في بلاد الشام ، قياساً لمصر ، و ربما كان ذلك عمداً متعمداً من قبل السلطات السياسة العثمانية التي بدأت تعاني من الضغوط و الحروب الخارجية ، و الثورات الشعبية الوطنية في البلاد التي تحتلها .

إن الأثر الفكري الكبير الذي قامت به الصحف و الدوريات ، هو أنها ساهمت إلى حد كبير ، بإيقاظ الفكر الشعبي العام ، فهي قد اقتصت بالجمهور أكثر منه

^١ المصدر السابق ، ص / ٢٦ .

النخب التي كان لها دورياتها المتخصصة و كتبها . و ذلك نتيجة للسمات الديناميكية التي قامت عليها الجرائد والصحف قياساً للكتب و المخطوطات ، فهي أولاً .. كانت تلامس القضايا الشعبية و قضايا الجمهور العامة و مشاكلهم ، و كانت تصدر بطريقة تحببهم في قراءتها و الإقبال عليها ، من مواد مشوقة و قصص شعبية ، أو مواعظ دينية تختلط مع الأفكار و القضايا الهامة ، فضلاً عن السلاسة في المادة التعبيرية ، ما يسهل هضمها من قبل الجمهور ، و يسهل إيصال الأفكار المراد إيصالها إليه . ثانياً .. صدورها بفترات دورية قصيرة التباعد فيما بينها .. أسبوعية أو نصف شهرية أو عشرية ، و فيما بعد ، يومية ، ما يسهم في وجود اتصال فكري دائم متواصل . ثالثاً .. انتشارها الواسع ، حيث أنها كانت تطبع بكميات كبيرة للعدد الواحد ، و توزع في مساحة جغرافية كبيرة . فضلاً عن تغلغلها و تواجدها في الأماكن الشعبية و المكتظة ، كالأسواق و محال الباعة و الحلاقين و أصحاب المهن و المزارعين ، ما أمّن وصولها إلى القاعدة الشعبية و هو غاية المرام بالنسبة لها . رابعاً .. أسعارها الزهيدة ، أو في أسوأ الأحوال ، المقبولة .

لقد ساهمت الصحف و الجرائد ، مساهمة فعالة قد تكون مستأثرة ، في إعادة صياغة و تشكيل هوية الفكر العربي الشعبي في القرن التاسع عشر ، فأعادت قولبته و ترميمه مما لحق به من انهيارات فكرية علمية جعلته قبل ذلك ، خربة من خرائب الجهل و الفساد الفكري . كما ساهمت مساهمة كبيرة فعالة في إعادة صياغة و تشكيل الهوية الوطنية و القومية للإنسان العربي ، ما مهد الطريق فيما بعد لإحداث هوة فكرية فيما بين العنصر العربي و بين العنصر التركي الذي كان قد تماهى إلى أبعد الحدود ، مماهاة فكرية و دينية و حتى وطنية ، مع العنصر العربي ، كان من الصعب و شبه المستحيل فك ارتباطها ، و في بعض الأحيان التمييز حتى بينها . و أيقظت الحس و العقل العربي الشعبي القاعدي ، على ما

يتعرض له من مظالم و ما يحيط به من أحداث تتعلق به مباشرة و تمسه دون أن يشعر بها أو يدرك أسبابها ، فيعدها حادثاً عادياً طبعياً .

لكن الأثر الكبير و الهام الذي قدمته الصحافة العربية آنذاك ، هو أنها على الطرف المقابل الآخر ، قد قربت الهوة فيما بين القاعدة الشعبية و جمهور العوام ، و بين النخب الفكرية التي هي من جنسها القومي ، فحولت العوام الرعاع الجهلة الأميين إلى أشباه مثقفين ، و في أسوأ الأحوال ، تركت فيهم أثراً فكرياً تفكيرياً في آن معاً . فلم يعد المواطن الأمي الجاهل ، يعد نفسه ، نسياً منسياً خارج حدود الزمن و الكون ، بل بدأ يشعر في ذاته و لو في اللاوعي ، أنه كائن له هوية و يتبع لهوية ، و له عمل ما ، يقوم أو يجب أن يقوم به . فأضحت النخب الفكرية العربية تطرح موضوعاً و قضية فكرية معينة . . إصلاحية كانت أم اجتماعية أم وطنية ، فتجد لها آذاناً صاغية واعية من القواعد ، تفهمها و تعمل بموجبها و في أسوأ الحال ، تفهمها و تقبلها .

خاتمة في الفكر التأسيسي :

لقد برز الفكر العربي التأسيسي في القرن التاسع عشر ، كحالة واضحة المعالم ، متبلورة ، عرفت عن نفسها بنفسها . فهذا الفكر كان يعي نفسه و يبرز عن وعي و إدراك ، فهو لم تصنعه الصدفة العفوية للأحداث اللاإرادية ، بل نتائج الأعمال و المفاعيل المقصودة ، ذات الأصل و التدبير . هو فكر لم يكن يعي ذاته و وجوده فقط ، بل كان يعي واجبه و قدسية أهدافه و نتائجه إن تحققت ، فاتجه إليها رأساً و عمل لأجلها دؤوباً . هو فكر لم يفتح له القمقم عبثاً ، أو سهواً أو خطأً غير مدرك النتائج و الآثار ، بل على العكس من ذلك ، توضح لنا الأحداث السابقة أن الذي فتح القمقم للفكر العربي آنذاك ، كان يعرف تمام

المعرفة و يدرك تماماً الإدراك ، أنه سيخرج منه مارداً عملاقاً جباراً ، ذو بأس و قوة شديدين ، و آثار قوامة خلاقه و كذا كان الأمر .

الفكر التأسيسي العربي ، هو فكر غير متكلف الصنعة ، لا يخلق الأحداث بالضرورة ، بل تخلقه الأحداث و المفاعيل بمعظم الأحوال ، و تصنعه صيرورتها و تظهره ، ليتجه إليها مباشرة ، يحوم حولها و يجسها ، ثم يبدأ بمعالجتها معالجة حقيقية صادقة ، لا يماري فيها عليية القوم و لا يخشى سطوتهم ، و هو أن حامل أحياناً ، فإنه لا يلبث أن يعاود الكرة من جديد مهاجماً ربما بعنف أقسى من السابق ، فيعري الحوادث و القضايا ، و يعرفها مشخصاً مفصلها و بنودها و غاياتها و أهدافها و آثارها الجانبية الحالية ، و المتأتية المستقبلية ، فهو فكر توصيفي تقويمي ، يبين المشاكل و يقوم بحلها أو يطرح الحلول لها ، فهو فكر إصلاحى .

الفكر العربي التأسيسي ، هو فكر يتناول أسباب الحضارة البشرية و تطورها ، و أسباب تقدم الدول القوية المتحضرة و التي مثلتها آنذاك أوروبا ، فيصور عادات شعوبها الإيجابية و أخلاقهم الاجتماعية البناءة المفيدة ، و علومهم و صناعاتهم و فكرهم النير ، و طريقة تفكيرهم و معالجتهم للأمور و المفاهيم و الحوادث ، و مبعث قوتهم و تقدمهم و آلة ذلك . و يحاول قدر الإمكان استيراد هذا كله و إنشاؤه في المجتمعات العربية و تعريفه لسواد جمهورها ، فهو إذن .. فكر تقدمي بناء .

الفكر العربي التأسيسي ، هو فكر مليء بالأحداث الواقعية الحقيقية البسيطة و المعقدة بآن معاً و الموجودة على أرض الواقع كحالة أصلية أصيلة متأصلة معاً لا انفصام بينها ، و بالتالي هو فكر لم ينطلق من وهم و لا اعتمد على وهم و لا ارتكز على شعارات وهمية ، و لا اعتمد منهج غش المواطن و تضليله ، بل كان فكر الصورة و الواقع .

الفكر العربي التأسيسي هو فكر مناضل ، إن تلقى الدعم في بعض بداياته و بعض مراحلہ ، فإنه بالمقابل تعرض في بعض مراحلہ ، لحمالات تمهيش و كبت و قتل و احتثاث و وأد في المهذ و محاربة على الصعد كافة ، تراوحت بالمختصر المفيد ، من التضييق الخفيف إلى التصفية المباشرة ، و لا نقول أن هذا كان بالجمل ، و لكن لجهة الجانب السلبي ، و لننظر إلى مصير كبار دعائہ و منظريه كالأفغاني و محمد عبده و الكواكبي و رفاة الطهطاوي و غيرهم كثر .

هوية الفكر العربي التأسيسي ، في أساسه و صميم تركيبه ، هوية فكر مناضل كادح كدحاً ، لإصلاح الأمة و نهوض المجتمع و تطوير الدولة .. لقي الدعم من بعض الدولة و السلطات الحاكمة العليا ، في بعض الزمن و بعض مفصل التاريخ ، فاستثمر هذا الدعم خير استثمار و بالوجه الأمثل و الطرق الصواب الصحيحة ، فأثمر ثمرات يانعة أتت أكلها كل حين ، فهو إذن .. فكر معطاء ، و فكر حلوب ذرّ الخير مدراراً .. و بالرغم مما عانى من الصعوبات و المشقات فإنه التفّ عليها و تجاوزها . فهو فكر يبرز و نما في ظل احتلال أجنبي غاشم ، همه محاربة أي شكل من أشكال الفكر و وأده و احتثائه من جذوره ، و مجتمع جاهل قابع في مستنقع الأمية و التخلف . و تبعاً لذلك يصح القول لدينا أن ..

الفكر العربي التأسيسي شكل قمة المد في قمة الجزائر .

الفكر العربي التأسيسي ، نفرّ من صلب مفكرين دعاة ، كانوا حق المفكرين و حق الدعاة ، أبناء بجدة العلم و الثقافة و الفكر ، بجدوا بها منذ نشأتم ، فكانت بجدتها فيهم و عندهم . ما كانوا متطفلين على الفكر و لا أذعياه و لا متشدقوه و لا متمظهروه . أعطوا جل وقتهم و همهم و حياتهم للفكر و العلم و المعرفة ، و بذلوا لأجل ذلك الغالي و النفيس ، تشرّدوا في الأمصار و الأصقاع .. طواعية أو قهراً .. ارتحالاً أو نفيّاً . عملوا على غشيان الفكر من نواصيه كافة ، فكانوا المعلمين و المدرسين و الواعظين و أصحاب الصحف و الجرائد و

المدارس . خالطوا الناس مخالطة ، أحببهم بها في حياتهم ، و بكوا عليهم فيها عند مماتهم . كانوا حريصين على نشر العلم و إيشاؤة في مجتمعاتهم ، و إلقاؤة إلى تلاميذهم وطلابهم مرديهم ، حرص الناقاة على فصيلها ، لم يتفوقوا في أبراج عاجية أو يتمرسوا خلف حجب و جدران طائفية أو مذهبية أو عشائرية بل وضعوا ذلك كله خلف ظهورهم و تجاوزوه و مرقوا فيه مرق السهم من الرميّة .

الفكر التأسيسي الفكري العربي ، هو فكر عامل لا حامل . بمعنى أنه فكر منتج ، فكر نتاج و إنتاج .. نتاج من شيء أو حدث ، لينتج شيء أو حدث ما ، و المفكر آنذاك ، تميز بأنه مفكر عامل لا مفكر حامل ، يتواجد في القصور و بيوت الأغوات و الذوات ، و يتواجد في الشوارع و المقاهي و الأزقة ، يراقب و يحلل و يشرح و يملئ و يتحدث ، يأخذ من هنا و هناك ، يمزج ما بين هذا و ذاك ، لا يتورع عن أن يأخذ الفائدة و المكسب الخير أينما وجدته و من أي يوجد عند ، أعربياً كان أم أعجمياً لا فرق عنده ، يعتمد المحاكاة الواقعية الفعلية العميقة و الضمنية ، لكل عامل من عوامل الحضارة الأوروبية و مظهراً من مظاهر قوتها ، لا حرج في ذلك و لا تثريب عنده . الفكر العربي التأسيسي هو فكر القضية و الحدث ، و المفكر آنذاك ، هو مفكر القضية و الحدث .

هذه هي هوية الفكر العربي التأسيسي ، فما هي هوية الفكر العربي المعاصر؟؟؟

..

الفكر العربي المعاصر

قلنا أن الفكر التأسيسي العربي الذي نشأ مع بدايات القرن التاسع عشر ، و نجم حتى بدايات العشرين الأول من القرن العشرين ، كان فكراً صاعداً خلاقاً . و كذا الأمر ، كان فكراً تأسيسياً ، كونه قد وضع الأسس الأولى للفكر العربي المعاصر ، و أسس له و لنشئته ، و غير من الهوية الفكرية للمنطقة ككل ، و أسس لها كي تكون جاهزة و مؤهلة ، للدخول في مضمار الحضارة الإنسانية و العلوم المعرفية و التقنية التي كانت تضرب الناقوس ، إيذاناً بدخولها المتسارع المتطور في مجال الوجود الإنساني و العلاقات الإنسانية و الدولية و تحكّمها بكل مفاصل الحياة البشرية ، لا بل الحياة على وجه الأرض و الفضاء ، معلنة أنها لا ترحم و لن ترحم إلا من امتلك زمامها و أمسك بناصيتها . فقد أضحت التقانة العلمية و التكنولوجية في الزمن الحالي ، زمن القرن الواحد و العشرين كما هو حال فانوس علاء الدين أو خاتم سليمان ، من حاز عليه و امتلكه ، تحكّم بمن لا يملكه و سيطر عليه سيطرة تامة . و بالتالي ، أضحي من لا يمتلك هذا الخاتم السحري ، واقعاً تحت رحمة من يمتلكه ، إن شاء رحمه ، و إن شاء ، لم يفعل . و نحن قد أطلقنا على الفكر العربي التأسيسي في القرن التاسع عشر ، صفة التأسيس ، و نعتناه بالتأسيسي ، لأنه من المفترض أن يؤسس لما بعده من فترات لاحقة اختلف فيها المناخ السياسي و الاجتماعي و الفكري و الإيديولوجي ، بل و حتى الديني ، و الذي يفترض أنه في الربع الأول للقرن العشرين ، قد نحا باتجاه الأفضل . ذلك بالارتكاز على عوامل عدة أسهمت في ذلك ، كان من أبرزها :

١) — زوال الاحتلال العثماني عن المنطقة العربية بعد حكم دام أربعة قرون ، عانت فيها المنطقة ما عانت ، من الأمرين و الأقطعين . و بزوال العثماني عن المنطقة ، ظهرت هنالك فسحة للعروبة و الوطنية بأن يبرزوا للعلن بشكل أفضل ، و على وجه الخصوص ، بعد ارتباط الجلاء العثماني عن الأرض العربية ، بما سمي الثورة العربية الكبرى التي كانت بدعم مباشر من الإنكليز للشريف حسين ، شريف مكة و الذي لقب نفسه (ملك العرب) و عرف عن ثورته ، بأنها ثورة عربية ضد المحتل العثماني التركي الغريب عن الأرض العربية . و قد سبقت هذه الثورة أو هيأت لها (إن صح التعبير) الجمعيات العربية السرية و التي كانت نتاج مباشر للفكر العربي التأسيسي ، فكان من أهم أهدافها الرئيسية ، نفض نير الاحتلال العثماني عن الأرض العربية و الدعوة للعروبة و الفصل فيما بين العنصر العربي و العنصر التركي و اعتبار كل منهما ، أمة وحده .

كان هذا ، مفصل إيجابي لناحية تطور الوعي الفكري العربي ، و لجهة تطور هوية الفكر العربي المعاصر ، لأن ذلك يعني إعادة صياغة هوية الفكر العربي ، من منطلق العروبة و عنصر القومية ، و كل ما يختص بهما ، من لغة و تاريخ و جنس و عادات و تراث .

٢) — الثورات الوطنية ضد ما عرف بالانتداب الأوروبي الذي خلف الاحتلال العثماني و الذي كان أخف وطأة منه ، بكل الأحوال . و كان أهم حدث ارتبط مع هذه الثورات ، هو الأحزاب الوطنية التي نتجت عنها ، و كانت مفرزاً من مفرزاتها أو العكس يصح . و من هذه الثورات على سبيل المثال لا الحصر .. ثورة سعد زغلول في مصر ضد الإنكليز ، و الثورة الكبرى في سورية ضد الفرنسيين بقيادة سلطان الأطرش ، و الثورة الليبية ضد الإيطاليين بقيادة عمر المختار و ثورة عبد القادر الجزائري في الجزائر و الثورة الجزائرية

الكبرى ، ثورة المليون شهيد التي تلتها فيما بعد ، وغيرها . و التي شكلت حالة وعي وطني للهوية الوطنية ، في وجه من الوجوه .

(٣) — الاستقلال الناجز للمناطق العربية ، من الاستعمار الأوروبي ، ما شكل فارقة تاريخية إيجابية ، للوضع العربي و الهوية العربية ، و هوية الفكر العربي عموماً ، بالرغم من أنها قد تحولت إلى كيانات سياسية ناطقة بالعربية ، سميت تجاوزاً (الأقطار العربية) و شكلت فيما بينها ما عرف فيما بعد باسم (الجامعة العربية) . (!!!!!!) .

(٤) — ظهور ما عرف بعصبة الأمم على أنقاض الحرب العالمية الأولى ، و من ثم هيئة الأمم المتحدة التي ظهرت على أنقاض الحرب العالمية الثانية . و هاتان الحربان قد غيرتا من موازين القوى في العالم و بدلنا المعايير الديموغرافية و الجيوسياسية ، و التشكيلات الفكرية المرتبطة بهما و فصمتا عراها . و من أهم نتائج الأولى منهما ، زوال الإمبراطورية العثمانية و قيام الكيانات السياسية الغير تركية التي كانت خاضعة لها . حتى النظام العثماني كله ، و القائم على منظومة دينية قائمة على نظام الخلافة العثمانية ، قد تغير و حل محله نظام دولة علماني قوي ، تركي العنصر ، انحصر بدولة تركيا الحالية .

أما الحرب العالمية الثانية فقد عادت و غيرت من موازين القوى العالمية ، السياسية و الدولية ، نجم عنها زوال ما عُرف بالاستعمار القديم ، ممثلاً بانكلترا و من ثم فرنسا و إيطاليا و إسبانيا ، و بروز نظام الأقطاب السياسية العسكرية العالمي و أهمها ، المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفييتي و منظومة الدول الاشتراكية الشيوعية ، يقابلها المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة و منظومة الدول الغربية ، و عمل ذلك على إحداث نوع من توازن استراتيجي عالمي ، شكل نوع من الاستقرار السياسي العالمي ، ما ترك مناخاً مساعداً على نمو و ثبات المنظومات الفكرية بعامة للأمم و الكيانات السياسية و الاجتماعية .

(٥) — إفرازات الحربين العالميتين ، الأولى و الثانية ، للمواثيق و الأعراف و المعاهدات الدولية ، كان أبرزها ، الميثاق العالمي لحقوق الإنسان و الدول و الشعوب . كل ضمن إطار قانوني رسمي معترف به .

(٦) — ظهور الثورات الكبرى التي أطاحت بباقي الملكيات و الأنظمة القديمة ، كالثورة البلشفية و الثورة الصينية و ما أحدثته من ارتدادات عالمية نتجت عنها ثورات مختلفة في أصقاع عدة من العالم ، طالت منظومات فكرية قديمة و استبدلتها بمنظومات فكرية أخرى جديدة ، امتدت على نطاق عالمي واسع . و معظم هذه الثورات قام على مبدأ تحرر الشعوب و حق تقريرها لمصيرها ، و هو أيضاً المبدأ الذي اعتمده هيئة الأمم المتحدة .

(٧) — ظهور المنظمات و الهيئات الدولية العالمية و التي كان هدفها الأول و غايتها الأساس ، هو الإنسان و كرامته و حقوقه الطبيعية و المدنية و كل ما يعنى به ويرفع من قدره و مستواه المعيشي و الفكري و العلمي . فظهرت أول ما ظهرت ، منظمة الصليب الأحمر التي كان منشأها الأساس في سويسراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ثم تطورت في القرن العشرين لتصبح منظمة عالمية صبت جل اهتمامها على الوضع الإنساني المتعلق بحالات الحروب و الكوارث الطبيعية و المناطق المنكوبة و نحو ذلك و كان من أهم ثمار هذه المنظمة الإنسانية الرائدة الكبيرة ، ما عرف باتفاقية جنيف العالمية التي اهتمت بأسرى الحروب .

و بالإضافة إلى تلك المنظمات المدنية ، ظهرت هنالك منظمات أخرى دولية أهمها ما انبثق عن منظمة الأمم المتحدة كمنظمة اليونسكو العالمية التي اهتمت بمجال الثقافة و التربية و التعليم و الفكر . و منظمة اليونيسف التي تعنى بالطفولة و حقوق الطفل ، و منظمة حقوق الإنسان و منظمة العفو الدولية ، و منظمة الغذاء و الزراعة العالمية ، و منظمة العمل الدولية ، و محكمة العدل

الدولية ، و منظمة الصحة العالمية . يضاف إلى ذلك الاتفاقيات و المعاهدات العالمية الدولية .

هذه العوامل و المتغيرات العالمية الدولية الجديدة ، هي ذات أثر كافٍ تماماً ، ليكون الفكر العربي المعاصر ، خير خلف لخير سلف . فهل كان الفكر العربي المعاصر ، كذلك؟؟ و هل حمل لواء الرسالة التي استلمها من سلفه؟؟ و هل كان أهلاً لحفظ الأمانة التي أداها إليه الفكر التأسيسي الذي سبقه بقرن من الزمان؟؟ .

بإلقاء نظرة عامة شاملة سطحية ، من الخارج ، تليها نظرة خاصة داخلية متعمقة في هذا الزمان الحالي الذي نحن فيه الآن ، هذا الزمن العربي الرديء الذي وصلت إليه أمة العرب ، إلى أدنى مستوى من الإنحطاط ، قارب ربما ، مستوى القرون الوسطى .. نصل إلى نتيجة واضحة ساطعة مؤداها أن الفكر العربي المعاصر ، هو شر خلف لخير سلف ، و أنه فكر أسقط الرسالة و خان الأمانة . و هذه نتيجة تقع على هذا الفكر و على كل ما يرتبط به من مؤثرات و علاقات و عوامل ارتباط ، لا يستثنى من ذلك السلطة الحاكمة و عموم الجمهور .. شأن ذلك ، شأن الفكر العربي التأسيسي و ما ارتبط به من العوامل و المؤثرات إياها .

و إنه لأمر يثير العجب العجاب ، للوضع الذي وصل إليه الفكر العربي المعاصر ، في حالة من الزري و الازدراء ، لم يسبقه إليها فكر قط ، لا في الزمن السابق و لا الزمن اللاحق ، ذلك قياساً للمعوقات التي هو عليها ، و الموجبات التي قيضت له . و إذا كنا قد قلنا فيما سبق من سرد ، أن الفكر العربي التأسيسي قد شكّل قمة المد في قمة الجزر ، فهذا نحن هنا بالمقارنة مع الفكر العربي المعاصر نقول .. إن هذا الأخير قد شكّل قمة الجزر في قمة المد .

و حتى نناقش الفكر العربي المعاصر ، بصورة صحيحة ، و نتوصل إلى آلية واضحة و دقيقة لتوصيفه و تشخيصه و تحديد هويته الحققة ، لا بد من النظر إلى

الوضع الحالي الذي تمر به المنطقة العربية و الشعوب الناطقة بالعربية ، و الذي هو المحصلة و النتيجة النهائية التي قد تحدد هوية هذا الفكر و تحدد العنوان العريض الذي تقع تحته و ضمنه ، العناوين الفرعية كافة ، لعوامل الفكر الحالي و عناصره المعتمد عليها في دراسته . و حتى نوضح المراد من القول ، و الفصل في الكلام فيه ، لا بد من توضيح بعض المقدمات في خصوص مفهوم الفكر عموماً ، و المفاهيم و العوامل الأخرى المرتبطة به .

من المتعارف عليه تاريخياً ، أن قضية الفكر و مفهومه في أية منطقة أو بقعة من بقاع الأرض ، سواء على مستوى الدول و الممالك ذوات الكيان و الهيكلية السياسية الاجتماعية التنظيمية ، و هو النمط الغالب السائد عادة ، أو المجتمعات الإقليمية المناطقية التي إما أن تكون معزولة أو تشكل تجمعات و جماعات بؤرية واقعة ضمن منظومة سياسية أكبر منها .. هي قضية و مفهوم يمثلان الوجه الحضاري لتلك الممالك و الدول ، في حالة عامة شاملة ، أو تلك الجماعات و المجتمعات ، في حالة نادرة . و طالما الأمر كذلك ، فإن هوية الفكر بالمسقط التاريخي ، تشكل علاقة جدلية مترابطة مع الأمر السياسي ، و كل منهما يعد انعكاساً للآخر ، و بالغالب الأعم ، ما تكون العلاقة بينهما متناسبة باطراد ، أي كلما كانت المنظومة السياسية لدولة من الدول أو مملكة من الممالك ، تعيش وضعها الصحي الخالص و تمثل أوج قوتها ، قابلها ذلك على مستوى المنظومة الفكرية لتلك الدولة .

و لتتضح الصورة أكثر ، نسأل .. ما هي المنظومة السياسية؟؟ و ما هي المنظومة الفكرية؟؟ و نجيب .. المنظومة السياسية لدولة من الدول ، هي حالة تلك الدولة و قوتها من الناحيتين ، السياسية و العسكرية و انعكاس ذلك على العامل الجغرافي فيها ، من حيث كونها ذات سيادة على أرضها و على أرض غيرها ، أو من حيث كونها فاقدة السيادة حتى على أرضها و محتلة من قبل الغير . و هي تعبير عن الحالة العسكرية من حيث كونها تمتلك جيشاً قوياً يحميها

و يزود عن حياض حدودها ، و ما إذا كانت تفرض سلطانها القوي على شعبها و تفرض سياساتها و سطوتها على الدول الأخرى . و هي تعبير عن الحالة الاجتماعية في الداخل ، و ما إذا كانت تمثل حالة مجتمعية صلداء قوية ، مؤمنة بكيونتها السياسية . و هي تعبير عن مستوى قوة الحالة الاقتصادية و المالية لهذه الدولة و مستوى الرخاء الذي يعيشه شعبها ، و ما تستطيع أن تؤمنه لهم من مستويات العيش الكريم اللائق .. هذه هي المنظومة السياسية لدولة من الدول ، قديماً كانت أم حديثاً .

أما المنظومة الفكرية لهذه الدولة ، فهي حالة السوية الثقافية للشعب فيها ، كل طبقة حسب خصائصها الثقافية . و مقدار المستوى التعليمي فيها ، و مقدار المستوى العلمي الذي ينعكس حصراً على مقدار المستوى الصناعي و مقدار المستوى الإنتاجي على الصعد كافة . و بالحصلة ذات الأهمية ، الوعي الوطني و مقدار الإحساس بالمسؤولية تجاه الأرض و الجماعة و ليس العصبية .. هنالك فرق هائل و كبير فيما بين العصبية الاجتماعية العرقية أو القبلية ، و بين الإحساس الوطني المجتمعي ، و ليس بالضرورة من يتعاطى بالأولى ، أن يكون لديه أدنى إحساس أو إدراك بالثانية . هذه العناصر ، مرتبطة بعضها مع بعض ، هي التي تشكل المنظومة الفكرية .. هذه هي المنظومة الفكرية لدولة من الدول ، قديماً كانت أم حديثاً .

و طبقاً لذلك ، نستطيع القول بسهولة .. إن المنظومة الفكرية ، و الفكر بشكل عام ، هو الوجه الحضاري لأمة من الأمم ، و دولة من الدول ، و المعبر عن حضارتها . و بناء عليه و عليه بناء ، فإنه و عبر التاريخ ، و حيثما كانت الحضارات و المنظومات الفكرية المتقدمة قياساً لغيرها ، كانت الدول القوية و الممالك ذات السيادة ، و الإمبراطوريات الكبيرة الضخمة . و لا تقوم المنظومات السياسية القوية الجبارة أو المترامية الأطراف ، دون منظومات فكرية تؤسس لها و تدعم كيونتها و وجودها . و لنا في التاريخ عينه ، المثل الأكبر

على ذلك ، فحيثما تشكلت أولى الحضارات البشرية ذات المنظومة الفكرية المتقدمة ، تشكلت الممالك و الدول القوية في علاقة تبادلية . كحضارة بلاد الرافدين التي نشأت من رحمها و نشأت هي من رحم ، الممالك القوية آنذاك .. السومرية و البابلية و الآشورية و غيرها . كذلك حضارة مصر القديمة التي تزامنت معها و ترافقت ، دولة قوية عصرية متقدمة ، بسطت سيطرتها على المناطق المجاورة لها . كذلك الحضارة الفارسية العريقة التي ظهرت و نمت في ظل إمبراطورية فارسية قوية يحسب لها ألف حساب ، بسطت سطوتها و نفوذها و سلطاتها ، على ما جاورها من ممالك . كذلك الأمر بالنسبة للحضارة اليونانية التي أنتجت المفكرين الفلاسفة الإغريق كسقراط و أفلاطون و أرسطوطاليس (أرسطو) و غيرهم ، أنتجت و نتجت من .. كيان سياسي قوي وصل ذروته في إمبراطورية الإسكندر المقدوني الكبير التي وصل سلطاتها إلى أقاصي العالم ، و كانت خير مثال للعلاقة بين المنظومة السياسية للدولة ، و المنظومة الفكرية ، كون الإسكندر المقدوني هو تلميذ المفكر و الفيلسوف اليوناني الكبير أرسطو ، و كان يطبق ما تعلمه و تلقاه منه من أفكار ، على جميع الممالك التي افتتحها و الشعوب التي خضعت لسلطانه . و في معظم مراحل و خطوات فتوحاته في العالم ، كان يرسل معلمه أرسطو ، كما كان في تعامله الحضاري مع الشعوب و الدول التي فتحها ، و عمله الدؤوب على إنشاء منظومة تلاقح فكرية فيما بين الفكر اليوناني و فكر تلك الشعوب و الحضارات ، مثال الفاتح المفكر . و تنسحب هذه المقولة أيضاً على الإمبراطورية الرومانية .

إن صحة هذه الفرضية ، يقابلها صحة فرضية انتفاؤها أو عكسها . و هو أمر يعني بكل بساطة ، أن انتفاء إحدى المنظومتين بوجه من الوجوه ، يقود حكماً إلى انتفاء الأخرى بالوجه المماثل ، فإذا انتفت إحدى المنظومتين ، انتفت الأخرى ، و إذا انتفى الوجه الإيجابي لواحدة منهما و ظهر الوجه السلبي ، حصل الأمر نفسه تماماً للمنظومة الأخرى . و لنا في الحوادث التاريخية ، العبرة

الكبرى في ذلك . فمن المعروف أن انتفاء الفكر و المنظومة الفكرية في منطقة جغرافية معينة أو إقليم ، يترافق معه بالتلازم ، انتفاء المنظومة السياسية فيها ، يقاس على ذلك كمثال ، فترة الجاهلية في شبه الجزيرة . و قد رأينا كيف كان الشعر العربي في الجاهلية و الذي هو شكل من أشكال الفكر العربي البسيط آنذاك ، صورة معبرة تمام التعبير عن وضع المجتمع الجاهلي . و العكس الصحيح يتمثل بظهور الدين الإسلامي كمنظومة فكرية في أساسه . و القرون الوسطى و ما تلاها ، خير دليل على ذلك ، و انهيار الأمم و الدول و نشوؤها و ما نتج عنه من ظهور الحضارة الأوروبية ، كله تم بموجب ذلك .

نظرية المنظومة الفكرية و السياسية : إن ما سبق ، يستوجب في مضمونه طرح المعادلة النظرية و التي مؤداها .. **المنظومة الفكرية = المنظومة السياسية** . و البرهان على نظريتنا تلك ، يمكن استحضاره و تثبته بكل بساطة ، من الوضع العالمي الراهن .. فلننظر إلى المنظومة السياسية لأية دولة من الدول أو أمة من الأمم ، بعين التحليل و التمحيص و التدقيق ، نرى صورته و قرينه المطابقين ، في المنظومة الفكرية ، و هو أمر لا ليس فيه و لا مرأ . و إذا بدأنا منذ أول حملة أوروبية على العالم العربي ، و هي الحملة الفرنسية ، نرى الصورة متضحة تماماً .. ينتصر الفرنسيون على العثمانيين ، انتصاراً ساحقاً ماحقاً ، عُزي بالدرجة الأولى ، إلى العامل التكنولوجي أو التقني حيث تفوق الفرنسيون ذوو الأسلحة المتقدمة ، من البنادق و المدافع ، على العثمانيين و مماليكهم ذوي الأسلحة البدائية . و تفوق الفرنسيون أيضاً على خصومهم ، بسبب التنظيم الفكري الحربي العقلاني ، بينما انهزم خصومهم بسبب فكرهم الخرافي الغيبي الخاطئ .

إن التقانة الصناعية ، و من جملتها الصناعة الحربية ، هي نتيجة من نتائج الفكر و المنظومة الفكرية المتقدمة ، و كذا الأمر ، فإن التنظيم الحربي و الهدف السياسي أو العقيدة السياسية و الاجتماعية ، هي نتيجة ثابتة من نتائج المنظومة الفكرية . فالحملة الفرنسية هي في وجه آخر من وجوهها ، حملة كانت مصحوبة بالعلماء و المفكرين و المؤرخين و الكتاب ، حتى قائدها نابليون بونابرت ، هو في وجهه الآخر المقابل للقائد العسكري .. مفكر متعلم خريج الأكاديمية الفرنسية العلمية . إذن .. فهي حملة عسكرية ذات منظومة فكرية قوية ، جاءت من ضمن ما جاءت ، لدراسة مصر و التنقيب عن آثارها و معرفة أحوالها التاريخية الجغرافية ، و محاولة إجراء مقارنة فكرية فيما بين تلك المنطقة و أوروبا ، و خاطب قائدها المصريين فكراً قبل أن يخاطبهم عسكرياً .

بينما على الطرف الآخر المقابل ، نرى النقيض تماماً .. جيش مملوكي متخلف أمي لا يمتلك أية منظومة فكرية تشتمل على الثقافة و المعرفة أو التقانة أو حتى المحاكاة العقلية . ثم قس ذلك على عهد محمد علي باشا الذي انتصر على المماليك و من بعدهم العثمانيين ، حتى وصلت جيوشه الأناضول و شارفت على الأستانة ، و لم يمنعها من ذلك سوى اجتماع الدول الأوروبية ضده . و قس ذلك على ، الحروب أو الأحداث العالمية الحاصلة بعد ذلك ، حتى يومنا هذا ، ترى أن التمرکز الفكري الذي أحد وجوهه العلمي الذي بدوره ، أحد وجوهه ، التكنولوجي ، يكون دائماً حيشماً يتموضع السياسي القوي ، من الولايات المتحدة الأمريكية ، إلى روسيا و الصين و اليابان و هلم جر .

و إذا اعتمدنا بصورة معاكسة ، أمثلة تاريخية على سوية زمنية أقدم من ذلك ، تتضح الفكرة بشكل أفضل . فالمغول الذين اجتاحوا الدول و الممالك و الأمصار و منها المنطقة العربية ، كان أول فعل قاموا به إلى جانب القتل ، هو إحراق الكتب و تصفية العلماء و المفكرين . و لا يمكن تدمير حضارة من الحضارات ، إلا بهذه الطريقة . و من مثال ذلك أيضاً ، أن أحد أباطرة الصين ،

عندما علم باحتياح مغولي وشيك للصين ، كان أول ما قام به من عمل ، هو نقل العلماء والحكماء والمفكرين والكتب والمخطوطات ، إلى أقاصي الصين شمالاً ، حيث من الصعب المستصعب أن تصل إليهم أيادي المغول والتتار ، فبذهاب هؤلاء ، تذهب الحضارة والدولة وتفقد الأمة هويتها .

كان المغول عند دخولهم مدينة من المدن ، حتى تلك غير العربية ، أول ما يفعلونه ، هو جمع الكتب والمخطوطات الموجودة فيها و حرقها وإتلافها ، بالإضافة إلى قتل العلماء والمتعلمين الأكفاء فيها . و لم يرتبط ذكر المغول والتتار ، بالخراب والدمار ، إلا بسبب هذه النقطة بالذات . وإلا .. فكل الغزاة والمحتلين عبر التاريخ ، قد قاموا بمجازر دموية مروعة بحق السكان القاطنين ، و لم ترتبط بهم تلك السمة السوداء ، التي لزمت المغول فقط . إذن .. تبدى لنا الفكرة واضحة قوية ، و النظرة ساطعة جليلة . فالمعادلة .. المنظومة الفكرية = المنظومة السياسية ، صحيحة ثابتة . و بناء على هذه المعادلة و من منطلقها ، نتحدث عن الفكر العربي المعاصر ، و هوية الفكر العربي المعاصر .

إذا نظرنا اليوم إلى الواقع العربي في المنطقة العربية ، و الوضع العربي المزري ، على الصعد كافة .. السياسي منها و الاجتماعي و الديني و الاقتصادي ، كل ذلك بالعين المجردة ، المادي منها و الاعتباري المجازي ، و العقلاني المحايد ، خارج نطاق الغريزة و الطائفة و المذهب ، الديني منه أم السياسي أم الاجتماعي أم غير ذلك . لَعَلِمْنَا أَي مَعْلَم ، ما نحن عليه الآن من انحطاط و تشرذم و تخلف و مرض . بحيث أننا الآن ، لم نعد مركوب الأمم الأخرى فحسب كما كنا سابقاً عبر التاريخ ، بل أصبحنا بالنسبة لها ، أضحوكة لأرجوزة ، و مثال لتندر و استيطاء الحائط و الشرف ، من قبل شعوب العالم كلها ، حتى تلكم التي تعيش في مجاهل الأدغال في أفريقية و جذوع الغابات في الأمازون و كتل الثلوج

في القطبين . و على وجه الخصوص بعد الحوادث الحاصلة الآن فيما يسمى زوراً
و بهتاناً و مغالطةً (الربيع العربي) بينما هو استقامة و صواب و صحاح ..
ربيع الجحيم العربي . و هو آخر ما وصل إليه الإنسان العربي ، حاكماً و
محكوماً ، من مواضع التهلكة و الانحدار ، و آخر ما ناله من المشقة و العذاب
الواقعين عليه منذ أمد ليس بقريب . هو فصل من فصول المهازل و المهاول
التاريخية بالنسبة للمنطقة العربية . و لا ندري إن كان الأخير فيها ، لأن أحداث
ربيع الجحيم العربي و التي لا يعلم إلا الله و من خطط لها ، إلى أين ستودي
بالعرب ، قد حوت في مضامينها و حيثياتها ، كل عوامل و مفاعيل التدمير
الذاتية للعرب ، حيث لا يمكن أن تقوم لهم قائمة بعد الآن . و السبب في ذلك
هو مبلغ الخطورة في هذه المفاعيل الذي يتأتى من أنها و لأول مرة ، مفاعيل
ذاتية داخلية لا علاقة للعنصر الخارجي بها ، أو على الأقل هي تحت واجهة و
يافطة عربية و إسلامية ، بعد أن كانت خارجية جميعها ، تتأتى من العنصر
الخارجي و تخرج من تحت عباءته و تتجلى من يافطته . و لا نقول ذلك من
باب الدفاع عن الحكام العرب أو التهجم عليهم . و من هذه المفاعيل ..

— تخريب البنى التحتية للبلد موضوع ربيع الجحيم العربي و تدميرها .

— تقسيم الكيانات السياسية العربية إلى كيانات صغرى متعددة متشظية ،
متناحرة متصارعة .

— التقسيم الطائفي و المذهبي المصحوب بالحروب الأهلية التابعة له .

— استحضر العنصر الأجنبي و تحديداً العسكري (الناتو) لتدمير البلد موضوع
ربيع الجحيم العربي و تسليمه خيراته و ثرواته ، و دفع فاتورة دماره .

— إشاعة الفوضى و الفساد و القتل و الخراب .

— انطلاق كل المفاعيل السابقة (و هو الأخطر) من هوية فكر و منظومة
فكرية ، عربيين إسلاميين داخلين ، هامين و العمل بموجبهما و مقتضاهما .

من هذه الحوادث ، نستطيع أن نؤسس لتناول هوية الفكر العربي المعاصر .

لقد تحرر العرب منذ أوائل القرن العشرين ، من ربة العنصر الأجنبي و نشأوا أو تم إنشاؤهم ، ضمن كيانات و منظومات اخترعها الأجنبي لهم و فرضها عليهم أثناء الانتداب عليهم فيما عُرف باتفاقية (سايكس بيكو) و التي أفرزت من رحمها دولة إسرائيل في بقعة ضيقة محدودة هي فلسطين ، فاستطابوا هذه الكيانات ، بعد خلاصهم منه و أبقوا عليها . و بمجمل الأحوال ، فإن العرب كانوا افتراضياً ، قد أصبحوا أصحاب قرار سياسي سيادي فعلي كان من المفروض المتوجب عليهم ، السير بواسطة نحو الأفضل ، و بلوغ العتبة الدنيا من حدود حضارة الدول المتقدمة على الأقل .

بينما كانت الصورة الحاصلة ، على النقيض مما هو متوقع للأمر السياسي العربي، نتيجة التطور البشري و نتيجة المؤثرات و العوامل التقنية العلمية التطبيقية و الاختراعات الحديثة التي وصلت إليهم عن طريق الغرب و كانت عاملاً أساساً و أداة مهمة للاستخدام نحو تطوير المنظومة السياسية لكياناتهم و مجتمعاتهم و شعوبهم .

لكن سير الأحداث التاريخية بالنسبة للعرب ، ابتداء من القرن العشرين الماضين تخبر عن انتكاسات خطيرة مستدامة متوالية ، على مدى القرن الماضي و إلى الآن ، تعرضوا لها أو بالأصح ، عرضوا هم أنفسهم عليها ، فنجمت بهم و أمضت آثارها فيهم ، دولاً و مجتمعات .. جماعات و أفراد . ابتداء مما عرف باسم (القضية الفلسطينية) و ما أفرزته من حروب عربية - إسرائيلية ، كانت مجملها لصالح إسرائيل و نتيجتها ، هزائم عربية . يضاف إلى ذلك ، الحروب العربية - العربية ، و الحروب العربية - الفلسطينية . و اقتطاع أجزاء من الأرض العربية أو انفصالها . يضاف إلى ذلك أيضاً ، تاريخ كامل من الصراعات و الخلافات فيما بينهم ، لم تنته فصول مسرحيتها و مهازلها إلى الآن . أيضاً يضاف إلى ذلك ، عدم استفادتهم من الظروف و الموارد الطبيعية التي صودف أن تكون في مكانهم و منطقتهم ، و درت عليهم أموالاً خيالية لم تنهياً

لأمة أخرى غيرهم ، كان من أهمها ، النفط و الغاز الطبيعي ، هذه الأموال التي تم إهدارها هدرًا و صرفت في مهب الرياح .

و منذ استقلال العرب بشئوهم في القرن الماضي و حتى الآن ، لم يتفوقوا على أمر واحد قط ، اللهم إلا سفاسف الأمور الثانوية الفرعية و هملها المتناثرة ذات القشور الشكلية التي لا تغني من فقر و لا تسمن من جوع ، و حتى هذه السفاسف و القشور الشكلية التي اتفقوا عليها ، لم ينفذوا معظمها و لم يطبقوه و يضعوه حيز التنفيذ . و إذا كانوا قد فعلوا ذلك مع بعضه الآخر ، فإنهم سرعان ما ينقضوه و ينكثوا عهدهم به و معه و يعودوا سيرتهم الأولى في ذلك ، حتى المظاهر الصائغة لهويتهم بما سمي (الجامعة العربية) و (القسم العربية) ، كانت عبارة عن مسرحية تمثيلية لا نفع منها و لم تأت بفائدة واحدة عليهم و على مجتمعاتهم ، لا بل على العكس من ذلك ، كانت وبالاً عليهم ، و على وجه الخصوص ، ذلك الكيان المسخ الخلاسي المهجين المسمى (الجامعة العربية) و التي اتضح أنها كارثة كبيرة على العرب ، لم تقدم منذ إنشائها و لو أدنى فائدة واحدة للعرب ، أو تحل أدنى قضية من قضاياهم ، و كانت بكل بساطة ، باباً من أبواب جهنم عليهم و صارت سبباً جوهراً من أسباب دمارهم و تشتيتهم و شرذمتهم و تبعيتهم للغير . لقد أضحى العرب اليوم ، و بالرغم من كل ما توافر لهم من ميزات لتبوءهم مقام الدول القوية الكبرى ، أضحوا أدنى خلق الله أقواماً و أضعفهم أركاناً .

و بالعودة إلى نظرية و معادلة المنظومتين ، الفكرية و السياسية نقول .. إن المنظومة السياسية للكيانات العربية ، هي نتيجة من نتائج المنظومة الفكرية العربية ، و ناتج إظهار من مظاهر مفاعيلها و تأثيراتها . على إن ذلك لا ينفي العلاقة الجدلية أو الآثار التبادلية ، بمعنى أن الواقع المنظومي السياسي العربي ، و إن كان من نتائج الأثر الفكري ، فإنه لم يكن كذلك لأنه خرج من الرحم الفكري أو كان جزئية حتمية من كليته الفكرية ، أي أن المنظومة السياسية

العربية ، لم تخرج من المنظومة الفكرية كمفرد حصري نهائي من مفرزاتها ، بل كان لها استقلاليتها الخاصة بما معزل عن الجانب الفكري . و كما أثر هو عليها كوضع و صورة مظهرة ، كانت هي أيضاً بالمقابل لها الفعل عينه ، و هذا أمر طبعي بدهي يتفق مع معادلة المنظومتين السياسية و الفكرية إياها . و كلمة (معادلة) كمصطلح ، تعني في مضمونها إلى جانب المساواة ، العلاقة التأثيرية التبادلية ، فما يقع على طرف من الأطراف فيها ، يقع ما يقابله على الطرف الآخر لضمان صحة المعادلة و منطقيتها . و رأينا كيف أن المنظومة السياسية أثناء الحملة الفرنسية على مصر و فترة محمد علي باشا ، لم تؤثر فقط في المنظومة الفكرية ، بل كانت هي من خلقها و صنعها و أخرجها إلى حيز الوجود .

و بنظرنا .. في الوضع العربي الراهن ، فإن المنظومة السياسية ، قد أثرت بالمنظومة الفكرية سلباً كي تؤثر الأخيرة بها . أي أنه و للأسف الشديد المخزي ، كانت العلاقة التبادلية المعادلة ، علاقة سلبية بحت . فما هي هوية الفكر العربي المعاصر و التي هي بشكل من الأشكال ، منظومته؟؟ و كيف أثرت و تأثرت بالمنظومة السياسية العربية المعاصرة؟؟ .

من المتعارف عليه أن العامل الزمني المرتبط بالتطور التاريخي ، يغير من الأحداث و المفاهيم و الأفكار و حتى الكيانات السياسية و الاجتماعية و الدينية . فعلى مر التاريخ و الزمن ، أقيمت كيانات كبيرة عملاقة و إمبراطوريات سادت ثم بادت ، و ظهرت أديان و معتقدات فكرية انتشرت ثم انقرضت ، حتى الأجناس البشرية و الحيوانية ، خضعت لقانون التطور هذا و لقانون الانتخاب الطبيعي الذي هو في مضمونه عبارة عن نتيجة مؤداها و مفادها (البقاء للأصلح) . و تبقى المستحاثات العضوية و الأثرية و الفكرية (مخطوطات و نقوش و كتابات و غيرها) دليلاً دامغاً شاهداً على ذلك . و هذه المقولة تقع أيضاً على الفكر ككلمة اصطلاحية لها مدلولاتها و مفاهيمها المقومة لها .

قلنا أن منظومة الفكر التأسيسي العربي ، قد اعتمدت على آثافٍ ثلاث ، هي الأمر السياسي و المفكرين الدعاة و التفانة العلمية المتمثلة بالطباعة و ما تفرع عنها من كتب و صحف و مخطوطات و منشورات و غير ذلك . و هذه الأثافي الثلاث ، أفرزت عوامل و سماتٍ أخرى ، صبغت هوية الفكر التأسيسي و كانت عماداً من أعمدته ، كالمدارس مثلاً ، و حلقات البحث و العلم ، و البعثات العلمية و نحو ذلك ، هذا كله كان في القرن التاسع عشر . أما في القرن العشرين ، فقد تغيرت المفاهيم و عوامل المنظومة الفكرية ، تماماً ، و اختلفت الصفات و التسميات . منها ما بقي و منها ما طواه الزوال ، و منها ما تغير لهيئة و شكل و تسمية جدد ، و منها ما لم يكن موجوداً ثم ظهر ، و منها ما ارتبط بالتفانة العلمية و المنتجات التكنولوجية و مفرزاتها ، و هو ما أصبح يشكل بحد ذاته ، مفهوماً فكرياً جديداً و تفانة فكرية جديدة ، كالكميوتر مثلاً أو وسائط النقل المسموعة و المرئية و مفرزاتها ، كالراديو و التلفاز ، و أدوات التصوير (الكاميرا) أو التسجيل (الحاكي أو المسجل) . و حتى بعض المفرزات الجديدة ، قد أفرزت هي الأخرى بدورها و أخرجت من رحمها مفاهيم و أدوات ذات سمات اصطلاحية متباينة عنها ، بالرغم من أنها خرجت منها أو بقيت ضمن منظومتها الفكرية أو العلمية ، كالإنترنت مثلاً الذي هو علمياً مرتبط بالحاسوب أو الكميوتر ، و لكن من الناحية الفكرية الوظيفية ، هو منفصل عنه تماماً ، و يشكل منظومة فكرية خاصة به .

كما ظهر بالإضافة إلى ما سبق و تبعاً له ، مصطلحات فكرية جديدة ، إما مستقلة بحد ذاتها ، أو متشعبة عن مثيلاتها و قريناتها من ضمن المصنوفة الفكرية الواحدة . فبالنسبة للأشخاص ، ظهرت عبارات مثل (مفكر - مثقف - سياسي - باحث - ناشط - نخبة الخ) . كذا الأمر بالنسبة لوسائط النقل الفكرية ، ظهرت مصطلحات جديدة مثل (دار نشر - نسخة الكترونية - موقع الكتروني - فيلم وثائقي - قناة فضائية - نشرة أخبار - محاضرة - مركز

ثقافي الخ) . كما ظهرت عبارات اصطلاحية فكرية جديدة تمثل حالات لم تكن معروفة اصطلاحياً من قبل ، مثل (إشكالية - ديماغوجية - ميتافيزيقيا - عصرنة - حداثة - وسطية - إستراتيجية - استقراء - اشتراكية - إيديولوجيا - براغماتية - ليبرالية - التطرف - الأصولية - التنوير - الثقافة - العنصرية - التكنولوجيا - حيوي - دبلوماسية - دستور - برلمان - انتخاب - راديكالية - ثورية - رأس المال - مصادر - موسوعة - الخ) .

و كما قام الفكر العربي التأسيسي في القرن التاسع عشر ، على أنافٍ معينة تم ذكرها سابقاً ، قام الفكر العربي المعاصر أيضاً على أنافٍ مماثلة . و قبل أن نتحدث عن هذه الأنافٍ ، يهمننا في هذا المبحث ، ذكر بعض الصبغات الأساس التي ميزت هذا الفكر ، أو الأنواع الرئيسة التي تشعب إليها و التي ميزته و هي .. الفكر الديني — الفكر السياسي — الفكر الثقافي العام — الفكر العلمي — الفكر الشعبي .

و عموماً ، لن نتناول هذه الأقسام ، بالدراسة و التحليل المنفصل لأن الغاية في هذا المخطوط هي دراسة الفكر العربي العام ، و ستكون هذه الأقسام من ضمن هذه الدراسة بشكل عام . و لكن نقول .. أن هذه المجموعات أو البنى الفكرية، كانت على صراع دائم فيما بينها ، لا بل نشأت بالأساس لتكون متصارعة ، و كان الخلاف و الاختلاف سبب نشوء و قيام بعض منها .. يكفر بعضها بعضاً، و ينكر بعضها بعضاً ، و يسفه بعضها بعضاً ، و يدعو بعضها إلى إبادة البعض الآخر و تصفيته و محوه من الوجود ، و بعضها يعتبر نفسه الحقيقة المطلقة و الصواب الأعلى و غيره بؤرة فساد و خطأ و انحلال . و البعض منها قائم بحد ذاته على تسفيه البعض الآخر ، و لا همّ له من حيث الهوية و المتن و المضمون ، إلا إلغاء هذا الآخر . ذلك كله ليس من باب الواقع و النتيجة المنطقية العقلانية ، لأنه من الطبيعي البدهي و المنطقي ، أن يختلف فكر مع فكر آخر . و من الطبيعي المنطقي ، أن يخطئ فكر ، فكر آخر يختلف معه و يتميز عنه في أمور و

قضايا معينة . و من الطبيعي البدهي أن ينقض و يناقض و يتناقض فكر مع فكر آخر ، في الخصال جميعها أو في واحدة منها منفردة . هذا يصح في المجال الفكري المنطقي العقلاني البحت و المجرد ، و يقف عند حدوده لا يتخطاه على مبدأ المثل القائل (الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية) .

لكن ما حدث و يحدث ، هو بكل بساطة ، أمر خارج عن نطاق المؤلف المتعارف عليه ، و يقوم على العاطفة و الغريزة المجردة من أية عقلانية و منطقية و ضوابط فكرية علمية ، لا بل هو أحياناً يكون قائماً على الجهل و الرجعية ، أي هو فكر قائم على جهل و تخلف !!؟؟ و هي ظاهرة شاذة غير مألوفة بالنسبة لتاريخ البشرية ككل ، حتى بالنسبة لبعض معاصر الحيوان ، لأن (الفكر) ككلمة ذات مدلول ، يشكل ثنائية جدلية طردية مع (التطور) ككلمة ذات مدلول .. (الفكر) ككلمة مترابطة مع (التفكير) مقترن عموماً بالتطور و التغيير نحو الأمام الأفضل ، لا الخلف الأسوأ . و الإنسان (و حتى الحيوان) بالحالة الطبيعية البدهية ، يفكر ليغير قضية معينة ، من وضع إلى وضع أفضل ، أو لتحسين وضع معين في العمل أو المنزل أو غير ذلك .. يفكر ليحل قضية معينة مستعصية .. يفكر عندما يقع في مأزق كيف سيخرج منه و يتفاداه في المستقبل .. يفكر في تحسين وضعه المعيشي .. يفكر عند حدوث خطأ ما أو عطل معين ، بكيفية الإصلاح . فالفكر أو التفكير هو حالة إيجابية ذات فائدة و منفعة مستدامة أو مؤقتة .

و التساؤل الذي يبرز هنا هو ، هل يوجد هنالك تفكير أو فكر سلمي؟؟ في الواقع .. نعم يوجد هنالك تفكير و فكر سلبيين رجعيين ضارين ، و هذا يقع في حالات المرض النفسي أو الجنون أو ما يقع على أعمال الشر ، كالإجرام و السرقة و قطع الطريق و إلحاق الأذى و الضرر بالفرد و المجتمع و ما إلى ذلك . هذا بمجمله يقع أيضاً ضمن مجال الغريزة و العاطفة ، حتى و لو تضمن أعمال العقل و الفكر ، لأن الأهواء و الشهوات و العواطف و الغرائز ، تتحكم بالعقل

و الفكر و توجههما حسب مقتضياتهما . فالمرضى النفسي أو المعتوه و الجنون ، قد يرتكب أفعالاً ضارة بالمجتمع أو الأفراد أو حتى يضر نفسه هو و يؤذيها في حالات معينة ، نتيجة لتفكير أو فكر معين اعتقدهما صواباً . و السارق أو المجرم أو قاطع الطريق ، يقوم بالسلب و النهب أو القتل و الأذى ، أيضاً نتيجة لتفكير شرير خاطئ ، و يضع أحياناً خطط ذكية جهنمية لا تخطر ببال كثير من العقلاء ، و ذلك قائم في أساسه على التملك و السطو على أملاك و أعراض و أرواح الغير ، نتيجة لشهوة و غريزة مستحكمة في نفس الفاعل ، و هلم جر . هذه القضية بنظرنا ، تنسحب بوجه من وجوهها على الفكر بشكل عام ، من حيث النوعية و الهدف و النتيجة .

و بالعودة إلى عوامل الفكر العربي المعاصر و مقوماته ، فإنه كما ذكرنا ، قام على أثافٍ متعددة ، شكلت قوامه و بلورت هويته و حددت صورته و حدود أبعاده . و الأهم من ذلك ، أظهرت فاعليته الحقيقية . و هذه الأثافي هي .. الأحزاب السياسية و الدينية — السلطة السياسية — الدعاة و المفكرون — الوسائل و الوسائط التكنولوجية — الهيئات التعليمية — الوسائل و الوسائط الإعلامية .

هذه بالعموم ، هي الأثافي التي اتكأ عليها الفكر العربي المعاصر ، للظهور أو التي أظهرته هي للعلن . و هاكم هي بشيء من التفصيل .

الأحزاب السياسية و الدينية :

لقد كان القرن العشرين بالنسبة للعالم العربي ، قرن المخاض الفكري السياسي ، فقد كانت بداية هذا القرن كما ذكرنا ، تمثل إيذاناً بالاستقلال الوطني العربي عن العنصر الأجنبي ، أو بمعنى آخر قد يكون هو الأصح ، الاستقلال الإقليمي

لمناطق الشرق الأوسط عن العنصر الأجنبي المتمثل بالدرجة الأولى بالاحتلال العثماني و الذي رافقه بروز الجمعيات السياسية السرية ، و على وجه الخصوص في بلاد الشام و العراق و الحجاز ، المطالبة بالاستقلال . و هي و إن كانت متناغمة في قاسم الهوية العربية ، المشترك ، إلا أنه كان لكل منها توجه سياسي متمايز عن غيره .

و ترافق مع هذه الجمعيات ، الحركات الوطنية التي نشأت و قامت ضد الانتداب الأوروبي على المنطقة العربية ، منها ما كان بدافع قومي شامل ، و منها ما كان بدافع وطني إقليمي محلي ، و إن كانت قد لفتت بعض سمات العروبة . و هذه الجمعيات و الحركات القومية الوطنية ، و التي قام بعضها بثورات ضد الاحتلال الأجنبي ، كانت النواة الأولى لتشكيل الأحزاب السياسية في المنطقة العربية ، و هذه الأحزاب السياسية ، قامت في معظمها على منطلقات فكرية نظرية ، منها ما هو تاريخي سابق ، جرت المحاولة لإعادة إحيائه بالاستناد إلى الحضارة التي كان عليها تاريخياً و التي شكلت كياناً سياسياً و فكرياً و دينياً قوياً ، على رقعة جغرافية لا بأس بها ، كالدعوة الفرعونية في مصر ، و التي استندت إلى حضارة مصر القديمة العريقة ذات الكيان السياسي الجغرافي الواحد ، و اللغة الواحدة ، و ذات الفكر العلمي و الديني الكبيرين ، و ذات الصروح و الأوابد العمرانية الباقية إلى الآن و تمثل إحدى عجائب الدنيا السبع . فاعتبرت الدعوة الفرعونية في مصر ، أن هذه الحضارة هي ذات هوية فكرية أصيلة و قوية ، تعبر عن هوية الفكر المصري المعاصر ، و يمكن استعادتها و استحضارها ، كونها مثلت النقطة المشرقة المضيئة في تاريخ مصر ككل .

و هنالك من الأحزاب و الحركات السياسية الفكرية ، من قام على حالات إيديولوجية لم تكن موجودة من قبل ، كالأحزاب الشيوعية التي استمدت منطلقاتها النظرية من الثورة البلشفية في روسيا ، و من أفكار ماركس و أنجلز ، كحالة مستحدثة معاصرة ، مكونة بذلك ، فكراً إيديولوجياً كبيراً هائلاً امتد

على مساحة شملت معظم أقاليم العالم ، و بُنيت عليه كيانات سياسية كبيرة قوية عظمى ، لا زالت موجودة إلى الآن .

و هنالك حركات و أحزاب سياسية أو سياسية دينية ، اعتمدت على منطلقات نظرية موجودة من قبل ، و لا زالت مستمرة إيديولوجياً إلى الآن ، كالأحزاب الدينية الإسلامية التي اعتمدت العقيدة الإسلامية أساساً لها . و حزب البعث العربي الاشتراكي مثلاً الذي اعتمد مبدأ القومية العربية ، و كذلك بعض الحركات الناصرية التي تبنت سياسة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، في الدعوة إلى القومية العربية .

و قد وضعنا الأحزاب الدينية ضمن خانة الأحزاب السياسية ، لأنها اعتمدت العمل السياسي من خلال الواجهة الدينية ، و كانت داعية إليه علناً و تعده هدفها و غايتها ، و لا نقول ذلك من باب النقد و الانتقاد ، بل من باب التحليل فقط . و كان فكرها ، فكراً سياسياً بالدرجة الأولى . و الياقطة العامة التي اعتمدها و قامت عليها ، هي ما سمي (الإسلام السياسي ؟؟) . و هذه الأحزاب ، قد نشأت في معظم الكيانات العربية ، و كان أهمها (حزب الأخوان المسلمون) الذي نشأ في مصر على يد مؤسسه الشيخ (حسن البنا) و لاقى انتشاراً واسعاً في معظم المناطق العربية . و كان من كبار منظريه و مفكريه (سيد قطب) و (أبو الأعلى المودودي) و غيرهم . و قد ناقش هؤلاء بالدرجة الأولى ما سمي (الإسلام السياسي) و نظروا داعين إليه . كما ظهرت الحركة الوهابية في السعودية و التي اعتمدت في أساسها الفكر السلفي . و كانت بدورها من الوجه الآخر ، حركة سياسية قامت عليها (المملكة العربية السعودية) التي أسسها الملك الراحل عبد العزيز آل سعود ، و كانت قد قامت في أساسها السابق على تحالف ديني سياسي فيما بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة الوهابية ، و بين ابن سعود حاكم الدرعية آنذاك . و حديثاً .. في الربع الأخير من القرن العشرين ، ظهرت الثورة الإيرانية التي قادها

آية الله الخميني ، و هي و إن كانت ليست عربية ، فإنها عملت على تصدير أفكار الثورة للخارج و من ذلك ، العالم العربي ، و إيقاظ الفكر الجعفري و مذهب آل البيت . و كان لها الطابع السياسي الذي قامت بموجبه (جمهورية إيران الإسلامية) ، و التي كان كبير الأثر في دعم بعض الحركات و الأحزاب العربية الإسلامية ، كحزب الله في لبنان و الذي هو حزب وطني لبناني ، مثل حالة مقاومة ضد إسرائيل في احتلالها لبنان . كما دعمت حركتي (حماس) و (الجهاد الإسلامي) و هما حركتان إسلاميتان فلسطينيتان مثلتا فصائل مقاومة ضد إسرائيل .

إن الأحزاب التي ظهرت في العالم العربي ، كانت في حقيقة الأمر ، أحزاباً فكرية سياسية بحتة ، انحصرت فكرها بالأساس ، بالأمر السياسي . و حتى فكرها و منطلقاتها الفكرية النظرية ، تعاطت معها و بما من خلال الأمر السياسي ، و كانت غايتها الأساس التي عملت لأجلها ، هو الوصول إلى كرسي الحكم و كرسي السلطة ، و كانت في معظمها ، أحزاب إقصائية ذات فكر إقصائي يتمايز من حالة إبعاد الآخر عن الساحة السياسية و الانفراد بالسلطة و الحكم ، إلى حالة تكفير الآخر و إقصائه عن الوجود و الحياة معاً . و بعضها الآخر كان تابعاً للأجنبي فكراً و حتى سياسياً ، و بعضها الآخر كفرّ العروبة و القومية و فسقهما ، و اتخذ الطائفية و المذهبية بشقيها السياسي و الديني ، سلاحاً له . فالطائفية بنظرنا ، ليست مقتصرة فقط على الدين ، بل تشمل على السياسة أيضاً . و العنصرية ليست مقتصرة فقط على العرق و الجنس ، بل تشمل أيضاً على الدين و السياسة .

إن معظم الأحزاب في العالم العربي إن لم يكن كلها ، كانت تعود في منشأها ، إلى شخص واحد . إذن .. هي في النهاية محصلة فكر شخص واحد يطلق عليه (مؤسس الحزب) يختار عادة ظاهرة معينة و قضية ما ، فكرية أو اجتماعية أو سياسية أو دينية ، و يبني عليها أفكاره و رواه ، و يجمع أو يجتمع إليه ،

الأتباع، و من ثم يتم تشكيل لجنة تأسيسية لحزبه المزمع إنشاؤه ، أو هيئة من رجال الدين ، إذا كان حزباً دينياً . و بعد ذلك ، يتجه إلى البيئة الاجتماعية و يطرق باب السياسة للوصول إلى الرياسة ، إما بالآلية السياسية القانونية ، و عادة ما يتم ذلك عن طريق البرلمان أو مجلس النواب ، و إما بآلية القوة و عادة ما يتم ذلك عن طريق الانقلابات العسكرية أو المواجهة المباشرة و الصدام الدامي مع السلطة الحاكمة . و بالغالب الأعم ، يتم ذلك بالتزامن مع طرح قضية فكرية جوهرية أساس ، يتم طرحها للجمهور و المجتمع على أنها تمثل قمة المبادئ السامية العليا الواجب اتباعها ، و غيرها هو الخاطئ المضلل ، و ذلك تحت طائلة التخوين الوطني و التكفير الديني و ما إلى ذلك .

و قد تحدد أسلوب معظم الأحزاب في العالم العربي ، بالثنائية الفكرية السياسية التالية (السلطة - المعارضة) فهي إما أن تكون بالسلطة لتقصي غيرها من أحزاب و حركات مناوئة فكرياً لها . أو تكون في المعارضة إذا لم يتيسر لها تبوء كرسي السلطة ، و ربما تلجأ إلى المعارضة المسلحة . و هذه الثنائية الفكرية السياسية ، استوجبت أن يكون مسلك الفكر الحزبي ، في مجالين اثنين ، مجال الفكر السائد الشامل الأوحده المسخّر له و لأجله وسائل الإعلام من صحف و قنوات تلفزيونية و إذاعة ، و مطبوعات مدرسية و جامعية و أكاديمية ، و من دعاة مفكرين و مثقفين ، ذلك إذا كان الحزب الذي يمثله ، يتبوء سدة السلطة . المجال الثاني ، أن يصبح الفكر في حيز الإهمال و التضاؤل و الغمر و التضييق و الانتقاص أو حتى التسفيه و المحاربة ، في حال كان خارج السلطة و ضمن نطاق المعارضة .

إذا ألقينا في وقتنا المتأخر هذا ، بأحداثه السياسية و الدينية و مفاعليه الاجتماعية و الثقافية و العلمية الحاصلة الآن ، السؤال التالي .. ما الذي قدمته الأحزاب معجملها في العالم العربي ، للإنسان من فكر ببناء عملي متقدم ، يرفع من قيمته كإنسان بشري ، حق له أن يكون بمرتبة الإنسان الياباني أو الأوروبي أو

الأمريكي أو الصيني؟؟!! بكل بساطة و كل صراحة ، نجد أنها لم تقدم له شيء، بل حتى لم تقدم له أي فكر مليء مفيد ، له إمكانيات الصرف و الترجمة في واقع الحياة اليومية و واقع صراع الحضارات الحاصل اليوم .

ما الذي كان يقابل تلك الأحزاب في القرن التاسع عشر ، فترة الفكر التأسيسي العربي؟؟ كان يقابلها تلك الحركات الوطنية العفوية و المنظمة و التي و إن لم تستطع أن تخلص مجتمعاتها من نير المحتل الأجنبي ، كونها كانت في بيئة لم تتوافر فيها عناصر التقانة اللازمة لنشر الثقافة و الفكر ، و كانت في بيئة رازحة تحت سيطرة حكم غريب عنها ، كاتم للنفس و الصوت ، و ناشراً للخرافة و الجهل .. فإنها و بالرغم من كل ذلك ، قد قدمت لمجتمعاتها ، فكراً نيراً أخرج أفرادها من ظلمات الجهل إلى نور العلم و الترقى ، و قدمت على الأقل تجربة ناجحة و محاولة فعالة فاعلة ، في وضع المجتمع على المسار الصحيح و جعله مهيباً لتلقي المفاهيم الحضارية الحديثة ، و على أهبة الاستعداد للتعامل معها . و غير هذا و ذاك ، لم تضعه في باب التناحر و الاختلاف و التصارع الفكري و الجسدي مع أبناء جلدته ، سواء على المستوى الطائفي الديني أم الحزبي السياسي . كما أنها لم تلق به في مهاوي التهلكة لأجل شعارات براقعة و مبادئ لا يمكن تحقيقها .

لقد حصرت الأحزاب العربية المعاصرة ، فكر المواطن العربي ، بفكرها هي وحدها ، و اختزلته ضمن منظومتها الفكرية هي ، و نأت بنفسها عن استكمال بقية الوجوه الفكرية الأخرى الخارجة عن نطاق منظومتها الفكرية الحزبية .

و قد بلغ مكنم الخطورة مبلغه ، في أن هذه الأحزاب ، قد طرحت أفكارها و منظوماتها الفكرية ، على أنها هي الحل الذي لا داعي معه و بوجوده ، لأي فكر آخر ، فطرحت خطابها الإيديولوجي و ثقافتها الفكرية ، على أنها الحلول الناجحة لأية قضية أو إشكالية مستعصية ، و أنها باب للازدهار و الرخاء و التقدم و القوة للدولة و المجتمع ، و على أنها غاية المشتبهى و سدرة المنتهى ، و بطرح شعار (إيديولوجيتي و أفكاري هي الحل) و هو بنظرنا ، أمر يقود إلى

قضية خطيرة جداً ، هي (التضليل الفكري) سواء عن عمد أم عن غير عمد ، و سواء أكانت الإيديولوجية و الأفكار المقصودة ، أفكاراً صحيحة و منطقية مقبولة ، أم تنافي كل ما سبق ، لأن ما ثبته التاريخ ، الماضي و الحاضر ، هو أنه لا توجد أفكار أثبتت صوابيتها بشكل دائم ، بل تعرضت للنقض و الإلغاء ، و منها ما ثبت في زمان ، لم يثبت في غيره . و منها ما هو خاضع لنظرية التطور و الارتقاء ، إن تهاهى معها و تلائم ، أثبت وجوده ، و إن لم يفعل أو يقدر على فعل ذلك ، حكم على نفسه بالزوال أو أصبح عبئاً على المجتمع و عامل تخلف و انحطاط بالنسبة إليه .

حتى المفاهيم و الأفكار الدينية ذات الأخلاق العالية و المبادئ السامية و التي هي في ذاتها ، صالحة لكل زمان و مكان ، لكن سوء استخدامها و تفسيرها الخاطئين ، ابتغاء المنفعة المادية الدنيوية البحتة ، يجعلانها غير قبالة للتطبيق و بادية في نظر أفراد المجتمع عامل تخلف رجعي يوصى بتبديله و تغييره . هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى ، فإن الأفكار و الإيديولوجيات على اختلاف أنواعها ، و إن كانت صحيحة سليمة صالحة للتطبيق على مدى زمني طويل ، فإن ذلك لا ينفي وجود أفكار و مفاهيم أخرى تؤدي المهمة نفسها و لها الصلاحية و الإمكانية ذاتها . فضلاً عن أن الأفكار و المفاهيم تختلف باختلاف الشعوب و المناطق البيئية الجغرافية في العالم و المنظومات الفكرية لكل شعب من الشعوب ، كما أن تلاقح الحضارات و اختلاف الشعوب ، هو ظاهرة بشرية طبيعية ، و حالة تفاعلية مستمرة عبر التاريخ . حتى الأديان السماوية تحدثت عن هذه النقطة حيث جاء في التوراة [و تسير شعوب كثيرة و يقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت اله يعقوب فيعلمنا من طرقه و نسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة و من أورشليم كلمة الرب] (سفر أستير - الإصحاح ٢) .

و في الإنجيل جاء [لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحته هيرودس و بيلاطس البنطي مع أمم و شعوب إسرائيل] (أعمال الرسل -

الإصحاح ٤) .

و في القرآن الكريم { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات

: ١٣] .

و إذا افترضنا جدلاً أن فكر هذه الأحزاب و إيديولوجيتها ، هو الصحيح و هو الأفضل و الأمثل ، و هو الحل الأنجع لجميع المشاكل و جميع الشعوب ، فما هي النتيجة السياسية و السوية الفكرية التي آلت إليها مجتمعاتها و شعوبها ، في الوقت الحالي ، و بخاصة أن بعضها كان حاكماً يتبوأ سدة السلطة و بيده مقاليد الأمور جميعاً؟؟ النتيجة .. هي إفراز مجتمع شبه أمي ، لا يمتلك أية سوية فكرية ، غير ما صبغته به تلك الأحزاب ، و غير قادر على إنتاج أية مادة أو سلعة قابلة للتداول . و هو بنظرنا هوية أي فكر ، و أساس إيجابيته أو سلبيته ، و على وجه الخصوص ، في الوقت الراهن . و بما أن الزمن الحالي الآن ، هو زمن التكنولوجيا و الصناعات المتقدمة المتطورة المختلفة إلى مجالات علمية عدة . و إن السباق الحضاري الآن ، و الصراع الأممي ، هو في مضمار التكنولوجيا و العلوم و الصناعات الإنتاجية الخدمية و غيرها ، تتحدد بالوجه الحضاري التكنولوجي العلمي الخدمي للجنس البشري ككل ، فماذا فعلت هذه الأحزاب و ماذا قدمت لشعوبها و مجتمعاتها ، بل و لأتباعها و المؤمنين بها ، غير أنها ألزمتهم فكراً عقيماً ، و إيديولوجيا فارغة لا تغني من شيء و لا تدفع عن شيء ، و غير قادرة على تحريك أو مجرد تحريض أية بادرة مفيدة؟؟!! لا بل على العكس ، أثبتت أثراً رجعياً انتكاسياً ، و مفاعيل صراع و حروب . و لننظر من باب المحك و النتائج النهائية المستخلصة ، إلى الوضع العربي الراهن و إلى وضع

الأحزاب بالعالم العربي الآن ، نصل في أحسن الأحوال و التقدير إلى نتيجة خلاصة مفادها .. الأحزاب في العالم العربي .. تجربة فاشلة .

السلطة :

برز مفهوم السلطة عبر التاريخ البشري ، منذ ظهور الإنسان العاقل و حتى يومنا هذا ، كإحدى أهم أطراف العلاقة الجدلية فيما بين المفهوم الفكري و المفاهيم الأخرى المرتبطة به كأطراف ذات علاقة . و إذا كان بالإمكان تجزئة هذه العلاقات الطرفية المتبادلة ، إلى ثنائيات طرفية متعددة ، لكانت ثنائية (الفكر - السلطة) من أهمها على الإطلاق و أقواها و أكثرها جدلاً عبر التاريخ ككل ، و ربما أكثرها منطقية و أشدها وضوحاً و عياناً على مستوى المباحث الفكرية بل و حتى العلمية و الثقافية ، و حتى أيضاً .. الحضارية .

هذه القضية تنتج أيضاً ، ثلوثاً منفرداً متميزاً هو ثلوث (السلطة - الفكر - الحضارة) . و هو ثلوث يعبر عن ترابط هذه المفاهيم بعضها مع بعض ، و تبادلها من حيث العلاقة الجدلية و التأثير المباشر و الغير مباشر ، و من حيث المعايير أيضاً . فأى تغيير يطرأ على واحد من عناصر الثلوث هذا ، يؤثر حكماً على الاثنى المتبقية من عناصره .. إن كان سلباً ، فسلباً ، و إن كان إيجاباً ، فإيجاباً . من هذا الثلوث إياه ، ينطلق مبحثنا هذا ، حول هوية الفكر العربي المعاصر .

لقد أثبتت الأحداث الزمنية و وقائع التاريخ ، أن للسلطة دوراً هاماً كبيراً قد يكاد يكون أوحداً بعض الأحيان ، في صناعة الفكر ، في صناعة الفكر و درجة سويته ، ما يؤدي تالياً إلى خلق الحضارة و صياغة نوعيتها مقوماتها .

ففي تاريخ الحضارات القديمة كحضارة بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) ، و حضارة مصر الفرعونية القديمة ، نرى أن حضارة تلك البلدان و منظومتها

الفكرية ، كانت من ضمن الحامل السلطوي السياسي ، و ضمن الهيكلية السياسية لنظام الدولة و الحكم . فمنظومة التقانة الصناعية الإنتاجية العلمية و الفكرية في هاتين المنطقتين ، كانت ضمن اختصاص طبقة الكهنة و العلماء و المفكرين . و بنظرنا .. هو ما نسميه .. نظام المعبد التابع للقصر الفرعوني أو الحاكم الذي مثل أعلى قمة الهرم السياسي و الديني في آن معاً . و في الحضارات اللاحقة ، كالحضارة اليونانية ، ربما لم يكن الفكر الإغريقي فيها ، نتاج السلطة الحاكمة ، و لم يكن الفلاسفة الإغريق بالضرورة ، نتاج السلطة الحاكمة أو يتموضعون ضمن الحامل السياسي السلطوي ، بل على العكس من ذلك ، كان بعضهم على خلاف معها و بعضهم الآخر دفع حياته ثمناً لذلك ، كسقراط الذي أُجبر على تجرع السم من قبل الهيئة الحاكمة في أثينا . و أفلاطون الذي بيع في سوق النخاسة بسبب خلاف مع ملك (سراقوسة) ، و أرسطو الذي هرب من أثينا بعد أن طورد من قبل السلطات عقب وفاة الإسكندر .

و لكن هؤلاء و غيرهم من فلاسفة و مفكرين ، لم يكونوا بمعزل عن المنظومة السياسية و التماس مع السلطة الحاكمة ، فضلاً عن أن معظم حيثيات و مضامين أفكارهم ، كانت تتناول الأمر السياسي و شؤون الحكم و الإدارة أو على الأقل ارتبطت بها . و فوق كل هذا و ذاك ، فإن الفكر اليوناني كان بشكل من الأشكال ، نتاج الحرية الفكرية و الحياة الديمقراطية التي منحتها المنظومة السياسية له و للمجتمع . إذن .. هو من وجه آخر ، نتاج للفكر الديمقراطي السياسي . كما أن السلطة اليونانية كانت بشكل من الأشكال ، مهتمة بالفكر و العلم و الثقافة و المدارس العلمية و المسارح الأدبية الفكرية التي كانت تقدم أولى المسرحيات في العالم التي تتحدث عن المجتمع و الدولة .

و قد رأينا كيف أنه في العصر العباسي ، قامت الحضارة العربية على اهتمام السلطة الحاكمة بالفكر و العلم و حرصها على إنشاء المنظومة الفكرية العربية التي كان أساسها ، النقل و الترجمة ، و بلغت أوجها في عصر الخليفة المأمون

العباسي . و رأينا كيف خرج العالم العربي حديثاً ، من ظلام الجهل و التخلف و ارتكاسة الجمود و تعطيل العقل ، إلى نور العلم و الفكر و انتفاضة العقل و تفتحه على مناهل المنطق و العقلانية ، على يد الحاكم السياسي الفرنسي بونابرت و من بعده محمد علي باشا ، و كل منهما قد مثل قمة الهرم السياسي البحث .

لقد رأينا أيضاً أن كل هذا الذي سبق ، قد انعكس على صورة و هيئة ثلوث (السلطة — الفكر — الحضارة) ، حيث مثلت مصر آنذاك ، قمة الحضارة و الفكر و القوة السياسية و العسكرية ، بالنسبة للعالم العربي ، ضاهت في مفصل تاريخي و زمني معين ، الحضارة الأوروبية نفسها و ضاهت في القوة و المنعة ، الدول الأوروبية نفسها ، وهددت الأستانة عاصمة العثمانيين أنفسهم . و لولا أن السلطة السياسية نفسها ، قد دعمت الفكر و العلم بشكل مباشر و صريح ، و وضعت كل إمكاناتها و قوتها تحت تصرفه ، و قامت بتعهده و حمايته و رعايته ، لما كان هنالك فكر و لا علم في المنطقة العربية ، و لبقينا حتى الآن في وضع شبيه ربما ، بوضع بعض الدويلات الإفريقية المتأخرة ، و لو أننا الآن في هذه اللحظة التاريخية ، قد أصبحنا على مقربة من أوضاعهم السياسية و الاجتماعية و الحضارية .

إذن .. بناء عليه و عليه بناء ، يتاح لنا القول إن تقييم تعامل سلطة ما ، أياً كانت هذه السلطة ، مع قضية و مفهوم المنظومة الفكرية المت موضعة في مجال سلطاتها الجغرافي و الاجتماعي ، يتحدد من خلال تقييم الحالة التكنولوجية الصناعية و السوية العلمية التطبيقية للمنظومة السياسية و الاجتماعية المتعلقة بها و قوتها كنظام سياسي على المستوى الداخلي و الخارجي ، و سيادتها الوطنية أيضاً على المستويين الداخلي و الخارجي .

و بملاحظة بسيطة عادية إلى الوضع العربي الحالي ، لا تتطلب قدراً كبيراً من التعمق و التحليل أو الاستقراء و الاستنتاج ، نرى أن الكيانات العربية الحالية ،

في أدنى أوضاعها السياسية و الاجتماعية ، و أعلى درجات الضعف و الهوان و التقهقر . فالأنظمة العربية اليوم ، أضحت عاجزة مشلولة منتهكة من الداخل و الخارج و ليس لها أدنى وزن في الساحات السياسية العالمية أو المحافل الدولية حتى على المستوى الإقليمي ، و معظمها تابع للدول العظمى العالمية أو العظمى الإقليمية . أما أراضي كياناتها السياسية بالمجمل ، فهي إما خاضعة في قسم منها للاحتلال من قبل دول أخرى ، أو ممتهنة السيادة في قسمها الآخر ، أو مهددة بالانفصال ، و بعضها قد انفصل بشكل فعلي أو شبه فعلي ، و منظومتها السياسية الاجتماعية و الوطنية هشة جداً و قابلة للانهيار عند أدنى حدث سياسي و اجتماعي ، سواء أكان بفعل داخلي أم فعل عامل مؤثر خارجي ، و هو ما حدث في العالم العربي من حركات تمرد و عصيان شعبي تحت مسمى (الثورات — رياح التغيير — الربيع ... الخ) استجلبت في معظمها ، تدخل الأجنبي السياسي و بعضها العسكري المدمر ، كما حدث في العراق و الصومال و ليبيا ، و هو في مجمله ، أمر ذو دلالة على هشاشة المنظومة العربية بمجملها .. السياسية و الاجتماعية و الفكرية و الوطنية . و يدل أيضاً على انتفاء أية وطنية أو بنية تحتية تستند إليها هذه المنظومات ، و إن ما كانت تدعيه من خطابات سياسية و فكرية و وطنية و قومية ، هو مجرد شعارات جوفاء فارغة من مضامينها ، و مجرد قشور خادعة براقعة للاستهلاك السياسي و المحلي . و يدل أيضاً بالإضافة إلى هذا و ذلك ، على قضية هي غاية في الخطورة و ربما لم يلق أحد لها بالاً ، أو الفئة القليلة قد فعلت هذا ، و هي تصفية الأرضية الفكرية و العلمية النهضوية التي وضعها الفكر العربي التأسيسي في القرن السابق ، و تم إجهاضها تماماً . و نحن قد قلنا فيما سبق ، إن الفكر العربي التأسيسي ، قد شكّل قمة المد في قمة الجزر . و الفكر العربي المعاصر شكّل حالة قمة الجزر في قمة المد .

هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية الحضارية الصناعية العلمية التقانية ، ففرى أن هذه الأنظمة قد عجزت تمام العجز ، أن تهيئ لشعوبها و من شعوبها ، منظومة علمية صناعية إنتاجية تؤسس لدولة عصرية متقدمة مزدهرة ، و منظومة اقتصادية قوية تنتج عن التبادل التجاري فيما بين الدول . و لا يخفى أثر العامل الصناعي الاقتصادي في تحديد قوة الدولة و تأثيرها السياسي و وزنها في الساحة العالمية و الدولية ، و لنا في الصين مثال على ذلك .

لقد بقيت المنظومات السياسية السلطوية الحاكمة ، في موقع العجز الاقتصادي و التبعية المالية للدول الأخرى ، و بالذات الغربية منها . . أنظمة تعيش على القروض و المعونات الخارجية ، و في أحسن أحوالها ، تعيش على منتجات الغير و تقتات على صناعاتهم ، حتى تلك الدول الغنية منها بالنفط ، هي عبارة عن مجرد مجتمعات مستهلكة للمنتج الصناعي الغربي ، و ليس لديها أدنى مؤشرات للقدرة على التصنيع و الإنتاج و الابتكار . و ما يتجلى منها كمظاهر حضارية و تقانة متقدمة ، هو بكل بساطة ، منتج خارجي مستورد . فضلاً عن ذلك ، فإن بعضها يمثل مجتمعات دينية مغلقة تحرم الكثير من مظاهر و عوامل التقانة و المنتجات الصناعية السائدة في كل مجتمعات العالم ، و المستخدمة لدى كل شعوبه ، و تمثل مجرد أدوات استخدام بشرية طبيعية بدهية خارجة عن أي نطاق دين أو أخلاقي و اعتباري آخر ، سوى مجرد أنها أدوات استخدام . و يتم تحريم التعاطي مع هذه الوسائل و الأدوات ، بموجب حجج دينية تابعة للمنظومة الدينية الخاصة بتلك المجتمعات حصراً .

و فضلاً عن هذا و ذلك ، فإن هذه المنظومات السياسية الدينية ، تحرم معظم أشكال الفكر و أنواعه ، و تعده حراماً و فساداً في الأرض و ضلالاً للعقول ، و لا تبقى إلا على فكرها الديني الخاص بها كمجال أوحد للتعاطي . و هذا ليس على سبيل الإكراه أي أنها مكرهة على ذلك أو تعيش في بيئة انتفاء المدركات العقلية و العلمية المستوجبة له ، بل تفعل ذلك عن وعي و إرادة صحيحين

سليمين ، ومدركات عقلية كاملة و تتخذ الطابع الشرعي المنطقي (من وجهة نظرها طبعاً) على هذه المحرمات و تعدها واجب شرعي لا بد من القيام به ، و هو من منظورها ، فرض عين لا فرض كفاية ، يتطلب واجباً شرعياً ، و يتوجب على كل فرد من أفراد المجتمع في الداخل ، و من يتبع هذه المنظومة في الخارج ، أن ينأى بنفسه كلياً عن الاطلاع على ثقافات و أفكار و حضارات الأمم الأخرى ، تحت طائلة العقاب و الحساب يوم القيامة و التعرض لعذاب الحريق .

إننا إذا تتبعنا وجه آخر من وجوه الفكر ، ألا و هو الثقافة .مجممل حواملها ، الشعبية منها و الفكرية و التعليمية ، نجد أن السلطة في الكيانات السياسية العربية ، لم تعمل على أية حركة و حامل يدعم الثقافة ، و لم تعمل على نشر الثقافة . و إذا استثنينا بعض المنظومات السياسية التي حرّمت الثقافة ، دينياً و نهائياً ، لكون هذه المنظومات قد أصبحت حالة ميؤوسة ، و تطلعننا صوب البعض المتبقي منها ، فلن يتيسر لنا العثور على ظاهرة معينة بحد ذاتها ، تشكل برهاناً قوياً على دعم تلك الأنظمة السياسية للثقافة في بلدانها ، أو إنشاؤها و دعمها لمشاريع ثقافية فكرية تلامس واقع الحياة اليومية فيها ، سواء على مستوى الحالة السياسية أم الاجتماعية أم العلمية أو الفكرية ، لا بل على العكس من ذلك ، نجد حرباً غير معلنة ، على كل ما يمثل شيئاً من الثقافة و الفكر ، و هي قضية يمكن إدراك حيثيات وجودها و صحتها ، من تشخيص النتيجة النهائية و المحصلة العمومية للسوية الثقافية و الفكرية للمواطن العربي و هي .. إن الوطن العربي ، تتراوح سويته الثقافية و الفكرية و العلمية ، بين الأمية كحد أدنى ، و شبه الأمية كحد أقصى . و يتراوح توصيفه العلمي و الثقافي ، أو تصنيفه الفكري ، بين (جاهل) مروراً بـ (ربع متعلم) وصولاً إلى (نصف متعلم) في أحسن حالاته . و ما هنالك من داعٍ لاستحضار مراكز الأبحاث و الاستطلاع حول ذلك ، فلا حاجة لذلك ما دام من الممكن إدراك هذه القضية

عياناً بلا بذل جهد عقلي في ذلك . أما ما تقوم به الأنظمة السياسية و تبنيه من جامعات و مدارس ، فهو أمر لا يمت إلى الفكر بصلة ، و هي بكل بساطة ، هيئات و مواقع ، قد تم تفرغها من مضمونها ، و هو أمر نتحدث فيه لاحقاً .

إن أي عملية أو محاولة لإنشاء منظومة فكرية متقدمة في مجتمع ما من المجتمعات ، تستلزم في أول أسسها و أهم مرتكزاتها ، الفكر الشعبي . و لا يمكن (إذا صحت التسمية) إنشاء منظومة النخبة الفكرية المتقدمة من دون وجود المنظومة الفكرية الشعبية الواسعة العريضة . فإذا انتفى الفكر الشعبي (بمختلف وجوهه و أشكاله) من مجتمع ما ، و انتفت معه منظومته الفكرية الشعبية ككل ، انتفى تالياً كل ما يؤسس له هذا الفكر من نخبة فكرية و فكر متقدم حضاري ، بل تنتفي أيضاً معظم أشكال و مظاهر الحضارة و العلم من هذا المجتمع . و بانتفاء الفكر الشعبي الواعي الفعال ، يكون وجود أي فكر آخر مطروح ، مهما كانت مظاهره و حيثياته (جامعات - مدارس - اتحاد كتاب - دور ثقافة و نشر ... الخ) مجرد قشور خارجية و هياكل جوفاء فارغة المضمون ، تستخدم فقط لذر الرماد في العيون أو خداع النفس و سلوك مسلك الوهم . كما أنه بانتفاء الفكر الشعبي ، لا تُجدى أية محاولة لإنشاء أية منظومة فكرية ، كائنة ما كانت .

إن منظومة الفكر الشعبي ، هي الحامل الأساس للوعي الشعبي و الثقافة الشعبية و سوية العلم و التعليم في الوسط الشعبي . و هي صورة المجتمع المعيارية لناحية الجهل و التخلف أو العلم و الفكر . فعندما نقول مجتمع جاهل أو متخلف ، فهذا يعني على الفور انتفاء المنظومة الفكرية الشعبية فيه ، و هي مغايرة تماماً للمعتقدات الشعبية السائدة فيه و التراث الشعبي أو المعتقدات الدينية ، و هذه الأخيرة تشكل حالة مذهبية خاصة ، خارج الإطار الفكري العام ، لكون المذهب بالعموم ، هو في أقصى حالاته الفكرية ، عبارة عن معتقد ديني بحت و تعبير عن حالة جزئية من حالة كلية دينية ، يمثل طائفة معينة في المجتمع لا تمتد إليه مجمل أطيافه ككل . و كذا الأمر عندما نقول مجتمع متقدم متطور ، يعني

ذلك على الفور ، وجود منظومة فكرية شعبية متقدمة قائمة على عوامل و موروثات ثقافية علمية عقلانية تطبيقية .

إن المنظومة الفكرية الشعبية في المجتمع ، تتعلق بعوامل و مقومات عدة أهمها ..
— انتفاء الأمية .

— القدرة على القراءة و الكتابة لدى العموم الطاغى للجمهور .

— تفشى المطالعة الفكرية و الثقافة العامة التاريخية و نحوها .

— تفشى المطالعة العلمية التطبيقية ، و الإقبال على المعارف المتعلقة بها .

— وجود وعى و إحساس وطنى و إحساس بالمسؤولية تجاه الوطن و المواطنة .

و قد ثبت تاريخياً أن هذه المنظومة الفكرية الشعبية ، لا يمكن لها بالغالء الأعم أن تفعل نفسها من تلقاء نفسها ، بل هى بحاجة إلى عامل يتحقق فيه شرطان أو سببان ..

الأول : سبب خارجى ، أى أن يكون من خارج المنظومة الفكرية الشعبية نفسها ، لجهة العلم و الإدراك و الأدوات و الإمكانيات . و ليس بالضرورة أن يكون من خارج هذه المنظومة نفسها ، لجهة العرق أو الجنس . فمن غير المنطق أو المتعارف عليه تاريخياً ، أن قام تجمع أو مجتمع أمى جاهل مثلاً ، بتعليم و تطوير نفسه بنفسه ، و أو اتفق تاريخياً أن قامت جماعة أو مجتمع يؤمنان بعقائد معينة و لديهما تصورات ذهنية ما ، بتغييرها من تلقاء نفسها ، فلا بد لها من عامل أو مؤثر خارجى ، و هو ما ثبت بالأثر التاريخى ، حتى و لو كان ذلك بواسطة فرد من أفراد المنظومة نفسها ، فإن السبب كان عادة بفعل عامل خارجى . و أقرب مثال للتصور على ذلك ، هو الأديان السماوية ، حيث كان النبى أو الرسول ، يبعث من قومه و من قومه و لقومه أو غيرهم ، بأفكار جديدة ، منطلقها و فاعلها هو الله ، و قد تم ذكر ذلك فى القرآن الكريم { هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته و يزيكهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } (الجمعة: ٢) . و فى التوراة جاء ما

يفيد بهذا الخصوص [فقلت آه يا سيدي الرب إني لا اعرف أن أتكلم لأني ولد * فقال الرب لي لا تقل إني ولد لأنك إلى كل من أرسلك إليه تذهب و تتكلم بكل ما أمرك به] (سفر أرميا - الإصحاح ١) .

الثاني : سبب أو مؤثر فوقي أي أن تكون الجهة الفاعلة و المؤثرة ليست من الجمهور و طبقة الشعب أو العوام ، لناحية التفاوت الطبقي و الاختلاف السياسي ، حتى و لو كانت ذات أصل و منشأ شعبي ، كالسلطات الحاكمة أو الدينية أو الطبقة الاجتماعية . و عادة ما تكون السلطات السياسية الحاكمة هي الأداة المعتمدة في ذلك .

و خارج هذان الشرطان ، من المستحيل أو شبه المستحيل و النادر أن يطرأ تغيير على المنظومة الفكرية الشعبية ، حتى الثورات التاريخية الكبرى ، قد خضعت لهذين الشرطين . فالثورة أياً كانت ، لا تستطيع تغيير واقع الفكر الشعبي السائد في المجتمع ، ما لم تنقلب على السلطة و تستلم زمام الحكم ، و هو ما حصل على سبيل المثال ، في فرنسا عندما قامت الثورة الفرنسية و غيرت المفاهيم جميعها ، و من جملتها المفاهيم الشعبية . أو الثورة البرجوازية في أوروبا التي انقلبت على الإقطاع و سلطة الكنيسة و غيرت أيضاً المفاهيم جميعها و قامت بفصل الدين عن الدولة و السياسة . كذا الأمر ، الثورة البلشفية في روسيا التي أسقطت نظام القيصر و أقامت بدلاً منه نظام جمهوري اشتراكي شيوعي ، غير جميع المنظومات الفكرية السائدة قبلاً .

و لم تستطع هذه الثورات جميعها ، الاستمرار بمفاهيمها و مناهجها و أفكارها ، لولا أنها غيرت المنظومة الفكرية الشعبية و غيرت من أفكار السواد الشعبي . ففي القرون الوسطى ، ظهر مخترعون و علماء كجاليلو على سبيل المثال ، لكنهم لم يستطيعوا أن يضيفوا الطابع العلمي المنطقي على مجتمعاتهم و على التاريخ الذي عاشوا فيه ، كون المنظومة الفكرية الشعبية ، لم تتغير و لم تكن خاضعة لسيطرتهم ، و لم يكونوا هم بموقع القدرة على السيطرة عليها و تغييرها

، بل على العكس ، تم استخدام هذه المنظومة ضدهم من قبل الكنيسة آنذاك ،
لمحاربتهم ووأدهم . وهذا ما يفسر لنا ، اعتماد الحركات الثورية أو التغييرية أو
الدعوية الدينية ، على بث دعائها بين الجمهور و سواده ، و من ثم تتحرك
للإحاطة بالسلطة الحاكمة و تغيير طبيعة نظام الحكم و المجتمع فيها ، إذا ما تيسر
لها نشر تعاليمها بين الجمهور و بث أفكارها في العوام ، و لاقت قبولاً و دعماً
منهم ، فتصبح تبعاً لذلك ، ذات قوة ضاغطة لحركة تستخدمها ضد السلطة
القائمة . و نقيس على ذلك أيضاً ، ما حصل في عهد محمد علي باشا بمصر ،
حيث أنه اتجه أولاً إلى المماليك و أشباههم ، للاعتماد عليهم كمنظومة فكرية
شعبية لدعم سلطانه و دولته و حركته التطويرية ، فلما عجز عن ذلك و أيقن
أنه لا فائدة من التعامل مع هؤلاء ، دبر لهم مذبحة كبيرة تم فيها استئصال
شأفتهم ، و اتجه نحو العنصر الشعبي المصري و منظومته الفكرية مركزاً دعمه
عليه ليشكل منظومة فكرية شعبية جديدة ، قامت على أكتافها منظومة النخب
الفكرية و العلمية . و رأينا كيف فعل ذلك بإنشاء المدارس الشعبية التعليمية ، و
الصحافة و المطبعة و البعثات العلمية ، و لولا ذلك ، لما كان بإمكانه القيام بأي
فعل يتيح له بناء الدولة العصرية المتقدمة .

إذا انطلقنا من سالف القول و نظرنا إلى السوية الفكرية للمجتمعات العربية ، و
السوية الفكرية للفرد العربي فيها ، تظهر نتيجة مرعبة لتفشي الأمية و نسبة
الأمية فيها . و بنظرنا فإن التطور العلمي و التقني الحاصل اليوم في العالم ، و
السوية العلمية الحضارية الهائلة التي تحصلت عليها بعض المجتمعات و الأمم ، قد
رفعت من السوية المعيارية للأمية ، إلى مستوى شبه الأمية ، أي بمعنى أن الأمية
اليوم ، لم تعد هي الأمية ، بل هي شبه الأمية ، و الإنسان الذي يتحدد مستواه
الفكري و العلمي اليوم ، فقط بالمقدرة على القراءة و الكتابة و ينحصر في
مجالهما لا يتعداه ، هو إنسان أمي . و مع ظهور أنظمة تكنولوجية متقدمة في
العالم كالكومبيوتر ، ارتفعت السوية المعيارية للأمية ، ليصبح الأمي هو الذي لا

يجيد استخدام الحاسوب . و تعود هذه السوية المعيارية الاصطلاحية للارتفاع مجدداً ، فيصبح الأمي هو الذي لا يقرأ أكثر من عدد محدد من الكتب في السنة، يتفاوت من بلد لآخر قيل أنه في أمريكا /٢٠/ و في فرنسا /١٧/ و في روسيا /١٢/ و في السويد /١٠/ ^١ . و في بلد مثل اليابان يتحدد مستوى الأمية أو عدمها بثقافة التصنيع ، الرقمي و غير الرقمي ، فأنت تكون أمياً إذا لم يكن لديك الإمكانيات و المقدرة على تصنيع آلة حاسبة أو راديو أو أي أداة أخرى ، و هو ما يقوم به طلاب المدارس الابتدائية اليابانية و يدخل في بعض امتحاناتهم . أو على الأقل ، المعرفة الدقيقة بتفاصيل صناعتها . و بعد كل هذا و ذاك نفاجاً بالنتيجة المرعبة التي تقشعر لها الأبدان ، حسب بعض مراكز الاستطلاع ، بأن متوسط قراءة الفرد العربي في السنة .. ربع صفحة فقط !!!؟ .. ربع صفحة !!!! .. يا ويلاه ... يا ساتر .

تطالعنا الآن المنظمات الثقافية العالمية و الإقليمية بتقاريرها المثيرة للوجع و الألم التي تتحدث عن الأمية المرتفعة في العالم العربي ، بأعداد وصلت إلى /١٠٠/ مليون إنسان أمي في العالم العربي ^٢ ، و هي نسبة تعادل / ٣٥ % / أي أن ثلث العرب أميين . و الأمية هذه التي تتحدث عنها المنظمات و الهيئات العالمية و الإقليمية ، هي الأمية التي كان متعارفاً عليها بالقرن التاسع عشر أي عدم المقدرة على القراءة و الكتابة و الجهل بهما . و لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن هذه المنظمات الدولية قد شرعت الآن بدق ناقوس الخطر ، من تزايد أعداد الأميين في العالم العربي و تزايد نسبتهم ، و أن العالم العربي سيكون مرشحاً لتصدر مرتبة الأمية الأولى في العالم ككل بعد أن كان في المرتبة الثانية في العالم بعد إفريقية ، هذا ما أكدته تقرير للمنظمة العربية للثقافة و التربية و التعليم (الأليكسو) .

^١ تختلف هذه الإحصائية من مؤسسة لأخرى .

^٢ الموقع الإلكتروني للمنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم / الاحتفال باليوم العربي لمحو الأمية .

و في مجال الإصدارات و المنشورات ، فإنه و حسب الإحصائيات يصدر كتاب واحد لكل ١٢,٠٠٠ مواطن عربي ، بينما يصدر كتاب لكل ٥٠٠ مواطن انجليزي ، و كتاب لكل /٩٠٠/ ألماني ، أي أن معدل القراءة في العالم العربي لا يتجاوز ١ % من معدل القراءة في الدول الأوروبية أو أمريكا . و إن كل ٣٠٠ ألف عربي يقرءون كتاباً واحداً، و حصة كل مليون عربي هي / ٣٠ / كتاب . كما أن التداول في معارض الكتاب العربي بالعالم العربي ، لا يتجاوز الأربعة ملايين دولار في السنة ، لكن هذا الرقم يصل هذا في دول الاتحاد الأوروبي إلى اثني عشر مليار دولار في العام . و إن كل ما تطبعه الدول العربية مجتمعة من كتب و منشورات ، لا يعادل نصف ما تنشره دولة إسرائيل . هذا ما يجعلنا نشارك الشاعر عمر أبو ريشة ألمه و مرارته و حرقة قلبه ، لما آل إليه الوضع العربي في وقته آنذاك ، فكيف الآن؟؟؟ حيث يقول ..

منبر للسيف أو للقلم	أمتي هل لك بين الأمم
خجلاً من أمسك المنصرم	أتلقاك و طر في مطرق
خنقت نجوى علاك في فمي	أمتي كم غصة دامية
ولم تنفضي عنك غبار التهم؟	كيف أغضيت على الذل
تتفاني في خسيس المغنم	ودعي القادة في أهوائها
ملء أفواه الصبايا اليتيم	رب و امعتصماه انطلقت
لم تلامس نخوة المعتصم .	لامست أسماعهم لكنها

هذه القضية و إن كانت على درجة من الأهمية في مبحثنا هذا ، فإن الأهم و الأخطر فيها ، هو أن تقرير (الأليكسو) قد حمل الحكومات العربية ، المسؤولية الكاملة عن تفشي الأمية و عن تصدر العالم العربي ، المرتبة الأولى بالأمية في العالم ككل . و اهتم البيان الحكومات العربية بالتقصير تجاه هذه المشكلة الخطيرة و عدم إيجادها الحلول الناجعة في هذا الشأن . و أن معظم برامج محو الأمية في

الدول العربية ، تقتصر على معرفة الحروف الأبجدية ، قراءة و كتابة و تركيبها في كلمات و جمل بسيطة ، بالإضافة إلى بعض العمليات الحسابية ^١ .

و السؤال الذي يتبادر على الفور ، إلى الذهن هو .. هل يُعقل و هل يصدق عاقل ، أن الحكومات العربية التي تمثل كيانات سياسية مستقلة و التي تمتلك الموارد و أسباب الحضارة و الغنى ، و صاحبة المبادئ الحزبية .. الدينية منها و السياسية ، التي تدعي أنها الحل الوحيد الأوحده ، و أنها قمة الحضارة .. هل يُعقل أن تمثل مجتمعاتها أعلى نسبة من الأمية في العالم ؟؟؟!!! و ما معنى أن يصل الأمر إلى اتهامها من قبل هيئات رسمية إقليمية ، بالمسؤولية عن هذا الوضع المزري و التقصير في محو الأمية من مجتمعاتها ؟؟؟!!! . هو أمر و قضية يقودان بكل بساطة إلى الإعلان عن حقيقة خطيرة جداً هي .. (إن حالة الجهل السائدة اليوم في العالم العربي و المجتمعات العربية ، هي بسبب عملية تجهيل منظمة و منهجة) . رفعت الأفلام و جفت الصحف .

فالجهل افتراضياً .. هو حالة عفوية لا إرادية ، فردية أو جماعية و ليس منهج منظم ، بينما التجهيل ، هو حالة منظمة منهجة مقصودة ، لها من يقف خلفها من وراء ستار و حجب و يدعمها و يؤججها و ييسر لها سبلها .

هنالك حرب على الفكر في العالم العربي ، و لم يعد من المجد الآن مناقشة قضية الجهل ، بل وصل الأمر إلى درجة أصبح فيها من الأولى مناقشة التجهيل و ليس الجهل . هذه القضية تقع ضمن مستويات عدة تتدرج من المستويات الثقافية الدنيا لفئات الجمهور العربي ، إلى مستويات النخبة العليا ، و تتبع آلية تعتمد على التعامل مع كل سوية على حدة و بأسلوب مختلف ، وفق العناصر التالية ..

— إشغال المواطن العربي ببطنه و فرجه فقط ، و جعلهما هم الأول و الأخير .

^١ المصدر السابق .

— إيجاد حواجز كبيرة و هَوَاتٌ واسعة فيما بين الفئات الثقافية الفكرية ، عبر فصل طبقة و فئة الأُميين عن فئة شبه الأُميين و ما يعلوها ، و فصل فئة شبه الأُميين عن أنصاف المتعلمين و أنصاف المثقفين ، و فصل هذه الأخيرة عن طبقة المتعلمين المثقفين ، و هذه أيضاً يتم فصلها عن النخبة الفكرية الواعية ذات الأبحاث و الأفكار العلمية المتقدمة . فالأُمي يُترك و أميته ، و يُبارك له فيها ، و لا يُذكر أمامه الثقافة أو القراءة أو الكتابة أو كل ما يمت إلى العلم بصلة . كذا الأمر مع شبه الأُمي الذي بدوره يُبارك له هو الآخر بشبه أميته ، و يُترك هو الآخر و إياها ، مع ترديد شعارات أمام هاتان الفئتان ، بأن العلم لا شيء و لا يخدم بشيء ، و تُسخر لأجل ذلك ، منظومة فكرية سلبية هدامة ، وظيفتها تسفيه العلم و الثقافة و الفكر من أمثال شعبية مخصصة لذلك و منها على سبيل المثال لا الحصر (العلم لا يُطعم خبز — معاك قرش تساوي قرش — في هذه الأيام لا يسأل أهل الفتاة ، خطيبها عن شهادته بل عن ماله — من يتعلم هذه الأيام غير الجحش ؟؟) إلى ما هنالك من أمثال تُطرح في الأسواق و قوارع الشوارع و المسلسلات الشعبية .

— بالنسبة لأنصاف المثقفين و أشباههم ، فهؤلاء عادة ما يتم حصرهم ضمن منظومة فكرية سياسية أو دينية مصطنعة أو الاثنين معاً ، يكونون من ضمن أجندها و لخدمتها . و هؤلاء هم مثقفوا الصحف و الجرائد السياسية .. مثقفوا الأحزاب و مثقفوا المذاهب السياسية و الدينية . هم مثقفوا السلطة بشكل عام ، دينية كانت أم سياسية ، و نحن نطلق عليهم (مثقفوا المداحن) حيث تشبه طريقة ثقافتهم و تربيتهم الثقافية و سلوكهم الثقافي الفكري ، طريقة حياة الدجاج في المداحن . و بالغالب الأعم ، فهؤلاء هم من يتم الاعتماد عليهم من قبل المنظومات السياسية ، وهم الذين يفوزون بالمناصب الحكومية و الرسمية و الاجتماعية و يظهرون بالإعلام الرسمي و تُسلط عليهم الأضواء . هؤلاء بدورهم يتم فصلهم أو هم من يقومون بفصل أنفسهم ، عن المثقفين الحقيقيين و حتى

عن السويات الثقافية الدنيا من المجتمع . هؤلاء ، عادة ما تكون ثقافتهم و فكرهم محدودين و تقتصر على لون واحد . و يهمننا القول إن ليس كل هؤلاء من ذوي الانتماءات السياسية و الدينية ، هم بهذا الوصف ، و لكن هؤلاء يشكلون نسبة قليلة العدد من هذه الفئة و هو ما سوف نتحدث فيه لاحقاً .

— طبقة المثقفون الحقيقيون ، و هم المتحصلون على ثقافة عالية شاملة متنورة .. صنعوا أنفسهم بأنفسهم ، و ليس بالضرورة أن يكونوا من ذوي الانتماءات السياسية أو الدينية . و إن كان منهم من هو كذلك ، فإنه لا يمنع من أن يكون صاحب فكر حقيقي ، نير وقاد . و هؤلاء في الغالب الأعم ، معرضون لحرب خفية أو معلنة أحياناً ، و لتهميش خفي ، و لا يلقون أي دعم مادي أو اعتباري من الدولة ، حتى الذين هم ليسوا في موقع المعارضة أو الصدام مع السلطة السياسية ، لا بل حتى هؤلاء الذين يتفقون معها و مع آرائها . فالقضية إذن .. هي قضية تهميش فكر ، هي قضية إرجاع لعصر الممالك ، فهؤلاء محظور عليهم أي دور ، و الكثير منهم لا يستطيع نشر كتاب و الكثير منهم مغمور و معتم عليه و يعيش في حالة من الفقر و العوز . علماً أن هؤلاء ، هم المثقفون الحقيقيون ، و هم المفكرون الأصليون ، و هم الذين يمكن أن تقام النهضة من جديد على أكتافهم و بهم و بمعيتهم .

و إلا .. ما هو التفسير الحقيقي لتهميش هؤلاء و قمعهم فكرياً و اجتماعياً ، و أحياناً سياسياً ، إلا أن تكون هي حرب المنظومة السياسية العربية على المنظومة الفكرية ؟؟ . و تقرير المنظمة العربية للثقافة و التربية و التعليم ، بتحليل الحكومات العربية ، المسؤولية كاملة عن كون العالم العربي يحتل المرتبة الأولى أو الثانية عالمياً من حيث نسبة الأمية ، إن هو إلا إشارة واضحة لا لبس فيها إلى ذلك ، و هي كناية أبلغ من التصريح .

أين النهضة الفكرية ؟؟؟ أين النهضة العلمية ؟؟؟ أين الاختراعات ؟؟؟ أين المنفعة السياسية و الوطنية ؟؟؟ أين الصناعات ؟؟؟ أين و أين و أين ؟؟؟ ..

ألسنا الآن في حالة شبيهة بالحالة التي كانت سائدة بعصر المماليك؟؟ .. ألا نستطيع القول بجدارة و بعد كل هذا الذي حصل و يحصل الآن في العالم العربي من دمار و خراب .. إننا الآن في العصر المملوكي الثاني .. عصر المماليك الفكري؟؟ .

من المسؤول اليوم عن خواء المنظومة الفكرية الشعبية التي هي الداعم الأول و العامل الأساس في خلق مجتمعات متحضرة متقدمة؟؟ أليست الحكومات العربية صاحبة السيادة و القرار و الإمكانيات و الهيئات و المؤسسات؟؟ و صاحبة السلطة الإلزامية الإكراهية؟ و المفترض أنها الممثلة للشعوب و مفوضة من قبلها؟؟ أليست هذه الحكومات هي المسؤول المباشر الأول و الأخير عن ذلك!!! ألم يقل الرسول (ص) (كلكم راعٍ مسؤول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس ، راعٍ و هو مسؤول عنهم ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم ، و المرأة راعية على بيت بعلها و ولده و هي مسؤولة عنهم ، و العبد راعٍ على مال سيده و هو مسؤول عنه ، ألا فكلكم راعٍ و كلكم مسؤول عن رعيته)^١ . و من هذا المنطلق ، أليست الحكومات ، هي راعية الشعوب؟؟ .

هنالك إهمال واضح متعمد و مقصود ، لكل ما يمت إلى الفكر بصلة ، في العالم العربي و بالذات الفكر الشعبي . و يلاحظ وجود عملية تجهيل منظمة ممنهجة لهذا السواد الشعبي ذي النسبة الطاغية من العدد السكاني . ذلك ما يتضح من خلال استعراض الواقع الإعلامي و الفكري المتمثل بما يُعرض اليوم على قنوات التلفزة العربية ، الأرضية منها و الفضائية ، و ما يطرح في الأسواق من الصحف و الإعلانات الكتب والمنشورات ، ليس من حيث الكم فقط ، بل من حيث النوع و التوصيف و الهدف ، و هو ما سنبحث به لاحقاً . لكن و بالأحوال كافة ، لا يمنع ذلك من أن نسوق واحداً من أمثلة كثيرة لا تعد و لا تحصى ،

^١ صحيح البخاري ، ج /٢/ ، ص /٩٠١/ .

على الإهمال المتعمد للفكر ، و هو كتاب (وصف مصر) الشهير الذي تحدثنا عنه في مبحث سابق من هذا الكتاب ، و الذي هو أحد مصادرهِ الرئيسة .

لننظر في مقدمة المترجم الذي ترجم المخطوط في الطبعة الأولى و الثانية ، ثم لننظر في مقدمة ابنته في الطبعة الثالثة ، و لنتمعن فيهما ملياً لتتضح الصورة جلياً .

و نرجو القارئ أن يولي اهتمامه و تمحيصه للعبارات التي تحتها مزدوجين .

يقول المترجم الدكتور المرحوم ، زهير الشايب في مقتطفات من مقدمته التي كتبها عام / ١٩٧٩ / ميلادية ما يلي '١ " على الرغم من أن وراء هذه المبادرة لترجمة كتاب (وصف مصر) ككل ، مبادرة فردية دوافعها و أسبابها و ظروفها خاصة يسعدني أن أقدم هذه الطبعة الثانية من المجلد الأول من الترجمة العربية الكاملة لكتاب (وصف مصر) و هو المشروع الذي بدأ يرى النور لأول مرة منذ نحو ثلاث سنوات و قد وجدت من اللائق أن ألحق بهذا المجلد دراستين لم يسبق نشرهما في الطبعة الأولى ، إحداهما من وضع البارون (لاري) أحد كبار أطباء الجيش الفرنسي ، و الثانية هي مقدمة مطولة للطبعة الثانية لموسوعة وصف مصر التي تعرف باسم (طبعة بانكوك) ، و التي صدرت بموجب مرسوم ملكي صادر من الملك (لويس الثامن عشر) و قد ظهر المجلد الأول منها عام / ١٨٠٩ / ميلادية و قد كتب على غلافه أنه طبع بأمر من صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون الأكبر (بوناپرت) ، لكن بقية المجلدات التسعة قد ظهرت بعد سقوط نابليون ، و لذا كتب على غلافها بأنها قد طبعت بأمر من الحكومة (أي الفرنسية) كانت الطبعة الأولى مهداة إلى الإمبراطور نابليون ، أما الثانية فهي مقدمة إلى صاحب الجلالة الملك . و قد بدأ العمل في هذه الطبعة من عام / ١٨٢١ / ميلادية ، و انتهى في عام / ١٨٢٩ / ميلادية و لن يفوتني أن أوجه شكري لرئيس تحرير مجلة الثقافة و رئيس

١ وصف مصر ، مقدمة المترجم للطبعة الثانية .

تحرير مجلة الإذاعة و التلفزيون حين أفردا صفحات مجلتيهما لنشر أجزاء من هذا الكتاب ، مما أوحى الاهتمام بالكتاب في وقت كاد أن يصبح فيه نسياً منسياً. كما أقدم شكري للسيدة زوجتي بما قدمته لي من عون كبير برغم ظروفها الصعبة " (انتهى) .

هذه مقتطفات لبعض مما أورده المترجم في كتابه ، و هاكم مقتطفات أخرى لما أورده ابنته ، السيدة منى الشايب في مقدمة الطبعة الثالثة عام / ١٩٩٢ / ميلادية ، التي تجشمت هي و السيدة والدتها ، عناء طبعها بعد رحيل المترجم (رب العائلة) حيث تقول ^١ : لقد مضى على صدور هذا الكتاب في طبعته الأولى من الترجمة العربية ، أكثر من خمسة عشر عاماً ، لاقى خلالها و لا يزال ، الاهتمام المتزايد من القارئ و المتخصصين . و لعل السبب وراء هذا الاهتمام ، يتضح لنا مما ذكره (فورييه) في مقدمة الطبعة الفرنسية حيث يقول " لم يسبق لأي بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا النوع من الشمول و هذا التنوع ، و فضلاً عن ذلك ، فليست هناك بلاد أخرى جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر ، أمر يهم في الحقيقة كل الأمم المتحضرة .. و إذا كان لعلماء الحملة الفرنسية ، الفضل و التقدير لتأليف هذا الصرح الفريد (أي الكتاب) ، فقد أتاح المترجم الفرصة لأناس كثيرين كي يعرفوا قدر هذا الوطن العظيم الشامخ على مر العصور . . كلما زاد الاهتمام بالكتاب ، كلما تضاعفت المسؤولية ، و من ثم لم تتوان والدتي بعد رحيل أبي ، أن توقف جل شأنها لهذا العمل كي يلقي من الرعاية ما يستحقها و يظل موفوراً للقارئين . و لقد بذلت والدتي من الجهد في سبيل ذلك ، ما ينوء بأولي العزم من الرجال ، و مزيداً من الحرص على هذا العمل مع أنها مثقلة بحملها ، و أثرت أن تنشر هذه الموسوعة على نفقتنا الخاصة و ما ذلك على الناشرين بيسير . و كانت هذه

^١ المصدر السابق ، مقدمة الطبعة الثالثة لابنة المترجم .

الطبعة التي نقدمها بين يدي أعزائنا القراء و الدارسين ، هي أحد ثمرات هذا الجهد المضني الذي تبذله والدي طوال سنين .. و الله خير معين " (انتهى) .

كتاب (وصف مصر) الذي هو الموسوعة الأولى الأشهر في العالم ، و يُطبع بأوامر ملكية عليا من ملوك أوروبا و أباطرتها ، نظراً للأهمية العلمية و التاريخية و العلمية و الثقافية و الفكرية التي اكتشفها هؤلاء الأباطرة الكبار و العظام في هذا المخطوط ، هؤلاء الذين احتلوا العالم و تربعوا على سدة حكم دول كبرى عظمت ، و منذ قرون ثلاث ، يدركون أهمية هذا المخطوط و يأمرن بطباعته و يتباهون باقتناء نسخ منه ، علماً أنه لا يمت إلى حضارتهم بأدنى صلة ، بل إلى حضارة مشرقية أوسطية . و بالرغم من ذلك ، يتحملون مشقة طباعته التي استغرقت سنوات ثمان ، و هو ما دعا أحد مؤلفيه إلى القول إنه لم يسبق لأي بلد آخر أن خضع لأبحاث مثل هذا النوع ، و إن معرفة مصر ، أمر يهم كل الأمم المتحضرة . هذا المخطوط إياه ، لا يُترجم و يُنقل إلى العربية من قبل منظومات بني يعرب ، إلا في عام / ١٩٧٩ / ميلادية و كيف !! بمبادرة فردية لها دوافعها الخاصة ، من قبل شخص مدني أخذ على عاتقه القيام بهذا العمل الكبير ، و ليس المنظومة السياسية أو الحكومات العربية كما فعل الأوروبيون المتحضرون !!! فهي إذن .. مبادرة عائلية فردية . و يعرض في معرض دوافعه لإعادة طباعة الكتاب مرة أخرى ، أنه كاد أن يكون نسياً منسياً ، و يقدم شكره لزوجته التي وقفت إلى جانبه و شاركته العمل متحملة الأعباء و الجهد ، لأنه على ما يبدو ، لم ينتطح أحد من أصحاب المعالي ذوي الأوتاد ، للقيام بهذا العمل الجليل !!! .

و بعد وفاة المترجم (ربما قهراً) يلف النسيان الكتاب و الإهمال ، شأنه شأن الكثيرين الكثر من أقرانه و أقران المترجم المفكر ، لتأتي زوجته السيدة الجليلة المحترمة ، و تعيد طباعته بعد خمسة عشر عاماً ، متحملة التكاليف و الأعباء مرة أخرى ، و تبذل الجهود ما ينوء به أولي العزم من الرجال ، هذا إذا كان قد بقي

بقية من رجال !!؟؟ و تحتتم ابنته مقدمتها بعبارة (و الله خير معين) ، نعم ..
الله جل جلاله ، خير معين للمفكر الحقيقي هذه الأيام ، بعد أن افتقد كل العون
و أصبح عرضة للمضايقه و التهميش و العزل ، و أصبح شأنه يجعلنا نستشهد
ببيتين للأحنف العباسي الشاعر ، و نستبدل كلمة (المفكر) بكلمة (الفقير)
فيها و نقول ..

يمشي المفكر و كل شيء ضده و الناس تُغلقُ دونه أبوابها
و تراه مبعوضاً و ليس بمذنب يرى العداوة لا يرى أسبابها .

فلهذه العائلة الكريمة ، جزيل الشكر و الاحترام ، و عظيم التبجيل ، و طويل
الانحاء . فهؤلاء هم المفكرون الحقيقيون الذين تحدثنا عنهم آنفاً .

إن جدلية و إشكالية العلاقة بين المنظومة السياسية الراهنة في العالم العربي المثلثة
بالحكومات و الأنظمة العربية ، و بين المنظومة الفكرية العربية ، تنبدى في مظهر
من مظاهرها الخفية أو الغير مباشرة ، من خلال قضية خطيرة جد الخطورة ،
ظهرت في القرن العشرين و ربما لم تظهر من قبل ، و هي قضية اغتيال و قتل
العلماء و المخترعين العرب ، الذين و حسب بعض المصادر ، كانت تصفيتهم
تم عبر أجهزة استخبارات أجنبية . و ما يلفت النظر حول هذه القضية ، هو
كثرة العلماء العرب الذين تتم تصفيتهم ، و بعض الإحصائيات تحدثت عن
ثلاثة آلاف عالم و مفكر عربي تمت تصفيتهم¹ .

و قبل أن نخوض في هذه القضية ، نورد أهم حوادث القتل التي تعرض لها بعض
من أهم هؤلاء العلماء ، من الكتب و الصحف الرسمية .

¹ الموساد اغتيال زعماء و علماء . و هو المرجع العام المعتمد لهذا المبحث .

— شيخ العلماء العرب و أولهم ، العالم اللبناني الدكتور حسن كامل صباح ، الذي بزغ نجمه و علمه في الميادين العلمية معظمها . و كان لها ما يقارب المائتي اختراع على غاية من الأهمية و الفائدة للبشرية . و قد اعترفت بها دول العالم العظمى و الكبرى و غيرها ، و سجلتها لديها كبراءات اختراع ، من الولايات المتحدة الأمريكية و انكلترا و فرنسا ، إلى إيطاليا و اليابان و استراليا و غيرها . كان أول اختراع له ، عام / ١٩٢٧ / م ، و هو عبارة عن جهاز يقوم بقياس و معايرة الضغط و الشدة الكهربائية اللازمين لتشغيل الآلات و الأجهزة . ثم اخترع في السنة التي تليها ، جهاز شبيه بالتلفاز يقوم على مبدأ انعكاس الإلكترونيات من فيلم مشع رقيق . و في عام / ١٩٣٠ / اخترع جهاز لنقل الصورة ، قامت عليه السينما الحديثة . على أن أهم اختراعاته ، كان جهازاً لتحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة كهربائية ، و قد عرضه على بعض الملوك العرب للاستفادة منه ، لكن لم يتيسر له ذلك ، ثم قام باختراع محرك طائرة شبيه بالمحركات النفاثة للطائرات اليوم ، و لم يتسنى له أكمل مشرعه ، كونه تعرض لحادث سير مأساوي ، فارق على إثره الحياة ، و لم يستطع الأطباء تحديد سبب الوفاة كون جسده كان بحالة سليمة و هو ما رجحت بعض الصحف ، أن يكون حادثاً مدبراً .

— العالم اللبناني رمال حسن رمال الذي وصفته الصحف الفرنسية بأنه مفخرة فرنسا ، و اعتبر سابع شخصية من بين مائة عالم من علماء فرنسا . عمل في المركز الوطني الفرنسي للبحوث العلمية الذي يضم نخبة علماء فرنسا ، و ما لبث أن أصبح مدير قسم الفيزياء فيه . و قد توصل إلى اختراعات و اكتشافات هامة في مجال الطاقة و أهمها ، الطاقة البديلة ، كالتقوية الشمسية و الكهرباء الجوية ، و الطاقة الصادرة عن المواد و الأجسام ، و قد وجد هذا الرجل ميتاً في مخبره دون معرفة الأسباب التي رجحها البعض بالسلم .

— العالمة الدكتورة سميرة موسى التي اقتصت بالعلوم النووية و قد تلقت دعوة للسفر إلى أمريكا عام / ١٩٥١ / ميلادية . و هنالك أجرت بحثاً في الذرة و مجالها ، و قد تلقت عروضاً مغرية للبقاء ، لكنها آثرت العودة إلى وطنها مصر . و قبل عودتها ، وُجّهت لها دعوة لزيارة معامل نووية في ولاية كاليفورنيا ، و في الطريق إلى هناك ، صدمت شاحنة كبيرة ، سيارتها و أُلقت بها في الوادي المجاور للطريق ، و قد تمكن السائق من القفز من السيارة بينما لاقت العالمة الدكتورة سميرة حتفها .

و قد تبين فيما بعد من التحريات التي أجرتها السلطات الأمريكية ، أن الدعوة كانت وهمية و أن السائق كان يحمل اسماً مستعاراً ، و قد اختفى هو الآخر بدوره . و تم تسليم والدها دفتر يوميات صغير كانت تدون فيه ملاحظاتها . و كانت آخر عبارة دونتها فيه .. (ثم غربت الشمس) و فعلاً غربت الشمس .

— العالم المصري مصطفى مشرفة^١ الذي اكتشف سر القنبلة الذرية ، و كان ضمن سبعة علماء عملوا مع العالم اليهودي الكبير (آينشتاين) و تتلمذوا على يديه . عاد بعد انتهاء دراسته و هو يمتلك معلومات حول كيفية صناعة هذه القنبلة و فور عودته إلى مصر عام / ١٩٥٢ / م . صرح لوسائل الإعلام بذلك و قال أنه توجد بمصر الإمكانيات اللازمة لذلك . و بعد أيام من تصريحه هذا ، عثر عليه جثة هامدة في المصنع خاصته ، و سجلت القضية ضد مجهول .

— العالم الدكتور سعيد السيد بدير^٢ الذي احتل المرتبة الثالثة على مستوى العالم في مجال الالكترونيات و الاتصالات الفضائية ، حصل على شهادة الماجستير في الهندسة الكهربائية ، بمصر ، ثم حاز شهادة الدكتوراه في الهندسة الالكترونية من انكلترا . بعد ذلك ، سافر إلى ألمانيا و قدم ثلاث عشر بحثاً علمياً غاية في الأهمية و الإنجاز العلمي ، و هي بحوث تتعلق بالأقمار الصناعية و

^١ الموساد اغتيال زعماء و علماء عرب . و بعض مواقع الإنترنت .

^٢ المصدر السابق .

التحكم بالمعلومات المرسله من القمر الصناعي إلى الأرض ، مهما كان نوع القمر ، بالإضافة إلى أخطر بحث و هو فك شيفرة الاتصالات بين الأقمار الصناعية و الأرض . ثم قرر العودة إلى مصر بعد تعرضه لمضايقات و تهديدات لكي يبقى في ألمانيا . و بعد عودته بيومين إلى مصر عثر عليه جثة هامدة أمام إحدى العمارات عام / ١٩٨٨ م . و جاء في التحقيق أن الرجل انتحر بقطع شرايين يده و القفز من الطابق الرابع في الشقة التي كان بها ، ثم طويت القضية بناء على ذلك . لكن زوجة العالم سعيد بدير ، قالت بهذا الخصوص : إن زوجي لم ينتحر ، و ما حدث معه ، يرجع إلى أنه كان يعد بحثاً هاماً يستطيع من خلاله كشف شفرات الاتصالات بين سفن الفضاء و الأقمار الصناعية في الأجواء ، و كان يقول لي دائماً خلال وجودنا في ألمانيا : لقد توصلت إلى نتائج في أبحاثي ، لن يصل إليها الألمان قبل عشر سنوات . و عندما عاد سراً إلى مصر، طلب في اتصالاته مع المسؤولين المصريين استثمار أبحاثه العلمية و تطبيقها في مجال التصنيع الإلكتروني ، إلا أن طلبه رُفض .

— عالم الذرة سمي نجيبي الذي كان من كبار العلماء في أمريكا ، و عندما قرر العودة إلى مصر و رفض كل المغريات و الوعود و الطلبات بالبقاء ، تعرض لحادث سيارة أودى بحياته .

— العالم الدكتور نبيل القليبي الذي تم إيفاده إلى تشيكوسلوفاكية لإكمال تخصصه في العلوم الذرية ، لكنه اختفى هناك ، في ظروف غامضة .

— العالمة السعودية الدكتورة سامية عبد الرحيم التي قامت باختراع جهاز يدعى (الجونج أو جونك) و هو جهاز له القدرة على التحكم بالخلايا العصبية من فتح و إغلاق ، و اعتبر آنذاك الاختراع الوحيد بالعالم في هذا المجال ، الأمر الذي قلب الموازين في علم الأعصاب و المخ و جراحتهما ، و قد عرض عليها التنازل عن اختراعها هذا مقابل مزايا هائلة لا يحلم بها إنسان لكنها رفضت ، فكانت النتيجة أن عادت إلى أهلها بالتابوت .

— العالم المصري يحيى المشد الذي كان أحد المسؤولين عن البرنامج النووي العراقي ، و قد أوفد إلى فرنسا أواخر سبعينات القرن الماضي للتباحث مع السلطات الفرنسية حول مسألة توريد بعض القطع اللازمة للمفاعل النووي العراقي . و كان الرجل يقيم وحيداً في الفندق . و في إحدى المرات ، دخل الرجل منفرداً إلى المصعد و دخلت خلفه إحدى العاهرات التي بدأت بالتحرش به في محاولة لإغرائه ، لكنها لم تفلح بسبب استقامة الرجل ، بعد ذلك بفترة وجيزة طرق عليه أحد الأشخاص ، باب غرفته بالفندق و عرض عليه مبلغاً هائلاً من المال لقاء التعاون ، فرفض المشد طلبه و انتهره و طرده من الغرفة . بعدها بأيام دخل مجهولون إلى غرفته بالفندق و اعتدوا عليه بالضرب بأداة حادة ما أدى إلى وفاته . و لم يحضر جنازته أي من المسؤولين العرب ؟؟؟؟!!!! .

هذا غيض مؤلم مقرف من فيض ألم و أقرف ، من حالا القتل و التصفية التي تعرض و يتعرض لها العلماء و المفكرين العرب ، داخل بلادهم و أوطانهم ، و خارجها . كل أمم العالم تحترم علماءها و مفكريها و مبدعيها ، إلا دويلاتنا و كياناتنا السياسية و المذهبية ، فإنها تحتقرهم و تنبذهم و تكفرهم و تفسقهم . الدول العظمى و الدول المتقدمة و الدول الساعية نحو التطور و اللحاق بركب الحضارة ، تستقطب العلماء و المفكرين و المبدعين ، تبحث عنهم داخل أراضيها و خارجها ، فتعتمد إلى استحضارهم جميعاً و إغراءهم بشتى المغريات ، و تحقق لهم كل ما يتمنون و ما تصبو إليه نفوسهم ، و تعدهم الوعود و تلببها لهم على الفور و تجعلهم في مقام المحمودين ، بينما الحكومات العربية تتحاشى هؤلاء و تبتعد عنهم كأثم الوباء و كأثم شياه جرباء .. كأثم الطاعون . و تحرص على إبقائهم في دائرة العتمة و الظلام و تجعلهم في مقام المغضوب عليهم و تضيق عليهم السبل إما ليطفشوا خارج بلادهم إلى البلدان المتقدمة حيث يرحب بهم هناك و تقدم لهم كل وسائل المساعدة و الدعم و الإمكانيات

بالتزامن مع أدوات الإغراء و المنفعة للبقاء ، أو يكونوا عرضة لكل عارض و أكلة لكل آكل ، فيقتلون وسط صمت رسمي عربي رهيب ، يثير السخرية و الذل و العار .

إن الحوادث السابق ذكرها كأمثلة ، تدل على وقائع حية لا يمكن تجاهلها أو التعمي عنها ، أولها .. وجود منظومة علمية عربية متقدمة ، و على مستوى عالي راق جداً و يضاهاي أرقى المنظومات العلمية و الفكرية في العالم ككل .
ثاني هذه الوقائع أو المعطيات .. أن وجود هذه المنظومات العلمية لم يكن من منطلق أو رحم المنظومة السياسية العربية ، بل هي تقريباً شكلت نفسها بنفسها بناء على مبادرات فردية على الأرجح و مواهب عصامية ، فهي لم تكن وليدة قرار وطني سياسي قائم على مبدأ المؤسسة و التنظيم الهيكلي كما هو الحال في البلدان المتقدمة ، بل كانت عبارة عن همل متشردمة لا تجمعها رابطة مستقلة أو رسمية منفردة .

ثالث الوقائع و الصور هذه .. أن المنظومة العربية العلمية المتقدمة ، تعرضت لإهمال واضح و ربما مقصود ، من المنظومة السياسية ، و هو ما سهل عملية صيدها و اصطيلها من قبل الأطراف الخارجية ، إن صحت كل تلك الوقائع المذكورة آنفاً . و الملاحظ أن عمليات الاغتيال تلك ، كانت تتم وسط أجواء و ظروف عادية اعتيادية لا تحتاج إلى كل هذا التعقيد ، بل أقصى ما فيها ، أن يدخل الفاعل مرتكب الجريمة منفرداً إلى ضحيته غير الاعتيادية ، و يقوم بارتكاب جريمته بكل بساطة و يخرج و كأنه في نزهة ، أو يقوم بدهسه و صدمه بسيارة أو شاحنة على قارعة الطريق دون أدنى حماية أو حراسة أو أي إجراء أمني للضحية الهدف . و هذا دليل واضح على أن هؤلاء العلماء كانوا للأسف الشديد ، أشبه بجرفان تائهة شاردة انفصلت عن القطيع أو بالأحرى فصلها الراعي عمداً عن القطيع و تركها همللاً و تجاهلها إرادة ، لينفرد بها الذئب قتلاً و نهشاً .

رابع الصور و الوقائع .. وجود علاقة جدلية في قضية تصفية العلماء العرب ، تقع بين أطراف ثلاث شكلت أثناف قامت عليها هذه القضية و هي (العلماء العرب - الحكومات العربية - الجهات الأجنبية) . في هذه القضية بالذات ، يتم الحديث عنها و تناولها في شذرات متقطعة إعلامية لا تفيها حقها ، و تحصرها بين طرفين اثنين .. العلماء العرب و الجهات الأجنبية . و يتم إغفال الحكومات و الأنظمة العربية أو المنظومة السياسية العربية و جعلها خارج إطار تلك المعادلة . ذلك كله ما يحدونا إلى التساؤل عن مسؤولية الحكومات و الأنظمة العربية ، عن النخب العلمية و الفكرية العربية المسؤولة منها .

أنا أرتاح نفسياً عندما يقولون اغتيال عالم عربي أو مفكر عربي بالرصاص ، أما أن يقال .. مات محروقاً بالبيوتوغاز أو سقط من شاهق ، أو عضه القطة أو نطحه الثور أو تزحلق بالطريق و مات أو .. أو .. فهذا و الله العيب بذاته . عندما يقال تم اغتيال العالم العربي فلان الفلاني بعملية محكمة منخطط لها طويلاً من قبل أجهزة الاستخبارات الفلانية و جند لأجلها العشرات من الرجال ، و رصد لها الملايين من الأموال ، و استطاع الفريق اجتياز كذا عائق أممي حتى وصل إلى الهدف . نعرف أن هذا العالم له قيمة عند حكومة بلاده . أما عندما يقتل بالطرق التي ذكرت آنفاً و يذكر موته كما في صفحة الوفيات اليومية بالصحف بإشارة عابرة ، و يُمرّ عليه لا مرور الكرام ، بل مرور اللثام ، فهنا المصيبة الأعظم ، على مبدأ المثل القائل .. إن كنت لا تدري فتلك مصيبة و إن كنت تدري فالمصيبة أعظم .

لماذا يتم التهجم دائماً في تلكم الحالات ، على الموساد أو غيره ؟؟ أليس من حق الموساد أو جهة ما ، أن تقوم بقتل شخص ما تراه خطراً عليها ؟؟ أليس هذا ما يحصل في كل دول العالم ؟؟ أليست هذه هي قوانين و قواعد اللعبة السياسية ، أو بالأصح لعبة الخصومة و العداء السياسي و العسكري ؟؟ أليست هذه هي لعبة الحرب ؟؟ فلماذا ننكرها على غيرنا ؟؟ أنا (فرضاً) ملاكم في حلبة

ملاكمة و أمامي خصم ، أليس من قواعد اللعبة أن يوجه هذا الخصم لي لكمة؟؟
 أليس من حقه ضمن قواعد اللعبة أن يتحين الفرص و يتحين حركة خاطئة مني
 ليوجه لي اللكمات؟؟ أليس من حقه أن يوجه لي الضربة القاضية و يسقطني
 أرضاً؟؟ لماذا أحمل خصمي السياسي أو العسكري أو حتى خصمي في لعبة ما
 أياً كانت ، المسؤولية الأخلاقية عن مهاجمتي و هزيمتي و إلحاق الأذى المادي أو
 الخسارة الاعتبارية المعنوية بي؟؟ . و هو أمر يعيدنا كرّة أخرى إلى الشاعر عمر
 أبو ريشة حين يقول في قصيدة له ..

أمّي كم صنم مجّدته	لم يكن يحملُ طهرَ الصنم
لا يلام الذئب في عدوانه	إن يكُ الراعي عدو الغنم
فاحبسي الشكوى فلولاك لما	كان في الحكم عبيد الدرهم

الدعاة المفكرون و المثقفون :

المفكر عبر التاريخ ، هو الحامل و المولّد للفكر ، أياً كان هذا الفكر . و حتى
 نعطي صورة أوضح لمفهوم (المفكر) و صورته ، لا بد من العودة إلى القرون
 الأولى من التاريخ ، و منها وصولاً إلى وقتنا الراهن هذا .

لقد اختلفت المسميات و الأوصاف و السمات و الوظائف و الأدوار ،
 للشخص المفكر عبر المراحل الزمنية التاريخية و حسب الأمكنة الجغرافية و
 الحضارات الإنسانية أيضاً .

بداية .. من هو المفكر كتعريف اصطلاحى مجرد خارج النطاق الزمني السياسي
 و الاجتماعي أو الديني؟؟ .. المفكر هو الإنسان الذي يُعمل تفكيره في قضية ما
 أو إشكالية معينة . و من حيث المبدأ ، فإن الكائنات الحية جميعها ، هي كائنات
 مفكرة ، و لا ندري ما هو وضع النبات بالضبط في هذه القضية .

إذن .. الجميع مفكر ، و الكل يفكر ، بدءاً من البعوضة التي تفكر بكيفية البحث عن رزقها المخضب بالدماء ، و تفكر كيف تختار أفضل الأماكن لتموضعها و تكاثرها و احتباؤها و هروبها من أعدائها الحيويين . كذا الأمر ، بما يسمى (قنديل البحر) ذلك الكائن الهلامي الأجوف الذي لا مخ له و لا أي عضو آخر ، و الذي اتضح بعد تجارب معينة ، أنه يفكر بطريقة متطورة . و كذا الأمر بالنسبة للنمل ، هذا الكائن الذي أثبتت بعض الدراسات الأمريكية ، أنه يفكر بطريقة عقلانية أكثر من بني البشر . مروراً بمعاشر الحمير و البقر التي اتضح أنها على مستوى من التفكير و الذكاء لا يستهان بهما .. فالحمار و حسب ما يُعرف عنه ، أنه لا يخطئ بطريق أو درب ، مرّ به من قبل ، و أنه يختار أفضل الطرق و الممرات . و قديماً ، كان معاشر البشر الآدميين إذا أرادوا شق طريق في أرض وعرة ، أتوا بحمار و أطلقوه فيها على سجيته و راحته لا يزعجه أحد ، ثم تتبعوا خطواته و خط سيره ، و شقوا الطريق بموجب ذلك . وصولاً إلى الإنسان الذي سُمي بالعاقل و نسب إلى العقل ، كونه يمثل أكثر الكائنات عقلاً و أعقدها تفكيراً .

إذن .. (يخزي العين) الكل يفكر ، و الكل ما شاء الله .. مفكر ، و لا أحد يبدو أنه يفتقر أو يفتقد هذه الملكة . لكن القضية هنا تتعلق بمسألة التفاضل و التمايز العقلي و الفكري . و كما قال الشاعر الكبير أبو الطيب المتنبي :

لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْعِمٍ أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ
وَلَمَّا تَفَاوَسَتِ النُّفُوسُ وَدَبَّرَتِ أَيِّدِي الْكُفَمَاةِ عَوَالِي الْمُرَانِ

و بما أن القضية هي قضية تفاضل ، فإن تعريف المفكر هو .. الإنسان الأكثر قدرة على التفكير حول مسألة معينة و استنباط الحلول الناجعة لها ، و هو الأكثر تفكيراً حول خلق أو اختراع أو اكتشاف أداة معينة تخدم البشرية و

الإنسانية ، مادية ميكانيكية كانت ، أم اعتبارية اصطلاحية ، و هو شخص مميز عن أقرانه من البشر المفكرين . فالذي اخترع أو اكتشف العجلة الدائرية ، هو مفكر و الذي اكتشف أن الحيوان يمكن أن يقدم خدمات كبيرة للإنسان و يمكن استخدامه و ترويضه أو تدجينه لهذه الغاية ، هو شخص مفكر . و يقاس على ذلك كل الاكتشافات و الاختراعات البشرية ، منذ فجر الحضارات الإنسانية الأولى ، إلى يومنا هذا .

هذا الشخص المسمى بالمفكر ، احترمه الناس و قدروه منذ القدم و اختلفت أسماءه و صفاته باختلاف العصور . فقديمًا أُطلق عليه لقب (الحكيم) و فنته التي ينتمي إليها ، أُطلق عليها لقب (الحكماء) و هم الذين كان الحكام يعتمدون عليهم و يتكلمون في إدارة بعض أهم شؤون المملكة و قضاياها الخطرة الجسام . و فيما بعد ، أُطلق على هذه الفئة لقب (الفلاسفة) ، و هؤلاء كانوا أحيانًا يتموضعون في مواقع سياسية و دينية حساسة ، لكنهم و بمجمل الأحوال كانوا مقربين من الملوك و الأباطرة و الحكام .

و بلغ من أهمية هذه الفئة و أهمية وظيفتها أن قال أفلاطون مقولته الشهيرة (لن تستقيم البشرية و يسعد الإنسان إلا إذا ملك الفلاسفة أو تفلسف الملوك و الحكام فلسفة صحيحة تامة و توحدت القوتان السياسية و الفلسفية في شخص واحد) . فهؤلاء كانوا و ما زالوا ، هم الحامل الأساس للحضارة في أية بقعة من بقاع الأرض و مصر من أمصارها . و تطور اسم هؤلاء مع تقدم الزمن ، ففي القرون الوسطى و ما بعدها ، أصبح اسمهم (العلماء) و هم الذين قامت على أكتافهم الثورة التقنية العلمية في أوروبا . هؤلاء جميعهم يندرجون في خانة المفكر الذي هو بنظرنا يخضع أيضًا للتعريف التالي .. المفكر هو الشخص المميز فكرياً عن الآخرين من ذوي التفكير .

و اليوم .. في الوقت الراهن ، ظهرت مصطلحات و مسميات جديدة أُضيفت إلى هؤلاء أشهرها كلمة (المثقف) و هو مصطلح برز في بداية القرن الماضي ،

و قد قابله في المصطلحات الأجنبية كلمة (أنتلجنسيا) . و المثقف بشكل عام و حسب الاصطلاح و التعبير العالمي ، ليس بالضرورة أن يكون عالماً مخترعاً مكتشفاً ، في أغوار العلوم التطبيقية المادية ، لأن هذا العصر الذي تعيشه البشرية الآن ، أضحي عصر التخصصات و المجالات المنفصلة رئيسياً و فرعياً ، إما أنها تختلف بعضها عن بعض في المجالات و الأقسام ، أو يتبع بعضها بعضاً في ذات المجال و القسم . و كلمة المثقف حسب الاصطلاح اللغوي تحمل دلالة العلم و التميز فيه و دلالة المعرفة و الذكاء و النبوغ ، جاء في لسان العرب : **ثَقِفَ** الشيءَ **ثَقْفًا** و **ثِقَافًا** و **ثُقُوفَةً** ، أي **حَذَقَهُ** . و يقال : **ثَقِفَ** الشيءَ و هو **سُرْعَةُ** التعلم . و **ثَقِفَ** ثَقْفًا مثل **تَعَبَ** **تَعَبًا** أي صار **حَادِثًا فَطِنًا**، فهو **ثَقِفٌ** ، و غلام **ثَقِفٌ** أي ذو **فِطْنَةٍ** و **ذِكَاءٍ** ، و المراد أنه ثابت المعرفة بما **يُحْتَاجُ** إليه (انتهى) .

و الثقافة عند العرب تعني أيضاً التحصيل و تعني تقويم الاعوجاج ، قيل : ثقف الشيء أي قوم اعوجاجه . و المثقف في يومنا هذا ، هو الشخص المتحصل على المعارف و العلوم العامة .

و بما أنه لا يوجد في العالم العربي اختراعات و لا مخترعين ، و لا صناعات و لا مصنّعين ، و لا فكر إنتاجي تقدمي يُعتد به و لا مفكرين ، فإن الخيار الوحيد المطروح أمامنا للتوصيف ، هي كلمة (المثقف) . وإذا كنا قد قلنا كلمة (مفكر) أو سنقول ، فهذا يعني استثناء شاذاً . أيضاً كذلك الأمر بالنسبة لكلمة (علماء) أو (عالم) .

هنالك تساؤلات عدة تخطر في البال عند سماع كلمة (مثقف) .. ما هو تعريف المثقف؟؟ و ما هي وظيفته و ما هو واجبه؟؟ و ما هو دوره؟؟ و أين موقعه الآن في المجتمعات العربية؟؟ و هل يحمل اسمه على مسماه و معناه؟؟ أم أن شأنه شأن بقية المفاهيم الأخرى السامية العليا المفرغة من المضمون و لا يوجد منها سوى هياكل صدئة مهترئة؟؟ . أسئلة كثيرة تعتمل في الرأس ، و

تساؤلات عدة تدور فيه ، لكنها جميعاً تدور في فلك تساؤل واحد .. ما هي هوية الفكر العربي المعاصر اليوم بالنظر إلى هوية المثقف العربي اليوم؟؟؟..

بداية لا بد لنا من الحديث عن الثقافة و علاقتها بالمثقف لنستطيع تكوين صورة واضحة عن هوية الفكر العربي المعاصر السائد الآن .. إن كلمة المثقف مرتبطة بكلمة الثقافة و إحداهما مشتقة من الأخرى . فالثقافة ، هي بشكل من الأشكال صورة عن الفكر و تعبير عنه ، سواء أكانت ثقافة فردية أم ثقافة شعبية أم ثقافة فكرية إيديولوجية متحيزة .. ضمن المجال السياسي أو الديني . و الكلام عن تأثير الثقافة في مجتمع ما ، و تفاعلها مع أفرادها و تغلغلها في عقولهم و نفوسهم ، ليس من السهولة بمكان ، فهو قضية ذات أبعاد كثيرة متشعبة ، تتعلق أولاً بتعريف الثقافة كمصطلح . و ثانياً بتوصيفها لجهة النوع و من ثم الكم . و أيضاً بتوصيف المجتمع الموجودة فيه و السمة الفكرية التي تسم هذا المجتمع . و عندما نقول الفكرية فنحن هنا نميزها عن الثقافية بالرغم من أنهما كما ذكرنا قبل قليل قد تكون صورة عنها . . لأن مصطلح الثقافة بنظرنا ، يتبع السمة الفكرية التي تسود نفس المرء و المجتمع و تتسلط عليهما . فهناك مجتمعات متخلفة فكرياً و حضارياً و علمياً ، و تنحدر إلى درجة متردية من العلاقات البشرية و احترام الذات الإنسانية ، و مع ذلك أنتجت ثقافة ، لكنها ثقافة بغيضة غير مقبولة أخلاقياً و دينياً ، و من رحم فكري معين . و هي تنظر إلى ما تزعمه من ثقافة ، على أنه قمة الفكر و الثقافة في العالم . و تُطبع لأجلها الكتب بعناوين مطبوعة بماء الذهب ، و تُسَخَّر لأجلها فضائيات و وسائل إعلام تنحصر مهمتها فقط في نشر تلك الثقافة . كما أننا نجد أنفسنا في كم هائل من المطبوعات و الندوات و المحاضرات و المؤتمرات ، لكنه من حيث النوع ، لا يرقى إلى مستوى كلمة (ثقافة) بمعناها الحقيقي العلمي المنطقي العقلاني . فالثقافة إذن ، هي نوع قبل أن تكون كم . و بالتالي فإن تأثير الثقافة أياً كانت ، على المجتمع أياً كان ، يتعلق أساساً بالسوية الفكرية لهذا المجتمع و نوعيتها ، و

يتعلق أساساً بسوية الحراك الثقافي العامل في المجتمع و فاعليته في حال وجود هذا الحراك .

بناء عليه و عليه بناء ، فأن العبرة النهائية ، هي في نوعية الثقافة و ليس في كميتها ، لأن التأثير الثقافي حسب ما اتضح لنا أخيراً و بالذات بعد الأحداث التي تمر بها المنطقة العربية الآن ، موجود في أية ثقافة مهما كان نوعها و صفتها، و أن الإنسان العربي عموماً يخضع لتأثير ثقافي فكري هائل و ضاغط يتعرض له منذ الطفولة و حتى الممات .

لقد أصبح كل ما حولنا و ما نراه و ما نسمعه ، هو تأثير ثقافي .. حتى الإعلانات التجارية ، أضحت الآن تخفي في طياتها شيئاً من التأثير و التحوير الفكري و الثقافي . فالقضية الآن هي قضية النوع و الكيف و ليس قضية الكم و الحجم . و أنا .. مؤلف هذا الكتاب ، توصلت منذ مدة إلى نتيجة مؤداها أنه يوجد هنالك ما أسميه (ثقافة الجهل) .. هل تعلم أيها القارئ العزيز أنه يوجد ثقافة للجهل؟؟ ألا يوجد ثقافة للقتل؟؟ ألا يوجد ثقافة للكره؟؟ ألا يوجد ثقافة للتطرف؟؟ ألا تشكل كل هذه الجزئيات الثقافية ثقافة الجهل الكلية؟؟ . بنظرنا ، لا يوجد تصرف جماعي ، حتى على مستوى أفراد قلائل مهما كانت سويتهم العلمية ، دونما تأثير فكري إيديولوجي ينبع من ثقافة معينة ، حتى و لو كان الشخص أمياً لا يقرأ و لا يفقه .. التبعية العمياء تنطلق من ثقافة لها حدودها و أطرها و كيانها الفكري المتمثل بعوامل و أسس مادية مخطوطة و مسموعة و مرئية و لها تأثير هائل يصل معه المرء إلى درجة معينة من العمر قد لا ينفع معه وعظ و لا منطق و لا عقل . و لذلك نقول .. بالنسبة للتأثير الثقافي في المجتمع يجب أولاً تحديد نوع الثقافة ، فإذا أردنا مجتمعاً متقدماً مزدهراً يأخذ بتلابيب الحضارة الإنسانية و يتبع أسباها ، علينا نشر الثقافة البناءة الإنسانية و الفكرية العملية .

بوضوح و صراحة ، علينا إلغاء ثقافة الطائفية و المذهبية و العشائرية و ثقافة الكراهية و لا نقول إلغاء الطوائف أو المذاهب فهذه حالة تاريخية واقعة و موجودة . الطائفة غير الطائفية ، و المذهب غير المذهبية ، و الانتماء لطائفة أو مذهب غير التعصب و التمذهب لهما و تكفير المختلف عنهما . علينا نشر ثقافة المواطنة في المجتمع . علينا نشر ثقافة الحوار مع الآخر الديني و المذهبي و السياسي و الطبقي .

لكي نوضح أكثر يجب أن نكون واضحين أكثر .. هنالك ثقافة خوف من الحوار مع الآخر ، و هي ثقافة منتشرة عندنا و مؤثرة بشكل كبير ، و هذا أحد الأمثلة على التأثير السلبي للثقافة في المجتمع . تجلس مع أخ لك في المواطنة من دين أو مذهب مختلف و تحاوره بشكل اعتيادي بسيط و بمجرد أن تبدأ بالاقتراب من التابو المزروع في ذهنه منذ الطفولة ، حتى تجده قد تحفز و اتخذ الوضعية القتالية و قام بزرع الألغام و الأحزمة الناسفة (معنى مجازي) من حوله و تترس خلف حائط بيتون الخوف المزروع فيه من نقاش و حوار الآخر . و في بعض الأحيان فإنك قد تغامر بفقدان علاقتك معه أو هجرانه لك هجراً جميلاً في أحسن الأحوال . هذا يقودنا إلى التساؤل عمّن يتحمل المسؤولية في التأثير الثقافي بالمجتمع . و الجواب مباشرة : هي مسؤولية تكاملية دائرية بدءاً من أصغر وحدة في المجتمع و هو الفرد مروراً بالأسرة و المدرسة و الحي و المدينة و رجال الدين و رجال الأعمال و المؤسسات الاجتماعية و الثقافية و حتى التجارية و غيرها و انتهاء بالدولة نفسها .

تبعاً لما سبق فإن التأثير الثقافي في مجتمع من المجتمعات ينبع حصراً من الفكر السائد و المهيمن فيه ، و يعتمد على طرفية ثنائية هي المؤثر و المتأثر و بمعنى أدق ، فكر المؤثر و فكر المتأثر ، ففي مجتمع الجاهلية مثلاً رأينا كيف كان الشعر هو الفكر الثقافي السائد ، و كيف كانت قصائد كبار الشعراء بمثابة الموجه و المؤثر الفكري ، فكانت القصيدة هي التي تلهب حماس الأفراد و توجههم باتجاه

معين كالأخلاق و الشجاعة و التعاضد و رفع الظلم و النخوة و حب الوطن .
و لعلنا نلاحظ أن القصائد العربية آنذاك ، كانت تبدأ أولاً بالتحديث عن
الأطلال ، حتى و لو كانت القصيدة غزل أو مدح .. الخ . هذا توجيه معنوي
نحو التعلق بالأرض و تأثير ثقافي كي يدرك الإنسان العربي هويته . كذا الأمر في
العصر العباسي حيث كان الشعر و الكتابات النثرية و ظهور طبقة الكتاب و
المؤلفين كابن المقفع صاحب كتاب (كليله و دمنه) و المتنبي و أبو العلاء
المعري و الجاحظ و ابن سينا و الفارابي على سبيل المثال لا الحصر . هؤلاء و
غيرهم كان لهم الباع الأطول في التأثير الثقافي و الفكري في المجتمع العربي في
مختلف الاتجاهات ، نلاحظ مثلاً قصيدة المتنبي التي تتكلم عن العروبة و العرب و
تناقش قضية مشاهمة لما عليه الوضع الآن في المنطقة العربية ، يقول فيها :

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ وَمَا تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكَهَا عَجَمٌ
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ وَلَا عُهُودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَّةٌ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتِهَا أُمَّمٌ تُرْعَى لِعَبْدٍ كَأَنَّهَا غَنَمٌ

هذه المقولة تمثل وعياً و فكراً عروبياً متقدماً يفترقه الكثيرون هذه الأيام .
فالشعر كنمط فكري سائد في تلك الأيام ، كان له الأثر الكبير الموجه في
المعارك العربية التي كان يتصدى فيها العرب للعنصر الأجنبي الدخيل ، كقصائد
المتنبي التي يصف فيها معارك سيف الدولة الحمداني و قصيدة أبو تمام في فتح
عمورية التي وصف فيها حرب المعتصم مع الروم و صده لطغيانهم و تجاوزهم
بحق العرب . و التي قال في مطلعها :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سَوْدُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ

كذا الأمر في اليونان مثلاً حيث كان المسرح هو السائد ، و كان أداة للتأثير الثقافي و السياسية و الاجتماعي ، حيث كان يعطي صورة للوضع اليوناني القائم ، و شكّل بذلك علاقة فكرية تبادلية فيما بين السلطة و الجمهور ، ينقل أفكار السلطة للجمهور ، و بالعكس ، أفكار الجمهور للسلطة ، و هكذا .

و لا يمكن أن يكون هنالك تأثير ثقافي ما لم تكن هنالك مواءمة فكرية بين ثقافة المؤثر و فكر المتأثر . فقد لا يكون هنالك تأثير ثقافي متبادل بين أيديولوجيات أو مفاهيم مختلفة مثلاً (الأصالة - المعاصرة) (الإسلاموية - الغربية) إلى ما هنالك .

لهذا يجب التعامل مع الفكر السائد أولاً و من ثم تتم عملية التأثير ، فلا يمكن التأثير بثقافة معينة في مجتمع ما ، إذا كان الفكر السائد فيه يخالف هذه الثقافة .

نلاحظ أن الشعر الآن لم يعد الأداة الفعالة في نشر الثقافة و الوعي مع أنه له حضوره و وجوده ، بسبب وجود أدوات أخرى أكثر فاعلية لدى الجمهور العربي و من أهمها و أخطرهما التلفاز .. هذا الصندوق القابع في زوايا بيوتنا بهدوء لكنه يدخل إلى عقولنا و عقول أطفالنا و يقدم لنا ما يريد الطرف الآخر أن يقدمه .

بالعودة إلى مفهوم و كلمة (المثقف) نسأل .. من هو المثقف الحقيقي؟؟ و ما مهمته في المجتمع؟؟ هل هو المثقف الذي يتبع و يمثل إحدى الثقافات السيئة المتخلفة كثقافة الطائفية و المذهبية و العنصرية و التبعية السياسية ، و يتبناها فكراً و مقولة؟؟ أم هو المثقف المستنير العقلاني المنطقي الذي يسعى لمواكبة و مواءمة الركب الحضاري الإنساني المتقدم للأمام و الذي هو حالة طبيعية سليمة محكومة بقوانين التطور الزمني و تحولاته؟؟..

و نجيب .. المثقف الحقيقي ، هو العالم و الفقيه و المدرك و العارف .. سواء بمجال و حقل محددين أم بأكثر من مجال .. أن الزمن يسير للأمام لا للخلف . و كما يوجد ثقافة للجهل و القتل و التخلف ، يوجد كذلك مثقف جاهل و

قاتل و متخلف أيضاً . و بالإسقاط على كلمة الثقافة كمصطلح و مفهوم ،
نقول .. إن كلمة المثقف كمصطلح و مفهوم ، قد أصبحت الآن كلمة
فضفاضة واسعة الطيف قد لا يتسع المجال الآن لمناقشة توصيفها و دلالاتها و
لكن نقول .. إن المثقف الحقيقي أو الأصلي صاحب التعريف الأساس لكلمة
مثقف (إذا جازت التسمية) هو المتحرر ثقافياً - انتبه .. ثقافياً - من أي قيد
طائفي أو مذهبي أو عشائري أو عرقي . و كما يوجد في الفقه و الأعراف
الدينية ما يسمى بالعلماء و علماء السوء ، كذلك أيضاً هنالك مثقفين و مثقفين
سوء .

المثقف أو العالم أو المفكر أو الفقيه و ما إلى هنالك من أوصاف و مسميات ،
قد ينتمي لطائفة أو مذهب ديني أو سياسي و يؤمن بهما . لكن خطابه الفكري
و ثقافته لا ينتميان إلى ما سبق ، و في أحسن الأحوال لا يتعصبان لهما ، و هو
إن حقق هذين الشرطين ، شرط التحصيل على ثقافة و علم و إدراك ، و شرط
التحرر الفكري من أية تبعية عمياء ، أصبح صالحاً للقيام بدوره في المجتمع
بمختلف شرائحه و فئاته و أطرافه الدينية و السياسية ، و أي إخلال بأحد هذين
الشرطين يصبح المثقف أو الفقيه غير قادر سوى على مخاطبة شريحة ضيقة
محدودة من المجتمع ، و إذ ذاك نكون أمام حالة تبشير و تسييس لا علاقة لها لا
بالثقافة و لا بالفكر ، بل بالمذهب و الحزب . مهمة المثقف الحقيقي ، عرفياً و
أخلاقياً و إنسانياً .. هي مهمة كبيرة جليلة و لا شك

المثقف الأصيل صاحب المعنى الحقيقي لكلمة (مثقف) هو الإنسان الذي يمتلك
ناصية العلم لأن ثقافته قد قيّضته له .. يمتلك ناصية الأخلاق و الأدب لأن
ثقافته الحقيقية تلزمه إياها و تمنعه من الجنوح خارج الطريق .. يمتلك حس
المسؤولية تجاه نفسه أولاً ثم أسرته و بعدها مجتمعه و موقعه الاجتماعي أو منصبه
الحكومي إذا كان له منصب حكومي ، لأن ثقافته الحقيقية نوعاً و كما ،
تتحول إلى ضمير خفي يستثير حس المسؤولية لديه .

عود على ذي بدء نقول .. إن مهمة المثقف ، ينطبق عليها الحديث النبوي الشريف : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلمه و هذا أضعف الإيمان (انتهى) . و المنكر هنا بنظرنا ، هو حالة الجهل و السلبيات المتفرعة عنها من كراهية و قتل و أذى و تناحر . فالمثقف الذي يغير بيده ، هو حتماً المثقف الموجود في موقع سلطوي تنفيذي ، سواء أكان حكومي أم ديني أم اجتماعي أو أي موقع يتيح له فرض إرادته على الأفراد، و هذا المثقف برأينا ، يشكل نسبة ضئيلة جداً ، و من هذه النسبة الضئيلة تخرج أيضاً نسبة ضئيلة ممن يتحملون المسؤولية التثقيفية تجاه المجتمع . هنا يقع العائق على الدولة في انتقاء المثقف صاحب الضمير و المسؤولية و وضعه في الموقع الذي يحوله القيام بواجباته تجاه وطنه على مبدأ (الرجل المناسب في المكان المناسب) و ليس ما نراه الآن .. المثقف الغير مناسب في المكان المناسب .

الحالة الثانية هي حالة المثقف الذي يغير بلسانه و هي مسؤولية كل مثقف في المجتمع . و هنا .. نحن نطالب المثقف أن يتزل إلى الشارع و يخاطب الناس تحت أية مناسبة و أي ظرف ، و يشجعهم على التحصل الثقافي كالقراءة مثلاً ، و أن يتواضع ثقافياً للكلم الهائل من مجتمعه الذي قد لا يدرك عقلياً و ذهنيّاً أبعاد بعض مصطلحات الأبراج العاجية التي ترد على لسان معظم مثقفينا للتباهي بأهم وصلوا إلى مرتبة رفيعة من العلم و الفهم بينما هي بالنسبة للسواد الأعظم ربما من الجمهور ، عبارة عن طلاس و أحجيات مثل (صيرورة - جدلية - تماهي - إشكالية - جزئية ... الخ) فبكل بساطة يعزف هؤلاء عن سماع شيء لا يفقهونه و يتجهون إلى من يخاطبهم بلغتهم و خطابهم و عقليتهم و يسلسون له قيادهم و يسلمونه أزمته (عقالمهم) فيقودهم هذا الشخص إلى الذي نراه الآن أمامنا من أحداث و تخريب و فكر منحرف .

هنا .. نحن نحمل المثقف العربي جزء كبير من المسؤولية كونه تعالى و ترفع عن مخاطبة قواعد المجتمع البسيطة التي تلقف الغير ، بعضها و أدارها ضد مجتمعتها و

دولتها . آن الأوان للأنتلجنسيا أن تنزل من الأبراج العاجية الفكرية و الوهمية أحياناً و تتجه إلى قواعد المجتمع العربي و سواد عوامه . لا بد للمثقف العربي من التواضع الأخلاقي و الفكري للسوية الفكرية للآخر . هنالك مقولة شهيرة للإمام علي بن أبي طالب يقول فيها " خاطبوا الناس على قدر عقولها " . و بصراحة شديدة و من وجهة نظرنا نقول .. الفكر سلعة شأنه شأن أية سلعة أخرى . و حتى نقوم بتسويقها نحن بحاجة لدراسة فكر المستهلك و الترويج لها في عقله ، تماماً كما تفعل الشركات التجارية .

المطلوب من المثقف الآن التجديد و التطوير و تجاوز النسخ و التحوير و التدليس و التلفيق و التقليد و الاستهلاك المحلي العقيم (التي يقوم بها البعض الذين نراهم الآن) و أن يكون منفعلاً مع الواقع و المجتمع و فاعلاً فيه . في هذا الصدد ، نوه هنا إلى قضية هامة جداً و هي أن الشهادة الجامعية أو الأكاديمية ليس بالضرورة مطلقاً أن تكون دلالة للثقافة و الفكر أو الوعي . و العكس صحيح فليس كل من حاز موهبة الإبداع و العبقرية و المستوى الفكري المتميز ، أن يكون من أصحاب الشهادات العلمية و المنابر الرسمية . بناء على ما ذكر سابقاً ، المثقف هو بكل بساطة أداة فعالة بحاجة فقط إلى من يقوم بتفعيلها . المثقف الحقيقي الوطني ، هو مخزون استراتيجي للبلد و الدولة ، قد يكون أمضى من أي سلاح آخر ، و أداة هامة ليس فقط لأجل توعية المجتمع و الرقي به ، بل للدفاع عن الوطن و الذود عنه ضد أية هجمات فكرية أو تضليل إعلامي أو فكري و رفع المناعة الفكرة و الثقافية لأفراد المجتمع .

يقودنا السرد السابق إلى تساؤل كبير يطرح إشكالية كبرى حول هوية المثقف العربي في الوقت الحالي . و بالعموم ، لقد أضحت هنالك أصناف عدة للمثقف في الشارع العربي ككل ، منها ما أفرزته المتغيرات البيئية الاجتماعية و الدينية ، و منها ما صنعه الوقائع و الأحداث السياسية ، الداخلية منها و الخارجية ، و

منها ما صنعه الاثنان معاً . و أهم الأشكال السائدة اليوم لشخصية المثقف في العالم العربي هي ..

مثقف البيئة و مثقف الإيديولوجية : الإنسان عموماً ، هو ابن بيئته الجغرافية و الاجتماعية ، و ما يفرزه هذان العنصران من مفاهيم أخرى دينية أو سياسية أو اقتصادية أو غيرها . و قد رأينا كيف أن حياة الإنسان العربي و أخلاقه و عاداته و أفكاره و أشعاره في الجاهلية ، كانت تابعة بما يقارب المطلق ، للبيئة الجغرافية و من ثم الاجتماعية .

و تختلف التبعية الإنسانية للبيئة الجغرافية و الاجتماعية ، من شعب لآخر ، و مكان لآخر ، على مبدأ الحديث النبوي القائل (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)¹ . فهناك مجتمعات تتبع البيئة الموجودة فيها ، بشكل جزئي ضمن نماذج و ظروف محدودة جداً قد تفرضها البيئة الجغرافية و المناخ ، لكنها لا تتبعها من النواحي الأخرى ، و توجد لنفسها استقلالية معينة و خصوصية ما ، نتيجة لموروثات اجتماعية أو عرقية أو حتى فكرية و عقائدية معينة ، فينتج لذلك مجتمع متعدد الأعراق و الأعراف و الأفكار و الثقافات . كما يوجد هنالك مجتمعات أو جماعات تتأثر ببيئتها الجغرافية و الاجتماعية بشكل كامل ، ما ينتج معه تبعية مطلقة عمياء تصل حد العبادة ، فهي مجتمعات شمولية لجهة البيئة الجغرافية الواقعة فيها ، و هو ما يشكل جدلية علاقة عبودية تبادلية فيما بين البيئة و المجتمعات . و لا يعني ذلك بالضرورة أن البيئة هي التي تصنع الإيديولوجية كما هو في الماضي بل الإيديولوجية هي التي تتمدد ضمن نطاق المساحة الجغرافية المسموح لها بها عرقياً أو سياسياً .

¹ صحيح البخاري ، ج /1/ ، ص /٤٥٦/ .

هذا الصورة الأخير ، يمكن القول أنها شكلت عمود العلاقة بين العربي و بيئته التي وصلت إلى حد العبادة والانقياد الأعمى و بالتالي أنتجت ثقافة فكرية معينة اشتملت على مجتمع معين ضمن رقعة جغرافية محددة تصبح فيها إيديولوجية معينة هي السائدة ضمن هذه البقعة الجغرافية . و لا يمكن الخروج عن هذه الإيديولوجية تحت طائلة العواقب الجسدية المادية أو النفسية الاعتبارية . و بالتالي فإن الثقافة السائدة في هذه المجتمعات ستكون حكماً ، نتاجاً عن البيئة الاجتماعية المنحصرة ضمن نطاق جغرافي .

إن البيئة الجغرافية الاجتماعية التي تختص بإيديولوجيا معينة و فكر ما ، أو ثقافة ما ، من المؤكد أنها سوف تفرز مثقفين أيديولوجيين تقودهم و تتحكم بهم ، يبعثهم الفكرية تلك ، و يصبحون خاضعين لها خضوع العبد لمولاه . و بما أن السمة الفكرية لفترة الجاهلية ، كانت تجسيد لخضوع الفكر المطلق للبيئة الجغرافية الاجتماعية ، فإننا نطلق على هؤلاء تسمية (مثقفو الجاهلية المعاصرون) . و مثقف الجاهلية المعاصر هذا ، هو الشخص الذي يعيش أبد الدهر ، قوقعة ثقافة بيئة معينة يخضع لها منذ الولادة ، و يصبح أسيرها حتى الممات ، و لا يتحصّل على علم أو فكر أو ثقافة ألا منها أو لأجلها ، حصراً ، و لا ينتج أو يطور ثقافة إلا من خلالها أو لأجلها و ضمن قوقعتها حصراً . و لا يُشترط في البيئة الجغرافية أن تكون مؤطرة سياسياً ، كأن تكون دولة أو اتحاد دولي أو فيدرالي مثلاً أو مقاطعة ، علماً أنها من الممكن أن تكون كذلك كما في حالة الاتحاد السوفيتي سابقاً ، أو كوبا أو الصين الشعبية أو كوريا الشمالية ... الخ . بل إنها من الممكن أن تكون ذات تقسيم مناطقي إداري أو إقليمي ، و من الممكن أيضاً أن تكون على أصغر مستوى من هذه التقسيمات الإدارية أو المناطقية كما (القرية) مثلاً .

و صحة ما سبق من قول ، تتضح تماماً من نماذج الأمثلة الصارخة في عالمنا العربي ، حيث نجد مثلاً أن ديانة معينة تنتشر في منطقة محددة ، سواء أكانت

جغرافية بحث أم جغرافية سياسية (الدولة مثلاً) . و حتى داخل تلك المنظومة الجغرافية السياسية الدينية الواحدة ، نرى أن المذاهب و الفرق التي تتفرع عن هذا الديانة الواحدة الرئيسة أو تتبع لها ، هي أيضاً مقسمة ضمن تقسيمات إدارية مناطية إقليمية محددة ، كالمحافظات .. أيضاً ضمن هذه التقسيمات ، تحدث تقسيمات مناطية مصغرة (نواحي - بلدات - قرى) تختص كل منها بفرق معينة تتبع للمذهب السائد في المحافظة أو الإقليم ككل . لا بل إن جل التقسيمات القطرية و الإدارية و المناطقية السياسية ، خاضعة في إنشائها و تكوينها لقضية البيئة الدينية أو العشائرية أو المذهبية أو الحزبية ، و مسخرة لأجلها ، و يستثنى من ذلك ، العرق و القومية ، كونهما يمثلان هوية أكثر منه أيديولوجية و هما خارج الإرادة الإنسانية في خيار الانتماء ، و اكتسابهما حق إنشاء دولة مستقلة خاصة بهما (الأكراد مثلاً) ، أمر طبعي بدهي لا ضير منه و لا غبار عليه .

و ما نراه الآن في العالم العربي من حالات الانقسام و محاولات الانفصال ضمن مناطق قد تكون صغيرة جغرافياً ، هو خير دليل على ما ذكر . و أحياناً يصل الأمر إلى تشكيل الأحزاب نفسه ، فنرى مثلاً حزباً سياسياً نشأ ضمن بيئة اجتماعية و مساحة جغرافية محددة ، نلاحظ أن كل أعضاؤه حصراً هم من هذه البيئة الجغرافية المجتمعية لا يتعدونها بالرغم من أن شعار هذا الحزب ، قد يكون أشمل من هذه المنطقة ، بل حتى أشمل من نطاق الدولة نفسها ، و التي هي تقسيم من أحد تقسيماتها الإدارية ، و هو ما ينسحب على السياسة نفسها ، حيث نرى أحياناً أن أيديولوجية سياسية معينة تنتشر فقط في بيئة جغرافية محددة لا تتخطاها و كل أفراد المجتمع في هذه البيئة أو المساحة الجغرافية ، يؤمنون بها . هذا الأمر ينسحب حتى على مستوى العادات الاجتماعية أو الدينية أو بعض الأعراف التي تشمل الاثنين معاً ، فنرى أنها تقع في بيئة محددة فقط ، حتى على مستوى القرية ، و تصل إلى مستوى الإيمان العقائدي بها ، لا يتخطى قبولها و

مصداقيتها حدود هذه القرية . و أحيانا لا يُعرف لها سبباً و لا لوجودها منشأً و لا لمصداقيتها منطق أو مصدر أو مرجع فكري معين .

هذا النوع من الأعراف و الأفكار و الإيديولوجيات ، من أصغرها مستوى (القرية) إلى أعلاها مستوى (دولة) ، تفرز ثقافة تنتج بدورها مثقفين مختصين بها ، يستमितون بالدفاع عنها و لا يفكرون مرة واحدة بمناقشتها من منطلق حيادي متجرد ، أو مناقشة عقائد و أفكار أخرى لمناطق أخرى .. يعدون أفكار بيئتهم ، الحل الأمثل و الأشمل ، و منهل الصواب و الحقيقة ، و غيرها هو الخاطئ المضلل ، و من يتبعه و يعتقد ، هو من (الأغيار) و هنا موطن الخطورة و الجهل .. أن ينتج عن هذه الثقافات و المثقفين ، مبدأ الغيرية ، إي أنا غير هذا لأن هذا لا يتبع ثقافتني و مبادئ الفكرية ، و هي الجاهلية بعينها و صورة من صور القبلية الجاهلية و صور الغزو الجاهلي الذي يمثله الآن الصراع بين هذه العقائد .

ترى رجل دين أو سياسة ، يصدر عنه فعل أو قول ما ، فينسحب ذلك على كل من يتبع له لناحية القرابة أو العقيدة الدينية أو السياسية (أي البيئة الاجتماعية) . أو القرية أو البلدة أو المنطقة التي هو فيها ، يتزعمها و يسيطر عليها (أي البيئة الجغرافية) .

هذه وجه من وجوه المثقف الإيديولوجي ، أما الوجه الآخر ، فهو المثقف الذي يتبنى إيديولوجية معينة ليست بالضرورة أن تكون بنت بيئته الاجتماعية أو نطاق بيئته الجغرافية أو مفرزاً من مفرزاتها ، و قد تكون غريبة عنها أو حتى أحيانا مرفوضة منها و غير مرحب فيها و لا تلقى القبول من أوساطها ، و لكن لقناعات معينة .. نفسية أو اجتماعية أو عقلية منطقية ، يتبنى هذا الشخص تلك الإيديولوجية و الثقافة المرتبطة بها ، و عادة ما تكون سياسية و أحيانا دينية كأن يترك دينه أو مذهبه و يعتنق ديناً أو مذهباً آخر ، نتيجة (كما ذكرنا) لقناعات معينة أو ظروف مادية و اعتبارية ، فيترك الإيديولوجية الثقافية و الفكرية لبيئته ،

التي من المؤكد أنها فرضت عليه فرضاً في صغره ، و يركن إلى الإيديولوجية و الثقافة الجديدة .

على إنه من حيث المبدأ العام أو الحالة الافتراضية الطبيعية ، ليس من المعيب أو الوجه السلبي المجانب للصواب ، أن يكون للمرء ثقافة بيئية اجتماعية أم جغرافية أو ثقافة إيديولوجية ، وليس بالضرورة أن تكون تلك الثقافة خاطئة تماماً أو سلبية . لكن مكن الخطورة ، هو التشبث بتلك الثقافة و التعلق بها على إنها الثقافة الوحيدة الصالحة للاستعمال و الاستخدام ، و على أن غيرها هو الخطأ المحض أو منتهى الصلاحية . و الاقتصار على تلك الثقافة و عدم الاطلاع على غيرها ، أو عدم التلاقي من الثقافات الأخرى ، بل حتى التواصل معها ، أي باختصار .. تفعيل مبدأ الغيرية .

و الخطورة المكن في ذلك ، هو ظهور ثقافة مركبة على تلك الثقافة ، هجينة منها مغايرة لمضمونها الأساس . فتكون الثقافة أو الفكرة الأساس صحيحة لا غبار عليها و لا تدعو لما هو مغاير للمبدأ الإنساني الأخلاقي العام ، لكن إساءة التصرف بها و سوء استخدامها و توجيهها ينتج منها ثقافة قبيحة مستبدة مغايرة لها . و لكي نوضح ذلك الأمر على أبسط صورة ، نورد المثال التالي ..

معادلة (٢ = ١ + ١) هي معادلة منطقية صحيحة لا لبس فيها و لا يمكن نقضها أو دحضها ، و لم يثبت في التاريخ أو يوجد ، من استطاع ذلك .. يأتي شخص ما ، له وزن ما و تأثير ما في بيئة ما ، و يتبنى هذه المعادة فكراً (انتبه .. فكراً و ليس رياضياً) و يجعل منها ثقافة و فكر ، و يخطئ كل من يقول غير ذلك أو يعطي نتيجة رياضية غيرها . و تنتشر ثقافة هذه المعادلة فكراً في منطقة هذا الشخص ضمن حيز جغرافي معين أو ضمن جماعة معينة على مناطق متفرقة .

يأتي بعد ذلك ، شخص نظير للشخص السابق من حيث السيطرة و التأثير و
يطرح المعادلة التالية .. (١ + ١ = ٣ - ١) و يؤمن بهذه المعادلة فكريباً (انتبه
.. فكريباً و ليس رياضياً) .

من حيث المبدأ و من حيث علم الرياضيات ، لا خلاف في ذلك ، فالمعادلتان
صحيحتان و متكافئتان و لكن .. و لكن .. ممكن فكريباً و إيديولوجياً لصاحب
المعادلة الأولى (١ + ١ = ٢) أن يخطئ صاحب المعادلة الثانية ضمن
ديماغوجية فكرية معينة ، و يخطئ أي طرف آخر يعطي أو يتبنى معادلة مكافئة
لمعادلته . و من المعلوم أنه يوجد عدد لا نهائي من المعادلات التي تكافئ معادلة
(١ + ١ = ٢) منها .. (١ + ١ = ٢ + ٠) أو (١ + ١ = ١٠٠٠٠ -
٩٩٩٩٨) ... الخ . إذن .. الخطورة هي في الإيديولوجية و دوافع النفس
الإنسانية الخفية التي تحرك الإيديولوجيات من خلف الستار .. بسم الله الرحمن
الرحيم { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } [الشمس ٧-٨] . و
هذا يعني أن صاحب نظرية أو معادلة (١ + ١ = ٢) يعارض و يجارب
صاحب نظرية (١ + ١ = ٣ - ١) لأنه من الممكن أن يحصل على أتباع
أكثر و يترشح لمجلس الشعب و يفوز بمقعد بالبرلمان أو أن يصل إلى سدة الرئاسة
و الحكم أو أن يصبح شيخ عرب أو شيخ عشيرة أو حزب الـ (١ + ١ = ٣
- ١) و يصبح لديه الأموال و الجواري و القيان و إماء الولد ، و ينمو بدنه و
يكبر كرشه و ينتفخ خداه و تتورد وحتناه . و ربما يصل الأمر إلى إهدار دم هذا
الرجل الزنديق الضال المضلل المبتدع المارق من الجماعة مرق السهم من الرمية .
هنا مربط الفرس الذي يفسر لنا كل هذه الخلافات و يفسر ربما نشوء التيارات
و المذاهب و الفرق و الملل و النحل التي ربما نشأ بعضها و انقسم بعضها عن
بعض ، لأجل تفاصيل صغيرة لا تستحق أن يلق لها بال . و هو ما يفسر لنا
أيضاً لما جاء القرآن الكريم ، بالعموم ، و يفسر لنا أيضاً لما قال الله سبحانه و
تعالى شارحاً و موضحاً و منبهاً محذراً { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ

مُحَكَّمَاتٌ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخْرٌ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ {آل عمران : ٧} .
 و لما قال أيضاً {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [المحجرات : ١٣] .

هنا أيها القارئ الكريم ، تتجلى لك صورة هذه الخلافات ، و من هنا يخرج مثقفوا الإيديولوجية المقصودين في هذا المبحث ، و هنا نعود لتذكرك مفهوم الفكر السلطوي الأساس لكل فكر ، و الوارد ذكره في بداية الكتاب .

مثقف السلطة و مثقف الكرسي : من الثابت تاريخياً أن السلطات الحاكمة و عبر المراحل التاريخية ، بدءاً من الحضارات البشرية الأولى و إلى الآن ، قد أفرزت من لدنها و اصطنعت لنفسها أيديولوجيات و ثقافات خاصة بها ، أو ثقافات تتعلق بها أو ثقافات تتمحور حول أعمالها و أفعالها و آثارها السياسية و العسكرية ، و حتى الدينية و الاجتماعية .

و في مراحل زمنية تاريخية ، كانت السلطة الحاكمة هي صانعة الإيديولوجية و الثقافة ، سواء بشكل مباشر أم غير مباشر ، و الأمر برمته مرتبط بخصوصية السلطة و طبيعتها . و بالعموم ، فإنه إذا كانت السلطة ذات طبيعة إلهية أي تدعي أنها آلهة ، أو تفوض نفسها على أنها من قبل الآلهة أو مندوبة عنها أو من قبلها (ملكية مطلقة) ، فمن الحتم المؤكد أنها ستكون هي صانعة الإيديولوجية و الفكر و الثقافة المرتبطة بها هي حصراً و ما تراه هي مناسباً . و هو أمر كثر تجليه في الحضارات القديمة ، كحضارة ميزوبوتاميا (العراق) و مصر الفرعونية القديمة . على أنه في مصر الفرعونية ، كان مفاعيله أقوى مما هو عليه في حضارة بلاد الرافدين . فالفراعنة (مدعوا الإلهية) ، هم الذين نشروا أفكارهم و

إيديولوجياتهم الخاصة بهم في مصر .. صبغوها بصبوغهم و ضبعوا بها شعوبهم . فكان كل ما ينتج من فكر و ثقافة و إيديولوجية في تلك المجتمعات ، سواء أكانت دينية أم غيرها ، يكون ساجحاً في فضاءات ثقافة السلطة و السلطان ، و هي هنا الفرعونية في مثالنا هذا . يضاف إلى ذلك ، أن التركيبة الاجتماعية في تلك المجتمعات ، قد أسهمت بشكل واسع مباشر ، في تعميم ثقافة السلطة الحاكمة و التي سنصطلح تسميتها (ثقافة السلطان) .

كانت التركيبة الطبقية و النوعية الاجتماعية في تلك المجتمعات ، مؤلفة من .. طبقة الحكام مدعوا الإلهية - طبقة الكهنة المرتبطة بهم و من يتبعها - طبقة الموظفين و العسكريين و الأحرار الذين هم على دين ملوكهم و كهنة ملوكهم - طبقة العبيد . و من حيثية المنظومات ، هي .. نظام الملك الإله - نظام المعبد التابع له - نظام المجتمع الذي على دينه - نظام العبيد الخاضع و المملوك له . فمن جميع الجهات و التوصيفات ، هنالك نمط ثقافي واحد سائد في المجتمع ، و إن غلب عليه الطابع الديني ، و لا مجال لأية تعددية ثقافية فكرية إلا ضمن تلك المنظومة السلطانية الإلهية .

و ما عزز هذا الوضع ، هو أن الفكر الديني الوثني الطاعني آنذاك ، كان يجعل من حالة أو مفهوم (الملك الإله) أمر طبعي اعتيادي و مقبول يحمل صفة المنطقية العقلية ، و ذلك لعموم الجمهور و النخب ، لدرجة أن غير ذلك ، يصبح مستهجنًا مرفوضاً و غير مقبولاً به بالعرف المنطقي و الاجتماعي . و قد عبر القرآن الكريم عن هذه الحالة أو الظاهرة ، و ذلك بتصوير الحادثة التي يقابل بها النبي موسى (ع) ، فرعون و يدعو إلى الإيمان بالله رب العالمين ، فيبادر فرعون و يسأل موسى مستهجنًا مستغرباً ، في الآية { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء: ٢٣] .

اللافت للنظر أن فرعون قال .. ما رب العالمين . و لم يقل .. من رب العالمين . و بين (من) و (ما) بون شاسع .. (من) هي للاستعلام عن شخص أو

ذات معينة (إلهية - بشرية) ، بينما (ما) هي استعلام عن مفهوم و فكرة غير مدركة أو معلومة . يعني ببساطة ، أن الرجل قد استعصى عليه المفهوم ، و كأنه يقول لموسى (ع) .. ما معنى رب العالمين ؟؟؟!! .. يعني لم يفهم مراد موسى ، و هذا يدل على غياب المفهوم كلية عن فرعون الذي هو رأس الهرم السياسي الديني .

و السؤال الذي يطرح هنا .. إذا كان هذا قد غاب عنه هذا .. فما بالناس بالذين هم أدنى ؟!! .

لقد ورد في القرآن الكريم أيضاً الإشارة إلى التبعية العمياء الشاملة ، لثقافة و فكر (السلطان الإله) في مواضع عدة منها ..

{ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ } [الؤمنون : ٤٧] . تحمل هذه الآية فكرة عدم فهم التوحيد الإلهي أو الإله الخفي ، بدلالة أن الملائ من قوم فرعون اعتبروا أنهم سيعبدون موسى و أخوه هارون ، فطرحوا (من وجهة نظرهم) الاستنكار المنطقي التالي .. كيف نعبد أشخاص ، قومهم يعبدوننا .

{ قَالَ لئنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } [الشعراء : ٢٩] . هنا يعتبر فرعون أن موسى ربما يتبع حاكم آخر هو بمثابة عدو سياسي له ، موجود ربما خارج مصر .

{ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ } [الشعراء : ٥٤] . دلالة قرآنية على اعتبار أن قضية الإله الواحد الخفي ، هي قضية استثناء و شذوذ لا يلق حضوراً في المجتمع المصري .

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [القصص : ٣٨] . دلالة قوية و إشارة واضحة للتبعية الاجتماعية ككل إلى مفهوم (السلطان الإله) .

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } [غافر: ٢٦] .

{ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * } أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين { [الزخرف ٥١-٥٢] . دلالة قوية على جهل فرعون لمبدأ الإله الواحد ، بطرحه قضية إلهيته هو كحالة منطقية

{ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } [الزخرف: ٥٤] .

{ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } [النازعات: ٢٤] .

{ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر: ٢٩] .

فإذا كان (السلطان الإله) هو صانع الدين و الفكر و الثقافة ، و من رحمته و منظومته ، تخرج المنظومة الفكرية الشاملة ككل ، فهذا بكل بساطة يعني .. أن المثقف و المفكر في تلك الحضارات ، هو مثقف السلطان .. شاء أم أبي .. درى أم لم يدر .. أعجبه ذلك أم لم يعجبه . و أصلاً ، حتى لو حاول هو ذلك ، و جرب النفاذ من أفكار هذه المنظومة ، لما استطاع ذلك ، ليس هذا فقط ، بل هو لا يعي حتى ، وجود منظومة فكرية أخرى غير هذه المنظومة ، حتى يفكر بالفزع إليها و يترك المنظومة الأولى . إذا كان ربه و إلهه هو نفسه لا يعرف و قال متسائلاً باستغراب .. ما رب العالمين ؟؟؟!!! .

بناء عليه و عليه بناء .. يصح القول .. إن الشكل السائد للمثقف الأول في الحضارات البشرية .. كان مثقف السلطة و السلطان .

و للحق ، و منعا لأي ظلم أو مظلومية ، فإن هذه النقطة بالذات .. نقطة (السلطان الإله) و اعتباره آنذاك ، قضية بديهية مفروغ منها لا يوجد بديل لها ، ربما تشفع لمثقف السلطان أي سمة سلبية قد تُلصق به أو تعزى إليه ، و هو ما يقودنا إلى مقولة أخرى تبرر هذه النقطة ، و ترتبط بها من الناحية العكسية و

هي .. كلما خفت وطأة و شدة السلطة و السلطان ، على المفكر أو المثقف ، و كلما تناقصت سوية إدعاؤها للإلوهية ، و سوية شموليتها التسلطية الاستبدادية المادية و الفكرية ، و كلما زادت من مسافة الأمان بينها و بين المفكر المثقف و قللت من الارتباط بينها و بينه ، كلما كان المفكر و المثقف ، أكثر حرية و أكثر مصداقية في فكره و في ثقافته و أدائه و دوره في خدمة المجتمع و أفراده . و في هذا الخصوص ، لا يوجد من هو أشهر من نار على علم .. من الحضارة اليونانية كمثال صارخ على ذلك .

لقد كانت سلطة المدينة أو المنظومة السياسية في أثينا و غيرها من بقية مدن اليونان قبل الميلاد ، بعيدة كل البعد عن قضية العلاقة بالآلهة . فهي قد وجدت عموماً ، من مبدأ الانتخاب الشعبي الحر الديمقراطي ، و ليس من مبدأ الانتخاب الإلهي كما الحضارة و الممالك المجاورة لها في الشرق الأوسط . كما أنها حافظت على مسافة معقولة و عقلانية في آن معاً ، بينها و بين المفكرين و المثقفين آنذاك . و الأهم من ذلك كله ، أنها قامت على مبدأ الحريات السياسية الفكرية ، و نظام الأحزاب الذي شكل حالة نادرة فريدة من نوعها في الحضارات القديمة ، ضاهت به اليونان حضارات المشرق جميعها .

من هذه المنظومة السياسية الإغريقية ذات السمات و الصفات السابقة ، ظهرت منظومة فكرية من أرقى المنظومات الفكرية في تاريخ البشرية ككل ، كانت و لا زالت إلى يومنا هذا ، منارة في العلم و المعرفة الحقة و أساس من أسس معظم الحضارات اللاحقة لها ، و أخرجت من رحمها أساطين الفكر و الفلسفة في تاريخ البشرية و الذين شكلت فلسفاتهم و أفكارهم ، أسس عدة مشتركة لكثير من الفرق الدينية و الأحزاب السياسية و الجامعات و النظريات العلمية (من رياضيات و فيزياء و فلسفة و غيرها) و التي انتشرت و سادت في العالم ، و لا زال قسم كبير منها ، سائداً معمولاً به إلى الآن . و كان من أساطين هذه المنظومة الفكرية ، الكبار العظماء .. فيثاغورث - طاليس - برمنديس -

سقراط - أفلاطون - أرسطو وغيرهم . و هؤلاء لم يكونوا مثقفي و مفكري سلطة و سلطان ، بل على العكس تماماً من ذلك ، السلطة و السلطان هما من كانا بحاجة إليهم فقراء لهم ، و هما من صبغاً بصبغة هؤلاء و وسماً بهم ، فأضحيا سلطة الفكر و الثقافة ، و سلطان المفكر و المثقف .

لا أدل على ذلك من شخصية الإسكندر المقدوني الكبير ، أعظم فاتح في التاريخ، و الذي أقر بفضل أستاذه و معلمه أرسطو عليه ، فيما وصل إليه من مجد و سلطان . و كثيراً ما كان يرأسله و هو في ساحات الوغى . و قد قال في معرض سؤاله عنه .. أحبُّ معلمي أكثر من أبي ، فقيل له : لماذا؟؟!! فأجاب : لأن أبي سبب مجيئي للحياة الدنيا .. حياة الجسد ، أما معلمي أرسطوطاليس ، فهو سبب معرفتي و سبب حياة العقل .. أبي مغذي جسدي بينما معلمي مغذي عقلي وروحي و نفسي .

و شتان شتان ، ما بين هذا الفاتح الكبير ، و بين من كان يعتقد نفسه أو يدعي من نفسه أو فارقاً نفسه إلهاً على الناس ، يسومهم سوء العذاب .. يستحيي نساءهم و يذبّح أطفالهم و يذلمهم في معسكرات السخرة لبناء صرح له ، لعله يبلغ الأسباب ، أو مدفن عظيم كالجبال ، يأوي فيه جثته البالية بعد الممات .

و لننظر في مقارنة تاريخية ، كيف تعامل الإسكندر المقدوني الكبير ، مع الشعوب التي خضعت لسلطانه ، بكل احترام و تعظيم ، و إجلال و توقير ، و لاقح بين حضاراتها و الحضارة اليونانية ، وكيف فعل الفاسد ابن الفاسد ، مدعي العظمة و الإلوهية لشعبه .. لننظر إلى تلك الفئة الباغية الطاغية ، مدعية الإلوهية ، عندما غزاها الإسكندر الكبير ، في عقر دارها و قهرها ، كيف عرضت عليه منصب الإلوهة و وسمته به ، بمبادرة منها هي ، و كأن الإلوهية سلعة تشرى و تباع ، في حالة شبيهة بحالة الجاهلية مقارنة لها .. هذا عبد صنم اعتقد أنه إله ، و عندما جاع ، أكله . و ذاك عبداً شخصاً على أنه إله ، و عندما هزم ، باعه في سوق النخاسة متنصلاً منه مستجيراً بغيره .

من هنا تبرز ، قضية مثقف السلطة و السلطان بوجه آخر من وجوهها ، و هو حالة عكسية في العلاقة الجدلية بين السلطة و المثقف التي تمثل في أحد وجوهها ، إيجاب السلطة و قبول المثقف .. و في الوجه الآخر ، إيجاب المثقف و قبول السلطة . و هو ما برز تاريخياً بشكله الفكري المنظم المستقل ، بما عرف بالمدرسة السفسطائية أو الفكر السفسطائي ، في اليونان القديمة . و مع أن هذه المدرسة ، كانت في بدايتها مثلاً للعلم و الفكر الحقيقي المفيد ، إلا أنها بعد محاباتها للسلطة السياسية و الاقتصادية المالية ، أصبحت مثلاً للعلم المتمظهر الأجوف ، المتملق للسلطة و المال و الذي ما لبث أن زال و اندثر . فقد بدأت السفسطائية في اليونان ، بداية علمية بحث ، لكنها ما لبثت أن انجرت إلى دهاليز السياسة و زواربيها و تفاصيلها في أثينا ، و أصبحت أداة في يد الأحزاب و الأطراف السياسية المتنافسة في اليونان . و باعتبار أن الوصول إلى السلطة في أثينا و في اليونان عموماً ، كان عبر المبدأ الديمقراطي الانتخابي و الاقتراع ، كان كل طرف طامح إلى السلطة يسعى إلى استخدام الدعاية ليكسب عطف الجمهور و دعمه له . و لم يكن من وسيلة لذلك سوى الاعتماد على أناس متخصصين في البلاغة الخطابية و الإقناع لمجرد الإقناع ، و ليس لأجل الحقيقة ، فكان أن تم اللجوء إلى جماعات المدرسة السفسطائية و أفرادها الذين بلغوا بعلم الكلام و الجدل و المنطق ، و إغراقهم بالممال لأجل ذلك .

في فترة الجاهلية و صدر الإسلام و ما بعد ، برز مثقف السلطة و السلطان ، بصورة الشعراء . و ظهر مثقف السلطان هذا (إذا جازت التسمية) ، حصراً من خلال التناقض الذي تحدثنا عنه في مبحث الجاهلية من هذا الكتاب ذاك التناقض الداخلي الذي كان يعتمل في صدر العربي اتجاه السلطة و الملك . فهو الذي كان يأنف من نظام السلطة و الملك و يتمرد عليه و يثور في وجهه و ينقلب ضده لأنفه الأسباب و أقرب الفرص ، و يهجو هجواً لاذعاً في أشعاره ليحط به إلى الدرك الأدنى و يجعله أسفل سافلين .

لكنه هو الذي كان في الوقت نفسه ، يشتهي هذا النظام و يتملق له و يمدحه في أشعاره ، رافعاً إياه إلى المراتب العليا ، جاعلاً إياه في أعلى عليين ، واسماً أشخاصه واصفاً إياهم بصفات الخوارق الطبيعية ، واضعاً إياهم في مرتبة أعلى من مرتبة البشر ، ممجداً بطولاتهم فوق طبيعية مبرراً لهم أعمالهم و صنائعهم .

إذن .. فإن مثقف السلطة في الجاهلية ، كان شاعر السلطة . وقد اشتهر فطاحل الشعراء في الجاهلية ، بكونهم شعراء سلطان أيضاً و من الشعراء هؤلاء (الأعشى - النابغة الذبياني - الحطيئة - طرفة بن العبد .. الخ) الذين كانوا يتكسبون من الشعر و يأخذون الصلة و العطاء من الملوك . و بدورهم استجلب الملوك هؤلاء الشعراء و استقدموهم لإيوائهم و حضرتهم ، فكانوا يدنوهم منهم و يجزلون لهم الأعطيات ، كونهم كانوا يدركون تمام الإدراك ، ما للشعر من تأثير في نفوس العرب .. قبائل و أفراد ، و مدى انتشاره في البوادي و القفار .

لكن و بالرغم من ذلك كله ، فإن مثقف السلطة في الجاهلية ، كان بنظرنا ، يمثل حالة شاذة لا يُعتد بها ، و لا يمكن اعتبارها من ضمن المنظومة الفكرية لمثقفي السلطة ، الافتراضية ، و ذلك لأسباب عدة منها ..

(١) — عدم سواد الأمر السياسي بعوانه و مقوماته الافتراضية ، في المجتمع الجاهلي ، و الافتقار إلى منظومة سياسية شاملة متكافئة ، مع ما هو الحال عليه في الدول المجاورة . حتى نظام الملك المتعارف عليه مجازاً في تلك الفترة ، كان أشبه بنظام قبلي ، منه بنظام ملك سياسي . فهؤلاء الملوك المزعومين كانوا في أحسن الأحوال ، رؤساء لأمهات قبائل تضم إليها بطون و أفخاذ مرتبطة بها .

(٢) — تزلف الشعراء و أضراهم ، لهؤلاء الملوك ، لم يكن من منطلق الدعاية لإيديولوجية عقائدية ، سياسية أو دينية ، بل كان أعلى سقفه لأغراض الفخر القبلي و الحصول على المال و الأعطيات ، من نوق و

إبل و أموال و غيرها . فضلاً عن أن الشاعر في معظم الأحوال ، كان يحافظ على كرامته أمام ممدوحه لا بل و أحياناً يفخر بنفسه أمامه .

(٣) — غالباً ما كانت عملية المدح ، تقع لأسباب الاستهلاك المحلي و تنحصر في ذات الممدوح و صفاته ، و المغالاة فيهما .

(٤) — قصائد المدح المبالغ فيها ، كانت في غالب الأحيان ، تقع في حضرة الممدوح و ليس في غيابه ، فما أن يغيب الشاعر عن ناظري الملك أو صاحب الرياسة و السلطان ، و يغادره ، حتى ينسى كل ما مدحه به ، و أحياناً ينقلب عليه و يسبه و يهجوهُ بألفاظ لاذعة مقذعة ، يصل في بعضها إلى انتهاك العرض (معنوياً) ، و هي برمتها قضية تفقد مفهوم (مثقف السلطة) مصداقيته و مقوماته الكاملة . و في أحسن الأحوال ، فإن أقصى ما يمكن إعطاؤه من وصف لهذا الضرب من الشعراء ، هو **مثقف السلطة البدائي** .

هذه الصورة لمتقف السلطة البدائي في الجاهلية ، تطورت عما هي عليه في العصرين الأموي و العباسي و ما بعدهما ، حيث أضحي هنالك نظام سلطة و نظام سياسي ، و منظومة كاملة مرتبطة بهما ، و بالتالي تطور مفهوم مثقف السلطان و أصبح يشكل لنفسه كيان و منظومة خاصة به ، أكثر تعريفاً ، حتى للعامّة من سواد الجمهور ، فمثقف السلطة و السلطان و الذي لا زال بمفهومه الافتراضي ، مقتصرًا على الشعراء الذين شكلوا ما يسمى (شعراء السلطان) . كيف لا و قد وطد السلطان سلطته (و بخاصة بعد العهد الراشدي) من خلال صراعه مع خصومه ، و انتصاره عليهم بشفار سيوفه و نصال حرايه و سنابك خيله ، و لم يصل إلى سلطانه هذا و خلافته تلك إلا بعد أن اعصوبت الحروب و اشتدت الدماء بينه و بينهم . فقد رأينا كيف أن الأمويين لم يصلوا

إلى السلطة و يوطدوا سلطاهم إلا بعد حروبهم المضنية مع الطالبين و مع الزبيريين و مع الخوارج . و كذا الأمر بالنسبة للعباسيين الذين لم تؤول الخلافة و الملك إليهم ، إلا بعد ثوراتهم على الأمويين و حروبهم الطاحنة معهم . ثم إنهم بعد استلامهم موقع السلطان ، لم يستطيعوا أن يوطدوا سلطاهم إلا بمحاربتهم مناوئتهم و الخارجين عليهم و المتربصين بهم و المحاولين المروق من سلطاهم في الأمصار و الولايات ، و تجريد الجيوش عليهم لقتالهم و تشديد النكير عليهم و إصلاؤهم الحروب العوان . و كان من آثار ذلك كله ، أن يرمي الطرف المنتصر أو الأقوى ، غيره من الأحزاب و القوى المناوئة إما بالكفر أو المروق أو الزندقة أو الشعوبية و ما إلى ذلك . و بالمقابل ، كان الطرف الآخر يكيّل للطرف المنتصر ، الاتهامات المضادة من ظلم و استبداد و فسق و فجور ... الخ . ذلك بمجمله ، استوجب انضوائه و تموضعه ضمن منظومة سياسية عامة ، قامت على أثفتين أو ضمن ثنائية جدلية قوامها (السلطة - المعارضة) ، و لا حل أو طرف ثالث بينهما . و كنا قد أتينا على ذلك بشيء من التفصيل ، في مبحث سابق من هذا الكتاب لناحية الفكر .

إذن .. و الحالة هذه ، كان لابد لطبقة أو فئة ما يسمى (شعراء السياسة) أن تختار أحد الطرفين ، إما طرف السلطة فيمثلون (شعراء السلطان) ، وإما طرف المعارضة . و بالتالي ، لا بد لهم و الحال هذه ، من تبني مفهوم و فكرة و إيديولوجية و سياسة الطرف الذي ينتمون إليه ، و يهاجمون الخصوم السياسيين ، و يتحملون نتيجة مواقفهم تلك و تبعاتها .

و بنظرنا ، و حسب قراءتنا للأحداث و الوقائع التاريخية في العصرين الأموي و العباسي ، فإن شعراء السلطة ، غالباً ما كانت غايتهم من قصد السلطان ، التزلف و التملق لأجل المال أو الجاه ، و نيل بعضاً من متاع الدنيا . بينما كان شعراء المعارضة (إن جازت التسمية) غالباً ما ينضمون للطرف المناوئ للسلطة لأسباب عقائدية لا علاقة لها بالتملق و طلب المال و الرياسة ، و بخاصة إذا

علمنا أن طرف السلطان ، كان يشدد النكير على الطرف المناوئ و أصحابه ،
 و يصليهم حروباً عوان ، و يعمل على تصفيتهم ، و من ضمنهم بعض الشعراء
 من صفهم ، الذين كانوا بنظره يشكلون تهديداً فكرياً لسلطانه . و هؤلاء
 بالغالب الأعم ، راحوا ضحية قصائدهم التي عبروا فيها عن رأيهم بهذا الطرف
 و ذلك المعارض له .

على أن هؤلاء الشعراء العقائديين المنضوين تحت لواء المعارضة للسلطة ، كانوا
 في بعض الأحيان يغيرون من مواقفهم و ينحازون للسلطة أو يقفون موقفاً
 حيادياً بينها و بين المعارضة ، فيمدحون الاثنين معاً ، في حال أحسوا بالخطر
 على حياتهم أو انهزم الحزب و الطرف المعارض الذي كانوا يمثلونه و يرون له
 أحقية الحكم و السلطة . و في أحيان أخرى ، كانوا مشتتين حتى عقائدياً بين
 الطرفين ، يدعمون المعارضة و يؤيدونها ، لكنهم يرون أن السلطة لها إيجابياتها
 التي لا يجوز نكرانها .

ففي العصر الأموي مثلاً .. كان الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات ، مناوئاً
 للأمويين ، و من أنصار عبد الله بن الزبير ، فكان يهجو الأمويين بقصائده . و
 لما قتل عبد الله بن الزبير و أخاه مصعب و انهزم جمعهما أمام جيش عبد الملك
 بن مروان الخليفة الأموي ، بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي ، خاف السيد
 رقيات على حياته بعد أن طورد و أصبح ملاحقاً من قبل الأمويين ، مطلوباً
 رأسه لهم ، فما كان من الرجل إلا أن قام بتنظيم قصيدة عصماء مدح بها
 الخليفة عبد الملك بن مروان و بني أمية معه جاء فيها ..

قَوْمٌ هُمْ أَكْثَرُونَ قَبْصَ حَصَى فِي الْحَيِّ وَالْأَكْرَمُونَ إِنْ نُسِبُوا
 مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
 وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلِحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
 خَلِيفَةُ اللَّهِ فَوْقَ مَنَبَرِهِ جَفَتْ بِذَلِكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتُبُ

يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرَقِهِ عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

فآمنه الأخير على حياته .

كذلك كان الشاعر الكميّ بن زيد بن حُنيس الأَسدي ، الذي وُصِفَ بأنه شاعر بني هاشم ، و الذي كان منحازاً إليهم ، متعصباً لهم ، كثير المدح في خصالهم و شمائلهم . و قد قال فيهم في بعض قصائده يمدحهم و يهجو خلفاء بني أمية ..

بَلْ هَوَايَ الَّذِي أُجِنُّ وَأُبْدِي	لِبَنِي هَاشِمٍ فُرُوعِ الْأَنَامِ
وَالْمُصِيبِينَ بَابَ مَا أَخْطَأَ النَّا	سُ وَمُرْسِي قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ
غَالِبِينَ هَاشِمِيِّينَ فِي الْعِلْمِ	رَبَّوْا مِنْ عَطِيَّةِ الْعَلَامِ
سَاسَةً لَا كَمَنْ يَرَى رَعِيَّةَ النَّا	سِ سَوَاءً وَرَعِيَّةَ الْأَنْعَامِ
لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدِ	أَوْ سُلَيْمَانَ بَعْدَ أَوْ كَهَشَامِ

و عندما خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، على هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي و ثار عليه ، جرد له هذا الأخير جيشاً قاتله و هزمه و قتله ، فكان أن رثاه الكميّ في قصيدة له ، نُبئ فيها هشام ، فأمر بقطع لسان الكميّ ، فغير هذا الأخير أقواله و بدل شهادته .

و من أبرز الشعراء الذين استعملهم الأمويون كأداة إعلامية ، كان الأخطل و جرير .. فالأخطل تقرب إلى الأمويين ، من خلال نقطتين أدرك تمام الإدراك أهميتهما بالنسبة للأمويين و هما .. خلافهم مع بني عمومتهم من آل هاشم و خصوصاً الطالبين . و النقطة الثانية ، هاجسهم في إثبات مشروعيتهم بالخلافة .

فكان يمدحهم بالنسبة للنقطة الأولى ، و يهجو خصومهم و بالذات الزبيريين منهم ، بالنسبة للنقطة الثانية . و مما قاله فيهم ..

وَيَوْمَ صِفِينٍ وَالْأَبْصَارُ خَاشِعَةٌ
أَمَدَّهُمْ إِذِ دَعَوْا مِنْ رَبِّهِمْ مَدَدٌ
عَلَى الْأُلَى قَتَلُوا عُثْمَانَ مَظْلَمَةً
لَمْ يَنْهَهُمْ نَشْدُ عَنْهُ وَقَدْ نُشِدُوا
فَلَمْ تَزَلْ فَيْلَقُ خَضْرَاءُ تَحْطِمُهُمْ
تَنْعَى ابْنَ عَفَّانٍ حَتَّى أَفْرَحَ الصَّيْدُ
وَأَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتٍ لَا يُوَازِنُهُمْ
بَيْتٌ إِذَا عُدَّتِ الْأَحْسَابُ وَالْعُدُدُ
أَيْدِيكُمْ فَوْقَ أَيْدِي النَّاسِ فَاصِلَةٌ
وَلَنْ يُوَازِنَكُمْ شَيْبٌ وَلَا مُرْدٌ .

أما جرير الشاعر ، فقد تقرب من الأمويين عن طريق الحجاج بن يوسف الثقفي عندما ولي العراق ، فاتصل به مادحاً إياه ، فعاجل له الأخير الجوائز و الأعطيات، ثم ارتأى أن يشخصه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان ، لما رأى فيه من موهبة شعرية فريدة ، فبعث معه ابنه محمد بن الحجاج . و عندما دخلا على عبد الملك ، قال لجرير مغضباً¹ : ماذا تحسن أن تقول فينا بعد قولك للحجاج عاملنا ..

مَنْ سَدَّ مُطَّلِعَ النِّفَاقِ عَلَيْكُمْ
أَوْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحِجَّاجِ

إن الله لم ينصرنا بالحجاج ، و إنما نصر دينه و خليفته . فأنشد جرير قصيدة قال فيها ..

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ

¹ أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام ، ص / ٣٦٣ .

فتبسم عبد الملك و قال : نعم .. كذلك نحن . و أمر له بمائة من الإبل و ثمانية عبيد لرعايتها . و كان عند عبد الملك ، صحائف فضة مذهّبة ، فسأل لعاب جرير على واحدة منهن ، فقال لعبد الملك : و الحلب يا أمير المؤمنين؟؟ فنبد إليه عبد الملك بواحدة منهن . و من يومها ، صار يفد بين الحين و الآخر ، إلى عبد الملك مروان ، يمدحه و بني أمية و يأخذ صلّاته . و استمر على هذا المنوال حتى بعد وفاة عبد الملك ، مع خلفائه .

أما الشاعر الفرزدق فقد تعامل مع بني أمية من منطلق الحاجة و الخوف معاً ، فهو كان مشايحاً عنيداً لآل بيت الرسول (ص) و الأئمة منهم ، يمدحهم متعلقاً بجهم و هواه معهم ، لا لأجل التكسب و الصلة و المال . على أن ذلك لم يمنعه من التقرب من بني أمية و مدحهم ، خوفاً منهم و رغبة في إجازتهم . لكنه مع ذلك بقي هواه متعلقاً بآل بيت الرسول (ص) و لعل قصيدته المشهورة التي مدح فيها الإمام علي زين العابدين في حضرة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في موسم الحج خير دليل على ذلك ، و التي يقول فيها ..

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَأْتَهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

و أحياناً كان يمدح الشخص رغبة فيه أو رهبة منه ، فإذا انقضى حظه و سببه منه ، هجاه كما فعل مع الحجاج بن يوسف الثقفي حيث رثاه عند موته ، في قصيدة قال فيها ..

وَمَاتَ الَّذِي يَرَعَى عَلَى النَّاسِ دِينَهُمْ وَيَضْرِبُ بِالْهِنْدِيِّ رَأْسَ الْمُخَالِفِ
فَلَيْتَ الْأَكْفَ الدَّافِنَاتِ ابْنَ يَوْسُفِ تَقَطَّعْنَ إِذْ يَحْتَنِينَ فَوْقَ السَّقَايِفِ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي تَدْفِنُونَهُ بِهِ كَانَ يُرَعَى قَاصِيَاتُ الزَّعَانِفِ

فلما مات الخليفة الوليد بن عبد الملك ، و بُوع بالخلافة من بعده لأخيه سليمان الذي كان ناقماً على الحجاج مبغضاً له ، هجا الفرزدق الحجاج فرقاً من سليمان . فقيل له : كيف تمحو الرجل و قد مدحته قبلاً ؟!! . فقال : نكون مع الواحد منهم ما كان الله معه ، فإذا تخلى عنه ، انقلبنا عليه .

و كان قد هجا آل المهلب ، فسخطوا عليه و نقموا منه و تربصوا به الدوائر . و عندما ولى سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب ، خراسان و العراق ، خاف الفرزدق على نفسه فعاد و مدح آل المهلب ، فخلوا عنه ¹ .

كان الأخطل و جرير من شعراء و مثقفي السلطة و السلطان المتزلفين المتملقين المبادرين بالإيجاب منهم ، و قبول السلطة لهم ، فمثلاً بذلك هم و أضراهم ، الوجه الانتهازي الوصولي الحقيقي لثقف السلطة الذي يمثل بوقاً إعلامياً دعائياً حصرياً لها ، و بوقاً إعلامياً دعائياً مضاداً لخصومها ، تحذوهم في ذلك ، المصالح الشخصية و المنفعة الخاصة .

أما الفرزدق فقد مثل بنظرنا ، حالة مثقف السلطة الخائف منها ، المتوجس شراً من بطشها ، المضطر ربما لمقاربتها ، و لذلك فهو يسايرها مادحاً إياها . و هو هنا ، قد مثل مثقف السلطة ، لكن في حالة إيجاب السلطة اعتبارياً و قبول المثقف . فليس من الحتم اللازم ، أن يكون إيجاب السلطة مادياً إكراهياً مباشراً ، وإنما قد يكون إيجاباً معنوياً غير مباشر ، أي أن المثقف يخاف تلقاء نفسه من السلطة ، فيدنو منها مضطراً لها ، حصراً من منطلق الخوف منها ، و في الوقت نفسه لا يريد أن يخسر كرامته و مبادئه ، فتراه يضع ساقاً هنا و ساقاً هناك ، لا تقلباً و تلوتاً ، إنما اضطراباً لما فرضته الظروف عليه .

¹ المصدر السابق ، ص / ٣٤٠ .

فالفرزدق نفسه قد مدح الإمام علي زين العابدين في حضرة هشام بن عبد الملك
و لما يكن هشاماً قد أصبح خليفة ، بل كان أميراً . و عندما نقم منه هشام
لأجل ذلك و أبعدته خارج مكة ، هجاه الفرزدق بقصيدة قال فيها ..

يُرَدِّدُنِي بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالَّتِي إِلَيْهَا قُلُوبُ النَّاسِ يَهْوِي مُنْبِئُهَا
يُقَلِّبُ عَيْنًا لَمْ تَكُنْ لِخَلِيفَةٍ مُشَوِّهَةً حَوْلَاءَ بَادِ عِيُوبِهَا

فلما آلت الخلافة إلى هشام هذا ، خاف الفرزدق على دمه ، فقصد هشاماً و
مدحه بقصيدة عصماء ، رفعه فيها إلى مقام الأنبياء تقريباً ، قال فيها ..

رَأَىكَ اللَّهُ أَوْلَى النَّاسِ طَرًّا بِأَعْوَادِ الْخِلَافَةِ وَالسَّلَامِ
إِذَا مَا سَارَ فِي أَرْضٍ تَرَاهَا مُظَلَّلَةً عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَامِ
رَأَيْتِكَ قَدْ مَلَأْتَ الْأَرْضَ عَدْلًا وَضَوْءًا وَهِيَ مُلْبَسَةُ الظَّلَامِ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ نُعِشْنَا وَجُدَّ حِبَالُ آصَارِ الْإِثَامِ

فانخلع فؤاد هشام طرباً لذلك و نشوة ، فوصله و قربه منه و أعاد سيرته الأولى
معه . و يستدل على ذلك أيضاً من أن الفرزدق عندما مدح الإمام علي زين
العابدين ، أرسل له الإمام صرة بأربعة آلاف درهم ، فردها الفرزدق معتذراً و
قال للرسول : قل للإمام .. و الله ما قلتها إلا حباباً بك ، و ما مدحتك إلا بما
هو فيك و أنت أهل له .

في العصر العباسي ، كثر مثقفو السلطة و السلطان ، عنهم في العصر الأموي ،
و ذلك مرده أمور عدة منها ..

— الانفتاح الفكري و الحضاري من قبل العباسيين ، على الأمم و الحضارات
المجاورة و بالأخص ، حضارة فارس . مع العض بالنواجد على السلطة و نظامها

و تشديد النكير على المعارضة و أشخاصها ، أيا كانت ، شعوبية أم دينية أم سياسية . و هذا مناخ رطب سهل ، و ترب رخو خصب ، لنمو مثقف السلطة و السلطان .

— ازدياد مفاهيم السلطة و السياسة ، اتساعاً و تبلوراً عما كانت عليه فيما مضى ، فكان لا بد من ظهور منظرين مدبرين لأموورها ، شغلهم و صنعهم .. السلطة و السلطان . فكان من الطبيعي البدهي أن يسلكوا مسالك السلطة و السلطان و سبلهما ، و يتقلدوا أمورها و نواصيها فكرياً ، و يكونوا من حاشيتها أو المقربين منها ، ينظرون لما تراه السلطة و تعتقده من أمور و مفاهيم، و ما يسلكه السلطان من مسلك .

— اهتمام الخلفاء العباسيون بالأمر الفكري كإثنية من أثافي دعائم سلطتهم و سلطاتهم ، و وتد من أوتادها . و ذلك خلاف الأمويين الذين اتكأوا على السيف في توطيد دعائم ملكهم و سلطاتهم ، أكثر منه القلم و اللسان و القرطاس .

— ظهور المذاهب و المدارس الدينية و الفقهية و السياسية ، بشكلها الواضح الجلي ، المعارض منها و المؤيد ، ما استدعى ظهور طبقة مثقفي و مفكري السلطة المنافحين عنها المهيبين لآرائها و سلطاتها ، بشكل إلى المأسسة أقرب منه إلى المشاع العفوي الذي شاع في العصر الأموي . و بالمقابل ، ظهر النظير و الند لهذه المنظومة من مثقفي المعارضة .

و كما كان شأن نظرائهم في العصر الأموي ، كذلك كان شأن مثقفي السلطة و السلطان في العصر العباسي ، همهم بالدرجة الأولى ، التكسب و المال و العطاء . و لعل بعضهم كان أشد وطأة من أضرابهم و نظرائهم الأمويين . فكان مقصدهم من مدح السلطان و التقرب منه ، واضحاً جلياً لا تأويل فيه ، و كانوا يصرحون بذلك علانية . و لعل ما شجعهم على ذلك ، هو تشجيع الخلفاء العباسيين لهذه الظاهرة أو الفئة من المتملقين المداهين . و يزداد هذا الأمر

جلاء ، إذا علمنا أن بعضهم كان يمدح الخليفة أو الوالي أو الأمير أو العامل على المصر ، فإذا أعطاه و وصله ، كان به ، و إن لم يفعل أو بخسه عطاؤه ، جرد عليه لساناً سليطاً نال منه أقذع السباب و الشتائم و أبشع الصفات . و بعضه الآخر ، يجرّد القصيدة مادحاً أو هاجياً بما أحدهم ، فإذا مات أو انتصر الطرف الآخر ، قلبها و بدل في الأسماء لينسبها له أو لخصمه . كشأن الشاعر بشار بن برد الذي كان شعره آلة للتكسب و مادة له . فقد مالاً الأمويين في صباه ، فلما لم يلق منهم العطاء ، هجاهم . و عندما استلم العباسيون السلطة أول عهدهم و لم يكونوا قد وطدوا أركانها بعد ، و ثار عليهم الطالبيون ، مالاً بشار بن برد بداية الأمر ، إبراهيم بن الحسن الذي ثار على أبو جعفر المنصور ، و بدا أنه في موقع القوة و النصر و ما شابه . فأنشأ بشار قصيدة له يمدح فيها إبراهيم و يهجو المنصور و يعلن فيها تشييعه لآل بيت الرسول (ص) . فلما قُتل إبراهيم و انهزم جيشه ، عمد بشار بن برد ، بكل بساطة ، إلى تبديل الأسماء في القصيدة ، فأنكر فيها مشايعته لآل البيت ، و بدل شخص إبراهيم المقتول ، بشخص المنصور ، و شخص المنصور بشخص أبي مسلم الخراساني¹ . فوصلت القصيدة إلى المنصور بوجهها الثاني ، و لو أدرك وجهها الأول ، لربما ما بقي بشار بن برد بعدها لكي تصلنا قصائده .

و حدث ذات مرة أن بشاراً مدح عقبة بن مسلم عامل البصرة ، و كان الأخير مشغولاً بشغل له ، فأرجأ و صل بشار أيام ثلاثة ، فأرسل بشار له غلامه ليكتب على باب عقبة .. (إن لم ترد حمدي ، فترقب ذمّي) ، فلما رأى عقبة ما كتبت على بابه ، توجس من لسان بشار و ضاعف العطاء له و عجل بإرساله إليه . و في المواضع التي كانت تخدم أصله الفارسي ، كان بشار بن برد ، يتعصب لشعوبيته و يدعيها ناسباً نفسه إليها ، نافياً العروبة كقوله ..

¹ أدباء العرب في العصر العباسية ، ص / ٥١ / .

هَلْ مِنْ رَسُولٍ مُخْبِرٍ عَنِّي جَمِيعَ الْعَرَبِ
 مَنْ كَانَ حَيًّا مِنْهُمْ وَمَنْ ثَوَى فِي التُّرْبِ
 بَأَنِّي ذُو حَسَبٍ عَالٍ عَلَى ذِي الْحَسَبِ
 جَدِّي الَّذِي أَسْمُو بِهِ كَسْرَى وَسَاسَانُ أَبِي
 وَقَيْصَرٌ خَالِي إِذَا عَدَدْتُ يَوْمًا نَسِي
 أَنَا ابْنُ فَرَعِيِّ فَارِسٍ عَنْهَا الْمُحَامِي الْعَصَبِ

و في المواضع التي تخدّمه فيها أصوله العربية ، يتغنّى بعروبته و يقصي الفارسية كقوله ..

إِنِّي مِنْ بَنِي عُقَيْلِ بْنِ كَعْبٍ مَوْضِعَ السَّيْفِ مِنْ طَلَى الْأَعْنَاقِ

كذا الأمر ، كان الشاعر أبو نواس الذي عُرف عنه هتكه و مجونه ، و كثيراً ما عوقب و سُجن لكي يصار إلى إطلاق سراحه و يُقَرَّبَ من الخلفاء الذين سجنوه و يتمتع بعطاياهم ، فقط لأنه يمدحهم . كذلك كان الشاعر أبو تمام الذي عاش حياته متنقلاً في الأمصار ، لا يدع خليفة و لا والياً و لا أميراً إلا مدحه و نال عطاياه و جوائزه .

على أن أشهر صورة من صور مثقف السلطة و السلطان ، كانت للشاعر الكبير أبو الطيب المتنبي ، و الذي هو بنظرنا ، قد وصل مرتبة عالية من الشعر العربي ، و مكانة كبيرة سامية لا ينازعه عليها أحد من الشعراء . و هو بنظرنا يستحق فيها أن يكون (ملك الشعراء) .

إلا أنه كما بلغ هذه المرتبة السامية من الشعر والتي قد لا ينازعه عليها أحد ، فإنه و بنظرنا أيضاً ، قد بلغ مبلغاً كبيراً من صورة و شخص مثقف السلطة و

السلطان ، ربما أيضاً لم ينازعه فيها أحد . و لسنا بجانب الصواب إذا قلنا إن المتنبّي هو من أعطى مفهوم السلطة و السلطان ، شكله الحقيقي ، و حيزه ضمن إطاره الفكري المتبلور ، و ذلك في متن معظم قصائده و تصرفاته . و لا ندري إن كانت سابقته الشعرية في القريحة و القريض و البلاغة ، تشفع له سابقته الفكرية المداهنة المتملقة للسلطة و السلطان .

لقد مثل المتنبّي حالة فريدة من نوعها ، و ظاهرة صارخة ، ليس فقط في الشعر العربي ، بل في الفكر العربي ككل ، كون شعره قد اشتمل في مضامينه و بحوره على فلسفة فكرية إنسانية . و طبقاً لذلك ، فهو قد أسس لنشوء مفهوم مثقف السلطة و السلطان ، و صاغ له هويته الفكرية كمفهوم مستقل واضح المعالم ، و هي كما ذكرنا ، سابقة فكرية أكمل المتنبّي صياغتها و هيكلتها الفكرية ، بتصرفاته و أعمال و مكونات شخصيته خارج نطاق الشعر ، و مما ساعد على ذلك فيما بعد ، أن المتنبّي قد أصبح مضرب المثل في الشعر و مثلاً أعلى يحتذى به . فالرجل في صباه ، قد لزم عرب البادية ، يتقن حصافتهم و يلتقم بلاغتهم و يتشرب نحوهم و صرفهم للسان .

لكن ما أن شب المتنبّي عن الطوق ، حتى قام بما لم يقم به الأوائل . فقد أغرته نفسه الطمّوح و شهوته الأمانة ، مسالك العلى ، فادعى النبوة ، و قد غلبت عليه هذه الدعوة و هي التي أعطته لقب المتنبّي . و لكي يحقق مآله هذا ، انصرف إلى معاشر البدو و الأعراب ، و أظهر نفسه فيهم ، فتبعه خلق منهم ، و قام هؤلاء ببث دعوته في بعض القبائل المجاورة . و لما قويت شوكته بعض الشيء ، صدع له (لؤلؤ) عامل حمص ، فكبسه و كسره و شرّد صحبه و ألقى به في السجن مقيداً مغلولاً . و لما أشرف على الهلاك ، أطلقه ابن كيغليغ الذي حل محل لؤلؤ ، و ذلك بعد استتابة ، صعر المتنبّي نفسه فيها إلى أدمة الأرض ، و صعر عمره إلى صبوة العمر حتى يُرفع عنه الحد . و أقلع المتنبّي عن نبوته تلك و غسل يده منها ، بعد أن أدرك أن لا حيز له فيها و لا ماعون . و

لكنه مع ذلك ، ظل على ما يبدو يحن إليها و يذكرها بشكل عابر في أشعاره
كقوله ..

إِن أَكُنْ مُعْجَبًا فَعَجَبٌ عَجِيبٌ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدٍ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكُهَا اللَّهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودٍ
مَا مَقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةَ إِلَّا كَمَقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ .

بعد ذلك اتجه المتنبي فوراً إلى نقيض ما ادعاه من نبوة أول الأمر ، ألا و هو
التزلف للأعيان و السادات و الأمراء ، و التملق لهم و مدحهم بما هو ليس
فيهم، فتنقل بداية أمره ، في بلاد الشام فزار دمشق و طرابلس و بعلبك و حمص
و اللاذقية و إنطاكية و طرسوس و غيرها من مدن .. و لا عجب في ذلك إذا
علمنا أنه كان في صباه أيام التلمذة في الكتاتيب ، يقتات على المدح ، فكانت
جوائزه في زمانه الأول ، جعل سمك أو قمقم لوز أو طاس عسل ، و أحياناً
يُجازُ بدينار أو اثنين .. كان من الواضح أن المتنبي قد سخر شعره آلة للتكسب
و أداة للمال . فقد واطب في شبابه على مدح الأمراء حيثما كان ينتقل
مرتجلاً. و قد كانت آلة مديحه ، أن يرفع ممدوحه إلى أعنان السماء و يسبغ عليه
من الخوارق ، ما لا عين رأت و لا أذن سمعت ، كما فعل مع بدر بن عمار
أحد القواد من أعمال طبرية حين رآه يضرب سبعاً له بالسوط ، فمدحه بطريقة
خرافية ، هو و السبع معاً . و حتى يضيف نكهة الفلافل على ذلك ، أسبغ على
السبع قدرات و مواهب خارقة و جعله سلطاناً على نواحي الشام و الأردن و
تمتد سطوته من الفرات إلى النيل ، بينما هو لا يعدو كونه بهيمة عجماء ، فقط
لكي يزيد من مقام ممدوحه الذي ضربه بالسوط ، ثم يعود ليضيفي على ممدوحه
هذا صفات جعلته — و العياذ بالله — في مقام الآلهة تقريباً ، و فوق مقام

الأنبياء ، و سبعة الأعجم الأبرك ، فوق مقام البشر .. فقط لأجل الدرهم و الدينار . و في ذلك يقول ..

أَمْعَفَرُ اللَّيْثِ الْهَزْبِرِ بِسَوِّطِهِ لِمَنْ إِذْخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا
وَقَعَّتْ عَلَى الْأُرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّةٌ نُضِدَتْ بِهَا هَامُ الرِّفَاقِ تُلُولَا
وَرَدُّ إِذَا وَرَدَ الْبَحِيرَةُ شَارِبًا وَرَدَّ الْفِرَاتَ زَنْبِيرُهُ وَالنِّيَلَا
فِي وَحْدَةِ الرَّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا
لَوْ كَانَ عَلِمَكَ بِالْإِلَهِ مُقْسَمًا فِي النَّاسِ مَا بَعَثَ الْإِلَهِ رَسُولَا
لَوْ كَانَ لَفُظُكَ فِيهِمْ مَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَا .

و أحياناً كان لا يمدح الأمير أو الحاكم ، إلا بعد أن يُعطى المال ، كما فعل مع طاهر بن حسين ، عامل الرملة ، فلم يمدحه إلا بعد أن وعده الأخير بالمال و حلف له عليه .

على أن تلك الحال من اليسر ، لم ترو له جشعه و طمعه و طموحه و شهوته للمزيد ، فيمم شطر حلب التي كانت تحت أمر سيف الدولة الحمداني ، و كأنه عرف من أين تؤكل الكتف ، فوجد ضالته هناك حيث أكرمه سيف الدولة أيما إكرام ، و خلع عليه من الذهب و الجواربي و القيان و الغلمان و الضياع ، أيما خلع . و بالمقابل رد المتنبي جميل سيف الدولة هذا ، بأن مدحه بما هو مادة الخيال و صفة المحال و ما لا يبلغه أي مقال .

و بالرغم من أن سيف الدولة الحمداني ، قد غمر المتنبي بالذهب و المال غمراً ، و جعله في الجاه و السؤدد قرماً ، بما لم يناله أي شاعر من قبل حتى أن المتنبي قد اعترف بذلك علناً ، فقال يخاطب سيف الدولة مقرأً له بجميل فضله عليه إلى درجة أنه جعل حدود خيله ذهباً ..

تَرَكَتُ السُّرَى خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَأَنْعَلْتُ أَفْرَاسِي بِنِعْمَاكَ عَسَجَدَا .

فإن نفسه النهمة شرها ، لم تشبع ، فكان يطالب بالمزيد ، و أحيانا يبتز سيف الدولة قائلاً له ..

أَجْزِي إِذَا أَنْشِدْتَ شِعْرًا فَإِنَّمَا بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدِّدًا .

و ذلك فيه ما فيه من سوء خلق و أدب ، ما لا يُطاق له من قبل غلمان العامة ، فكيف بالأمرء و السلاطين ؟؟ . فقد اجتمعت بهذا البيت ثلاث من العيوب الكبار ، أولها .. الفخر بالنفس و عجرفة الذات ، و ثانيها .. الابتزاز ، و ثالثها الطمع في رزق الغير و عطاءه من الشعراء الذين كانوا يمدحون سيف الدولة ، فالمتني اعتبر أنهم يمدحون سيف الدولة بمدحه هو له ، و لذلك يجب أن يحصل على عمولة أو بقشيش جراء ذلك ، و في هذا من دناءة النفس و سفاهتها ، ما ليس بعده مبلغ .

كما وصل الأمر بالمتني ، إلى أن غروره و عجرفته ، لم يعد يتسع لهما حد ، فكان يمدح نفسه أمام السلطان و يسفه غيره من الشعراء و النحويين و الحضور و يهجوهم ، و هو ما أثار حقد و ضغينة هؤلاء عليه ، فكادوا له عند سيف الدولة ، نقمة لا حسداً كما توهم الكثيرون . و ما ينفي شرط ذلك من منظورنا ، هو أن الحسد مرتبط بطلب زوال النعمة عن الغير ، المستوجب لشروط تلك النعمة بما هو أهل له شرعاً و قانوناً ، و بما أوتي من صفات تكسبه التحصل على هذه النعمة و لا منة لأحد فيها عليه ، ما مصداقه الآية القرآنية ..
التالية ..

{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} [النساء : ٥٤] . يضاف إلى ذلك ،
كفأيته الناس شر هذه النعمة و شر نفسه .

أما النعمة فهي طلب زوال النعمة عن غير المستحق لها و لا مستوفٍ شرط
اكتسابها و التحصل عليها ، شرعاً أو قانوناً ، كالكسب الغني و المال من غير
شروطه و غير وجهه الحق ، أو صرفها لغير مستحقها ، ما يستوجب النعمة
المشروعة الحق . و هو على النقيض مما كان عليه أبو الطيب المتنبي . فقد آتاه الله
نعمة القريجة و البلاغة في الشعر ، إلا أنه قلبها نعمة عليه بعرضه للناس و
أعراضهم و التزو عليهم بشعره . فلم يدع أحداً إلا و هجاه بشعره ، حتى ابن
كيغلق عامل حمص الذي أطلق سراحه من السجن بسبب ادعاؤه النبوة و لم
يفصل رأسه عن جسده ، عندما أرسل إليه أن يمدحه بشيء من الشعر ، نعته
بأبشع الصفات إذ قال فيه ..

أَتَانِي كَلَامُ الْجَاهِلِ ابْنِ كَيْغَلِقِ يَجُوبُ حُزُونًا بَيْنَنَا وَسُهُولًا
وَلَيْسَ جَمِيلًا عَرِضُهُ فَيَصُونُهُ وَلَيْسَ جَمِيلًا أَنْ يَكُونَ جَمِيلًا
وَيَكْذِبُ مَا أَذَلَّتْهُ بِهِجَائِهِ لَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِ الْهِجَاءِ ذَلِيلًا .

هذه الأمور كلها مجتمعة ، جعلت أمير حلب الحمداني ، يضع مسافة أمان بينه و
بين المتنبي و يخفف من تعاطيه و وصله معه ، لكنه لم يؤذنه أو يقصه أو ينفه أو
ربما يأتي على حياته ، شأن بعض الخلفاء الذين كانوا يقتصون من كبار الشعراء
و يقنعونهم بالسوط إذا أحسوا بمجرد إحساس ، أنهم يفخرون بأنفسهم في
حضرتهم .

و بدلاً من أن يكتفي المتنبي بذلك ، و يقنع بما آتاه الله من رزق و جاه ، و
عرض من الدنيا و نصيب ، فإن النفس الأمارة بالسوء أبت إلا أن تكون للشاعر

الكبير ، بالمرصاد ، فحدّت به أن يترك سيف الدولة الحمداني ولي نعمته ، و ساقّت به إلى مصر حيث كافور الإخشيدي الملك الداهية الذي عركته السياسة و الذي كان أول أمره عبداً خصياً مملوكاً ، بيعَ بعشرين من الدينار لابن طنج حاكم مصر ، ثم صارت إليه السياسة و الملكُ ، بعد تدير و عرك . فكان من العسير الشاق ، أن تمرق منه خزعبلات المديح و الإطراء المبالغ فيهما ، و هو العارف بالرجال و صنوفهم ، و خابِرُ الناس من أدبهم و علّ .

و عندما وفد عليه المتنبّي ، طفق يمدحه و يغالي في المدح ، مقابل إقطاعه ولاية يتأمّر عليها ، فقد بلغ به الطمع و الكبرياء ، أن يروم مقاماً يسوس به الناس ، و يكون له خدم و تُباع . و لعله أراد بذلك ، أن يعوض مركب النقص الذي لزمه في صغره و كبره معاً ، و هو مدحه للناس ، فأراد أن يغطي ذلك بأن يمدحه الناس . و هو ما حرّمه منه كافور الأسود و منعه إياه و ترك في نفسه حرقة كبيرة ، توجّها في الهجاء المقذع الذي تركه رسالة لكافور ، و الذي هو بنظرنا وجه آخر من وجوه المقلب الكبير و الطعم المر الذي سولت نفس المتنبّي له ابتلاعه ، و ذلك بالتملق لعبد خصي أسود ، أذل نفسه له و لم يحصل منه على شيء .

و قد شاءت إرادة الله أن يعيش دعيّ النبوة هذا كل حياته ، مادحاً لا ممدوحاً ، و أن يقض عمره كله شريد البقاع و الأمصار لا يستقر له مقام ، يمدح الأمراء و السلاطين و يقتات منهم ، و يهجو أدناهم منزلة ، بأعراضهم و أنفسهم ، فكان قريضة و قريحه اللذان رفعاه إلى أعنان السماء ، هما اللذان هويّا به حضيض الأرض صريعاً مجنولاً في قفار الصحراء ، يذهب دمه فيها هدرًا لا يجد من يطلبه و لا من يقاد فيه . مصداقاً للآية القرآنية .. {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} [هود : ١٥] .

و مصداقاً للحديث النبوي (لو أن ابن آدم أُعطي وادياً ملاً من ذهب ، أحب إليه ثانياً ، و لو أُعطي ثانياً ، أحب إليه ثالثاً ، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب)^١ .

ذهب الشاعر المتنبي الذي كان يوزع النصائح الثمينة و الحكم البليغة شعراً ، و يعلمها الناس ، و لم يستطع أن يعلم نفسه حكمة القناعة و فضيلتها . ذهب بعد أن أسس من حيث يدري أو لا يدري ، لمفهوم مثقف السلطان . و نظراً لأهمية الشعر العربي في عصور الجاهلية و بني أمية و العباس ، و أثره بين الناس ، فقد كان الشاعر ، هو مثقف السلطة بامتياز ، لأنه خير من عبر عنهما و جسّد فكرهما بين الناس . فلا زال الشعر العربي حتى أواخر تلك العصور ، من أفضل وسائل الإعلام انتشاراً و سلاسة و تأثيراً و قبولاً ، و حتى إقناعاً ، بين سواد العموم .

و نحن إن كنا في مبحثنا هذا ، قد أمعنا في الشاعر الكبير ، أبي الطيب المتنبي ، فليس بذلك منبع من ضغينة أو ثأر أو ما شابه ، فلا شأن لنا بذلك ، و إلا فهو كما ذكرنا قبلاً ، يُعتبر بنظرنا شخصياً على الأقل ، ملك الشعراء لا ينازعه أحد في ذلك ، و احترامنا لمترلته الشعرية ، لا تقبل مكاناً للشك . فالرجل له عاطفة شعرية جياشة و قلب كبير ، ظهر أثرهما في الشعر من مرثياته ، كما أن لشجاعته و جلده و صبره ، ما ينوء من حملة الغير . فالرجل و حسب سيرته التاريخية ، كان له مقدرة عجيبة على المشي و قطع الفيافي ، كما أن له شجاعة في الكر و الثبات عند القتال ، قلّ نظيرهما . ذلك من حوادث عدة تعرض لها ، و آخرها حادثة مقتله عندما اجتمع عليه جمهرة من الفرسان ، فأبى الفرار و الانسحاب ، لأن خادمه ذكره بيت شعر يقول فيه ..

^١ صحيح البخاري ، ج /٥/ ، ص /٢٣٦٥/ .

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبِيدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرطاسُ وَالْقَلَمُ .

فقاتل قتال الكمأة يدود حياضه ، حتى قُتل . فضلاً عن حكمه الرفيعة البليغة و التي لا زالت إلى الآن ، مضرب الأمثال و مجرى الألسن و الأقوال .

لكن الأمر و ما فيه ، هو أننا أردنا إبراز صورة مثقف السلطة و السلطان ، الذي كان المتنبى للأسف ، خير من مثلها بوجهها الآخر و صورتها السلبية . فهي صورة قائمة على الكذب و الخداع و تشويه الحقائق و تزييفها ، فقط خدمة للسلطان و جنوده ، و من أجل الدرهم . و المتنبى نفسه ، كان دون أن يدري أو يقصد ، يصور لنا هذه النقاط السلبية في أشعاره و قصائده التي يعترف فيها أنه كان يكذب على السلاطين في مدحه ، و يعطيهم مقاماً ليس لهم أن يبلغوه حيث يقول مخاطباً كافور الإخشيدي يهجوّه بعد مدح ..

أُرِيكَ الرِّضَا لَوْ أَخَفَّتِ النَّفْسُ خَافِيَا وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلَا عَنْكَ رَاضِيَا
تَظُنُّ ابْتِسَامَاتِي رَجَاءً وَغَيْطَةً وَمَا أَنَا إِلَّا ضَاحِكٌ مِنْ رَجَائِيَا .

و يعترف في مواطن أخرى ، بأنه كان يغشهم في شعره بأن يجعل باطن القول هجواً و ظاهره مدحاً ..

وَلَوْلَا فَضُولُ النَّاسِ جِئْتُكَ مَادِحًا بِمَا كُنْتُ فِي سِرِّي بِهِ لَكَ هَاجِيَا
فَأَصْبَحْتَ مَسْرورًا بِمَا أَنَا مُنْشِدٌ وَإِنْ كَانَ بِالْإِنْشَادِ هَجُوكَ غَالِيَا .

كما يقر في آخر غيرها ، بما تكنه خبيثة نفسه من طلب المال و الجاه و الرياسة ، عن طريق مدح السلطان و التملق إليه و التزلف . و قد رأينا كيف كان يطلب

من سيف الدولة الحمداني ، المال علانية و بوقاحة . كما فعل أيضاً مع كافور حين أبطأ عليه العطاء و سوفه الولاية التي وعده بها ، فينشده شعراً يعلمه فيه أن انتظاره قد طال و أنه يأمل منه شيئاً ، فيقول لا فض فوه ..

وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي كَمْ حَيَاتِي قَسَمْتُهَا وَصَيَّرْتُ ثَلَاثِيهَا إِنْتِظَارَكَ فَاعْلَمْ
وَلَكِنَّ مَا يَمْضِي مِنَ الْعُمْرِ فَايْتٌ فَجَدُّ لِي بِحِطِّ الْبَادِرِ الْمُتَعَمِّمِ
رَضِيْتُ بِمَا تَرْضَى بِهِ لِي مَحَبَّةٌ وَقَدْتُ إِلَيْكَ النَّفْسَ قَوْلُ الْمُسْلِمِ

ثم يعود و يلح عليه مذكراً في مناسبة أخرى ، بما وعده به ، و يطلب و لو مجرد فضلة أو أي شيء يعطى له ، قاتلاً ..

إِذَا تَرَكْتُ الْإِنْسَانَ أَهْلًا وَرَاءَهُ وَيَمَمَّ كَافُورًا فَمَا يَتَغَرَّبُ
أَبَا الْمِسْكِ هَلْ فِي الْكَاسِ فَضْلٌ أَنَالَهُ فَإِنِّي أُغْنِي مُنْذُ حِينَ وَتَشْرَبُ
وَهَبْتَ عَلَيَّ مِقْدَارَ كَفَى زَمَانِنَا وَنَفْسِي عَلَيَّ مِقْدَارَ كَفَيْكَ تَطْلُبُ
إِذَا لَمْ تَنْطَبِ بِي ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً فَجُودُكَ يَكْسُونِي وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ
أَحْنُ إِلَى أَهْلِي وَأَهْوَى لِقَاءَهُمْ وَأَيْنَ مِنَ الْمَشْتَاقِ عَنَقَاءُ مُغْرَبُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَبُو الْمِسْكِ أَوْ هُمُ فَإِنَّكَ أَحْلَى فِي فُرَادِي وَأَعَذْبُ .

هذا كله عبارة عن صورة من صور الخداع ، و سلوك مسلك الوهم ، و إعطاء وقائع وهمية زائفة ، لا تصح في غالب الأحيان ، إلا على مبدأ توصيف الكذاب الذي يقرب عليك البعيد ، و يبعد عنك القريب ، و هو ما نراه اليوم في مثقفي السلطة و السلطان الذين هم في يومهم هذا لم يعودوا يقتصرون على الشعراء ، بل تعدوا ذلك إلى الكتاب و المفكرين ، و حتى أصحاب الدراسات الأكاديمية و

الجامعية و الإعلامية و غير ذلك . و الصورة السلبية التي هم عليها الآن ، هي نفسها صورة أولئك الشعراء ، و أمثلتهم المذكورة آنفاً . و لذلك .. لا حاجة للمزيد من ذكر صفات هؤلاء الرهط المعاصرين الآن ، و سماهم .

على أنه ما يشفع لثقف السلطة و السلطان ، و ما يبرز فيه الوجه الإيجابي في علاقته و اتصاله بالسلطة و المنظومة السياسية ككل ، أمر واحد فقط .. أن يكون مؤمناً إيماناً عقائدياً خالصاً ، بهذه السلطة و أيديولوجيتها ، و يعتقد في قرارة نفسه ، أنها سلطة صالحة و تعمل لخير الدولة و المجتمع ، و تكون هي فعلاً كذلك ، و تثبت تاريخياً و واقعاً ، أنها كذلك .. و على أن يعمل هو لها و ينظر لأجلها من هذا المنطلق فقط ، لا لأجل أي شيء آخر .

و من هذا المنطلق .. لا نستطيع ، على سبيل المثال ، أن ننكر على المثقف و المفكر الماركسي أو البلشفي انتماؤه و تبعيته لسلطة أو حكم شيوعي بلشفي . و لا نستطيع أن ننكر على مثقف و مفكر قومي ، انتماؤه و تبعيته لسلطة أو حزب حاكم يتبنى هذا المبدأ . و كذا الأمر بالنسبة للمثقف و المفكر الديني و غيرهم ، شرط التقيّد بالمعيار السابق المذكور آنفاً . فهل مثقف السلطة و السلطان ، هو الآن على سوية هذا الشرط المعياري ؟؟؟ .

إن قضية و مفهوم مثقف السلطة و السلطان ، يقودان إلى مفهوم آخر متشابه ، و ذو جدلية فكرية قد أشكلت على معظم الدارسين و الباحثين ، و هو مفهوم (مثقف الكرسي) الذي مثل حالة معاصرة لم توجد قبل القرن الماضي ، كمفهوم واضح مستقل .

و تعريف مثقف الكرسي هو .. ذاك الشخص المتحصل على ثقافة معينة ، علمية أو فكرية ، و أُعطيَ بموجب ذلك ، منصباً (و ليس موقعاً) مختص بالفكر و الثقافة و العلم ، حكومياً عاماً كان ، أم رسمياً اجتماعياً ، أم علمياً و من وجوه ذلك .. وزير ثقافة - مدير مركز ثقافي - رئيس مجلس ثقافي - رئيس تحرير صحيفة ، حكومية أم خاصة - رئيس تحرير قسم من أقسام صحيفة

أو قناة إعلامية - كاتب عمود مقالات ثابت - محكم زمني ثابت لمسابقات فكرية - مسؤول فكري في دار نشر عامة أو خاصة ... الخ . و العكس غير صحيح ، أي ليس بالضرورة أن يكون هؤلاء هم مثقفوا كرسي . و مثقف الكرسي هو المسؤول الأول و المدير المتحكم . بمنصبه هذا الذي يعد بالنسبة إليه ، إقطاعية خاصة ، رأيه فيها هو المهيمن و كلمته هي السائدة . و مثقف الكرسي هذا ، يعتبر أن أية محاولة للاقتراب من منصبه هذا ، مهما كان نوعها ، مباشرة أم غير مباشرة ، هي خطر داهم بالنسبة إليه ، يجب التعامل معه على هذا الأساس ، كما أنه في غالب الأحيان يعتمد أسلوب الهجوم الوقائي للدفاع عن منصبه هذا ، فيقوم بقصف و تدمير و إقصاء ، مادي أم معنوي ، لأي مثقف آخر يتوسم فيه ملامح و صفات الذكاء و المعرفة و الخبرة و العلم ، بمجرد اقترابه منه ، فقط لمجرد الخوف من أن يحل محله ذات يوم .

و مثقف الكرسي هذا ، ليس بالضرورة أن يكون مثقف سلطة و سلطان ، أو تابع لهما بشكل من الأشكال ، لكنه يمكن أن يكون كذلك في الوقت نفسه ، فهو إذن .. شخص له أكثر من لون و وجه ، و أكثر من صورة و شكل . مثقف الكرسي ، مقارنة مع مثقف السلطة ، هو أكثر سوءاً و أذىً ، و أحياناً أكثر إيراداً لحقائق واهية مغلوطة ، و ثقافة مشوهة ذات تبعية سياسية و دينية ضيقة و محدودة . كيف لا و هو في أقصى حالاته عبارة عن مجرد مثقف كرسي له منصب لكن لا موقع له في الحياة الفكرية و الثقافية . فهو مستعد لعمل أي شيء لأجل الكرسي ، و هو صورة سيئة من صور أولئك الشعراء المتحلقون كالذباب حول فتات مائدة السلطان في العصر العباسي ، أو كالسباع الضارية ، يهر بعضها على بعض و يكيدها بعضها لبعض ، و ينقم بعضها من بعض لمجرد أن يقرب السلطان أو الأمير ، أحدهم ذراعاً و يبعد الآخر شبراً ، أو يعطي و يوصل أحدهم قنطاراً و يمنع الآخر مكيالاً .

مثقّف الكرسي في عصرنا الحالي ، هو إنسان نصف مثقف ، و أحياناً نصف جاهل أو نصف متعلم ، لماذا؟؟؟ لأنه سخر حياته و ثقافته لأجل الكرسي الذي هو عليه ، فهو يطلب الكرسي لا العلم و المعرفة ، فيستخدم الأخيرين لأجل الأول . و هو مستعد لأن يفعل أي شيء ، و يزور أية حقيقة ، و يحور أية ثقافة و أي فكر ، فقط لأجل أن يرضي من وضعه على هذا الكرسي ، حتى يبقيه عليه لا يزيحه و لا يستبدله بمثقف آخر . و هو لا لون له و لا عقيدة إلا لون الكرسي الذي يجلس عليه . و إذا انتقل إلى كرسي آخر ، يغير من فوره ، لونه و فكره و عقيدته إلى لون الكرسي الجديد و عقيدة و اتجاه من طلبه إليه و وضعه عليه . و إذا التقى بمثقف آخر و أحس منه دراية و خبرة و ثقافة تضاهي ما هو عليه أو تزيد ، توجس منه ضراً و تأبط لأجله شراً ، معتبراً أنه قد ينافس على الكرسي الذي هو متربع عليه . فيعمد على الفور إلى سد الطرق و المنافذ أمامه ، و يسعى جاهداً لإحباطه ، و أحياناً يفعل ذلك ، غيرة و حسداً ، فهو يعرف أن ثقافته ربما قد تكون محدودة ، و أنه في وجه من وجوهه ، إنسان شبه أمي ، عاجز عن تأليف كتاب واحد . فإذا كان عضواً أو رئيساً للجنة تحكيم ، أفضل كل متسابق يتوسم فيه الثقافة و الفكر و العلم ، و أحبطه . و إذا كان رئيساً لتحرير صحيفة أو موقع نشر ، أحبط كل كاتب مثقف صاحب مقال و موضوع نير جيد . و هكذا هلم جر .

فإذا كان لمثقف السلطة و السلطان ، ما يشفع عقائدياً له في فعله ، فإن مثقف الكرسي لا شفيح له في فعله . و إذا كان مثقف السلطة و السلطان ، يشار إليه بالبنان و يتعرض للنقد و الانتقاد ، فإن الآخر يختبئ في الظلام بمنأى عن أعين النقاد ، أو يتوارى خلف كذا قناع و قناع . كما أن مثقف الكرسي قد يكون في بعض الأحيان ، أشد خطراً و ضرراً من مثقف السلطة ، لأن أثره يكون مخفياً و غير ظاهر للعيان ، و دوره التخريبي قد لا يدرك من قبل الأفراد العاديين أو ذوو الثقافة و الوعي المتوسطين .

عود على بدء .. فإن كل من مثقف السلطة و السلطان ، و مثقف الكرسي ، هما بالمنطوق السليبي ، وجهان لعملة واحدة هي عملة التبعية و الاستبداد و تزييف الحقائق . فالأول يتبع السلطة الحاكمة ، و الثاني للسلطة الاعتبارية المؤسساتية صاحبة الكرسي الأساس و مالكنته التي وضعت عليه ، و هي سلطة دينية أو مالية أو اجتماعية . و قد تكون هي نفسها ، السلطة السياسية . و تالياً .. هما مقيدان بما يعلو عليهما من الأعلى ، كل حسب مولاه و رئيسه . فتصبح و الحالة هذه ، الثقافة و الفكر غير معبرين عن الواقع الحقيقي للدولة و المجتمع و إرهاصات الواقع السياسي و الاجتماعي و المالي المعيشي ، و حتى الأخلاقي ، بل حالة لما تريده السلطات المفرزة لهؤلاء ، بأنواعها كافة ، و أداة و نموذج لقلب الحقائق و عكسها . فإذا كانت هذه السلطة تنتهج سياسة الاستبداد و القهر و الرأي الواحد ، أو سياسة مضللة مشوهة ، أو موجهة لأهداف و مشاريع و مناهج معينة ، و لو بشكل غير مباشر ، فإن دور هؤلاء المثقفين الأتباع ، هو شرعنة ذلك كله ضمن قالب فكري متجانس ، و إطار ثقافي عام تخرج منه و تتحلق حوله الثقافات و المنظومات الفكرية الدائرة في فلكه أو المحتاجة إلى فضائه .

غالباً ما يتميز فكر مثقف السلطة بأنه فكر أحادي متموضع على حامل السلطة و صراطها ، و محشور بزوايتها فقط . و فضلاً عن ذلك ، يتهيأ لهذا النوع من المثقفين ، كل أشكال الدعم و المساندة و الحضور الإعلامي المميز ، و إسباغ نوع من الشهرة التي تتحول فيما بعد و مع مرور الزمن و تفتاني المثقف في خدمة السلطة و السلطان إلى درجة الضبع الخالص ، تتحول إلى حالة كاريزمية تكون في معظم أحوالها ، حالة زائفة جوفاء لا تستند إلى أي أساس علمي عقلائي ، و يصبح هؤلاء هم أصحاب الحلقات الحوارية في القنوات الفضائية التلفزيونية ، وهم المحاضرون في الندوات و المراكز الثقافية التابعة لسلطة الدولة ، و يتم تحويل هؤلاء إلى حالة فكرية متورمة منفوخة ، و يُطلق على الواحد منهم أسماء مثل ..

الكاتب المحلل أو الباحث الاستراتيجي أو المفكر . و ينسب له مواقع و مناصب وهمية لا تحتم المصدقية ، كأن يقال عنه .. رئيس المركز الاستراتيجي للأبحاث و الدراسات و العلوم الإستراتيجية ، أو مدير الشبكة الإستراتيجية الفكرية العالمية الكونية ، و ما إلى ذلك من أسماء و صفات و مواقع ، هي أشبه بما يسمى (الشركات الوهمية) . بينما في واقع الحال ، لا تجد لأحدهم و لو كتاب فكري واحد ، أو تبحث في سيرته الذاتية ، فلا تجد له تاريخاً و باعاً في الفكر أو الثقافة ، و كل ما لديه هو فكر سلطوي أحادي ، يمجّد السلطة و السلطان ، عبر سنين طوال منذ بدء خدمته في سلك السلطة ، بطريقة بيغائية مكررة ، نمطها واحد لا يتغير .

إن كل ما سبق تناوله حول هذا النمط من المثقفين بصورته السلبية ، يعبر عن حالة فكرية شاذة مجتزئة من سياقها التاريخي و الزمني و الثقافي ، حيث تنتفي كل الحوامل و المساقط ، للمناهج الحقيقية الثقافية و الفكرية الأخرى في المجتمع و تندمل متفوقة مغيبّة ، متوارية عن الذهنية الفردية فيه ، بينما تتمدد قفيرة السلطة الفكرية و الثقافية في الواجهة الإعلامية و الفكرية للمجتمع ، مبتلعة كل ما عداها . و بالمقابل من هذا كله ، نجد التعقيم و الإقصاء على كل من هو ليس بمثقف سلطة و سلطان ، حتى و لو كان المثقف الحق الأصيل ، صاحب الثقافة و الفكر المعياريين ، و صاحب الكتب و المؤلفات ، فهو بالغالب الأعم محروم من الامتيازات و العطاءات و الدعم المادي و المعنوي ، مضروب عليه طوق تعتيمي لا يظهر بسببه في إعلام أو صحافة أو قنوات تلفزيونية أو برامج ثقافية أو ندوات حوارية ، و يكون في حالة إملاق و إفقار مادي ، يضطر خلاله أحياناً لمد اليد و الاستجداء للحصول على مسكن يؤويه أو دواء يشفيه أو حتى طعام يبقيه . و بالتالي تكون الساحة لمثقف السلطة و السلطان ، و مثقف الكرسي و الإيوان ، فهو الواجهة و هو الكل بالكل ، و هو صورة و هوية الفكر العربي المعاصر ، و بالأخص ، الإعلامي منه .

إن الخطورة في مثقف السلطة و أحياناً الكرسي ، هي أنه يصل في مرحلة من التماهي مع السلطة الحاكمة و العبودية لها ، إلى التشبع بمفرداتها الخطابية و صبغتها السياسية ، فيتقمص دورها في غالب الأحيان ، و يجعل من نفسه سلطة فكرية ثقافية على من هم حوله من مثقفين و أفراد مجتمع ، فيمارس عليهم سلطة أبوية استبدادية معنوية بشكل أو بآخر . و ما أكثر هؤلاء في يومنا الراهن و فكرنا المعاصر .

نهاية .. لا يبقى من الوجه الإيجابي لمثقف السلطة و السلطان إلا أن يخدم الفكر و الثقافة في المجتمع الذي هو فيه ، من خلال موقعه و مسؤوليته و صلاحياته التي منحتة إيها السلطة أو أن يكون من سياسة السلطة نفسها ، أن تعتمد سياسة التنوع الثقافي و الفكري في المجتمع و هو أمر لا تخلو منه مجتمعاتنا ، فهناك العديد من مثقفي السلطة في عالمنا العربي ، هم على سوية أخلاقية و خلقية عالية يمثلون الوجه الإيجابي الحسن لمثقف السلطة ، و لا يمكن إنكار ذلك بحال من الأحوال لأنه و كما يقال بالمثل الشعبي الدارج (إن خَلَيْتْ خَرَبَتْ) . و آخر نصيحة لنا في هذا الشأن ، حول مثقف السلطة و السلطان و مثقف الكرسي هي .. و نصيحتنا للجمهور في هذا الخصوص .. إذا رأيت المثقف يحرص على الكرسي ، فاقممه في معرفتكم .

سمات المثقف أو المفكر العربي :

لقد أضحى المثقف العربي اليوم ، حالة وهمية لا وجود لها بالمعنى المعياري الحقيقي للمثقف المتعارف عليه في دول العالم ، إلا في حالات نادرة استثنائية . و إن وُجِدَ في العالم العربي كواقع مشخص ملموس ، فهو حالة مفرغة من

مضمونها و شجرة عاقر لا ثمار فيها و لا تؤتي أكلها كل حين . فالمتقف الحق الأصيل بنظرنا ، هو في مقدماته ، مفهوم فكري علمي معرفي ، و في نتائجه هو حصراً مفهوم خدمي وظيفي اجتماعي أولاً و سياسي اقتصادي . و خارج هذا الإطار و المفهوم ، هو حالة شاذة زائفة تمثل إدعاء وصولي نفعي . و أي معيار تتحدد به سوية المثقف ، ينطلق من خلال الشرط السابق حتماً .

المثقف .. هو مثقف بما يخدم مجتمعه و موطنه الذي يعيش فيه ، هو مثقف حيث هو موظف لدى المجتمع ، يقدم له فوائد معرفية علمية ثقافية تزيد من رفعته و تقدمه ، و تعمل على تقوية تماسكه الاجتماعي و الأخلاقي ، و الأهم من ذلك كله و الذي قد يأتي في المقام الأول ، هو نشر ثقافة التوعية و المسؤولية الأخلاقية الإنسانية العامة ، و العمل على إنشاء أرضية عامة واسعة لكن صلبة ، تكون أساساً لتقدم الدولة و المجتمع و ازدهارهما و قوتهما . فالعلم و المعرفة ، قوة و منعة أيّاً كانت نوعيتهما و كفاءتهما . و الجهل و التخلف هما ضعف و عجز أيّاً كانت صفتهم التجميعية و التمويهية ، و من أي منطلق تبريري و فكري جاء .

و لعلنا نلاحظ أن الدول القوية العظمى التي تتحكم بمجريات السياسة العالمية و الاقتصاد العالمي ، تقوم على منظومة فكرية علمية ثقافية متقدمة و شاملة واسعة، منهج عملها و آلياتها ، الإبقاء على القاعدة الشعبية مثقفة متعلمة واعية، ناضجة الإدراك لمسؤولياتها الإنسانية و الوطنية أولاً ، و من ثم تأتي الأمور الأخرى الدينية منها و العقائدية ، التي تُعد حالة شخصية تعبر عن علاقة خاصة بين المرء و ربه . و ترتكز هذه المنظومة في أساس عملها أيضاً على تناول المسؤولية الثقافية التعليمية للإنسان ، منذ الولادة أو الطفولة و حتى الممات . و بدون ذلك ، لا يمكن إنشاء منظومة فكرية اجتماعية راقية متقدمة تدعم المجتمع و ترفده بالمفكرين و المثقفين المنتجين . و قد برزت في سورية على سبيل المثال حالة مشاهمة لذلك ، ربما كانت محاولة حجولة لكنها قوية و تبشر بخير إذا ما

استمرت و لاقت الدعم المادي و المعنوي ، و هي جمعية قوس قرح . و هي حسب ما رأيناها بشكل شخصي ، تهتم بخلق منظومة فكرية ثقافية علمية هائلة و متقدمة للطفل السوري ، تشمل جميع الأطياف في سورية و مختلف الطبقات . كما لوحظ أيضاً ، وجود مبادرة لوزارة الثقافة السورية ، بإعادة إصدار مجلة للطفل العربي تسمى (أسامة) و قد ضمنت فيها كل المواد العلمية و الثقافية و الفكرية التي تسهم في تحفيز ذهنية الطفل ، و أرفقتها بكتيب صغير يتحدث عن موضوع علمي أو تاريخي مميز و تباع هذه المجلة في الأسواق السورية بسعر زهيد جداً يعادل /٢٠/ سنت ، أو $\frac{1}{5}$ دولار .

ثقافة النخبة و نخبة الثقافة (الملاّ الفكري) :

ماذا يفعل المثقف العربي اليوم !!؟؟ و أين هو المثقف العربي !!؟؟ بل و أين هو من المعيار المذكور سابقاً ؟؟ .

لقد أضحي المثقف العربي اليوم ، مشتتاً بين مثقف السلطة ، و مثقف الكرسي ، و المثقف الأكاديمي ، و المثقف الحق شريد الناس طريد المجتمع و أحياناً السلطة .. رهين الفقر و العوز و العجز ، بينما هو قمين الإنصاف و العدل و التكريم و الدعم . فإذا استثنينا مثقف السلطة كحالة شاذة لا يعتد بها ثقافياً و لا فكرياً ، و استثنينا المثقف الحق كحالة مغمورة مقصاة ، لا يبقى أمامنا إلا المثقف الأكاديمي الذي من المفترض به أن يكون الأ نموذج الحقيقي للمثقف العربي ، كونه افتراضياً ، قد استوفى التحصيل الدراسي و امتلك ناصية العلم الأكاديمي و الجامعي ، و استحوذ نواحي الفكر و المعرفة بنواصيهما أجمع ، أو كونه من ناشري العلوم و المعارف للطلاب في ميادين الجامعات ، أو غيرهم من عموم المتلقين ، عن طريق الكتب التي يؤلفها و ينشرها ، ورقياً أو إلكترونياً . هذا

الضرب من المثقفين ، في الوضع الافتراضي ، هم من يطلق عليهم اسم و نعت (النخبة) الثقافية أو الفكرية .

و للأسف الشديد ، فإن نسبة لا بأس بها من هؤلاء ، تحولوا إلى مثقفي كرسي ، و القسم الآخر منهم استقل حيادياً و فكرياً ، لكنه وقع في مطب النخبوية اللا افتراضية (إذا جازت التسمية) .

و النخبوية الفكرية الافتراضية بمنظورنا ، هي التي تمثل حالة فكرية متقدمة تتناول أهم الإشكاليات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية أو الثقافية ، الموجودة في المجتمع ، وتعالجها بطريقة علمية ناجحة ، حيادية ، صحيحة شاملة . كذا الأمر .. فإن النخبة الفكرية أو الثقافية ، هي تلكم الأشخاص الذين ينتطحون بدافع .. إما فردي وطني خالص ، و إما جماعي أو مؤسسي أو تنظيمي معين ، لمعالجة قضايا كبرى تمس المجتمع و الدولة و الناس ، من خلال زاوية فكرية ثقافية معينة ، يعالجون فيها قضايا ، يعجز الغير عموماً عن معالجتها أو تناولها فكرياً و ثقافياً أو حتى علمياً ، بدرجة صحيحة ، تمهيداً لمعالجتها مادياً أو قانونياً .. أو هم أولئك الذين يمتلكون مواهب و طاقات و معارف فكرية و علمية و ثقافية هائلة جداً ، تمكنهم من طرح حلول مميزة أو جذرية ، عقلانية منطقية ، تكون بمثابة نقطة تحول جوهرية نحو الأفضل ، أو تترك أثراً بالغاً فعلاً . و هو ما يقاس أيضاً على مفهوم النخب العلمية ، وهم نخبة العلماء الذين قدموا اختراعات هامة للبشرية ، انتشلتها من شقاؤها و بؤسها في مفاصل و قضايا معينة ، و أسهمت في تقدمها و تطورها . هذا هو مفهوم النخبة . و إذا نظرنا في المعاجم ، نجد دلالة مطابقة أو مشابهة . فقد جاء في المعجم¹ .. النخبة : خيار الناس ، يقال : انتخبت أفضلهم نخبة و انتخبت نخبتهم . و الانتخاب : الاختيار ، و المنتخب من الشيء : المنتزع منه .

¹ انظر معجم لسان العرب ، و معجم العين ، مادة (نخب) .

إذن .. يقع مصطلح النخبة على الخيار الأفضل المميز ، الذي لا يقع غيره في منزلته ، و هو ما يصح فيما سبق من قول .

اليوم .. في وقتنا الراهن هذا ، تبدى أسئلة عدة حول مفهوم و مصطلح (النخبة الفكرية) أو (النخبة الثقافية) . ما هو معيار النخبة الثقافية العربية اليوم؟؟ هل هو مطابق للمعيار السابق المذكور آنفاً ، و يحقق شروطه؟؟ هل يوجد بالفعل ، نخبة فكرية عربية؟؟ ما هو دورها؟؟ أسئلة عدة ترد إلى الذهن . إن إحدى أهم سمات (النخبوية؟؟!!) الفكرية العربية اليوم ، هي الانعزالية البحت .مختلف أشكالها ، عن الجمهور و سواد العموم . و قد شكلت هذه الفئة بالنسبة لمجتمعاتها ، انعزالية فكرية ، و انعزالية ثقافية ، و انعزالية اجتماعية . و قياساً على المعيار النخبوي الفكري الثقافي المذكور آنفاً ، فإن هؤلاء الرهط الذين يدعون أنفسهم (نخبة؟؟!!) ، أو يوجد من يطلق عليهم تسمية (النخبة؟؟!!) لا يصلحون لأن يكونوا نخبة ، كونهم لم يحققوا الشرط المعياري الأساس المعرف لمصطلح (النخبة) الفكرية و لم يستوفوه . فلا هم قدموا لمجتمعاتهم شيئاً يصلح من حالها و يريح بالها ، و يهيئها لتتبوأ مكانها المناسب بين بقية المجتمعات البشرية الأخرى ، و لا هم أصلحوا و حركوا بها ساكناً ، و لا هم غيروا من سوية انحطاطها الفكري و العلمي نحو الأفضل ، و لا هم عاجلوا مشاكلها و إرهاباتها الفكرية أو أزماتها السياسية و الاقتصادية ، و حتى مشاكلها الاجتماعية . لم يعالجوا و لا حتى قضية واحدة ، و لا مأساة واحدة من مآسي المجتمعات العربية ، و منها ما يحصل اليوم . و بالتالي .. فهؤلاء ليسوا نخبة ثقافية أو فكرية و لا يصلحون أن يكون نخبة فكرية ، بل هم عبارة عن .. ملا فكري .. هم بكل بساطة ، ملا فرعوني فكري ثقافي ، سمتهم الوحيدة هي الانعزالية . و هم لم يجدوا سبيلاً ، أو يوجد لهم سبيلاً ليسموا أنفسهم أو يتسموا من قبل الغير باسم (النخبة؟؟!!) ، إلا بانتهاج منهج الانعزالية عن مجتمعاتهم ، وأول سمات هذه الانعزالية كما ذكرنا ، هي ..

— الانعزالية الفكرية : و هي التي تقوم على مبدأ اعتماد الطلاسم الفكرية الاصطلاحية في ثقافة و كتب و منشورات هؤلاء القوم . و هم يعتمدون في منشآتهم الفكرية ، على مصطلحات حدائية غريبة عن الفكر العربي ، و جلها تراكب اصطلاحية أجنبية ، يحتاج المثقف العادي أو ذو الثقافة المتوسطة ، إلى معجم مصطلحات لكي يفقه بعض منها ، فما بالنا بالإنسان العادي أو الذي أجاد القراءة و الكتابة و أراد أن يقرأ كتاباً لواحد من هؤلاء الذين سبقتهم شهرتهم إليه قبل فكرهم ، و يفقه فيه ما يتعرض مجتمعه لمشاكل ، أو يفقه فيه ما يريده هذا المثقف من طرحه عليه . و من هذه المصطلحات على سبيل المثال لا الحصر (أبستمولوجيا - أتوقراطية - صيرورة - إكليريكية - إنطولوجيا - فورمولوجيا - أنتلجنسيا - أوليغاركية - براغماتية - ليبرالية - تكنوقراطية - تجريدية - ثيوقراطية - سوريالية - شخصانية نقدية - كوزموبوليتانية - إبدالية - كانطية - لوغوث - مادية جدلية - مباينة كلية - مثالية تصويرية - مثالية موضوعية - تلازمية عقلية - نزعة توفيقية - واحدية تجريدية - غمطانية - يوتوبيا) .

إن المسألة تحديداً ، ليست في تواجد بعض من هذه المصطلحات في كتاب لأحدهم ، ضمن مفاصل متباعدة ، بل المشكلة هي في الكم الهائل الذي يعج به الكتاب من هذه المصطلحات ، لدرجة أنه شكّل سرده الكامل و متنه الأساس . تقرأ كتاباً لأحدهم ، فتجد فيه عينة من مقاطع في فصول على سبيل المثال (إن المنهجية النمطية للسيرورة الدوغمائية التاريخانية الفوقانية ، كانت قد تمايزت ضمن منازيم تجريدية تمايزية حفزتها تداعيات منطقية تناظرية جاءت ضمن انتساق طبعاني فورمولوجي شكل الصيرورة التاريخانية للتبديت و التمظهرات السيسولوجية) .

يا أخي .. أنت من تخاطب ، بهذه الطلاسم الفكرية الاصطلاحية !!؟؟ و ما هي الإشكالية أو القضية المستعصية أو المعضلة الأساس التي تطرحها للنقاش !!؟؟ يا

مهجة عيني و بصوبها .. أنت لديك نسبة لا بأس بها من الأميين في عالمك العربي ، و نسبة أخرى أكبر من أتموا نحو الأمية ، و نسبة ثالثة طاغية هي أعلى الثلاث ، ممن تحصلوا على ثقافة سطحية بسيطة ، و نسبة أخرى شاملة كاسحة ممن لم يقرأوا كتاباً ، أو في أحسن أحوالهم ، قرأوا ربع صفحة في السنة . فإذا أنت .. أنت من تخاطب في كتابك هذا !!؟؟ أو في حوارك الثقافي ذاك !!؟؟ . أنت بكل بساطة ، تخاطب أشباهك و أضرابك من حزب الملاء الثقافي العربي ذاك ، لكي تثبت مهارتك في التزييق و التمنيق الفكري ، و براعتك في صوغ الشنوف و القروط الفكرية الاصطلاحية . كيف تدعي أنك مصلح اجتماعي أو فكري و تطرح إشكالية المجتمع الفكري العربي ، و أنت أصلاً لا تخاطب السواد الأعظم من الجمهور العربي !!؟؟ كيف تطرح إشكاليات الثقافة و المعرفة و الفكر في العالم العربي ، و أنت أساساً لا تخاطب من هو المعني بذلك ، ألا و هو الإنسان العربي !!؟؟ .

نفتح كتاباً لواحد من هؤلاء و نحاول قراءته ، فلا نفهم ماذا يريد به مؤلفه بالضبط ، و ما الهدف و الغاية المنشودين عنده من كتابه هذا ، و ما هي العبرة في مضمونه .. تشعر بنفسك ضائعاً تائهاً وسط دوامة أو متاهة لا تهتدي للخروج منها سبيلاً ، و لا تعرف للوصول إلى بر الأمان فيها ، طريقاً ، و كأنك تسبح في بحر متلاطم الأمواج ، هائجها من الطلاسم و العقد .. تبحث عن قضية واحدة لها أبعاد واضحة محددة لتتعلق بها و تمسك بأهدابها ، فلا تجد . تشعر و كأنك في عالم آخر أو في حلم تتمنى الخروج منه بأسرع وقت .. تشعر بتعب نفسي و إجهاد عصبي مرهق ، فتضطر نهاية الأمر إلى إطباق دفتي الكتاب و قد انتابك شيء من الإحباط و القنوط و التوتر . ذاك كله على مبدأ قول الشاعر أبو العلاء المعري ..

لقد طال العناء فكم يعاني سطوراً عاد كاتبها بطمس

قرأت ذات مرة في حوار مع أحد المثقفين أو المفكرين العرب المشهورين في عالمنا العربي ، كلاماً له يقول فيه .. إنه لا يكتب إلا للنخبة من المثقفين أو القراء. و قد صودف بعدها أن كنت في معرض للكتاب ، أتصفح الكتب الموجودة في إحدى صالاته ، فانبرى لي المسؤول عن الصالة يعرض علي كتاباً لهذا المثقف أو المفكر المشهور ، قائلاً لي إنه كتاب رائع و قيم ، عارضاً علي اقتنائه ، فابتسمت و قلت له بأدب .. آسف .. أعتذر عن شراء الكتاب ، بل و أعتذر حتى عن تصفحه . فبهت الذي عرض علي الكتاب و سأل باستغراب .. لماذا؟؟!! . فقلت له : في الواقع يا سيدي ، إن صاحبك هذا يقول إنه لا يكتب إلا للنخبة من المفكرين و المثقفين و القراء ، و أنا يا عزيزي .. لست من هؤلاء الذين يكتب لهم صاحبك . ثم ودعته منصرفاً بابتسامة مهذبة .

— الانعزالية الثقافية : تتجلى الانعزالية الثقافية في مجتمع من المجتمعات ، بطرح ثقافة و فكر ، غريب منكر ، عن المجتمع التي هي فيه ، لا و لا تمت إليه بصلة ، و لا تتعلق بواحدة من إشكالاته و مشاكله ، بل هي أساساً تتحدث عن ثقافة البلد الأجنبي أو الغربي الذي عاش فيه المثقف صاحب الكتاب أو المنشور الذي يتحدث عنه ، و يكون متنها في الغالب الأعم ، إشكالية خاصة مختصة بحال مجتمع تلك الدولة الأوروبية أو الأجنبية .

من حيث المبدأ العام .. لا ضير بسوق ضرائب معينة ، من حالات و حوادث فكرية للبلد أجنبي ، تتناول معضلات معينة ، و جعلها أمثلة يُقاس عليها ، و ذلك في حالات استثنائية محددة ، تستوجب في مضمونها و حيثياتها و طبيعتها ، أن يُقاس عليها هكذا أمثلة .

أما أن يتم استحضار مثل هكذا أمثلة ، في الطالع و النازل ، و الشارق و الغارب ، و يصبح مثقفنا العتيد الذي ابتعث إلى ذلك البلد الأجنبي أو ذلك ، لإتمام دراسته العليا و التحصل على الماجستير أو الدكتوراه ، يصبح مضبوَعاً

ضبعاً بهذا البلد لا يجد لغيره ذكراً و لا شرحاً و لا بحثاً لكتاب ، متجاهلاً كل مشاكل و مآسي و إرهابات بلده و مجتمعه التي هي الأجدر به أن يضعها موضع الدراسة و البحث و التحليل . لكنه بدلاً من ذلك يتركها هملاً و يهرع بكلية و جوارحه منصرفاً إلى البلد الذي عاش فيه قلال السنين ، فتلك و الله قاصمة الظهر . فهو يريد أن يظهر بمظهر المنتطح لحل مشاكل الدول الأوروبية الاسكندنافية و مجتمعاتها ، و العارف بأحوالها و خباياها و حلول مشاكلها . و بالتالي ، فإن مستواه الفكري هو أعلى و أكبر من مستوى فكر و وعي أفراد مجتمعه و بلده . و العبرة المتأتية من ذلك كله ، هي انه مهما كان مفهوم التلاقح و الانفتاح الفكري الثقافي ، و الاطلاع على حضارات و ثقافات الغير ، مستوجب للحدوث ، فالإنسان بشكل عام ، معني أولاً و أخيراً ، بقضايا بلده و مجتمعه أكثر من أي بلد و مجتمع آخر ، فهي المآل و العبرة و النتيجة النهائية . و إن استيراد حدث فكري أجنبي للبحث و المناقشة و الشرح و التحليل و من ثم النشر ، هو نهاية الأمر للإسقاط على حامل محلي معين لأخذ العبر و الأفكار منه و تطويرها بموجبه ، و هو أمر على ما يبدو لا مجال له عند هؤلاء و لا سبيل .

أما الوجه الآخر من الانعزالية الثقافية ، فهي أن يكتب المثقف و يتناول موضوع معيناً ، و بالأعم ، أن ينشر كتاباً لا يتحدث فيه عن قضية خارجية تختص بمجتمع أجنبي ، لكنه في الوقت نفسه لا يتناول أية قضية أو معضلة ، أساساً كانت أم غير أساس ، في المجتمعات العربية ، سواء للناحية السياسية أم الاقتصادية أم الاجتماعية أم الدينية ، بل يتناول قضية و مبحث يختص بأمور فكرية مجردة صماء اعتبارية اصطلاحية ، لا علاقة لها بأرض الواقع العربي و ما يحدث فيه من مصائب و كوارث .

و أيضاً من حيث المبدأ .. لا إشكال في أن يتناول المثقف قضية فكرية معينة مجردة عن الواقع الاجتماعي ، و تختص باصطلاحات معينة ، و ذلك من باب

الفائدة و الشرح والتوضيح أو الثقافة العامة ، وذلك في شذرات فكرية ثقافية
زمنية ، تُباعضها مؤلفات أخرى تتناول قضايا جوهرية أساس في المجتمع .
لكن أن يذراً هذا المثقف نفسه و ينصرف بكليته إلى تناول عناوين عجماء و
مضامين جرداء ، تكون دينه و ديدنه الفكريين ، و هي نهاية الأمر لا تعني من
جوع و لا تسمن من غث ، و لا تحل قضية واحدة من القضايا العربية
المستفحلة المستشرية المتجدرة ، فهنا مربط الفرس و مرتع الإشكال .. تصادفك
عناوين لمضامين مشاهمة لمثال (مبحث في الانتقائية التجردية - الوضعية التطبيقية
.. صورها و أشكالها - حك رمش العين في فكر أبو زين - مباحث فكرية في
الانتمائية العقلانية - الجدلية الخرائية التطبيقية ... الخ) .

هل يعقل يا سيدي أنك من كل مآسي و بلايا و مصائب و كوارث العالم
العربي و الحروب و الحروب الأهلية و الدمار و الطائفية و المذهبية و المشاكل
الاقتصادية و السياسية ، و الفساد و الفقر و الجهل ، لم ترَ فيها ما يستحق
الذكر و التناول ، بكتاب أو بحث مطول ، و ارتأيت أن تتناول مفاهيم و أمور
و قضايا صماء عمياء عجماء قرعاء جرداء ، لا يُعرف لها سأس من رأس ، و لا
قَبَل من دبر ، معتبراً أنها تستحق النقاش و النشر بكتب ضخمة تُطبع بطباعة
مجودة ، و تعنون بماء الذهب و بكتابة فاخرة نافرة مزخرفة !!!؟ .. بدلاً من
كل جهنم الحمراء هذه التي وقعت بلية على مجتمعك و بلدك ، اتجهت إلى
سفاسف الأمور و فسافسها و فسلسها ، تضرب في غيرها و تنفخ في كيرها ،
جاعلاً منها فقاعة وهمية مزخرفة ، تُباع في أسواق النخاسة الفكرية و الثقافية
!!!؟ ذلك كله على قول الشاعر أبو العلاء المعري ..

كَانَ مُنَجِّمَ الْأَقْوَامِ أَعْمَى لَدَيْهِ الصُّحُفُ يَقْرُؤُهَا بِلَمْسٍ .

و بما أن نخب الطلاس هم هؤلاء و أشباههم و مقلدوهم و تابعوهم و المتممون لهم، قد أضحوا بالعرف الظاهري السائد الآن في العالم العربي ، هم ممثلوا الفكر العربي و أعمدته و سلامته و ربما محتكروه إعلامياً و جماهيرياً ، فيمكن و الحالة هذه ، القول .. إن الخطاب الثقافي الفكري العربي اليوم ، قد أضحى خطاباً غائماً مشوشاً ليس له مسلك فكري محدد ، حتى و إن تشبه ببعض الإيديولوجيات الفكرية ذات الطابع السياسي ، و انتمى إليها ، كالشيوعية و الاشتراكية أو الماركسية أو القومية أو الدينية ، فهو لم يعد خطاب شرح و إيفهام و إيصال فكرة للجمهور و تثبيت قضية ما بقول الناس ، بقدر ما أصبح خطاباً يتعالى عليهم بإيراد مصطلحات غير واضحة تمام الوضوح ، و رموز غير مفهومة يصار إلى ربطها ببعض ليخرج منها طلاس غريبة عجيبة يقف القارئ أمامها عاجزاً حائراً تائهاً محبطاً منهكاً فكرياً ، هذا إذا كان يمتلك سوية ثقافية لا بأس بها ، فكيف إذا كان في الأساس ذا سوية ثقافية و علمية ، ضحلة !!؟؟ لا ريب أنه لن يقترب بتاتاً من هذا الخطاب ، و لن يكلف نفسه حتى مجرد عناء تصفحه أو إلقاء نظرة عليه ، و بالتالي ينجم عن هذا الأمر ، أكبر خطر يتمثل في ابتعاد الإنسان العربي عن القراءة و المطالعة و الإقبال عليهما ، و عزوفه عن الثقافة و الفكر . و يتأني من جراء ذلك ، هروبه من العقلانية و الموضوعية اللتين تمسا واقعه المباشر ، و نفوره منهما و نزوعه نحو الغيبية و التطرف و الوهم . و بالتالي .. وقوعه فريسة سهلة و لقمة سائغة لأشباه المتعلمين و أنصافهم و متطفلي الثقافة و الفكر و الدين .

و يبقى محراب هذه القضية نهاية الأمر هو .. انحلاع الثقافة العربية من ثنائية الزمان و المكان ، لتصبح ثقافة جرمية تسبح في فضاء اللا إدراك و اللا منطق مكوناتها عبارة عن غبار سديمي لا قرار له و لا مستقر . فهؤلاء في النهاية ، يعملون على إنتاج ثقافة اللاوعي و ثقافة الفكر العقيم .. ثقافة سبخة لا تنبت و

لا تثمر و ما ثبت أنها في يوم من الأيام ، أنبتت و أثمرت و أبنعت أثراً فعلاً في المجتمعات العربية .

هل خليت مجتمعاتنا من المشاكل و المآسي ، حتى نتناول قضايا ألمانيا و فرنسا و نيقوسيا و أمريكا و الدول الاسكندنافية؟؟!! و هل انتفت منها الكوارث و الفواجع و أصوات ربّات الحجال البواكيا ، حتى تناول مفاهيم خلبية عقيمة عاقر؟؟!! حسبنا الله و نعم الوكيل!!!!!! . و تبقى ثلاثة الأثافي الانعزالية و هي ..

— الانعزالية الاجتماعية :

و هي الحالة التي يتعالى فيها المثقف أو المفكر ، اجتماعياً ، على أفراد مجتمعه أو الوسط المحيط به ، معتبراً نفسه أنه من طبقة غير طبقتهم ، و أنه أعلى درجة منهم و أفضل مرتبة و أكثر وجاهة ، فينعزل عن أفراد مجتمعه و عن الوسط المحيط به ، تعالياً و كبرياء ، لا وحدة و انتبازاً ، فهناك فرق شاسع بين الحالتين. الحالة الأولى ، تمثل الاجتماع مع الناس و الالتقاء معهم في حيز مكاني واحد ، لكن مع ممارسة الفوقية عليهم و الانعزال النفسي الاعتباري ، بمعنى (أنا غير أنتم) . و تأتي الحالة هذه ، بمبادرة من المثقف نفسه .. غروراً و تمظهوراً ، لا من الأشخاص الذين هم من يبادرون أحياناً إلى التعاطي معه ، جهلاً و غباءاً. بينما الحالة الثانية ، تأتي من المثقف نفسه و الذي هو غالباً ما يكون مثقف حق و حقيقة . و تمثل هذه الحالة ، انعزال مادي مكاني ، لدواعي عدم إمكانية التفاهم و التواصل الفكري مع الوسط الجاهل المحيط به ، إما لجهل فكري ثقافي مستحکم في هذا الوسط ، و إما لتخلف عقلي منطقي يمثل حالة من التعصب و العصبية العقائدية الغرائزية البالية بحيث تنتفي معها القدرة على محاكاة الأشياء و العوارض المنطقية و المفاهيم المرتبطة بها ، فهو و الحالة هذا أصبح يرى الوسط المحيط به بتصرفاتهم و أفعالهم و أعمالهم و أفكارهم ، مجموعة من خلائق الهمج

لا يمكن التفاهم معها . و عادة ما تأتي مبادرة ذلك من هؤلاء الأشخاص الذين يأبى جهلهم و تخلفهم إلا أن ينفرهم من الحقيقة و منهج الصواب و يفرون منها فرار المعز من وعوة السبع ، لا منه هو لأن وظيفة مثقف الحق و الحقيقة الأساس ، التعامل مع الناس و الاختلاط بهم و التواضع لهم .

إن الانعزالية الاجتماعية السلبية التي تمثلها الحالة الأولى ، تقوم في مبدأها على استخدام الثقافة و المعرفة و الفكر ، آلة للتكسب و الواجهة الملازمين لعدم التماس مع حاجات المجتمع و هموم أفرادهم و مشاكلهم و قضاياهم العامة بأنواعها ، و تجاهل ذلك بمجمله . فمن حق المثقف و المفكر عموماً ، أن يعتاش و يتكسب من ثقافته و فكره و علمه ، و أن يتلقى الدعم لأجل ذلك ، فهذا حق مشروع له ، لا بل إنه فرض عين على المجتمع بأفراده كافة ، و فرض كفاية على نخبة المالية و السياسية و الاجتماعية ، أن تقوم هي بذلك نيابة عن المجتمع ككل و ذلك بالنسبة للمثقف الحقيقي الحق الخادم لوطنه و مجتمعه ، الباحث في مشاكله و قضاياها .

إن مثقفي السلطة و الكرسي ، عادة ما يمثلون حالة انعزالية سلبية ، سيماها الكبرياء و الغرور ، و كل ذلك يعتمد على مبدأ الوصلية النفعية و الانتهازية البحث .

ترى أحدهم مغموراً قمياً ، لا خلاق له في الثقافة و الفكر ، و لا وجه له في المجتمع ، فيتهياً من يضع له مقالاً عادياً أو قصيدة شعرية أو لقاء تلفزيوني بسيط . و إذ به ينقلب رأساً على عقب و يتحول إلى مارد خارج لتوه من القمقم ، فيشتري بذلة (سموكن) يستدين ثمنها ربما ، و يتمنطق بسبحة في يديه ، و يقتني غليوناً ، و يقصد مناسبات المجتمع حيث يجد بغيته هناك ، و يتمشى في الطريق مصعراً خده للناس . تبحث عن الفائدة العلمية أو الفكرية التي يقدمها هذا الشخص للمجتمع و أفرادهم ، أو عن كتاب بحثي له ، أو عن خلفية ثقافية معرفية ، و تاريخ فكري ثقافي ، فتجد .. لا شيء .. لا رصيد مما ذكر . و

عندما تدقق به و بهيئته ، و تدخل معه في نقاش فكري أو علمي معين ، تصل من فورك إلى نتيجة مؤداها .. أن هذا الشخص متطفل على الثقافة و الفكر ، و يمثل حالة عقم و خواء فكري ، يقابلها حالة نصب و احتيال و ادعاء فكري ثقافي .

على المثقف العربي اليوم ، و بالأخص أولئك الذين يسمون (النخبة !!!) أن يتزلوا من أبراجهم العاجية الوهمية التي اختلقوها و اصطنعوها لأنفسهم ، و يتنازلوا عنها قليلاً ، و ينحدرون إلى عموم الشعب ، بالخطاب و المخاطبة و التعامل .. هل من العار للمثقف و المفكر النخبوي أن يتنازل إلى أدنى درك الحياة اليومية و إشكالاتها في العالم العربي و يناقش تفاصيلها الصغيرة بالنسبة له و يحللها و يفندها بفدلكتها و حيثياتها و يخرجها بكتاب و منشور واضحين سلسين ؟؟ . أما آن الأوان لهؤلاء أن يتواضعوا و لو قليلاً و يكفوا عن طلاسهم تلك التي تكبر الفجوة و تعمق الهوة ، بينهم و بين مجتمعاتهم و تنفر الناس منهم و من كتاباتهم !!! فيصبحون كالقطا الذي أراد أن يقلد الطاووس في مشيه و زهوه ، فلا هو استطاع ذلك و نسي مشيه الأول فما استطاع العودة إليه . كذلك هم هؤلاء ، فلا الثقافة الغربية التي حاولوا تقليدها و محاكاتها بأسلوبها الخطابي الفكري ، تقرأ لهم شيئاً مما كتبوا ، و لا شعوبهم فهمت عليهم ما يكتبون و بالتالي نفرت منهم ، و لا هم استطاعوا العودة إلى الخطاب العادي و الأسلوب السلس المفهوم في الكتابة ، حيث أصبحوا أسرى لوهمهم بأن طلاسهم الاصطلاحية تلك ، قادرة على إعطائهم هالة من الإعجاب و التصفيق من قبل الجمهور الذي أساساً لا يقرأ ، منه أو من غيره .

الوسائل و الوسائط التكنولوجية :

إن من إحدى ميزات الإنسان العاقل التي يتميز بها عن بقية الحيوانات و الكائنات الحية في الكرة الأرضية ، هي المقدرة و الإمكانيات على صناعة و إنتاج ما يحتاجه من وسائل استخدام و وسائط معينة يستعين بها على قضاء حوائجه .

لقد ثبت تاريخياً و علمياً ، أن الحيوان مهما بلغ من سوية عقلية و تفكيرية و قدرات إبداعية مادية ، اختص بها كل نوع منه على حدة ، فإنه لم يستطع أن ينتج (في السقف الأعلى له) ، أكثر من نموذج بدائي بسيط ، لبيت مستدير من القش مثلاً (الطيور) ، أو مجسم من الطين يأوي إليه للبيت (بعض أنواع النمل الكبير في إفريقية) أو شبكة خيوط متناسقة قوية (العنكبوت) ... الخ . و لم يثبت تاريخياً أن الحيوان على اختلاف جنسه و نوعه و حجمه ، قد استطاع تجاوز هذا النموذج البدائي في التصنيع ، حتى أكثر أنواع القرود ذكاء و يقال أنه الأورانغوتان ، لم يستطع تجاوز ذلك .

إن الإنسان العاقل ، قد استطاع و منذ البدايات الأولى لوجوده ، و في أشد العصور تحجراً و قدماً ، استطاع أن ينتج أدوات و وسائط بدائية معينة كانت خارج نطاق مقدرة الحيوان على إنتاج مثلها . و قد استخدم الإنسان هذه الأدوات و المنتجات ، للدفاع عن نفسه ، كالكساكين و المناجل الحجرية و العجلة الدائرية و غير ذلك . و قد صح اللقب أو التسمية التي أطلقت على عملية الصناعة و الإنتاج هذه ، من قبل الإنسان ألا و هو (الاختراع) ، و هو بمعناه اللغوي ، الابتداء و الإنشاء .. يقال اخترع كذا ، أي أنشأه و ابتدعه^١ .

^١ انظر معجم ، تاج العروس و لسان العرب ، مادة (خرع) .

و عملية الاختراع هذه ، تتناظر معها من حيث النتيجة ، عملية أخرى أو مفهوم آخر هو (الاكتشاف) و هو مفهوم يعني في مضمونه ، الإظهار و الإخراج من شيء موجود تم العثور عليه ، أو نتيجة تم استخلاصها و إظهارها من حادثة مادية متكررة في الطبيعة ، أو حالة اعتبارية ذهنية ، في الربط ما بين ظواهر معينة ، مادية أم خلاف ذلك ، كإكتشاف النار مثلاً ، نتيجة لظاهرة طبيعية معينة ، ثم بعد ذلك إكتشاف أن النار تعطي حرارة و أنها قاتلة في حد من حدود التعرض لها ، ثم يأتي بعد ذلك إكتشاف أن هذه النار ، هي مفيدة في أمور معينة (طهي - شوي) و إكتشاف أن اللحم المشوي أو الطعام المطهو ، هو أطيب و أشهى نكهة و طعاماً من اللحم النيئ . أو إكتشاف أن الحيوان الذي تم صيده و افتراسه ، له فوائد أخرى غير اللحم ، كالبيض من الدجاج ، و اللبن من البقر و الماعز . ثم إكتشاف أن هذا الحيوان له فوائد أخرى ، فهو يحرث الأرض و ينقل الأمتعة و يجز الأشياء الثقيلة التي قد يعجز الإنسان عنها ، كما أن له جلد و وبر يمكن أن يستفاد منه في درء قر الشتاء و برد الطبيعة .

فالإكتشاف كمفهوم ، تعريفاً .. هو إدراك شيء موجود في شيء ، و من ثم ، إخراج هذا الشيء الموجود من الشيء الآخر الموجود .

أما الاختراع ، فهو إدراك شيء غير موجود من شيء موجود ، و إخراج هذا الشيء غير الموجود ، من الشيء الموجود ، كالعجلة الدائرية مثلاً ، أو منجل الحصاد أو السكاكين و الرماح و القدور و غير ذلك .

الإكتشاف ، هو إدراك حوادث و ظواهر عدة متكررة تسلسلياً ، ينبئ بعضها عن بعض بالإظهار المادي ، أكثر منه المعنوي ، كالنار مثلاً التي ظهرت بشكل أو بآخر كمادة موجودة بالطبيعة ، ثم أظهرت حرارتها ثم أظهرت آثارها كفعل ، بالماء و اللحم و المرق ، أو بإذابة الأشياء و صهر المعادن . و هو بذلك ، نتيجة حادثة لحاجة ناتجة ، أي حاجة نتجت من خلال ظهورها . فالإنسان الذي إكتشف النار ، لم يكن ليذكر أول الأمر أنه بحاجة إليها لولا ظهورها و ما

أظهرته له من قدرات و إمكانيات ، اكتشف لاحقاً و بظهورها ، أنه بحاجة إليها ، فاتخذها أداة و وسيلة .

أما الاختراع (من هذه الناحية) فهو عكس الاكتشاف ، إنه عبارة عن حاجة كامنة تولد لدى الإنسان ، ضغط و حافز كبيرين ، لإيجاد شيء يحل له مشكلة مستعصية لم يستطع أن يحققها الاكتشاف له ، بكل تسلسل حوادثه المنطقية الطبيعية ، لكنه ربما يمهّد له تمهيداً معنوياً اعتبارياً من منطلق القياس و الإسقاط ، بأنه .. يمكن لك أيها الإنسان أن توجد من مخيلتك شيء من شيء آخر ، كما أوجدت أنا لك . و بالتالي .. فالحاجة في الاختراع ، هي مقدمة و ليست نتيجة كما هو الحال في مفهوم الاكتشاف ، فالإنسان يمكن أن يكتشف شيئاً و يكتشف أيضاً بالوقت نفسه ، أنه لا حاجة له فيه ، فيرميه و يهمله و لا يلق له بالاً و لا شأن ، و لهذا فقد صدق من قال .. الحاجة أم الاختراع .

و يبدو من الثابت تاريخياً و منطقياً ، أن كل من الاكتشاف و الاختراع ، هما محطورين على الحيوان ، و هما فقط من اختصاص المنظومة العقلية الفكرية للإنسان العاقل ، و أن ما يكتشفه الحيوان من أمور بدائية بسيطة ، كإكتشاف أن ذلك المكان فيه غذاء أكثر من هذا المكان ، أو أن هذه البقعة يمكن إنشاء مأوى فيها أكثر من تلك البقعة ، أو أن هذا المكان هو خطر عليه أكثر من ذلك المكان ، فهذا لا يدخل في نطاق ما ذكر آنفاً . فالحيوان يدرك بالغريزة و الإحساس المادي ، أن النار تعطي حرارة و أنها قد تكون مؤذية له ، لكنه لا يكتشف مثلاً أنها تطهو اللحم و تشويهه ، أو أنها تفعل كذا و كذا . كما إن السبع الذي يفترس الشاة ، لا يستطيع على ما يبدو ، أن يكتشف أن جلدها يمكن استخدامه لتدفئة حجره مثلاً ، أو أنها تدر عليه حليباً و لبناً سائغين ، فيؤجل افتراسها لحين من الزمن حتى يشبع من لبنها ، فهذا ما لم يثبت تاريخياً و لا علمياً أنه قد حصل . و هو (أي الحيوان) و إن اكتشف كل ذلك ، فإنه عاجز عن استخدامه و تطويعه لمنافعه الشخصية . و قد أجريت أنا مؤلف هذا

الكتاب ، شخصياً ، تجربة على كلب معتاداً على أكل طعام مطهو ، فكنت أقرب منه لحم نيئ ، و عندما يهتم بالتقمامه ، كنت أبعده عنه و اتجه إلى جذوة مشتعلة أمامه و أشوي اللحم عليها ، ثم أقدمه للكلب الذي يبادر إلى التهامه بشهية . و كنت أكرر ذلك مراراً . ثم بدأت أضع له اللحم النيئ قرب النار و أنظر ما يفعل به ، فيأتي الكلب بكل بساطة و يلتقمه و هو نيئ ثم يذهب به مبتعداً عن النار يأكله . و عبثاً كررت الأمر محاولاً أن أجعله يجرب و لو مرة واحدة أن يضع اللحم على النار ، فلم أفجح و لم أجد إلى ذلك سبيلاً ، حتى كدت في إحدى المرات أن أحرق نفسي عندما التقطت النار أسفل ثوبي ، فأطلقت سراحه .

بناء عليه و عليه بناء .. فإن مفهومَي الاكتشاف و الاختراع (و بالأخص الاختراع) يعتمدان في حيثياتهما و مضامينهما ، على الفكر و العقل . أما الاختراع فيعتمد على شقوق فكرية عقلية ثلاث ، — الأول .. إعمال العقل و التفكير في التوصل الذهني إلى طبيعة و شكل الشيء مادة الاختراع ، و تخيله و المقدرة على كل ذلك ، و هذا لا يكون إلا بوجود سوية فكرية عقلية معينة تمكنه من ذلك ، كالعجلة الدائرية مثلاً أو النصل .. فالشخص الذي اخترع هذه الأشياء ، توصل بعد تفكير ذهني عميق ، و إعمال عقلي طويل ، إلى أن العجلة الدائرية هي أفضل أداة لنقل الأشياء ، بأقل احتكاك و جهد ممكنين ، كما كان له عقلية و ذهنية مكنتاه من التوصل إلى ذلك ذهنياً .

— الثاني .. إعمال هذا الشخص عقله و شحذ ذهنه في إخراج هذه الصورة الذهنية الاعتبارية للاختراع ، إلى حيز الوجود ، بإنتاجه و تصنيعه . فالعجلة الدائرية أو النصل المعدني ، يحتاجان إلى طرق عدة لإخراجهما إلى حيز الوجود المادي العياني ، و هذا لا يتأتى إلا بوجود عقلية و ذهنية قادرة على ذلك ، و هنا مكمن التمايز بين الأفراد و الأشخاص . فما كل ما يتخيله المرء ، يستطيع صناعته ، و لو كان ذلك كذلك ، لأكل الناس بعضهم بعضاً .

— الثالث .. إعمال العقل و الفكر في استخدام هذه الوسيلة أو الأداة ، بعد تخيلها ذهنياً و صنعيتها مادياً ، في استخدامها مثالياً . و هنا يكون الاختراع قد استحوذ شروطه كلها .

هذه الشروط الثلاث .. جماع أو فرادى ، تعبر عن هوية الفكر الإنساني و سويته و تمايزه ، و مقدار تماهيه و تأرجحه بين مستوى الحيوان كحد أدنى ، و بين الإنسان المثالي العاقل كحد أعلى .

إذن .. فإن سوية و هوية الإنسان أو حتى المجتمع ، الفكرية و العقلية ، تتحددان بالمقدرة على التعامل مع هذه الشروط الثلاث .. بالمقدرة على تخيل حاجة إيجابية فعالة مفيدة لحل مشكلة أو تجاوز خطر ما ، و المقدرة على إخراج صورة هذه الحاجة إلى حيز الوجود ، بالتصنيع و من ثم القدرة على استخدامها بالشكل الأمثل و الأنجع ، المطلوبين بحيث تحقق تماماً الفائدة المرجوة منها .

و نتيجة لذلك ، فإن معيار الحضارات البشرية ، يتحدد بمدى الاختراعات التي كانت تنجزها هذه الحضارات و تخرجها إلى الوجود ، إضافة إلى الاكتشافات التي كانت تعرفها و تستخرجها من حوادثها و أشياءها ، و هو ما تجلّى بالأدوات و الوسائل و الآلات الصناعية و الزراعية و العسكرية و العمرانية . و هي بذات الوقت ، تمثل معياراً لقوة دولة من الدول أو أمة من الأمم ، منذ الحضارات الأولى و حتى الآن . و لا حاجة أن نعيد القول مرة أخرى ، بأن الدول القوية العظمى الآن في العالم أو الدول القوية الإقليمية ، وصلت إلى ما وصلت إليه من قوة و منعة ، باعتمادها الاختراعات و الصناعات التكنولوجية العلمية .

و النتيجة النهائية المحصلة لذلك ، هي أن اختراع الوسائل و الوسائط و الأدوات العلمية و الصناعية المتقدمة ، هي وجه من وجوه الفكر ، و أن المعادلة الأساس في ذلك هي .. اختراعات علمية = هوية فكرية . و مكافئ هذه المعادلة من

الوجه الآخر ، هو .. عدم وجود اختراعات علمية = عدم وجود هوية فكرية .
و هذه المعادلة الأساس في ذلك .

لكن المعادلة الأساس هذه ، يتفرع عنها وجوه ثلاث ترتبط أساساً بالشقوق
الفكرية الثلاث للاختراع ، المذكورة قبلاً . وطبقاً لذلك ، نستطيع أن نقيم
شعباً من الشعوب أو أمة من الأمم أو دولة من الدول ، بموجب المعيار السابق
هذا .

و لكي تتضح الصورة أكثر ، نقول .. إنه يكفي الإخلال بمبدأ واحد أو اثنين و
اعتماد الثالث فقط ، حتى لا ينتفي الفكر نهائياً من مجتمع ما أو دولة أو شعب .
و بمعنى آخر ، فإن وجود شرط معياري واحد من هذه الشروط الثلاثة أو اثنين
منها ، كاف للدلالة على وجود هوية فكرية معينة . أما أن تنتفي هذه الشروط
المعيارية الثلاث جميعها ، من مجتمع معين ، فلا مناص و الحالة هذه من انتفاء
الفكر منه ، و التباس هويته فيه ..

لا نقاش أن المجتمع الذي تتوافر فيه الخاصيات الثلاث تلك ، هو مجتمع منتج
مخترع ، صاحب الوسائل و الوسائط العلمية التكنولوجية المتقدمة المتطورة ،
بدءاً من تقديرها ذهنياً و عقلياً على الوجه الأمثل لها ، مروراً بالقدرة على
إنتاجها ، وصولاً إلى استخدامها بالشكل الأمثل ، على الأقل ضمن حدوده
الطبيعية و الجغرافية و حتى الجيوسياسية أيضاً .. بدءاً من الإبرة ، وصولاً إلى
القمر الصناعي ، مروراً بالهاتف الجوال و الحاسوب و السلاح بمختلف أنواعه ،
و السيارة و الطائرة و التلفاز ... إلى ما هنالك من وسائل و وسائط و
منتجات لا تعد و لا تحصى . فهذا و لا شك مجتمع متقدم علمياً و فكرياً و
ثقافياً و اجتماعياً و حتى دينياً .

بالمقابل .. هنالك مجتمعات أخرى ليس لها المقدرة على مجارة تلك المجتمعات
المتقدمة المتطورة ، أو بوسعها أن يكون نظيراً و نداً لها ، علمياً و فكرياً
باختراعها تلك من حيث التصنيع على الأقل . لكنها تستورد تلك المنتجات و

الوسائل و الأدوات ، و تستخدمها الاستخدام الأمثل الصحيح و تحاول في بعض الأحيان محاكاتها و تقليدها ، أو محاولة تقليد المجتمعات و الدول المتقدمة ، على الأقل من ناحية التنظيم و خلق منظومات فكرية اجتماعية مشابهة لما هو موجود لديها ، فهذا بدوره أيضاً ، يدل على وجود حالة من أرضية فكرية أو وعي فكري معين .

إذا نظرنا الآن إلى الواقع العربي ، لناحية المنجزات و الاختراعات العلمية و الصناعات . و حاولنا استكشاف ظاهرة و مفهوم الإنتاج و الاختراع في العالم العربي ، نرى أن الشقوق المعيارية الثلاث السابقة ، غير موجودة و غير محققة . و لا نريد مناقشة الشقين الأولين .. شق فكرة الاختراع و صورته الذهنية ، و شق صناعته و إنتاجه ، فهما بداهة غير موجودين في العالم العربي . لكن إذا أردنا مناقشة الشق الثالث ، و هو شق الاستخدام الأمثل للاختراع و التصنيع العلمي ، لوجدنا أن المنتجات و الوسائل التكنولوجية الصناعية المستوردة جميعها من الخارج ، لا تُستخدم الاستخدام الأمثل و لا الأكمل ، بل على العكس من ذلك تماماً ، فهي تُستخدم الاستخدام الأسوأ ، كالأسلحة مثلاً التي ثبت أنها إلى الآن ، كانت من إحدى أهم الأدوات المفضلة عند العرب في حروبهم الأهلية و الداخلية المفضلة لديهم ، و ثبت أنها لم تحميمهم و لم تقيهم لا شر الأعداء و لا شر أنفسهم هم .

مثل آخر و هو الحاسوب الذي يُستخدم الآن أسوأ استخدام ، لا بل شر استخدام . و كذا أجهزة الموبايل (المئات الخليوي) و غيرها من الوسائل و الأدوات التقنية العلمية المتطورة ، كلها قد تم تسخيرها في العالم العربي للاستخدام السلبي الداخلي ، و تسخيرها لغايات طائفية مذهبية و صراعات و تناحرات سياسية و حزبية . و هو ما يلاحظ اليوم في برامج الكمبيوتر و المدونات الالكترونية و عالم الأترنت و مواقع التواصل ، كالفيسبوك و تويتر و يوتيوب و غيرها . كل ذلك ، استخدم لأجل نشر الغسيل الوسخ لا غير .

لقد وصل بنا الحال ، إلى موصول أصبحت فيه قنوات العالم الفضائية أجمع ،
تطلب منا في شرائطها الإخبارية إرسال ما لدينا من قاذورات و مشاكل و
سلبيات صورناها على اجهزتنا الخليوية الجواله ، إليها لتعرضه على شاشاتها كي
تراها شعوب العالم .

لا نريد الإطالة في الحديث ، و الاستفاضة في شرح مبحثنا هذا ، فالصورة
واضحة بأبلغ عيان و أتم عنوان .

الهيئات و المؤسسات التعليمية و الفكرية :

إن من أحد أهم أركان و عوامل الفكر في المجتمع ، و عوامل قيام نهضة فكرية
فيه ، هو الهيئات العلمية التعليمية ، من مدارس و معاهد و جامعات و
أكاديميات . فهي النواة الأساس لظواهر العلم و الفكر و مظاهرها في مجتمع من
المجتمعات . و لا يمكن لدولة من الدول أو أمة من الأمم ، أن تضع نفسها على
حامل العلم و الفكر و النهضة العلمية الثقافية ، دون وجود نظام التعليم الكامل
فيها ، أو المنظومة التعليمية الكاملة و المتكاملة معاً .

و قد رأينا كيف أن محمد علي باشا ، لم يتهياً له أن يضع مصر على حامل
النهضة الفكرية العصرية العمرانية المتطورة ، و ينتشلها من مستنقع آسن مظلم
موحل ، من الجهل و التخلف و العماء ، إلا عندما تبني إنشاء منظومة تعليمية
كاملة متكاملة .. كاملة ، أي تبدء من مستوى المدارس الصغيرة للصبيان ، و
تنتهي بما يعادل الأكاديميات و الجامعات في وقتنا هذا . و متكاملة ، أي يكمل
بعضها بعضاً ، حيث كان الطالب التلميذ في بداية سني عمره ، يتعلم في
المدرسة ، ثم ينتقل إلى مستوٍ أعلى ، و عندما يتخرج بتفوق ، كان يرسل

للابتعاث خارجاً ، إلى أوروبا . و عند عودته ، كان يعمل في مجال ما ابتعث لدراسته في أوروبا . و حتى إذا لم يبتعث الطالب للدراسة في الخارج ، فإنه يصرف للعمل في مجال ما درسه و تحصل علمه فيه . و هذه المواقع جميعها ، مواقع ميدانية فعالة ، و يتلقى هؤلاء شتى أنواع الدعم و المساندة في دراستهم ، داخلاً و خارجاً . و المراقبة و التهديد بالويل و الثبور و عظام الأمور ، حال فشلهم . و قد رأينا كيف كان فحوى الرسالة التي أرسلها محمد علي باشا إلى رفاة الطهطاوي عندما كان مبتعثاً في فرنسا ، و فيها ما فيها من الثناء و المديح و الوعد و الوعيد .

ولولا اجتماع ما سبق ، ما أفلح محمد علي باشا في إقامة دولته العصرية و كيانه السياسي الحكومي القوي ، و لما استطاع التمدد خارج حدود دولته ، و لما كانت مصر أول من أمسك جذوة الفكر و العلم و رفعتها بيدها للأعلى . و يمكن بكل بساطة ، إسقاط هذه القضية على وقتنا الحاضر و قياسها على أي مجتمع من المجتمعات ، و شعب من الشعوب ، لكن ليس لجهة الكم ، بل لجهة الكيف و الحيث . فقبل قرنين خليا من الزمان ، كانت المنظومة التعليمية العلمية حالة استثنائية نادرة بل و شبه معدومة في العالم العربي و فيما جاوره من عوالم جغرافية و سياسية في آسيا و افريقية عموماً . لا بل أنها كانت حكرًا على المجتمعات و الدول الاستعمارية القوية . أما الآن و قد انشرت هذه المنظومة في العالم كله ، انتشار النار في الهشيم ، حتى شارفت أدغال افريقية و مجاهل الأمازون و قفار الصحاري و ثلوج القطبين . فإنه و الحالة هذه لا بد من أن تنتفي منها خصوصية الكم ، و يصبح معيارها هو ، خصوصية الكيف . فقد أضحى الآن معيار التقدم العلمي و الفكري في العالم ، لجهة المنظومات التعليمية العلمية ، هو في نوعية هذه المنظومات و فعاليتها و أدائها و هوية كوادرها التعليمية و قدرتها على النهوض بالمجتمعات التي توجد فيها ، و تقديم الفوائد الفكرية و العلمية و الثقافية ، لها و رفدها بالمعارف و النخب العلمية الحق .

تالياً .. فإننا إذا أخضعنا العالم العربي لهذا المحك ، تتبدى لنا هوية الفكر العربي المعاصر و سويته . فما هي السوية الفكرية و العلمية للمنظومات و الهيئات التعليمية في عالمنا العربي بدءاً من المدارس و حتى الجامعات ؟؟ .

لكي نجيب على هذا التساؤل ، لا بد لنا من الوقوف على المفصل الرئيسية للمراحل الأساس في المنظومة التعليمية العربية ، و تلك المنتشرة و السائدة في العالم العربي ، و هي مراحل رئيسة ثلاث .. المرحلة الابتدائية ، و المرحلة الثانوية ، و المرحلة الجامعية الأكاديمية العليا بأعلى درجاتها .

إذا نظرنا إلى السوية الفكرية و العلمية و التعليمية لمستوى نهاية المرحلة الابتدائية الموجودة لدى الطفل العربي ، نجد أنها في مستوياتها الدنيا المقتصرة على حدود محو الأمية لا أكثر . فالأولاد الذين أنهموا هذه المرحلة ، و وقفوا على أعتاب المرحلة الثانوية أو التحضيرية لها ، جل ما تحصلوا عليه ، هو قراءة المنهاج التعليمي الذي سلكوه في أولى سني دراستهم الابتدائية . و لم يترك ذلك أي أثر فكري ثقافي لديهم ، سوى قراءة رسوم الحروف و زخرف الكلمات الموجودة فيه ، و يبقى الولد محافظاً على نتاج بيئته الاجتماعية الفكرية ، خاضعاً لعملية غسل دماغ مبرمجة ممنهجة ، طائفياً و مذهبياً و عرقياً و أحياناً سياسياً و حزبياً ، و لا تنفع معه كل الأفكار الموجودة في منهاجه ، هذا إذا لم تكن تلك المناهج تغذي بشكل أو بآخر ، إيديولوجيا دينية و حزبية سياسية متماهية مع نظام بيئته الاجتماعي التعليمي ، و هو ما ينسحب أيضاً على نهاية المرحلة الثانوية ، حيث نرى أن هذا الشاب المراهق الذي أنهى مرحلة الدراسة الثانوية ، هو نفسه ذلك الولد الذي أنهى مرحلة الدراسة الابتدائية ، و صورة طبق الأصل عنه . و تنمهي تلك الصورة إلى المرحلة الأكاديمية العليا ، إذ نرى شخصاً تحصل على شهادة الدكتوراه و يعمل بموجبها . و أحياناً تكون هذه الشهادة ، من جامعات عريقة .

و لكن إذا تدبرنا أمر هذا الشخص و نظرنا إليه من المنظور الفكري العقلاني البحت ، و الوعي الاجتماعي ذو المسؤولية الإنسانية المجردة ، نرى بالغالب الأعم ، أنه هو نفسه ذاك الولد ذو الذوآبتين ، الذي أنهى دراسته الابتدائية ، و ذلك من حيث العقلية و الذهنية و الوعي و حس المسؤولية تجاه مجتمعه و بلده ، لا يعدوه و لا يتجاوزه . فهو و الحالة هذه ، يمثل حالة و نموذج شبيهان بحالة و نموذج مثقف السلطة و الكرسي .

تجلس مع واحد من جنس هؤلاء و تدخل معه في نقاش فكري معين ، أو تخالطه مخالطة زمنية معينة ، لتكتشف فيها - و العياذ بالله - أنك أمام إنسان متعجرف مغرور ، ليس فقط إلى درجة الوقاحة و قلة الأدب ، بل إلى درجة الجهل و أحياناً الجنون ، و لتكتشف فيما بعد ، أن شهادة الدكتوراه التي تحصل عليها ذلك الشخص ، كانت على ما يبدو ، تمثل هاجساً له و مركب نقص . و لتكتشف أيضاً أنك أمام إنسان جاهل لا يتعدى مستواه الفكري ، مستوى طالب مرحلة ابتدائية . و ثقافته الفكرية و التاريخية و حتى أحياناً العلمية ، تقارب مستوى الصفر ، و ليس له من علمه و فكره سوى قطعة الورق المقوى تلك التي فحواها أنه يملك شهادة دكتوراه . أو تكتشف أنك أمام إنسان طائفي مذهبي عشائري قبلي ، متعصب متحزب إلى درجة العماء . و هذا دليل على أن علمه ما أفاده بشيء و لا هو استفاد من موقعه العلمي بشيء . و أحياناً تقع هذه الصفات الثلاث جميعها في شخص واحد ، و هو ما كثر في أيامنا هذه .

أما الفئة الحقيقية الحق ، من هؤلاء ، فهم ينطبق عليهم ما ذكر عن العلماء العرب في فصل سابق من هذا الكتاب ، إما معيّبون و إما منفيون و إما مغمورون و إما محرومون و إما يخضعون لعملية تصفية اعتبارية معنوية ، و أحياناً مادية جسدية . و ما حصل في العراق أيام الاحتلال الأمريكي ، يمثل نموذج حي لذلك . و إذا قيل لنا أننا نبالغ في ذلك ، فإننا نلجا إلى المحمل الآخر و هو الإنتاج الذي يفترض أن يقدمه هؤلاء الجهابذة العباقرة للمجتمعات و

البلدان العربية ، ونحتكم إلى كلام الإمام علي بن أبي طالب في قوله المأثور " لكل شيء قيمة و قيمة المرء ما يحسن " ^١ و في كلام آخر " قيمة المرء ما يجيئه " ، أي بمعنى ما يستطيع القيام به . فماذا صنع هؤلاء في مجموعهم الطاغوي و أعدادهم المتكاثرة كالجراد في عالمنا العربي اليوم !!؟؟ و ما هو المنتج الذي أنتجوه !!؟؟ و ما هو الاختراع الذي صنعوه و قدموه لمجتمعهم !!؟؟ بل ما هي الفائدة التي أنجزوها ، أياً كان نوعها ، حتى على مستوى السياسة و الاجتماع و العلم !!؟؟ و ما هو الأثر الذي تركوه في المجتمعات العربية !!؟؟ و ماذا فعلوا من أجل هذا الانحطاط الكبير و الظلام الرهيب المدلمم اللذان سادا العالم العربي ؟! .

الجواب .. لا شيء ، و النتيجة .. أن هؤلاء ، شأنهم شأن غيرهم من مدعي النخبة .. متطفلون على العلم كما غيرهم متطفل على الثقافة و الفكر . و شعارهم بالمجموع ككل هو .. **التسيّد لأجل التسيّد** .. شأن الشعراء قديماً .

أين هي هذه الجامعات و المعاهد و الكليات و الأكاديميات المنتشرة في العالم العربي !!؟؟ و أين هو دورها و أثرها في المجتمع !!؟؟ ما هو دور المدارس الأدنى منها سوية علمية ، في بذر بذور العلوم و المعارف !!؟؟ .. مدارس تنتج طلبة يتسكعون في الشوارع .. و جامعات و أكاديميات تفقّس و تفرّخ و تخرّج كل سنة **أميين و جهلة** ، غاية غايتهم و أسمى أمانيتهم في أحسن وجوهها ، من دخولهم للجامعة ، هو الحصول على شهادة جامعية تتيح لهم وظيفة في دوائر الدولة ، ما يعني أن العلم و التعلم في عالمنا العربي ، ليس لأجل العلم و الاختراع و الإنتاج ، بل هو لأجل الجلوس خلف طاولة في دائرة رسمية من دوائر الدولة ، لأجل السلب و النهب و الرشوة و الفساد . كيف لا و هنالك ظاهرة في العالم العربي ، انفرد فيها عن سواه من الأمم الأخرى ، اسمها ظاهرة (الدروس الخصوصية) أو (المعلمون الخصوصية) . و هي ليست ظاهرة فردية شاذة ، بل

^١ من كتاب نهج البلاغة .

هي ظاهرة عامة شاملة أصابت العالم العربي و أصبحت تشكل منظومة إدارية خاصة و مستقلة ، متعارف عليها و معترف بها . و هي في دلالاتها و مضامينها المعنوية الاعتبارية ، تعطي مؤشراً واحداً فقط و هو أنه لا وجود حقيقي للمدارس التعليمية العامة و لا أثر لها ، و أنها في أحسن أحوالها ، لا تؤدي الدول التعليمي و الفكري الثقافي المناط بها . و يبرز (المعلم الخاص) عندما ينتفي المعلم العام الحقيقي ، و يصبح موقعه فارغاً من المضمون ، أو بالأصح مفرغاً من المضمون لكن لحساب من و بقرار من ؟؟؟؟ الله العليم .

لقد أصبحت الجامعات و المعاهد و الأكاديميات ، مفرغة هي الأخرى من مضمونها تماماً ، و لم يقدم أي واحد منها ، نتاجاً واحداً أو حلاً واحداً أو أثراً واحداً للمجتمع . و هي في نهاية الأمر ، قد تحولت إلى هيئات تابعة للحاكم أو لحزبه أو لأي حزب آخر . و إذا عدنا إلى القول المأثور (قيمة المرء ما يحسن أو ما يؤدي) نتساءل .. ما هو الشيء الذي تحسنه هذه الهيئات جميعها مع كوادرها و أطرها كاملة !!؟؟ بل ما هو الشيء الذي أحسنته قبل الآن غير الفكر العقيم العاقر !!؟؟ حيث لا ينطبق عليها سوى مقولة السيد المسيح (ع) الذي جاء في الإنجيل [و الآن و قد وضعت الفأس على أصل الشجر ، فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً ، تُقطع و تلقى في النار] (إنجيل لوقا - الإصحاح ٣) . هذا إذا كانت هذه الشجرة لا تعطي ثمراً جيداً ، فكيف إذا كانت بالأساس لا تعطي ثمراً !!؟؟ .

إن المشكلة الأساس التي تبرز في هذا الصدد هي .. اعتبار تلك الجامعات و الهيئات التعليمية العليا ، مع شهاداتها التي تمنحها ، هي بمثابة العلم الحقيقي الرسمي الأصيل الذي بموجبه تُقاس العلوم كلها . و أن الشهادات التي تمنحها تلك المنابر الرسمية المسماة (جامعات) ، هي معيار العلم و الثقافة و صكهما الرسمي الذي يفتح لصاحبه باب الشهرة و الظهور العلني و القبول ، تماماً كسبداً صكوك الغفران . و هي المحك الأساس الذي يُعرف به صاحب الفكر و العلم و

الثقافة ، عن غيره . و بالتالي يقود ذلك إلى رفض أي نوع من أنواع العلم و الفكر و البحث الذاتي الفردي ، و رفض صاحب الثقافة و المعرفة الحقيقية الحقبة الذي تحصل عليهما بجده و كده و تعبه .. صادقاً مخلصاً لأجلهما ، فقط لأنه لم يخرج من تحت عباءة هذا المنبر العقيم الضال المضلل المسمى اليوم زوراً و بهتاناً (الجامعة) و هو ما يشكل سابقة خطيرة جداً ، تُقاس بعكس مبدا مقولة السيد المسيح (ع) السابق ، فتصبح القاعدة هي .. قطع الشجر المثمر و الإبقاء على الشجر الغير مثمر ، لا بل دعمه و الاعتناء به و استنساخه في العالم العربي حتى يتحول إلى حالة فقاعية من التبغل الفكري أو الدمامل الفكرية المتقيحة و التي أفرزت اليوم واقعاً شاذاً مريعاً ، و ظاهرة عوجاء عرجاء ، تتلخص في نفس المثل السابق لعلي بن أبي طالب ، حيث أصبحت القاعدة في ذلك أيضاً هي أن .. قيمة المرء أو المثقف ، ليس فيما يحسنه و ما يمتلكه من ثقافة و فكر و علوم و معرفة ، بل في ما يُرمى به من الألقاب المنبرية أو الوظيفية الوهمية الزائفة التي تحصل عليها أو تُسببت إليه أو ادعاها هو لنفسه . لقد أصبحت قيمة المثقف في عالمنا العربي اليوم ، ليس فيما يحمله من مخزون فكر ، و يمتلكه من معرفة و علم ، بل فيما يحمله من ألقاب و نياشين فكرية و وظيفية ، أصبحت اليوم في القشور و ليس في المضمون ، لأنه و للأسف الشديد ، لا يوجد مضمون ، و أصبح العالم و المفكر العربي اليوم هو .. الدكتور فلان الفلاني عضو الجمع الفلاني و عضو الجمعية الثقافية الفلانية و عضو الهيئة التعليمية لكذا و عضو اتحاد كذا و كذا و عضو و عضو و عضو عضو .. ارحمونا يا أخي .. كفانا قرفاً يا أخي .. كفانا نياشين و أنواط و أوسمة و همية كاذبة .. خلبية مخصية .

هل تستطيع يا حضرة العالم الدكتور العضو في عضو العضو بالعضو ، هل تستطيع أن تشرح لنا ماذا قدمت من اختراع أو إنجاز لمجتمعك ، من عضعتك أو عضوضاتك العضوية المتعضية تلك ؟؟؟!!! و هل نخبرنا ماذا خففت عن مجتمعك من آلام و مآسي و ويلات أصابته و ألفت بعواهنها عليه ؟؟؟!!! و ماذا

غيرت فيه من عادات بالية ، و تقاليد إجرامية موروثية ، لا علاقة لها بالتراث و لا بالفكر و العلم !!! .

هذه القضية أو الظاهرة ، تقابلها قضية أو ظاهرة أخرى ، أكثر قرفاً و تقززاً للنفس . و هي ظاهرة مستحدثة على ما يبدو ، وإحدى مفرزات مفهوم مثقف السلطة و السلطان و مثقف الكرسي الخيزران . هي ما يُعرف اليوم بمسميات تطلق على أشخاص فرديين من مثل (رئيس المركز الاستراتيجي للدراسات - رئيس مركز البحوث و الدراسات العالمي - رئيس المركز الكوني لبحرّة درب التبان الفكري) أو يخرج عليك أشخاص تراهم لأول مرة و لا علاقة لهم بالفكر و الثقافة و تتطلق عليهم أوصاف و مسميات مثل (الباحث الاستراتيجي - المحلل الاستراتيجي - المفكر و المحلل السياسي - محلل البول الثقافي - الباحث الاستراتيجي ... الخ) . و لأجل ذلك نقول الاتي ..

أولاً .. إن عبارة (مركز الدراسات الاستراتيجية) هي عموماً ، قد ظهرت أول ما ظهرت ، في الولايات المتحدة الأمريكية و من ثم ، بريطانيا و الاتحاد السوفيتي سابقاً (روسيا الحالية) و ألمانيا و فرنسا ، و ما إلى ذلك من دول عظمت قوية . و هنالك دول تتخرج من اعتماد مراكز أبحاث استراتيجية لديها، معتبرة أنها لم تصل بعد إلى هذا المستوى .

ثانياً .. إن (مركز الدراسات الاستراتيجية) هذا ، يكون وجوده في مثل هكذا دول ، متناسباً و متوافقاً و متزامناً مع عظمة هذه الدولة و قوتها السياسية و العسكرية الاستراتيجية الكبرى و إمكانياتها و مواردها العلمية و الفكرية الهائلة .
ثالثاً .. إن ما يسمى و ما يُعرف بمركز الدراسات الاستراتيجية ، تكون وظيفته الأساس ، تقديم النصح و المشورة ، حصراً للإدارة السياسية العليا الحاكمة في تلك الدول (رئيس الدولة - وزير الدفاع - رئيس الوزراء - رئيس الأركان ... الخ) و ليس إلى عموم الجمهور و متبوعي التلفاز و أبو حمودة و أبو عبودة و أبو شلفوط . فالغاية الأساس من مراكز الأبحاث و الدراسات الاستراتيجية في

تلك البلدان ، هو مساعدة رأس الهرم السياسي في اتخاذ القرار الاستراتيجي الصائب ، السياسي أو العسكري أو الاثنين معاً ، فهذه المراكز تختص أساساً بتقديم معلومات و إحصاءات و معطيات تمتد على مستوى العالم ككل و تكون مرفقة بنصائح معينة ، يقدم كله جميعاً على شكل دراسات إلى الرؤوس العليا في هرم المنظومة السياسية أو صاحبة القرار السياسي .

رابعاً .. إن مراكز الدراسات و الأبحاث الاستراتيجية ، هي عبارة عن مؤسسات هائلة عملاقة ، تحتل أبنية كبيرة ضخمة و لها فروع و مؤسسات و منظمات و هيئات تابعة لها ، منها ما يكون متشراً في أنحاء العالم و أحياناً يتبع لها وسائل إعلام .

خامساً .. يقوم على هذه المراكز ، كوادر علمية و فكرية و ثقافية ، على مستوى كبير من الدراية و التخصص و الخبرة ، تضم في مجموعها ، العلماء و القادة السياسيين و العسكريين ، المتقاعدين منهم أو الموجودين على رأس عملهم ، كذلك تضم أساتذة جامعات و معاهد ، كبار و باحثين و كتّاب متخصصون أقارع ، الذين لديهم مؤلفات و كتب بحوث ، و ممن له ماضٍ و باع في الفكر و السياسة و الحرب ، و ليس أشخاص مجهولون لا يُعرف لأحدهم قرعة أب ، يؤتى بهم من قوارع الشوارع . و نادراً ما يظهر هؤلاء الكوادر الحقيقيون في وسائل الإعلام أو القنوات التلفزيونية ، إلا لحاجات الضرورة القصوى أو لأمر هام جليل . و عادة ما يتم الحديث عنهم في وسائل الإعلام تلك بصيغة الغائب ، و ذلك بنقل تصريحات و أقوال لهم ، أو مقاطع من بعض دراساتهم ، فغالباً ما يتمتع هؤلاء عن إجراء لقاءات صحفية أو تلفزيونية ، إلا للضرورات القصوى و بمناسبة نادرة .

هذا بالنسبة لمراكز الأبحاث الاستراتيجية ، أما بالنسبة للتوصيفات من مثال (باحث استراتيجي - مفكر استراتيجي - محلل استراتيجي - كاتب و محلل سياسي ... الخ) فهي بالتعريف الأساس الصحيح لها .. هو الشخص البالغ من

العمر عتياً ، و المتحصّل على موقع استراتيجي .مجال معين و خبرات فكرية ثقافية تؤهله لأن يكون خبيراً أو باحثاً استراتيجياً . و عادة ما يكون هذا الشخص من رعايا و مواطني دولة عظمى كبرى ، أو دولة إقليمية ذات وزن كبير ، و يتسلم هذا الشخص فيهما مناصب قيادية كبرى كقائد جيوش مثلاً ، أو مناصب سياسية عالية و متنوعة ، كأن يكون سفيراً لدولة كبرى أمضى حياته متنقلاً بين عواصم العالم الكبرى ذات الأهمية العالية و الحساسة ، و يكون قد شارك بخبرات و حوادث ميدانية ، عسكرية أم سياسية ، على مستوى العالم و دوله و أحداثه الهامة الجسام . و غالباً ما ينطبع طابع الباحث الاستراتيجي أو المحلل الاستراتيجي على هؤلاء الأشخاص أو ما يقارهم بشكل كبير ، كشخص له باع طويل في السياسة الدولية ، من خلال عمله طيلة حياته مثلاً ، في منظمات دولية متعددة ، و آخر سياسية ، و شارك بأكثر من عملية مفاوضات سياسية دولية ، و تنقل بحكم وظيفته أو موقعه ، بين مختلف دول العالم . و يهمننا القول إن الكثيرين في دول الغرب المتحضرة و القوية ، من أصحاب المواقع السياسية و العسكرية و الفكرية ، يتخرجون من تسمية أنفسهم بمثل هكذا أوصاف ، و يعتبرون أنفسهم أنهم لم يصلوا بعد إلى موقع يؤهلهم الحصول عليها . و ذلك من باب معرفة الشخص من هؤلاء ، لحجمه الحقيقي ، و من منطلق المثل القائل .. (العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً ، لكن الجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً) .

إذا نظرنا إلى عالما العربي اليوم ، لرأينا العجب العجاب و المضحك المبكي ، حيث يخرج عليك أشخاص من أشباه المثقفين و ليسوا مثقفين .. و أشباه المفكرين و ليسوا مفكرين .. لا قراءهم قِراع علم أو فكر أو ثقافة أو أدب ، و لا ماضيهم كذلك . يخرج الواحد منهم و الذي ليس له و لا كتاب واحد أو مؤلف واحد ، يخرج في هذا الزمن العربي الرديء ، زمن العهر و التعهر و

المعاهرة .. يخرج على القنوات الإعلامية العربية و يكتب عنه أنه (مدير مركز كذا للدراسات الاستراتيجية) . شخص مشبوه فكرياً و ثقافياً و أدبياً ، في إعلام مشبوه من أساسه فاقد للمصداقية أمام شعوبه ، في عملية مشبوهة بعضها ضمن بعض ، و كله من منطلق المثل القائل (إن لم تستح فافعل ماشئت) .. يا أخي ألا تستحي من نفسك !!؟؟ ألا تخجل من نفسك ، أنت و إعلامك هذا ، الذي اصطنعك ، باستضافتك و إطلاق مثل هكذا وصف و تسمية على شخصك !!؟؟ . أنت صنيعه من صلب صنيعه .. أنت صورة عن هذا الزمن الفاجر الكافر . هل تستطيع أن تشرح لنا هذه الحالة و التوصيف التي و صموك بها و التي تُبكي منشد الأفراح قوافيا ، و تُضحك ربات الحجال البواكيا ، في آن معاً !!؟؟ أي مركز أبحاث و دراسات هذا الذي تدعيه أنت و إعلامك !!؟؟ أي بحوث و دراسات هذه !!؟؟ و أية إستراتيجية هذه !!؟؟ و يدعي هذا الإعلام المتواطئ معك ، أنك باحث و كاتب و محلل سياسي و استراتيجي ، و أنت لم تؤلف يوماً كتاب واحد و لم تقرأ ربما كتاب واحد و لا علاقة لك بالفكر و لا الأدب ، من أين لك بمركز دراسات و بحوث إستراتيجية !!؟؟ أنت الذي لا تغيب عن إعلامك هذا ، يومين إلا و تظهر في الثالث . أما وجدت صورة تلمع بها نفسك و وجهك ، سوى القول أنك رئيس و مدير مركز دراسات و بحوث ؟؟ أين مركز دراساتك هذا ؟؟ و أين دراساتك تلك ؟؟ إن كل كلامك هو إما تحريض للنفوس أو تضليل للعقول . مرة تخرج علينا بصفة كاتب و باحث ، و مرة بصفة باحث استراتيجي ، و مرة بصفة محلل استراتيجي و أخرى محلل بول ، و مرة بصفة مفكر ، و أخرى بصفة خبير استراتيجي .

إن عبارة توصيفية من مثل (الكاتب و الباحث) تتألف من مفردتين .. (الكاتب) و تعني بكل بساطة أن هذا الشخص له مؤلفات و له كتب .. (الباحث) و تعني أيضاً بكل بساطة أن هذا الشخص يكتب و يؤلف في مجال البحوث و الدراسات ، التاريخية منها أو السياسية أو الدينية أو الاجتماعية ، أو

كلها مجتمعة ، هذا هو تعريف توصيف (الكاتب و الباحث) . فعندما تبحث عن هذا الشخص المسمى (كاتب و باحث) و تستعلم عنه ، تكتشف أنك أمام شخص لم يؤلف كتاباً واحداً في حياته و ربما لم يقرأه ، ثم تكتشف بعد ذلك أنه لا علاقة له بالفكر و الثقافة ، و أن له مجال آخر تماماً .

إن إطلاق مسميات و توصيفات مثل (كاتب و باحث - محلل سياسي - باحث استراتيجي ... الخ) على أشخاص لا يصلون إلى أعلى من كلمة (متعلم) مثلها كمثل أصحاب الياфطات التجارية الدعائية و التي تعطي دلالة كبيرة و إشارة واضحة على الكذب و الخداع و قلب الحقائق و بشكل أدق ، النفاق الخفي .. ترى مكتباً تجارياً يعتمد التدليس و الخداع مع الزبائن ، و يعلق يافطة على مدخل مكتبه ، كُتِبَ عليها (مكتب الوفاء) . و آخر مشهور بالنصب و الاحتيال و محكوم بكذا جنائية ، يضع على باب مكتبه أو دكانه يافطة تقول (مكتب الإخلاص التجاري) . و آخر اشتهر بالسرقه و الاختلاس يسمى مكتبه التجاري (مكتب القناعة للتجارة) . تقف أمام دكان أو حانوت لبيع الفروج (الدجاج) حيث ترى قطعان الفراريج المذبوحة و المقطعة الأوصال و المعروضة للبيع ، فترفع نظرك إلى الأعلى قليلاً لترى يافطة مكتوب عليها (فروج المَلِك) . و بجانبه دكان مشابه لبيع الفروج المذبوح و المقطع الأوصال و فوق البوابة ، يافطة كبيرة مرسوم عليها ديك يرتدي بذلة رسمية مع كرافته و يجلس على كرسي يدخن النارجيلة ، مكتوب بجانبه عبارة (فروج الأمير) . كذا الأمر نرى لحام و قد علق عجل مذبوح مسلوخ معلق من عرقوبه و الدماء تسيل منه إلى الأرض ، و فوق الحانوت ، يافطة مكتوب عليها بالخط العريض (ملحمة العجل السعيد) أو (ملحمة العجل الضاحك) .. هذا من ذاك ، و هذه القرعة من ذاك الرأس . كل ذلك منهج و نتاج نفاق إرادي أو لا إرادي .

نهاية .. هذه هي مدارسنا .. وهذه هي جامعاتنا .. وهذه هي مراكز أبحاثنا ..
وهذا هو وضعنا الحالي المزري .. وهذا هو ما آل إليه أمرنا .

وسائل و وسائط الإعلام و النشر :

إن وسائل الإعلام ، من صحافة و منشورات و مذياع و قنوات تلفزيونية ،
أرضية أو فضائية ، و دور نشر ، هي في الأساس ليست حالة فكرية أو منتج من
نتاج الفكر ، فهي من الناحية الاصطلاحية ، حالة و مفهوم منفصل عن الفكر
و الثقافة ، لكنها في الوقت نفسه من أهم الأدوات الناقلة للفكر و الثقافة و
العلوم و المعارف . و رأينا كيف أن مصر ، رائدة النهضة العربية الحديثة ،
اعتمدت في بداية أمرها على الصحافة و الطباعة و النشر . فأول عمل قام به
محمد علي باشا بعد استلامه مقاليد السلطة و أمرها في مصر ، أنه استجلب
المطابع و أمر بإنشاء الصحف و المنشورات التعليمية و طباعتها و جعلها أداة
رئيسة أولى في ردف و دعم نظام الهيئات التعليمية و البعثات العلمية ، و قام
بتوزيعها مجاناً و بأسعار زهيدة جداً ، و ذلك لنشر الثقافة و العلم و المعرفة بين
سواد الشعب و عموم الجمهور . فهذه الأدوات و الوسائط هي في أساس
وظيفتها و صلب عملها ، أنها موجهة إلى عموم الجمهور أولاً ، و من ثم الطبقة
الفكرية المتوسطة و من بعدها الطبقة العليا . فهي عبارة عن ناقل خبر و ناقل
فكر .

إذن .. بناء عليه و عليه بناء ، فإن وسائل الإعلام و النشر بمختلف أنواعها ، هي في أيامنا هذه ، يفترض بها أن تكون في توصيفها المبدئي الأساس .. ناقل خبر و حامل فكر .

و حتى نستطيع أن نحكم على أداء وسائل الإعلام اليوم ، في العالم العربي بصدق و شفافية و نقرر ما إذا كانت بالفعل ، ناقل خبر صحيح و حامل فكر سليم ، لا بد من النظر بكل بساطة إلى أداؤها و طرائق عملها و سلوكها الفكري ، و نعين فحوى برامجها و ذلك على مبدأ المثل العربي القائل (كل إناء بما فيه ينضح) .

و تتجلى وسائل الإعلام و الفكر اليوم ، بثلاث وسائل رئيسة ، هي .. الصحف و الدوريات - التلفاز و المذيع - دور النشر .

الصحف و الدوريات : شكلت الصحف و الدوريات ، أولى وسائل الإعلام في العالم العربي . و لا يخفى أن الصحف و المجالات كانت في النصف الأول للقرن العشرين ، حامل فكري حقيقي ، أو على الأقل ، يقارب الحقيقة و يقارب الموضوعية لمختلف المجالات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية ، على الرغم من أن بعضها كان يتبع لأحزاب سياسية مختلفة ، و بعضها الآخر كان خاصاً ، لكنه يخضع للتوجيه من قبل أصحابه و مالكيه . فقد كان هنالك شيء من المصادقية أو بالأحرى شيء من الرأي و الرأي الآخر . فهي و إن كانت تنتهج منهجاً معيناً و تسلك مساراً محدداً بجهة معينة و لجهة معينة (سياسية - حكومية - حزبية) فإنها أفردت مساحة حرية للطرف الآخر ، باستثناء الدينية المذهبية منها التي رفضت الآخر المختلف معها . و فوق كل هذا و ذاك ، فإنها بمعظمها كانت ناقلاً للفكر و حاملاً له .

فعندما تقع بين يديك اليوم مجلة أو صحيفة من ثلاثينيات أو أربعينيات القرن الماضي و تتصفح محتوياتها و تطالع فحواها ، تدرك من فورك ، غزارة الفكر و

المعرفة التي فيها ، و مواضيع و مسائل متنها ذات الموضوعية الحقيقية المباشرة التي تمس صميم المشاكل في المجتمع ، علماً أنها ليست صحيفة أو دورية متخصصة بالفكر و المعرفة ، بل هي صحيفة سياسية أو اجتماعية أو منوعة ، فما بالنابالصحف و المجلات الدورية الثقافية المتخصصة بالأدب و الفكر و التي كانت ذات كثافة عالية من حيث التواجد و الحضور !!!؟ في ذات الوقت الذي نلاحظ فيه أن المجلات الفنية كانت قليلة نوعاً ما قياساً لبقية المجلات و الصحف الأخرى ، أو في أحسن الأحوال كان هناك نوع من التوازن النوعي فيما بينها . أما اليوم ، فقد انقسمت الصحف و الدوريات إلى أصناف ثلاثة .. صحف السلطة و الأحزاب بمختلف أنواعها ، و هذا الجنس من الصحف و الدوريات ، قد أصبح مضبوطاً ضيقاً بالسلطة الحاكمة و تمجيداً ، هي و الأحزاب ، و الحديث الحصري عنها ، و جعلها محور المواضيع و النقاشات و المقالات ، مع رفض الآخر بأي شكل من أشكاله . فالحقيقة و الموضوعية بنظرها و متونها و مواضيعها ، هي حصراً من خلال من تتبع لهم من نظام سلطة و أحزاب و إيديولوجيات ، سياسية كانت أم دينية مع عدم ترك أية مساحة للطرف الآخر . وهذا الضرب من الوسائط الإعلامية ، يحظى بالدعم الرسمي و المادي و المعنوي من المنظومة السياسية و ما يتبعها من منظومات .

أما الصنف الثاني ، فهو الدوريات و الصحف الفنية ، و هي عبارة عن مجلات مختصة حصراً بالطرب و الغناء و الرقص ، و تتناول حياة الممثلين و الممثلات ، و المطربين و المطربات ، و الراقصين و الراقصات و ما يتفرع منهم و من وسطهم ، من وظائف و مهن . فكلمة الفن هنا ، تخرج عن معيارها و مصداقها الأصلي الذي يحمل في معناه و مضمونه ، الرسم و النحت و الخط و الزخرفة و النقش و الصناعات اليدوية و ما إلى ذلك من فنون .

و يلاحظ اليوم أن هذه المجلات و الصحف التي تسمى (فنية) قد أصبحت هي الطاغية و صاحبة الحضور في واجهات المحال التجارية . كما يلاحظ انتفاء أي

موضوع فكري ثقافي فيها ، و اقتصارها فقط على المثليين و المطربين و الراقصين ، و طبيعة حياتهم ، و مشاكلهم بعضهم مع بعض ، و قصصهم من زواج و طلاق . و أعمالهم و أماكن حضورهم و تواجدهم . و تحظى هذه المجالات بإقبال شعبي و دعم مادي ، حيث أنها تطبع بطبعات فاخرة فخمة تعنون بكتابة مزخرفة بماء الذهب و الفضة و من أجود أنواع الورق اللامع المصقول . و نود أن نسجل في معرض بحثنا هذا ، أنه من حيث المبدأ ، لا إشكال في وجود مثل هكذا مجالات و دوريات تختص هؤلاء الرهط من القوم ، لكن الاستفهام هو في حضورها الطاغي على ما عداها من صحف و مجالات ، بحيث أصبحت تعبر عن الثقافة و الفكر السائدين في المجتمعات العربية ، و اعتبارها مجالات فكرية ثقافية ، من قبل البعض ، سواء بقصد أو من دون قصد .. بعلم أو من غير علم .. و الله العليم .

أما الضرب الثالث من هذه الوسائط و الوسائل الإعلامية ، فهو الصحف و الدوريات العلمية الثقافية الفكرية و التي تختص بالثقافة و الفكر و الأدب و العلوم و المعارف ، بمختلف أصنافها ، و موجهة إلى القارئ العربي ، و تساهم بتكوين خلفية ثقافية للمواطن الفرد في المجتمع ، و إنشاء قاعدة ثقافية فكرية في المجتمع ككل ، و تشكل بدورها روافد قوية تعطي نخب فكرية ثقافية حقيقية . و يلاحظ اليوم قلة الإقبال الشعبي على تلك الصحف و الدوريات ، أولاً لغلائها الفاحش و كأنه يراد لها ألا تُباع . ثانياً .. لتعقيد سوية الخطاب الفكري فيها و صعوبة سرد مصطلحاتها و مفرداتها . و ثالثاً .. لعدم تناولها الواقع الفكري و الثقافي الحقيقي في المجتمعات العربية ، و معالجة قضاياها و همومها الحقيقية الموضوعية و انصرافها إلى مناقشة مشاكل الدول الغربية و الأجنبية على حساب الواقع العربي ، و إبراز إحصاءات رياضية معقدة يصعب على القارئ العربي فهمها و تناولها ، و كأنها حالة مقصودة لإبعاد المواطن العربي عن همومه

و مشاكله و قضاياه الحقيقية و أزماته الفعلية المستعصية التي من الأجدر أن تكون موضوع التساؤل و النقاش و البحث .

هنالك دورية عربية .. شهرية مشهورة ، و معظم إصداراتها ، مترجمة عن الأصل الغربي الأجنبي لمشاكل الدول الغربية الجزئية المفصلية و أحيانا الثانوية و التي لا ناقة للواقع العربي و إرهاباته فيها و لا حمل .. يا أخي أنا إيش علاقتي بسويسرا و الصين و زيمبابوي و زيادة السكان فيها و تحويل العملات هناك ، و الأسعار و المخططات البيانية و المؤشرات !!!؟ و آفاق التحول المعرفي في بلجيكا ، و التراث الموسيقي في موزمبيق ، و آثار الفكر في مالطا و التحولات الاجتماعية في الپا !!!؟ تعال يا أخي و ناقش البلاء و المآسي و المحن التي حلت فينا ، بدلا من أن نهرب إلى الخارج في مواضيع و أفكار لا ناقة لنا فيها و لا حمل ، و لا علاقة ، لا من قريب و لا من بعيد . هل الحل هو بالهروب من جهنم العالم العربي إلى إحصائيات سويسرا و أمريكا و جداول الصين البيانية و قوائم أوروبا المالية !!!؟. هذا النوع من الدوريات ، هو من الفئة المدعومة مؤسساتياً و حكومياً ، لكنها للأسف الشديد ، فاقدة لمضمونها الحقيقي¹ .

إن قضية الترجمة بشكلها المطلق ، هي بصورة أو بأخرى دلالة على الجهل و مركب النقص ، و دلالة عجز فكري رهيب .. إنها تشابه إلى حد بعيد ، قضية استيراد المنتجات الصناعية و الزراعية و التقنية و الطبية و غيرها ، من الغرب ، و هي تمثل المسمار الأخير الذي يدق في نعش التقدم الفكري العربي ، و هي قضية خطيرة تأخذ أبعادها المؤثرة المتجلية برفض الفكر العربي المحلي و استبداله بالقطع الفكري الأجنبي . و لذلك نقول .. يجب أن يكون هنالك جمرک على الفكر الأجنبي ، ليس من باب الفكر كفكر ، لكن من باب اعتماد المحلي ، تماما مثل البضائع و المنتجات .

¹ تم عرض هذا الكتاب على تلك المجلة ، و لكنها رفضته بدعوى أنه لا يدخل في مجال اهتمامهم .

أما الفئة الأخرى ، فهي الفئة التابعة لأشخاص مفكرين مثقفين ، أو لهم باع في الثقافة و الفكر و الصحافة ، و تُمول من قبلهم شخصياً . و هذه المجالات ، بالرغم من غناها الفكري و الثقافي ، إلا أنها في الآونة الأخيرة ، بدأت تنقرض من الأسواق لأسباب مادية بحتة ، سببها ، عدم مقدرة أصحابها على تمويلها مادياً و عدم تلقيها أي دعم آخر . يضاف إلى ذلك ، عزوف الإنسان العربي عن الإقبال على تلك الصحف و الدوريات ، لعزوفه عن الفكر أساساً ، و اهتمامه بأمور أخرى .

و وسائل الإعلام : و هي ، المذيع و قنوات التلفزة الأرضية ، و قنوات التلفزة الفضائية . و بما أن المذيع و التلفزة الأرضية ، قد انحسرا في وقتنا الحالي الراهن هذا ، أمام قنوات التلفزة الفضائية التي أصبحت هي السائدة و الطاغية في العالم العربي ، و المستقطب الأول الرئيس لكل أفراد المجتمعات العربية ، لدرجة الهيمنة على العقول و تطويع الفحول ، فإن الحديث في هذا المبحث ، سيكون عن هذه الوسائط تحديداً ، كونها هي التي استحوذت على صورة الوسائط و الوسائل الإعلامية .

و لكي ننحونحو البساطة في الشرح و التوضيح و نعتمد مبدأ المثل القائل (خير الكلام ، ما قل و دل) ، نقول الآتي .. إذا نظرنا إلى الأقمار الفضائية التي تنقل القنوات العربية ، نراها تتمثل في قمرين رئيسيين هما (نايل سات) و (عرب سات) . و يبلغ مجموع القنوات الفضائية في هذين القمرين ، حوالي ألف و خمسمائة قناة بالإجمال .

و تعالوا بكل بساطة ، لننظر إلى نوعية هذه القنوات و أقسامها ، فماذا نرى ؟؟
.. نرى

١) — الفضائيات الحكومية الرسمية و هي الفضائيات الناطقة باسم حكوماتها . و هي قنوات معروفة الهوية لجهة الإنشاء و التمويل و التوجه و الانتماء .

٢) — الفضائيات الدينية ، و هي في الغالب قنوات مذهبية .. نعم و بكل صراحة .. قنوات مذهبية تبث التفرقة الدينية . و لكن للإنصاف ليس كلها مأجورة .

٣) — فضائيات الطرب و الأغاني و هي قنوات معروفة و واضحة جداً .

٤) — قنوات العنف المسماة (أكشن) .

٥) — قنوات تجارية خاصة .

أما القنوات العلمية الفكرية الثقافية ، فهي لا تتعدى أصابع اليد ، كقنوات الحيوان و قناة (أبو ظبي جغرافك) . و أما القنوات التعليمية البحت (شرح المناهج الدراسية) ، فهي أيضاً بدورها لا تتعدى أصابع اليد . و باقي القنوات كلها ، كما ذكرنا ، هي إما قنوات مذهبية دينية تحريضية ، و إما قنوات طرب و رقص و أفلام و أغاني . و إما قنوات سحر و شعوذة و دجل ، تقوم على إهداء شفاء الأمراض بالتخاطر عن بعد و قراءة الأدعية . و إما قنوات سياسية موجهة خاضعة للسلطات الحاكمة . و إما قنوات خاصة متنوعة ما بين السياسة و غيرها ، لكنها قنوات موجهة من بعد و تابعة تماماً و لكن بشكل غير مباشر ، إما للسلطات السياسية الحاكمة في البلدان العربية ، فهي تمثل الحديقة الخلفية لهذه السلطات ، و إما لجهات تمويلية خارجية استخباراتية ، و إما تتبع لسياسة من يسمى .. الممول الراهن ، حيث تتبدل سياسة هذه القنوات تبعاً للممول . و ينطبق عليها جميعاً قول الشاعر ..

فَمِثْلُهُ لَا خَيْرَ فِي عِتَابِهِ كُلُّ إِنَاءٍ نَاضِحٌ مَا فِيهِ .

و قول الآخر ..

يُصَوِّرُهَا كُلُّ امْرِئٍ حَسَبَ حَالِهِ وَ كُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْصَحُ .

هوية الفكر العربي المعاصر كلمة أخيرة

نحن اليوم أمام منعطف خطر جداً ، أو بأحرى الوجوه ، أمام مأزق كبير يهدد بانطفاء كامل لجذوة الفكرة الحقيقي الحق في العالم العربي .. حيث أن كل ما سقناه من أمثلة و صور و حوادث تاريخية ، لا يبشر بالخير ، و ينذر بنذير البين و الشؤم .

إن ما نراه الآن من صور و تجليات للفكر و الثقافة العربيين ، تمثل حالات سلبية جداً ، و معوقات تجعل من الفكر العربي ، عبارة عن مجرد مجسم جامد متحجر متكلس من الجص ، قابلاً للإهميار و التحطم و التشطي عند أول لطمة أو صدمة. و يتضح ذلك من سمات الفكر العربي و طبيعة الثقافة العربية اللذان يشكلان الهوية الفكرية العربية العمومية . و نذكر غيض من فيض من هذه السمات و النواضح الفكرية و هي ..

القيود الفكرية الأيديولوجية :

إن إحدى السمات الغالبة على الفكر العربي هي ، فرض قيود فكرية و أيديولوجية عليه . و عندما نقول .. قيود فكرية ، فهذا يعني ارتباط الكاتب أو المثقف أو مؤلف الكتاب أو المقال أو المنشور ، سلفاً بمنهج فكري معين ، و أتباعه لمدرسة فكرية أو جهة فكرية يمثلها شخص معين أو أشخاص عدة أو مراجع و مصادر فكرية . و القيود الفكرية هذه ، إما أن يتخذها الكاتب

الباحث أو المثقف ، لنفسه منهجاً و منهاجاً ، أحدهما أو كليهما معاً ، طواعية و اختياراً ذاتياً ، و إما أن تفرض عليه اعتبارياً أو دينياً أو أحياناً أكاديمياً . فهنالك بعض الهيئات العلمية أو المدارس الفكرية أو دور نشر ، لا تقبل دراسة معينة أو بحثاً أو كتاباً ، إذا لم يكن من منطلق و رحم فكري معين ، أو متأثراً بمنهج فكري معين . و هو ما حصل معي شخصياً لجهة بعض مؤلفاتي ، لدرجة أن بعض دور النشر التي تدعي الديمقراطية و الحرية و التعددية و الوعي ، رفضت مؤلفاً لي ، فقط لمجرد عبارة و فكرة معينة مثلت مجرد جزئية بسيطة عارضة صغيرة ، من حيثيات الكتاب .

أما القيود الإيديولوجية ، فهي تعني بكل بساطة ، ارتباط الكاتب أو المؤلف ، عقائدياً ، بإيديولوجيات سياسية معينة يكون في الغالب الأعم ، سياسية حزبية أو مذهبية دينية . و هي تجسد انتماء الكاتب السياسي أو الديني أو المذهبي لهذا الفكر أو ذاك . و أيضاً يكون ذلك إما طواعية من الكاتب و قناعة شخصية راسخة فيه ، و إما طبقاً لقيود إجبارية ، و هو ما يكثُر في القيود الدينية و المذهبية الذاتية ، حيث إن الكاتب أو المؤلف الديني ، مجبراً بنسبة / ١٠٠ % / بالتحديد بطرق مذهبه و عقيدته الدينية و أمهات الكتب التابعة لها . على أنه من حيث المبدأ و من حيث أمور ظرفية توثيقية معينة ، لا ضير في اعتماد بعض القيود الفكرية و الإيديولوجية . و ذلك لإثبات قضايا معينة تخدم الباحث و فكرته في إثبات صحة طرح ما ، أو إلقاء الضوء على قضية ما ، أو إجراء مقارنة من نوع ما .

لكن أن تكون القيود الفكرية الإيديولوجية ، هي المنهج السائد العام في الفكر العربي المعاصر ، فذلك ما يُفقد هذا الفكر مصداقيته و ينحو به إلى طمس الحقائق و حجبها و الابتعاد عن القضايا و المشاكل الحقيقية الواقعية الموضوعية ، حتى و لو كانت تلك القيود تحمل في مضامينها و حيثياتها ، شيء من الصحة و المنطق . و السبب في ذلك ، هو جعل تلك الحقيقة و المنطق و الصواب ، يتبع

لها لا أن تتبع هي له ، و طرح الحقيقة و المنطق و الصواب ، من خلالها هي لا من خلاله هو ، فتكون تلك القيود هي المعيار لا هو ، و تصبح الأمور مقلوبة رأساً على عقب . و بالتالي تؤدي نتيجة هذه العملية إلى إلغاء التعددية الثقافية و المعرفية ، و التنوع الفكري ، و تلاقي الخبرات و المعارف ، و تهيئ لبروز ظاهرة الشائبة الفكرية ، بل و حتى الأحادية الفكرية . و من المعارف عليه ، أن هاتان الظاهرتان ، هما من سوات أي أنموذج فكري ثقافي و معرفي ، في مجتمع من المجتمعات و مظهر من مظاهر التخلف فيه . و على العكس من ذلك ، فإنه من المعارف عليه ، أن التعددية الثقافية و الفكرية ، هي مظهر من مظاهر الشراء الفكري في المجتمع ، و أداة من أدوات التقدم و الازدهار فيه .

أما الأثر السلبي الآخر للقيود الفكرية و الإيديولوجية ، فهي أنها تقود إلى انتشار نوع من ثقافة التسليم و الرضوخ في المجتمع ، و خلق واقع فكري افتراضي موهوم . كما أن القيود الفكرية و الإيديولوجية ، تفرض على المثقف و المفكر نوع من الانحياز الفكري و التحيز الثقافي التعبوي . و بالتالي ظهور ثقافة الانحياز و التحزب و طغيانها على ثقافة الواقع و المنطق . و أخطر ما في ذلك ، أنها تقود إلى إلغاء ثقافة التجديد و تغيير الواقع ، و هي ثقافة نحن أحوج ما نكون إليها الآن في عصرنا هذا ، و أحوج ما يكون إليها الفكر العربي المعاصر الآن . كما أن هذه القيود ، تعمل في الوقت نفسه على إلغاء المثقف و المفكر كحالة علمية فكرية خلاقة تجديدية تطويرية . و كما حصل في الدين ، يحصل الآن في الفكر ، حيث تحول المثقف و المفكر ، من مجتهد ، إلى مقلد . و هو أمر ملاحظ في معظم الكتابات اليوم ، حيث كل حزب أو جهة بالعموم ، يطرح أفكاره على أنها الأوحده فقط و على أن العالم كله يتمحور حولها ، فيعتقد القارئ باللاشعور أنه لا يوجد في هذا الكون غير هو و الكاتب و أشخاص الكاتب و أحداثه و تصبح القاعدة الأساس هنا .. أنا و أنت و أفكارني .

و بالعودة إلى عصر النهضة العربية في مصر و من ثم في بلاد الشام ، نرى أن سمة الفكر الإصلاحى آنذاك ، كان أساسها التحرر من القيود الفكرية و الإيديولوجية . و ذلك بعد اصطدام مفكرو عصر النهضة الأوائل بالحضارة الفرنسية و الأوروبية ، و رؤيتهم الفرق الهائل و البون الشاسع فيما بين المجتمع المصرى أو العربى و بين أوروبا ، من كل نواحي الحياة .

و ما كان للفكر النهضوى العربى آنذاك ، أن يفلح فى مسعاه و غاياته ، لو لم يتخلى عن مبدأ القيود الفكرية و الإيديولوجية ، لا بل و يصطدم معها و يعمل على إلغائها لأن معظمها كان سبب للتخلف و الظلام فى الواقع العربى آنذاك .

إن ثقافة القيود الفكرية ، تؤدي أيضاً فى نتائجها ، إلى إنتاج ثقافة التستر و التعمية و طمس الحقائق ، لأن مبدأ القيود الفكرية و الإيديولوجية ، يفرض فى مضمونه ، إما تطويع الحقائق و الوقائع ، و ليها حسب ما تقتضيه تلك القيود الفكرية و الإيديولوجية . و بالتالى .. إبراز صورة مشوهة مجتزأة مبسطة مفرغة من المضمون . و إما إلغاء تلك الحقائق و طيها أو جعلها فى خانة الخندق المعادى لتلك القيود و مفاهيمها و مبادئها .

أيضاً .. من آثار القيود الفكرية الإيديولوجية ، إنتاج ثقافة و فكر قياس الشاهد على الغائب ، و هي السمة الطاغية اليوم على هوية الفكر العربى المعاصر ، لأن الصفة الرئيسة الأولى للقيود الفكرية ، هي أنها تقوم على الماضى و على أفكار و نظريات و آراء ظهرت بمعظمها فى الماضى منذ قرون خلت و معظمها اختص بالدين ، أصولاً و فروعاً . و منها ما ظهر بالعصر الحديث فى القرنين الماضيين و أسبغت عليه صفة القداسة الفكرية ، حتى و لو لم يختص بالجانب الدينى . و أدى ذلك إلى ربط أية قضية أو إشكالية أو ظاهرة معرفية تحصل حالياً فى الوقت الراهن و لها أسبابها و مسبباتها الفكرية و النظرية و الاعتبارية و المادية الخاصة بها حصراً و المستقلة فيها عن خارج نطاق حدوثها الزمنى .. أدى ذلك إلى ربط

هذه الظاهرة بالماضي . و للأسف ، فقد انسحب ذلك حتى على العلوم التطبيقية في بعض الأحيان ، فأصبح المنظور الفكري و البعد الثقافي للتقدم العلمي ، هو العودة إلى الوراء . و بمعنى أدق ، إن معيار التقدم إلى الأمام ، أصبح .. الرجوع للخلف ، لإحياء الماضي و لعزة الماضي و لنصرة الماضي . و ما خرب بيوتنا غير الماضي . فهنالك فرق شاسع بين بين ثقافة المحافظة على التراث ، و بين ثقافة الرجوع و التدهور إلى الوراء .

هنالك لغط كبير و سوء فهم جسيم ، حاصل في قضية اتهام البعض بسمة (ادعاء الثقافة) ، فغالباً ما يُطلق هذا الوصف عرفياً ، على الشخص الذي لم يتحصّل على شهادة أكاديمية أو علمية (ماجستير - دبلوم - دكتوراه) . و هو أمر خاطئ و مغلوط تماماً . و الواقع أن مدعي الثقافة ، يمكن أن يكونوا بكل بساطة ، من أصحاب الشهادات العلمية و حَمَلَتها ، و إن الشهادات العلمية ، حقيقة و في الواقع ، لا تعطِ إثبات كافٍ ، لتحصّل صاحبها على العلم و إمساكه بناصية الفكر و تلاميذه ، فكل ما يمكن أن تشهد له به تلك الشهادة ، هو أن مسجل في جامعة أو أكاديمية كذا و أتمّ حضور جلساتها التعليمية ، و أن الحد الأقصى الذي قرأه من كتب متخصصة في مجاله ، هو ما أدرجه المركز العلمي في منهاجه .

و تبقى السلبية الأخيرة في القيود الفكرية و الإيديولوجية السائدة اليوم ، هي النظر إلى الأمور و القضايا الواسعة العريضة و الشاملة و المتعددة الأطراف و العوامل و المركبة الأفكار و المناهج .. و النظر إليها من خلال إطار ضيق و محدود جداً (شخص معين - رجل دين - مذهب - حزب ... الخ) . و هي قضية أُلقت اليوم بظلالها و هيمنتها ، حتى على مستوى الواقع الاجتماعي العادي و على مستوى الأفراد فيه . فترى اليوم شخص من الأشخاص لا على التعيين .. إذا عُرضت عليه قضية فكرية ، لا على التعيين .. سياسية كانت أم

دينية أم اجتماعية ، في كتاب أم في وسيلة إعلامية ، فإنه مباشرة يسقطها على رموز ذهنية مخزنة في عقله ، تمثل قيوداً فكرية أو إيديولوجية . فإن وافقت ، أخذ بها .. و إن لم توافق ، رفضها من فوره و ضرب بها عرض الحائط معرضاً عنها ، حتى دون مجرد مناقشتها أو تحليلها في بعض الأحيان . و يقع هذا الأمر عادة ، على عموم الجمهور العربي و حتى أحياناً بعض الفئة المثقفة و المفكرة فيه ، و هنا مكمّن الخطورة ، و هذا ما يقودنا إلى نتيجة مؤداها .. إن ملكة التمييز و التمحيص الفكريين عند العرب ، مفقودة بشكل عام .

آن الأوان أن يتم اعتماد خطاب ثقافي و فكري ، تغييرى جذري ، يعتمد منهج الجرأة و الصراحة و التحرر من أي قيد أو شرط ، في مواجهة أية معضلة أو إشكالية أو مظاهر سلبية هدامة و أحياناً مدمرة ، أيّاً كان نوعها ، سياسية أم دينية أم اجتماعية أم اقتصادية .

آن الأوان للنأي بالنفس عن ثقافة الانسلاخ عن الواقع ، أكانت مطالعةً من قبل الأفراد ، أم تأليفاً و كتابةً من قبل المثقف و المفكر . و اعتماد ثقافة الاندماج بالواقع الحقيقي .. قراءةً و مطالعةً ، أم كتابةً و تأليفاً . و آن الأوان أيضاً لكسر احتكار الخطاب الفكري و الثقافي من قبل سلطة القيود الفكرية و الإيديولوجية . فالمطلوب اليوم ، هو نشوء ثقافة و فكر عربيين ، دونما مرجعية مسبقة ، و دونما قيود فكرية إيديولوجية ..

المطلوب اليوم ، كتب و مؤلفات ، دونما مصادر و مراجع ، إلا للتوثيق التاريخي أو النقلى البحت ، و فقط لأجل معالجة الحاضر و المستقبل ، لا خدمة و سخرة للماضي الفاتت البائد . فالماضي هو الغائب الذي مضى و ذهب إلى غير رجعة ، و اعتماده و التعلق بأطرافه و التشديق بأحداثه ، هو هروب من الحاضر ، و ذلك من مبدأ المثل القائل .. ما فات قد مضى و الغيب مأمول* ، و لك الساعة التي أنت فيها .

فما يهم الآن ، هو طرح ثقافة و فكر عربيين ، من وحي الواقع و وحي الحيات .
إننا نريد ثقافة الحاضر لا ثقافة الغائب البائد ، على مبدأ الآية القرآنية { تِلْكَ
أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[البقرة : ١٣٤] .

يجب التمييز بين الفكر و الإيديولوجية ، كمفاهيم اصطلاحية . فالفكر هو غير
الإيديولوجية ، و لا يتقاطعان معاً إلا في حزئية الإيديولوجية بالنسبة إلى الفكر
.. يجب الانتباه و اليقظة و التمييز بين ادعاء الفكر و المعرفة ، و بين تبني
الإيديولوجية تحت ستار و عباءة ادعاء الفكر ، و هو ما يحصل اليوم في وقتنا ،
فمعظم ما نراه ، هو إيديولوجية حزبية تحت عباءة الفكر ، بغض النظر عن نوع
هذه الإيديولوجية .

السطحية الفكرية و التسطح الثقافي :

إن السمة الرئيسة الثانية لهوية الفكر العربي المعاصر ، هي السطحية الفكرية أو
التبسيط الفكري ، و يعني ذلك تناول الأشياء و المفاهيم ، بشكل عمومي ينحو
نحو البساطة و السذاجة ، فيتم تناول الأشياء و القضايا الهامة الحساسة ، و
الوقائع و الحوادث بمختلف أنواعها .. السياسية منها و الاجتماعية و الدينية و
حتى الاقتصادية ، و التعبير عنها من حيث الظواهر و القشور ، لا من حيث
المضمون و الحقيقة .

فالآلية الطابعة و الغالبة على الفكر العربي ، هي في أحسن الأحوال ، الحوم
حول المشكلة الأساس أو الظاهرة ذات الإشكال ، دون الوقوع فيها . فالفكر
العربي هو فكر وصفي ظاهري و ليس فكر تحليلي شرحي تفصيلي .. تجرد الكثير

من الكتب و البحوث الفكرية تتحدث عن قضية فكرية و لكن لا تقوم بالدخول إلى لبها و صلب موضوعها و تمتنع عن شرح بياناتها و مفرداتها ، ما يضع القارئ العربي في جو من الإبهام و الغموض . و جل ما يخرج منه هو أنه يوجد مشكلة اسمها (X) و يجب حلها ، و الحل يُطرح على شكل مصطلحات تخصصية عسيرة على الفهم و شاقة على الإدراك ، حتى على القارئ شبه المتخصص . و ذلك ما يؤدي إلى الوقوع في مطبات عدة ، أولها الوهم ، و هو أشد خطراً اليوم على الفكر و الثقافة العربيين ، و هو خطر ما بعده خطر ، لأنه يعتمد على آلية تغير الأشياء و وضعها في غير مواضعها الحقيقية ، فيتم جعل القريب بعيداً و البعيد قريباً ، و جعل صعب المحال ، سهل المنال .. و سهل المنال ، صعب المحال . و لا يستفيق المرء من الوهم إلا و قد حلت به قارعة عظيمة الخطوب ثقيلة الهبوط طويلة الجثوم ، يحاول حلها و التخلص منها ، لكنه لا يجد منها فكاً و لا إلى حلها سبيلاً ، لأنه بالأساس قد فقد المفاتيح المنطقية السليمة و الصحيحة ، لحلها ، و فقد الخريطة الأصلية لتفاصيلها ، و امتلك بدلاً من ذلك ، حيثيات و مضامين أخرى مزورة . و هي حالة مشابهة تماماً لحالة شخص تعرض لعملية نصب و احتيال ، أُعطيَ بموجبها نقود مزورة . و هو بالضبط ما يحصل اليوم في واقعنا العربي على امتداد الساحة الجغرافية العربية .

إن الثقافة العربية اليوم ، هي ثقافة توهم الإنسان العربي ، أنه أخذ كل ما يحتاجه و أنه ليس هنالك من داعٍ لأي جديد .. ثقافة توهم الإنسان العربي أنه خير الكائنات على وجه الخليقة و أسواها خلقاً و أعدلها خلقاً و أكملها علماً و أرجحها عقلاً ، و أن له ناصية الأرض بالمشرقين و المغربيين و الشماليين و الجنوبيين ، رغم كل هذه المآسي و المصائب و النكبات و النوازل الهابطة عليه ، و رغم كل هذا التخلف و التشرذم و الانحطاط الذي ألمَّ به .. إن ثقافة كهذه ،

ليصح أن يقع عليها القول و الوصف بأنها .. ثقافة المورفين ، نعم ، إنها ثقافة المورفين التي لها وظيفة من اثنتين لا ثالث لهما .. إما خلق السكرة و النشوة في الأعالي لتأتي بعدها الفكرة و العبرة ، إطاحة إلى الأرض و مآل الحطام و الهشيم . و إما تخفيف الألم المرافق لسكرات الموت ، تمهيداً للوصول إلى الموت الرحيم . كفانا إدماناً على ثقافة الهيروين و الكوكائين الفكري ، تارة بالاستنشاق و تارة حقناً بالأمبول . لقد آن أوان اللجوء إلى المصحات العلاجية الفكرية ، للتداوي من هذه المخدرات الفكرية التي أدمنا عليها ، و ورطنا بها من ورطنا .. المطلوب هو ابتعاد الخطاب الفكري العربي ، بأشكاله كافة (الديني - السياسي - الاجتماعي) ، عن فكرة إصلاح العالم من حوله ، و عن فكرة الدور الريادي القيادي للعالم ، لأن ذلك لا يعني إلا صدام الحضارات ، شاء من شاء و أبي من أبي . كما يجب إقصاء نظرية السيد و العبد ، و القائد و المنقاد ، واستبدالها بنظرية الشراكة .

آن الأوان أن نخرج من ثقافة اليقين إلى ثقافة الشك .. من ثقافة اليقين المزعوم إلى ثقافة الشك الدلالي الاستقرائي ، المنطقي الاستنتاجي ، الموصل إلى النتيجة الصحيحة الصواب العدل . آن الأوان للخروج من ثقافة (أنت لا تفكر .. نحن نفكر عنك) و الدخول في ثقافة (على الجميع أن يفكر ، و على الجميع أن يتساءل) .

ثاني المطبات .. هو سمة التعميم و المظهر و الهروب من التفاصيل الأساس العميقة ، إلى التفاصيل القشور البسيطة ، يضاف إلى ذلك أيضاً ، ثقافة الشخصنة . ذلك كله يندرج في إطار السطحية الثقافية الفكرية . فعلى سبيل المثال ، إذا اختلفت أنت و شخص آخر ، بمنهج فكري أو ثقافي أو إيديولوجي يتمثل في جزئية بسيطة من كلية عمومية ، فإنه يخالفك من فوره بمنطق العمومية و الشمولية ، لا منطق الجزئية و الفروع ، ذلك من منطلق ادعاؤه الشمولية و العموم . فإذا اختلفت مثلاً مع رجل دين مسلم ، في جزئية من جزئيات مذهبه

الذي هو جزئية من طائفته التي هي بدورها جزئية من المنظومة الدينية الإسلامية، فإنه يخرجك على الفور ، من ربة الإسلام كله ، بعد أن يكفرك و يفسقك ، ذلك من مبدأ ادعائه الشمولية الإسلامية و احتكارها لنفسه .. تأتي إلى رجل سياسة أو شخص يتعاطى السياسة ، و تختلف معه أيضاً بجزئية صغيرة معينة ، من موقف أو مبدأ سياسي ، فيبادر من فوره إلى تخوينك و إخراجك من ربة الوطنية ، و إحالتك إلى حظيرة العمالة و التبعية للعدو . فلا يدعين أحد لنفسه ، الشمولية . فإذا كنا عاجزين عن حل الجزئيات المبسطة الصغيرة ، فكيف بالكليات المستفحلة الكبيرة !!!؟؟ .

كذلك أيضاً هنالك تشخيص للثقافة و الفكر ، حيث يتم اليوم شراء الكتب ، بناء على اسم الكاتب و شهرته التي ربما قد لا تكون حاملة لمعناها الحقيقي ، حتى أن بعض دور النشر ، تعتمد أحياناً إلى وضع صورة كبيرة لكاتب مشهور تملأ صفحة غلاف الكتاب ، كي تسوق الكتاب بشكل أكبر . و هي عملية من حيث المبدأ ، لا إشكال كبير يعتد به فيها . لكن أن تصبح حالة مستشرية و ظاهرة عامة متكررة ، فذلك ما يؤدي إلى خطر التميع الفكري الثقافي ، و تصبح القضية قضية مظهر أكثر مما هي مضمون ، و قبول فكري للمظهر من دون تدقيق في المضمون . و بنظرنا ، فإن الاتكاء كثيراً على ثقافة الصور الشهيرة و الوثوق فيها ، يؤدي فيما بعد إلى تمرير بعض الأمور دونما الانتباه لها . و يقابل ذلك أيضاً حالة التدقيق في شخص الكاتب و تنميقاته و تنسيق مخطوطه و أخطاؤه الإملائية ، أكثر من مناقشة الأفكار التي يطرحها و القضايا التي يعالجها . و لذلك أيها القارئ الكريم .. إذا رأيت في كتابنا هذا ، بعض من أخطاء نحوية و تنسيقية ، فذرهما و شأنها ، رحمننا الله و إياك ، لأن ههنا الأول في هذا الكتاب ، الفكرة و ليس النبرة .

المطلوب اليوم ، الابتعاد عن ثقافة المبادئ و القيم الوهمية السامية و الوطنية الطوباوية ، و الاهتمام بثقافة الواقع ، فما أحد بغافل عن المبادئ أو القيم العليا

و عن الأعراف الوطنية . و لكن لكل همومه و مشاكله اليومية ، و همومه الحياتية التي هي أولى الأمور اهتماماً و علاجاً ، و مناقشة و تحليلاً ، و تنميةً خطاياً و تحليلاً بلاغياً .

المطلوب اليوم من المنظومة السياسية الحاكمة ، الاهتمام النوعي و الكمي ، بالمتقف و المفكر ، لأنه ذخيرة المجتمع الحية و عتاده الفكري و هويته و باعته إلى الحضارة و العلم و التقدم . و المقصود هنا بالمتقف ، هو مثقف الحقيقة الحق ، و ليس المثقف الدعي الذي تنسبه لنفسها السلطة أو المذهب أو الحزب و يقولون .. هذا ولدنا . ليس مثقف الشعوب و الدجل ، و الذي هو أشد خطراً من أي مشعوذ و دجال آخر . فالاثنان يبيعان الوهم و الكذب للناس ، لكن الأخير هو أقل تأثيراً من الأول لناحية الكم . فالأول يضلل شرائح و جماعات بأكملها ، و هذا ما لا يستطيع فعله المشعوذ العادي . فالمشعوذ العادي ، يبيعك وهم يختص بك أنت ، و قد تكون أنت عارفاً فيه و بماهيته ، و بالمقابل ، يأخذ منك بضع دريهمات ثم ينصرف عنك ، و قد لا تراه بعد ذلك إلا نزرًا ، و من ثم تكتشف أن كلامه لا معنى له و لا طائل منه و أنه كان يكذب عليك ، فتعتبر ذلك نوع من التسلية ، فأنت قد تعرف في قرارة نفسك أن هذا مشعوذ .

أما المثقف المشعوذ ، فهو يسرق عقلك و يضللك ، لا على مستوى أمور تافهة سطحية شخصية تتعلق بشخصك فقط ، بل على مستوى جماعة و مجتمع ، و مستوى أمور و قضايا خطيرة تمس أمنك الوطني و الشخصي معاً ، و مستوى معيشتك ، بل و حتى وجودك في هذه الحياة ، فأية عمل هذا المشعوذ ، الضلال و التضليل .. فقط الضلال و التضليل و لا شيء غير ذلك ، فهو قد نشأ على ذلك و تربى في ذلك و استمر بذلك .

على من يسمون أنفسهم اليوم (!!!؟؟ نخب فكرية !!!؟؟) أن يتواضعوا و يتزلوا من أبراجهم العاجية ، إلى الأسواق و الشوارع .. أسواق هموم المواطن العربي ، و شوارع قضاياها و بالذات الأهم ، الاجتماعية منها و الاقتصادية ، لا السياسية

المخادعة . و عليهم أن يكفوا عن تمنين الناس ، ثقافتهم و مؤلفاتهم ، فهناك البعض ممن يمنن عليك بثقافته و فكره و طلامه .. بالله عليكم لا تمننوا علينا بثقافتكم و فكركم ، لأننا شعبنا و اكتفينا .. آن الأوان لاستبدال ثقافة المن^١ و السلوى ، بثقافة الخبز و الزيت .
و نهاية نقول .. لا تفسير لهذا العدم و الخواء الفكري عند العرب ، إلا بمقولة ..
فاقد الشيء لا يعطيه .

- انتهى -

^١ المن هنا ، هو نوع من أنواع العسل ، و يختلف عن التمنين الذي معناه ، التذكير الدائم بالجميل و المعروف .

المصادر و المراجع

- (١) — القرآن الكريم .
- (٢) — الكتاب المقدس .
- (٣) — صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري - دار ابن كثير - لبنان - بيروت - الطبعة الثالثة / ١٩٨٧ / م .
- (٤) — كثر العمال في سنن الأقوال و الأفعال - علي بن حسام تقي الدين الهندي - مؤسسة الرسالة - لبنان - بيروت - ط / ١٩٨٩ / م .
- (٥) — تاريخ سورية و لبنان و فلسطين - فيليب حتي - دار الثقافة - لبنان - بيروت .
- (٦) — كهان مصر القديمة - سيرج سونيرون - ترجمة زينب الكردي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط / ١٩٧٥ / م .
- (٧) — قصة الحضارة - ول ديورانت - مهرجان القراءة للجميع (سوزان مبارك) .
- (٨) — شريعة حمورابي - مجموعة من المؤلفين - ترجمة أسامة سراس - دار علاء الدين - سورية - دمشق - ط ٢ / ١٩٩٣ / م .
- (٩) — فجر الضمير - هنري برستد - ترجمة سليم حسن - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مهرجان القراءة للجميع - مكتبة الأسرة - مصر - الطبعة الأولى .
- (١٠) — أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام - بطرس البستاني - دار مارون عبود - لبنان بيروت - ط ٢ جديدة و منقحة .
- (١١) — أدباء العرب في الأعصر العباسية .. نفس المصدر السابق .

- (١٢) — تاريخ العرب القديم - أحمد مغنية - دار الصفوة - لبنان - بيروت
- الطبعة الأولى .
- (١٣) — أديان العرب في الجاهلية - محمد نعمان الجارم - مطبعة السعادة -
مصر - الطبعة الأولى / ١٩٢٣ / م .
- (١٤) — أيام العرب في الجاهلية - محمد أحمد جاد المولى بك ، علي محمد
البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم - منشورات المكتبة العصرية -
لبنان - بيروت .
- (١٥) — تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية و صدر الإسلام - إسرائيل
ولفستون (أبو ذؤيب) - لجنة التأليف و الترجمة و النشر - مصر -
طبعة / ١٩٢٧ / .
- (١٦) — الموسوعة الشعرية الالكترونية - المجمع الثقافي الوطني - الإصدار
الثاني عام / ٢٠٠١ / - الإمارات - أبو ظبي .
- (١٧) — المسيحية و العرب - د.نقولا زيادة - دار قدمس للنشر - سورية
- دمشق - الطبعة الثالثة / ٢٠٠١ / م .
- (١٨) — أديان العرب قبل الإسلام و وجهها الحضاري و الاجتماعي - الأب
جرجس داود - المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع - لبنان
- بيروت - الطبعة الأولى / ١٩٨٨ / م .
- (١٩) — السيرة النبوية - ابن هشام - مؤسسة المعارف للطباعة و النشر -
لبنان - بيروت - الطبعة الأولى / ٢٠٠٤ / م .
- (٢٠) — أساطير العرب عن الجاهلية و دلالاتها - د.محمد عجين - دار
الفارابي - لبنان - بيروت - الطبعة الأولى / ١٩٩٤ / م .

- (٢١) — الأغاني - أبو فرج الأصبهاني - مكتبة المصطفى الالكترونية - طبعة الكترونية واحدة كاملة دون أجزاء ، نوع pdf .
- (٢٢) — كتاب الأصنام - بن السائب الكلبي - تحقيق أحمد زكي باشا - دار الكتب المصرية - مصر - القاهرة - الطبعة الثالثة / ١٩٩٦ م .
- (٢٣) — السيرة النبوية - ابن اسحاق - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولى / ٢٠٠٤ م .
- (٢٤) — السيرة الحلبية - نور الدين الحلبي - نسخة الكترونية نوع pdf - مكتبة المصطفى الالكترونية .
- (٢٥) — الإمامة و السياسة - ابن قتيبة الدينوري - مؤسسة الوفاء - لبنان - بيروت - الطبعة الثالثة / ١٩٨١ م .
- (٢٦) — تاريخ الخلفاء - جلال الدين السيوطي - دار ابن حزم للطباعة النشر - لبنان - بيروت - الطبعة الأولى / ٢٠٠٣ م .
- (٢٧) — تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - دار صادر - لبنان - بيروت - الطبعة الأولى / ٢٠٠٣ م .
- (٢٨) — مروج الذهب - المسعودي - دار الفكر - لبنان - بيروت - الطبعة الخامسة / ١٩٧٣ م .
- (٢٩) — كتاب الحمل - الشيخ المفيد - المؤتمر العالمي للشيخ المفيد - إيران - قم / ١٤١٣ هـ .
- (٣٠) — كثر العمال في سنن الأقوال و الأفعال - علي بن حسام الدين المتقي الهندي - مؤسسة الرسالة - لبنان - بيروت - طبعة / ١٩٨٩ م .
- (٣١) — تاريخ يعقوبي - يعقوبي - نسخة الكترونية - موقع الوراق الالكتروني .

- (٣٢) — أبو ذر الغفاري - عبد الحميد جودة السحار - تقديم حسن البنا - الناشر مكتبة مصر - الفجالة - الطبعة العاشرة .
- (٣٣) — المستطرف في كل فن مستظرف - شهاب الدين أبي الفتح الأبيشيهي - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الثانية / ١٩٨٦ م .
- (٣٤) — محاسن التأويل - محمد جمال الدين القاسمي - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولى / ١٤١٨ هـ .
- (٣٥) — المستدرك على الصحيحين - محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى / ١٩٩٠ م .
- (٣٦) — كتاب الخراج - أبو يوسف الأنصاري - المكتبة الأزهرية للتراث - مصر - الطبعة الجديدة .
- (٣٧) — الصواعق المحرقة - ابن حجر الهيتمي - مؤسسة الرسالة - لبنان - بيروت - طبعة أولى / ١٩٩٧ م .
- (٣٨) — مجلة البيان - المنتدى الإسلامي - السعودية .
- (٣٩) — بحار الأنوار - محمد باقر المجلسي - مؤسسة الوفاء للنشر - لبنان - بيروت - طبعة / ١٤٠٤ هـ .
- (٤٠) — الإمام مالك - محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي - مصر - طبعة / ١٩٥٢ م .
- (٤١) — حياة نابليون - حسن جلال - سلسلة المعارف العامة - لجنة التأليف و الترجمة و النشر - مصر - القاهرة - طبعة قديمة .

- (٤٢) — تاريخ الفكر المصري الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل
- لويس عوض - مكتبة مدبولي - مصر - القاهرة - الطبعة الرابعة /
١٩٨٧ / م .
- (٤٣) — وصف مصر - تأليف علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب
- صندوق التنمية الثقافية - مصر - طبعة قديمة .
- (٤٤) — المختار من تاريخ الجبرتي - اختيار محمد قنديل البقلي - دار الشعب
- مصر - الطبعة الثانية / ١٩٩٣ / م .
- (٤٥) — محمد علي و أولاده - جمال بدوي - مكتبة الأسرة - مهرجان
القراءة للجميع / ١٩٩٩ / م .
- (٤٦) — أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث - صلاح زكي
أحمد - مركز الحضارة العربية - مصر - القاهرة - الطبعة الأولى /
٢٠٠١ / م .
- (٤٧) — جمال الدين الأفغاني - سلسلة الأعمال المجهولة - د.علي شلش -
دار رياض الريس للكتب و النشر - بريطانيا - لندن - الطبعة الأولى /
٢٠٠١ / م .
- (٤٨) — جمال الدين الأفغاني بين دارسيه - د. علي شلش - دار الشروق -
القاهرة - بيروت - لندن - الطبعة الأولى / ١٩٨٧ / م .
- (٤٩) — قاسم أمين (الأعمال الكاملة) - د. محمد عمارة - دار الشروق
- مصر - القاهرة - الطبعة الثانية .
- (٥٠) — تخلص الإبريز في تخلص باريز - رفاة رافع الطهطاوي - الهيئة
المصرية العامة للكتاب - طبعة / ١٩٩٣ / م .

- ٥١) — العروة الوثقى - السيد جمال الرين الأفغاني و الشيخ محمد عبده -
تقديم سيد هادي خسرو - مكتبة الشروق الدولية - مصر - القاهرة -
الطبعة الأولى / ٢٠٠٢ / م .
- ٥٢) — طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد - عبد الرحمن الكواكبي - دار
النفايس للطباعة و النشر و التوزيع - لبنان - بيروت - الطبعة الثالثة /
٢٠٠٦ / م .
- ٥٣) — الصحافة المصرية في مائة عام - د. عبد اللطيف أحمد حمزة - وزارة
الثقافة و الإرشاد القومي - الإدارة العامة للثقافة - الجمهورية العربية
المتحدة - الإقليمي الجنوبي - دار القلم .
- ٥٤) — الموساد اغتيال زعماء و علماء - حمادة إمام - دار كنوز للنشر و
التوزيع - موقع مكتبتنا الالكتروني .

نزار يوسف كاتب و باحث من سورية صدرت له المؤلفات التالية :

- الزمن العربي الرديء (دراسة و بحث) .
— الحكمة بين الإله و السلطان (دراسة و بحث) .
— الوصاية الفكرية (دراسة و بحث) .
— من وحي الواقع (مجموعة مقالات) .
— أنا و الملاك (رواية) .